

الدكتور  
أحمد محمد الجويني  
أستاذ الأدب العربي  
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

# المِراةُ في الشَّعرِ الجاهليِّ

الطبعة الثانية

معدلة ومزودة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

— ١ —

فكرة خايلت لى منذ درّست الأدب ودرّسته ، وما زالت تخايل لى ، وقد استجبت لها بكتائين : أولهما ( الحياة العربية من الشعر الجاهلى ) ، وثانيهما ( الغزل فى العصر الجاهلى ) ، ويسعدنى أن أستجيب لها بهذا الكتاب الثالث<sup>(١)</sup>.

أما هذه الفكرة التى سيطرت على نفسى فهى أن درس الأدب لا يشوق ولا يشمر ، ما لم يندمج دارسوه بقائله اندماجاً يتيح لهم أن يتعرفوا ينابيع هذا الفيض العاطفى ، وبواعثه ، ويثبته التى استوحاها ، وأن يستمدوا من هذا الأدب ألواناً لتصوير الحياة فى شتى مناحيها ، ويبتدوا بالحياة فى الكشف عما يخفى من معانى الأدب وبواعثها ومراميها ؛ لأن الأدب والحياة يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتقارضان الأخذ والعطاء ، فى الأدب مظاهر من عصره ، وفى العصر ملامح من أدبه .

وقد شاء لى الحظ أن يكون الشعر الجاهلى من مجال دراستى هذه ، فشعرت بالرضا ، لأننى أدرس هذا الشعر المنسجم بالأصالة والصدق والحيوية والتجاوب مع بيئته وعصره ، ولأننى شاركت فى إبراز معالمه ، والتنويه بقيمته ، ثم لأننى تمثلت منه جوانب شتى من حياة العرب فى الجاهلية .

ولست أدعى أن هذه الأفكار قد تبلّجت لى على حين فجأة ، أو تمثلت لى

---

(١) ثم كانت محاولة رابعة بعد ( المرأة فى الشعر الجاهلى ) هى أغاني الطبيعة فى الشعر الجاهلى .



دفعة ، فلقد انبثق أمامي أول شعاع من الفكرة حين شرعت أستنبط من الشعر الجاهلي ما يتصل بحياة العرب في الاجتماع والأخلاق والدين والعادات في كتابي ( الحياة العربية من الشعر الجاهلي ) . حينئذ ازددت يقيناً بقيمة الشعر في دراسة العصر الجاهلي ، وبوثاقة الروابط بينه وبين الحياة العربية . فلما درست الغزل في العصر الجاهلي تفتحت لي ميادين أخرى للبحث والاستنباط ، والاعتداد بالشعر الجاهلي ، والاعتماد عليه في تمثيل الاجتماع العربي في صورته المختلفة .

## — ٢ —

ثم حفزتنى تلك الدراسات إلى أن أستنير بالشعر الجاهلي في تجلية هذه المشكلات :

١ — أردت أن أعرف من الشعر مكانة المرأة في الأسرة ، وفي القبيلة ، وفي المجتمع العربي ، والصور التي رسمها لها في هذه البيئة في السلم ، وفي الحرب ، وماذا كان لها في الحياة العربية من أثر ؟ أكان أثرها عظيماً قوياً أم ضعيفاً خافتاً ، أم لم يكن لها أثر ؟ أكانت تعامل معاملة الرقيق ؟ أم كانت علياً القدر ، ذات رأي ومكان مرموق ؟

٢ — وقصدت إلى أن أشير غَوَرَ هذا الشعر في تصويره حياة المرأة ، فأعرف قيمة الصور التي رسمها ، أهى صور صادقة تتفق ونظم الحياة البدوية ، والمعالم التاريخية ؟ أم هي صور تتجافى نظم البادية ، وحقائق التاريخ الصحيح ؟

٣ — ثم أردت أن أسترفد هذا الشعر لجلاء منزلة العرب في الحضارة القديمة — من حيث ما يتصل بمنزلة المرأة في الأسرة والقبيلة والمجتمع — فكثيراً ما تناقض الباحثون في هذه المسألة ، بعضهم يسمونها ، وبعضهم يهبط ، بعضهم يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام في يقظة ووعي وتطور ناهض ، فلما جاء الإسلام سار بهم إلى نهاية الشوط ، وبعضهم يذهب إلى أنهم كانوا شعباً همجياً في الدرك الأسفل من نظمه وعقائده وعاداته وأخلاقه ، فبزغ الإسلام عليهم

بزوغ الشمس بعد ليل طويل غاسق ، فهداهم إلى الحق الذى جهلوه ، وإلى الخير الذى تنكبوه ، وقرر لهم نظاما أسرية واجتماعية لم يكن لهم بها عهد .  
 ٤ — ومشكلة أخرى تخاليل لى أيضا ، أريد أن أعرف مقدرة المرأة على قرض الشعر فى العصر الجاهلى ، ومنزلتها من شعراء عصرها ، وإلى أى مدى حاققت بجناحيها فى سماء هذا الفن الرفيع ؟ وهل كانت لشعرها خصائص تميزه من شعر الرجال ؟ أو أن شعرها كان صورة من شعرهم ؟

### — ٣ —

١ — سلكت السبيل إلى غايتى منتقبا فى أشات المراجع مخطوطة ومطبوعة من دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والسير ، والاجتماع ، واللغة ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، والمذاهب .  
 ذلك بأنه لم يفرد للمرأة أو للأسرة أو للقبيلة دراسة خاصة أو شبيهه بالخاصة فى العصر الجاهلى . بل إن هذا العصر — من الوجهة التاريخية — ما زال يكتنفه غموض واضطراب ، ونقص فى المصادر والمراجع ، والذين كتبوا عن العرب من القدماء مثل آخيلس Aeschylus ( ٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م ) وهيرودوت ( ٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م ) وتيوفراست Theophrastus ( حوالى ٣٧١ - ٢٨٧ ق . م ) وديودور الصقلى Diodorus Siculus ( ٤٠ ق . م ) وسترابون Strabon ( ٦٤ ق . م - ١٩ م ) ، ومن النصارى مثل اسبيوس Ousebius ( ٢٦٥ - ٣٤٠ م ) وزكريا ( المتوفى ٥٦٨ م ) ومالالا Malalas ( المتوفى ٥٧٨ م ) ومن المسلمين كابن هشام والطبرى والمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير والبلاذرى واليعقوبى وابن خلدون ، هؤلاء وأولئك لم يعرضوا الحياة العامة ، ولم يدرسوا أحوال المجتمعات .

وليس هذا بعجب ، إذ كان ذلك منزع المؤرخين جميعا ، يعنون بالملوك والقادة والوقائع والثورات والفتوح ، ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات

والأخلاق والنظم ، ومن البديهي أننا لا ننظر يبحث عن المرأة أفردة لها أى واحد من هؤلاء ، وبذلك حرمت المرأة الجاهلية ما نالته المرأة المسلمة من حفاوة ، إذ غنى بها كثير من المؤرخين والكتّاب ، وأفرد بعضهم لها مجالا رحباً فيما كتب ، كابن حجر فى كتاب الإصابة ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن قيم الجوزية فى أخبار النساء ، وابن طيفور فى بلاغات النساء .

فقت فى آثار العرب ، واستخبرت ما خلفوا من شعر ، وما كتب عنهم وعن غيرهم ، متجرداً من آراء سابقة فى بعضها حيف ، وفى بعضها إنصاف ، لأسمع القول من الألسنة الأولى وأتبصره ، وأتمثل منه الحقيقة التى يمكن أن تتمثل .

٢ — وكان الشعر ينبوع الأول الذى استقيت منه ، لأنه فى الشعب العربى كالآثار المادية ، والآثار المدونة ، فى مصر واليونان وغيرهما من الأمم التى خلفت أبنية ونقوشاً ، وخطوطاً وآثاراً وتاريخاً مدوناً « وليس فى الأرض أمة بها طرُق — قوة — أولها مُسككة ، ولا جيل لم قبض ولا بسط إلا ولهم خط ، وكل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المتقى ، وكان ذلك هو ديوانها .. .. وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان <sup>(١)</sup> »

٣ — ولقد يعترضنا هذا السؤال : أليس هذا ينبوع الذى نستقى منه عرضة للكدر واحتمال أخلاط من غيره ؟

بلى . وقد سبق إلى التنبيه على ذلك القدماء كابن سلام وابن هشام وأبى الفرج ، ثم كان لهذا دوى فى مصر منذ ربع قرن ، ولكن التنبيه القديم والدوى

(١) الحيوان للجاحظ ٢/١ تحقيق هارون .

الحديث يلتقيان عند هدف واحد لاخلاف عليه هو أن قليلا من هذا الشعر منتحل أو منحول<sup>(١)</sup>، ثم يفترقان إذ يطمئن القدماء إلى أن الكثرة الغالبة صحيحة، ويغالى بعض المحدثين فينفي عن الكثرة هذه الصحة.

(١) وأرى أن الحق مع القدماء، وأن هذا القليل قطرات في جدول يزخر بالماء الأصيل الصحيح المصفى، فهي لا تمكره ولا تغيره، ولا تطنى على طبعه وخصائصه. فمن حقنا إذاً ألا نتشكك في الشعر الجاهلي كله؛ لأن شأن الشعر في هذا شأن التاريخ، كلاهما يتطرق إليه الكذب والمبالغة، ولقد يكون التاريخ أيسر منالاً للروايات المدخولة، والآراء المنحولة؛ لأنه تسجيل فرد أو أفراد، فهو أدنى إلى أن يميل مع الهوى والعاطفة، لذلك تختلف فيه الآراء، وتتناقض. أما الشعر فهو تسجيل آلاف من الشعراء، من قبائل شتى، ومن مواطن عدة، في زمن طويل، لذلك أرى أنه أرحب مجالاً لاستنباط الحقائق من سجلات متنوعة، خلفها الشعراء الذين عبروا عن عواطفهم صادقين، وصوروا حياتهم العامة غير قاصدين ولا كاذبين، وتناولوا عفواً ما أهمل التاريخ من نظم الاجتماع في ذلك العصر البعيد.

فلم أعتمد إلا على ما وثقت بصحته من شعر، مهتديا بقيمة المصادر، ومهتديا بنجاستى الفنية، وبملاءمة الشعر للحياة البدوية الجاهلية.

(ب) ثم إن الموضوع الذى أدرسه بمنجاة من النحل ومن الوضع؛ لأنه مستمد من أبيات ذكرها الشعراء في قصائدهم عرضاً لا قصداً، في مطالع القصائد أو في خلالها، مقتخرين أو هاجين، أو واصفين، أو راثين، أو مادحين، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يعمد إلى تصوير مقصود لحياة النساء ومنزلتهن، وإنما جرى مع فطرته في إيراد المعانى، وتصور ما يشعر به.

(١) عرضت لهذا الموضوع بالتفصيل في الطبعة الرابعة من كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي.

أما الوضع فإنه يتطرق إلى ضروب آخر من الشعر ، يتطرق إلى الشعر الذى يؤازر السياسة والحزبية والعصبية ، ويتسلل إلى الشعر الذى تحلى به القصص والأسمار ، ويتعرض له الشعر الذى يناصر نزعة شعوبية ، أو ياجىء إليه التباهى بالحفظ والتكاثر بالرواية ، أو الحجاج على مسألة فى اللغة أو النحو ، أو ما شاكل ذلك من فنون المقال .

( ح ) وشئ آخر أستوثق به من هذا الشعر الذى أستقى منه ، أقصد إجماع جبهة من الشعراء على حقيقة ما ، كحديثهم مثلاً عن عزازة الأم ، أو حماية المرأة من السبي ، أو محبة البنات ، وبغضة البنات ، أو سفور المرأة ، وحجابها ، أو ما شاكل ذلك مما يتفقون فيه جميعاً على رأى واحد ، أو ينقسمون فيه إلى فريقين . فليس من الطبيعى أن يكون هذا الشعر الذى يصور لونا من ألوان الحياة مكذوباً ، أو منحولاً كله ، إذ لو كان كذلك لبرز فيه التناقض والخلط والمجافاة لما تمليه البيئة بساطتها العام .

( د ) ولست أنسى أن الشعر مجال للخيال والمبالغة ؛ لأن طريقته فى التصوير كثيراً ما تقتضى ذلك ، فهو إذاً ليس تصويراً دقيقاً للواقع . لكننى لا أنسى أيضاً أن الخيال فى هذا الشعر ضيق المجال ، لا يعمدو التشبيه والاستعارة والكناية ، ونحن فى دراستنا نعرف ماذا يريد الشاعر إذا شبه أو استعار أو كنى . أما المبالغة فهى نادرة فيما خلف شعراء الجاهلية ، وهى لا تفهم على صورتها اللفظية فى أى عصر من الأعصار .

( هـ ) كذلك أعلم أن من خصائص الشعر الإيجاز والإدماج واللمح ، وألا يحفل بالتفصيل ، أو يحنح إلى الإطناب . لذلك استقيت أيضاً من التاريخ والحضارة والاجتماع وغيرها ، لأجل العصور ، وأكمل خطوطها ، وأوضح ألوانها ، وأفضل ما أدمج الشعر وأجمل .

٤ — على أنى فى دراسة الشعر الجاهلى — وزمانه لا يتجاوز قرنين قبل



الإسلام ، ومكانه جزيرة العرب - لم أغفل حياة العرب في مطلع الإسلام ، فاستمددت من شعر الحضرمين ما يجرى في طلق واحد مع شعر الجاهليين ، مرجحاً أنه من نتاجهم قبل أن يسموا ، أو من نتاجهم بعد أن أسلموا ، وقبل أن يصبغهم الدين بصبغته .

وكذلك استقيت من حياة النساء الحضرمات ما يتفق وحياة الجاهليات . وأراني على حق في هذا ؛ لأن حياة الشعراء وغيرهم في مشرق الإسلام امتداد لحياتهم قبل إشراقه ، إذ لم يكن الإسلام قد رست قواعده ، ولم تكن قد كملت تعاليمه ، ولم تسكن النفوس كلها قد أشربته إشرباً ينسخ حياتها الأولى . وهل من المعقول أن ينقلب العرب بين عشية وضحاها من حياة إلى حياة ؟ وهل من الطبيعي أن ينسى الشاعر على إثر إسلامه ما استقر في نفسه من عادات وأخلاق وأوضاع ؟

إنما الطبيعي أن يمضى زمن على العقيدة الجديدة ، لتظهر آثارها في قصائد الشعراء ، وفي أخلاق الناس .

٥ - ورأيت أن تجلية مكانة المرأة في الجاهلية لا تتضح إلا بموازنتها بينها وبين معاصراتها ، والسوابق لها من نساء العالم القديم ، في الأمم والحضارات التي اتصل العرب بها ؛ لأعرف قيمة المرأة العربية بالقياس إلى هؤلاء . كذلك قايست المرأة الجاهلية بالمسلمة ، لأتبين قيمة المرأة قبل الإسلام بالنسبة إلى قيمتها بعد الإسلام ، إذ أستبين ما أحدث الإسلام في النظم الجاهلية المتصلة بالمرأة من تجديد أو تأييد ، ومن تغيير أو إبطال ، ولأخلص من هذه المقايسة إلى تمثل مكاتها في الجاهلية تمثلاً صحيحاً مستمداً من عصرها ، ومستمداً من المشابهة بينها وبين أختها المسلمة فيما بعد .

وقد بدأت يبحث تمهيدى جلوت فيه صلات العرب بغيرهم من المعاصرين .

لهم ، ووضعت مكانة المرأة عندهم ، لأوازن بينها وبين المرأة العربية موازنة جزئية في غضون البحث ، ثم موازنة عامة في مكان خاص .

فليس من شك اليوم في أن عزلة العرب قبل الإسلام ، وجهلهم بالعالم الخارجى ، وجهالة العالم الخارجى بهم ، حتى إنهم لم يؤثروا فيه ، ولم يتأثروا به ، ليس من شك في أن هذه دعوى باطلة . وسنرى وسائل اتصالهم بالأمم التي عاصرتهم ، ومظاهر هذا الاتصال ، وبعض معالم التأثير والتأثر ، وخاصة ما يتصل بالمعتقدات والنظم الأسرية .

ثم قسمت الكتاب ثلاثة أبواب : تحدثت في فصول الباب الأول عن المرأة في الحياة الأسرية : أمما ، وزوجة ، وبناتا ، وأختا ، وقرية ، وتحدثت عن حقوقها المالية .

وفي فصول الباب الثانى درست أحوال المرأة في الحياة العامة : درست أخلاقها ، وسفورها ، وحجابها ، وصناعاتها ، وأعمالها ، وثقافتها ، وعملها في الحرب ، وتحدثت عن السبايا ، والإماء .

أما الباب الثالث وهو المرأة في الحياة الفنية ، فقد عقدت له ثلاثة فصول : تحدثت في الفصل الأول عن المرأة المغنية ، وفي الثانى عن المرأة راوية للشعر وناقدة ، وفي الثالث عن المرأة الشاعرة .

— ٥ —

وبعد . .

فالموضوع - فيما أعلم - غير مطروق بهذا النهج ، والمراجع التي ترفد دارسه من قريب أو من بعيد ليست معينة محددة ، والمعلوم منها غير مفهرس ، وغير مرتب ، وكثير منها مخطوط ، بعضه بالى الورق ، مغلق الخط . لهذا كنت أستعرض كل ما يمكن أن تصل إليه يدي من مراجع ومطان ، لأفكش بها عن فكرة أو عن شعر .

وكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها ، لأجتنى منها ثمرة لا تسكافى .  
 بعض ما بذلت ، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب ، أجوس خلالها ،  
 وأجوب ما بين ضفافها في يقظة وأيد ، ولكن لم يعلق منها بشبا كي صيد .

لكن المشتات التي كانت تعترضني في الإعداد ، والصعوبات التي احتملتها  
 في التنقيب والتنقيب ، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث ، فيصبر  
 ويصابر ، ويدأب ويثابر ، ليخط في سجل المعرفة سطرًا ، يلبي به رغبة ، أو  
 يقضى به حقًا ، أو ينال به ذكرًا .

أحمد محمد الحوفي

الناصرة } ذو القعدة ١٣٨٢  
 إبريل ١٩٦٣



# تمهيد

صلوات القرب بالأمم والمحضرات ومكانة المرأة فيها



لم يكن العرب في العصر الجاهلي — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — يعيشون بجزيرتهم في عزلة عن العالم ، ونجوة عن الشعوب واصطراعها ، ونجوة عن تيارات الحضارات ، وإنما اتصل العرب بالأمم المجاورة ، وغير المجاورة ، وشاركوا في الصراع السياسي الدائر بين الأمم المعاصرة بقدر اتصالهم به ، واتصالهم بالمصطارعين ، وعرفوا العالم القديم ، وعرفهم ، بل إن بلادهم على جذبها ، ووعورة المسالك إليها ، كانت مُهاجر كثير من الشعوب ، فقد نزع إليها من الشام ومصر والعراق فارثون من ظلم أو ضغط ، أو ممتنعون على الحكومات لسبب ما ، وكان أكثر النازحين عدداً اليهود ، لكثرة ما قاسوا الاضطهاد منذ خروجهم من مصر ، إلى أن اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره . وهاجر إليها كثير من اليونان والرومان والفرس والهنود والحبش<sup>(١)</sup> . لذلك لم يكن سكان جزيرة العرب كلهم عرباً ، بل كان يختلط بالعرب هؤلاء النازحون ، وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالي والحلفاء من أمم وأديان شتى ، فيهم الفارسي ، والهندي ، والروماني ، والكلداني ، وفيهم اليهودي ، والنصراني ، وكان هؤلاء يتوالدون ، وتختلط ذراتهم بالعرب ، ويضيع نسبهم ، كالكلدان والسريان ، وبعضهم كان يحالف العرب وينتمي إليهم كـ بعض اليهود والنصارى ، وآخرون كانوا ينخرطون في عداد العبيد ، ويحملون ألقاب سادتهم كالحبش ، والفرس ، والهنود . فهم جميعاً إما عرب ، وإما مستعربون ، إلا بعض اليهود وبعض النصارى من الروم ، وبعض الفرس الذين يعرفون بالأبناء<sup>(٢)</sup> .

وكانت بلاد الشام والعراق أيضاً حافلة بأشتات من الأمم ، فقد ظهر الإسلام ، وبها بقايا من الآراميين الأصليين من سريان ويهود وسامريين ، وبها أنباط ، وعرب من المناذرة والفسانة وإياد وربيعة ، وأشتات من أمم

(١) التمدن الإسلامي ١٧/٥ .

(٢) الأغاني ١٦/٥٣ .

أخرى كالجرامة والجرامة ، وأخلاق من مولدى اليونان والرومان والفرس والأكراد ، وبها أديان شتى<sup>(١)</sup> . وطبيعى أن يكون لهذا الاتصال أثره فى الحياة العربية ، فإن من الحقائق الثابتة اليوم أن علاقات الأمم من أكبر العوامل فى رقيها ، وليس بمستطاع أن نوضح تقدم الشعوب أو تأخرها اعتماداً على المميزات الجنسية ، والمعتقدات الدينية ، وتأثير البيئة فى السكان فحسب ، بل بموقعها الجغرافى أيضاً الذى يَسِّرُ لها العلائق بشعوب أخرى فى عصور مختلفة<sup>(٢)</sup> .

وسأفصل فى الفقرات التالية أسباب الاتصال بين العرب والأمم التى عاصرتهم ، والحضارات التى أظلت العالم فى عهدهم ، وأبين بعض السمات الدالة على تأثير العرب بغيرهم ، وأتعرف مكانة المرأة فى نظر هذه الأمم والحضارات ، ثم أجمل ذلك أساساً للموازنة بين المرأة العربية وغيرها .

---

(١) Literary History of Persia . . . Browne P. 154 .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد ٧ .

( ٢ المرأة فى الشعر الجاهلى )

# صلة العرب باليهود

## مقدم اليهود إلى الحجاز

وفد اليهود إلى الحجاز منذ عهد بعيد ، ولم يتفق المؤرخون على تحديد أول هجرة من هجراتهم إلى هناك ، وإن كانوا جميعا على أن هذه الهجرات بدأت في عهد مبكر .

وإذا ما استقينا من التاريخ الوثيق لليهود وجدناهم يُضطَهِدُونَ مرات ، ويُسامون الخسْف في فلسطين ، فيلوذ بعضهم بالبلاد القريبة ، ويحق لنا أن نستنبط من هذا القرار المتكرر أن بعضهم لجأ إلى الحجاز . فقد حمل عليهم الملك الأشوري شامناسر سنة ٨٥٤ ق . م <sup>(١)</sup> والملك سنحاريب سنة ٧٠٢ ق . م <sup>(٢)</sup> ، والملك بختنصر ( نبوخذ نصر ) سنة ٥٧ ق . م <sup>(٣)</sup> وانقضَّ عليهم الكلدان سنة ٥٨٦ ق . م <sup>(٤)</sup> ، ثم أنتيوخوس والى مصر سنة ١٦٨ ق . م <sup>(٥)</sup> ، ثم الإمبراطور الروماني بومبي سنة ٦٤ ق . م <sup>(٦)</sup> ، والإمبراطور الروماني تيطس سنة ٧٠ م <sup>(٧)</sup> ، وهادريان سنة ١٣٤ م <sup>(٨)</sup> .

---

(١) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ٤٨ يوسف غنيمه وتاريخ العرب ١/٤٥  
فليب حتى (٢) نزهة المشتاق ٤٩ .

(٣) تاريخ اليهود للسامري ٦٥ ونزهة المشتاق ٥٠ . (٤) نزهة المشتاق ٥٢ .

(٥) تاريخ يوسفوس اليهودي ٥٣ والعقد الأنفس في ملخص التاريخ المقدس ١١٦  
ترجمة تادرس وهي .

(٦) L.Histoire des Arabs. De Perceval. 1-PP. 642-645 . And  
A Literary History of The Arabs. Nicholson P . 137 .

(٧) تاريخ يوسفوس اليهودي ٢٥٣ - ٣١٣ و History of The Arabs.  
Hitti. P. 62 .

(٨) الدعوة إلى الإسلام ٢٩ توماس أرنولد و Encyclopedia Britanica art  
Hadrian.

ومن الراجح أنهم نزحوا إلى الحجاز في بعض هذه النكبات ، وإن كان نزوحهم ثابتاً لما هدم تختنصر بيت المقدس ، وأجلى من أجل ، وسبى من سبى من بنى إسرائيل ، ففر قوم منهم إلى الحجاز ، ونزلوا وادى القرى ويثرب وتيما<sup>(١)</sup> . ثم لحق بهؤلاء إخوان لهم فراراً من بومبي ، ومن تيطس ، ومن هادريان .

والحقيقة أن جموعاً من اليهود المضطهدين كانوا كلما حَزَبَهُمُ الأمرُ نَحَثُوا لهم عن ملجأ ، وكان هذا الملجأ هو الحجاز<sup>(٢)</sup> . ومن المحتمل أن الأنباط حين غزوا فلسطين أسروا كثيراً من اليهود ، وأن هؤلاء الأسرى وغيرهم يمموا شطر الجنوب موغلين<sup>(٣)</sup> .

على أن عددهم بالحجاز قبل الميلاد بقرن كان ضئيلاً ، لأن جريزل Grayzel نشر خريطة دقيقة لمواطن اليهود في العالم القديم في القرن الأول من الميلاد ، وسجل فيها عددهم في كل مواطن ، وليس بها إشارة إلى يهود بالحجاز أو باليمن<sup>(٤)</sup> .

وفي الحجاز أقام اليهود ، وبنوا الحصون ، وثمروا الأموال ، وزرعوا الأرض<sup>(٥)</sup> ، وبتطاؤل الزمان صارت لهم في الحجاز مستعمرات عدة ، منها خيبر ، وفدك ، ووادي القرى ، وتيما ، ومقنا<sup>(٦)</sup> . وكانت قرى كثيرة شمالي يثرب آهلة باليهود ، وهى والمستعمرات اليهودية تصور مبلغ كثرتهم وانتشارهم بالحجاز<sup>(٧)</sup> .

(١) تاريخ الطبرى ٢٨١/١ وفتوح البلدان للبلاذرى ٢١ - ٢٣ .

De Perceval P. 642

(٢)

A History of the Jews. Grayzel. P. 244

(٣)

(٤) المرجع السابق ١٣٨ .

(٥) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودى ٧٩ ونشر الخاسن اليمانية ١٦ مخطوط

والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧ / ٦٠ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٩ و ٣٦ و ٤١ و ٤٢ و ٦٦ .

(٧) تاريخ اليهود في بلاد العرب . لإسرائيل ولفنسون ١٤ .

## اختلط بهم بالعرب :

كثرت اليهود بالحجاز ، واختلطوا بالعرب ، لأن الأوس والخزرج حين نزلوا يثرب وجدوا بها عدة قبائل من بني إسرائيل ، هم بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو نمقر ، وبنو زغورا ، وبنو قينقاع ، وبنو زيد ، وبنو المضير ، وبنو قريظة ، وبنو بحدل ، وبنو عوف ، وبنو الفضيص ، وهم جميعا من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود<sup>(١)</sup> . وكان هنالك أيضا بنو صخم ، وبنو ماسكة ، وبنو القنعة ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو زهرة ، وبنو زبالة ، وبنو ناغضة ، وبنو عكوة ، وبنو مزابة<sup>(٢)</sup> ، حتى لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت أطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين<sup>(٣)</sup> .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنو الحرماز - حتى من اليمن - وبنو مرثد - حتى من بلي - وبنو نيف - من بلي - وبنو معاوية - من بني سليم - وبنو الشظية - من غسان<sup>(٤)</sup> - ، وبنو مريد ( مزيد ) - من بلي - وبنو الجذمي ( الجذماء ) - من اليمن<sup>(٥)</sup> .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود في قراهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود<sup>(٦)</sup> .

وقضى الأوس والخزرج ردحا من الزمن في ضيق ، لأن الخيرات كانت في قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمنا طويلا<sup>(٧)</sup> ، حتى قدم أبو جُبَيْلَةَ الغساني إلى يثرب فآزر الأوس والخزرج ، وأفنى كثيرا من اليهود ،

(١) معجم البلدان ٧ / ٤٢٨ : والأغاني ١٩ / ٩٥ .

(٢) الأعلام النفيسة ٧ / ٦٢ .

(٣) خلاصة الوفا ٧٦ .

(٤) الأغاني ١٩ / ٩٥ (٥) الأعلام النفيسة ٧ / ٦٢ وخلاصة الوفا ٧٩ .

(٦) خلاصة الوفا ٨٢ (٧) الأغاني ١٩ / ٩٦ والأعلام النفيسة ٧ / ٦٣ .



فقالت سارة القرظية في رثائهم :

بنفسى أمة لم تُفَن شَيْئاً      بذى حُرْمٍ تُعَفِّيهَا الرِّيحُ  
كهولٌ من قرِظَةٍ أَتَانَتْهَا      سيوفُ الخَزْجِيَّةِ والرِّمَاحِ  
رَزْنًا والرِّزِيَّةِ ذاتِ ثَقُلٍ      يَمُرُّ لِأَهْلِهَا الْمَاءُ الْقِرَاحُ  
ولو أَرَبُوا بِأَمْرِهِمْ لَجَلَّتْ      هنالك دُونَهُمْ جَاوَى رَدَّاحِ<sup>(١)</sup>

وقد أشاد الشعراء بأبي جبيلة ، واقتخروا به<sup>(٢)</sup> ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى الشام ، واندمج في الغساسنة ، فمن الطبيعي أن يستجيب لفصرة قومه<sup>(٣)</sup> .

ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه في يومهم وكنائسهم ، قتال في ذلك :

نَحْنُ الْيَهُودُ بَتْلَعَانِهَا      نَحْنُ الْحَمِيرُ بِأَبْوَالِهَا  
فَمَاذَا عَلَيَّ بَأَن يَعَانُوا      وَتَأْتِي الْمَنَايَا بِإِذْلَالِهَا

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون ، بل يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ؛ لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم<sup>(٤)</sup> .

ويذهب المؤرخ جريتز Greatz إلى أن بطون الأوس والخزرج لم تكاشف اليهود بالعداء إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليم ، لأنه لا يتصور أن يضطهد اليهود في الحجاز في العصر الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على

(١) الأغاني ١٩ / ٩٦ والبدء والتاريخ للعقدسى ج ٣ والروى الأنف ٢ / ٢٤ ومجمع البلدان ٧ / ٤٢٨ وخلاصة الوفا ٧٩ - ٨٠ .

(٢) الأغاني ١٩ / ٩٦ و ٩٧ .

(٣) De Perceval 1. P.650

(٤) الأغاني ١٩ / ٩٧ .

اليمين ، ويتعصبون لدينهم ، ويناهضون كل من يعارضهم أو يعتدى عليهم<sup>(١)</sup> . وأضيف إلى هذا سببا آخر هو أن الأوس والخزرج قد تسكثروا ، ونبتت منهم فروع عدة ، فتطلعوا إلى تملك الأرض التي يملكها اليهود ، ونفسوا عليهم أن يستأثروا بخيرات يثرب وغيرها ، وأن يكون لهم السلطان المالى على العرب ، فاتمهزوا سقوط دولة اليهود في اليمين فرصة يتحلقون فيها من نفوذ يهود الحجاز ، فكان لهم ما أرادوا .

وإذا فلم يكن بين العرب واليهود حائل يمنع الاختلاط ؛ « فإن قبائل عربية يمنية قد شرعت تنتشر في الحجاز بين الجاليات اليهودية »<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان يدعو إلى الاتصال أيضا أن اليهود أهل مهارة في الصناعة ، وبراعة في تشجير المال ، فلم يكن للعرب بد من أن يعاملوهم ، فثلا كان بنو قينقاع صاغة بالمدينة<sup>(٣)</sup> ، وكانت لهم سوق عظيمة ذات ضجيج ، حتى لقد كفرت من ضجتها ناقة النابغة الذبياني<sup>(٤)</sup> ، وكان آل أبي الحقيق مهرة في صناعة الحلبي نخير ، والعرب يقصدونهم ليشترؤا لنسائمهم من حلبيهم<sup>(٥)</sup> .

ثم إن تجار العرب كانوا يقدون إلى الأسواق اليهودية في شمالي الحجاز ليلتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم ، وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم في أسواق العرب . وكان العرب يمرون بمستعمراتهم على طريق القوافل بين الحجاز واليمن ، وبين الحجاز والشام ، « فينتج من التعاون الاقتصادي ، والاختلاط الاجتماعى تبادل في الآراء ، وجدال في الديانات »<sup>(٦)</sup> .

على أن الاختلاط كان يتخذ مظهراً أقوى في تحالف بعض العرب مع اليهود ضد إخوانهم العرب ، فالأوس تحالف قريظة ضد الخزرج ، والنبيت

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٦١ و Greatz V. 3. P 91

(٢) De Perceval. P. 646 (٣) المغازى للوائدى ١٨٠

(٤) الأغاني ٢١ / ٦٢ (٥) المغازى ٢٧٧

(٦) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٤ .

تذهب إلى خير تختبئ يهودها ، فتعيدها الخزرج وتفتخر عليها<sup>(١)</sup> ، وبنو النضير يحالفون بني عامر<sup>(٢)</sup> ، وبنو قينقاع حلفاء لعبادة بن الصامت ، ولعبد الله بن أبي<sup>(٣)</sup> ، وأهل خير حلفاء لغطفان<sup>(٤)</sup> ، ويهود وادي القرى وما والاه حلفاء لقبائل سعد هذيم من قضاة ، يمنعونهم من العرب ، وهم الذين حوهم من غزو النعمان بن الحارث الغساني ، وظلوا حماهم إلى أن أشرق الإسلام<sup>(٥)</sup> .

وكان العرب حراسا على الوفاء لليهود بخلفهم ، حتى في تبأساء اليهود ومخنهم ، فقد وجد الرسول عليه الصلاة والسلام على بني قريظة بعد غزوة أحد ، فخاصهم حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم من الأوس أن يشفعوا في إطلاقهم ، فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأوس ما قد علمت - كان الرسول قد حاصر بني قينقاع حلفاء الخزرج ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فوهبهم له<sup>(٦)</sup> .

ولم يقتصر الوفاء على الشفاعة والرجاء ، بل تعدى إلى التناصر ، ذلك بأن أهل خير لما بلغهم أن النبي يتجهز ليسير إليهم ، بعثوا إلى حلفائهم أسد وغطفان فأتوهم<sup>(٧)</sup> .

ويظهر أن بعض العرب كانوا يحبون اليهود ، ويشاركونهم في آلامهم ، فإنه لما أحرق النبي نخل بني النضير وقطعه ، قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

لعز على سراة بني لؤى حريق بالبويرة مستطير  
فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

أدام الله ذلك حريقا وضرر في طوائفها السعير

(١) خلاصة الوفا ٨٩ (٢) المغازي ٣٥٤

(٣) المغازي ١٧٩ - ١٨٠ والتنبيه والإشراف السعودي ٢٠٦

(٤) معجم ما استعجم للبكري ٢ / ٥٢٣ .

(٥) معجم البلدان ٧ / ٧٤ ومعجم ما استعجم ١ / ٤٣ .

(٦) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٧ و ٢ / ٤٢٨ (٧) المغازي ٣٨٩

هم أو ثبوا الكتاب فضيعوه فهم عني عن التوراة بُور<sup>(١)</sup>

### اليهود باليمن وما حاورها :

منذ عهد بعيد كانت لليهود صلة باليمن ، فقد كان لسبأ صيت تجارى ذائع عند اليهود ، وكانت قوافل سبأ تغد إلى أسواق اليهود والكنعانيين<sup>(٢)</sup> ، وكان تجار اليهود يرحلون إلى جنوبى جزيرة العرب<sup>(٣)</sup> ، وقصة سليمان وملكة سبأ ثابتة بنص القرآن الكريم والتوراة<sup>(٤)</sup> .

وقد أثبت العالم جلازر Glaser أن اليهود كانوا فى اليمن وحضرموت منذ عود بعيد قبل الإسلام ، وهم الذين مهّدوا لدينهم هناك ، ثم ظهرت أسباب عند ملك أو ملوك حبيبت إليهم اليهودية<sup>(٥)</sup> .

على أن اليهودية لم تنتشر باليمن إلا بعد الغزو الحبشى سنة ٣٤٠ م ، إذ فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وقضوا به خمساً وثلاثين سنة ، ثم عاد مالك كرب يوهامين فى جيش إلى اليمن ليطرد الحبش ، وكان قد دان باليهودية ليقاوم بها المسيحية ، دين المستعمرين لبلاده<sup>(٦)</sup> ، ولم يمتز إلا زمن قصير ، حتى كان تبع الآخر - تبان أسعد أبو كرب ، وهو حسان تبع - قد تعلم اليهودية ، وعاد إلى اليمن فنشرها<sup>(٧)</sup> .

وقد ذهب المستشرق بروكك Brocock إلى أن دولة حمير تهودت فى القرن

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٥ .

(٢) سفر أشعيا اصحاح ٤٣ آية ٣ واصحاح ٤٥ آية ١٤ وسفر حزقيال اصحاح ٢٣ آية ٤٢ .

(٣) سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢ .

(٤) سورة النمل وسفر الملوك الأول ١٠ : ١ - ١١ .

(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب . ولفنسون ٣٥ و ٣٧ و ٤٠ .

(٦) The Bak ground of Islam. P. 132 Phelby .

(٧) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٦ والعير لابن خلدون ٢ / ٥٣ وسيرة ابن هشام

١ / ١٤ - ٢٤ والتنبية والإشراف ١٧٢ وتاريخ يعقوبى ١ / ٢٩٨ .

الأول قبل الميلاد ، والعالم سافستردى ساسى silvester. de sacy. إلى أن ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثانى بعد الميلاد<sup>(١)</sup> .

ولكن ذلك مردود ؛ لأنه كما يقول المؤرخ اليهودى شيفر : ليس من المعقول أن تكون دولة حمير يهودية في القرن الثانى ولا يذكروها التلمود ، إذ أنه ألف بعد ذلك ، وتم في القرن الرابع الميلادى<sup>(٢)</sup> . ولا شك في أن اليمن عرفت اليهودية في القرن الثانى بعد الميلاد<sup>(٣)</sup> ، ولكن اليهودية لم تصدر ديناً رسمياً إلا بعد ذلك . وقد أثبت العالم بيرون Perron أن دولة حمير لم تعتنق اليهودية رسمياً إلا في القرن الخامس الميلادى ، ونقض ما يرجع بتهود ملوك حمير إلى أقدم من هذا القرن<sup>(٤)</sup> .

ويتفق معه في هذا رأى المؤرخ الثقة Grayzel ، ويذكر أن ذانواس تهود هو وشعبه في أوائل القرن السادس ، وأنه انتقم من المسيحيين ثاراً لليهود المضطهدين في الدولة الرومانية الشرقية ، فبعث إمبراطور الروم ملك الحبشة ليفرضو اليمن<sup>(٥)</sup> .

على أن نفوذ الدولة اليهودية الحميرية تجاوز اليمن إلى الشمال<sup>(٦)</sup> ، ودان بها كثير من الجنوب ، كبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة<sup>(٧)</sup> . وكان بنجران يهود دفعوا الجزية للنبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٨)</sup> ، وكان بالبحرين يهود

(١) Memoires sur divers. evenement de l'Histoire des

Arabes avant Mahmet . . . . .

Journal Asiatique 1838 Novembre, p. 358 (٢)

The Jews of Asia P. 164 Mendelssohn (٣)

Journal Asiatique 1838 Novembre P. 358 (٤)

AHistory of the Jews. P. 244. Grayzel. (٥)

De Perseval. 1. P. 654 (٦)

(٧) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق الفسقية ٧ / ٢١٧

وبلوغ الأرب لمحي الدين العطار ٨٨

(٨) فتوح البلدان ٧٥ .



دفعوا الجزية أيضاً<sup>(١)</sup> ، وكان بها يهود صالحوا على الجزية العلاء بن عبد الله الحضرمي مبعوث النبي إليهم في السنة الثامنة من الهجرة<sup>(٢)</sup> ، وفي أما كن متفرقة من اليمن أقام يهود على دينهم ودفعوا الجزية لعمال رسول الله<sup>(٣)</sup> .

وليس أدل على صولة اليهودية في اليمن من أن الملك اليهودي ذا نواس كان متعصباً لها جاداً في نشرها ، يعامل المسيحيين بما تعامل به الدولة الرومانية اليهود<sup>(٤)</sup> .

ثم إن اليهودية وصلت إلى الحيرة ، فقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة زوجات كثيرات من العرب والفرس واليهود ، وكانت المتجردة اليهودية آثر نساؤه عنده ؛ لجمالها وحسن تبعائها ، وهي التي ذكرها النابغة في شعره<sup>(٥)</sup> .

### أثر اليهود في العرب :

١ — من المتعذر أن نضع حدوداً فاصلة بين اليهود والعرب تميز الأخلاق والنظم والعادات . ذلك بأن بني إسرائيل نتاج الصحراء ، ولم تنقطع صلتهم بالصحراء في عصور حضارتهم ، والمميزات الصحراوية بارزة في لغتهم وخطابهم ، لهذا كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمونهم بالعبريين ، لعلاقتهم بالبادية ، ولتمييزهم من أهل الحضارة<sup>(٦)</sup> .

(١) فتوح البلدان ٨٦ . (٢) فتوح البلدان ٨٥ .

(٣) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٥ وتاريخ الطبري ٢ / ١٠٥ و ١٠٦ وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٩ وتفسير الطبري ٣٠ / ٨٤ - ٨٦ والتيساري ٣٠ / ٦١ - ٦٢ على هامش الطبري ومعجم البلدان ٧ / ٢٦٢ والسكامل لابن الأثير ١ / ١٢٨ وبن الحبشة والعرب لعبد الحميد عابدين ٥٢ - ٥٤ و

AHstory of the Jews. 244 Grayzel.

(٥) كتاب حرب بني شيبان مع كسرى أنوشروان ٦٥ .

(٦) تاريخ اللغات السامية ولفنسون ٧٨ - ٨٠ واليهود في تاريخ الحضارة ٤٣ لودفيج و Israel From its Begining. pp. 190 — 191. Adolphe lods.

وأولئك اليهود الذين سكنوا بلاد العرب كانوا مطبوعين بالطابع البدوي من قبل ، ثم عاشوا في البادية ثانية ، وخالطوا العرب كما سبق ، فتأثروا بأخلاقهم ، وبيعوا عاداتهم ، وجروا على كثير من نظمهم . « ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق أبنائه وعاداتهم ونظمهم إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> » . حتى لقد أنستهم البيئة ما ورثوا من روحانية ، وأخضعتهم للعقلية البدوية<sup>(٢)</sup> ، ولم يختلفوا عن عرب الصحراء إلا في مظاهر سطحية<sup>(٣)</sup> . لهذا أنكر يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أن في الجزيرة العربية يهودا ، لأنهم لم يتمسكوا بالدين ، ولم يخضعوا لقوانين التلمود<sup>(٤)</sup> .

وكذلك كان حالهم من الوجهة اللغوية ، فقد اصطنعوا اللغة العربية لغة أدبية لهم ، وكان فيهم شعراء نظموا الشعر في الموضوعات التي مارسها العرب ، ولا يختلف شعرهم عن الشعر العربي وزنا وقافية وتصويرا وخيالا ومعنى ، كالسموأل ، وأوس بن دني ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبي الحقيق ، وشعبة بن العريض ، وشبريح بن عمران ، وأبي قيس بن رفاع ، وأبي الذبيل . ودرهم بن يزيد<sup>(٥)</sup> ، وقد أجاز الربيع أبياتا للناطقة فأعجب بيديته وقال له : أنت يا ربيع أشعر الناس<sup>(٦)</sup> .

٢ — وقد عجزت اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية . ولعل مرد ذلك إلى مشقة أحكامها ، حتى لقد قال أحد فلاسفتهم يهودا فيلون (٣٠ ق م - ٥٠ م) إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، وذنبهم عند الناس أنهم

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٢ ولفنسون (٢) المرجع السابق ١٢

(٣) اليهود في تاريخ الحضارة لودفيج ٣٠

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب ١٣ ولفنسون .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام بتعقيق محمود شاكر ٢٣٥ - ٢٤٧ والوحشيات لأبي.

تمام ٩١ مخطوط والأغاني . (٦) الأغاني ٢١ / ٦٢

يأخذون أنفسهم بالفرائض الصارمة ، والصرامة ثقيلة على الطباع<sup>(١)</sup> ، ومن هذه الصرامة عند طائفة الآسين أو الأسينيين تحريم الرق ، واعتبار التجارة عملاً خبيثاً ، وأخبت منه حمل السلاح للقتال ، وازدراء المادة ، لأنها مصدر الشرور<sup>(٢)</sup> . ولقد يكون السبب أيضاً أن اليهود لم يتحمسوا لنشر دينهم<sup>(٣)</sup> ، وليس دينهم تبشيراً يجد أتباعه فرضا عليهم أن ينشروه ويهدوا مخالفه ، وإنما هو والبرهية والزرادشتية دين غير تبشيري ، أما التبشيري فالمبوضة والمسيحية والإسلام<sup>(٤)</sup> .

على أن اليهودية تطورت فصارت تعتبر الناموس التامودي وعقائده أساساً لا محيد عنه لمن يرغب في التهود ، والذين دانوا بالتوراة وحدها لم يقبل تهودهم ، وربما كان هذا سبباً في انصراف اليونان والسراني إلى النصرانية<sup>(٥)</sup> .

ويزيد التهود عسراً أن اليهود كانوا في عصر ميلاد المسيح فريقين ، أحدهما يتبع الحكيم شماي ، وهم متخرجون يردون الراغبين في اليهودية من غير اليهود ، والآخر لا يتخرج كما يتخرج هؤلاء<sup>(٦)</sup> .

وبعد فقد كان الصراع غنياً بين النصرانية واليهودية في الحجاز ، وفي اليمن ، ولم يقل من غربه إلا نزاع الفرس والرومان ، وكان من المنتظر أن تنتشر اليهودية والمسيحية في بلاد العرب أكثر مما انتهت عنده ، ولكن الإسلام جاء فغلبهما جميعاً<sup>(٧)</sup> .

٣ — لكن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز<sup>(٨)</sup> ، فكان

(١) عبقرية المسيح ٦٧ العقاد

(٢) عبقرية المسيح ٢٢

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٢ ولفسون .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ١٧ توماس أرنولد ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنراوى ، وقد أعجب أرنولد بهذا التقسيم الذى نقله عن Max Muller

(٥) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٢ (٦) عبقرية المسيح ٢٥

(٧) Skyzen and Vorabeiten. V. 4. P. 8 Wellhausen.

(٨) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٤٩ وتاريخ العرب ١ / ١٤٦ فيليب حتى ومعجم البلدان

حول مكة قبائل عربية متهودة ، هي بطون من كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كندة<sup>(١)</sup> ، وتهود قوم من غسان ومن جذام<sup>(٢)</sup> ، وهاد بنو حشنة بن عكرمة من بلى بتياء<sup>(٣)</sup> ، وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاؤوا اليهود<sup>(٤)</sup> .

والذين لم يتهودوا كانوا يتصلون باليهود ، ويتأثرون بهم ، فقيس بن الخطيم يتغزل في يهودية<sup>(٥)</sup> ، والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم<sup>(٦)</sup> ، وكانت نساء بعض الخزرج يذرن إن ولدن ولدا أن يهودنه إذا عاش ، لأن اليهود أهل علم وكتاب<sup>(٧)</sup> .

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير ، سمعها العرب في الجاهلية ، وسمعها المسلمون في الإسلام<sup>(٨)</sup> ، ومما يدل على ذبوعها أن اقرآن الكريم كثيراً ما يجادلهم ، ويدحض آراءهم .

ولا شك أن اليهود كانوا في نظر العرب أكثر منهم ثقافة ، واستنارة ، لأنهم أهل كتاب ، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج في كثير من الأعمال<sup>(٩)</sup> ، وكان ابن إسحاق صاحب السيرة المتوفى ١٥٠ هـ يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميه في كتبه أهل العلم الأول<sup>(١٠)</sup> .

وقد علم اليهود بعض العرب الكتابة العربية ، وجاء الاسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون ، ثم أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها<sup>(١١)</sup> ، وكان الكتاب بالمدينة كثيرين ، لأنهم يجاورون ويخالطون اليهود<sup>(١٢)</sup> .

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٩٨ وعبون الأخبار ٣ / ٤٠٨

(٢) تاريخ اليعقوبى ١ / ٩٨ (٣) معجم ما استمع ١ / ٢٩

(٤) الروض الأنف للسبلى على هامش السيرة ٢ / ٢٤ وتاريخ اليعقوبى ١ / ٢٩٨

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٤٩ مخطوط (٦) كتاب بكر وتغلب ٨٠

(٧) الروض الأنف ٢ / ٢٤ (٨) فتح البارى ١٣ / ٤٣١

(٩) محاسن النساء لابن هشام ٨ : مخطوط و Grayzel P.P. 141-255.

and Sources of Islam P. 13.

(١٠) الفهرست لابن النديم ٩٢ (١١) فتوح البلدان ٧٩ هـ وتاريخ الخبيس ١ / ٥٢٣

(١٢) الموشح العرزيانى ٣٨ .

على أن العرب خالفوا اليهود في بعض المعتقدات ، فاليهود - ربانيين وقرائين - يتفقون على تحريم لحم الجمل ، والعرب كلّفون به . واليهود يحرّمون أكل الشحم ما خلا شحم الظهر ، والعرب يأكلون الشحم كله . واليهود يحرّمون أكل الحوايا والعرب يأكلونها<sup>(١)</sup> .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك : « وعلى الذين هادوا حرّما كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرّما عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بهنّ »<sup>(٢)</sup> .

## المرأة اليهودية

كانت النظم اليهودية مصطبغة بسمات صحراوية كما سبق ، وما برحت عاداتهم البدوية غالبة على أجيالهم المتعاقبة ، وفي التوراة إشارات إلى أصلهم الصحراوي<sup>(٣)</sup> .

لذلك قامت شريعة إسرائيل على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل ، والرغبة في كثرة النسل .

فالمرأة تُسبى ، وتباع ، وتورث ، ولآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق ، وأن يقتلوهن<sup>(٤)</sup> .

ولم ترفع التوراة من قدر المرأة ، ففي سفر الجامعة أن المرأة أمرٌ من الموت ، وأن الصالح التقى هو الذى ينجو منها « رجلا واحداً بين ألف وجدت ، أما امرأة فلم أجد واحدة بين كل أولئك »<sup>(٥)</sup> .

وكانت المرأة في المجتمع اليهودى - كما في المجتمعات البدائية - مملوكة

(١) صبح الأعشى ١٣ / ٣٦٢ (٢) سورة الأنعام ١١٤٦

(٣) سفر التثنية ٣٢ : ١٠ وسفر أرميا ٢ : ٢ وسفر هو شع ٩ : ١٠

(٤) حضارة العرب ٤٩٢ جسناف لوبون و Israel From its Begining. Adolphe Lods. 190.

(٥) سفر الجامعة ٧ : ٢٦ - ٢٩

لأبيها قبل زواجها ، تشتري منه عند نكاحها ، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء ، ثم تصير مملوكة لزوجها ، وهو سيدها المطلق ، لأن كلمة (بعل) معناها سيد ، وليس لنذرهما أو قسمها قيمة مالم يؤيده زوجها<sup>(١)</sup> ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه ، لأنها جزء من التركة ، وله أن يبيعها أو يعضاها<sup>(٢)</sup> . وكان الزواج بالأخت ذائعاً عندهم قديماً ، فمثلاً تزوج إبراهيم بسارة أخته من أبيه<sup>(٣)</sup> ، والربانيون - الربايم إحدى طوائف اليهود الثلاث - يبيعون زواج بنت الأخ ، وبنت الأخت ، وبنت امرأة الأب<sup>(٤)</sup> ، وقد بعث عيسى - عليه السلام - يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعامون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ<sup>(٥)</sup> . ثم بعد ذلك حرموا الأم ، وامرأة الأب ، والأخت لأب أو لأم ، وابنة الابن ، والعمة ، والخالدة ، وزوجة الابن ، وبنت امرأة الأب ، والأصول والفروع<sup>(٦)</sup> .

وجروا على تعدد الزوجات ، ولم يعارضه القانون الشرعى أو المدنى<sup>(٧)</sup> ، وعرفوا زواج المتعة ، ومارسوه ، ثم نهى الكتاب عنه ؛ لأنه لا يليق أن يكون الاقتران لأجل تبعا لهوى النفس ، ثم تحدث بعده فرقة بغير مسوغ شرعى<sup>(٨)</sup> . وبديهي أن المرأة التى تورث ، كالمحتاج لا حق لها فى الميراث ، فالقاعدة أن الرجل إذا مات وليس له أبناء ورثه بنو عشيرته ، أما النساء فلا نصيب لهن مما ترك الرجل ، بل كن يُورثن .

(١) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٢ ، و 191 P. Israel From Begining.

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٦٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ : ١٢ (٤) العقائد ٨٠

(٥) تاريخ الطبرى ٢ / ١٢

(٦) سفر اللاويين لإصحاح ١٨ آية ٦ - ١٨ وشعار الحضرة .

(٧) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٠

(٨) شعار الحضرة ١٠١

فإذا مات الزوج ولم يكن قد أولد الزوجة ورثها أخوه أو بعض أقاربه .  
وكانت البنت إذا مات عنها والدها ورثها أقرب الرجال إليها ، ثم عدلت  
هذه القاعدة في عصر متأخر ، فسمح للبنت أن ترث أباهها إذا لم يكن له ولد .  
أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها ، بل ظلت جزءاً من متاعه يرثها  
ذوو قرباه . على أن التوراة اشترطت على البنت التي ورثت أباهها أن تتزوج رجلاً  
من عشيرته<sup>(١)</sup> .

واختلفت أوفى توارث الزوجين ، فالربانيون يورثون الرجل زوجته ، والقراءون  
يتمعون ، ولا يلزمونه مؤجل صداقها ، ويتمعونها أيضاً أن ترثه ، ولكن لها  
مؤجل صداقها<sup>(٢)</sup> .

وقد خولت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت  
ما لا يَرْضَى ، ولم يكن هناك ما يكفه عن استعمال هذا الحق المطلق إلا بعض  
روابط واهية لا تجدى فتىلاً . ولم يسمح للنساء أن يطلبن الطلاق من أزواجهن ،  
وليس قبولهن الطلاق شرطاً لصحة وقوعه<sup>(٣)</sup> ، ثم في عصور متأخرة أباح القراءون  
للرأة أن تطلب الطلاق من زوجها<sup>(٤)</sup> .

وكان اليهود قديماً ينسبون أبناءهم إلى أمهاتهم ، ففي التعاويذ السحرية  
اليهودية يقرن اسم الرجل باسم أمه لا باسم أبيه ، وقد عكف يوليوس وهوزن  
على دراسة التوراة ، وخلص إلى أن النسب إلى الأم هو الشائع في جداول الأنساب  
في الجزء الذي حرره أتباع المدرسة اليهودية ، وهذه الجداول يرمز إليها بحرف (J)  
وأن النسب إلى الأب هو الشائع في القسم الذي حرره أتباع المدرسة الكهنوتية ،

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ وشعار الحضر ١٥٢-١٦٤ والأحكام الشرعية  
في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ١٦٩ - ١٧٢

(٢) شعار الحضر ١٦١ - ١٦٣

(٣) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة في الإسلام  
للسيد أمير على الهندي ٧٣ والإسلام والحضارة العربية ١ / ٨٠

(٤) شعار الحضر ١٢٦

وهي التي يرمز إليها بالحرف ( P ) ، وإذا علمنا أن الساميين كانوا يضعون قيوداً شديدة وحدوداً مرعية للزواج بذوى الأرحام ، ولا يضعون مثل هذه القيود في الزواج بالعصبة ، فهم مثلاً يبيحون الزواج بالأخت لأب ، إذا علمنا ذلك تبين لنا أنهم كانوا في وقت ما يعدون صلة الأبوة أو هي من صلة الأمومة ، ويرون أنها لا تفرض نهياً ولا تحريماً في الزواج<sup>(١)</sup> ، ووجود هذه العادة يفسر قول إلههم يهوه عن اتحاد الرجل بالمرأة ( سوف يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بزوجته ) ، ولا تزال لهذه العادة آثار في اليهود إلى اليوم ، وفي الأمم العربية ومصر عادة نسبة الولد إلى أمه في التعاويذ والرقى والتمايم . ويرى نولدكه أنها تدل على مرحلة قديمة من نظام الأمومة<sup>(٢)</sup> .

وقد أباح العهد القديم للوالد أن يبيع بنته بيع الأرقاء لمن يرضى أن يتزوجها لنفسه أو لأحد أبنائه<sup>(٣)</sup> .

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ - ٨٨ و Israel From its Begining. P. 192

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨١ (٣) سفر الخروج ٢١ / ٧ - ١٢ ( ٣ المرأة في الشعر الجاملي )



# صلة العرب بالنصارى

النصرانية في الشمال والوسط :

كانت النصرانية قد ذاعت واستقرت أركانها في البلاد المحيطة بحجزيرة العرب ، في الدولة الرومانية ومصر والحبشة . وكان النصارى يتعبدون بنشر دينهم والتبشير به ، فيجوبون البلاد ، ويحوسون القفار ، ويحتملون المشقات . وكان من أثر ذلك أن نفذت المسيحية إلى بلاد العرب ، وعرفت في أرجائها ، ودان بعض العرب بها .

فالفلسنة في الشام نصارى<sup>(١)</sup> على المذهب المنوفسى الذى كان شائعاً في ديارهم ، وعرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبى ، نسبة إلى يعقوب البرذغانى<sup>(٢)</sup> ، وهم حماة الكنيسة في الشرق ، يدل على ذلك أن الحارث بن أبى شمر ( حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م ) كان نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة<sup>(٣)</sup> .

وفي الحيرة نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد انتقلت النصرانية إليهم من الشام ، لأن الإمبراطور جستنيان اضطهد النساطرة فرحب بهم كسرى أنوشروان ( ٥٣١ — ٥٧٩ م ) وأسس لهم مدرسة جنديسابور في فارس ، فنشروا مذهبهم هناك<sup>(٤)</sup> ، وغلب هذا المذهب على فارس وخراسان والعراق والموصل<sup>(٥)</sup> .

وقد دارت بالمسيحية أشراف الحيرة ، منهم من بنى تيمم آل عدى بن زيد العبادي ، ومنهم أناس من سليم ومن طيء وغيرهم<sup>(٦)</sup> . وفي عام ٤١٠ م

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته

(٢) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩ (٣) العرب قبل الإسلام ١٩١ جرجى زيدان

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٦ و ١٨ دى بور ترجمة أبور ريد

(٥) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩ (٦) البلدان لليعقوبى ٣٠٩

ورد ذكر أشقف على الحيرة ، وفيما بين ٥٥٩ و ٥٧٥ م كان أحودمه يبشر بالنصرانية بين التنوخيين<sup>(١)</sup> .

ولما فتح العرب العراق كان على شواطئ الفرات مسيحيون ، وكان بعض البدو من انتجعوا الجزيرة قد دخلوا في حوزة الكنيسة<sup>(٢)</sup> . وقد نزل خالد بن الوليد في طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ بقرى يقال لها بانقيا وباروثما وأليس فصالحه أهالها النصارى<sup>(٣)</sup> . وقد بقيت كتب من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية استعملت لغة للكنيسة<sup>(٤)</sup> .

وكانت على النصرانية قبيلة تغلب ، وقد دانت بها بعد يوم خزاز ، ذلك أن نزار لم تكن تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم<sup>(٥)</sup> ، فلما انتصر عرب الشمال على اليمن شعروا بنعمة الاتحاد ، والتفوا حول زعيمهم كليب ، ووجدوا أن عرب اليمن يهود ونصارى ، وعرب الشام والحيرة نصارى ، فاعتنق النصرانية كليب وبعض خلفائه من ربيعة ومن مضر ، ومن إياد ، ومن طيء ، ومن قضاة ، ومن قيس بن ثعلبة ، وبنى كليب كنيسة ينافس بها حرم مكة ، وهو إنما يريد أن يثبت ملكه على دعائم من العقيدة الدينية والعصبية القبلية . ولم ترم تغلب عن المسيحية ، وما زالت عليهما إلى عهد عمر بن الخطاب « ولما أراد أخذ الجزيرة منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زُرْعَةُ ابن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي أو عبادة بن النعمان التغلبي : أنشدك الله فيهم ، فإنهم قوم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية ، فلا تمن عدوك عليك » فضاعف عمر عليهم الصدقة ، وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم<sup>(٦)</sup> ، وكانت هذه معاملة خاصة بالتغلبيين ، إذا اعتبر عمر أن المضاعفة

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/١٣ عن نو Nau في كتابه Les Arabes. P. 16

(٢) الحضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر (٣) تاريخ الطبري ٤ / ٣

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٩ بارتولد (٥) معجم البلدان مادة خزز

(٦) المعارف ١٩٣ والحراج لأبي يوسف ٦٨ والحراج للقرشي ٦٦ وفتوح البلدان ١٨٩

بمنزلة الجزية على غيرهم » وليس يؤخذ من غيرهم من أهل الذمة صدقة مضاعفة<sup>(١)</sup>.

وكان بعض قبيلة بكر - تيم اللات وضبيعة وبعض بني عجل - نصارى<sup>(٢)</sup>، وكان قرب منازل تميم من منازل بكر وتغلب وسيلة إلى أن يعتنق بعضهم النصرانية<sup>(٣)</sup>، وقد افتخر الزبرقان بن بدر أمام النبي بنصرانيته في قوله :

نحن الكرام فلا حتى يُعادِلُنَا      منا الملوك وفينا تُنصَّبُ البِيعُ<sup>(٤)</sup>

كما اعتنقها جماعة من إباد، منهم قس بن ساعدة<sup>(٥)</sup>، وجماعة من جذام<sup>(٦)</sup>، وجماعة من قُضاعة<sup>(٧)</sup>، ودان بها أناس من النُعمر<sup>(٨)</sup>، وأناس من طي<sup>(٩)</sup> كعدى ابن حاتم<sup>(٩)</sup>، وأبي زُبَيْد<sup>(١٠)</sup>.

وكان في أيلة نصارى، ضرب عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثاً، ولا يفشوا مسلماً<sup>(١١)</sup>. .. أما في قلب الجزيرة وبخاصة مدن الحجاز التجارية فلم تكن المسيحية مجهولة، ذلك بأن سكان هذا الإقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتشر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم في تعريف العرب بالنصرانية.

(١) المراج للقرشي ١٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر المجلد الرابع العدد الأول ٤٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٧٤

(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥

(٥) التنبيه والإنراف ١٧٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٦

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٦ / ٣١٣

(٧) المعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧

(٨) تاريخ الطبري ٤ / ٧٣ (٩) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٤٦

(١٠) الشعر والشعراء ١٠١ والأغاني ١١ / ٢٣

(١١) الأم للإمام الشافعي ٤ / ١٠١

على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية<sup>(١)</sup>، ففي ناحية من نجد كشف بلي pely عن عمود مسيحي حطمه الوهابيون<sup>(٢)</sup>. وقد تنصر من قریش بنو أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث وورقة ابن نوفل<sup>(٣)</sup>، وكان ورقة قد استحکم فی النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً<sup>(٤)</sup>.

وفى يثرب كان من المخاريين ضد النبي عند مقدمه إليها شريف من الأوس مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى الراهب<sup>(٥)</sup>، وكان بمكة نصراني اسمه مؤهب ضرب عليه النبي ديناراً كل سنة<sup>(٦)</sup>.

وكان بالبحرين نصارى، ففي سنة ٧ هـ صالحهم العلاء بن الحضرمي نيابة عن رسول الله<sup>(٧)</sup>.

على أننا نجد أسماء كثير من النصارى في أماكن شتى من الجزيرة<sup>(٨)</sup>. وكان بكندة نصارى منهم حُجَّيَّة بن المضَرَّب<sup>(٩)</sup>، وامرؤ القيس بن عابس الكندي<sup>(١٠)</sup>.

### النصرانية في اليمن:

سلكت المسيحية طريقها إلى اليمن منذ أواسط القرن الرابع الميلادي.

(١) العرب والإمبراطورية العربية ٢٩ بروكلمان.

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٩ (٣) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٩٨

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٣ والأم للشافعي ٤ / ١٠١ والمراج للفرشي ٧٣

والأغانى ٣ / ١٢٠ (٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢١٦

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٦ و ٢٤٣.

(٧) فتوح البلدان ٨٥ (٨) المعارف ٢٠ ومروج الذهب ١ / ٢٩ - ٣٢

وتاريخ الخبيس ١ / ٣٢ ومجالس ثعالب ١ / ٦٥٣ وديوان التلمس . مخطوط .

(٩) الأغاني ٢١ / ١٠ وسمط اللآلى ١ / ٢٠٤ .

(١٠) أسد الغابة ١ / ١١٥ .

وتضافرت على فسخ المجال لما هناك عوامل شتى ، بعضها سياسى ، وبعضها تجارى ، وبعضها دينى .

ذلك بأن قياصرة الروم لما تنصروا أخذوا يهتمون بنشر دينهم ، ويستعينون به على بسط نفوذهم ، وتوسيع المجال لتجارهم ، فأرسل الإمبراطور قسطنطينوس constantius ( ٣٥٣ - ٣٦١ ) مبشراً هو فرومونتوس إلى الحبشة نصبه أسقفاً عليها سنة ٣٥٤ م فنشر النصرانية فيها <sup>(١)</sup> . وفى سنة ٣٥٦ م بعث ثيوفيلوس ليبشر باليمن ، واستطاع أن ينشئ كنيسة بآرض حير ، وثالثة بعدن ، وليس ما يمنع من أن نصدق أن المسيحية وفدت أيضاً من الشمال بعد ذلك <sup>(٢)</sup> . وكان بنجران كنيسة بناها بنوعبد المدان الحارثى ، وسموها كعبة نجران <sup>(٣)</sup> وقد ذكرها الأعشى فى قوله لناقته :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها  
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها <sup>(٤)</sup>

ثم كانت الغزوة الحبشية الأخيرة لليمن فى ٥٢٣ م ، فاعترف نصارى اليمن بالحبش ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، واستطاع أبرهة أن يحكم اليمن ، وكان نصرانياً ورعاً متحمساً لبث دينه فى بلاد العرب ، فبنى القلبيس بصنعاء <sup>(٥)</sup> ، وهى كنيسة لم ير الناس أحسن منها ، ولما أتم بناءها كتب إلى النجاشى : إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثاها ملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حق العرب <sup>(٦)</sup> . وفى سبيل ذلك حاول أن يهدم الكعبة ، وكانت غزوة الفيل التى باء كيدها بتضليل .

(١) دائرة المعارف لابستانى ٦ / ٦٧٩ .

(٢) العرب قبل الإسلام ١٢٦ زيدان و History of the Arabs. P.97 Hitti .

(٣) السكامل لابن الأثير ١ / ١٤٩ وسيرة ابن هشام ١ / ٣٠ - ٣٤ و Hitti P.67 .

(٤) الأغاني ١٠ / ١٣٥ - ١٣٧ ودبوان الأعشى ١٧٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٦١ والقاموس المحيط ( قلس )

(٦) معجم البلدان ٧ / ١٥٥ و ١٥٧ .

وَمَنْ تَنْصُرَ بِالْمِثْلِ طَيْئًا وَمَذْجِجَ وَبَهْرًا، وَسَلِيحٌ <sup>(١)</sup> .

وهذه السكثرة تَخَوَّلْنَا أَنْ نَرْفُضَ قَوْلَ تَسْدَالِ Tisdall إِنَّ الْمَسِيحِيَّةَ لَمْ يَعْتَنِقَهَا مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا ابْنُو الْحَارِثِ فِي نَجْرَانَ ، وَابْنُو حَنِيفَةَ فِي الْيَمَنِ ، وَبَعْضُ طَيْئٍ فِي تِيْمَاءَ <sup>(٢)</sup> .

وما جاء الإسلام حتى كانت النصرانية ذائعة في الجنوب ، يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على النصرانية <sup>(٣)</sup> ، وصالح وفد نجران على ألثى حُلَّة في صفر وألثى حُلَّة في رجب .. وأن عليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إن كان باليمن كيد <sup>(٤)</sup> ، ومع كل حلة أوقية من الفضة <sup>(٥)</sup> . وهذا دليل على كثرة العدد والثروة ، لذلك لا عجب أن يبلغوا في عهد عمر أربعين ألفاً ، وأن يتحاسدوا ، فأتوا عمر فقالوا : أجزلنا - وكان قد خافهم على المسلمين - فاعتنم الفرصة وأجلاهم <sup>(٦)</sup> .

### أثر النصرانية في العرب

١ - كانت النصرانية ذات آثار شتى في العرب ، فبعضهم مال إلى الرهبنة وبناء الأديار كحفظة الطائي ، إذ فارق قومده ونسك ، وبني ديراً بالقرب من شاطئ الفرات ، وترهب فيه حتى مات سنة ٥٩٠ م <sup>(٧)</sup> ، وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلاً من الطعام <sup>(٨)</sup> .

وكان القس والرهبان يعطون الناس في الجامع والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وقد سمع النبي

(١) تاريخ يعقوبين ١ / ١٩٨ .

(٢) Original Sources of The Quran P. 136. (٣)

(٤) فتوح البلدان ٧٥ . (٥) فتوح البلدان ٧٠ .

(٦) الحراج لابن يوسف ٤١ . (٧) فتوح البلدان ٧٣ .

(٨) معجم البلدان ٤ / ١٤٣ وشعراء النصرانية ١ / ٩١ .

(٩) الأغاني ١٤ / ٤١ وشعراء النصرانية ٢١١ .

صلى الله عليه وسلم إحدى خطبه في عكاظ ورواها<sup>(١)</sup>.

ومما يدل عن انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفندھا ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا نصارى ، والمسيحية آثار في شعرهم وخيالهم وعقائدهم ، كأمية ابن أبي الصلت<sup>(٢)</sup> ، وذى الإصبع المدوانى<sup>(٣)</sup> ، وعدى ابن زيد العبادى<sup>(٤)</sup> ، والأعشى<sup>(٥)</sup> ، والنابغة الجعدي<sup>(٦)</sup> وغيرهم<sup>(٧)</sup>.

على أن العرب كانوا يتزوجون بنصرانيات في الجاهلية وفي الإسلام ، وكن ينسان لهم بعض الأشراف ، ذكر كثيراً منهم ابن رُسْتَمَة ، كالحارث بن عبدالله ابن أبي ربيعة الخزومي<sup>(٨)</sup>.

٢ — وإذا كانت اليهودية قد عجزت عن أن تصرع الوثنية الجاهلية ، فكذلك قد عجزت المسيحية ؛ لأنها لاتوائم طباع العرب الميالين إلى النار والانتقام والأنفة من الضيم ، وما من عربى يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن .

ثم إن المسيحية كانت قد اختلطت تعاليمها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة<sup>(٩)</sup> ، ففقدت بساطتها ، وامتلاّت بالشبهات والغموض ، يقول تايلور Canon Taylor إن أئمة اللاهوت في إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة ، ودعوا إلى العزوبة والعزلة ، وادعوا أن التقذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل في حاضر أو مستقبل ؛ فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله<sup>(١٠)</sup>.

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٢ وقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢٠ والأغانى ٤ / ١٢٥ وديوان أمية ابن أبي الصلت .

(٣) الأمالى ١ / ٢٥٥ والأغانى ٣ / ١٠٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢٨٥ . (٥) الأغانى ٨ / ٧٦ ساسى .

(٦) طبقات الشعراء ١٠٣ - ١٠٥ .

(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلى . أحمد الحوفى ٨١ - ٨٢ والفضليات ٢ / ٥٢ .

والمؤتاف والمختلف للامدى ٧٤ والبيان والتبيين ٣ / ٥٣ و ١ / ٥٤ .

(٨) الأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٣ .

(٩) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٢٦ دى بور ترجمة أبو ريبة .

(١٠) الدعوة إلى الإسلام ٦٦ و ٦٧ أرنولد .

لذلك كان من العسير أن يُشَرَّب العرب هذه التعاليم .  
على أن العرب خالفوا النصراني في أشياء ؛ فالنصارى يعرمون الإبل  
والبانها ، ولكن العرب أحلوها ، والكنيسة تحرم تعدد الزوجات والعرب  
يعددون ، والنصارى يحظرون الطلاق والعرب يستبيحونه<sup>(١)</sup> .

### المرأة النصرانية

أعزت المسيحية المرأة بعض الإعزاز ، وحمتها بعض الحماية من المهانة التي  
كانت تُمنى بها ، فلا جرم أن تبرع النساء إلى المسيحية أفواجا ؛ لأنهن أحبين  
من تعاليمها أنه « لا يهودى ولا إغريق ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى ،  
كلكم واحد فى يسوع المسيح » فى وقت كانت النساء فيه محتقرات ؛ ينظر إليهن  
على أنهن يقمن بعمل ثانوى فى النسل ، حتى لقد كان اليهودى الورع يحمد الله  
دائما على أنه لم يخلقه غير يهودى ، ولم يجعله عبداً ولا امرأة .

وقد قامت المسيحية فى أول عيدها على جهد النساء إلى حد كبير ؛ فكانت  
مبشرات ، وكن يهين لها المال ، ويُدْعَنها فى حماسة ، وقد اعترفت بهن قسياسات ،  
وبالغت القسياسات عشرات<sup>(٢)</sup> ، وأظهرت المبشرات كثيراً من ضروب  
الشجاعة والإيمان ، والتمسك بالعتيدة ، واحتمان العذاب راضيات<sup>(٣)</sup> .

وكان أعظم ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرمت تعدد الزوجات ،  
والتسرى ، وحدت من الطلاق<sup>(٤)</sup> ؛ فقد سأل المسيح تلاميذه عن الطلاق ؛  
فقال لهم : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها  
وتزوجت بأخر تزنى »<sup>(٥)</sup> .

(١) صبح الأعشى ١٣ / ٢٨٥ .

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ١٩٣ . نشره السير جون هامرتن .

(٣) المرأة فى العصور ٣١ أحمد خاكي . (٤) المرأة فى العصور ٣٦ .

(٥) إنجيل مرقس . الإصحاح ١٠ .



ولكن إعزاز المسيحية للمرأة كان بقدر ضئيل ، لم يرفع من شأن المرأة ، ولم يطلقها من ساطان الرجل ، ولم يحمها من عسفه وازدرائه ولم يصف إليها حقاً من حقوقها الكثيرة المملوكة ؛ فالإنجيل يخص الرجل بالذكر دون المرأة : « لأن الرجل مخلوق على صورة الله ، وأما المرأة فإنها مخلوقة من جنب الرجل » . وقد أيدت آراء رجال الدين أن المرأة هابطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ؛ ففى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خلقت المرأة من أجل الرجل <sup>(١)</sup> . وجاء فى رسالته إلى أهل أفسس : « يا أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ؛ لأن الرجل رأس المرأة ، كما أن المسيح رأس الكنيسة » . وإن كان قد أوصى الرجال بحب النساء : « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة » <sup>(٢)</sup> ، وشبه يهذه ما ورد فى رسالة بطرس الأولى <sup>(٣)</sup> .

وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت فى الإنجيل بأن المرأة حليفة الشيطان ؛ فهى جذيرة بالاحتقار ، وعددها بعضهم مصدراً للرجس ، وكان من أثر ذلك انتشار الرهينة والتبذل <sup>(٤)</sup> .

ومن عجب أن بحث المجتمعون فى مجمع ( ما كون ٥٨١ م ) فيما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعد من البشر ؟ وبعد جدال طويل غفيف كان الجواب أن لها نفساً ، وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة <sup>(٥)</sup> . ، وإن كانت الفسكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ، ماعدا السيدة مريم .

(١) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس الإصحاح ١١ : ٢ .

(٢) من رسالة بولس إلى أهل أفسس الإصحاح ٥ : ٢٢ ، ٢٥ .

(٣) الإصحاح ٣ : ١ - ١٠ .

(٤) المرأة فى العصور ٣١ - ٣٦ وتاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ .

Ray Strachey

(٥) المرأة فى التاريخ والشرائع ٦٢ جيل ريم .

## صلة العرب بالفرس

يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس مملكة الخيرة بقرون ؛ فقد أدوا الجزية للملك قورش سنة ٥٥٠ ق.م ، وكانوا أعواناً لقمييز في فتح مصر سنة ٥٢٥ ق.م ، ثم كانوا مع الفرس في حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق.م<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الكاتب اليوناني كينوفند ( ٤٠١ ق.م ) أن كورة في شرقي الفرات كانت تدعى ( العربية )<sup>(٢)</sup> . وكانت البلاد الواقعة شرقي الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة سنة ٤٠١ ق.م<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد سابور الأول بن أردشير ( ٢٤١ - ٢٧٢ م ) كانت بين دجلة والفرات مدينة اسمها « الحضر » ، يحكمها عربي من قضاة ، وقد شمل ملكه أرض الجزيرة ، وبلغ الشام ، ثم إنه أغار على بلاد الفرس فخاربه سابور<sup>(٤)</sup>.

وفي أوائل القرن الثالث للميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جرهم وإجلأئها عن مكة ، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبي الخيرة<sup>(٥)</sup> ، منها سنداد - نهر فيما بين الخيرة إلى الابلّة - وكانوا ذوى منعة لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على كسرى وهزموه مرتين<sup>(٦)</sup>.

(١) العرب قبل الإسلام ١٠١ نقل عن هيرودوت .

(٢) مجلة التجميع اللغوي ٣ / ٣٣١ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢ والأغانى ٢ / ١٤١ ومعجم البلدان ٣ / ٦٧ وسيرة ابن

هشام ١ / ٧٨ ومروج الذهب ١ / ٢٩٦ والكامل لابن الأثير ١ / ١٣٥ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٧ .

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٧٣ .

ثم كانت حروب بين العرب وسابور الثانى المسمى بذى الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م) بعد أن أغار العرب على أطراف مملكته ، ومكثوا بها مدة ، فغزاهم فى بلادهم ، وأسرو منهم كثيراً ، وأسكن أسراهم مع بكر بن وائل كerman ، ومن بنى حفظة الأهواز<sup>(١)</sup> ، وأسكن عدداً عظيماً من أسرى العرب إقليم تَوَجَ أيضاً ، وكانت حملة سابور حوالى ٣٥٠ م<sup>(٢)</sup> .

وبذلك تعددت الفرض لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ويساكنوهم .

ثم بعد ذلك ساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الحيرة ، التى ظلت نحو أربعة قرون (٢٦٨ - ٦٣٣ م)<sup>(٣)</sup> ، ومُضلة بين العرب والفرس ، وكان أهلها أكثر حضارة من عرب الجزيرة ، وكان الفرس يعجبون بهم ، حتى لقد أرسل يزد جرد الأول (٣٩٩ - ٤٣٠ م) ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرئ القيس ابن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ - ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء قصر الخورنق له ، وأن يخرج به إلى بوادى العرب<sup>(٤)</sup> ، وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلمذ لأساتذة من الفرس ومن العرب ، ثم أعانه العرب فى أن يخاف أباه على عرش فارس<sup>(٥)</sup> ، وتوسط عطاء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءتهم إليه ويعفو عنهم<sup>(٦)</sup> .

وأثرت التربية العربية فى بهرام ؛ فأجاد اللغة العربية كما أجاد لغات أخرى ،

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٦٦ - ٦٩ و ٣ / ٦٨ ومروج الذهب ١ / ١٢٢ - ١٢٤ .  
وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١٦٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٧ و ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨ و ١٥٦ وجغرافيا الإسلام ١٨ .  
وتاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم ٤٨ ومروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٧٢ ونهاية الأرب للنويرى ١ / ٣٧٢ .

(٥) تاريخ الطبرى ٢ / ٧٤ - ٧٦ .

(٦) الطبرى ٢ / ٧٨ .

وقرض الشعر العربي والفارسي<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر محمد عوفى فى كتابه ( لباب الألباب ) وذكر شمس الدين الرازى فى كتابه ( المعجم فى معابير أشعار العجم ) أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن عرب الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه<sup>(٢)</sup> .

وكان إقليم الحيرة وما جاوره مجعاً لأديان شتى أيضاً فى العصر الجاهلى ، فقد فتح المسلمون هذه البلاد ، وعلى شاطئ دجلة والفرات أناس من أديان شتى ؛ فرس يعتقدون الزرادشتية ، ومسيحيون يدينون بالمسيحية ، وإلى هؤلاء جميعاً كان أتباع الديانة المانوية - وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية - وأتباع لديانات قديمة وثنية ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى الصابئة بخران حتى القرون الوسطى<sup>(٣)</sup> .

على أنهم حكموا اليمن عبداً طويلاً منذ استنجد بهم سيف بن ذى يزن لطرده الحبشة ، وظلوا يحكمونها إلى أن أشرق الإسلام<sup>(٤)</sup> ، وقد اشترط أنوشروان على سيف بن ذى يزن - أو معديكرب - بعد أن ساعد اليمانيين على إجلاء الحبش شروطاً . منها أن الفرس يتزوجون بنساء اليمن ، ولكن لا يتزوج اليمانيون بنساء الفرس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينكحوا النسوان منهم وألا ينكحوا فى الفارسينا<sup>(٥)</sup>

(١) مروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٢) الأدب الفارسي الإسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب فى العالم

١ / ٤٤٨ ، ٤٥٠ .

(٣) Literary History of Persia of persia, Browne. P. 154

والخضرة الإسلامية ٨٣ فون كريم . والفهرست ١٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ١١٥ - ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١ / ٦٥ - ٧٣ والأغاني

Original of the Quran. P. P. 212-215. و ٧٣ / ١٦

(٥) مروج الذهب ١ / ٢١٨ .

وقد سمي العرب الفرس الذين قدم بهم سيف بنى الأحرار ، يقول أمية بن أبي الصلت في تهنئته ومدحه لسيف بن ذى يزن :

حتى أتى بينى الأحرار يقدّمهم تخالم فوق متن الأرض أجيالاً  
لله درهم من فتية صبروا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالاً<sup>(١)</sup>  
على أنهم حكموا البحرين أيضاً ، ومَجَر ، وقد بعث رسول الله إلى أتباع  
كسرى بهَجَر فلم يسلّموا : فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل<sup>(٢)</sup>.

ثم إن الفرس كانوا يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم ؛ فمثلاً لقيط  
الإيادى كتب لكسرى وترجم له<sup>(٣)</sup> ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى  
ابرويز ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) ، وأبوه زيد كان يقرأ العربية والفارسية ، وزيد بن  
عدى كان من تراجمة كسرى بعد أبيه<sup>(٤)</sup>.

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كلدة الثقفى ،  
رحل من الطائف إلى جند سابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، وضرب  
العود ، ووفد على كسرى وله معه حديث طويل<sup>(٥)</sup>.

وكذلك رحل ابنه المنذر إلى الحيرة وإلى فارس ، وكان يشتري كتب  
الفرس ليحدث منها ، ويعايد الدعوة الإسلامية<sup>(٦)</sup>.

ورحل الأعشى إلى فارس ، ومدح كسرى ، وأدخل فى شعره كلمات فارسية  
كثيرة<sup>(٧)</sup>.

ووفد عبد الله بن جُدعان على كسرى أنوشروان<sup>(٨)</sup> ، وكان لعبيد بن شربة

(١) طبقات الشعراء ٢١٨ والأغاني ١٦ / ٧٣ .

(٢) المغازى ٨٥ و ٨٨ . (٣) معجم ما استعجم للبكري ١ / ٧٥ .

(٤) الأغاني ٢ / ١٠١ - ١٠٦ .

(٥) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ / ١٠٩ - ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطى ١١١ .

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٠ و عيون الأنباء ١ / ١١٣ .

(٧) معجم البلدان ٢ / ٥١ ودراسة الشعراء للمرصفي ٩٢ .

(٨) الأغاني ٨ / ٤ .

المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم<sup>(١)</sup>.  
وكانت ترد على أهل مكة في الجاهلية دراغم الفرس البغلية والكسروية<sup>(٢)</sup>.

### أثر الفرس في العرب

ليس من أغراضى هنا أن أبسط القول في أفانين التأثير الفارسى في العرب ؛ لأن ذلك يبعد بى عما أقصد الآن إليه ، وله مجال آخر<sup>(٣)</sup> ؛ لهذا سأقتصر بحثى على تبيان التأثير الفارسى في الحياة الاجتماعية ، وما يتصل بالمرأة ، وإذا كانت الزرادشتية والمناوية والمزدكية دعائم العبادة والاجتماع عند الفرس ؛ فإن من حقها أن تفرد بكلمة .

أما زرادشت : فهو عند الفرس نبي أسموه زرتشترا ، وسماه اليونان زرواستر ، ونسبوه إلى زمن قديم ، ولكن المؤرخين المحدثين يرون أنه كان بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد<sup>(٤)</sup> ، وقد ظهر بين الفرس وهم يعبدون مثرا إله الشمس ، وأناهيتا إلهة الخصب والأرض وغيرها ؛ فثار ضد المجوس أو الكهنة الذين كانوا يلون شئون هذه العبادة ، وأعلن وحدانية الله ، وسماه أهورا مزدا إله النور والسماء ، وأعان أن ما عداه من آلهة إن هى إلا مظاهر من صفاته . وآزره في نشر هذه العقيدة دارا الأول ، وجعل الزرادشتية وحدها الدين الرسمى للدولة بعد أن كانت بغيضة إلى الأهلين<sup>(٥)</sup> .

رمز زردشت إلى أهورا مزدا برمزين هما : الشمس والنار ، ودعا إلى تقديسهما على هذا الاعتبار<sup>(٦)</sup> ، ولكن أتباعه عبدوا النار من بعده ، وعدوها

(١) الفهرست ٨٩ . (٢) فتوح البلدان ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٣) فصلت القول في هذا في كتاب ( التيارات المذهبية بين العرب والفرس ) .

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٣٨ ول ديورانت .

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٣٩ والدعوة إلى الإسلام ١٧٩ أرنولد .

(٦) قصة الأدب الفارسى ٣٢ حامد عبد القادر .

من آلهتهم ، وأسماها (آنز) وجعلوها ابناً لإلههم الأعظم إله النور والضياء ، وكانوا يقدمون للشمس والنار وأهورا مزدا قرابين من الأزهار والخبز والفاكهة ومن الحيوان ، وأحياناً من البشر<sup>(١)</sup> .

وأما المانوية : فقد ظهرت في إيران سنة ٣٤٢ م في زمن سابور بن أردشير ، إذ ادعى ماني النبوة ، وصدقه خلق كثير ، هم الذين سمو المانوية .  
والمانوية قائمة على الزرادشتية وبعض تعاليم من المسيحية ، إذ أن ماني لم ينكر نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

وأهم تعاليمها أن العالم تسيطر عليه قوتان : النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر . وقد فرض ماني على أتباعه عدة فروض ، منها التواني في العمل ، وتعلم المسحر ، والامتناع عن الكذب والسرقة والزنا والقتل ، والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، والامتناع عن الزواج ، وإيثار العزلة والرهبة ، حتى يفنى العالم ، ويعود النور إلى موطنه الأصلي .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الأولى كانت تشجع على العمل والتعمير والتناسل ، وأن الثانية كانت تدعو إلى الكسل والحول .  
ولهذا قال هرمز بن سابور إن ماني جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم<sup>(٢)</sup> .  
ولهذا أطلق أتباع زرادشت كلمة ملاحدة أو زنادقة على أتباع ماني .

وأما مزدك : فقد ظهر في أوائل القرن السادس في عهد قبادز والد كسرى أنوشروان معاصر البعثة الحمدية ، ووافق زرادشت في بعض ما جاء به ، وزاد ونقص ، ولكنه استحل الحارم والمنكرات ، وسوى بين الناس في الأموال والأموال والنساء ، والعبيد والإماء ؛ فكثر أتباعه من السفلة والطغام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قبادز ؛ فعظمت البلايا على الناس ، وصار الرجل

(١) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسي ٥٤ والمثل والنحل ١/ ٢٢٤ .

لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف أباه . فلما مضت عشرين من ملك قباذ اجتمع موبدان موبذ والعظاء ، وخلعوا قباذ وولوا عليهم أخاه جامسب ، ثم أعيد قباذ بعد قتل كثير من المزدكية<sup>(١)</sup> .

ويتحدث نظام الملك في تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن في نساءكم ، فهي كالأموال بينكم ، فمن يرغب في امرأة فليجتمع بها ، فليس في ديننا غيرة ولا ستمية ، وبهذا لا تحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها .

وإذاً فقد فتح مزدك أبواب الفساد لجميع الناس ، ورغبهم في مذهبه ولا سيما العامة . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلاً إلى منزله فعليه أن يمدحهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مجامعة نساؤه . . . ولكن أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى أبيه ، وبين لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباء على الملك والدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسرّ إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه ، وقتل مزدك وكثير من أتباعه<sup>(٢)</sup> .

وإذاً فقد حاول مزدك أن يفلسف مذهبه ، ويصغفه بصيغة فيها خير للمجتمع ، فادعى أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شحنة وسفك دماء إنما سببه النساء والأموال « فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ<sup>(٣)</sup> .

وأغاب الظن أن الدعوة إلى شيوع النساء في فارس أقدم من مزدك هذا ،

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٤ والأغانى ٦١ / ٨ ساسى والملل والنحل ١ / ٢٢٩ .

(٢) سياسة نامه ٢٤٠ تأليف نظام الملك . ترجم هذه الفقرة صديق الدكتور محمد موسى

هنداوى .

(٣) الملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل ٢ / ٨٦ وصبح الأعشى ١٣ / ٢٩٧

( ٤ - المرأة في الشعر الجاهلى )



لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل فسا ، يقال له زرادشت بن خركان ، وقد تابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال له مزدق<sup>(١)</sup> ، وبهذا الرأي أخذ براون<sup>(٢)</sup> . ويعزوه أيضاً أن ابن النديم ذكر أن اثنين دَعَوَا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر في أيام قباد ، وقتله أنوشروان<sup>(٣)</sup> ، وقتك بأتباعه<sup>(٤)</sup> .

وأياً ما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذبوع المذهب في الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقي عدد منهم تعقبه أنوشروان بعد استوائه على العرش ٥٣١ م ، ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية .

### بعض مظاهر التأثير الفارسي في العرب :

١ — عبد الفرس النار بعد زرادشت كما سبق ، وكانت بيوتها منبثة في العراق مثل بيت النار الذي بنته بوران بنت كسرى ابرويز ، وغيره من بيوت كثيرة بناها المجوس هناك<sup>(٥)</sup> ، ناهيك بما كان في فارس نفسها من بيوت النيران ، حتى لقد قال ابن حوقل عن كورة اصطخر: إن بيوت نيرانها كثيرة ، والعلم بها من غير الديوان متعذر ، إذ ليس من بلد ولا رُستاق ولا ناحية إلا بها عدد كثير منها<sup>(٦)</sup> ، وظلت معابدهم إلى ما بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون في العراق وفارس<sup>(٧)</sup>

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٩١ .

(٢) Litery History of Parsia Browne P. 170. (٣)

(٣) الفهرست ٣٤٢ .

(٤) التبني والإشراف للمسمودي ٨٩ والفهرست ٣٤٢ .

(٥) مروج الذهب ١ / ٢٦٨ (٦) المسالك والممالك لابن حوقل ١٨٩

(٧) مروج الذهب ٤ / ٨٦ والإصطخرى ١٠٠ و ١١٨ والمسالك والممالك ٨٩

وكان المجوس منبئين في بقاع شتى من جزيرة العرب ، وقد دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مجوس نجران <sup>(١)</sup> ، ومجوس اليمن ، ومجوس هجر <sup>(٢)</sup> ، ومجوس عُمان <sup>(٣)</sup> ، والبحرين <sup>(٤)</sup> . وكان بالقطيف وبالزارة مجوس امتنعوا من أداء الجزية للنبي ، وبالغابة ودارين مجوس أيضاً <sup>(٥)</sup> ، وكان بتميم مجوس ، منهم زرارة بن عدُس ، وابند حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان وغيرهم <sup>(٦)</sup> . وكان سلمان الفارسي مجوسياً أسلم <sup>(٧)</sup> .

وقد ظلت المجوسية عقيدة لبعض العرب إلى عهد النبي ، بل إلى عهد عمر ، فقد ذكر له في خلافته قوم يعبدون النار ولينسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب <sup>(٨)</sup> .

لذلك لا عجب أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبو الحسن المدائني كتاباً سماه ( كتاب فيمن تزوج مجوسية ) <sup>(٩)</sup> . ولم يكن هذا الزواج في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوّة زرادشت مكذبون بسائر الأنبياء <sup>(١٠)</sup> .

وقد تجلّى تقديسهم للنار في مظاهر شتى ، فهم حلفوا بها ، إذ كانت نار باليمن ، لها سدة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنتفض ، فيبول بذلك على

(١) فتوح البلدان ٧٥ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٨ والحراج لأبي يوسف ٧٤ .

(٣) فتوح البلدان ٨٤ (٤) فتوح البلدان ٨٦ (٥) فتوح البلدان ٩٢ و ٩٣

(٦) الأعلام النبوية ٧ / ٢١٧ والمعارف ٢٠٥ وطبقات الأئمة ٤٣ والكامل لابن

الأثير ٢١٣/١ .

(٧) أسد الغابة ٢ / ٣٢٩ .

(٨) الحراج لأبي يوسف ٧٤ والرسالة لاشافعي ٤٣٠ .

(٩) الفهرست ١٠٢ (١٠) الفصل ١١٣/١ .

الخالف لينكل إذا كان مذنباً ، ويجزؤ على الحلف إذا كان بريئاً <sup>(١)</sup> ، يقول أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المَهْوَل حالف <sup>(٢)</sup>  
 وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى <sup>(٣)</sup> أفنون التغلبي <sup>(٤)</sup> ، ثم ذكرها  
 الكميت في العصر الإسلامي <sup>(٥)</sup> .

وكان العرب يتحالفون على النار ، وربما يدنون منها حتى تكاد تحرقهم <sup>(٦)</sup> .  
 ثم إنهم استمطروا بها أيضاً <sup>(٧)</sup> ، وفي شعر أمية بن أبي الصلت تسجيل لهذا  
 الاستمطار <sup>(٨)</sup> .

وقد روى أن بشار بن برد كان يدين بهذا المذهب ، لذلك فضل النار على  
 التراب ، وإبليس على آدم في قوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار <sup>(٩)</sup>  
 وقوله :

إبليس أفضل من أيبكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار  
 الناس عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار  
 وقد رد عليه صفوان الأنصاري بقصيدة طويلة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند <sup>(١٠)</sup>

(١) تاريخ الطبري ٩٦/٢ وأبيات المعاني لأبي هلال العسكري وأساس البلاغة والقاموس المحيط مادة هول وأيمان العرب للنجيري ٣١ والحيوان .

(٢) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول ..

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٣٩ (٤) المفضليات ٦٢/٢ .

(٥) البيان والتبيين ٦/٣ وأساس البلاغة مادة هول .

(٦) أيمان العرب للنجيري ٤٧/٤ الكاتب ٣١ مخطوط

(٧) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ ساسي

(٨) ديوان أمية ٤٥ والحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ .

(٩) الأغاني ٢٠/٣ ساسي والبيان والتبيين ١٦/١ بتحقيق هارون ..

(١٠) البيان والتبيين ٢٧/١ - ٣٥ تحقيق هارون .

٢ — وعبد وبعض العرب الشمس أيضاً يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت ، ومن عبادها ثمود ، و « كانت تميم أدنى من غيرها ثقافة فألموا الشمس بخاصة <sup>(١)</sup> » . وعبدها عرب من حمير قبل أن يتهودوا منهم ملكة سبأ ، يقول تعالى على لسان المهدد لساميان . « وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله <sup>(٢)</sup> » .

وعبد بعض اليمانيين ودا إله القمر ، وعبدته بعض قبائل من كنانة ، وعبدت تميم الدبران ، وعبدت نغم وجذام المشتري ، وعبدت طيء سُهَيْلا ، وعبدت قيس الشعرى العبور ، وعبدت أسد عطار <sup>(٣)</sup> . وعبادة الكواكب والنجوم وثيقة الصلة بعبادة الشمس .

ومن عبدة الكواكب صابئة حران ، لذلك برعوا في الفلك والسحر ، وظلوا على دينهم إلى سنة ٨٣٠ م إذ سألهم المأمون عن دينهم فأجابوا بما لا مفتح فيه ، فهددهم بالقتل إن عاد من رحلته فلم يجدهم على دين سماوى ، فقبلوا نصيحة بعض فقهاء المسلمين ، وأعلنوا أنهم من الصابئة ، وتحت ستار هذا الاسم استمتعوا بحقوق أهل الكتاب ، وإن ظلوا على عقائدهم القديمة <sup>(٤)</sup> .

وكان في العرب صابئة آخرون ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(٥)</sup> » .

وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(٦)</sup> » . وقال :

(١) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٧ .

(٢) سورة النمل ٢٤ (٣) طبقات الأمام لصاعد الأندلسى ٤٣ .

(٤) Encyclopaedia Britannica ( Art Sabians ) والفهرست ٣٢٠

(٥) البقرة ٦٢ .

(٦) المائدة ٦٩

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد <sup>(١)</sup> . »  
 وهم في بعض الأقوال يعبدون الملائكة <sup>(٢)</sup> ، أو يعبدون الكواكب <sup>(٣)</sup> ،  
 أو هم لا يعبدون الكواكب ولكن يعظمونها ، كما يعظم المسمون الكعبة  
 بالتوجه إليها <sup>(٤)</sup> . وفي الصابئة أقوال أخرى <sup>(٥)</sup> .  
 وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، قال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً  
 ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من  
 دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » <sup>(٦)</sup> .  
 وهم الذين قال الله فيهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » <sup>(٧)</sup> .  
 وقال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله

(١) الحج ١٧ .

(٢) تفسير الطبري ٩٧/١٧

(٣) هذا رأى الصاحبين أبي يوسف ومحمد . عيون المسائل ٥٠

(٤) هذا رأى أبي حنيفة . عيون المسائل ٥٠

(٥) يكذبون بنبوة إبراهيم ومن بعده وصدقون بنبوة إدريس وغيره (الفصل ١٠٢/١) .  
 وليس لهم كتاب وإنما لهم حدود وأحكام ( الملل ٤٤/١ ) . وقد يجعلون من النصارى وقد  
 يجعلون من غيرهم ( تفسير النيسابوري ٩٧/١٧ ) أو هم يدينون بكتاب ينسبونه إلى شيت .

Original Sources of Qoran. Adolphe Lods P. 52. and Browne  
 P. 145

وتعرف شريعة شيت عندهم باللغة الحقيقية ( قصص الأنبياء ٤٢ ) وكان شيت قبل إدريس  
 ونوح ( قصص الأنبياء ٣٨ و ٤٥ ) . وكانت له دراية بالفلك والنجوم ( قصص الأنبياء  
 ٤٠ و ٤٣ ) أو هم على دين نوح ( القاموس مادة صبا ) أو دينهم يشبه دين النصارى ويزعمون  
 أنهم على دين نوح وهم كاذبون ( التهذيب للأزهري وهامش القاموس مادة صبا ) . وقد  
 اعتبرهم المسلمون من أهل الذمة يدفعون الجزية كغيرهم من الكتابيين ( المراجع لأبي يوسف ٦٩ )  
 والذي هو المتسك بكتاب كاليهود والنصارى . أما من زعم أن له كتابا كصحف إبراهيم  
 وزبور داود ففيه خلاف ، والأصح عقد الذمة له ، وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول  
 النصارى . ولكن لا يعقد لزنديق ولا عابد وثن ولا لعابد الملائكة والكواكب ( صبح  
 الأعشى ٣٦١/١٣ ) .

(٧) النحل ٥٧

(٦) سبأ ٤٠ و ٤١

الأنثى؟<sup>(١)</sup> » وقال : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . إنكم اتقولون قولاً عظيماً<sup>(٢)</sup> » ومن هؤلاء ، قريش كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ويعبدونها<sup>(٣)</sup> ، وآخرون من العرب زعموا أن الملائكة والأوثان بنات الله<sup>(٤)</sup> .

ومن مظاهر عبادة العرب للكوكب والنجوم اعتقادهم في الأنواء ، ونسبتهم للمطر والرياح وكثيراً من الأحداث إليها ، كما سأيين في (ثقافة المرأة) . وكذلك سميتهم الشمس إلهة ، قال عتبة بن الحارث اليربوعي :

تروءحنا من اللآباء عصرا وأعجلنا الإلهة أن تثوبا<sup>(٥)</sup>

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلاً : أبديني بها سنّاً أحسن منها ، ولتجر في ظلمها إياتك . وزعموا أنه إذا فعل ذلك أمن على أسنانه العوج . وإلى هذا يشير طرفة بقوله :

سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف - ولم تكدم عليه - يأمئد<sup>(٦)</sup>  
وقال أيضاً :

بدلته الشمس من منبته برءاً أبيض مصقول الأشر<sup>(٧)</sup>

٣ — واعتنق بعض العرب المزدكية ، اعتنقها مالك كندة الحارث بن عمرو ابن حُجر ، وكان معاصراً لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان المنذر بن ماء السماء في عهد قباز عاملاً له على الخيرة ونواحيها ، فدعاه قباز إلى الدخول معه في

(١) النجم ٢٢ .

(٢) الإسراء ٤٠ (٣) تفسير الطبري ٦٨/٢٣ .

(٤) تفسير الطبري . سورة النحل ٥٧ .

(٥) لسان العرب مادة أوب . الألباء : اسم مكان . تروحننا : رجعننا . أعجلنا : سبقنا .

تثوب : تقرب .

(٦) ديوان طرفة ٢٥ إياة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تغض بأسنانها عظمها يذهب تحزير أسنانها . أسف عليه يأمئد : ذر على لثته لأمئد وهو حجر للسكحل .

(٧) ديوان طرفة ٦٥ الأشر : تحزير الأسنان .

المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فأجابه ، فولاه الخيرة مكانه . ثم لما تولى أنوشروان أعاد المنذر وأبعد الحارث <sup>(١)</sup> .

## المرأة الفارسية

لم تسمُ المرأة الفارسية إلى مكانة عليّة ، وبحسبنا من الدلالة على أنها كانت في نظر الرجال مستمتعاً رواج الدعوة المزدكية ، وهشاشة العامة لها ، ورضا بعض الخاصة بها ، حتى لقد ناصرها الملك قباد عشر سنوات .

ثم إنه كان للفارسي أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت <sup>(٢)</sup> .

ولم تتعلم النساء شيئاً سوى تدير منازلهن <sup>(٣)</sup> .

ولا يناقض هذه المكانة أن ملّك الفرس عليهم سنة ٦٣٠ م بوران بنت كسرى أبرويز فلبست التاج ، ووعدت الحاضرين أن تسير فيهم بأحسن سيرة ، فنثروا عليها الجواهر ، وأظهروا البشائر ، ودام ملكها نحو سنة وأربعة أشهر حتى ماتت . ثم ملكوا بعدها آزرم دخت بنت كسرى نفسه ، فلبست التاج ، ووعدت أن تعدل كما وعدت أختها ، ولكن ملكها لم يمكث إلا نحو أربعة أشهر ، وماتت أو سُمت <sup>(٤)</sup> .

وكان قداماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج بينته ، وبأخته الشقيقة ، أو غير الشقيقة <sup>(٥)</sup> ويبيحون الأمهات ، والجمع بين الأختين <sup>(٦)</sup> ، فيتزوج الأب

(١) الأغاني ٦١/٨ و تاريخ اليعقوبي ٢٩٩/١ و

Original Sources of the Quran P.P 212 - 215

(٢) تحرير المرأة قاسم أمين ٢٣ (٣) تاريخ التربية ١١٦/١ الفطان .

(٤) الشاهنامه للفردوسي ٢٦١/٢ - ٢٦٢ ترجمة عزام وتاريخ الطبري ١٦٨/٢ والتنبية والإشراف للسعودي ٩٠ مع اختلاف يسير في مدة الحكم .

(٥) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) صبح الأعشى ٢٩٥/١٣ .

ابنته ، والابن أمه ، والأخ أخته ، لأن الزرادشتية تبيح ذلك <sup>(١)</sup> .  
 وإذا كان الإيرانيون وبخاصة ال ( كبر ) قد ادعوا في القرون الوسطى أن  
 العقائد المجوسية لم تحل الحارم ، فإنهم يخالفون الحقيقة الواقعة <sup>(٢)</sup> .  
 على أن تعدد الزوجات كان مباحاً أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت  
 التسرى ، واتخاذ الحظايا والخليلات <sup>(٣)</sup> .

وكان الحجاب شديداً على نساء الطبقة الراقية ، حتى لقد كن لا يخرجن إلا  
 في هودج مرخاة عليها السدول ، وكان محظوراً عليهن أن يخالطن الرجال في  
 مجتمع عام أو خاص ، بل لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن أو إخوتهن .  
 أما الفقيرات فكن حرات في التنقل ؛ لاضطرارهن إلى الكد والعمل . وكانت  
 الخليلات والحظايا يتمتعن بقسط عظيم من الحرية ؛ لأن المفروض فيهن أنهن  
 يرفهن عن سادتهن وعن ضيوفهم <sup>(٤)</sup> .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويفألون في تقديرهم ، ويعدونهم  
 ثروة اقتصادية لآبائهم ، وعدة حرية لمالكهم .

أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من  
 تربيتهن إعدادهن لمنزل رجل آخر يخفى فائدتهن . ومما قاله الفرس إن الرجال  
 لا يتهلون إلى الله مطلقاً من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لاتعتبر البنات  
 بركة يجوز منحها للبشر <sup>(٥)</sup> .

(١) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢

(٣) قصة الحضارة الفارسية ٦٠

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٥٨

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٦١



# صلة العرب بالرومان

١ — إذا كانت صلة العرب بالفرس قد نجمت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ببضعة قرون ، فإن علاقة العرب باليونان والرومان قد نبئت قبل أن تنشأ إمارة غسان ببضعة قرون أيضاً .

فقد عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب ، لأن الإغريق كانوا يعتقدون أنها غنية ، ثم كانت الغزوة التي قام بها نيارك حول بلاد العرب نذيراً بإزماع الإسكندر على غزو بلاد العرب نفسها ، ولكن موته وقاها هذا الغزو .

وحوالى ٢٤ ق . م أرسل الإمبراطور أغسطس قيصر حملة خرجت من مصر بقيادة والى مصر إيلوس جالوس *Aelius Gallus* لتستولى على طرق التجارة التي يحتكرها الحميريون ، ولتستغل موارد الثروة في اليمن لصالح روما ، وتوغلت الحملة حتى نجران ، ثم باءت بالفشل ، وكان يرافقها المؤرخ سترابون<sup>(١)</sup> ، وقد استعان فيها جالوس بالأنباط<sup>(٢)</sup> .

ثم كانت دولة الأنباط مسلماً للاتصال بين العرب والرومان ، وقد قامت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ودامت مستقلة إلى أن دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦ م ، وكان اليونان يسمونها العربية الحجرية *Arabia Petra* نسبة إلى عاصمتها بطرا ( الحجر<sup>(٣)</sup> ) وكانت مملكته الأنباط ، ولاسيما عاصمتها مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

٢ — ولما سقطت بطرا في قبضة الرومان انتعشت إمارة أخرى هي تدُمُر ، وطمع فيها الرومان كما طمعوا في بطرا ، وحاولوا فتحها في منتصف القرن الأول

(١) تاريخ العرب ٥٨/١ فيليب حتى

(٢) العرب قبل الإسلام زيدان ٦٨ - ٧٦

(٣) العرب قبل الإسلام ٦٨ .

قبل الميلاد بقيادة ماركس أنطونيوس ، ولكنهم لم يفلحوا .

وبلغ بعض ملوكها من القوة إلى حد أن ساعدوا الروم في حربهم للفرس .  
مساعدة تكفل النصر للروم ، بل لقد انتصر أذينة ( ٢٦٥ م ) على ملك الفرس .  
سابور الأول ، فنار لهزيمة الإمبراطور فاليريانوس ، فكافأ الإمبراطور أذينة بأن  
جعله إمبراطور الشرق ، وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني .

ولكن هذا الصفاء بين الرومان ومملكة تدمر لم يدم طويلا ، فقد تنكر  
الرومان لتدمر ، وقاتلوا الزباء زوجة أذينة ، فانتصرت عليهم انتصاراً مبيتاً ، ثم  
عادوا حربها وهزموها سنة ٢٧٢ م ، وبعد موتها أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ،  
وعاش بها بعض الأساقفة ، وشيد بها جستانين كنيسة . واستمرت تدمر خاضعة  
للرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب <sup>(١)</sup> .

والأنباط والتدمريون جميعاً عرب ؛ لأن مؤرخي اليونان المعاصرين لهم  
ذكروا أنهم عرب ، ولأن أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورثال وأذينة  
ووائل وعدى وعميرة ، ولأنهم كانوا يتكلمون العربية .

ولاحظنا في هذا أن آثارهم التي كشف عنها مكتوبة باللغة الآرامية ، فقد كانت  
لغة الكتابة في ذلك العهد ، وكان هذا شأن الدول القديمة بالشرق ، وخاصة فيما  
يتصل بالآثار السياسية والدينية <sup>(٢)</sup> . ويصح لنا أن نقول إن اللغة الآرامية كانت  
لغة دولية <sup>(٣)</sup> ، وفي التوراة ما يؤيد أن الإسرائيليين كانوا يتكلمون بها لما حاصر  
سنخاريب بيت المقدس <sup>(٤)</sup> وليس هذا بقادح في نسب الإسرائيليين . وكذلك كان  
عرب الحيرة يتكلمون العربية ، ويستعملون السريانية غالباً في كتابتهم <sup>(٥)</sup> ، وعرب

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٣ و ١٣/٥ وتاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى

(٢) تاريخ الأدب السرياني ٨ مراد كامل والبكري والعرب قبل الإسلام ٧٨ و ٨٩ .

(٣) تاريخ الأدب السرياني ٥ و ٩ .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ : ١١ .

(٥) عصر ما قبل الإسلام ١٣٥

غسان يستعملون الآرامية لغة ثانية لهم<sup>(١)</sup> ، وهذه الحال تشبه حالنا الآن ، فنحن نصطنع العامية في حديثنا والفصحى في كتابتنا ، بل لقد يصطنع بعضنا لغة أجنبية فيما يكتب ، وفي الشؤون الدولية بخاصة .

٣ — ثم أسست مملكة غسان ، وكانت صلتها بالرومان وثيقة ، وهي مشهورة شهرة تخولني أن أكتفي هنا بالإشارة إليها .

على أن قبائل عربية كانت تخضع للروم وتتصل بهم ، فمثلا كانت قبيلة إباد تنزل بقرى من أرض الروم ، وكان بعضها يسكن حمص وأطراف الشام<sup>(٢)</sup> ، ثم دانت لغسان وتنصرت<sup>(٣)</sup> .

وكان نفوذ الرومان قد تسرب إلى قلب الجزيرة ، نتيجة للاتصال التجارى الدائم بين العرب والشام والرومان ، حتى إن أوليرى يرجح أنه كان بمكة قناصل رومانيون يرعون مصالح قومهم التجارية<sup>(٤)</sup> . وقد قدم عثمان ابن الحويرث على قيصر ، ورغبة قيصر في أن يحض قريشاً على الإقبال بتجارتهم إلى الشام ، وقيل إنه ولاء أمر مكة ، لكن قومه انقضوا عليه بعد أن بايعوه<sup>(٥)</sup> .

ثم إن الدنانير المرقلية كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية<sup>(٦)</sup> ، وقد شبهت امرأة عربية طالحة بأنه دينار هرقل<sup>(٧)</sup> .

وبعض العرب تزوجوا روميات ، فمثلا أبو الروم بن حمير بن هاشم بن عبد مناف أمه أمة رومية<sup>(٨)</sup> . ونجد في الجزيرة أشخاصاً من الروم ، وأسماء رومية ،

(١) المرجع السابق ١٤٢ . (٢) معجم ما استعجم ٧١/١

(٣) معجم ما استعجم ٧٥/١ .

(٤) Arabia Before Muhammed. O'leary. P. 184

(٥) الروض الأنف ١٤٦/١ والتتقى من أخبار أم القرى ١٤٣ .

(٦) فتوح البلدان ٤٧١ - ٤٧٢

(٧) الميوان ٢٥٢/٤ وعبون الأخبار ٢٥/٤

(٨) أسد الغابة ١٩٤/٥ .

مثل زينة الرومية التي أعتقها أبو بكر<sup>(١)</sup> . والأزرق غلام الحارث بن كلدة<sup>(٢)</sup> وأبي الروم ، وأبي رومي<sup>(٣)</sup> .

### أثر الرومان في العرب :

كان العرب المتصلون بالرومان على قسط عظيم من الحضارة ؛ لأنهم يقبسون من حضارة الروم ، فمثلاً يصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس الفناء عند جبلة بن الأيهم وصفاً يدل على ترف وتحضر ، ويقول إنه سمع عشر قيان يغنين ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط<sup>(٤)</sup> .

على أن الرومان كانوا من بواعث نشر المسيحية في بلاد العرب كما سبق ، وقد أعانهم الفساسنة في نشرها وحمايتها ، حتى لقد كان الحارث بن أبي شمر حامياً للكنيسة في الشرق ، والرومان هم السبب في نشر المسيحية في اليمن منذ بعثة تيوفيلوس ٣٥٦ م كما سبق .

## المرأة الرومانية واليونانية

١ — كانت المرأة في نظر الرومان القداماء شراً يجتنب ، وإن كانت مخلوقة للمتعة ، وهي دائماً خاضعة للرجل أباً أو زوجاً ، « وكان زوجها يملك مالها ، ويقم عليها وصياً قبل موته<sup>(٥)</sup> »

فهي في نظره ونظر المجتمع أمة لا قيمة لها ، بيد أبيها أو زوجها حق حياتها وحق موتها ، وإذا كانت ملك أبيها في شبابها ، فإنه هو الذي يختار لها زوجها ، فإذا ما تزوجت ملكها ، ويقول الفقهاء إنها في يمينه مثل ابنته<sup>(٦)</sup> . وعلى كثرة المشرعين في روما فإنهم لم يحلفوا بالمرأة ، ولم يعترفوا لها بحق ، وإنما عينوا ما عليها من واجب . فهي في نظرهم أمة شرعية يتصرف فيها رب الأسرة كما يتصرف

(٢) أسد الغابة ٥/٨١١

(٤) الأغاني ١٦/١٤ .

(٦) حضارة العرب ٤٩٤ .

(١) أسد الغابة ٥/٤٦٢ .

(٣) أسد الغابة ٤/٤٢٧ .

(٥) المرأة في الصور ٢٥

في عبيده وقطعانه<sup>(١)</sup>.

على أنها في بعض الأحوال عمود النسب ، فإذا تزوج روماني امرأة أجنبية ، ولم يكن بينهما حق المطاهرة لحق الولد بأمه ، وكان غريبا ، وإذا تزوج لاتيني امرأة رومانية لحق الولد بأمه أيضا<sup>(٢)</sup> .

وإلى هذا النظام يشير أبو العلاء إشارة سافرة في قوله :

وَلُحِبُّ الصَّحِيحِ آثَرُ الرُّومِ انتساب الفتى إلى أمهاته  
جهلوا من أبوه إلا ظنونا وطلا الوحش لاحق بمهاته<sup>(٣)</sup>

ولكن المرأة تنفست في عصر روما الذهبي ، وتحررت وسادت ، وأمسى الرجال أسارى النساء ، كأنما تواضع الرجال والنساء على تبادل ما كان ، وهال نفوذ النساء كاتوا أحد عظماء روما السياسين ( ٢٣٤ — ٣١٥ م ) ، وهاله أن عم الرخاء ، وبالغت النساء في زيتهن ، وتدخلت الماجنات في سياسة الدولة ، وتسلمن على الأباطرة حتى أضعف سلطانهن روما نفسها ، عندئذ حاول كاتو أن يؤيد القانون الذي يحرم النساء الثروة ، فعجز ، وازداد التحسن في مركز النساء ، وتقدير الرجال لهن ، حتى إنه بعد الإمبراطور ديوكلتين ( ٢٨٤ — ٣٠٥ م ) لم يبق أثر من سلطة الآباء والأزواج الشديدة ، وما زال الحال كذلك إلى أن كاد المشرعون في عصر جوستينيان ( ٥٢٧ — ٥٦٥ م ) يساوون النساء بالرجال في الحقوق<sup>(٤)</sup> .

وسواء نظرنا إلى العصر الذهبي أو إلى ما قبله ، فإننا نجد المرأة لم تعامل معاملة الرجل ، ولم تنافسه في مرتزقه ، فلم ترب البنت كإيربي الولد ، بل وجهت إلى فنون المنزل ، وأعدت للحياة الزوجية ، واتخذت من أمها معاملة لها ، وكانت تجيد الغزل .

(١) تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس ١٩٩ .

(٢) أساس العدالة في القانون الروماني ٣٦ .

(٣) اللزومات ٩٦/٢ .

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٨٥ والمرأة في العصور ٣٠ .

والنسيج والخياطة<sup>(١)</sup> وشئون المنزل ، وكان من تشریفها أن تدعى أم الأسرة كما يدعى الرجل أبا الأسرة ، ومن تشریفها أن تكون زاهدة ، « فإذا ماتت كتبوا على قبرها مادحين : إنها التزمت بيتها ، ولم تبرحه ، وغزلت الصوف<sup>(٢)</sup> » .

كذلك كانت المرأة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ربة البيت ، ولها نفوذ في مجال عملها المنزلي ، ونفوذ على أطفالها<sup>(٣)</sup> .

وكان الطلاق مألوفاً عند الرومان ، وقد كثرت في عهد الجمهورية الأخيرة<sup>(٤)</sup> . وقد اعترف الرومان بأنه نظام مرعى منذ العصور الأولى في تاريخهم ، فإن قوانين الاثنى عشرة مائدة سوغته وأقرته ، ولكن ليس للزوجة حق في أن تطالبه ، فإذا حاولت الفراق عرضها لعملها للعقاب الصارم<sup>(٥)</sup> . ولولا أن المسيحية أطفأت من شرته لظل سيفاً مصلتاً على العلاقة الزوجية إلى عصر متأخر<sup>(٦)</sup> .

٢ — أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالا ، ولا أرفع مكانة ، لأن الإغريق عامة عدّوا النساء من المخلوقات المنحطة ، وليست المرأة عندهم إلا بطناً يدفع النسل ، وإلا حفيظة على شئون المنزل ، وإذا وضعت المرأة ولداً دميما قضوا عليها . قال مسيو تروبلونغ : « إن المرأة السيئة الحظ كانت تضع ولداً غير قوى صالح للجندية ، فقتل » . وقال : « كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها عارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر » . ولم ينل إبان ازدهار الحضارة اليونانية الخطوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى اللاتي كن وحدهن لا يتحرجن<sup>(٧)</sup> .

(١) تطور النظرية التربوية ١١٨ (٢) تاريخ الحضارة ١٩٩ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية ٣٣ تأليف نورمان بينتر وترجمة مؤنس وزيدان .

(٤) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ .

(٥) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣ .

(٦) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ .

(٧) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون .

وهي كأختها الرومانية مسودة دائماً ، فإن كانت فتاة سيطر عليها أبوها ، وإن كانت زوجة سيطر عليها زوجها ، وإن كانت أرملة سيطر عليها أهلها<sup>(١)</sup> .

وفد سمرت في إسبرطة وأثينا ، لكن هذا السفور ليس دليلاً على علو مكانتها ، لأن وظيفتها ولا سيما في إسبرطة كانت أن تحمل وتلد للدولة ، فالزنا غير محظور ، والحجاب عبث .

وانحطت منزلة المرأة في أثينا حتى عدت من سقط المتاع ، فكانت النساء يبعن ويشتري في السوق ، ومنزلتهن في الدرك الأسفل ، كأنهن رجس من عمل الشيطان . وكان مصرحاً للأثيني أن يتزوج بأي عدد يشاء . وقد فاخر ديموستين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، اثنتين منهن زوجات شرعيات وشبهيات بالشرعيات<sup>(٢)</sup> . «

ومن عجب أن فلاسفة اليونان لم يسموا بمرکز المرأة ، فإن سقراط لم يجد حرجاً عليها في أن يقرضها زوجها أصدقاءه . ولم تكن في رأي أفلاطون أسعد حالاً ، لأنه قسا عليها كما قسا قانون مانو الهندي القديم ، وأكدر في جمهوريته الواجب تداول النساء كما تتداول الحاجات<sup>(٣)</sup> . ثم لم يحاول أرسطو أن يبدل هذه النظرة ، فقد قرر أن الخير قد يوجد في أشخاص من كل نوع ، حتى في المرأة والعبد مع أن المرأة أميل إلى الشر منها إلى الخير<sup>(٤)</sup> .

واضطلغت هذه النظرة للمرأة بصيغة القانون ، لأن قوانين ليكورغ مشرع إسبرطة — قبل تسعة قرون قبل الميلاد — جوزت الشيوخ في النساء ، وأباح

(١) La grande Encyclopedia. Tome 14. P. 143-170

(٢) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٣٦ .

(٣) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ - ١٣٥ ومقدمة المحاضرات الأولى ٣٩

جستاف لوبون .

(٤) الشعر لأرسطو ٦١ ترجمة إحسان عباس .

للزوجة أن يستمتع بها غير زوجها بإذن منه ، وخولته أن يدفعها للاستبضاع من آخر على أن يكون الولد للزوج <sup>(١)</sup> .

وليس من مفاجأة الحق أن تقرر أن المدينة اليونانية كانت تزدهر والمرأة اليونانية تافهة القدر ، ومتعة للرجل ومسلاة ، وقائمة بخدمة الدار ، وقد تبينت تفاهتهن في ضيق آفاقهن ، وخولة معلوماتهن ، وطاعتهم العمياء للرجال <sup>(٢)</sup> .

ومن الطبيعي أن تستتبع هذه المكانة إجحافا بالحقوق المالية للمرأة ، فهي لا تملك ، ولا ترث <sup>(٣)</sup> ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها وحدهم ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجها الأكبر من ورثة أبيها الأقربين ، وينسب ابنهما إلى جده والدأبيه ، وإليه ينتقل إرث جده <sup>(٤)</sup> .

وكان الطلاق شائعاً عند الأثينيين بغير قيد أو شرط <sup>(٥)</sup> .

على أن الأولاد كانوا في التاريخ القديم للإغريق — المنتهى سنة ٤٧٦ م — ينسبون أحياناً إلى أمهاتهم ، وفي إلياذة هو ميروس أثارة من هذا <sup>(٦)</sup> .

وهنا يتشابه الإغريق والإسرائيليون في تقدير الأمومة أكثر من الأبوة ، لأن الإغريق أيضاً كانوا يبيعون للرجل أن يتزوج أخته لأبيه ، ولا يبيعون له أن يتزوج أخته لأمه <sup>(٧)</sup> .

(١) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ والأمومة عند العرب ٢٦ .

(٢) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٨٩ Mrs Ray Strackey

(٣) حضارة العرب ٤٩٤ جستاف لوبون (٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٤

(٥) مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير على الهندي ٧٣ .

(٦) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٢ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٥ .

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ .



## صلة العرب بمصر

كلما أوغنا في الماضي لنميط الحجب عن تاريخ العرب في جاهليتهم شعت أمامنا أنوار تكشف عن مجهول ، أو تضيف جديداً إلى ما نعلم . فالتدكان يبدو إلى الخطر أول وهلة أنه لا عجب في أن يتصل العرب بالعبرانيين والنصارى ، لأنهم مختلطون أحياناً ، ومتجاورون أحياناً ، وأنه لا عجب أيضاً في أن يتصلوا بالفرنس ، لأنهم تجاوروا وتجاوزوا قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ، وبعد أن أسست ، ثم لا غرابة في أن اتصلوا بالرومان ، لأنهم تصاقبوا وتخابروا وتحالفوا منذ كانت دولة الأنباط وتدمر ، ثم منذ نشأت إمارة غسان .

ولكن العجب في أن يتصلوا بمصر منذ زمن موغل في القدم ، « ففي الدور الببطي باليمن الذي انتهى حوالي ٣٠٠ ق . م كانت رحلات تجارية مصرية أيام الأسرة الخامسة تقوم من مصر إلى الجنوب ، منها رحلة الملك ساحورع من ملوك القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد بنط - وكان يظن أنها الصومال الحديثة فحسب ، ولكن ثبت أخيراً أنها الأرض التي على جانبي باب المندب بشقيه الإفريقي والآسيوي ، وأيدت هذا الرأي البحوث التي قامت بها كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م ، وبحوث الأستاذين رانجر وفون وسمز - ثم رحلة الملكة حتشبسوت حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م ، وهي مدونة على جدران المعبد الكبير الذي أنشأته في الدير البحري<sup>(١)</sup> . »

وتعددت حملات المصريين على بلاد العرب الجنوبية للحصول على اللبان والعطور وغيرها<sup>(٢)</sup> .

(١) تاريخ العرب ١/١ فيليب حتى وعصر ما قبل الإسلام ٦٣ - ٦٥ مبروك فايفر .

(٢) تاريخ العرب ١/١ - ٤٣ فيليب حتى .

وقد عرف العرب مصر زمن قديم ، وكانوا يندون على الجزء الشمالى الشرقى من مصر ، وقد سماهم المصريون شاسو ، أى البدو ، وكانوا ينتقلون فى بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، كما ينتقل بدو العصر الحاضر .

وكان لهم فى سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ . وكثيراً ما جاس العرب فى شرقى وادى النيل ، وكثيراً ما سطوا على مدن مصر وسلبوا السابلة من عهد ميناء ، وكثيراً ما استعان بهم الفراعنة فى حروبهم ، لما كانوا يعملون من شدة بأسهم .

ثم سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر وامتلكوها ، وعرفت دولتهم بدولة البدو ، واليونان يسمونهم هكسوس ، والعرب يسمونهم العماقة أو العرب البائدة<sup>(١)</sup> .

والمؤرخون مختلفون فى زمن امتلاكهم مصر ، ولكن إخراجهم منها يكاد يكون حوالى ١٥٨٠ ق . م على يد أحسن الأول ، وبذلك حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن<sup>(٢)</sup> . وقيل إنهم قدموا إلى مصر فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وما زالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر<sup>(٣)</sup> ، وبذلك قضوا فى مصر نحو خمسة قرون .

ولقد يقرب مسافة الخلف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة بين عشية وضحاها ، بل كان غزوهم تدريجياً ، واكتسب قوته بمرور الزمن ، كالشجرة التى تضرب بجذورها فى أرض خصبة فتزداد نمواً على مر الأيام ، وذلك أنهم وفدوا على مصر جماعات صغيرة متفرقة ، ثم صار لهذه الجماعات سلطان عظيم ، حتى حكموا مصر حوالى سنة ١٧٣٠ ق . م . ولما طردهم أحسن الأول لم يزل نفوذهم الثقافى

(١) العرب قبل الإسلام ٥٢ - ٥٦ جرجى زيدان .

(٢) مصر القديمة ، سليم حسن الجزء الرابع .

(٣) العرب قبل الإسلام ٥٢ .

من مصر ، بل استمرت ثقافتهم تطبع احياء المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة .

وهم الذين جلبوا الخيل والعربات إلى مصر ، ولا شك أنهم كانوا على جانب عظيم من المدنية<sup>(١)</sup> .

والراجح أنهم عرب كما قرر ذلك يوسفوس المؤرخ الإسرائيلي المتوفى في أواخر القرن الأول للميلاد ، نقلا عن ما نيشون المؤرخ الإسكندري المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد<sup>(٢)</sup> .

ودليل آخر أن العرب يسمونهم في كتبهم عمالقة مصر<sup>(٣)</sup> .

ثم إن لفظ هكسوس أصله هيك شاسو ، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة ، ثم تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية ، وهم العرب . وقد ورد في الآثار المصرية أن الهكسوس جاءوا من بلاد العرب قديماً ، وهذا يرجح عروبتههم .

على أن المصريين بعد أن أجلوهم من مصر استمروا يناصبونهم العدا ، ويفزونهم في أرضهم ، كما فعل رمسيس الثاني وتحتمس ، واستمر العرب أيضاً يهاجمون مصر بغزواتهم ، وقد ناصروا الفرس في فتحهم لمصر<sup>(٤)</sup> ، مما يدل على ميل إلى التآمر مستحكم بين العرب والمصريين .

والذين لا يذهبون إلى عروبتههم يقررون أن الساميين هم العنصر الغالب في الهكسوس<sup>(٥)</sup> ، ومن المحتمل أن بعض أجناس قد اختلطت بهم<sup>(٦)</sup> .

وقد ارتاد رمسيس الثالث بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب بأسطوله ، ولم يكن له بد من توطيد العلاقة الودية بين مصر وشواطئ البحر الأحمر واليمن ، ليفسح المجال للتجارة بين مصر وأقصى الشرق ، لذلك أنشأ طريقاً للقوافل منتظماً

(١) مصر القديمة ٤ / ١٦٣ .

(٢) العرب قبل الإسلام ٥٦ عن Josephes. wars of the jews. 1-19

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٢٧ . (٤) العرب قبل الإسلام ٥٩

(٥) مصر القديمة ٤ / ١٨٧ . (٦) مصر القديمة ٤ / ١٩٧

بين القصير وقنط ، تسلكه التجارة ، بعد أن تعبر المحيط الهندي مارة ببلاد العرب .

واقندى به رعميس الرابع ( ١١٦٦ ق . م ) فافتتح طريقاً مختصراً إلى بلاد العرب ، وكان الطريق إليها طويلاً<sup>(١)</sup> .

فلا عجب أن يكثر العرب بقنط ، وأن يذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا في زمانه ( القرن الأول قبل الميلاد ) من العرب<sup>(٢)</sup> ، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة ، وطمع فيها جيرانها ، وشرع بعض العرب يفتدون إليها بأنعامهم وخيامهم ، ويسطون على مدنها كما فعلوا من قبل ، ونزلوا قنط ، وملسكوها قروناً<sup>(٣)</sup> .

ولم تكن قنط وحدها هي المعمورة بالعرب ، بل كانت مدن كثيرة في صعيد مصر حافلة بالعرب منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد<sup>(٤)</sup> . ويذكر هيرودوت وبلينيوس وغيرهما أن الأقسام الشرقية من مصر وخصوصاً المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية قبل زمن هيرودوت وبلينيوس<sup>(٥)</sup> .

وإذا كانت كلمة العرب لم ترد في النصوص المصرية القديمة ، فإن هذا ليس دليلاً على أن العرب لم يتصلوا بمصر . فقد كانت شبه جزيرة سيناء وثيقة الصلة بمصر ، وسكانها عرب . وكلمة ( عرب ) لم تطلق عاملاً على قوم إلا قبيل الميلاد ، فمن الجائز أن المصريين قصدوا من كلمة ( عمو ) التي أطلقوها على البدوي والأسوي الأعراب الرحل في الأرض المصرية وحولها<sup>(٦)</sup> .

(١) العرب قبل الإسلام ٩٦

(٢) مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١ (٣) العرب قبل الإسلام ١٠٢ .

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على .

(٦) تاريخ العرب ٤١ فيليب حتى وتاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على

على أن التجارة كانت عروة أخرى من عرى الاتصال ، فكان السبتيون ينقلون العروض الهندية والحبشية على قوافلهم إلى مصر<sup>(١)</sup> ، ثم كان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر ، وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بها . جاء في سفر التكوين : « ثم جلسوا يأكلون - إخوة يوسف - ورفعوا عيونهم ونظروا ، فإذا قافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم محملة . . . . . وهم سائرون لينزلوا مصر<sup>(٢)</sup> » .

ثم نجد قبيلة حوثكة تنزل بمصر في العصر الجاهلي بعد نزاع بينها وبين غيرها<sup>(٣)</sup> .

وأخيراً نجد أنارة من هذا الاتصال فيما يروى عن وفود عمرو بن العاص على مصر في الجاهلية ، في قصة جال فيها الخيال وصال<sup>(٤)</sup> . وإذا كنت أدفع خيالها ، وأرفض تفاصيلها ، فإني لأستبعد جوهرها ، لأن عمراً تاجر ، ومصر من البلاد التي كان العرب يتجرون معها .

لذلك عثر الباحثون في اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية . وقد ألف المرحوم أحمد كمال معجماً كبيراً في ذلك لم يطبع بعد .

## المرأة المصرية

أما المرأة المصرية فقد كانت سامية القدر ، لها أن تتولى الملك إذا فقد الوارث للعرش من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة كما روى ديودور ، فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات بإزاء أربعائة وسبعين ملكاً<sup>(٥)</sup> .

(٢) سفر التكوين ٣٧ : ٢٥ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي .

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٠

(٣) معجم ما استعجم ٤٠/١

ويظهر أن شعور المصرية بأنوثتها كان السبب في أنها - وإن كانت مملكة - تشعر بأن الملك أليق بالرجل ، لأن الملكة حتشبسوت - قبل ١٥٥٠ ق . م - اضطرت إلى أن تلبس ثياب الرجل ، مراعاة للرأى العام<sup>(١)</sup> . وكان المصريون يدينون للملكة بالولاء ، ويحلوونها ، حتى ليقول ديودور الصقلى : إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى الجليلة التي خلفتها في مصر الإلهة إيزيس<sup>(٢)</sup> .

وكانت الزوجة جليلة القدر ، حتى إن الملك لا يكاد يصور على الآثار إلا مع زوجته ، وهذا عام لا يقتصر على الطبقة العالية .

وكان لقبها أنها ربة البيت<sup>(٣)</sup> . وكانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العالية ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث ، فالمصرية كانت امرأته بجانبه أينما وجد ، ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، وهذا يشبه ما نراه الآن في الحفلات الأوروبية ، فالزوج المصري وزوجته يجتازان الحياة واليد في اليد كما نرى في الصور التي على القبور<sup>(٤)</sup> .

ومما يدل على العناية بالزوجة أن فتاح حتب - ابن ملك من الأسرة الخامسة - أذاع وصاياه لما طعن في السن على بنى وطنه ، وكان منها : إذا كنت عاقلاً فأجدتموين بيتك ، وأحب امرأتك ، ولا تشاحنبا ، وغذها ، وزينها ، وعطرها ، ومتعها ما حييت ، فهي ملك يجب أن تكون جديرة بالمالك ، ولا تسكن معها فظلاً غايظاً<sup>(٥)</sup> .

وكانت المرأة تتناول مهراً من زوجها بعقد زواجها ، وقد ذكر ديودور أنه

(١) المرأة في التاريخ والشرائع ١٩ .

(٢) الحضارة المصرية القديمة لويون ١٣ .

(٣) المرأة في مختلف العصور ١٨ . (٤) الحضارة المصرية القديمة ٦٣ .

(٥) الحضارة المصرية القديمة ١١٦ .

نص في شرط عقد من عقود الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة<sup>(١)</sup>.

وقد أباح الفراعنة والبطانسة الزواج بالأخت<sup>(٢)</sup>، وكان ذلك عاما في الشعب كما ذكر ديودور<sup>(٣)</sup>، وفي أحيان قليلة كان زواج بالأم<sup>(٤)</sup>.

وعرف المصريون تعدد الزوجات عن طريق التسرى، لأن النظام الاجتماعي كان يقضى بتقسيم الشعب إلى طبقات، ولم يكن مباحا للرجل أن يتزوج إلا امرأة واحدة من طبقة، ولكن له أن يتسرى، على أن تكون زوجته سيدة سراريه<sup>(٥)</sup>.

وعرفوا النسب إلى الأم أحيانا بدلا من النسب إلى الأب، إذا كانت الأم من أسرة عالية التندر<sup>(٦)</sup>، على أن النسب إلى الأب كان هو الشائع<sup>(٧)</sup>، ولعل هذا من تأثير الأمومة الأولى التي وجدت آثارها إلى عهد الإمبراطورية الوسطى. وفي نقوش ذلك العهد نرى أن الجدة من جهة الأم تتقدم في سيرها على جميع أفراد الأسرة<sup>(٨)</sup>.

وتميزت المرأة المصرية من بعض معاصراتها بأنها تملك، بل لقد استأثرت بالملكية أحيانا، لذا كان يناط بالبنات تغذية أهلهن إذا طعنوا في السن، ولا يكاف الذكور ذلك. وهذا دليل على أن النساء لبثن وحدثن زمنا طويلا يملكن ويرثن<sup>(٩)</sup>. ثم تطور النظام فصارت المرأة تأخذ من تركة أبيها نصيبا يعادل

(١) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٢) قصة الحضارة ١/ ٧٣

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧ (٤) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧

(٥) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) La grande Encyclopedie, Tome. 17. P. 143-170

والحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٧) المرأة في التاريخ والشرائع ١٣ (٨) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

(٩) الحضارة المصرية القديمة ٧٢

نصيب شقيقها<sup>(١)</sup> ، وكان هذا قبل الحكم اليونانى .

وكانت النساء يمارسن التجارة ، فقد ذكر هيرودوت أن النساء المصريات كن يذهبن إلى السوق ، ويفرغن للتجارة ، أما الرجال فكانوا فى منازلهم ينسجون<sup>(٢)</sup> .

وبعد الحكم اليونانى لمصر أباح فرعون بوهورس للأعيان أن يملكوا الأرض — وكان تملكها قبل ذلك مقصوراً على الملك والأشراف والكهنة والقواد ، ولم يكن لعامة الناس ما يستحق أن يملك ويورث — خيف من استئثار الرجل بالملكية عقب أن شاع تعدد الزوجات ، فعمدت المرأة إلى كبح استئثاره بالاشتراط فى عقود الزواج ، حتى كانت إحداهن تشتط عليه أن تنتقل أملاً كه كلها إلى ولده منها إذا تزوج بغيرها .

ثم حد فيلوباتور أحد بطالسة اليونان من حق الزوجات فى التصرف فيما يملكن ، فأمر بإبطال تصرفهن إلا بإجازة بعولتهن ، وبذلك وضع المرأة فى وصاية الرجل ، وجعل الرجل صاحب الحق فى توزيع الثروة ، فانحطت مكانة المرأة بتأثير المدنية اليونانية<sup>(٣)</sup> .

(٥) تاريخ الترية لأحمد فهمى القطان ١/ ٤٤ .

(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧

(٦) الحضارة المصرية القديمة ٧١



## البَابُ الأوَّلُ

# المرأة في الحياة الأسرية

## الفصل الأول

# الأم

أريد أن أروِّز قدر المرأة في الأسرة ، وأن أفصل نواحي القول فيها ، سواء أكانت أما أم زوجة أم بنتاً أم أختاً أم قريبة ، معتمداً على ما يبضُّ به الشعر ، وما يسجله القرآن الكريم ، ومتخذاً من التاريخ والأحداث والاجتماع جلاء لما غمض ، ولقد أعتمد على غير الشعر لأ مهد للموضوع ، وأعد له جواً ملائماً .

١ — ورأيت أن أبدأ بمكانة المرأة في الأسرة ، لأن الأسرة أساس القبيلة ، والنظرية التي قال بها العلامة روبرتسن سميث Robertson Smith وهي « أن النظام الاجتماعي في بلاد العرب كلها واحد ، يمكن تلخيصه في أن القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية<sup>(١)</sup> » ، قد أبطلتها البحوث الحديثة التي قام بها العلامة روبرت لوى R. Lowie لأنه أثبت أن الأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية ، وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة ،

وبهذا نقض ما ذهب إليه من قبل ماك لنان وسمث من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية<sup>(١)</sup>.

لهذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديماً وحدة اجتماعية ، فكانت حكومة صغيرة في الأمة الكبيرة ، الأب فيها رئيس مطلق وبطريك قديم ، يخف به أولاده وعبيده وأحفاده وقطعانه<sup>(٢)</sup>.

ومن الأسر المشتركة في الدم تنشأ القبيلة ، موسومة بطابع الأسر التي كونتها . وإذا فالقبيلة العربية هي الأساس الاجتماعى الكبير للحياة العربية ، وعاداتها هي الغالبة ، سواء أكان أفرادها يعيشون في قبائل بدوية تقوم حياتها الاقتصادية على الرعى ، أم يعيشون في قبائل تجارية تحرس اللطائم ، أو تجوس البلاد حاملة السلع والتاجر .

أما الزراعة فلم يكن العرب يمارسونها في الحجاز ونجد ، لذلك لما فتح النبي خيبر لم يجد من المسلمين ذوى خبرة بالزراعة ، فأبقى اليهود في أرضهم يزرعونها ، على أن لهم الشطر من نخلها وزرعها<sup>(٣)</sup> ، ثم لما فتحت وادى القرى ترك النخل والأرض في أيدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر<sup>(٤)</sup>.

وقد حافظ العرب على العادات القبلية زمناً طويلاً ، حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضرية ، فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة ، وإذا فتحت مدينة أنشئت فيها أحياء للقبائل ، ولقد يفصل بين الأحياء أو بين الشوارع بأسوار ذات أبواب ، كما كان الحال في دمشق والكوفة وغيرهما ، وهذا دليل على خضوعهم للحياة القبلية في المدن أيضاً . وهم حملوا هذه النزعة إلى إيران فيما حملوا<sup>(٥)</sup>.

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ١٠ عن R. Lowie.

Primitiv society & smith Religion of the semites. P. 38

وتاريخ العرب ٢٣/١ فيليب حتى (٢) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٣٢ .

(٣) فتوح البلدان ٣١ و ٣٢ وسيرة ابن هشام ٣/٣٨٩ .

(٤) فتوح البلدان ٤١ . (٥) تاريخ الحضارة الإسلامية ٣٠ بارتولد .

٢ — وبدأت بالأم ، لأنها المعين الذى يفيض بالأفراد والأسر والجماعات ،  
هى التربة الخصيصة التى ينبت فيها الحب ، فإذا ما نضج أنبت حباً آخر .

الأم هى التى تمنح بنيتها — بعد الخالق سبحانه وتعالى — الحياة ، فهم فى  
بطنها أجنة يقضون أشهراً فى قرار مكين يغتدنون من دمها . ثم هم بعد الوضع  
أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ، ويتشككون إلى حد كبير  
بتربيتها . ثم هم فتيانا وشباناً معقداً ملياً ، وهى أيضاً نجى أنفسهم ، وملاذ الخائف  
منهم ، وقسيمة الفرح المحبور . فإذا ما اكتملوا فهم نخارها وذراها ، وهم حينئذ  
ذكرانا وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها فيهم ، وفى  
قرارهم . فهى أجدر بالتقدمة على الزوجة لهذا ، ولأنها بالأمومة ذات صفتين :  
فهى زوجة لرجل ؛ وهى أم لبنين .

أما الزوجة فكثيراً ما تكون ذات صفة واحدة ، لأنها زوجة فحسب قبل  
أن تنسل ، فإذا ما نسلت صارت أمّاً وزوجة ، وجنح بها الوصف إلى الأمومة  
أكثر من الزوجية .

والأم مقدمة على الزوجة وعلى البنت معاً ، لأنها أصل كلتيهما ، ولأنها  
تجمع صفات ثلاثاً لا تتحقق كلها فيهما ، فالأم ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ،  
وأم لأبناء .

وقد قيل إن البنت أولى بالتقدمة ، لأن حواء — أول أنثى — خلقت بنتاً ،  
لكن رد ذلك ميسور ، إذ أن حواء قد خلقها الله زوجة لا بنتاً ، قال تعالى :  
« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها » <sup>(١)</sup> ،  
فلو أنى تتبعت النشأة الأولى لتقدمت الزوجة لا البنت . على أن تتبع هذه النشأة  
ليس محتوماً ، لأن للأم صفات تؤثرها بالتقديم ، ولأننى أستطيع أن أقول إن

الغاية من خلق حواء لا أن تكون بنتاً ولا زوجة ، وإنما أن تكون أمّاً يكثر  
بها بنوها ، وتعمّر بهم الأرض .

### أثر الأم في القرابة

جرى العرب على أن الأب هو الأصل في القرابة وربط الأسرة ، ولكن  
الأم كانت ذات شأن عظيم في القرابة أيضاً ، وكثيراً ما كانت المصاهرة وشيجة  
قوية بين الأسر وبين القبائل ، لأن العرب كانوا يجعلون الأم إجلالاً عظيماً ،  
« ولا يعزّون المرأة إلا أن تكون أمّاً »<sup>(١)</sup> ، وإذا ما ولدت المرأة ارتفع قدرها ،  
وتوثقت بها العرى<sup>(٢)</sup> .

وكان هذا شأنها عند اليونان أيضاً ، فهي كالأمّة إلى أن تلد .  
وكان الفرس يعلّون من قدر المرأة إذا ولدت ، وما زال هذا دأب أهل البادية  
إلى اليوم<sup>(٣)</sup> . لذلك عبر العرب عن القرابة بالرحم ، والرحم في اللغة منشأ  
الجنين ومستقره ، وهو القرابة أيضاً ، أو أصابها وأسبابها ، واشتقوا منه الرحمة  
بمعنى الرأفة والتعطف والمغفرة ، قال المذلي :

ولم يك فظاً قاطعاً لقرابةٍ ولكن وصولاً للقرابة ذارُحُم<sup>(٤)</sup>

وقال القتال الكلابي يحكي استعطافه لابن عمه زياد :

نشدتُ زياداً والمقامةُ بيننا وذكرته أرحام سِعَر وهيم<sup>(٥)</sup>

وقال آخر :

(١) العقد الفريد ٢/٢٦٤ . (٢) التمدن الإسلامي ١٥/٤ .

(٣) التمدن الإسلامي ١٥/٤ .

(٤) التماموس المحيط وأساس البلاغة مادة رحم .

(٥) شرح الحماسة للرزوق ١/٢٠١ أي أقدمت عليه وأهل المجلس حاضرون .

وذكرته الرحم التي تجمعنا من هذين الرجلين

أفيتقوا بنى حزن وأهواؤنا معاً وأرحامنا موصولة لم تُقَضَّب<sup>(١)</sup>  
وكثيراً ما يتردد هذا التعبير عن القرابة<sup>(٢)</sup> ،

وهم دلوا على القرابة أيضاً بكلمة بطن ، والبطن وعاء الرحم ، لذلك قالوا :  
نثرت المرأة بطنها ، إذا أكرثت الولد ، وألقت ذات بطنها إذا ولدت ، وهو أيضاً  
دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العارة ، واشتقوا من البطن ما يدل على الصداقة  
والمصافاة ، فقالوا : هو بطانة فلان أى من خواصه<sup>(٣)</sup> .

وكثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه — كما  
سيجىء فى إعزاز الأم لبنيتها — فى مجال الاستعطاف وإحياء المودة ، أو فى مجال  
الفخر ، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل ، كقول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى أهل سواكم لأميل<sup>(٤)</sup>  
وكقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

تقول ابنة العمريّ مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعاً  
فقلت لها : طول الأسى إذ سألتنى ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا  
وفقد بنى أم تداعوا فلم أكن خلافيهم أن أستكين وأضرعاً<sup>(٥)</sup>  
وقول النابغة الجعدي فى رثاء ابنه محارب ، يخاطب زوجته :

ألم تعلمى أنى رزئت محارباً فمالك منه اليوم شىء ولاليا  
ومن قبله ما قد رزئت بوخوح وكان ابن أمى والخليل المصافيا<sup>(٦)</sup>  
وكان هذا هو السبب فى أن عشيرة الأم تناصر أولاد هذه الأم ، وإن

(١) المرزوقى ٣١٢/١ .

(٢) البيان والتبيين ١٨٢/١ وديوان النابغة ٤١ والأغانى ١٥٩/٢٠ .

(٣) أساس البلاغة والناموس المحيط مادة بطن .

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزختمري ٣ .

(٥) المفصليات ٦٨/٢ ابنة العمري : زوجته . أسفع : مغبر . تداعوا : تابعوا إلى

الموت . خلافيهم : بعدهم . أضرع : أذل وأستكين (٦) شرح الحماسة للتبريزى ٥١/٣

كانوا من قبيلة أخرى ، لأن الخثولة قرابة قوية كما سيحيى في الحال .  
 وكان الرجال يتقربون إلى أخوالهم ، ويتبسون من شرفهم ، ويخايلون  
 بفخارهم . يقول نابغة بنى جعدة في آمنة بنت أبان بن كليب زوجة أمية بن  
 عبد شمس :

وشاركنا قريشا في ثَقَاها وفي أنسابها شِرْكُ العِنان  
 وما ولدت نساء بنى هلال وما ولدت نساء بنى أبان<sup>(١)</sup>  
 وكانوا يخايلون أيضا بالجد لأُم ، يقول عمرو بن كلثوم :  
 ورثت مهابة والخير منه زهيرا ، نعم ذخر الذاخرينا<sup>(٢)</sup>

## الأم الحرة

١ — أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم ، وبأن يشيدوا بأبائهم ، وأولعوا  
 أيضا بأن يباهوا بأمهاتهم ، ويزهوا بحريتهم ، وعراقة نسبهم . وسنعرف في  
 دراسة (الأمّة) أنها كانت دون الحرة مقاما ، وأن أبناءها كانوا يعيرون استرقاقها .  
 وكأنما كان العربي الذي يخايل بأمه يزواج نغره وبضاعفه ؛ لأنه إذا يفخر  
 بأبيه أيضا ، فما كان العبد ليتزوج حرة ذات عراقة . وهذا الفخر بالأم صراحة  
 وبالأب ضمنا — وإن كانوا كثيرا ما تغرّوا بالأب صراحة — يستتبع أيضا مباهاة  
 عن الفاخر بسجاياه ومزاياه وعراقة التي ورثها من أبيه .  
 يقول جعفر بن عتبة الحارثي إن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة  
 الشجاع ، لأنه يرى من شوائب المهجنة ، فصار كرم أصله مهيجا لأنفته ، ومشجما  
 له على الاستبسال :

لَا يَكْشِفُ الْعَمَاءُ إِلَّا ابْنُ حَرَةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٩/١ ساسي . شرك العنان : شركة متساوية لأن عنان الدابة طاقان متساويان

(٢) شرح الفصائل العشر للبريزي ٢٣٩ .

(٣) شرح الخماسة للبريزي ٥٠/١ .

ويقول القتال الكلابي في نغره بأمه عمرة بنت حرقمة من ربيعة :  
 لقد ولدتنى حُرَّةٌ رَبِيعِيَّةٌ      من اللاءِ لم يُخْصِرْني في القيظِ دُنْدَانُ<sup>(١)</sup>  
 ويفخر بأنه ابن أسماء ، وهى من عشيرة أبيه وأعمامه ، وقد رضع ثديها حرة  
 وزوجة لحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى      إذا ترامى بنو الإموان بالعار<sup>(٢)</sup>  
 وقد جمع التقدم بن زيد سيد بنى حى بن خولان نغره بأمه إلى نغره بأبيه  
 فى قوله :

تمتتا إلى عمرو عروق كريمة      وخولان معقود المكارم والحمد  
 وأمى ذات الخير بنت ربيعة      ضربة من عيص السماحة والجد<sup>(٣)</sup>  
 وكان الفخر بحرية الأم وشرفها عاما ، يشيد به العلية والعامه ، فالشغرى  
 وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيار الحِجْر بيتًا ومنصبا      وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها<sup>(٤)</sup>  
 ولم يخل تلقيب الأم بلقب لا يرضاه الشاعر أن يذكر لقبها هذا ، ويباهى  
 بكرمها وشرفها وعفتها ، يقول ربيعة بن عبد ياليل فى أمه قلابة الملقبة بالذبية :  
 إني لمن أنكرنى ابن الذبيّه      كريمة عفيفة منسوبة<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ١٥٩/٢٠ دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف  
 الاحتجاب كالإماء . وفى الأصل ديدنا .

(٢) تهذيب الكامل ٣١٣/٢ ولسان العرب ٤٧/١٨ إموان : جمع أمة .

(٣) معجم البلدان ٤٣٢/٥ ضربة : بنت ربيعة بن نزار وهى أم خولان ولأخوته بنى  
 عمر بن الحاف بن قضاة .

(٤) الأغاني ٨٨/٢١ .

(٥) من نسب لى أمه من الشعراء محمد بن حبيب . نوادر المخطوطات ٩٠ .

وسيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول في يوم حنين :  
أنا ابن العواتك من سليم<sup>(١)</sup> .

وقد تأقلم اليهود في الحجاز كما سبق ، واحتذوا بالعرب في تخارهم بأمهاتهم .  
فالسموءل بن عادياء يفخر بأنهم من أمهات أحسن حملهم أجنة ، ومن آباء  
كرمت عروقهم ، فكانوا في أعلى المراتب من ظهور الآباء السكرام ، وانحدروا  
منها لوقت معلوم — يريد وقت الأطهار — إلى بطون خير الأمهات :

صفونا فلم نكدر وأخلص سرتنا      إناث أطابت حملنا وغول  
علونا إلى خير الظهور وحطنا      لوقت إلى خير البطون نزول<sup>(٢)</sup>  
٢ — ومَدَحُوا أيضاً بالأم الحرة ، قال حُرَيْثُ بْنُ مُحَفَّظٍ في مدح قومه :  
بنو المجد لم تَقْعُدْ بهم أمهاتهم      وآبَؤُهُمْ آباءُ صدق فأنجبوا<sup>(٣)</sup>

(١) إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك للزبيدي ٦ مخطوط والنقائض ٤٠٣ ولسان  
العرب ٣٥١/١٢ ولإنسان العيون ٤٦/١ والمغازي للواقدي ٢٧٣ وتاريخ الخميس ٢٥١/١  
امراة عاتكة : بها ردع الطيب . قال السهيلي في الروض الأفت لأنها مصفرة من الزعفران ؛ وفي  
القاموس حمرة من الطيب ؛ ويؤيده قول ابن قتيبة هي من عتكت القوس إذا احمرت . وهذه  
الآراء راجعة إلى تغير لونها من الطيب .

وقال ابن عباد في المحيط : هو من عتكت إذا شرفت ورأست على قومها وعشيرتها ؛  
فسموا بهذا الاسم تفاؤلاً على عادتهم . وقيل سميت لصفائها من قولهم نبذ عاتك أي صاف ،  
وهو قول ابن دريد . وقال ابن سعد في الطبقات : العاتكة الطاهرة في نسبها وحسبها  
( إيضاح المدارك ص ٥ مخطوط ) .

والعواتك : منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بن عبد مناف ؛ وهي عاتكة بنت مرة  
ابن هلال بن فالج بن ذكوان . وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جده هاشم بن عبد مناف .  
وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة  
جد الرسول لأمه أمنة . وسائر العواتك أمهات رسول الله من غير بني سليم ؛ فهن تسم  
والثلاث الأوليات : الأولى عمة الوسطى ؛ والوسطى عمة الأخرى ( النقائض ٤٠٣ وإيضاح  
المدارك ١١ - ١٤ ولسان العرب ٣٥١/١٢ ) وقد اختلف في عدد العواتك من جداته ؛  
فن مكثر ومن مقل ( لإنسان العيون ٤٦/١ ) .

(٢) شرح الحماسة للبربري ١١٩/١ وديوان السموءل ١٠ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٢ بتحقيق شاكر وفي بعض المراجع أنه ابن مخض .

( ٦ - المرأة في الشعر الجاهلي )



وعبروا أحيانا عن الحرائر بالمهيرات، لأن المهر كان لا يدفع إلا الحجر، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر إنه ينتمى إلى السادة ذوى الحصافة والحكمة والسجاء، وإلى حرائر مواجد من حرات ماجدات :

يابن القروم ذوى الحجا وابن الحضارمة المرأفد  
وابن المہائر للمہا ثرزانها الشيم المواجد<sup>(١)</sup>  
ولم يكن الملك ليحول بين الملك ومدحه بأمه كما يمدح بأبيه، ولم تكن عظمة الملك هي الجدة الفذ الذي يشيد به مادحوه، لذلك شادوا بأمه كما نوهوا بأبيه، فهذا حاتم الطائي يمدح الحارث بقوله :

تمته أمانة والحارثا ن حتى تمهل سبماً جديداً<sup>(٢)</sup>  
بل لقد تبلغ عزة الشخص بأمه إلى أن يعلوبها على أم الملك الشهير الذي اشتهر باسم أمه، يقول عارق الطائي في رده على تهديد الملك عمرو بن هند :  
من مبلغ عمرو بن هند رسالة إذا استحققها العيس تَنْضَى من البعد  
أيوعدني والرمل بيني وبينه تأمل رويداً ما أمانة من هند<sup>(٣)</sup>  
وكان شائعاً أن ينسب الشخص إلى أمه — كما سألين — وأن ينسب نفسه إلى أمه وإن كان أبوه ملكاً، يقول امرؤ القيس :

ألاهل أتاها والحوادث جمه بأن امرأ القيس بن تَمَلِّكَ بَيَّقَرَا<sup>(٤)</sup>  
وقد ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضى من الأنصار

(١) ديوان الخنساء ٦٢ القروم : جمع قرم وهو الفعل من الإبل ؛ والمراد السيد الشريف .  
الحضارمة : جمع خضرم وهو البحر الطامى والمراد الكريم . المرأفد : جمع مرفد وهو المعطى .  
المهائر : جمع مهيرة وهي المرأة الشريفة الحرة ذات المهر الغالى . للمهائر : أى أن جداته مهائتر  
(٢) ديوان حاتم ٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٢١/٤ ومعجم البلدان ١١٥/١ .

(٤) ديوان امرؤ القيس ٦٩ تملك : اسم أمه أو إحدى جداته . يقر : أقام في الحضر وترك أهله في البادية .

حضر موت ، ثم ضم إليه كندة ، فانتقضت كندة كلها عليه إلا السكون ، فقال شاعرهم :

ونحن نصرنا الدين إذ ضل قومنا      شقاء وشايعنا ابن أم زياد  
ولم نبغ عن حق البياضي مَزْجاً      وكان تُقَى الرحمن أفضل زاد<sup>(١)</sup>  
وكان شائعاً أيضاً أن تكنى المرأة باسم ابنها تكريماً لها .

قال زيد الخيل في رثاء أوس بن خالد :  
فلا تجزعى يا أم أوس فإنه      تصيب المنايا كلَّ حاف وذى نعل<sup>(٢)</sup>  
وقال عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهى طروق      وبانت على أن الخيال يشوقُ  
ذرى فإف البخل يا أم هيثم      لصالح أخلاق الرجال سرُوق<sup>(٣)</sup>  
وكانت هذه الكنية أثيرة عند المرأة ، لذلك قالت السيدة عائشة يوماً للنبي  
وهى حزينة إن كل نسائه لمن كُنِّيَ إلهى . فقال لها : تكنى بابنك عبد الله —  
وهو ابن أختها أسماء — فصارت من ذلك الحين تكنى بأم عبد الله<sup>(٤)</sup> . ولما  
ولدت أم هاشم خالد بن يزيد بن معاوية تركت كنيته الأولى واكتفت بأم  
خالد . يقول فيها يزيد :

وما نحن يوم استعبرت أمُّ خالد      بمرضى ذوى داء ولا بصِحاح<sup>(٥)</sup>  
ويتصل بهذا الفخر والمدح التبرؤ من أن تكون الأم أمة ، والتعبير بالأمة ،  
يقول القتال الكلابي :

أنا ابن أسماء أعصامى لها وأبى      إذا ترامى بنو الإموان بالعار

(٢) الشعر والشعراء ٩٥ .

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ١٠٧ .

(٣) المفضليات ١٢٣/١ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٣/٨ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٣١٠/٩ .

(٥) الأغاني ٨٥/١٦ .

أما الإماء فلا يدعونني ولدا إذا تُحَدَّثَ عن نقض وإسراري  
لا أرضع الدهر إلا ندى واضحة لو اضح الخد يحمي حوزة الجار<sup>(١)</sup>  
ويهجو عويف القوافي خصومه - في الإسلام - بأنهم جنباء ، وبأن أمهم  
وضيعة النسب :

وما أمكم تحت الخوافق والقمنا بشكلي ولا زهراء من نسوة زهر<sup>(٢)</sup>  
ويبرأ ذو الإصبع العذواني من عبودية أمه ، فيقول في لوم ابن عمه ،  
— ويقال إن أمه كانت أمة — :

عني إليك فما أمى براعية ترعى الخاض ولا رأي بمغبون<sup>(٣)</sup>  
ولما غير المتلمس أخواله بنو يشكر — ويقال إنه ولد فيهم ومكث بينهم  
حتى كادوا يغابون على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هند مضرط الحجارة  
— والمتلمس عنده — الحارث بن التوأم الشكري عن نسب المتلمس ، فقال :  
أنا يزعم أنه من بني يشكر ، وأنا يزعم أنه من بني ضبيعة ، فقال عمرو بن هند :  
ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين — غضب المتلمس فقال :

تعيرني أمى رجال ولن ترى أخا كرم إلا بأن يتكرما  
.....

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وهل لي أم غيرها إن ذكرتها أبي الله إلا أن أكون لها ابنا<sup>(٤)</sup>  
وهما عمرو بن هند بقصائد أخرى<sup>(٥)</sup>.

(١) لسان العرب ٤٧/١٨ وتهذيب الكامل ٣١٣/٢ إمداد : جمع أمة . واضحة :  
شرقة النسب حرة .

(٢) شرح الحماسة لتبريزي ٢٨/٤

(٣) الشعر والشعراء ٢٧١ والمفضليات ١٠٨/١ .

(٤) الأغاني ١٢١/٢١ وشعراء النصرانية ٣٣٧ .

(٥) شعراء النصرانية ٣٣٩ و ٣٤٠ والأغاني ١٢٥/٢١ و ١٢٩ و ١٣١ و ١٣٥

وظل الاعتزاز بحرية الأم إلى ما بعد العصر الجاهلي — كما سيحيى. في الإماء — فقد افتخر الحجاج بن يوسف بقوله: لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر<sup>(١)</sup>،

## الأم المنجبة

زهيت الأم بأبنائها السادة الماجدين، وحق لها أن تزهى لأنهم بعضها، وثمراتها الجنية الشبيهة التي حملتها وتعهدها حتى أنضجتها. فهي الوعاء الذي ضمهم أجنة، وهي التي حضنتهم وأرضعتهم ورببتهم أطفالا، فإذا كانت كريمة العنصر وأنجبت نسب إليها قسط من نجابة بنيتها، وإن كانت خسيصة العنصر وولدت ولداً ضعيفاً ذمت به وذم بها. لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس.

ولذلك زهيت الأم المنجبة بأبنائها، وزهى أبنائها بها، لأنهم يدينون لها بكثير من عظمة نفوسهم، وسلامة أبدانهم، وشهرتهم ومجدهم، وسميت الأم التي يشرف بنوها منجبة.

وقد رفع العرب من أقدار المنجبات، فنوهوا بهن، وعدوهن مثلاً عالية يرمقونها وقيسون عليها، لذلك ضربوا ببعضهن المثل فقالوا: أنجب من مأوية<sup>(٢)</sup>، وأنجب من فاطمة بنت الخرشب<sup>(٣)</sup>، وأنجب من أم البنين<sup>(٤)</sup>، وأنجب من عاتكة<sup>(٥)</sup>، وأنجب من حبيثة<sup>(٦)</sup>.

(١) البيان والتبيين ٨٢/٢ تحقيق هارون.

(٢) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢.

(٣) جهر الأمثال ٢٤٢/٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢.

(٤) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجهرة الأمثال ٢٤٢/٢.

(٥) مجمع الأمثال ٢٧٦/٢ وجهرة الأمثال ٢٤٢/٢.

(٦) جهرة الأمثال ٢٤٢/٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢.

أما ملاوية فهي بنت عبد مناة بن مالك من تميم ، أم لقيط وحاجب وعاقمة  
ومعبد بنى زُرارة بن عُدُس (١) .

وأما فاطمة بنت الخرشب الأثمارية فقد ولدت لزياد العبسي الكَمَلَة :  
ربيعاً الكامل ، وقيس الحِفاظ ، وأنس الفوارس ، وعمرا الوهاب أو عمارة ،  
وكل منهم ساد في الجاهلية ، وقاد جيشاً . وقد سئلت : أى بنيك أفضل ؟  
فقلت : الربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس . ثم قالت : شكّتهم إن كنت  
أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها (٢) .

أما أم البنين فهي ابنة عمرو بن عامر فارس الضَّخَّاء ، ولدت مالك بن  
جعفر بن كلاب ملاعب الأُسنة ، وفارس قُرْزُل طُفَيْل الخليل والد عامر الشاعر  
الفارس ، وربيع المقترين ربيعة والد عبيد ، وتَزَّال المضيق سُلَمَى ، ومُعَوِّذ  
الحكماء معاوية ، وهى التى افتخر بها ليبد فى قوله :  
نحن بنو أم البنين الأربعة (٣) .

وأما عاتكة فهي بنت هلال بن مرة بن فالح بن ذكوان ، ولدت لعبد مناف  
ابن قصي هاشماً وعبد شمس والمطلب (٤) .

وأما خبيثة فهي بنت زباح بن الأشل الغنوية ، ولدت لجعفر بن كلاب  
خالداً ومالكا وربيعه (٥) .

لا عجب إذا فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأُمهات المنجبات ، لأن الإعجاب

(١) الأغاني ١٦ / ١٩ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٥ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزحمرى ٧٦ مخطوط والأغاني ١٦ / ١٩ وأمالى المرتضى  
١ / ١٣٤ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ .

(٣) جهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ وجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ والأغاني ١٦ / ٢٢ والمعارف  
٣٠ وديوان ليبد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ومستقصى الأمثال ٣٨ مخطوط .

(٤) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ .

(٥) جمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ والأغاني ١٦ / ١٩ .

بين والفخار يهز القلوب الشاعرة ، ويرفد بالحامد النفوس الفاخرة . فهذا  
أَنيف بن حكيم — أو ابن زبان — النبهازي يفخر بأن قومه يأبون الضيم ، لأن  
أُمهم أكثرهم وأنجبهم :

أبي لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو ناتيقي كانت كثيراً عيالها<sup>(١)</sup>  
ويفخر لبيد نجدته أم البنين على مسمع من النعمان بن المنذر بقوله :  
نحن بنو أم البنين الأربعه ومن خيار عامر بن صعصعه  
المطعمون الجفنة المددعه والضرابون الهام تحت الحية<sup>(٢)</sup>  
وقد كرر لبيد الفخار بقوله :

أثبتت أن أبا حنيف لأمي في اللأمني  
أُبيَّ هل أحست أعمامى بنى أم البنينا  
وأبي الذي كان الأرا مل في الشتاء له قطينا<sup>(٣)</sup>

وقد بلغ إعجاب قيس بن زهير العبسي بفاطمة بنت الخرشب أم بني  
زياد أن لقبها بالجنية ، لأنها أنجبت أسوداً بساء لا تنجب إنسية مثليهم :  
لعمرك ما أضاع بنو زياد ذمار أبيهم فيمن يضيع  
بنو جنيّة ولدت سيوفا صوارم كلها ذكراً صنيع<sup>(٤)</sup>

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ٧٧/١ الناتيقي : الكثيرة الأولاد

(٢) الأغاني ١٦ / ٢٢ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧  
ومستقصى الأمثال للزمخشري مخطوط ٣٨ . والبنون الأربعة خمسة في الحقيقة هم : مالك بن جعفر  
ملاعب الأسنة ، وطفيل بن مالك أبو عامر بن الضفيل فارس قرزل ، وربيعة بن مالك والد لبيد  
وهو ربيع المقرن ، وعبيدة بن مالك الوضاح ، ومعاوية بن مالك معوذ الحكماء . وهم أشرف  
بنى عامر . وقد جعلهم أربعة لأن أباه كان قد مات والأربعة أحياء ( خزائن الأدب للبندادي  
وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ) وليس بصحيح أنه جعلهم أربعة للفاوية كما في مجمع الأمثال للعبداني  
وجهرة الأمثال لأبي هلال . المددعة : اللأى . الحية : غبار الحرب .

(٣) ديوان لبيد ٤٥ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٤٦٩ وسمط اللآلئ ١ / ١١٧ وفي ديوان حاتم  
الطائي ١٧ أنها لحاتم .

## النسب إلى الأم

### مظاهره

منذ زمن قديم عرف الساميون والعرب النسب إلى الأم ، ويتكشف هذا في مظاهر عدة :

١ — كان للمرأة أحيانا أن تسمى أبناءها ، وتنسبهم إليها ، وكان لمشيرتها هذا الحق ، وقد استمر هذا إلى قبيل الإسلام . يدل على ذلك أنه لما خطب عمرو بن حُجْر إلى عوف ابن نُحَلْم الشيباني ابنته أم إياس قال له : نعم أزوجكها على أن أسمى بنيها ، وأزوج بناتها. فقال عمرو : أما بنونا قسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فنكحهن أ كفاءهن من الملوك <sup>(١)</sup> . وأستنتج من هذه القصة أن عوف بن محم استمسك بهذه التسمية كبرياء منه ، واعتزارا بنفسه ، أوجريا على عرف اجتماعي في عشيرته ، وأن عمرو بن حجر رفضه ، لأن هذا النظام غير سائد في قومه .

٢ — كان الولد أحيانا إذا ما كبر عاد إلى قبيلة أمه ، وانتسب إليها ، كما فعل زهير بن أبي سلمى ، فقد كان بشامة بن الفدير خال أبيه ، فانقطع زهير إليه ، واختار هذا الحى من أخواله غطفان لخلولتهم . ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بنى إخوته ، فأناه زهير فقال : يا أخلاه لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال زهير : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه . ثم أحذاه نصيبا من ماله <sup>(٢)</sup> .

٣ — نسبت كثير من العشائر الآرامية إلى أمهاتها ، ففي النقوش الآرامية

(١) العقد الفريد ٣ / ١٩١ .

(٢) الأغاني ٩ / ١٤٩ .

التي كشف عنها في الحجر أسماء عشائر تنتسب إلى الأم لا إلى الأب<sup>(١)</sup> .  
وقد سبق أن هذا النسب كان معروفا للإسرائيليين ، فإليك شواهد قديمة  
تذكر سلالات من بني إسرائيل نسبت إلى الأم ، وظلت الأم الإسرائيلية  
قرونا تحتفظ بنسب بنيتها إليها<sup>(٢)</sup> .

وما زال علماء الاجتماع يعترفون به في بحوثهم ، فلما ارتقت حضارة  
الساميين ارتفعوا إلى نظام الأبوة ، لأن الحضارة تؤكد الجانب الأبوي .

وكثير جداً من القبائل العربية عزت نسبها إلى أمهاتها ، فمثلاً باهلة قبيلة  
من قيس عيلان ، سموها باسم أمهم باهلة بنت ضب بن سعد العشيرة<sup>(٣)</sup> .  
وخندف نسبوا إلى أمهم زوجة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان من  
قضاة<sup>(٤)</sup> ، وبجيلة حتى من اليمن وهم ولد امرأة اسمها بجيلة<sup>(٥)</sup> ، وبنو العدوية  
من تميم نسبوا إلى أمهم ، وبنو طهمية من تميم أيضاً نسبوا إلى أمهم<sup>(٦)</sup> ، ونسب  
بنو مرة بن صعصعة إلى أمهم فعرّفوا ببني سلول<sup>(٧)</sup> ، ونسب الأوس والخزرج  
إلى أمهم قَيْلَة فسموا ببني قيلة<sup>(٨)</sup> ، ونسب بنو دُهن بن وديعة من لَكِيز من  
ثَقِيف إلى أمهم وائلة<sup>(٩)</sup> ، ونسب بعض بني الحارث بن ذهل بن شيبان إلى أمهم  
الورثة من بني يشكر ، فليل بنو الورثة ، ونسب بعضهم إلى أمهم جَذْرَة ،  
وهي سبية من اليمن ، ونسب بعضهم إلى أمهم الشَّميكة<sup>(١٠)</sup> .

والذي يبدو لي أن نسب القبائل إلى أمهاتها كان شائعاً في القبائل ، وفي

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ .

(٢) Israel from its begning. Lods P. 192.

(٣) منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لشوان بن سعيد الحميري ١٠ .

(٤) نسب عدنان وقحطان المبرد ، والأغاني ١٢/١ الدار .

(٥) منتخبات من أخبار اليمن ٥ . (٦) المعارف ٢٦ .

(٧) المعارف ٢٩ وشرح الحماسة للتبريزي ٢ / ١٩٣ والشعر والشعراء ٢٤٨ ودائرة

المعارف الإسلامية ٣ / ٣٢٠ .

(٨) المعارف ٣٦ والنبية والإشراف ١٧٤ ودائرة المعارف للإسلامية ٣ / ١٥٠ .

(٩) المعارف ٣١ . (١٠) المعارف ٣٣ .



أماكن شتى ، سواء في ذلك أهل الجنوب وأهل الشمال ، وسواء في ذلك الحضر والبدو ، وسواء في ذلك أكانت الأم حرة أم أمة .

٤ — ولا يقل نسب الأفراد إلى أمهاتهم كثرة عن نسب القبائل إلى أمهاتها .

وقد ألف محمد بن حبيب كتاباً فيمن نسب إلى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعراً عددت من بينهم ٣٦ شاعراً جاهلياً <sup>(١)</sup> .

وفي غيره من المراجع مئات من أشخاص انتسبوا أو نسبوا إلى أمهاتهم ، منهم عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد نسب إلى أمه زهرة دون أبيه <sup>(٢)</sup> ، وأوس بن مغراء شاعر نسب إلى أمه <sup>(٣)</sup> ، وشيب بن البرصاء نسب إلى أمه ، وهو القائل :

أنا ابن بَرٍّ صاء بها أجيبُ هل في هجان اللون ما يعيب <sup>(٤)</sup>  
وخُفَّاف بن نُدْبَة منسوب إلى أمه وكانت سوداء سبية <sup>(٥)</sup> ، ونسب الأشهب ابن ثور إلى أمه رُمَيْلة وهي سبية من سبايا العرب <sup>(٦)</sup> ، ونسب قيس بن مقلد ابن عمرو بن عبيد إلى أمه الحُدادية <sup>(٧)</sup> ، ونسب ربيعة بن عبد ياليل الثقفي إلى أمه قلابة ، وكانت تلقب بالذبية ، فقيل ربيعة بن الذبية <sup>(٨)</sup> ، وكان يكنى عن ثابت بن عمرو بن مالك من بني النجار بأنه ابن خنساء <sup>(٩)</sup> ، ويكنى عن سواد بن وهب بن كِلْبٍ من قضاعة بأنه سواد بن غَزِيَّة <sup>(١٠)</sup> ، وغير هؤلاء كثير <sup>(١١)</sup> .

(١) من نسب إلى أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب .

(٢) المعارف ٤٣ . (٣) الأغاني ٢ / ٦٢ و ٢ / ١٣١ .

(٤) طبقات الشعراء ١٦ ٢ والأغاني ١١ / ٨٩ . (٥) المعارف ١٤٢ .

(٦) الأغاني ٨ / ١٥٣ ساسي . (٧) الأغاني ١٣ / ٢ .

(٨) مجالس ثعلب ١٧٣ والموتلف والمختلف ١٢٠ .

(٩) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٠ . (١٠) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٢ .

(١١) المعارف ٢٥٧ .

وما زال النسب إلى الأم حتى صدر الإسلام ، وحتى ما بعده ، فقد كنوا عن الحسين بن علي بأنه ابن بنت رسول الله ، تكريماً له بأمه<sup>(١)</sup> ، وإسماعيل بن عُلَيَّة منسوب إلى أمه ، وأبوه إبراهيم بن عائشة منسوب إلى جدة له ، وكان أبوه أيضاً يعرف بابن عائشة ، وابن القُرَيْبَة منسوب إلى أمه ، واسمه أيوب بن زيد ، وابن الإطنابة منسوب إلى أمه ، وكذلك ابن مَيَّادَة<sup>(٢)</sup> ، وكان ممن يهاجى الفرزدق الأشهب بن ثور ، وقد اشتهر بأنه ابن رُمَيْلَة وهى أمه<sup>(٣)</sup> .

### أما فى أصل النسب إلى الأم

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمومة كانت النظام الذى خضع له العرب القدماء .

١ — فى رأى ستمث أن العرب كانوا فى عصر قديم ينتسبون إلى آباء من الحيوان أو النبات يعبدونها ويقدسونها ، ويحملون أسماءها ، ويحرمون أكلها ، وكانوا يحرون فى زواجهم على ما تجرى عليه القبائل المتوحشة فى أستراليا وأمريكا وإفريقية من القبائل التوتمية<sup>(٤)</sup> ، ومن نظم التوتمية أن يتبع الولد توتم أمه لا توتم أبيه ، ومن نظمها أيضاً أن زواج الرجل من امرأة تتفق معه فى توتمه محظور .

(١) بلوغ الأرب ٣ / ١٩٦ . (٢) المغارف ٥٥٨ . والإصابة ٨ / ١٤٤ .

(٣) طبقات الشعراء ١٩٣ .

(٤) التوتمية هى أن يرتبط أفراد الأسرة أو العشيرة برابطة قرابة متعددة الدرجة ، ليست قائمة على صلات الدم . وإنما هى قائمة على إلتواء الأفراد لتوتم واحد Totem . وهو نوع من الحيوان أو النبات تتخذة العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فائتاء مجموعة من الأفراد لتوتم واحد يجعلهم أفراد أسرة واحدة ، ويربطهم بقرابة متعددة فى درجتها وقوتها أيا كانت صلة بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية ووشيجة الدم . فلم يست درجة القرابة التى تربط الولد بأبويه لتزيد على درجة القرابة التى تربطه بأبى فرد آخر من العشيرة . بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أبويه أو عن أحدهما إذا قضت النظم الشبعة بانتمائه إلى عشيرة أخرى غير عشيرتهما أو عشيرة أحدهما ( الأسرة والمجتمع ٨ الدكتور على عبد الواحد ) .

ورأى أن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم وإلى قحطان ، وأن  
سلسلة أنسابهم كما تذكرها كتب الأنساب ، اختلاق وضع في صدر الإسلام ،  
متأثراً بنظام الاستحقاق للمعطاء الذي وجد في ديوان عمر بن الخطاب <sup>(١)</sup> .

ويقول إن حروبهم كانت دأمة ، وإنهم لم يعرفوا الملكية ، بل كانت  
أموالهم ونساؤهم مشاعة بينهم ، وإذا أسرت المرأة لم يستأثر بها رجل واحد ،  
فهم يشبهون جماعة بدائية تدين بالشيوعية <sup>(٢)</sup> . واستدل على أمومة العرب  
باستعمالهم كلمة البطن والفخذ للدلالة على القرابة ، وظن أن كلمة بطن كان لها  
مدلول آخر غير ما تعارفت عليه الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال كلمة رحم <sup>(٣)</sup>  
وقال إن البطن والحى هما أول المجتمعات عند الساميين ، والحى في نظره وحدة  
اجتماعية سياسية متميزة <sup>(٤)</sup> ، وفي رأيه أن كلمة حى ذات صلة بالحياة ، فالحى رابطة  
قرابة وصلة رحم <sup>(٥)</sup> .

٢ — وذهب ماك لينان Mac Lannan إلى أنه في بعض الشعوب المتوحشة  
وبعض الأمم المتعدنة قديماً وحديثاً كان الخاطب أو رفاقه يتظاهرون على اغتصاب  
فتاة له من غير قبيلته ، راسنتج أن هذه العادة بقية من عادة قديمة مدارها أن  
يتزوج رجال القبيلة بنساء قبيلة أخرى ، وأخذ يبحث في أصل هذه العادة ، فغفل  
إليه أن سببها شيوع الواد عند بعض القبائل ، حتى لقد أدى إلى زيادة عدد  
الرجال على النساء ، فاضطروا إلى مباشرة امرأة واحدة .

وفي رأيه أن هذا أصل تعدد الأزواج ، وظهور نظام الأمومة ، لأن الأصل  
في الأمومة أن أم الولد معلومة وأباه مجهول ، ثم استنتج أن قلة عدد النساء في  
بعض القبائل اضطر رجالها إلى اغتصابهن من قبائل أخرى ، ولهذا كان تعدد

الأزواج شائعا في القبائل ذات النكاح الخارجى ، وكانت هذه القبائل لاتعترف إلا بقراءة الأم<sup>(١)</sup> .

٣ — وإلى ذلك ذهب وليكن wilken ، فإنه بعد أن استعرض أنواع النكاح عند العرب في الجاهلية قال إنه لم يكن سبيل إلى معرفة الأب ، بل لم تكن حاجة إلى هذه المعرفة ، لأن الاتصال الجفسى فى الأعصر الخالية — حين كان الزواج الشرعى مجهولا — من شأنه أن يتبع الولد أمه فى كل شىء ، ولم يكن هذا ليمنع الرجل من الحنو على الطفل الذى شارك فى وجوده<sup>(٢)</sup> .

وله على ذلك أدلة ، منها أن هذا النظام ما زال معروفا عند بعض القبائل إلى اليوم ، وأن العرب استعملوا كلمة بطن بمعنى القبيلة ، وأن بعضهم نسبوا إلى أمهاتهم ، وأن أبناء الأخت كانوا يرثون خالهم<sup>(٣)</sup> .

٤ — ويعمل شارل لوتورنو للأُمومة بأن الناس كانوا فى العهد الوحشى عاجزين عن إدراك العلاقة بين الزواج والولادة ، فقام نظام الأسرة على الأمومة ، ذلك أنه من الطبيعى أن الرجال الذين لا يدركون العلاقة بين المباشرة والإنسال ، لجهلهم السبب فى الحمل ، أولشيوخ النساء بينهم واختلاط أنسابهم ، لا يهتمون بعزوة أولادهم إليهم<sup>(٤)</sup> .

#### مناقشة هذه الآراء

١ — أغلب الظن أن أصحاب هذه النظريات متأثرون فى رأيهم عن العرب بما ذكره سترابون فى معجمة الجغرافى من زواج المشاركة فى اليمين<sup>(٥)</sup> ، وبما ذكره الكاتب اللاتينى Ammianus Marcellinus من أن عرب الجاهلية لم يعرفوا زواجا مستمرا ترتبط فيه المرأة برجل معين لأجل غير مسمى ، لأنهم كانوا

(١) Primitive Marriage. 124.

(٢) الأمومة عند العرب . وليكن . ترجمة بندلى الجوزى ٣٢ .

(٣) الأمومة عند العرب ٣٥ - ٤٣ .

(٤) المرأة فى التاريخ والشرائع

(٥) strabo XVI. 7

يجرون على نظام النكاح المؤقت ، فهم يقضون حياتهم في تجوال وتنقل ،  
ونسأوهم يجامعون من يردن من الرجال ، وقد بقي النكاح المؤقت شائعاً بينهم إلى  
مشرق الإسلام ، وأباحه النبي ( عليه الصلاة والسلام ) لأصحابه ، ( فترة من  
الزمن ) ويعرف هذا النكاح بنكاح المتعة <sup>(١)</sup> .

ولكن ماذا كره سترابون من اشتراك الإخوة في زوجة واحدة باليمن نوع  
من الأفاقيص ، لأنه لم يطاء أرض اليمن ولم يخالط أهلها ، وإنما كان مصاحباً  
لمحلة جالوس التي تحدثت عنها من قبل ، فلعله سمع من بعض الناس هذه الرواية  
فصدقها وعممها ، أو لعابها كانت حادثة فردية شاذة ضخمتها خيال الرواة لغرابتها.  
وكتب السباح حافلة بالأساطير ، وما زال كثير منهم يعززون إلى بلاد الشرق  
التي يزورونها ولا يقيمون بها إلا قليلاً أموراً لا تمت إلى الحقيقة بسبب .

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الخلط والاختلاق مثل زعم بولوجيوس —  
أحد كهنة قرطبة العلماء المخالطين للمسلمين — أن النبي أنبأ أصحابه بأن الملائكة  
ستحمله إلى السماء بعد موته بثلاثة أيام <sup>(٢)</sup> .

على أن سترابون نفسه صدر روايته بقوله ( Ondit ) أى يقال <sup>(٣)</sup> . ويقول:  
للإخوة جميعاً امرأة واحدة ، والزناة — وهم الذين يتزوجون من غير قبيلاتهم —  
يعاقبون بالقتل ؛ وإذا فالقصة تشير إلى اشتراك الإخوة في الزواج باسرة واحدة ،  
ولا تذكر أن العشيرة كلها تشترك في امرأة ، فنظام الأسرة قائم ، وهذا يناقض  
ما ذكره سميث وغيره في نظام الأمومة من تحريم الزواج من العشيرة التوتمية .

ثم إن قصة سترابون تصرح بأن الزواج الخارجى محرم ، حتى ليعد زنا يماقب  
فاعله بالقتل ، والزواج الخارجى أساس الأمومة في رأى القائلين بها .

ويستدل الأستاذ محمود جمعه على بطلان قصة سترابون بأن النقوش المعينية

(٢) أنساب العرب القدماء . زيدان ٢٠ .

(١) الأمومة عند العرب ٢٠

(٣) أنساب العرب القدماء ٢٠ .

منذ الألف قبل الميلاد تبين أن عرب الجنوب كانوا يشعرون بشعور ديني قوى في مراعاة قوانين انحلاط الجنس ، ويعدون أى انحراف عن مراعاة هذه القواعد أمراً إذا بنفرون منه نفورا شديدا ، وإذا ما زلّ أحدهم فارتكب فاحشة سارع إلى التوبة ، لذلك لا يمكن افتراض أن الإباحية الجنسية كانت عامة<sup>(١)</sup> .

وإذا فدعوى سترابون أن زواج المشاركة كان ذائعا في اليمن مردودة لا تؤيدها الحقائق التاريخية ، وعلمه بأحوال بلاد العرب ناقص ، لأنه تألفه من قصص التجار والمغامرين والمتزيدين .

٢ — أما أدلة سميت على توثية العرب فقد نقضها كثير من علماء الاجتماع<sup>(٢)</sup> . وأهم أدلته :

١ — أن كثيراً من القبائل كانت تسمى بأسماء الحيوان كأسد وفهد وكلب الخ . . لأن هذه الحيوانات هي توثم القبائل التي سمت بها . وهذا مردود ، لأن عدد العشائر التي سمت بأسماء الحيوان لا يعدو الأربعين ، وأسماء القبائل بضع مئات .

ثم إن هذه الأسماء التي أطلقت على القبائل وعلى الأفراد أوحى بها ظروف وملابسات خاصة ، عرض لها الجاحظ بقوله : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والغال ، فإن سمع إنسانا يقول حجراً أو رأى حجراً سمى ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالمقى . وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وإن كان حمارة تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت وغير ذلك<sup>(٣)</sup> .

(١) النظم الاجتماعية والسياسة ٢٨ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسة ٩٩ - ١٤٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١ / ٣٠٤ بتحقيق هارون .

ولقد يختارون الأسماء المرهبة المرعبة اتوحى إلى المسمى بالقوة والشدة ؛  
ولترهب الأعداء ، فقد سئل أبو العريش الأعرابي : لم تسمون أبناءكم بشر  
الأسماء نحو ذئب و كلب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال ، إنما  
نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا<sup>(١)</sup> .

ب - وأن العرب عبدوا الحيوان .

وهذا مردود أيضا بأننا لا نعرف أن العرب عبدوه كما عبده المصريون القدماء .  
وليس في أصنام العرب ما كان على صورة حيوان ، إلا ما جاء من بعض  
الآراء في يغوث ويعوق ونسر ، فقد ذكر الزنجشري والنيسابورى أن يغوث كان  
على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر<sup>(٢)</sup> .

على أن الطبرى لم يذكر هذا ، وإنما روى أنها كانت على صورة أناسى ،  
وقد عبدها قوم نوح ، ثم عبدها العرب ، وتابعه الزنجشري فذكر ذلك أيضاً<sup>(٣)</sup>  
وليس في كتاب الأصنام ما يشير إلى شبهها بالحيوان<sup>(٤)</sup> . فنحن الآن أمام  
رأيين : فإذا اعتمدنا أن هذه الأصنام الثلاثة كانت على صورة حيوانات فعلينا  
أن نتذكر أنها قلة قليلة بالنسبة لما نعرف من عدد أصنام العرب<sup>(٥)</sup> ، وإذا أخذنا  
بأنها كانت على صورة البشر بطلت الدعوى . وسواء أكانت على هذه الصورة  
أم تلك فإنها لم تكن من مبتدعات العرب ؛ وإنما هى بقايا من عهد نوح :  
وهناك عشرات من أصنام العرب لم تكن على شكل حيوان ، وبعضها  
كان على هيئة إنسان<sup>(٦)</sup> .

(١) حياة الحيوان للدميرى ٢ / ٢٤٢ وتاريخ الخميس ١ / ١٧٣ ونهاية الأرب في معرفة  
أنساب العرب للقمشدى ٢١ .

(٢) الكشف للزنجشري ٢ / ٤٩٢ وتفسير النيسابورى ٢٩ / ٥٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والزنجشري ٢ / ٤٩٢ .

(٤) الأصنام لابن الكلبي ١٠ و ١١ و ٥٧ و ٥٨ .

(٥) في كتاب الاصنام لابن الكلبي ثلاثون صنماً وفي ملحق الكتاب سبعة وأربعون .

(٦) الاصنام ٩ و ٢٨ و ٥٦ و ٥٩ وتفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والنيسابورى ٢٩ / ٥٣

والزنجشري ٢ / ٤٩٢ .

وشتان بين عبادة الحيوان في التوتمية وعبادة صنم على هيئته ، لأن أصحاب التوتم يعبدون حيوانات لأصناما شبيهة بها ، ويمارسون ضروبا من السحر والرقى لحفظ التوتم حيا .

ولا يصح أن نفعل عن تقرير القرآن الكريم أن العرب كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ، بل لتقربهم إلى الله زلفى « مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ( ح ) وأما دليله على توتمية العرب بأنهم حرموا لحم بعض الحيوان ، فهو مردود بأن العرب لم يحرموا حيواناً ، ولو أن العرب دانوا بالتوتمية لحرموا لحمان الثور والبكر والظبي والعنز والفهد وغيرها من الحيوانات التي سماها .

( د ) على أن التوتمية تقضى أن ينسب الولد إلى توتم أمه لا توتم أبيه ، ولو دان العرب بالتوتمية لكان النسب إلى الأم هو الغالب السائد ، ولكن الذى حدث أن النسب إلى الأب كان السائد الغالب .

( هـ ) ثم إن من أسس التوتمية ألا يتزوج الرجل امرأة تتفق معه في توتمه كما يقول سميث وغيره . وسنجد في فصل ( الزوجة ) أن العرب كانوا يتزوجون بأقاربهم وبنات أعمامهم ، كما كانوا يفتربون ، لا لأنهم يدينون بالتوتمية ، بل لأنهم يستجدون النسل ، ويحققون منافع أخرى ستجىء .

وإذا فقد بطلت نظرية سميث في توتمية العرب ، فبطلت النتائج التي بناها عليها ، وأهمها نظرية الأمومة .

٣ — أما التعبير عن القرابة بالبطن فليس دليلا على الأمومة ، وقد أسافت أن التعبير بالرحم والبطن دليل على عظم أثر الأم في القرابة . على أنهم عبروا أيضاً بالفخذ والشعب والعمارة ، وليس في واحد من هذه أثار من الدلالة على الأمومة .

٤ — ثم إن الأنساب لم تخاق في عهد عمر ، ولم يختلط بعضها ببعض ، لأن العرب منذ العصر الجاهلى كانوا حراساً على حفظ أنسابهم ، وكانوا يتشددون فيها ، ويردون من يدعى نسباً ليس له .



ولا شك أن النظام القبلي كان يهتم عليهم الحفاظ على أنسابهم ، لأن القبيلة وحدة متماسكة ، يتداعى أفرادها للنصرة . ورد الغارة ، ويتضامنون في تحمل المغارم والديات ، ويتعاونون على تحقيق كثير من المنافع ، وهذا كفيل بحرصهم على معرفة أنسابهم ، وتحريمهم الصدق فيها ، وإبعادهم كل دخيل ليس منهم » فيؤمن عليهم اختلاط أنسابهم وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ، ولا عرف فيهم شوب <sup>(١)</sup> .

وكيف نصدق أن تلفق الأنساب في عهد عمر ، وهو نفسه كان يحض العرب على حفظ أنسابهم بقوله : « تعاملوا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا » <sup>(٢)</sup> .

وكان من العرب نسابون ثقات أطبق الناس على أمانتهم وسعة معارفهم <sup>(٣)</sup> . وكثيراً ما تباهى الشعراء بأنسابهم ، واعتزوا بها وحرصوا عليها . من ذلك قول بشامة بن جَزء النهشلي :

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا <sup>(٤)</sup>  
فلم يكن عجباً أن رفضت بجيلة أن يولى عليها عرجة بن هرثمة ، وسألوا

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ . (٢) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ .

(٣) مثل جبير بن مطعم وأبي بكر وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب والحطاب ونفيل ودغفل وعمر وصبح وابن السكيس والأزهر بن عبد المارث وابن عطاء اللبثي وابن كريبز والأبرش والحطفي وغيرهم ( البيان والتبيين ١ / ١٤٤ و ٢٥٣ و ٢٥٨ و ٢٦٩ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٢ و ٢٨٣ ) والأنساب للسمعاني ٨ .

(٤) شرح الحماسة الرزوقي ١ / ١٠٢ و عيون الأخبار ١ / ١٩٠ وفي شرح التبريزي ١ / ٥٠ وخزانة الأدب ٣ / ١٥٥ أن القائل بشامة بن حزن النهشلي . وفي الشعر والشعراء ٢٤٢ أنه نهشل بن حري .

عمر أن يعفيهم منه ، وقالوا : هو فينا لزيق ، وطلبوا أن يولى عليهم جريرا . فسأل عمر عرجة عن ذلك ، فقال له : صدقوا يا أمير المؤمنين لست منهم ، ولكنى رجل من الأزد ، كنا أصبنا في الجاهلية دما في قومنا ، فاحقنا بجيلة ، فبلغنا فيهم من السؤدد ما بلغك .

فهم على علم بوشائج كل شخص ، يردون نسبه صراحة إن ادعى لغير قومه ، ولا يرضون بدخيل رئيسا عليهم .

٥ — وإن صدقنا أن النسب مختلق في عهد عمر لنيل العطاء ، فكيف نصدق أن القبائل التي نُحى نسبها عن قریش قتل عطاؤها رضى بذلك ؟ وكيف تقر نسبها الموضوع ، وهو لا يرضيها ، ويظل ذلك إلى العصور اللاحقة . وإلى الآن في كتب التاريخ ؟ ثم كيف غفل الشعوبية عن هذا النسب المختلق المنحول أو المتحل ؟ ولا سيما الفرس في وقت كانت المفاخرة فيه على أشدها ، وأعنفها ، إذ كان العرب يفاخرون الفرس بأنسابهم ، ولم يأل الفرس جهداً في النيل من العرب ، حتى لقد نسبوهم إلى الوحشية وقالوا : «إنهم كالذئاب العادية ، والوحوش الضارية يأكل بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثوقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركن الصرinx استنقذن بالعشى وقد وطنن كما توطأ الطريق المبيع<sup>(١)</sup> » .

ولو استطاع شعوبى أن ينكر على العرب أو على بعضهم نسبهم لفعل ، مع أنهم أنكروا على العرب دعواهم أن الهند والبربر والديلم وبرُجان أصلهم من العرب . قال بجير يعير العرب ذلك :

زعمتم بأن الهند أولاد خندفٍ	وينكم قُرَبى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل	وبرُجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقرابنا ملوك الأكاسر <sup>(٢)</sup>

نعم كان الفرس أحق الناس بطعن هذه الأنساب التي نجاها العرب أنفسهم، لأنهم على صلة بهم من قديم ، بالجوار والحرب والسلام والحكم ، ولأنهم اتصلوا بهم بعد الإسلام اتصالاً أقوى وأعمق ، وكان يهد لهم هذا الطعن أن كثيراً من المؤرخين والنسابين في الإسلام من أصل فارسي ، فلماذا سكتوا؟ ولماذا روجوا لأنساب مدخولة يستطعون أن ينالوا من العرب بنقضها وتزييفها؟

٦ — على أن الساميين في عصورهم التاريخية اعتبروا النسب إلى الآباء هو النظام الاجتماعي المألوف ، حتى لقد حسبوا أن كل شعب قد نبه له أب واحد، فهو ينتسب إليه . فالأشوريون نسل بهم أب واحد اسمه آشور ، والكنعانيون نجاهم رجل واحد هو كنعان ، والمؤابيون أبناء أب واحد اسمه مؤاب ، والإسرائيليون أولاد إسرائيل وهكذا . ومعنى هذا أن القبيلة تنتسب إلى أولاد الرجل الذي انحدر منه الشعب ، وأن العشيرة تعزى إلى أحفاده وهكذا <sup>(١)</sup> .

وقد دونت شريعة حمورابي نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وجاء فيها عن نظام الزواج والطلاق ما يدل على أن الرجل رب الأسرة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى نظام الأمومة .

فالانتساب إلى الأب هو النظام السائد بين الأمم السامية منذ العصور التاريخية ، لأن الأب رب الأسرة ، وييده تصريف أمورها الدينية والمدنية ، وهو الذى يقرب القرابين لإله العشيرة ، ويهيمن على بنيه وأهله ، فكان له أن يبيع أبناءه وبناته ببيع العبيد <sup>(٢)</sup> ، وكان له أن يقتلهم أو يحرقهم إذا شاء <sup>(٣)</sup> ، إلى أن حرمت التوراة عليه ذلك <sup>(٤)</sup> ، ثم شدد القرآن الكريم النكير على الوائدين كما سيجىء . لذلك دل الساميون على الرجل بكلمة بعل ، ومعناها الزوج والسيد .

(١) Israel from its Begining. Adolphe Lods P. 199.

(٢) سفر الملوك الثانى الإصحاح الرابع الآية الأولى . وسفر الخروج الإصحاح ٢١ الآية ٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤ .

(٤) سفر التثنية الإصحاح ٢١ الآية ١٨ .

٧ — ثم إننا نجد أحياناً نسباً مزدوجاً في العرب إلى الأب والأم معا ، فبعض القبائل نسبت إلى أبيها وأُمها ، كالأوس ، نسبوا إلى أمهم قَيْلَة وإلى أبيهم حارثة <sup>(١)</sup> ، وبنو خندف انتسبوا إلى أبيهم إلياس بن مضر ، كما انتسبوا إلى أمهم خندف ، وفي ذلك يقول قصي بن كلاب من مرة :

إني أرى الحرب كلَّيَّ وأبي      عند تناديهـم بهابٍ وهـي  
معتم الصولة على النسب      أمهتي خندف والياس أبي <sup>(٢)</sup>

وبنو طُهَيَّة نسبوا إلى أمهم وإلى أبيهم سود بن مالك بن حنظلة <sup>(٣)</sup> ، وأولاد مرّ بن أدّ نسبوا إلى أمهم ظاعنة وإلى أبيهم <sup>(٤)</sup> .

كذلك كان بعض الأفراد يعرفون بأبيهم وأمهم معا ، كالحارث بن ثعلبة ابن جفنة ، أمه مارية ذات القرطين ، من جفنة ، أو مارية بنت ظالم من كندة ، وقد نسب جماعة من ملوك غسان إليها <sup>(٥)</sup> ، وعنترة بن الأخرس من طيء نسب أيضاً إلى أمه عُكْبَرَة <sup>(٦)</sup> .

٨ — وإنا لنجد إصراراً من بعض العرب على نسبهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، من هؤلاء المتلمس ( جرير بن يزيد أو ابن عبد المسيح من ضبيعة بن نزار ) فقد ولد في أخواله بني يشكر ، ونشأ بينهم حتى كادوا يغابون على نسبه ، فسأل عمرو بن هند يوما الحارث اليشكري عن نسب المتلمس فقال : أوانا يزعم أنه من بني ضبيعة . فقال عمرو : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتلمس ، وهجأ عمرا ، وهدد الحارث <sup>(٧)</sup> ، لأنه كان حريصاً على نسبه

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٥٠ .

(٢) مروج الذهب ١ / ٢٧٥ هـ ، هي : زجر للغيل أي أفدى وأقبل .

(٣) المعارف ٢٦ . (٤) المعارف ٢٥ .

(٥) مروج الذهب ١ / ٢٠٧ .

(٦) شرح ديوان الحماسة المرزوق ١ / ٢٢٠ .

(٧) ديوان التلمس ١ مخطوط والأغاني ١٢٥/٢١ - ١٣٥ وشعراء النصرانية ٣٣٩ .

لأبيه ، يدل على ذلك قول أبي الفرج إن الحارث الشكري أراد أن يدعى المتلمس ، فقال المتلمس :

ومن كان ذا عرض كريم ولم يضنْ له حسباً كان اللئيم المذمماً  
أحارثُ إنا لو تُسَاطُ دماؤنا تَرايَلُنْ حتى لا يمسَّ دم دماً  
أُمْنَقِيّاً من نَصْر بُهْثَةٍ خِلْتَنِي ألا إني منهم وإن كنت أينا  
وإن نصابي إن سالتَ وأسرتي من الناس قوم يقتنون المرتما  
فلو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم زنياً فما أحرزتُ أن أتكلماً<sup>(١)</sup>

ولما خطب عمرو بن حُجْر إلى عَوْف بن محمَّ الشيباني ابنته أم إلياس قال له :  
أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن أكفاءهن  
من الملوك<sup>(٢)</sup> .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يؤثر أن ينسب إلى جده الأعلى النَّضر  
لا إلى جدته ، من ذلك أنه لما قدم عليه الأشعث بن قيس في وفد كندة قال  
الأشعث : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم  
رسول الله ، وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن  
الحارث - وكانا تاجرين إذا شاعا في بعض العرب فسئلا من هما قالوا نحن  
بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ، لأن كندة كانوا ملوكا - ثم قال لهم : لا ،  
بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا تقفوا معنا ، ولا نتقي من أينا<sup>(٣)</sup> .

وجاء الإسلام فحرم النسب الخلق المتعمد ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) الأغاني ٢١/١٢١ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسي ٦٤/١ بهثة : ابن وهب  
ابن جلي بن أحس بن ضبيعة . تساط : تخط .  
(٢) العتد الفريد ٣ / ٢١٠ .  
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤ .

« من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة <sup>(١)</sup> » وأمر القرآن الكريم بنسب المتبئين إلى آبائهم ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم <sup>(٢)</sup> ﴾ ، فنسبة الشخص الذي يُعلمُ أبوه إلى غير أبيه حرام في الإسلام <sup>(٣)</sup> .

٩ — ولقد اعتمد وليكن على تشابه أسماء البطون في دعواه أن الأنساب مختلفة ، لأن التشابه في نظره وليد الانتحال والاختلاق ، ودليل على تشعب الآراء وتصرف الأهواء .

ولكن دفع هذا ميسور ، فقد تشترك قبيلتان أو أكثر في لقب واحد كالأرقام ، فهو لقب لجُشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية بنى بكر بن عمرو من تغلب <sup>(٤)</sup> . ولعل سبب تاقميتهم بالأرقام أن عيونهم تشبه عيون الحيات الرقم ، يدل على ذلك قول المبرد إن الأرقام قبيلة من بنى تغلب ، لقبوا بذلك لأن عيونهم شبت بعيون الحيات الأرقام ، فعرفوا بهذا الاسم <sup>(٥)</sup> . وكذلك بنو أبان بطون شتى من قبائل شتى ، بعضها من العدنانية وبعضها من القحطانية <sup>(٦)</sup> . وبنو أثمار حى من عدنان وحى من كهلان <sup>(٧)</sup> . وبنو عبد مناف علم على ثلاث بطون من العدنانية <sup>(٨)</sup> . وبنو أسد بطن من أزد كهلان من القحطانية ، وبطن من قضاة من حمير . وبنو الأوس بطن من قحطان ، وبطن من عدنان . وكذلك بنو تغلب وبنو بكر <sup>(٩)</sup> .

وقد تتفرع من القبائل بطون تشترك في اسم واحد لفظاً ونطقاً ، فمن هوازن

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٥ . (٢) سورة الأحزاب ٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٦ . (٤) المعارف ٣٢ .

(٥) السكامل للمبرد ١٢٧ .

(٦) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ٣٠ .

(٧) المرجع السابق ٢٦ . (٨) المرجع السابق ٢٨٠ .

(٩) المرجع السابق .

هلال بن عامر بن صعصعة ، ومن ضبة هلال بن عامر بن ربيعة ، ومن ربيعة ابن نزار هلال بن ربيعة بن زيد ، ومن الأزد هلال بن عمرو بن كعب ، ومن النخع هلال بن عمرو بن جشم ، ومن قضاة هلال بن جشم بن القين ، وكل هؤلاء بطون<sup>(١)</sup> ، فالإقتصار على هلال وحده وأحياناً عليه وعلى ما بعده يدعو إلى اللبس ، لذلك ألف ابن حبيب كتاباً عرض فيه نواحي من هذا التشابه والاشتباه .

١٠ — وسنرى في الزواج أن العرب كانوا يحرون على أنواع ، أقر الإسلام واحداً منها ، وأبطل ثلاثة هي نكاح الاستبضاع ، ونكاح الرهط ، ونكاح البغايا ، وحتى في هذه الأنواع كان ينسب الولد إلى أبيه ، لأن الأب في نكاح الاستبضاع كان يطعم في نجابة الولد وينسبه إليه ، وفي نكاح الرهط كانت المرأة ترسل إلى من باشروها وتعين واحداً منهم فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ، وفي نكاح البغايا كان القافة يلحقون المولود بالذي يرون فيدعى ابنه ، ولا يرفضه<sup>(٢)</sup> .

فإذا كان الولد ينسب إلى أبيه في هذه الأنواع التي لم يقرها الإسلام ، فبحري به أن ينسب إلى أبيه في النوع الذي أقره ، وهو الذي كان ذائعاً شائعاً ، ولو أن العرب كانوا يدينون بالأمومة لكان نكاح الرهط ونكاح البغايا أفسح مجال لها ، لأن الأب فيهما مجهول ، أو على الأقل مشكوك فيه . ومن أمثلة ذلك أن جارية بن سليط بن الحارث اتصل ببغى في سوق عكاظ ، فقالت له : لعل سألقت ولداً ، فموعدك فصال ولدى إن حملته ، فعرف الجارية اسمه ، ثم وافى عكاظ بعد ثلاثة أعوام ، فوجدها قد ولدت غلاماً وفطمته ، وأقبلت معها أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ ، ثم دفعن إليه الغلام ، فسماه

(١) مختلف القبائل ومؤتلفها ١٨ لابن حبيب .

(٢) ريم الأبرار للزمخشري ١٤٩ مخطوط وفضل العرب على العجم ٣٩ مخطوط وأمثال العرب للضي ١٨ وفتح الباري ٩ / ١٥٨ والاعتصام للشاطبي ٢ / ١٨٤ وإنسان العيون ٦ / ٤٧ والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ٣ / ٢٣٣ .

عوفاً<sup>(١)</sup> . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها اشتراك أبي لحب وأميمة بن خلف وهشام بن المغيرة وأبي سفيان بن حرب والعاص بن وائل في مباشرة النابغة أم عمرو بن العاص ، وحكمها هي بأنه للعاص<sup>(٢)</sup> .

١١ — وسنرى في فصل ( البنت ) أن الوأد لم يكن عاماً ، وفي ( فصل الزوجة ) أن العرب لم يجزوا على المشاركة في النساء ، وبهذين يبطل ما ذهب إليه ماك لينان وولكن من أن عموم الوأد اضطر العرب إلى المشاركة في النساء ، وكانت هذه المشاركة هي السبب في نظام الأمومة عندهم ، لأن الأم معلومة والأب مجهول .

### رأى في أصل النسب إلى الأم :

لم أرتض أن يكون الباعث على النسب إلى الأم عند العرب هو نظام الأمومة ، ولكنهم قد نسبوا أحياناً إلى الأمهات ، فلماذا نسبوا إليهن ؟ أرى أن مرد هذا النسب إلى أمور شتى منها :

١ — تكريم الأم المنجبة ، وتمجيدها ، والإعلاء من قدرها ، كما نسب إلى أمه عمرو بن هند مُضَرَّط الحجاره ، وكما نسب المناذرة إلى أمهم ماء السماء ، وهي ماوية بنت عوف بن جُشَم ، وكما انتسب الحارث الأعرج إلى أمه مارية وانتسب إليها الفساسة . يقول حسان بن ثابت في مدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصاة نادمتهم يوماً بحلق في الزمان الأول  
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل<sup>(٣)</sup>

(١) أمثال العرب للضي ١٨ (٢) ربيع الأبرار ورقة ١٤٩ مخطوط .

(٣) الأغاني ١٤ / ٣ وهي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المزار الكندي (المعارف ٢٦٣ وربع الأبرار ٢٠٦ مخطوط والفاخر للكوفي ٨٧ ومستقصى أمثال العرب للزخمرى ١٠٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٢٣٨) .



ويقول النابغة الذبياني - أو حسان بن ثابت - في مدح عمرو بن الحارث الأعرج وتفضيله على المنذر :

قَدْ أَلَاكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجِبِهِ وَأَمَّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَنْذَرِ<sup>(١)</sup>  
وقد انتسب إلى أمه ملك الحيرة عمرو بن المنذر الأكبر، وعرف بأنه عمرو ابن هند، وهي بنت عمة امرئ القيس الشاعر، يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :  
بَأَى مَشِئَةَ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ تَطِيعُ بَنَى الرِّشَاةِ وَتَزْدَرِينَا ؟  
بَأَى مَشِئَةَ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ نَكُونُ لَقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا<sup>(٢)</sup>  
ويقول طرفة في تحريضه له على الثأر من مُراد الذين قتلوا أخا عمرو بن هند :  
أَعْمَرُوا بَنَ هِنْدٍ مَا تَرَى رَأَى مَعْشَرَ أَمَاتُوا أَبَا حَسَانَ جَاراً مَجَاوِراً  
فَإِنْ مُرَاداً قَدْ أَصَابُوا حَرِيمَهُ جَهَاراً وَأَضْحَى جَعَمَهُمْ لَكَ وَاتِرَا<sup>(٣)</sup>  
وفي مدح الحارث بن حِزَازة اليشكري للملك قيس بن شراحيل بن همام الشيباني كناية عنه بـ ابن مارية ( بنت سيار بن ذهل بن شيبان ) :

وإلى ابن مارية الجواد وهل شَرَّوَى أَبِي حَسَانَ فِي الْإِنْسِ<sup>(٤)</sup>  
ويعلم قيس بن زهير العبسي بنى زياد ، فيكنى عنهم بأنهم أبناء جنية في فضلهم وسؤددهم ودهائهم :

لِعَمْرِكَ مَا أَضَاعَ بَنُو زِيَادٍ ذِمَارَ أَيْبِهِمْ فِيمَنْ يُضِيعُ  
بَنُو جِنِيَّةٍ وَلَدَتْ سِيَوْفَا صَوَارِمَ كُلِّهَا ذِكْرٌ صَنِيعٌ<sup>(٥)</sup>  
وقد نسب بعض المحدثين النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه :  
صَلَّى الْإِلَهِ عَلَى ابْنِ أَمْنَةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهِ سَبْطُ الْبَنَانِ كَرِيماً<sup>(٦)</sup>

(١) الأغاني ١٤ / ٤ . (٢) شرح القصائد العشر للبهراني ٢٣٦ .

(٣) معجم البلدان ٧ / ١١٩ .

(٤) المغنيات ١ / ١٣١ شروى : مثل .

(٥) شرح الحماسة للرزوقي ١ / ٤٧٠ .

(٦) تحفة الأئمة فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزآبادي ١٠٠ من نوادر المخطوطات .

٣ — الفخار بها ، لعراقتها ، أو لادعاء عراقتها كقول سلامة بن ذرير . بن الصّمة وقد رمى أبا عامر الأشعري فقتله ، حين بعثه رسول الله في آثار من توجه إلى أوطاس :

إن تسألوا عني فأني سامة ابن سمادير لمن تواسمه  
أضرب بالسيف رؤوس المسامه<sup>(١)</sup>

وكقول وذر بن جابر النبهاني وقد رمى عنتر بن شداد : خذها وأنا ابن سامة ، فتحامل عنتر بالرمية حتى أتى أهله ، فقال وهو جريح :  
وإن ابن سامي عنده فاعلموا دمي

وهيبات لا يرجي ابن سامة ولا دمي<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما كان يقول الضارب : خذها وأنا ابن فلان أو فلانة .  
وكان حسان بن ثابت ينسب إلى أمه الفريضة ، وقد ناداه عمرو بن الحارث الأعرج معجباً بشعره بقوله يا ابن الفريضة أربع مرات في مجلس واحد<sup>(٣)</sup> ، وكان حسان ياتقب نفسه بذلك ، كقوله :

أمسى الخلاليس قد عذوا وقد كثروا وابن الفريضة أضحي بيضة البلد<sup>(٤)</sup>  
وفي نثر الحارث بن حلزة قوله :

وولدنا عمرو بن أم أناس من قريب لما أتانا الحباء<sup>(٥)</sup>  
وفي نثر الحُصين بن الحُمام المرى بنفسه قوله :

أبي لابن سامي أنه غير خالد مُلاقٍ المنايا أيَّ صرْفٍ تيمما<sup>(٦)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٨٨ سمادير : أمه .

(٢) الأغاني ٧ / ١٤٥ . (٣) الأغاني ٤ / ٣٤ .

(٤) الإصابة ٨ / ١٦٦ والأغاني ٤ / ١١ . الحالايس : اللثام الأندال .

(٥) شرح التصانيد العشر ٢٨٧ يريد عمرو بن حجر الكندي جد الملك عمرو بن هند . وأم أناس هي أم الأول وهي من ذهل بن شيبان ، أي أن النسب يتناوب بين الملك قريب

(٦) الفضليات ١ / ٦٧ سامي : أمه أو وجدته . أي صرف تيمم : أي جهة قصد

أي أبي أن يحتمل الدل والعار لأنه لا بد أن يموت .

ويقول الأحنف بن قيس :

أنا ابن الزافرية أرضعتني بثدي لا أجد ولا وخيمُ

أتممتني فلم تنقض عظامي ولا صوتي إذا اصطك الخصوم<sup>(١)</sup>

ويقول إياس بن قبيصة الطائي إنه لا يستحق أن يكون ابن أمه العفيفة الشريفة النسب إن شاع هواه في طلب امرأة :

ما ولدتن حاصن ربعية<sup>(٢)</sup> لأن أنا ما لأت الهوى لاتباعها<sup>(٣)</sup>

وقد سبق نحر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ابن العواتك .

٣ — مدح أبنائها بأنهم نساها ، كما يمدح الملوك وأبناء المنجبات ، من ذلك أن أعشى بني عوف — ضابيء أوزيد بن خلود بن مالك — حمد جوار أبناء هند ، وهي امرأة من شيان ، فقال :

فلم أرجيرانا إذا الحرب شمرت كمثل بني هند أعف وأكرما<sup>(٤)</sup>  
وقول رشيد بن رمييض العنزي في غارة شريح بن شرحبيل على اليمن :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم<sup>(٥)</sup>

ومدح الساور بن هند بن قيس قومه إذ نفروا له لما استنفرهم ، وفداهم

بنفسه وأبويه :

فدّى لبني هند غداة دعوتهم بجو وبال النفس والمال<sup>(٥)</sup>

(١) البيان والتبيين ١ / ٦٥ الزافرية : أمه واسمها حي وهي من باهلة . لا أجد : ليس بابساً . وخيم : تليل . اصطك الخصوم : تقارعوا فيما بينهم . وقال يونس إنه عن بعضائه أسنانه لأنها إذا تمت تمت الحروف وإذا تقصت تقصت الحروف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١ / ١١١ والمرزوقي ١ / ٢٠٨ .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ١٣ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٣٥٤ والتبريزي ١ / ١٨٤ .

(٥) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ٩٨ الجو : الأرض المثلثة . وبال : اسم ماء .

وقد افتخر موسى بن جابر - وكان يعرف بابن ليلي وبابن الفريعة أيضاً -  
برجلين من آبائه كنى عنهما بابني العنبرية :

إذا ذكر ابنا العنبرية لم تصمق ذراعي وألقى باسته من أفاخر  
هلالان حمّالان في كل شتوة من الثقل ما لا تستطيع الأباقر<sup>(١)</sup>

وكان رجل من عبد القيس - يقال له ابن أمية - قتل ، فرثته زوجته ،  
ومن رثائها قولها :

أجيران ابن مية خبروني أعين لابن مية أم ضمّار<sup>(٢)</sup>

٤ - ولقد تكون الأم أعظم شهرة وعراقة من الأب فينسب إليها بنوها ،  
أو تكون الأم هي التي كفلت أبناءها وربّتهم ، لأن أباهم مات وهم صغار ،  
فيشتهرون بها .

على أن من أسباب ذلك أيضاً التمييز بين الأبناء حين يتزوج الرجل بامرأتين  
أو أكثر ، ويولد له من زوجاته أولاد يشترك بعضهم في اسم واحد ، فينسب  
كل منهم إلى أمه - مع انتسابه لأبيه - تمييزاً له من أخيه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث في الإسلام ، فقد كان لعلي بن أبي طالب أولاد  
من زوجات ، سمى ثلاثة منهم باسم محمد ، فنسب أكبرهم إلى أمه خولة بنت  
جعفر من بني حنيفة ، وعرف بمحمد بن الحنفية ، ولو أنه كان في الجاهلية لعرف  
أعقابهم ببني الحنفية ، كما قيل في الجاهلية بنو العدوية .

ولقد تكون الأم هي الوشيعة بين ابنها ومن ينسبه إليها ، فيؤثر أن يذكره  
بها لا بوالده ، كما قال النابغة في رثاء أخيه لأمه :

لا يهنا الناس ما يرعون من كلاً وما يسوقون من أهل ومن مال

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٣٦٩ والتبريزي ١ / ١٩٠ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ١٤١ العين : النقد الحاضر . الضمار : الدين لا يرجى .  
قضاؤه والمراد أنك تكون ثأره أم تطلون دمه ؟

بعد ابن عاتكة الثاوي على أمرٍ أُمسى ببلدةٍ لا عمٍّ ولا خال<sup>(١)</sup>  
 ٥ — وسنعرف في حديثنا عن الزواج أن من أحوال النسب إلى الأم  
 أن تعيش الزوجة مع زوجها في عشيرته ، فإذا طلقها عادت إلى أهلها وحمت معها  
 أولادها ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش زوجها معها ، فإذا طلقها عاد إلى  
 عشيرته ، وترك أولاده مع أمهم ، أو أن تعيش في عشيرتها ويعيش هو في عشيرته  
 على أن يتردد عليها ، فإذا طلقها احتفظت بأولادها<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الحالات ينسب  
 الولد إلى أمه .

٦ — ويحق لنا أن نستنتج من بعض الهجاء أن التلقيب بالأم كان يقصد  
 به التحقير أحياناً .

من ذلك قول الطرماح بن جَهْم السَّنْبَسِي لنافذ بن سعد المعنّي :  
 متى قدت يا ابن الحنظلية عُصْبَةً من الناس تهديها لـخِاجِ الحُكَّارِمْ ؟  
 فَقَدْ بزمَ بَظُرَ أُمِّكَ واحتفر بأُيْرَ أَيْيِكَ الفَسْلِ كُرْاثَ عَاسِمِ<sup>(٣)</sup>  
 وقول آخر في هجاء :

يا قبيح الله أقواما إذا ذُكروا بنى عُمَيْرَةَ رهط اللؤم والعار<sup>(٤)</sup>  
 وقول أعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب يذكر قاتله هنداً :  
 أصبتَ في حَرَمِ منا أختة هندَ بن سلمى فلا يَهِنَا لك الظفر<sup>(٥)</sup>  
 وإن عنترة ليفصح عن ذلك بأن قومه كانوا في السلم حين لا تحوجهم نجدته

(١) شرح الحماسة للتبريزي ٢ / ١٨٥ ذو أمر : موضع .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسة ٨٤ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ٣٠ المخارم : جمع مخرم وهو أنف الجبل . الفصل :

الضعيف . عامس : رمل لبني سعد .

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤ / ٤٩ .

(٥) جهرة أشعار العرب للقرشي ٢٨٢ .

يأقبونه باين زبيبة ، وكانوا في الحرب حين يستصرخونه ويفتقرون إلى بلائه  
يأقبونه باين الأطايب :

ينادونني في السلم باين زبيبة وعند صدام الخيل باين الأطايب<sup>(١)</sup>  
ومن هذه الزرية قول بشر بن أبي خازم :

قل للمثلث وابن هند بعده إن كنت رائم عزنا فاستقدم<sup>(٢)</sup>

٧ - على أن الأب قد يموت في حياة أمه أو أم زوجته ، فتكمل أحفادها  
وترعاهم ، فينسبون إليها ، أو تكون ذات شهرة فيعرفون بها ، كما نسب إسماعيل  
ابن إبراهيم بن مقسم الأسدي إلى جدته لأمه عليّة ، ونسب إليها أيضاً ابن  
ابنه<sup>(٣)</sup> . وكما نسب عبد الله بن مالك الأزدي إلى أم أبيه عبدة بنت الحارث  
ابن عبد المطلب ، ولقبها بـ **بُحَيْمَةَ**<sup>(٤)</sup> ، ونسب سهل بن عمرو إلى أم أبيه الحنظلية<sup>(٥)</sup>  
ونسب الحارث بن مالك إلى أم أبيه أيضاً ، واسمها عبدة ولقبها **البرصاء**<sup>(٦)</sup> .  
ونسب سعد بن عُمَيْب إلى أم جده الحنظلية فعرف بابن الحنظلية<sup>(٧)</sup> . وفي الإسلام  
نسب جميل بن مَعْمَر إلى أم جده معمر فعرف بابن قمئة<sup>(٨)</sup> .

٨ - وفي قليل من الأحيان كان الولد ينسب إلى حاضنته وإن لم تكن أمّاً  
ولا جدة . فقد كان للنعمان بن المنذر ولد أودعه أخته لأمه - سلمى بنت ظالم  
المرى - لتحضنه وتربيته ، ثم اعتدى النعمان على جيران للحارث بن ظالم المرى  
أخى سلمى ، وغنم أباهم ، فغضب الحارث ، واحتال على أخته حتى دفعت إليه  
ابن النعمان فقتله وقال :

فإن تلك أذوادُ أصيبنَ وصيبةً فهذا ابن سَمَى رأسه متفاقم<sup>(٩)</sup>

(١) ديوان عنتره ٢٥ . (٢) جهرة أشعار العرب ١٨٤ .

(٣) تحفة الأبيه ١٠٢ . (٤) تحفة الأبيه ١٠٧ .

(٥) تحفة الأبيه ١٠٦ . (٦) تحفة الأبيه ١٠٤ .

(٧) تحفة الأبيه ١٠٥ . (٨) سمط اللالي ١ / ٢٩ .

(٩) الفضليات ٢ / ١١٢ الأذواد : جماعات الإبل . متفاقم : مكسر .

وقد نسب أولاد إلى زوجة أبيهم ، لأنها حضنتهم ، فمثلا نسب إلى باهلة تسعة رجال ، وليست أما لغير اثنين منهم ، وإنما حضنت الجميع فغلبت عليهم<sup>(١)</sup> بل لقد نسب عوف بن عبد مناة بن أد بن طابخة إلى أمة سوداء حضنته - اسمها عكل - فغلبت على اسمه ، وإليه يشير البعيث في هجاء جرير بقوله :

وجئنا بمعمرو بعد ما حلَّ سَرَبُهَا      محلّ الدليل خَلْفَ أَطْحَلٍ أَوْ عُكْلٍ<sup>(٢)</sup>

## مظاهر حب الأم لبنيتها

إذا كان الأولاد قد تجددوا أمهاتهم ، وباهوا بعراقة نسبهم ، وإذا كان العرب قد عظموا المنجيات وضربوهن مثلاً عالية تحتذى في مجتمع يقدر الأم ، ويحل المرأة ، فإنهم خافوا أيضاً من الآثار الأدبية ما يكشف عن حب الأم لبنيتها ، وحسن تربيتهما لهم ، وخلفت المرأة أيضاً ما يدل على إدراكها لواجبها نحو بنيتها ، وتعيدها لثمرات حياتها .

وقد تجلّى حبها لأبنائها في مظاهر شتى :

### ١ - تربيتهما لهم :

كانت العرب تعير من قصرت أمه في تربيته ، وتسبه بذلك<sup>(٣)</sup> ، وقد تجلت تربيتهما لأبنائها في مظهرين :

**المظهر الأول النربية الجسمية :** فهي تتعبد وليدها قبل أن تتحمله ، ذلك بأنها كانت لا تحمل إلا في طهر ، ولعل الأب كان يشار إليها في ذلك ، لأنهم اعتقدوا أن الحمل في أعقاب الحيض أو قبيل الحيض ينتج ولداً سقيماً .

(١) لسان العرب وطهارة العرب للشنقيطي ٣٢ .

(٢) النفاث ١٥٦ عمرو : يريد عمرو بن تميم . أطحل : جبل ينزل به بنو ثور بن عبد مناة

(٣) عيون الأخبار ١/ ٤٥٤ .

يقول أبو كبير الهذلي في وصف تأبط شرا ابن زوجته إن أمه حملت به وهي طاهر ليس بها بقية من حيض :

ولقد سرّيت على الظلام بغمشٍ جلد من الفتيان غير مُنْقَل  
ومُبَرَّأٍ من كل غبرٍ حيضةً وفساد مُرْصَعَةٍ وداء مُغِيلٍ<sup>(١)</sup>  
ويشير إلى ذلك أحد شعراء الحماسة في وصفه لابنه :

حميت على العُثمَار أطهارَ أمه وبعض الرجال المدَّعَيْنَ غُثَاءً<sup>(٢)</sup>

وزعموا أن النطفة إذا وقعت في الرحم في أول الحلال ، خرج الولد قويا ضخما ، وإذا كان في الحاق خرج ضئيلا ضامرا . قال الشاعر في وصف مولود كامل اجتمعت له شرائط السلامة والضحة :

لَقِحتُ في الحلال عن قُبُلِ الطمِّرِ وقد لاح للصباح بشير<sup>(٣)</sup>  
لذلك هجا البعيث خصمه بقوله :

لَقَى حملته أمه وهي ضيفة فجاءت بِمِثْنٍ للضيافة أرشما<sup>(٤)</sup>

وكانوا يعتقدون أن أنجب الأولاد ولد الفارك، لأنها تبغض زوجها ، فيزعمون أنه يسبقها بمائه ، فيخرج الولد مذكراً شبيهاً بأبيه ، وكان بعض الحكماء يقول إذا أردت أن تطلب ولد المرأة فأغضبها ، ثم قع عليها فإنك تسبقها بالماء . وكذلك ولد الفرعة ، قال الأصمعي : إن المرأة إذا حملت وهي مذعورة فأذكرت جاءت به لا يطاق .

ذكر أبو كبير الهذلي في وصف ابن زوجته تأبط شراً أن أمه حملت به وهي

(١) شرح ديوان الحماسة للدرزوقي ٨٧/١ والشعر والشعراء ٢٥٧

(٢) شرح الحماسة للبريزي ١٤٣/١ لأن حمايته لأمه من الزناة وهي في طهرها دليل على عفتها وغيرته ، ودليل على أن الطهر هو الزمن للتخير للعمل .

(٣) البغلاء للجاحظ ٢٤/٢

(٤) اسان العرب ١١٣/١١ و٣٤٧/١٧ الضيفة : الحائض . اليتن : الذي يولد منكوساً

تخرج رجلاه قبل رأسه ويديه .



غير مستعدة لفراش ؛ لأنها فزعة ، فنشأ محموداً مرضياً لم يدع أحد عليه بالهلاك :  
 من حملن به وهن عواقد حُبكِ النطاق فشبَّ غير مُهَيَّل  
 حملت به في ليلة مزهودة كرها وعقد نطاقيها لم يُحَلَّل<sup>(١)</sup>  
 وروى عن أم تأبط شرا قولها: حملت به في ليلة ظلماء، وإن نطاقي لمشدود<sup>(٢)</sup>،  
 وقولها: لقد حملت به في ليلة مظلمة وتحت رأسى سرج ، وعلى أبيه درع<sup>(٣)</sup> .  
 وكذلك قالوا في ولد الغضبي والفارك :

تَسَنَّتْهَا غَضْبِي فَجَاءَ مُسَيِّدًا وَأَنْفَعُ أَوْلَادِ الرِّجَالِ الْمَسَيِّدُ<sup>(٤)</sup>  
 ب - فإذا ما أمت حملها ، ووضعت جنينها افتخرت بأنها وضعت وضعاً سامياً  
 صحيحاً لا عسر فيه ولا شذوذ ، روى عن أميمة أم تأبط شراً أنها قالت : والله  
 ما ولدته يَتَنَّا<sup>(٥)</sup> ، ونسب هذا القول أيضاً لفاسمة بنت الخرشب<sup>(٦)</sup> ، ولعلمهم  
 كانوا يتحامون الحمل قبيل الحيض وبعيده حتى لا يولد الولد يتنا ، يدل على ذلك  
 قول البعيث في الهجاء كما - بق :

لَقِيَ حَمْلَتَهُ أُمُّهُ وَهِيَ ضَيْفَةٌ فَجَاءَتْ بَيِّنٌ لِلضِّيَافَةِ أَرْشَمَا  
 وقد رجعت إلى كثير من الأطباء الإخصائيين في طب الأطفال وأعراض  
 النساء ، فقرروا أن ماسبق في الحمل ، وفي المرأة الفارك ، والمذعورة ، وفي  
 الاستدلال على فساد المولود بنزوله منكساً ، قرروا أن هذا كله لا أساس له  
 ولا صحة فيه .

(١) تهذيب الكامل ٢ / ٤٩ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ٨٧ وكتاب المعاني  
 الكبير لابن قتيبة ١ / ١٩٠ ليلة مزهودة : ذات فرع ويجوز نصب مزهودة على الحال من  
 فاعل حملت .

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٨٨ (٣) المرزوقي ١ / ٨٧

(٤) المرزوقي ١ / ٨٥

(٥) الحيوان للأجاحط ١ / ٢٨٦ طبعة هارون والعقد الفريد ٣ / ٢٢٤ ولسان العرب  
 ١٧ / ٣٤٧ وتهذيب الكامل ٢ / ٥٠ وشرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٨٧ اليتن : خروج رجل  
 المولود قبل رأسه ، وذلك علامة سوء فيما يزعمون .

(٦) نجم الأمثال للميداني ٢ / ٢٧٦ والأغاني ١٦ / ٩٧ .

ح - فإذا ما وضعت سقته من لبنها، وهى فى حال تسكفل دَرَّه صافياً مغذياً،  
فأليست ترضع وهى حبلًى، لأنهم عرفوا بتجاربهم أن لبن الحبلًى ضار بالرضيع .  
وقد ذكرت أم تأبط شرا فى حديثها السابق : « ولا سقته غَيَلا » . وفى ذلك  
يقول أبو كبير الهذلى :

وَمُتْرَأٍ مِنْ كُلِّ غُبْرٍ حِيضَةٌ وَفَسَادُ مَرْضَعَةٍ وَدَاءُ مُغِيلٍ  
ويقول الراجز : « كان أبوه غائباً حتى فطم » أى لم يسق غَيَلا<sup>(١)</sup> .  
ويقول شاعر :

ثُمَّ نَمَى وَلَمْ تُرَضَّعْ قَلْوًا وَرَضَاعُ الْمُجَبِّ عَيْبٌ كَبِيرٌ<sup>(٢)</sup>  
لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هممت أن أنهى أمتى عن  
الغَيَلة ، حتى علمت أن الروم وفارس يصنعون ذلك ، فلا يضر أولادهم<sup>(٣)</sup> » .  
د - وهى إلى ذلك تتوخى راحته ، فتضاحكه وتداعبه ، وتنيمه على مسرة ،  
جاء فى حديث أميمة السابق ( ولا أبته على مَأْقَةٍ ) ، يقول الجاحظ : أما قولها  
فى المأقَة فإن الصبى يبكى بكاءً شديداً متعباً موجعاً ، فإذا كانت الأم جاهلة  
حركته فى المهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب بيدها على جنبه ،  
ومتى نام الصبى وتلك الفرزة أو اللوعة أو المكروه قائم فى جموفه ، ولم يعمل  
ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره ، فإن ذلك مما يعمل فى الفساد . والأم الجاهلة  
والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وترادف،  
حتى يخرج الصبى مأقاً<sup>(٤)</sup> .

ويعمل المبرد تعليلاً آخر فيقول : « لم أبته مغيظاً ، وذلك أن الخرقاء تببت

(١) تهذيب الكامل ٥٠/٢

(٢) البخلاء ٢٥/٢ نَمَى : نما . القلو : المهر والجش إذا فطما والمراد الصبى . المحج :

الكبيرة البطن من الحمل .

(٣) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٦٥ وتهذيب الكامل ٥٠/٢ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/٢٨٦

ولدها جائئاً مغموماً لحاجته إلى الرضاع ، ثم تحركه في مهده حتى يغلبه الدوار ، فينومه ، والكيسة تشبعه وتغنيه في مهده ، فيسرى ذلك الفرح في بدنه من الشبع ، كما يسرى ذلك الغم والجوع في بدن الآخر»<sup>(١)</sup> . وهما معا ياتقيان فيما نفهمه من العبارة أن نوم الطفل غضبان با كيا مهتاجا - وإن عولج بالهددة المنومة - ضار بالطفل .

هـ - ثم هي لاتمنعه الرضاع إذا اشتد الحر ، لتطفيء ظمأه ، ولا تسقيه الرثينة من اللبن . تقول فاطمة بنت الخرشب : « ولا منعته قتيلا ، ولا سقيته هُدْباً<sup>(٢)</sup> » . وروى أن ليلي الأخيلية أجابت الحجاج - وقد أعجبه شباب ابنها فسألها عن تريتها له - بما سبق من حديث أميمة وفاطمة<sup>(٣)</sup> .

### المظهر الذاتي التربوي الخلفية :

أسلفت أن العرب كانوا يدينون بأن الولد يرث من أمه ومن أبيه ، وأنهم كانوا يرون فيه من خاله ملامح ، ومشابه في الجسم والخلق ، وهم يحدوثونا أن غلاما نزع إلى جدته لأمه ، وكانت سوداء نجاء أسود<sup>(٤)</sup> ، وأن حاتما الطائي ورث الجود عن أمه غنية بنت عفيف الطائية ، وكانت سخية لاتبقى على شيء<sup>(٥)</sup> ، وكانت ذات يسار لا يسألها أحد شيئا فتمنعه ، حتى لقد حجر عليها إخوتها<sup>(٦)</sup> . لذلك طاق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء ، مخافة أن تجميئه بولد ألثغ ، وقال :

لثغاء تائق بحيفيس ألثغ تيمس في المَوْشِيَّ والمَصْبَغِ<sup>(٧)</sup>  
ونهى النبي عن إرضاع الحقاء : « لاترضع لكم الحقاء فإن اللبن يُفسد »

(١) تهذيب الكامل ٥٠/٢

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢٧٦/٢ الهديد : الرثينة : اللبن المائر الحامض جداً .

(٣) العقد الفريد ١٧٧/٣ (٤) لإرشاد الساري ٣٨/١٠

(٥) مجمع الأمثال للميداني ١٦٧/١ (٦) الأغاني ٩٣/١٦

(٧) البيان والتبيين ٦٤/١ الحيفس : الولد القصير الصغير الدميم .

وعن إرضاع سيئة الخلق : « لا ترضع لكم سيئة الخلق »<sup>(١)</sup>.

تعهدت الأم ولدها منذ طفولته ، فسكبت في سمعه غناءها ، وحملت هذا الغناء أُمَامِها في أن يكون ولدها كما تشتهي مجداً وكرماً وشجاعة ، وكانت ترقصه وتغني له ، وترقيص الصبيان بالغناء والكلام الموزون من طبائع الإنسان أنى وجد ، حتى لتجدنه في الحيوان الأعجم ، إذ تراه يهارش ولده ، ويداعبه في صوت لين ، وحنو كحنو الإنسان على ولده<sup>(٢)</sup> . وقد احتفل بهذا الضرب من تأديب الطفل وإيناسه محمد بن المعلى الأزدي اللغوي فألف كتاب الترقيص<sup>(٣)</sup> .

ولاشك أن الآباء أيضاً كانوا يرقصون أطفالهم ، ولكن الأمهات أكثر مزاولة للترقيص وخبرة ، وهن أندى صوتاً من الرجال ، وأصبر على مداعبة الأطفال وتهديتهم .

ولقد نسأل : هل من المعقول أن يفهم طفل معانى الغناء الذى ترقصه به أمه ؟ وإذا كان لا يفهمها فكيف نعتدها ذات أثر في خلقه ؟ لا نستطيع أن ندعى أن الطفل يفهم هذه المعانى ؛ ولكننا لا ننسى أن إخوته الأسن منه كانوا يسمعونها من أمهم إذا مارقت أطفالها ، فيفهمونها ويتأثرون بها .

ومن أمثلة ذلك ما غنت به ضباعة بنت عامر بن قُرط لابنها المغيرة بن سامة وهى ترقصه ، فازدهت بآبائه ، وأشادت بسيادتهم وكرمهم وعزهم ، تأمل أن يكون ابنها نبعة من هذه الدوحة :

نما به إلى الذرى هشامُ قرْمُ وآباء له كرامُ  
ججاجحُ خضارمُ عظامُ من آل مخزوم هم الأعلامُ  
الهامة العليا والسنامُ<sup>(٤)</sup>

(١) البسيط للسرخسى ١١٩/١٥ والسنن الكبرى للبيهقي ٤٦٤/٧ .

(٢) الغناء للأطفال عند العرب الدكتور أحمد عيسى صفحة ٥ .

(٣) من علماء القرن الرابع ذكره صاحب كشف الظنون ، والبغدادي .

(٤) الأمالى ١١٦/٢ ججاجح : سادة مسارعون إلى المكارم . خضارم : كرماء سادة .

وكانت الشَّيْء بنت السيدة حليلة السعدية أخت النبي في الرضاعة -  
وكانت تحضنه مع أمها ، ولذلك كانت تدعى أم النبي أيضا - ترقصه بدعائها له  
أن يرعاه الله :

هذا أخ لي لم تلده أمي ليس من نسل أبي وعمي  
فأنعمِ اللهم فيما تُنعمي<sup>(١)</sup>

وقد تمت أم الفضل بنت الحارث المالكية لطفها عبد الله بن عباس أن يسود  
العرب جميعاً حسبا وكرما :

شكلت نفسي وشكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر  
بالحسب العبد وبذل الوفر حتى يوارى في ضريح القبر<sup>(١)</sup>  
٢ - الأم بفطرتها تواقة إلى أن يعيش بنوها ، لأنهم ثمراتها ، وبُضعُ منها ،  
ولأنها تجد في حياتهم حياتها مكررة ، وشخصها باقيا ، فهي ترى مباحج الحياة  
كلها في طفلها ، وتحس من عظم فرحها وسعادتها به أنها لاتدانيها أم أخرى في  
فرحها وسعادتها بابنها ، قالت أعرابية وهي ترقص ولدها :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد  
أهكذا كل ولد أم لم يلد قلبي أحد ؟

ويقينا أنه لاحب يسامى حب الأم لابنها ، فقد تخون الحبيبة ، ويصد الأب ،  
ويخفوا الأخ ، وتبغض الزوجة ، ويتقاب الصديق ، لكن الأم فوق هؤلاء جميعا ،  
لا ينضب معين حبها ولا يترق ، ويكاد عفوها يسبق دائما ذنب ابنها ، ولا تيأس  
من أن يعود إليها ابنها العاق فيندم على عقوبة ، ويطلب منها المغفرة .

ولقد يضطرها الرجاء في أن يعيش ابنها إلى ضرب من الخرافات ، لاتجارى  
العقل ، ولكنها تسير الوهم ، فقد زعموا أن المرأة المقاتلات إذا وطئت قتिला  
شريفًا عاش بنوها<sup>(٢)</sup> ، قال الشاعر :

(١) السيرة الحلبية ١/١٤٤

(٢) الأمل ٢/١١٧

(٣) الأمل ٢/١١٦

تظل مقاليتُ النساءَ يَظَانُهُ يقانُ ألا يُبَاقَى على المرءِ مُنْزَرٌ<sup>(١)</sup> ؟

وفي مدحة الكميت للحسين بن علي تسجيل لهذه العادة في عصره :

وتطيل المرزآتُ المقاليتَ إليه القعود بعد القيام<sup>(٢)</sup>

وما زالت بقية من هذه العادة في بعض جهات مصر ، إذ تتخطى المرأة العقيم أو المفلات قتيلا لتحمل ، ليعيش ولدها .

٢ — ولقد تنكب موت زوجها ، فتعكف على رعاية أولادها ، وتأنى أن تتزوج وإن كانت في عسرة ، من ذلك أن أم إثال آمت ، وكانت أجهل نساء اليمامة ، نخطبها أشراف اليمامة فردتهم ، وقالت إنها لا تؤثر أحدا على ابنها ، ولا ترضى زواجا وإن كانت في شظف ، وإنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس ، لأن زواجها يظامن من عزته ويحزنه ويؤذيه :

لعمري إثال لا أفدَى بعينه وإن كان في بعض المعاش جفاء

إذا استجمعت أمُ الفتى غَضَّ طرفه وشاعره دون اندثار بلاء<sup>(٣)</sup>

بل رفضت المرأة الزواج من الرسول إشفاقا على أولادها ، وبقيا على راحتهم ، فإنه لما خطب رسول الله أم هاني بنت أبي طالب بعد موت زوجها هبيرة ، قالت : والله لهو أحب إلي من سمعي وبصري ؛ ولكن حقه عظيم وأنا مؤتمة ، فإن قت بحقه خفت أن أضيع أيتامي ، وإن قت بأمرهم قصرت عن حقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركن الإبل صوالح نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده »<sup>(٤)</sup> .

٣ — وقد كان حبها لبنها مدعاة إلى أن تحرص على مالهم ، وتحاول كفهم

(١) محاضرات الأدباء ١/٧٣ المفلات : المرأة التي لا يعيش ولدها .

(٢) أساس البلاغة مادة قات وشرح الهاشميات ٣٢ المرزآت : اللاتي مات أولادهن .

(٣) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢

(٤) فتح الباري ١/١٠٧ والعقد الفريد ٣/٢١٣ وأخبار النساء لابن القيم ٦٧

عن بذله فيما تحسبه إسرافاً وحمقاً ، وفي هذه المحاولة تشترك الأم والزوجة ، ويتبرم الشعراء بلومهما ، وسأتحدث عن هذا في أخلاق المرأة .

ولم يُخفِ الشاعر أن أمه لامتته على جوده ، ولم يجد غضاضة في أن يبوح بما قالت له وبما قال لها ، فهذا حطائط بن يَفْقَر يقص لوم أمه - رُهم بنت العُباب - له ، ودفاعه عن نفسه :

تقول ابنة العُباب رُهم حَرَبْنَا	حطائط لم تترك لنفسك مَقْعداً
إذا ماجعنا صِرْمَةً بعد هَجْمَةٍ	تكون علينا كابن أمك أسوداً
فقلت - ولم أعى الجواب - تأمل	أكان هزلاً حتف زيد وأربداً ؟
أرى جواداً مات هزلاً لعلنى	أرى ماترين أو بخيلاً مُحْلداً
ذرينى أكن للمال ربا ولا يكن	لى المال ربا تمحى غِبَّهُ غداً
ذرينى فلا أعيا بما حل ساحتى	أُسودُ فأكفى أو أطيع مُسَوِّداً
ذرينى يكن مالى لعرضى وقاية	يقى المال عرضى قبل أن يتبدداً <sup>(١)</sup>

٤ - بينا تسعد الأم بطفلها ، وتتوسم في مخايله سيادة وعزة وبراً ، وبيننا تنعم بولدها الذى شب أو اكتهل ، تستمتع ببره ، وتسمع أعذب الثناء عليه فترضى وتنشئ ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ، ويطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها . إنها الساعة المشؤمة التى كانت لاتسمح لطيفها أن يلْم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التى لاتأتى جراحها ، إنه الحزن الذى يجثم فى قلوبها لا يبرحه ما رددت أنفاسها ، وأى حزن على قعيد يعدل حزن الأم ؟ بل أين ذلك الحزن الذى يدانى حزن أم على ولدها ؟

وقد يتنفس هذا الحزن فى شجج أو فى وجوم أو فى دموع ، فإذا كانت

(١) الأغاني ١١/١٣٣ حربنا : سابت مالنا . صرمة : قطعة من الإبل من عشرين إلى ثلاثين ، وقبل غير ذلك . هجمة : قطعة من الإبل من أربعين إلى ما فوقها أو من سبعين إلى مئة . أسود : أخو حطائط .

الأم شاعرة تنفس حزنها في قصيد أيضاً . وكثيرات الأمهات الرائيات ، وفي  
مراثيهم تصوير للوعة ، وقسوة الدهر ، وتصويح الأمل ، وإشادة بالمناقب .  
فالأم إذ تئس من أن يواتيها الصبر تود لو أنها كانت الفداء لابنها ، قالت  
أم تابط شراً أو أم السليك في رثائه :

ليت قلبي ساعة صَبَّرَهُ عَنْكَ مَلَأَكْ

ليت نفسي قَدَّمْتُ لِلْمَنَايَا بِدَلَكْ<sup>(١)</sup>

وهي تخدع نفسها إذ تعلم بالفاجعة ، فتشك في صدق الخبر ، ثم يفجعها الواقع  
فتحزن ، حتى تشعر أن الحزن قد جفف من عظمها ، وتحمز وتسائل الناس أو  
تسكاد تسائلهم : ماذا تفعل ؟ وأين تجد ابنها ؟ هكذا كان حال أم حكيم بنت  
قارظ زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بُشَيْرُ بْنُ أَرْطَاةٍ ولديها ، وكان معاوية قد  
بعثه إلى اليمن ونواحيها ، وكان عبيد الله عاملاً لعلي بن أبي طالب على اليمن ،  
وكانت أم الطفلين قد وارتبهما ، فأخذهما من تحت ذيابها وذبحهما :

يا من أحسَّ بُدَيِّيَّ اللّٰذِينَ هُمَا كَالدَّرَتَيْنِ تَشَطَّى عَنْهُمَا الصَّدْفُ

يا من أحسَّ بِنَيِّ اللّٰذِينَ هُمَا سَمْعِي وَطَرْفِي فَطَرْفِي الْيَوْمَ مَخْتَلِفُ

يا من أحسَّ بِنَيِّ اللّٰذِينَ هُمَا مَخِ الْعِظَامِ فَمَخِي الْيَوْمَ مُزْدَكَّفُ

نَبْتُ بَسْرًا - وَمَا صَدَقْتَ مَا زَعَمُوا مِنْ قَوْلِهِمْ وَمَنْ الْإِفْكَ الَّذِي اقْتَرَفُوا

أَنْحَى عَلَى وَدَجِي طِفْلِيَّ مَرْهَفَةً مَشْحُودَةً ، وَعَظِيمُ الْإِفْكَ يَقْتَرِفُ

مِنْ دَلٍّ وَالْهَمَةُ حَرَى مَفْجَعَةً عَلَى صَبِيَّيْنِ غَالِبًا إِذْ مَضَى السَّلَفُ<sup>(٢)</sup>

٥ - وإذا ما قتل ابنها وقبل زوجها ديته ثارت ، فهذه أم قرفة قتل ابنها في  
حرب داحس والغبراء ، قتله قيس بن زهير ، فحمل ربيع بن زياد العبسي ديته إلى

(١) شرح الحماسة للبريزي ١٩١/٢

(٢) الثقات ٧١٧ وتهذيب الكامل ٢٢٢/٢ وإبلاغات النساء ١٨٤ والأغاني ٤٥/١٥

مزدكف : فإن هالك . الودج : عرق في العنق .



أبيه حَذَقَةً ، فرضيها ، وسكن الناس ، فلما علمت أم قرفة بما فعل زوجها هاجت  
هياج المغيظ الحق ، ودعت عليه بالهلاك ، وعيرته قبول الدية ، وحرضته على  
أن يثأر لابنه :

حذيفة لاسمت من الأعادى ولا وقَّيتَ شرَّ النائبات  
أقتل قِرْقَةً قيسٌ وترضى بأنعام ونوق سارحات  
نخذ ثأراً بأطراف الموالى وبالبيض الحداد المرهفات<sup>(١)</sup>

## مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم

حفظ العرب لأمهاتهم صنيعهم ، وأدركوا حقوقهم عليهم فأدوها ، وبروهن  
على خير ما يبر الولد والديه .

ولعلمهم كانوا أكثر برا بالأمهات وحدا عليهن من برهم وحدهم على الآباء ،  
لأنهن أضعف ، وأشد حاجة إلى الحب والعطف ، وأكثر لصوقاً بالطفل من الأب .  
ويظهر أن هذا شعور عام في الناس ، فقد جاء في شريعة مانو الهندى :  
« الأم أجدر بالاحترام من ألف أب »<sup>(٢)</sup> . وأبدع القرآن الكريم في تذكير  
الأبناء بما قاست أمهاتهم في حمائم وإرضاعهم ، وكرر الأمر ببر الوالدين ،  
وقرنه كثيراً بطاعة الله . وأكده رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما أمر  
ببر الأم ثلاث مرات ، ووقفاهن ببر الأب<sup>(٣)</sup> .

حتى الأم الرضاعية كانت لها مكانة في نفس المسترضع منها ، فقد وفد على  
النبي أشراف من هوازن - قوم السيدة حليلة السعدية مرضع الرسول - بعد  
غزوة حنين ، فقالوا ، يا رسول الله إنما في الحظائر عمتك وحواضنك اللاتي كن  
يكفلنك . ولو أننا ملحننا - أرضعنا - للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ،

(١) رياض الأدب في مرآئ شواعر العرب ٤٠

(٢) حضارة الهند . جستاف لوبون ٣٢٨

(٣) البخارى ٢/٨

ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته . فقال رسول الله : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقالت قريش والأنصار : ما كان لنا فهو لله ورسوله . وبذلك أطلقت سبائا هوازن <sup>(١)</sup> .

وقد انضح إعزاز الأم في عدة مظاهر :

١ — حمايتها من المهانة أيا كان مصدرها ، وأياما كانت نتائج هذه الحماية ، فقد حاول عمرو بن هند أن يستذل أم عمرو بن كلثوم ، فنارت ليلي بنت كليب أم عمرو بن كلثوم ، وثار ، وقتل الملك في ثورته <sup>(٢)</sup> ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة ، وخطب بها في سوق عكاظ <sup>(٣)</sup> ، وبنو تغلب تعظمها جدا ، ويرويها كبارهم وصغارهم ، حتى لقد هجوا بذلك :

ألهى بنى تغلب عن كل مَكْرُومَةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم  
يروونها — أذا مذكأن أولهم يا للرجال لشعر غير مسنوم  
وكان التغلبيين لم يكفهم نحر عمرو ، على روعته وكثرته ، فافتخر شعراؤهم  
بجرأته وأنفته ، يقول أفنون بن صريم التغلبي :

لعمرك ماعمر بن هند وقد دعا لتخدم أمي أمه بموفقٍ  
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا فأمسك من نذمانه بالمُخَقِّقِ  
وجلاه عمرو على الرأس ضربة بذي شُطْبٍ صافي الحديد روتق <sup>(٤)</sup>  
وسواء أكانت القصة صحيحة أم فيها خيال ومبالغة ، فإنها تدل على إعزاز الأم ؛ لأن الذي اخترعها أو زاد عليها جارى العرف العام .

ثم قتل مرة بن كلثوم أخو عمرو المنذر بن النعمان وأخاه ، وإياه عنى الأخطل  
يقوله الجريز :

(٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٦

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٣٤

(٣) الأغاني ٩/١٧٥

(٤) الأغاني ٩/١٧٦ والحيوان للجاحظ ٣/١٣٥ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٦ المخطئ :

الحاق . ذو شُطْب : سيف به طرائق .

أبني كليب إن عَمِّيَ اللِّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَسَكَا الْأَغْلَالَ<sup>(١)</sup>  
 ٢ — الفخر بها ، كما سبق ، وقد افتخر خُفَاف بن زُذْبَةَ بأمه ، وفضاها على  
 أم العباس بن مرداس :

أبى الشِّمَّ أُنَى سِيدِ وَأَمِنْ سَادَةِ      مطاعين في الهيجا مطاعيم للجُرم  
 أَدِيبٌ عَلَى أُمَامَاطٍ بِيضَاءِ حُرَّةٍ      مقابلة الجُدَّينَ مَاجِدَةِ الْعَمِ  
 وَأَنْتَ لِحَنْفَاءِ الْيَدِينِ لَوْ أَنَّهَا      تباع لما جاءت بَزْدٍ وَلَا سِهَمِ<sup>(٢)</sup>  
 ٣ — وهم يُفَدُّونَ بِالْأُمِّ كَثِيرًا ، إشعارا بأنها أعز إنسان عليهم ، وأحيانا  
 يقرون بها عزيزا آخر ، وأحيانا يفردونها . يقول العباس بن مرداس في مدح  
 حُلَيْسِ النَّصْرِيِّ بعد ما ثار له من قاتل أخيه :

فَدَى لَكَ أُمَى إِذْ ظَفِرَتْ بِقَتْلِهِ      وَأَقْسَمَ أَبْنَى عَنْكَ أَمَا وَلَا أَبَا<sup>(٣)</sup>  
 وَيَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِذْلٍ الطَّعْمَانُ :  
 فِدَى لَمْ نَفْسِي وَأُمَى فِدَى لَمْ      بُرْزَةً إِذْ يَخْمِطَانَهُمُ بِالسَّنَابِكِ<sup>(٤)</sup>  
 وَلَمَّا رَدَّتْ بَنُو لَحْيَانَ غَزَاتِهَا مِنْ بَنِي كَعْبٍ مَدَحَهُمْ مَالِكُ بْنُ خَالِدٍ الْهَذَلِيُّ  
 أَوْ حَذِيفَةُ بْنُ أُنْسٍ الْهَذَلِيُّ بِقَوْلِهِ :

فِدَى لِبْنِي لَحْيَانَ أُمَى وَخَالَتِي      بِمَا مَاصَعُوا بِالْجِزْعِ رَكِبَ بَنِي كَعْبِ<sup>(٥)</sup>  
 وَقَدْ افْتَخَرَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِاتِّصَارِ الْخَزْرَجِ عَلَى الْأَوْسِ فَقَالَ .  
 فِدَى لِبْنِي النَّجَارِ أُمَى وَخَالَتِي      غَدَاةً لِقَوْمِهِ بِالْمُتَقَفَةِ الشُّمْرِ<sup>(٦)</sup>

(١) الأغاني ٩/١٧٦

(٢) الأغاني ١٦/١٣٨ أنطاط : نسب أو ضرب من البسط . مقابلة الجددين : كريمة النسب  
 من جهة ما . حنفاء : معوجة .

(٣) الأغاني ١٣/٦٦

(٤) معجم البلدان ٢/١٢٥ برزة : موضع كانت به وقعة قتل فيها مالك بن خالد بن صخر

(٥) معجم البلدان ٤/٩٦ للشريد .

(٦) الكامل لابن الأثير ١/٤٤٣

وفي يوم أحد نزل النبي كنفاته لسعد بن أبي وقاص ، وقال : ارم فداك  
أبي وأمي <sup>(١)</sup> .

٥ — ثم إن الأولاد كانوا يستجيبيون مشورة أمهاتهم ، فإنه لما هجا بشر  
بن أبي خازم الأسدي — وكان عبداً — أوس بن حارثة الطائي ، وذكر أمه  
سعدى ، أغار أوس على نوقه ، فهرب منه ، ثم قدم عليه ، فأشار عليه قومه  
بقتله ، فقال أوس : هجوتني ظالماً فلا مفر من قطع لسانك ، أو حبسك حتى  
تموت ، أو قطع أطرافك وتخليتك .

ثم دخل على أمه سعدى ، فقالت له : يا بني ، مات أبوك ، فرجوتك لقومك ،  
فأصبحت أرجوك لنفسك . زعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يحجر ما يقوله  
غيره ؟ قال : فماذا أصنع ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحتك ،  
وتعطيه مائة ناقة ، فإنه لا يفسل هجاءه إلا مدحه . ففعل ما أمرت به أمه ، فقال  
بشر : لا مدحت أحدا حتى أموت غيرك ، ومدحه يقصيده التي يقول فيها :

إلى أوس بن حارثة بن لأمٍ ليَقْضَى حاجتي ولقد قضاها  
فما وطيء الحصى مثل ابن سَعْدَى ولا لبس النعال ولا احتذاها <sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما كانت الأم تحرض ابنها على الثأر ، فتتوجج حماسته ، وتذكي  
بغضته ، فيندفع لثأره لا يلوى على شيء ، كما سآيين في أثر المرأة في الثأر .

٥ — وقد أسأفت أنهم كانوا يعبرون عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء  
أمهم ، يستعطفونهم بذلك ، أو يذكرونهم بصلة حبيبة يجب أن توصل ، أو  
يظهرون عظم الفجعة في أخ عزيز ، أو يتحسرون على مودة مقطوعة ، الخ . . .  
يقول الشنفرى :

(١) فتح الباري ٧/٢٧٦ وتاريخ الطبري ٣/١٨ مثل : نقض .  
(٢) بلاغات النساء لابن طيفور ١٤٠ والكامل لابن الأثير ١/٢٦٣

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأَمِيل<sup>(١)</sup>  
ويقول أبو زُبَيْد الطائى :

يا بنى أمى ويا شقيق نفسى أنت خلّيتنى لأمر شديد<sup>(٢)</sup>  
ويقول متم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

.....

وفقد بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا<sup>(٣)</sup>  
ويقول أيضاً :

فإن يك إخوانى توفوا وأخطأت بنى أمك الدنيا ختوف الرواصد  
فكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق فى أعيانهم غير واحد<sup>(٤)</sup>  
ويقول أوس بن حجر فى هجاء طفيل بن مالك :

لعمرك ما آسى طفيل بن مالك بنى أمه إذ ثابت الخليل تدعى

.....

فراراً وأسلمت ابن أمك عامراً يلاعب أطراف الوشيع المززع<sup>(٥)</sup>  
وتقول أم حاتم الطائى تعاتب إخوتها لأنهم يلومونها فى كرمها :

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يا بنى أم الطبايعا؟<sup>(٦)</sup>  
ويقول معد يكرب بن الحارث فى رثاء شقيقه شرحبيل :

يا بنى أمى ولو شهدتك إذ تدعو تميا وأنت غير مجاب  
لتركت الحسام تجرى ظباه من دماء الأعداء يوم السكّاب<sup>(٧)</sup>

وفى يوم أحد خرجت صفية بنت عبد المطلب ، وقد انكشف الماسون ،

(١) أعجب العجب فى شرح لأمية العرب ٢ (٢) الموشع للمزبانى ٩٧

(٣) الفضليات ٦٨/٢ (٤) حماسة البحرى ٣٦٢

(٥) ديوان أوس ١٣ تدعى : تتلاحق ونفر . الوشيع : الرماح .

(٦) الأغاني ٩٤/١٦ (٧) شعراء الصراية ٢

فقلت : يا رسول الله ، أين ابن أمي حمزة ؟ <sup>(١)</sup> .

ووفدت أم هانيء بنت أبي طالب على النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح ،  
فقلت : يا رسول الله زعم ابن أمي علي أنه قاتل رجلاً قد أجرته <sup>(٢)</sup> .

٦ — وإذا ما تزوج الرجل أجد رابطة جديدة بامرأة جديدة ، يتخذها  
سكنه ، ويعاطيها كأس المودة دهاقا ، وليست له مندوحة من أن تخلف زوجته  
أمه في رعايته ، وتعرف دخيلته ، ومشاركته في كثير من شئون حياته .

ولقد تفتت علاقته بأمه ، ولقد تتراوح بين القوة تارة والضعف تارة ، وربما  
تسعه ظروفه فتدح له أن يعمر أمه وزوجه بعطفه كما يعمرانه . لكن حدثاً قد  
يلم به ، فيوحى إليه أن أمه أصبر عليه في نكته من زوجته ، فيؤثر أمه عليها ،  
لأنه يعلم بتجربته وتجاربه غيره ، ويعلم بفطرته أيضاً أن أمه أبقى له وأوفى ،  
وهي عليه أحنى .

حدث هذا لصخر بن عبد الله الشريد ، كان يتعشق ابنة عمه سلمى بنت  
كعب ، وكان يخطبها فتأبى عليه ، فأقام على ذلك حيناً ، ثم أسرت سلمى ،  
واستنقذها صخر بعدما أصابته طعنة في جنبه ، وتزوج بها ، وكان يحبها ويكرمها  
ويؤثرها على أهله . ثم انتفض جرحه ، فمض حولا ، وكان نساء الحى يدخلن  
إلى سلمى عوائد ، فيقلن : كيف أصبح صخر ؟ فتقول : لا حى فيرجى  
ولا ميت فينسى . فسمعها صخر ، وعرف أنها تبرمت به ، في حين أنه يرى  
تحرق أمه عليه ، فقال لها ناوليني السيف لأنظر أصدى أم لا ، وهو يريد قتلها ،  
فناولته ، فإذا هو لا يقدر على حمله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمي مضجعي ومكاني  
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ، ومن يفتقر بالحدثنان ؟

فَأَيُّ أَسْرَى سَاوَى بَأَمِّ حَلِيلَةٍ      فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقًّا وَهَوَانٍ  
 أَهْمُ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْتَطِيعَهُ      وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ  
 لَعَمْرِي لَقَدْ أَيقَظْتَ مِنْ كَانَ نَائِماً      وَأَسْمَعْتَ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ  
 فَلَمُوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ كَأَنِّي      مُعَرَّسٌ يُعَسُوبُ بِرَأْسِ سَنَانٍ<sup>(١)</sup>

ويشفع لتصديق هذه القصة الإجماع على روايتها، وتسجيل صخر لها في شعره، وأمر آخر أهم من هذين أن سلمى كانت فاركا له، رغبة عنه منذ خطبها، ولقد تزوجها شبه مرغمة بعد أن استنقذها من السبي. ويظهر أن نفرتها منه كانت شديدة لم ياطف من حديثها حبه لها وإشاره إياها.

## ٧ - الإخوة لأم

قلت إن الأم كانت وشيجة قوية في القرابة، وأرجح أن الإخوة لأم كانوا أكثر تعاطفاً وتراحماً وتواداً من الإخوة لأب، ذلك بأننا نجد الشعراء كثيراً ما يعبرون عن إخوتهم الأشقاء بأنهم أبناء أمهم، كقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك بن نويرة:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِىَّ مَالِكٌ بَعْدَمَا      أَرَاكَ قَدِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ أَفْرَعَا  
 فَقُلْتُ لَهَا طُولُ الْأَسَى إِذْ سَأَلْتَنِي      وَلَوْعَةُ حَزْنٍ تَتْرَكُ الْوَجْهَ أَسْفَعَا  
 وَفَقَدُ بَنِي أُمِّ تَوَلَّوْا فَلَمْ أَكُنْ      خِلَافَهُمْ أَنْ أَسْتَكِينُ وَأَضْرَعَا<sup>(٢)</sup>  
 وقول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام فراره يوم بدر، وتركه أخاه الشقيق أبا جيل:

(١) الأغاني ١٣/١٣١ وأخبار النساء لابن القيم ٧٦ وتهذيب الكامل ١٩٣/٢ ومستقصى أمثال العرب للزحمرى ٩٩ مخطوط والحاسة البصرية ٢٢٤ مخطوط ووفيات الأعيان ١٣٢/١ والشعر والشعراء ٣٩٣/١ تحقيق شاكر.

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٩٤

هالاً عطفت على ابن أمك إذ ثوى قعص الأسنة ضائع الأسلاب<sup>(١)</sup>  
ولم يجد درب بن الصمة في تصارييف الدهر ، وتفريقه شمل الأحبة ، أقسى من  
تفريقه بين الشخص وابن أمه ، وقطعه ما بينهما فينفد كما ينفد زاد المسافر ،  
يقول في رثاء أخيه عبدالله بن الصمة :

أعاذلتى كل امرئ وابن أمه متاع كزاد الراكب المتزود<sup>(٢)</sup>  
ثم إنا نستشف من اللغة نفسها ما يثبت أن الإخوة لأم أعظم تحابا من  
الإخوة لأب ، لأن الأعيان الإخوة لأب وأم ، والأقران والأخفاف بنو أم واحدة  
من رجال شتى ، وبنى العلات بنو رجل واحد من أمهات شتى<sup>(٣)</sup> .

وكلمة أقران جمع قرن وهو الكف<sup>(٤)</sup> ، ففيها دليل على تكافؤ الإخوة  
لأم وتمائهم ، وكلمة أخفاف معناها أن في سحنهم وألوانهم وخلقهم بعض  
الاختلاف ، لأن آباءهم مختلفون ، ولعلها مشتقة من الخيف وهو زرقه إحدى  
عيني الفرس وغيره وسواد الأخرى<sup>(٥)</sup> . أما العلات فهن الضرائر ، ويكفي  
التعبير عن الإخوة بأنهم أبناء ضرائر ، للدلالة على ما بينهم من تجاف وتباغض .  
على أننا ما زلنا نشعر بالجفوة بين أبناء العلات ، مستعانة تارة ، ومستترة إلى  
حين تارة ، وما زلنا نشعر بالتعاطف بين الأخفاف ، وتساقيتهم الود صافيا .

ومرد ذلك إلى أن الأم الواحدة تقرب ما بين بنيتها ، أما الضرائر فيباعدن  
بينهم بالوقية والدس ، وبث عوامل الغيرة والتنافس والتحاسد .

ثم إن أبناء الضرائر أكثر تنازعا على الميراث من الأشقاء ، أما الإخوة  
لأم فلم يتنازعوا على ميراث ، وقاما حدث ذلك ، لأن الثروة للأب في  
الأعم الأغلب .

(١) سيرة ابن هشام ٣٨٦/٢ وديوان حسان ١٧ قعص الأسنة : القتل بها في سرعة .

(٢) الأغاني ٤/٩ (٣) لسان العرب ١٨١/١٧ .

(٤) القاموس المحيط مادة قرن . (٥) القاموس مادة خيف .

( ٩ - المرأة في الشعر الجاهلي )



يتجلى حب الأنخ لأم في أن ضرار بن عمرو صُرع في معركة بين القنا، فأسرع إليه إخوته لأمه فأنقذوه ، ثم استشالوه حتى ركب فرسه ، فرفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أم ، ألا فزوجوا الأمهات<sup>(١)</sup> . ويتجلى أيضاً في رثاء كثير من الشعراء لإخوتهم لأمهاتهم ، كرثاء أعشى باهلة لأخيه المنتشر بن وهب ، وهو رثاء تتأجج فيه اللوعة والحزن ، كقوله :

فَظَلْتُ مَكْتَبًا حَرَّانَ أُنْدُبُهُ وَكُنْتُ ذَا حَذَرٍ لَوْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ  
عَشْنَا بِهِ حَقْبَةً حَيَا فَفَارَقْنَا كَذَلِكَ الرَّمَحُ ذُو النِّصْلَيْنِ يَنْكَسِرُ  
فَإِنْ جَزَعْنَا فَإِنَّ الشَّرَّ أَجْزَعُنَا وَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا مَعَشَرُ صُبُرٍ  
فَإِنْ سَلَكْتَ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكُهَا فَازْهَبْ فَلَا يَبْعَدُ نَيْكَ اللَّهُ مَنْتَشِرٌ<sup>(٢)</sup>

وفي هذه القصيدة عدد الشاعر مناقب أخيه ، وأشاد بما آثره إشادة المعترِ بها ، الأسيف على ذهابها .

كذلك رثى أبو العيال الهذلي أخاه لأمه عبْد بن زهرة ، فأشاد بشجاعته ، وصور الحزن يصيب رأسه بالصداع وجسمه بالألم ، وصور عينه تذرف الدمع غزيراً ، كأنه سيل يتسرب من مزادة مثقوبة ، ثم صور ليله كئيها ، لأن الذكريات تتوافد عليه ، ولأن فراغه في الليل يسلمه لهواجسه وبلايله :

أَلَا اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ فَتَى قَوْمٍ إِذَا رَهَبُوا  
وَقَالُوا مَنْ فَتَى لِلْحَرِّ بَ يَرْقُبْنَا وَيُرْتَقِبُ  
فَكُنْتُ فَتَاهُمْ فِيهَا إِذَا يَدْعَى لَهَا يَثِبُ  
ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صَدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصْبُ  
فَدَمَعَ الْعَيْنَ مِنْ بُرْحَا ، مَا فِي الصَّدْرِ يَنْسَكِبُ  
كَمَا أَوْدَى بِمَاءِ الشَّنَّةِ الْخُرُوزَةُ السَّرْبُ

(١) البيان والبيان ١٦/١ تحقيق هارون . حائل : لم تعمل .

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٨٢ وخزانة الأدب ١/١٣٠

على عَبد بن زهرة طو ل هذا الليل أكتب<sup>(١)</sup>  
وكذلك رثى النابغة الذبياني أخاه لأمه<sup>(٢)</sup> ، ورثى سلمة الجعفي أخاه لأمه<sup>(٣)</sup> .

## ٨ - إعزاز الخال

أسلف أن الأم مأمحة ابنها الحياة ، ومورثة إياه بعض مميزاته الجسمية والعقلية والخلقية ، وأن العرب خالوا بعراقبتها وشرفها وسمو أخلاقها وإنجابها .

وسنرى في الزواج أنهم يحددون اختيار الزوجة ، ويتحرون أصولها ، وأخوها مقياسهم في ذلك ، لأنه النبعة الماثلة للأم ، فهو مرآة لها ، وهي صورة منه .

فإذا كان أخوالأم سيذاً شجاعاً جواداً فصيحاً كان الأمل قويا في أن ينزع إليه ابن أخته نزوعاً يعضد ما يرثه من أبيه . وإذا كان الخال رعيذاً كزاً مهيناً تسربت رذائله كلها أو بعضها إلى ابن أخته ، فعاندت وراثته الخيرة من أبيه ، أو سارت رذائله الموروثة من أبيه ، وغذتها ونمتها .

فالولد أحياناً يشبه خاله جسداً ، يقول الراجز في ولده وقد غلبته أمه على شكله :

والله ما أشبهني عصامُ لا خلق منه ولا قوامُ  
نمتُ وعرق الخال لا ينمُ<sup>(٤)</sup>

وأحياناً يرث من خاله خلقاً أو ميلاً ، كما ورث زهير خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان بشامة يعرف أن زهيراً وارث شعره ، فإنه لما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته ، فأتاه زهير فقال : يا خاله ،

(١) الأغاني ١٦٦/٢٠ و ٦١/٢ وشرح أشعار الهذليين للسكري ١٣٧

(٢) شرح الحماسة للبريزي ١٨٥/٢

(٣) شرح الحماسة للبريزي ٥٩/٣

(٤) تهذيب الكمال ٥٠/٢

لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه<sup>(١)</sup> .

وقد أتى الشعر امرأ القيس بن حُجْر من قبل خاله مهلهل<sup>(٢)</sup> ، وأتى الأعشى من قبل خاله المسيب بن علس ، وأتى خُفَّاف بن نَدْبَة السلمي من قبل خاله تائب شرا ، وأتى دُرَيْد بن العمة من خاله عمرو بن معديكرب<sup>(٣)</sup> . وكان لهذه الوراثة أثر فى أن ولدت الخنساء بنيتها شعراء جميعاً<sup>(٤)</sup> . واعترف الفرزدق بأنه ورث الشعر من خاله العلاء بن قَرظَة<sup>(٥)</sup> وقرر النالفة الجعدى أنهم شاركوا قريشاً فى تقواها وأنسابها ، لأن أمنة بنت أبان أم الأعياص وأم أبى مُعَيْط منهم : وشاركنا قريشاً فى تقاها وفى أنسابها شرك العنان بما ولدت نساء بنى هلال وما ولدت نساء بنى أبان<sup>(٦)</sup>

### نصرة الخال لابن أخته

لا جرم كان الخال فى هذه البيئة التى تعزز بالخال يحذب على ابن أخته ، وقيه أو ينصره ما وسعه النصر ، لأن الأم إذا مانست أنشأت عصية الخفولة ، وهى نصرة إخوة الأم وأقاربها لابن أختهم ، وأحياناً لعشيرة الزوج كلها . ولقد كانت تحدث هذه النصرة بين القبائل المتباعدة الأصول ، كاليمينية والمضرية ، من ذلك تأييد الخزرج وبنى النجار خاصة ، وتأييد إخوانهم الأوس للنبي عليه الصلاة والسلام ، لأن أمه من بنى النجار من الخزرج ، فالخزرج كلهم أخواله ، وخثولتهم له مكررة ، لأن أخوال عبد المطلب من المدينة ، فأمه سلمى

(١) طبقات الشعراء ٥٦٤ والأغاني ٩ / ١٥٠ ورسالة الغفران ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن وديوان زهير ٣٠٥ (٢) سمط اللالى ٣٨ / ١ (٣) سمط اللالى ٣٩ / ١ (٤) سمط اللالى ٣٢ / ١

(٥) الشعر والشعراء ١٣٦ بتحقيق شاكر وسمط اللالى ٣٩ / ١

(٦) الأغاني ١٧ / ١ شرك العنان : التساوى فى الشركة لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان

بنت عمرو من بنى النجار ، وأمها منهم أيضاً ، وكذلك أم أمها<sup>(١)</sup> ، وأخوال عبد الله بن عبد المطلب من المدينة أيضاً ، وقد توفى عندهم شاباً<sup>(٢)</sup> ، وإن كان بنو زهرة يقولون إنهم أخوال النبي ، لأن السيدة آمنة منهم وإن لم يكن لها أخ<sup>(٣)</sup> ، لأن أمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة<sup>(٤)</sup> .

لذلك لما كبر عبد المطلب وتسلم مال أبيه عرض له نوفل بن عبد مناف في رُكح له - ساحة - فاغتصبه إياه ، فسأل عبد المطلب رجالات قومه أن ينصروه ، فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله يصف لهم ما فعل نوفل ، فقال :

أبلغ بنى النجار إن جئتهم أنى منهم وابنهم والخميس  
فإن عمى نوفلا قد أبى إلا التي يغضى عليها الخسيس

فخرج أبو أسعد بن عدس النجارى فى ثمانين راكباً ، وهدد نوفلا ، فرد إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله على رُكحى وكانوا فى التَّنَشُب دون قومى  
وقال فى ذلك سمرة بن عمير الكنانى :

لعمرى لأخوالٍ لشيبة قَصْرَةٌ مِنَ أعمامه أبرء وأوصل  
أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم ولم يثنهم إذ جاوز الحق نوفل  
جزى الله خيراً عصابة خزرجية تواصلوا على برٍ وذوالبر أفضل  
فلما رأى ذلك نوفل حالف بنى عبد شمس كلها على بنى هاشم<sup>(٥)</sup> .

فلا عجب فى أن تؤيد الخزرج النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن ينضم إليهم إخوانهم الأوس ، فنجد أن أول من لباه من المدينة أخواله ، لأنه لما عرض

(١) المعارف ٢٤ و ٤٢ وسيرة ابن هشام ١١٩/١ والنبية والإشراف ١٩٧ .

(٢) المعارف ٣٨ (٣) المعارف ٤٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ١٢٠/١ .

(٥) تاريخ الطبرى ١٧٨/٢ .

نفسه في مستهل الدعوة على نفر من الخزرج آمنوا به ، وكانوا تسعة ، فيهم اثنان من بني النجار<sup>(١)</sup> ، ثم بايعه اثنا عشر رجلاً بيعة العقبة الأولى ، فيهم عشرة من الخزرج ، ومن هؤلاء ثلاثة من بني النجار<sup>(٢)</sup> ، ثم بايعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان بيعة العبة الكبرى ، وكان النقباء من هؤلاء اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج ، وثلثين من المبايعات تسعة وثلاثين رجلاً من الخزرج ، بينهم أحد عشر من بني النجار ، هذا إلى امرأة نجارية من المراتين المبايعتين<sup>(٣)</sup> . على أن المُرَبَّد الذي بركت فيه ناقه الرسول في مقدمه إلى المدينة مهاجراً كان لغلامين يقيمين هما سَهْل وسَهيل ابنا رافع بن عمرو من بني النجار<sup>(٤)</sup> .

وقد اشتهر الخزرج وبني النجار ومن يمت إليهم بقرابة بشدة دفاعهم عن الرسول وغيرتهم عليه<sup>(٥)</sup> ، وكان النبي إذا استَحَرَّ القتال جلس تحت راية الأنصار كما فعل يوم أحد<sup>(٦)</sup> ، وكان أعداء الإسلام إذا هجوا النبي والمسلمين خصموا بني النجار بالهجاء ، يقول عمرو بن العاص - في يوم أحد قبل أن يسلم - :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا	مع الصبح من رَضْوَى الحبيك المنطَقُ
تمت بنو النجار جهلاً لقاءنا	لدى جنب سَلْعٍ والأمانِ تَصْدُقُ
فما راعهم بالشر إلا نجاة	كراديس خيل في الأُرْقَة تَمُرُّقُ
أرادوا لكيا يستبيحوا قباينا	ودون القباب اليوم ضرب مُحَرَّقُ
وكانت قباينا أومنت قبل ما ترى	إذا رامها قوم أُيِّحوا وأُحْنَقوا
كأن رهوس الخزرجيين غُدُوَّةٌ	وأيمانهم بالمشرفية بَرَوْقُ <sup>(٧)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٣٨/٢ . (٢) سيرة ابن هشام ٣٩/٢ - ٤١

(٣) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ - ٧٥ (٤) الرون الأنف للسبيل ١٢/٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٤٧/٢ - ٧٥ و ١١٢ والمعارف ٢٤ و ٣٨ و ٤٢ .

(٦) سيرة ابن هشام ١٩/٣ .

(٧) سيرة ابن هشام ١١٠/٣ الفيفا : الففاء وهي الأرض المنفرة . الحبيك : الذي فيه طرائق . المنطق : الخُزوم جيداً . ساع : جبل أو موضع قريب من المدينة . القباب : جمعة . أحنقوا : غيظوا . يروق : شجرة ضعيفة تشبه البصل .

ويقول ابن الزبيري في رثائه قتلى أحد من المشركين :

وجَمَعَ بنى النجار في كل تَلْعَةٍ بأبدانهم من وقعهم نجيع<sup>(١)</sup>  
فيرد عليه حسان بقوله :

وحامى بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم في اللقاء جزوع<sup>(٢)</sup>  
ويقول ابن الزبيري أيضاً :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخرج من وقع الأسل<sup>(٣)</sup>  
فيرد عليه حسان أيضاً<sup>(٤)</sup> .

هذه النصرة لا يهيب لها إلا مجتمع يقدر الخال ، ويميز ابن الأخت ، لأنه معدود من القوم .

ويؤيد ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا الأنصار فقال : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا . فقال : ابن أخت القوم منهم<sup>(٥)</sup> . وكان النبي بقولته الحكيمة مترجماً عن شعوره ، وعن شعور العرب جميعاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قول الأحنس بن شريق قبيل موقعة بدر — وكان أعرابياً حليفاً لبني زهرة — : يا بني زهرة قد نجي الله غيركم ، وخلص أموالكم ، وإنا محمد رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك نبيا فأتهم أسعد به ، وإن يك كاذباً بلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا ، واجعلوا جنبها بي . . . فأتاعوه ، ولم يشهد بدر أحد من بني زهرة ، وكانوا مئة أو ثلاث مئة<sup>(٦)</sup> .

ولقد يتجلى إعزاز الخال لابن أخته في إثاره بالمكرمة والحمد ، من ذلك أن رجلاً من بني سعد اسمه طلحة كان له إبل أغار عليها جيرانه بنو ربيعة بن

(١) سيرة ابن هشام ١٠٦/٣ (٢) سيرة ابن هشام ١٠٨/٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ وطبقات الشعراء ١٩٩ تحقيق شاكر .

(٤) سيرة ابن هشام ٩٨/٣ (٥) فتح الباري ٤٠٢/٦ .

(٦) المغازي للواقدي ٣٧ .

عَجَل ، فَأَتَى الْأَسْوَدَ بْنَ يَمْفَرٍ ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ إِبِلَهُ الَّتِي اغْتَنَبَهَا جِيرَانُهُ - وَهُمْ  
أَخْوَالُ الْأَسْوَدِ - فَقَالَ الْأَسْوَدُ لِأَخْوَالِهِ :

يَا جَارَ طَلْحَةِ هَلْ تَرُدُّ لَبُونَةَ فَتَكُونُ أَذْنَى لِلْوَفَاءِ وَأَكْرَمًا  
تَاللَّهِ لَوْ جَاوَرْتُمُوهُ بِأَرْضِهِ حَتَّى يَفَارِقَكُمْ إِذَا مَا أَجْرَمَا  
فَبَعَثَ بَنُو عَجَلٍ بِإِبِلِ طَلْحَةِ إِلَى الْأَسْوَدِ ، وَقَالُوا : أَمَا إِذْ كُنْتَ شَفِيعَهُ نَفَذْنَا  
وَتَوَلَّى رَدَّهَا ، لَتَحْرُزَ الْمَكْرَمَةُ عِنْدَهُ دُونَ غَيْرِكَ <sup>(١)</sup> .

وَيَتَجَلَّى أَيْضًا فِي أَنْ يُوَثِّرَ الْبَقِيَّةَ عَلَى الشَّخْصِ مِنْ تَصَلُّهِ بِأَمَةِ قَرَابَةٍ مِنْ بَعِيدٍ ،  
ذَلِكَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ هَنْدٍ وَجَّهَ طَرْفَهُ بِكِتَابٍ إِلَى عَامِلِ الْبَحْرَيْنِ بِأَمْرِهِ فِيهِ بَقْتَلُهُ ،  
فَقَالَ لَهُ الْعَامِلُ : هَلْ تَعْلَمُ مَا أَمَرْتُ بِهِ فِيكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَمَرْتُ أَنْ تَجِيزَنِي ،  
وَتَحْسِنَ إِلَيَّ . فَقَالَ لَطَرْفَةُ : إِنْ يَدْنِي وَبَيْنَكَ خُثُولَةٌ ، أَنَا لَهَا رَاعٍ حَافِظٌ ، فَاهْرَبْ  
مِنْ لِيَانِكَ هَذِهِ ، فَإِنِّي قَدْ أَمَرْتُ بِقَتْلِكَ <sup>(٢)</sup> .

### نَصْرَةُ الْوَلَدِ لِحَالِهِ

تَبَادُلُ الْخَالِ وَابْنِ أُخْتِهِ النَّصْرَةِ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَعْزِزُ الْآخَرَ وَيَعْتَزُّ بِهِ ، وَإِذَا  
كَانَ الْخَالُ يَرَى فِي ابْنِ أُخْتِهِ وَلَدَهُ ، فَإِنَّ الْوَلَدَ كَانَ يَرَى فِي خَالِهِ أَبَاهُ ، وَيَعْرِفُ  
لَهُ حَقُّوهُ . يَقُولُ الْمَرْقَشُ الْأَكْبَرُ فِي رِثَائِهِ لِابْنِ عَمِّهِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَوْفٍ ، وَاسْتِعْظَافَهُ  
مَا كَانَتْ مِنْ آلِ جَفْنَةَ - هُوَ الَّذِي قَتَلَ عَوْفًا - : إِنْ قَوْمُهُ خُثُولَةٌ هَذَا الْمَلِكُ ،  
فَحَقُّ لَهُمْ أَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِمْ :

فَنَحْنُ أَخْوَالُكَ عَمْرُوكَ وَالْخَالُ لَهُ مَعَاضِمٌ وَحُرْمٌ <sup>(٣)</sup>

لِهَذَا كَانَ الْخَالُ أحيانًا يَكُلُّ لِابْنِ أُخْتِهِ أَنْ يَثَّارَ لَهُ إِذَا قَتَلَ ، فَقَدْ جَدَّ تَأْبِطُ  
شَرًّا فِي الثَّارِ لِحَالِهِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ يَثَّارَ لَهُ ابْنُ أُخْتِهِ إِذَا هَلَكَ :

(١) الْأَغَانِي ١١/١٣١ .

(٢) شَرْحُ الْمُعْتَلَقَاتِ السَّبع لِابْنِ الْأَثَرِيِّ ١٩ مَخْطُوط .

(٣) الْمُفَضَّلَاتُ ٢/٤٠ : عَمْرُوكَ : أَقْسَمَ بِحَيَاتِكَ .

إِن بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لِّقَتِيلًا دَمَهُ مَا يُطْلَى  
خَلْفَ الْعَبَاءِ عَلَى وَوَلَّى أَنَا بِالْعَبَاءِ لَهُ مُسْتَقَلٌّ  
وَوَرَاءَ الثَّارِ مَنَّى ابْنِ أُخْتِ مَصْعُ عَقْدَتُهُ مَا تَحْلَى  
مُطَرَقٍ يَرْشَحُ سَمَا كَمَا أَطْشَقُ أَفْعَى يَنْفُثُ السَّمَّ صَلَّ<sup>(١)</sup>  
وَكَثِيرًا مَا حَقَّقَ أَيْنَاءُ الْأَخْتِ أَمَلُ أَخْوَالِهِمْ فِي الثَّارِ لَمْ ، كَمَا ثَارَ تَأْبَطُ شَرَا  
نَحْلَاهُ ، وَكَمَا ثَارَ عَدَى بْنُ حَاتِمٍ نَحْلَاهُ :

مَنْ مَبْلَغُ أَفْنَاءٍ مَذْحِجٍ أَنَّنِي ثَارَتْ خَالِي ثُمَّ لَمْ أَتَأْتُمْ<sup>(٢)</sup>  
بَلْ لَقَدْ يُوْثِرُ ابْنُ الْأَخْتِ أَخْوَالَهُ عَلَى عَشِيرَتِهِ ، وَيَشْتَفِي بِالثَّارِ مِنْهَا لِأَخْوَالِهِ ،  
يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ وَبَنِي الْعِجْلَانِ اقْتَتَلُوا ، فَقَتَلَتْ بَنُو جَعْفَرِ  
رَجُلًا مِنْ بَنِي الْعِجْلَانِ ، وَرَضِيَ هَؤُلَاءُ أَنْ يَأْخُذُوا دِيَةَ قَتِيلِهِمْ ، فَعَمِرَهُمُ الْقِتَالُ  
الْكَلَابِيُّ - وَهُمْ أَخْوَالُهُ لِأَنَّ جَدَّتَهُ أُمُّ أَبِيهِ عِجْلَانِيَّةٌ - وَقَالَ :

إِذَا مَا لَقِيتُمْ غَضَبَةً جَعْفَرِيَّةً كَرِهْتُمْ بَنِي اللَّكْمَاءِ وَقَعَ السِّنَابُكَ  
فَلَسْتُمْ بِأَخْوَالِي فَلَا تَصْلُبُنَنِي وَلَكِنَّمَا أُمِّي لِإِحْدَى الْعَوَاتِكِ  
قُتِلْتُمْ فَلَمَّا أَنْ طَلَبْتُمْ عُقْلَتُمْ كَذَلِكَ يُوقَى بِالذَّلِيلِ كَذَلِكَ<sup>(٣)</sup>  
وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَفْتَنُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ قَدَرِ أَخْوَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُنْقُصُ  
أَلْصَقَ النَّاسِ بِهِ ، فَقَدْ بَلَغَ ذَلِكَ بِحَسَانِ بْنِ ثَابِتٍ أَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ عَمْرَةَ الْأَوْسِيَّةِ ،  
غَضَبًا لِأَخْوَالِهِ إِذْ بَخَسْتَهُمْ أَقْدَارَهُمْ ، وَأَفْضَلَتْ الْأَوْسُ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَثْنِهِ عَنْ  
تَسْرِيعِهَا أَنْ كَلَّا مِنْهُمَا كَانَ مَعْجَبًا بِصَاحِبِهِ وَحُبًّا لَهُ . وَكَأَنَّمَا لَمْ يَشْفِ الطَّلَاقُ  
غَضَبَهُ ، فَأَخَذَ يَفْخَرُ بِأَخْوَالِهِ ، لِيَحْوَ مَا مَسَّهِمْ مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَلِيَسْمُو بِهِمْ عَلَى قَوْمِهَا  
الْأَوْسِ . قَالَ فِي ذَلِكَ :

(١) شرح الحماسة للبجري ١٦٠/٢ ورسالة الغفران للعمري ٥٤٥ الشعب : الطريق  
في الجبل . سلع : جبل أو مكان بقرب المدينة . لا يطل : لا يهدر . مصع : ثابت شديد  
القتال . مطرق : ناظر بعينه إلى الأرض . صل : خبيث من الأفاعي .  
(٢) حماسة البجري ٤٣ (٣) الأغاني ١٦١/٢٠ .



لا يكن حبك حبا ظاهراً ليس هذا منك يا عمر يسيراً  
 سألت حسان من أخواله إنما يسأل بالشئ الغمر  
 قلت أخوالى بنو كعب إذا أسلم الأبطال عوارت الذبر  
 رب خال لى لو أبصرته سبط المشية فى اليوم الخصر<sup>(١)</sup>

### الفخر بالخال والمدح به

من الطبيعى إذا أن يزدهى الولد بخاله ، وأن يشيد به فى مجال المباهاة . ولقد  
 يشفع خيلاه بخاله إلى نخاره بأبيه وأجداده ، كقول عوف بن الأحوص :  
 ولكن نلت مجد أب وخال وكان إليهما ينمى العلاء<sup>(٢)</sup>  
 وقول قصى :

عبدٌ يناديهم بهاب وهبى أمهتى خندف والياس أبى  
 حيدرة خالى لقيطاً وعلى وحاتم الطائى وهاب المي<sup>(٣)</sup>  
 وقول الزبير بن عبد المطاب لأخيه العباس وقد أقعده فى حجره صغيراً ،  
 وأخذ يغنى له ، مفتخراً بأعمامهما وأخوالهما :  
 أكرم بأعراقك من خال وعم<sup>(٤)</sup> .

وقول حسان بن ثابت :  
 جدى أبو لىلى ووالده عمرو وأخوالى بنو كعب<sup>(٥)</sup>  
 وهذا الضرب من الفخر كثير<sup>(٦)</sup> .

(١) ديوان حسان ٥٢ والأغاني ١٤/٣ سر : حسن الغمر : غير المجرب . سبط  
 المشية : كريم العمل . الخصر : البارذ يريد وقت الجذب .

(٢) المفضليات ١٧٣/١ ينمى . يرتفع

(٣) لسان العرب ١٧/٣٦٤ هاب وهى : زجر للخيل لتقدم فى الحرب .

(٤) الأمالى ١١٥/٢ (٥) ديوان حسان ١٥ .

(٦) البيان والتبيين ٢/١٥٨ و ٢/٢٥٩ وديوان حسان ٩٩ .

وكان الشخص يمدح بعراقة خاله ، كما يمدح بشرف أبيه ، قال الأسود بن  
يعفر في ابنه الجراح :

فأباه جراح ذوأبة دارم وأخوال جراح سرة بنى نهـد<sup>(١)</sup>  
وجاء في وصف المنذر الأكبر للجارية التي سبها في غارته على الحارث  
الأكبر الفسائي ، وأراد أن يهديها إلى أنو شروان : « كريمة الخلال ، تقتصر  
بنسب أبيها دون فصيلاتها ، وبفصيلاتها دون جماع قبيلاتها<sup>(٢)</sup> » وأحيانا كان  
الخلال يمدح ابن أخته بأنه يزدان بمفاخر أخواله ، وهو بهذا يجمع المدح والفخر  
معاً ، كقول سلمة بن الخرشب يمدح ابن أخته الربيع بن زياد العبسي ، وقد هم  
قوم بمحاربته :

أتيم إلينا ترخئون جماعةً فأين أبو قيس وأين ربيع ؟  
وذاك ابن أخت زانه ثوب خاله وأعماله الأعمام وهو نزيـع  
رفيق بدء الحرب طبّ بصعبها إذا شئت رأى القوم فهو جميع<sup>(٣)</sup>  
وكان التجنى ربما يخلط على مضمض من عريق الأخوال والآباء ، أما من  
غيره فإنه مرّ لا يذاق ، وشنار لا يغضى عنه ، يقول أعرابي :

فلو أني بليت بهاشمي خنولته بنو عبد المدان  
صبرت على أذيتيه ولكن تعالي فانظري بمن ابتلاني<sup>(٤)</sup>  
على أن بعض الأبطال الذين انحدروا من آباء معرّقين وأمّهات شريفات قد  
خايلا بمجدهم الذي كسبوا ، وبمجدهم الذي ورثوا ، يقول عامر بن الطفيل :  
فإني وإن كنت ابن فارس عامر وفي السرّ منها والضريح المهذب

(١) الأغاني ١١/١٣٣ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ١٥١/٢ .

(٣) الأغاني ١٦/٢٠ .

(٤) حساسة المالدین ١٦٤ مخطوط .

فما سودتني عامرٌ عن وراثة أبي الله أن أسمو بأُم ولا أب<sup>(١)</sup>

### النار من الخال

مازق ضيق حرج أن يضطر الولد إلى الترجيح بين أبيه وخاله ، أيهما ينصر  
على الآخر ؟ ومن أيهما يثار للآخر ؟

وليس يخلصه من هذا المأزق إلا أن يستوحى فطرته ، فيجد الأب أقرب  
لحمة ، وأعظم نعمة ، وأنه العصبة التي يحمل اسمها ، فيؤثر أباه على خاله ، ويثار  
من خاله لأبيه . فقد ثار الهجرس بن كليب التغابي من خاله جساس ، وكان  
قد قتل أباه وهو جنين ، ثم وضعت أمه بين قومها ، فلما شب قتل خاله ثاراً لأبيه ،  
فلم يقبَح ما فعل<sup>(٢)</sup> ، وقال في ذلك :

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي أمثلُ أمرى بين خالي ووالدي  
وأوردتُ جَسَّاسَ بنَ مَرَّةٍ غُصَّةً إذا ما اعترتني حَرُّها غيرَ بارد  
وقال :

يا للرجال لقلب ما له آس كيف العزاء وثأرى عند جساس؟  
ولما قتل خاله قال أيضاً :

ألم ترني ثارت أبي كليبا وقد يُرَجَى المرشح للذُّحُول  
غسلت العار عن جُشَمَ بنِ بَكر بحماس بن مرة ذى التَّهُول<sup>(٣)</sup>  
ثم قد يتلى الشخص بوتر له عند خاله الذي قتل أخاه ، فيحار ، ويتردد ،  
ويسأل نفسه : أيهما أولى بأن يبقى عليه ؟ وأيهما أحق بأن بغضى عنه ؟ وتتنازع  
في ذلك النوازع ، فيجئح أحياناً إلى الشفقة على أمه حتى لا يضاعف نكبتها

(١) ديوان عامر القصيدة ١ من الملاحق . Lyall

(٢) رسالة الغفران للعمري ٥٤٥ تحقيق عائشة عبد الرحمن .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ٤٨٩ والمستطرف ١/١٩١ .

بفقد ابنها وأخيها ، ولسكنه يحسم هذا التردد بأن يثار ، هكذا فعل توبة بن مضر السعدي ، إذ قتل خاله بأخيه ، وقال :

بكت جزعا أمي رُمَيْلَةً أن رأت      دما من أخيها في المِهْنَد باديا  
فقلت لها لا تجزعي إن طارقا      حمي الذي كان الخليل المصافيا  
وما كنت لو أعطيت ألفي نجية      وأولادها كغواً وستين راعيا  
لأقبليها في طارق دون أن أرى      دما من بني عوف على السيف جاريا  
وما كان في عوف قتيل عامته      ليوفيني من طارق غير خاليا <sup>(١)</sup>

### الصبر على أذى الخال

على أن الرجل قد يصفح عن مساءة خاله ، المساءة التي لا وتر فيها لأب أو أخ ، لأنه موقن أن في القصاص منه إيلا ما لنفسه ، فكأنما يقطع كفه . يقول المتأس في صفحه عن أخواله ، وتصوير الشاعر التي احتجزته عن القصاص منهم :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتي      جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وما كنت إلا مثل قاطع كفه      بكف له أخرى فأصبح أجذما  
يداه أصابت هذه حثف هذه      فلم تجد الأخرى عليها مقدما  
فاما استقاد الكف بالكف لم يجد      دراكا لها في أن تبين فأحجا  
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى      مساغا لتأبيه الشجاع لعمما <sup>(٢)</sup>

وقليلا ما كان الأخوال يعتدون على ابن أختهم ، كما اعتدى بنو سعد على ابن أختهم غسان بن رعدة ، أو كما اعتدى على النمر بن تولب أخواله ، وأغاروا على

(١) الوحشيات لأبي تمام ٦٧ مخطوط ورسالة الغفران ٥٤٥ والمختلف والمؤتلف للآمدي ٦٨ لغو : ما لا يعتد به في المعاملة وكانوا لا يحتسبون أولاد الإبل الصغار في الذية . لذلك يقول الشاعر ( كما ألغيت في الذية الحوارا ) .

(٢) الوحشيات لأبي تمام ٩٥ مخطوط . أجذم : مقطوع الكف . حثف : أصل . استقاد . أراد أن ينقم ويقتص . دراكا : بدا . الشجاع : الثعبان .

إبله ، فتذهب به الظنون شتى المذاهب ، ويركن أخيراً إلى أنهم عدوا عليه ؛ لأنه  
لا عصبية له ، ولا أعمام أماجد ، قال غسان أو النمر :

إذا كنت في سعد وأملك منهم غريباً فلا يفررك خالك من سعد  
فإن ابن أخت القوم مُصْغَى إناءه إذا لم يزاحم خاله بأب جلد<sup>(١)</sup>

### التعبير بالخال

إذا كانت للخال هذه المنزلة فإن ابن أخته يعير به كما يعير بأبيه ، لأنه أحد  
أصليه ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم في هجاء النعمان ، يعيره لؤم خاله وصناعته :  
لحى الله أدنانا إلى اللؤم زُلْفَةً والأمنسا خالا وأعجزنا أبا  
وأجدرنا أن ينفخ الكبير خاله يصوغ القروط والشنوف يثرباً<sup>(٢)</sup>  
وقول عامر بن الطفيل :

وأنت لسوداء المعاصم جَعْدَةٌ وأقص من نسل الإماء العوارك  
أبوك أبو سَوء وأملك مثله وهل تشبهن إلا أباك وخالك<sup>(٣)</sup>

### الخال في الـمـرمـم

ظلت الخثولة في الإسلام رابطة قوية تشد ما بين الأفراد ، وتشد ما بين  
القبائل ، واستغلتها السياسة ، وأفلحت في استغلالها . فمثلاً نصر بنو كلب - من  
اليم - معاوية على علي ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم ، وقد تطلخت أصابعها  
بدمه حين مقتله ، ولأن معاوية تزوج منهم أم يزيد . وقد ناصرُوا يزيد أيضاً ،  
لأنهم أخواله . وكان خالد بن يزيد متعصباً لكلب على قيس في الحرب التي  
نشبت بينهم ، لأن الكلبيين أخوال أبيه وأخوال زوجته ، فقال شاعر من قيس :

(١) شرح الحماسة للبريزي ٤٠/٢ وأساس البلاغة مادة صغى .

(٢) الأغاني ١٧٨/٩ زلفة : منزلة .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٣٥ .

يا خالد بن أبي سفيان قد قدَحَتْ . منا التلّوب وضاق السهل والجبل  
أأنت تأمر كلباً أن تقاتنا جهاً وتمنعهم منا إذا قُتلوا؟<sup>(١)</sup>  
وكانت مناصرة الأخوال في الإسلام أمراً متواضعاً عليه ، وإن لم يتصل  
بالسياسة ، يدل على ذلك قول غسان بن ذهيل في هجاء جرير :

ستعلم ما يُفني مُعَيِّدٌ ومُعْرِضٌ إذا ما سَلِيطٌ غَرَّقَكَ بحورها<sup>(٢)</sup>  
ثم جاء العصر العباسي فناصر الفرس المأمون على الأمين ، لأن أمه منهم ،  
وكان المعتصم يؤثر الترك ، ويُجَنِّدُ منهم ، ويقدمهم على الفرس ، لأن أمه تركية .

### عقوق الأمهات

ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة الماكرة ، فإنها تريد أن  
تستأثر بزوجها ، كما استأثرت أمها بأبيها ، أو كما حاولت أن تستأثر .  
وعزيز على الأم التي حملت وأرضعت وربت وأملت ، وكانت نَجِيٍّ ولدها  
ومفرغه في مساءته ، وشريكه في خبرته ، وكان ريحانة نفسها وسر سعادتها ،  
عزيز عايتها أن تنزع عنها هذه الفتاة الطارئة انتزاعاً فجائياً قاسياً لا يجامل  
ولا يتدرج . وهنا يقع الابن في الحيرة ، وتصطرع في نفسه عاطفتان قويتان ،  
فيحسم الخلاف بحسن سياسته ، ويحاول أن يخمد النار كلما بدا من خلل رمادها  
وميض ، أو ينجح إلى ناحية من الناحيتين .

وإذا ما جنى إلى زوجته عق أمه ، فألقاها في أنون متسعر من الهم  
والحسرات . يقول عروة في شكواه من أصحابه الذين أحسن إليهم وأساءوا إليه  
إنه وإياهم كالأم وابنها العاق ، حملته وفدته وربته وناطت به آمالها ، فلما كبر  
وحق لها أن تنتظر نفعه وشكره تزوج ، فقرب دونها فتاة جميلة تتكحل وتزين

(١) الأغاني ١٦/٨٨ .

(٢) النفاض ٧ معيد : جد جرير لأمه . معرض : من أخواله .

تجذب به ، فهامت أمه ، وباتت تصيح وتتألم مما نالها ، وإنها لحيرى بين أمرين  
من أحدهما بد ، وما فى أحدهما راحة ، أن تفقد ولدها وهذا لا يطاق ، وأن  
تصبر وتتجلد وهذا أيضا لا يطاق ، ولكنه مر المذاق :

فإنى وإياهم كذى الأم أرهنت له ماء عينيها تُفدّى وتحمّل  
فلما ترجّت نفعه وشبابه أتدونها أخرى جديداً تكحلّ  
فباتت لحيد المرفقين كليهما توحّوحُ مما نالها وتولول  
تخيّر من أمرين ليسا بعبطة هو الثكل إلا أنها قد تجمل<sup>(١)</sup>

وليس من الطبعى أن يكون الأولاد جميعا بررة ، بل الطبعى أن يشذ  
بعضهم ، فيسئ إلى أمه وأبيه ، ولو أن الشعر صمت عن هذه المساءة أو صور  
الأبناء كلهم أخياراً لكان قد كذب أو قصر .

هذه أم ثواب الهزّانية نذكر تربيتها لابنها ، وتتوجع من عقوقه لها ، وإساءته  
إليها ، وتنظر إليه بقلب الأم وعينيها ، فترى طفولته وتذكرها ، وتدهش من  
لحيته ولمّته . ثم تشير إلى أمر تسكتمه فى نفسها ، أو هو ينفلت منها على غير  
إرادة ، ذلك أن كَتَبَها هى التى أوغرت صدره ، وزينت له أن يضرب أمه ،  
ويعزق ثوبها . على أنها تتظاهر بالعطف عليها وإن كانت تود إهلا كها :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه أم الطعام ترى فى ريشه زغباً  
حتى إذا آص كالفرخ شذبه أبارّه ونقى عن متنه الكربا  
أنثا يمزق أثوابى ويضربنى أبعدين عندى يبتغى الأدبا ؟  
إنى لأبصر فى ترجيل لمتته وخبط لحيته فى وجهه عجا  
قلت له عرسه يوما لتسمنى رفقا فإن لنا فى أمنا أربا

ولو رأيتني في نار مسعرة من الجحيم لزادت فوقها خطبا<sup>(١)</sup>  
وقد صور أبو العلاء ما يحتاج في نفس بعض الأمهات أحيانا من تخوفها سوء  
عشرة كَنَّتْها لها ، وإيثارها أن يشغل ابنها نفسه بطلب المجد عن الزواج ،  
وتحذيرها إياه إغراء الخطابات الخادعات :

عليك السابغات فإِنَّهِنَّ يدافعن الصوارم والأسنة

.....

فَنِّ إلى المكارم والمعالى ولا تثقل مطاك بعبء حَنِّه  
فإني قد كبرت وما كعاب ملائمة عجوزاً مُقْسِدِنَه  
تري تنوُّمها وترى ثغامي قَمبراً من مَنبِله مسنه  
إذا حاورتها نبذت حوارى وإلا تُلف لي ذنباً تَجَنِّه<sup>(٢)</sup>

والخطيئة مثل سائر في هجائه لأمه - وإن كان قد هجا نفسه وزوجته وأباه -  
فهل كان مرجع هجائه لأمه أنه شاعر ساخر ذو شر وسفه لا يبالي أين وقع مقاله ،  
ولا يرمى حرمة نفسه ، ولا حرمة غيره ؟

أو كان سبب هجائه لأمه راجعا إلى عقدة نفسية ، وهذه العقدة هي التي  
أضمرت في نفسه المجازفة بالقول ، وجعلته لا يبالي ؟

أرجح أن هذا هو السبب ، وأرجع هذه العقدة النفسية إلى أنه مجهول  
النسب ، لا يعرف أباه معرفة يقين ، لأنه من أولاد الزنا . وقد سأل أمه من أبوه  
نخاطت عليه ، فقال :

(١) شرح الحماسة للبرزى ١٤٣/٢ وثمار القلوب في المضاف والمنسوب للشمس  
٢٠٥/١ وتهذيب الكامل ١٨٣/١ أعظمه أم الطعام : أكبر ما فيه بطنه . النعال : غل  
النخل . الأبار : الملقح للنخل . الكرب : أصول السعف . ترجيل لثته : غسل شعره وتمشيطة  
ورواية التتالي للبيت الأول : أطعمه أم الطعام . وفسر أم الطعام بالخطبة .  
(٢) شرح التنوير على سقط الزند ٢٩٣/٢ مقسنة : يابسة من الكبر . تنومها :  
شعرها الأسود الشبيه بشعر شجر التنوم . الثغام : نبت يشبه الشعر الأبيض . منبهة : عجوز  
تمشي في ضعف . تجنه : تتجنى وتدعى على ذنبا لم أفعله .  
(١٠) المرأة في الشعر الجاهلي



تقول لى الضراء لست لواحد ولا اثنين، فانظر كيف شرك أولك  
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللت هبئت ألما تستفق من ضلالكا؟  
لذلك كان نسبه متدافعا بين القبائل، فينتهى إلى واحدة إذا غضب على  
الأخرى، فأنا يدعى أنه ابن عمرو بن علقمة، وحينما ينتسب إلى بنى ذهل بن  
ثعلبة، وتارة يعترى إلى بنى عبس، وآونة يلتصق ببني الأقمم.  
ثم إن أمه تزوجت — بعد أبيه، والخطيئة كبير — بالكلب بن كنيس،  
وهو ابن أمة، وولد زنا أيضا<sup>(١)</sup>. أعتقد أن تخليط أم الخطيئة عليه في نسبه،  
وجعله أباه الحقيقي، واضطراره إلى الالتصاق بأناس شتى، وأن زواج أمه  
برجل مجهول النسب أيضاً، وخزيمها له في كبره، أعتقد أن ذلك بابل خواطره،  
ومزج بالسخط حياته. وركب في نفسه احتقار أمه، وامتهان نفسه، وكل عزيز  
عليه. يقول في هجائها وهجاء زوجها:

ولقد رأيتك فى النساء فسوتنى وأبا بنيك فساءنى فى المجلس  
وقال أيضاً:

جزاك الله شرا من عجوز ولقاك العقوق من البنين  
فقد ملكت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين  
لسانك مبرد لا خير فيه ودرك درج جاذبة دهن<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا:

تنحى فالجلى عنى بعيداً أراح الله منك العالمينا  
أغر بالاً إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا  
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ١٦٠/٢ - ١٦٤

(٢) درك : لبنك . جاذبة : ناقة لا تدر . دهن : ناقة قليلة اللبن لا تدر .

(٣) كانون : نفيلة .

وله في هجائها وهجاء غيرها شعر كثير<sup>(١)</sup> .

وقال سعد بن قرط من بني جذيمة يهجو أمه :

يأليت ما أمنتـا شالت نعامتها      إيما إلى جنة إيما إلى نار  
تلتهم الوسق مشدودا أشظته      كأنما وجهها قد طلى بالنار  
ليست بشعبى ولو أوردتها هجرا      ولا برياً ولو قاظت بذى قار<sup>(٢)</sup>  
على أن عقوق بعض الأبناء لم يقتصر على الأمهات ، بل تعدى إلى الآباء ،  
يقول المنازل بن الأعرف يتشكى من ابن عاق اسمه خليج :

تظلمنى مالى خليج وعقنى      على حين كانت كالحنى عظامى

وكنت أرجى الخير منه ، وأمه      حرامية ، ماغرني بحرام ؟

وربيته من بعد ذا فرحاً به      فلا يفرحن بعدى أب بغلام<sup>(٣)</sup>

ويقول أمية بن أبى الصلت فى ابنه :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا      تعل بما أحنى عليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالسكر لم أبت      لشكواك إلا ساهراً أتمل

كأنى أنا المطروق دونك بالذى      طرقت به دونى فعينى تهمل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها      لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التى      إليها مدى ما كنت منك أومل

جعلت جزأى غلظة وفضاظة      كأنك أنت النعم المتفضل

وسميتنى باسم المنفند رأيه      وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل

(١) الأغاني ١٦٢/٢ والعقد الفريد ٢٢٢/٣ وخزانة الأدب ١٧٥/٢ وبجمل الأمثال

١٤٢/١ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١٧٥/٤ شالت نعامتها : ماتت . إيما : أصله إيما . الوسق : ستون صاعاً . الأشظة : جمع شظية . ومى الفلقة من عصى ونحوها . هجر : بلد باليمن كثير التمر . قاظ : أقام فى القَيْظ وهو الحر . ذو قار : موضع .

(٣) معجم الشعراء ٥١ الحن : النفس .

فليتك إذ لم ترع حق أبوقى فعلت كما الجار المجاور يفعل<sup>(١)</sup>  
وكذلك يشكو أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز<sup>(٢)</sup> .  
وإذا فقد كان عقوق الأمهات نادراً ، وكان العقوق — على ندرته —  
يصيب الأمهات والآباء ، ولو أنه أصاب الأمهات وحدهن لكان معناه أن  
الأم أقل في نظر بنيتها مكانة من الأب ، أو أقل عزازة .

## الفصل الثاني الزوجة

المصاهرة رباط بين المتصاهرين :

ما من شك في أن المصاهرة كانت لحمة قوية بين الأفراد والعشائر ، تقوى ما بين الأقرباء وتقرب ما بين البعداء ، وتطفى نار العداوة والشحناء ، لأنها صلة جديدة مختارة من شأنها أن تمزج المتصاهرين .

يقول خالد بن يزيد بن معاوية : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير ، حتى تزوجت منهم رملة ، فصاروا أحب خلق الله إلى <sup>(١)</sup> ، وفيها يقول :  
أحب بني العوام طرأاً لحبها . ومن حبها أحبيت أخوالها كلها <sup>(٢)</sup>  
وقد استعطف عدى بن زيد العبادى النعمان بن المنذر بمصاهرته له ، لأنه كان زوج أخته كما ذكر العلماء من أهل الحيرة ، أو زوج ابنته هند كما ذكر رواية العرب ، وفي استعطافه يقول :

أَجَلْ نَفَعَى رَبِّهَا أَوْلَكُمْ وَذُنُوبَى كَانَ مِنْكُمْ وَاصْطَبَارَى  
وفي تهديد النابغة لعمر بن هند مضطرب الحجارة قوله : إنا لا بد أن نقابل  
شركاً بمثله ، وإن كنت قد ذكرت ما بينتنا من مصاهرة ومودة :  
تَجْزِيكَ إِنْذَاراً بَمَا أَنْذَرْتَنَا وَذَكَرْتَ عَطْفَ الْوَدِّ وَالْإِضْهَارِ <sup>(٣)</sup>

---

(١) بلوغ الأرب ٧/٢

(٢) الأغاني ٨٦/١٦

(٣) الأغاني ١٣/٣ . أجل : نصب على نزع الحائضى من جل . ربهما : نهما

(٤) ديوان النابغة ٤٣

### الزوجة المثلى :

عنه الرجل أن الزواج شركة في الحياة ، وأساس لعشرة طويلة ، ولحمة وثيقة بينه وبين من يصاهر . وعلم أيضاً أن الزوجة سكنه ، ومتاعه ، وقسيمته في إنتاج أولاده ، يرثون منها كما يرثون منه ، وينطبعون على كثير مما تطبعهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة ؛ لذلك تخير الزوجة جهده ، وكانت الزوجة المثلى ممتازة بصفات تحببها إلى الرجل .

١ — بعض هذه الصفات راجع إلى حسبها وشرف قومها .

وليس الحسب في نظر العربي هو الغنى ، وإنما هو الحمد وحسن الأحداث ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن به ثراء أم لم يقترن .

يدل على ذلك أن قيس بن زهير سيد عبس وبطلها طلب من النمر بن قاسط من ربيعة أن يختاروا له زوجة أذلها الفقر وأدبها الغنى <sup>(١)</sup> . وشبهه به قول خالد ابن صفوان لرجل : « اطلب لي بكراً .. قد عاشت في نعمة ، وأدركتها حاجة ، تغلق النعمة فيها ، وذلل الحاجة معها <sup>(٢)</sup> »

لذلك أوصى أكرم بن صيفي قومه بقوله : « لا يكفكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف <sup>(٣)</sup> » وهو يريد شرف أبنائه . وامتن أبو الأسود الدؤلي على بنيه بقوله : أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقبل أن تولدوا . قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن <sup>(٤)</sup> »

ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فعرز هذه الفكرة بقوله : « احتفظوا لنطفكم فإن العرق زرع » . وقال : « وإياكم وخضراء الدمن » قيل : ما خضراء

(٢) اللطائف والظرائف للشمالي ٦١

(١) العقد الفريد ٢١١/٣

(٣) نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٢ ومحاضرات الأدباء ١١٧/٢ ومجمع

(٤) إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم ٤ مخطوط

الأمثال ٢١٨/٢

الدمن؟ قال: المرأة الحسنة في المنبت السوء<sup>(١)</sup> . «

وجرى المسلمون على حكمته ، فقد أوصى عثمان بن أبي العاص الثقفي بنيه بتخير زوجاتهم وأصهارهم ، وضرب لهم من نفسه مثلاً : « يا بني إني أجدتكم في أمهاتكم . . . والناكح مفترس ، فليُنظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينبج ولو بعد حين<sup>(٢)</sup> »

ولما خطب عبد الله بن الزبير مبشراً بفتح إفريقية في مجلس عثمان بن عفان أعجب به أبوه الزبير فقال : « يأيتها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن فإنني لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا<sup>(٣)</sup> » .

لا عجب إذاً في أن افتخر بعض الأزواج بحسب زوجاتهم ، لأن في حسبهن شرفاً لأزواجهن . من ذلك أنه كانت ملاحة بين لقيط بن زُرارة ورجل من بيته اسمه زيد ، فعيره زيد أنه لم يتزوج ، لأن الألفاء يرغبون عنه ، فخطب إلى قيس ابن مسعود ، فلما زوجه قال :

ألم يأت زيدا حيث أصبح أننى تزوجتها إحدى النساء المواجد  
عقيلة شيخ لم يكن لنا لها سوى عُدُسى من زُرارة ماجد  
إذا اتصلت يوماً بنسبتها اتهمت إلى آل مسعود بن قيس بن خالد  
وعير عامر بن الطفيل خصومه بأنهم حقراء لا يتسامون إلى الخطبة من  
السكرام ، ولا إلى أن يخطب إليهم أحد ، لذلك تعُدُّس بناتهم ولا يخطبن :  
لا يخطبون إلى السكرام بناتهم وتثيب أيّهم ولما تُخطب<sup>(٤)</sup>  
وإذا فالزوجة نبعة من قومها ، ثمر مثل ثمرهم ، وتتخلق بأخلاقهم ، وأبناؤها  
صورة منها ، لهذا يقول أعشى بني مازن أو بني الحرماز في عقوق بنيه وشراصة  
زوجته :

(١) كثر العلماء ٢٨٨/٨ ومعارضات الأدباء ١١٧/٢ (٢) البيان والتبيين ٦٧/٢

(٤) ديوان عامر القصيدة ٨ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٠٦/١

إِن بَنَى لَيْسَ فِيهِمْ رَثٌ وَأُمُّهُمْ مِثْلَهُمْ أَوْ أَشَرُّ  
إِذَا رَأَوْهَا نَبَحَتْ هَرَوَا <sup>(١)</sup>

ويقول رافع بن هُرَيم في عتاب أبناء إخوته إنهم أخسة لأنهم ورثوا عن أمهم الخسة :

عفاريثا على وأخذ مالى وعجزا عن أناس آخرين  
فها لا غير عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مِثْلَهُنَا  
فلو كنتم لَكَيْسَةَ أَكَلْتُمْ وَكَيْسُ الْأُمِّ أَكَيْسُ لِلْبَنِي  
ولكن أُمُّكُمْ حَقَّتْ فَجْتُمْ غَنَاءًا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينًا <sup>(٢)</sup>

وكانت المرأة نفسها بصيرة بذلك ، فقد أتى رجل إلى ابنة الخس يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت : انظر رمكاء جسيمة ، أو بيضاء وسيمة ، في بيت جدٍ أو بيت حدٍ أو بيت عز . قال : ما تركت من النساء شيئا <sup>(٣)</sup> .

وقد أمر النبي بإيثار المرأة ذات الخلق القويم والتدين ، قال : « تنسك المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك » <sup>(٤)</sup> .  
وزوج عمر بن الخطاب ابنه عاصما بنت امرأة تباع اللبن ، لأن خلقها أعجبه <sup>(٥)</sup> .  
٢ — وبعضها راجع إلى أوصافها الجسدية والنفسية ، وقد فصلت هذا ، ووضعت نموذج الجمال في نظر الرجال ، في كتاب آخر <sup>(٦)</sup> . ويكفي أن أذكر هنا قول لقيط بن زراراة في وصف زوجته :

كَأَنَّ رِضَابَ الْمِسْكِ دُونَ لَثَائِمِهَا عَلَى شَيْمٍ مِنْ مَاءِ مُرْنَةٍ بَارِدٍ  
لَهَا بَشَرٌ صَافٍ الْأَدِيمُ كَأَنَّهُ لَجِينُ تَرَاهِ دُونَ حُمْرِ الْجَاسِدِ

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٦

(١) معجم الشعراء ١٦

(٣) الأماي ٢/٢٥٦ رمكاء : سمراء .

(٤) فتح الباري ٩/١١٥ واللائف والظرائف للشمالي ٦١ وعيون الأخبار ٤/١

(٥) بحم الأمثال ٢/١٠٢ (٦) الغزل في العصر الجاهلي ٢١ - ١٢٥ .

إذا ارتفعت فوق الفراش حسبتها شريحة نبع زينت بالقلائد<sup>(١)</sup>  
 ٣ — وهم آثروا الشابة البكر على الثيب ، ولعابهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤة  
 لم يزايلها صدفها ، وراعوا أنها أسلس قياداً ، وأيسر انطباعاً ، وأكثر نسلاً وولادة ،  
 وهم يعرفون بالمشاهدة أن الرجل أبعد أمداً في النسل من المرأة « فهي تنقطع عن  
 الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر<sup>(٢)</sup>

لذلك قال الحارث بن كلدة : لا تنزوجوا من النساء إلا الشباب<sup>(٣)</sup> .  
 وقد خدع جهم في امرأة من بنى قمعس اسمها قامة ، فباع إبله ، ومهرها ،  
 فلما دخل بها وجدها عجوزاً ، فقال :

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحية كما لمت نفسي في عجوز بنى شمس  
 فبانت — ولم أغين — غداة اشتريتها وبعث تلاد المال بالثمن البخس  
 فإن مات جهم غيلة فاقتلوا به قمامة إن النفس تقتل بالنفس<sup>(٤)</sup>  
 والشعراء مكثرون من الوصاة بتجنب العجوز والأيم ، كقول أحدهم :  
 لا تنسكن الدهر ما عشت أيتما محرمة قد مل منها وملت  
 تجود برجليها وتمنع درها إذا طلبت منها المودة هرت<sup>(٥)</sup>  
 ويقول آخر :

لا تنسكن عجوزاً إن أتيت بها واخاع ثيابك عنها ممعنا هرباً  
 وإن أتوك فقالوا إنها نصف وإن أمثل نصفها الذي ذهب

(١) أمثال العرب للأضي ٢١ (٢) الحيوان للجاحظ ٢٠٨/٥ .

(٣) مطالم البدور ٢٧/٢ .

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ في الأصل فبت ، ورجح مصححو الكتاب أن هذا تحريف  
 صوابه فبت . لكن هذا لا يتفق مع المعنى ، لأن الشاعر يذكر أنه فارقها غداة دخوله بها  
 مسروراً لم يشعر بحسرة على ماله ، لأنه قد تم بالخلاص منها . لهذا رجعت أن يكون التصويب  
 ( فبانت ) أى طلقها أو يكون ( فبت ) أى قطعت صلتى بها .

(٥) شرح الحماسة للبربري ٤/١٩٧ مخزومة : دعا عليها أهل زوجها السابق أن  
 تنسكها النية .



وقد شدد النبي عليه الصلاة والسلام في اختيار البكر<sup>(١)</sup> . وروى عن عمر قوله : « انكحوا الجوارى الأبكار ، فإنهن أطيب أفواها ، وأنتق أرحاما<sup>(٢)</sup> » . وقال النبي لجابر بن عبد الله لما أخبره أنه تزوج ثيبا : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » والمراد بالجارية البكر<sup>(٣)</sup> .

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة ، لأن الناس يسلكون ذلك في استيلاء الحيوان ، ليحصلوا على نسل قوى ممتاز . وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين ، وينتهي بالأربعين ، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين<sup>(٤)</sup> .

٤ — وهم يحبون المرأة الولود ، وكان هذا من بواعث إيثارهم للشابة البكر ، لأنهم كانوا يفرحون بكثرة الأولاد — ولا سيما الذكور — ويعتزون بهم ويكاثرون ، وهم طالما خيلوا بكثرة عددهم ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنضرة والحروب ، وفي كثرة العدد عز ومنعة ، وفي قلته ضعف واستهانة ، لذلك كانت القبيلة تهنا وتقيم العرس لثلاث : غلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج<sup>(٥)</sup> . يقول عمرو بن كاثوم :

ملاأنا البرحتى ضاق عنا      وظهير البحر نملؤه سفينا

وكان الرجل يعتمد في نصرته على بنيه أولا ، يقول الأشهب بن رُميلة أونهبش بن حري :

قال الأقارب لا تغرك كثرتنا      وأغن نفسك عنا أيها الرجل

(١) فتح الباري ج ٩ وكنز العمال ٢٨٥/٨ والسنن الكبرى للبيهقي ٨/٧ .

(٢) كنز العمال ٢٨٨/٨ وفي جبهة الأمثال لأبي هلال ٧٦ أنه حديث .

(٣) فتح المبدى ١٧٨/٢ وفتح الباري ١٠٤/٩ والسنن الكبرى للبيهقي ٨٠/٧ .

(٤) جمهورية أفلاطون ١٣٢ - ١٣٤ .

(٥) العمدة لابن رشيقي ٣٧/١ .

عَلَى بَنِي يَشْدُ اللَّهُ أَعْظَمَهُم وَالنَّبْعَ يَنْبُتُ قَضَابَانَا فِيكَهْلٍ<sup>(١)</sup>

لهذا كان من الأسباب التي بَغَضَ بها زهير بن أبي صُرَدَ عينة بن حصن .  
في عجز استمسك بها من سَبَى هوازن ولم يطلقها كما أطلق رسول الله والمهاجرون  
والأنصار سبيهم قوله له : والله ما فوها ببارد ، ولا تديها بفاهد ، ولا بدنها  
بوالد<sup>(٢)</sup> .

وتأبى أنوثة المرأة إلا أن تستعان في تفضيلها المرأة الولود وإن كانت مثناة ،  
تقول ابنة الخُلس : أفضل النساء . . . متوركة جارية ، في بطنها جارية ، تتبعها  
جارية<sup>(٣)</sup> .

وقد أكد النبي هذا الميل بحضه على إثثار الزوجة الولود ، جاءه رجل فقال :  
إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم  
أتاه الثانية فيها ، ثم أتاه الثالثة ، فقال النبي : تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر  
بكم الأمم<sup>(٤)</sup>

ولم يصرفهم عن المرأة الولود إلى العاقر أن العاقر أخوف من الضرة ، فهي  
أرعى للزوج ، حتى تلبيه بتعلمها عن عقمها ، فلا يمنح إلى زواج غيرها ، يقول  
المُعَرِّق البارقي في وصف الخليل :

يَفْرَجُ عَنْهَا كُلَّ ثَغْرِ مَخَافَةٍ مَسِيحٌ كَسَرَ حَانَ الْقَسِيمَةِ ضَامِرٍ  
وَكُلُّ لُجُوجٍ فِي الْعُنَاقِ كَأَنَّهَا إِذَا اغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَخَاءَ كَاسِرٍ  
لَهَا نَاهَضٌ فِي الْوَكْرِ قَدْ مَهَّدَتْ لَهُ كَمَا مَهَّدَتْ لِلْبَعْلِ حَسَنَاءُ عَاقِرٍ  
تَخَافُ نِسَاءً يَبْتَذِرْنَ حَلِيلَهَا مُحَرَّدةٌ قَدْ حَرَدَتْهَا الضَّرَائِرُ<sup>(٥)</sup>

(١) البيان والتبيين ٤/٣٧ (٢) سيرة ابن هشام ٤/١٣٧ . (٣) الأمل ٢/٢٥٧ .

(٤) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣/٣٤١ وكثر العيال ٨/١٨٥ .

(٥) الأغاني ١٠/٤٤ مسح : جواد سريع . سرحان : ذئب . العناق : الإسراع .

اغتمست في الماء : بللها عرقها من شدة عدوها . فتخاء : عقاب . كاسر : منقضة مفترسة .  
ناهض : فرخ أو شك أن يطير .

وقد شاركهم اليهود في حب النسل ، وكانت كثرته تلوح أعظم ما يمن به  
 (يهوه) على الرجل ، وكان عقم المرأة يعد عاراً<sup>(١)</sup> . يقول السموءل بن عدياء  
 مدافعاً عن قلة عددهم :

تعيّرنا أنا قليلٌ عديداً فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجاراً كثيراً ذليل<sup>(٢)</sup>

٥ — ومن كمال الزوجة أن تكون أربية لقنة فصيحة ، لتبشر بأن ابنها  
 سيكون كذلك . فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لثغاء ، مخافة أن تلد له  
 ولداً ألثغ ، ولم تفتنه بأن تبخر في ثيابها الموشاة فتنسيه لثغها ، قال :

لثغَاء تَأْتِي بِحَيِّثُ الثَغِ تَمِيسُ فِي الْمَوْشِيِّ وَالْمَصْبَغِ<sup>(٣)</sup>

ويزعمون أن امرأة القيس آلى ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة  
 وثنتين ، فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر ، فبينما هو  
 يسير ليلاً إذا برجل يحمل ابنة له صبية كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فسألها  
 سؤاله ، فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما ثنتان  
 فتدنيا المرأة . فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها<sup>(٤)</sup> .

وهذه القصة تحمل في طياتها بواعث الشك فيها ، فلست أعقل أن يخطب  
 امرؤ القيس ويتزوج صبية لما يزل يحملها أبوها ، ولست أعقل أن يقصد  
 امرؤ القيس في اختياره لمن يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإنغاز ، الذي  
 لا يتهدى إلى مرماء إلا مخترعه ، وأرجح أنها قصة موضوعة لتعليم الفروق  
 اللغوية ، والدلالة على أن اللغة تخص هذه الأنداء بكلمات مختلفة ، ثم إنها

(١) اليهود في تاريخ الحضارة ٤٩ (٢) ديوان السموءل ٨ .

(٣) البيان والبيان ٥٧/١ وغيون الأخبار ٧/٤ وفيه نسب الشعر لزياد .

(٤) الأغاني ٢١/٨ ساسي ونجم الأمثال ٢١١/٢ .

مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة ، تدل على ذكاء هذه العبيبة وقدرتها على التمييز<sup>(١)</sup> .

### صفات مذمومة في الزوجة :

١ — تحاموا المرأة الحقاء ، لأنها تلد الحقى ، جاء فى وصية أ كثم بن صيفى إلى طبيء : « وإياكم ونكاح الحقاء ، فإن نكاحها غرر ، وولدها إلى ضياع<sup>(٢)</sup> » ، وكذلك قال الحارث بن كعب لبنيه : « إياكم والورهاء ، وتجنبوا الخرقاء » . وفى الحديث الشريف : « لاتتزوجوا الحقاء ، فإن صحبتها بلاء ، وفى ولدها ضياع » و « لاتسترضعوا الحقاء فإن لبنها يغير » وقال عمر بن الخطاب « لم يقم جنين فى بطن حقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا<sup>(٣)</sup> » .

٢ — وتحاموا ضربا من النساء يخدع مظهره ، ويسوء مخبره ، هذا الضرب هو النسوة اللاتى منحن وسامة وقسامة ، لكنهن نشأن فى بيئة لاتغذى بأخلاق فاضلة . يقول أ كثم بن صيفى : « لا يغابنكم جمال النساء على صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف<sup>(٤)</sup> » ويحس الشاعر أن الخسة قد تأتى من الأم والخالة لأن وراثته الشر قوية فيقول :

فأدر كنهه خالاته نخذلته ألا إن عرق السوء لا بد مذرك<sup>(٥)</sup>

وشبيه بهذه الثرية الناشئة فى لؤم وخسة ، وقد نفر منها أ كثم بن صيفى فى وصيته لابنه ، « يابنى إياك واختيار الثيمة بما عندها من المال ، فإن المال يذهب به ، ويبقى فى حالك اللؤم الذى لا يفنيه شيء<sup>(٦)</sup> » .

(١) الأغاني ٧١/٨ .

(٢) بجمع الأمثال ١١٨/٢ غرر : تعرض للضرر .

(٣) السنن الكبرى للبيهق ٤٦٤/٧ والمبسوط للسرخرسى ١١٩/١٥ ونزهة الأبصار والأنساع ٣٢ .

(٤) محاضرات الأدباء ١١٧/٢ ونزهة الأبصار والأنساع ٣٢ وجهرة الأمثال ٤ .

(٥) جهرة الأمثال ٥ (٦) نزهة الأبصار ٣٢ .

ثم أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله ، « إياكم وخضراء  
الدمن<sup>(١)</sup> » يريد المرأة الحسنة في المنبت السوء ، كالنبات المعجب الذي نبت على  
البر ، يروق ظاهره ، وليس في باطنه خير ، لأن عرق السوء لا بد أن يظهر .  
٣ - وكانت المرأة الثيب غير محببة إليهم في الأعم الأغلب ، وكذلك  
المرأة المتماضة ، والغنية التي تمن بما لها ، وغير المتصونة .

قال رجل لولده . « يا بني لاتخذها حنّانة ولا أنانة ولا مماناة ولا عشبة الدار  
ولا كية القفا<sup>(٢)</sup> » ، ينهاه عن المرأة الثيب التي تمن إلى زوجها الأول ، أو التي  
لها ولد من غيره فهي تمن عليهم . وينهاه عن التي تمن من غير علة ، لأنها  
إما مترفة مبالغة في ترفها ؛ وإما خبيثة تتمارض لأرب في نفسها ، أو هي التي مات  
عنها زوجها ، فكلما رأت زوجها الثاني أنت . وينهاه عن ذات المال التي لاتقتنا  
تذكر زوجها بما قدمت له وابنيه من خير . وينهاه عن الحسنة في بيثة فاسدة .  
وينهاه أخيراً عن المرأة التي تتناولها الألسنة ، فإذا قام زوجها من المجلس قالوا :  
فعلت كذا وكذا ، وكان بينها وبين فلان كذا .

على أن الثيب كانت تشتهر أحياناً بعراقة أو بجمال ، أو خلق كريم ومال ،  
أو تجتذب الرجال بحالة ما فتزوج مرات . وهم يضربون المثل بأم خارجة ،  
فيقولون : أسرع من نكاح أم خارجة ، كما قالوا ولدت في العرب في نيف  
وعشرين حياً ، من آباء شتى ، وكان الرجل يقول خطيب ، فتقول زكح<sup>(٣)</sup> ،  
حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها كثير من الناس لكان قد  
قارب<sup>(٤)</sup> ، على أن المفضل الضبي ذكر أنها تزوجت خمس مرات فحسب<sup>(٥)</sup> ،  
وابن حبيب ذكر أنها تزوجت أكثر من ثمانية رجال<sup>(٦)</sup> .

(١) كنز العمال ٢٨٨/٨ (٢) المحاسن والأضداد ١٦٩ والأمالى ٢٥٦/٢

(٣) تهذيب السكامل ١١٧/٢ .

(٤) محاسن النساء لابن هاشم ٦٦ مخطوط .

(٥) أمثال العرب للضبي ١١ (٦) المحبر ٣٥ ؛ لابن حبيب .

وكثيرات من النساء غير أم خارجة قد أُرِدْنَ ، منهن مارية بنت الجَعْدِ ، ذكر ابن حبيب أسماء أزواجها ، وعددهم عشرة ، ودختنوس بنت لقيط بن زرارَة تزوجت ثلاثة ، وهند بنت عتبة تزوجت ثلاثة أيضاً <sup>(١)</sup> ، والسيدة خديجة بنت خويلد تزوجت قبل المصطفى مرتين <sup>(٢)</sup> ، وضباعة بنت عامر بن قرط تزوجت ثلاثة <sup>(٣)</sup> . وقد استنبطت من رسالة المردفات لأبي الحسن المدائني ثمانى وعشرين مردفة في الجاهلية .

وكذلك أُرِدَتْ كثيرات في الإسلام ، كأم هشام بنت عبد الله بن عمر ابن الخطاب <sup>(٤)</sup> ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، أُرِدَتْ خمسة رجال <sup>(٥)</sup> ، وتزوجت أم كلثوم بنت عتبة أربع مرات <sup>(٦)</sup> ، وجميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول تزوجت أربع مرات <sup>(٧)</sup> .

ولكن الميل العام كان للبكر كما سبق ، في الجاهلية والإسلام . ويدل على ذلك أيضاً قول الجاحظ : إن الزواج بالثيب كان قبيحاً في العصر الأموي والعباسي <sup>(٨)</sup> .

٤ — ومن عيوبها تقطيب الجبين ، والصَّخَب ، والصُّجَاج ، والمشارَة . قال شيخ من بني سليم لابنه : يا بني إياك والفضوب القطوب <sup>(٩)</sup> ، وقالت ابنة الخسّ شر النساء الشَّوَيْدَاء المراض ، الكثير المظاظ <sup>(١٠)</sup> .

وخير تصوير لذلك قول عبد الله بن أوفى الخزاعي في امرأته :

- (١) المحبر ٤٣٥ - ٤٥٥ . (٢) الإصابة ٨ / ٦٠ .  
 (٣) الإصابة ٨ / ١٣٣ . (٤) الأغاني ١١ / ١٣٨ .  
 (٥) الأغاني ١٦ / ١٢٧ وأسد الغابة ٥ / ٤٩٩ ونزهة الأَبصار ١٤ والإصابة ٨ / ١٣٧ والاستيعاب ٢ / ٧٦٨ .  
 (٦) المردفات من قریش لأبي الحسن المدائني ٥١ من نوادر المخطوطات .  
 (٧) الإصابة ٨ / ٤٢ . (٨) رسالة القيات ٥٩ .  
 (٩) بلوغ الأرب ٢ / ٢٢ .  
 (١٠) الأمالي ٢ / ٢٥٦ المظاظ : المشارَة والمشاقة .

نصحت ابنة المنتصى نكحةً على الكره ضرت ولم تنفع  
 ولم تُغن من فاقة مُقدماً ولم تُجد خيراً ولم تجتمع  
 مُجذدةً مثل كلب الهراش إذا هجع الناس لم تهجع  
 مُفرقة بين جيرانها وما تستطيع بينهم تقطع<sup>(١)</sup>

### الزوجات الغريبات

١ - كان العرب يجرون على نظام الزواج من العشيرة ، ومن غير العشيرة ، لكنهم كانوا يؤثرون الاغتراب ، لأنهم يرون أن ولد الرجل من قرابته يحى ضاويًا نحيفًا ، قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد :  
 ذاك غبيدٌ قد أصاب ميا ياليتَه ألقحها صبيًا  
 فحملت فولدت ضاويًا<sup>(٢)</sup>

وفي أمثالهم : النزاع لا القرائب . قال ابن السكيت : النزيمة ، الغريبة ، لأن الغريبة أنجب . ويقال اغتربوا لا تزفوا ، أى انكحوا فى الأبعد حتى لا يولد لكم ضاوى ، قال الشاعر :

فى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد القرائب  
 تعلم من أعمامه البأس والندى وورثه الأخوال حسن التجارب  
 هو ابن غريبات النساء وإنسا ذوو الشأن أبناء النساء الغرائب<sup>(٣)</sup>  
 وقال آخر فى تخيره زوجة غريبة :  
 تذخيتُها للنسل وهى غريبة فحأت به كالبدن خرقاً معممًا<sup>(٤)</sup>

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٢٢ ابنة المنتصى : زوجته التى وطئها مرة واحدة .  
 منجدة : مجرب ما عندها . الهراش : تحريش كلب بـ كلب . إذا هجع الناس لم تهجع : غامة .

(٢) لسان العرب ١٩ / ٢٢٥ .

(٣) بجمع الأمثال ٠ / ٢٧٠ ولسان العرب ١٩ / ١٢٥ وجمهرة الأمثال ١٥ والمغنى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ وحامسة المالدين ١٣٥ مخطوط والتنبية على أوهم أبى على فى أماليه ١٢٤ .

(٤) حماسة المالدين ٦٥ مخطوط والبيان والتبيين ٣ / ٦٨ ولسان العرب ١٩ / ٢٢٥ تنحى : اعتمد ورواية البيان : تنخبها أى اخترتها . خرق : كريم الخليفة . معمم : سيد .

وقال آخر :

أنذر من كان بعيد الم ترونج أولاد بنات العم  
فليس بناج من ضوى وسقم وأنت إن أطعمته لا ينمى<sup>(١)</sup>  
وقال غيره .

ألا فتى نال الملا بهمة ليس أبوه بابن عم أمه  
ترى الرجال تهتدى بأمه<sup>(٢)</sup>

وافتخر شاعر بأن أمه غريبة :

مكننى بيت رفيع وجرة وخال كعُريان النجوم نزع<sup>(٣)</sup>  
وقد جرى المسلمون على هذا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأمر باختيار  
الغربيات مخافة ضعف النسل « اغتربوا لا تضرؤوا<sup>(٤)</sup> » ، وعمر بن الخطاب ينظر  
إلى قوم من قریش صفار الأجسام فيقول : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قرب أمهاتنا  
من آبائنا ، فيقول : صدقتم ، اغتربوا . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا<sup>(٥)</sup> . وقال جرير  
فى ابنه بلال :

إن بلالا لم تشنه أمه لم يتناسب خاله وعمه<sup>(٦)</sup>

على أن بعضهم كان يؤثر بنات العم ، لأنهن فى زعمه أصبر على ريب الزمان  
ونبوة الخلق . ومن هؤلاء بنو عبس ، وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر ؟ قالوا :  
بنات العم<sup>(٧)</sup> .

(١) محاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ وتاج العروس ١٠ / ٢٢١ والإمتاع والمؤانسة  
للتوحيدى ١ / ٩٤ .

(٢) تاج العروس ١٠ / ٢٢١ أمه : قصده .

(٣) المعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ خال كعريان النجوم : واضح النسب شهير  
كالنجم السافر .

(٤) لسان العرب ١٩ / ٢٢٥ وتاج العروس ١٠ / ٢٢١ ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧

(٥) كنز العمال ٨ / ٢٨٨ ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ والعقد الفريد ٣ / ٢٢٤

وعيون الأخبار ٤ / ٣ .

(٦) عيون الأخبار ١ / ١٩٧ .

(٧) ديوان جرير ٥٣٣ .

( ١١ المرأة فى الشعر الجاهلى )



وهذا النظام الذى سار عليه العرب فى الاغتراب يشبه ما كان سائداً فى بعض الدول المسيحية الأوروبية ، إذ كانت تحرم الزواج بين أولاد الأعمام والعيات ، والأخوال والخالات ، وما زال العرف الأوروبى — بعد إباحة الزواج بهن — يفضل غيرهن عليهن<sup>(١)</sup> .

والسبب الذى زين للعرب أن يغتربوا هو عقيدتهم أن الاغتراب يقوى النسل جسمياً وعقلياً وأن الاقتراب يضعفه ، فهل هذا صحيح ؟ نعم لأنه إذا كان فى الأسرة ضعف موروث ، فإنه يتفاقم .

وقد تنبه القدماء لهذا ، يقول الجاحظ : « ورأينا الخلاسى من الناس — وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء — ، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومشمريه<sup>(٢)</sup> » .

وذهب أبو العباس — وكان يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع — إلى أنه لا يكون الخط إلا فى نتاج شكلين متباينين ، فالتقاؤهما هو إلى كسير المؤدى إلى الخلاص ، وهو إن تزواج بين هندية وخراسانى ، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز<sup>(٣)</sup> .

وقد دلل على صواب ذلك أبو حيان التوحيدي بأن تراب الأرض إذا حوّل وقبّ زكت الزروع . فإذا كان الاغتراب يؤثر من التراب إلى التراب فالأولى أن يؤثر الإنسان فى الإنسان بالاغتراب ، لأن الإنسان أيضاً من تراب<sup>(٤)</sup> .

ثم جاء العلم الحديث فعزز ما عرفه العرب بالتجربة ، ذلك بأن الوراثة فى رأى كثير من العلماء أعظم مؤثر فى الحياة ، بل هى مجرى الحياة نفسه ، لأن كل كائن حى تتاج أبوين<sup>(٥)</sup> . وما أصدق قول منتانى : يالها من قوة خطيرة

(٢) الحيوان ١ / ١٥٧ .

(١) الأسرة والمجتمع ٤٧ .

(٤) الإمتناع والمؤانسة ١ / ٩٥ .

(٣) الحيوان ١ / ١٤٨ .

The Science of living things. Heredity By Eldon (٥)

Moore P. 455

تلك القطرة المنوية الدقيقة التي تتكون منها ، فتنقل إلينا صفات آباءنا الجسمية وأفكارهم وميولهم<sup>(١)</sup> .

وليس بين العلماء شك في انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد ، فإذا تزوج اثنان أحدهما أبيض الشعر والآخر أحمر الشعر نسلًا وليدًا كُمِيت الشعر . وإذا تزوج من هذا النسل اثنان نسلًا واحدًا أحمر الشعر واثنين كميتين وواحدًا أبيض ، أى أن اثنين نزعا إلى الجدين واثنين نزعا إلى الأبوين . وقد انتهى مندل Mendel من بحوثه إلى أن كلا من الأبوين يمنح الطفل خلاياه ، وأن خلاياهما تصطحب في طفلهما اصطحابًا متقاربا ، وما الطفل والكائن الحى إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة في الأب والأم<sup>(٢)</sup> . ولقد تظهر الصفات الوراثية في السلالة البعيدة بعد أن اختفت أجيالا ، وهذه هي الوراثة غير المباشرة<sup>(٣)</sup> .

وكثير من العلماء على أن الصفات العقائية والخلقية تورث أيضا ، سواء منها الصالح والطالح ، كالكداء والحلم والكرم والورع ، وكالجنون والعتة والجبن والخلج المفرط والميل إلى العبارة أو الانتحار<sup>(٤)</sup> .

وإذا فقد كان العرب على صواب في إشارتهم الاغتراب في الزواج . يقول العالم النفسى إلدن مور Elden moore ، يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه أو عمته أو خاله أو خالته ؛ لأن هذا الزواج الداخلى قد يسبب ضعفاً في الجسم أو العقل ، أو يجر بعض الأمراض كالسل وغيره . والسبب الذى يوجب الحذر في الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدي الصحة والعقل كان النسل مثابهما ، وإذا كانا ضعيفي الجسم أو غيبين أو بهمانقص ما نسلًا أولادًا ضعافًا أو مُخَدَّجِينَ<sup>(٥)</sup> .

(١) في التربية ١٥٥ على عبد الواحد .

(٢) The Science of living things. p. p. 466-467

(٣) Ebid P. 470 (٤) في التربية ١٣٤ .

(٥) The Science of living things, P. 484

وقد تبين مما سبق أن الصفات الموروثة بعضها مباشر يرجع إلى الوالدين ، وبعضها غير مباشر يرجع إلى الأجداد ، فالحيطة تقضى بإبشار الزواج الخارجى نجوة من تأثير صفات مستكنة مجهولة تضرب إلى الأصول .

أما الخلاسيون « فمن الخطأ الزعم أنهم يحملون أسوأ صفات الجنسين ، لأن الدراسة تبين أنهم أحماء وأقوياء ، كالجالية الصينية الإنجليزية في ليفر بول وبعض جزر الهند الصينية <sup>(١)</sup> .

على أن لاغتراب العرب بواعث آخر ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف . والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الأحدثه ، ثم إن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جماهن وجاذبتهم ، لأنه ألف أن يراهن ، ولكن بعد الغريبات عنه يطفى عليهن سحرا وجاذبية .

وقد ذهب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى تعليل آخر ، فذكر أن السبب في ضعف الولد من القرية أن شهوة أبيه إلى أمه ضعيفة ، لأن الإحساس بالنظر واللمس يقوى بالأمر القريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، ولا تنبعث به الشهوة <sup>(٢)</sup> .

ولكن هذا التعليل لا يقره العلم كما سبق ، ثم هو مردود بأن الرجل يتزوج الغريبة ويألفها بعد حين ، كما كان يألف القرية قبل الزواج .

لم يقف اغتراب العرب عند الزواج من قبيلة أخرى ، بل تعداه إلى الزواج من أم أخرى ، وأنا أريد بالزواج هنا الاتصال بين الرجل والمرأة .

١ — فكانت الزوجة في كثير من الأحيان حبشية ، وكان للعرب ميل خاص إلى الحبشيات ، يدل على ذلك قول أبي حازم المدني :

Ebid. P. 483 (١)

(٢) باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ٢٢ .

ومن يك معجبا بينات كسرى فإني معجب بينات حام  
وقول الأصمى لرجل : أى الرجال أخف أراوفا ؟ قال : الذين أعرقت  
فيهم السودان . وقول على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطاعها فعلى  
مهرها <sup>(١)</sup> . وساعدهم على هذا كثرة الإماء من الحبشة ، وحسن رأيهم فى  
الحبشيات ، حتى لقد كان اليمينيون يؤثرون الحبشيات وبنات الحبشيات  
فى زواجهن <sup>(٢)</sup> .

ولم يكن هذا الميل ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيراً من  
العرب فى الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنترة زبيدة وهى أمة حبشية <sup>(٣)</sup> ،  
وأم خفاف بن عُمَيْر أمة سوداء اسمها نذبة وإليها نسب <sup>(٤)</sup> . وكانت بركة أم أيمن  
مولاة النبی صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد  
الخرزجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبی من زيد بن حارثة فولدت أمة <sup>(٥)</sup> ،  
وهناك بركة غيرها تكنى بأُم أيمن أيضاً ، وهى حبشية كانت خادماً لأم حبيبة ،  
وقد ترجم لها ابن حجر <sup>(٦)</sup> ، ويذكر صاحب المحرر عدة من الحبشيات زوجات  
وأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف ، وولدت فضلة بن هاشم ونفيل  
بن عبد العزى وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حبة كانت لجابر بن حبيب ،  
وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب  
بقوله يا ابن السوداء ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من  
قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ،  
وأم معمر بن عثمان التيمى ، وأم المتلمس الضبي ، وأم عثمان بن الحويرث الخ <sup>(٧)</sup> .

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٠ .

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥ .

(٣) الأغاني ٧ / ١٤١ والمحرر ٣٠٦ .

(٤) الأغاني ١٦ / ١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢ .

(٥) الإصابة ٨ / ٣١٢ . (٦) الإصابة ٨ / ٢٧ .

(٧) المحرر لابن حبيب ٣٠٦ - ٣٠٩ .

ب - وتزوجوا بروميات ، كسمية ، فمى رومية الأصل سبأها اليشكري ووهبها للحارث بن كلدة ، وكان يطؤها تلك اليمين ، فولدت له نافعاً ثم نفعياً ، ثم وهبها لزوجته صفية الثقفية ، فزوجتها عبداً رومياً لها يقال له عبید ، فولدت له زيادا ، فأعتقته صفية<sup>(١)</sup> ، ثم خلف عليها الأزرق ، فولدت له سامة<sup>(٢)</sup> .

ج - لكنهم لم يتزوجوا بفارسيات ، لأن الفرس كانوا لا يزوجون بناتهم للعرب في الجاهلية<sup>(٣)</sup> ، ولكن بعض الإماء والقيان كن فارسيات ، وكن يستولدن . وقد ألف علي بن محمد المدائني كتاباً سماه ( كتاب من تزوج مجوسية<sup>(٤)</sup> ) .

وكأنما أراد العرب أن يثأروا في العصر الأموي لترفع الفرس عليهم في الجاهلية ، فلم يرتضوا الفرس أزواجاً لبناتهم ، تحقيراً لشان الأعاجم ، كما سيحىء في كفاءة الزوج . ثم انكسب المسلمون على الزواج بالفارسيات في العصر الأموي والعباسي ، حتى لتجد كثيراً من الخلفاء والأمراء من أمهات غير عربيات<sup>(٥)</sup> .

د - على أن بعضهم عاب الزواج بالنبطيات ، يدل على ذلك أنه كان في شهم بن ذى النابين فشل وضعف رأى ، فأثى أرض النبط في نفر من قومه ، فهوى جارية نبطية حسناء ، فتزوجها ، فنبهه قومه ، وقال أخوه محارب :

لم يَغْدُ شَهْمُ أَنْ تَزُوجَ مِثْلَهُ      فَبِمَا كَشِيهْمَةَ عَلَاهَا شِيهِمُ  
وَرَسُولُهُ السَّاعِي إِلَيْهَا تَارَةً      جَعَلَ وَطُوراً عَضْرَ فُوطٍ مُنَاجِمُ  
ولم يكن في قومه إلا ساخر به عائب له<sup>(٦)</sup> . ولعل مراد ذلك إلى أن العرب كانوا يرون النبط أهل زراعة واستقرار وخضوع للحكام<sup>(٧)</sup> ، ولا يدينون بعصبية

(١) الإصابة ٨ / ١٩ (٢) الإصابة ٨ / ١١٤

(٣) مروج الذهب ١ / ١٩٦ (٤) معجم الأدباء ١٤ / ١٣٣

(٥) الخبر لابن حبيب ٤٥ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أمه فارسية . إبراهيم ابن الوليد بن عبد الملك أمه أم ولد . مروان بن محمد أمه كردية . أبو جعفر المنصور أمه بربرية . موسى وهارون ابنا الرشيد أمهما جرشيبة . المأمون أمه باذغسية الخ . . .

(٦) مجمع الأمثال ١ / ١٥٥ شهم : قنفذ . جعل : دوبة كالخنفساء . عضر فوط : ذكر العفء وهو كدام أبرص ، وي زعمهم أنه من دواب الجن وركائهم .

(٧) هؤلاء غير الأنباط الذين كانت لهم دولة بالشام .

كما يدين العرب في الجزيرة ، ولا يعترفون بأنسابهم مثاهم . يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب: تعلموا الأنساب، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال : أنا من قرية كذا<sup>(١)</sup> وقوله : تَمْعَدُوا ولا تستنبطوا ، أى تشبهوا بَمَعَدٍ ، ولا تشبهوا بالنبط في سكناها واتخاذ العقار والمالك . ويدل على ذلك أن رجلا قال لآخر : يانبطى . فقال لاحد عليك ، كلنا نبط . يريد الجوار والدار دون الولادة . وفي كلام أيوب بن القريّة : أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا<sup>(٢)</sup> .

### الزوج المكفء في نظر المرأة وآلها .

بالغ العرب في تخيير الأزواج لبناتهم ، ودققت الفتيات في اصطفاء أزواجهن ، كما تحرى الرجال - فيما سبق - زوجات متميزات بصفات خاصة .

وكانت الفتاة وآلها يهشون المخاطب المكفء ويابون خطبته ، ولا يردونه . بذلك نصح حصن بن حذيفة بن بدر أبناءه في قوله : « أنكحوا الكفء الغريب ، فإنه عزّ حادث<sup>(٣)</sup> » وأوصى قيس بن زهير النمر بن قاسط بعد أن تزوج منهم وجاورهم بقوله : « لا تردوا الأكفاء عن النساء فتخرجوهن إلى البلاء ، فإن لم تجدوا الأكفاء تخير أزواجهن القبور<sup>(٤)</sup> » وقال الأحنف بن قيس : ثلاثة لا أناة فيهن عندي . قيل : وما هن يا أبا بحر ؟ قال : .... وأن تنكح الكفء أيتمك<sup>(٥)</sup> » وكان يقال : لأففى تحكك في ناحية بيتى أحب لى من أيم رددت عنها كفئا ، وما بعد الصواب إلا الخطأ ، وما بعد منعهن من الأكفاء إلا بذهن للمستغلة والغشاء<sup>(٥)</sup> .

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ .

(٢) لسان العرب مادة نبط .

(٣) أمالى المرتضى ٢ / ١٦٨ .

(٤) العقد الفريد ٣ / ٢١١ وأمالى المرتضى ١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٩٩ .

أما الشروط التي راعتها المرأة وراعاها قومها في الزوج فإنها تدور كلها حول الكفاءة لهذه المصاهرة .

١ - فالزوج الشاب أثير مستحب ، لأنه أدنى إلى الزوجة سنا ، وأشبه بها خلقا وميلا ، ولأنه في ريعانه وعنفوانه . لذلك رفضت الخنساء أن تتزوج بدريد ابن الصمة لما خطبها ، لأنها تبينت أنه هرم ، ولم يثنها أبوها عن رفضها<sup>(١)</sup> . وحاول أخوها معاوية - وكان صديقا لدريد - أن يرغبها فما استطاع ، وفي ذلك تقول :

أَتُكْرَهُنِي - هُبْلَتَ - عَلَى دُرَيْدٍ      وَقَدْ أَصْفَحْتُ سَيِّدَ آلِ بَدْرِ  
مَعَاذَ اللَّهِ يَرْصَمُنِي حَبْرُ كِي      قَصِيرُ الشَّبْرِ مِنْ جُشَمِ بْنِ بَكْرِ<sup>(٢)</sup>  
فَغِيظُ دَرِيدٍ وَهَجَاهَا ، وَتَمْنَى أَلَا تَتَزَوَّجَ زَوْاجَا سَعِيداً<sup>(٣)</sup> .

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمة بن خصفة الطائي - وكان الحارث شيخاً - قال علقمة لأم الجارية : أريدى ابنتك على نفسها . فقالت لها : أى بنية أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح ، الواصل المنساح ، أم الفتى الواضح ؟ قالت : لا بل الفتى يا أماء :

إِنَّ الْفَتَاةَ تَحِبُّ الْفَتَى      كَحُبِّ الرِّعَاءِ أَنْيَقَ الْكَلَا

ولكن أمها لم تزل بها حتى غلبتها على أمرها ، فتزوجت الحارث . وبينما هو ذات يوم جالس وهى إلى جانبه أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفست صعداء ، ثم بكيت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى والشيوخ الناهضين كالفرخ .

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٦ .

(٢) ديوان الخنساء ١٢٠ أصفحت : رددت : سيد آل بدر : كان زعيمهم خطبها فردته . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيف الرجلين يكاد يكون مقعداً . قصير الشر : متقارب الخطو . يرصمنى يتزوجنى .

(٣) الأغاني ١١/٩ و ١٣٨/١٣ ومنتهى الطالب ٣٢٤ مخطوط .

فقال لها : أما وأبيك لرب غارة شهدها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فالحق بأهلك فلا حاجة لي فيك . وقال :

تهزأت بي أن رأيتني لابساً كبيراً      وغاية الناس بين الموت والكبر  
فإن بقيت لقيت الشيب راغمة      وفي التعرف ما يمتضى من العبر  
عنى إليك فإني لا يوافقتني      عور الكلام ولا شرب على الكدر<sup>(١)</sup>  
وودت بنت ذى الأصبع العدواني أن يكون لها زوج شاب :

ألا ليت زوجي من أناس ذوى غنى      حديث الشباب طيب الريح والعطر<sup>(٢)</sup>  
٢ — وأن يكون الزوج حسن العشرة ، حذباً على الزوجة ، رفيقاً رقيقاً ،  
وهن قد أعلن ذلك في أحاديثهن ، جاء في حديث نسوة من بنى سعد قول واحدة  
منهن : « خير الرجال الحظي الرضى القنوع ، غير الحظال »

وقول ثانية : « بل خير الرجال الوفي السني الذي يكرم الحرّة ، ولا يجمع  
الضرة » ، وقول ثالثة : « بل خير الرجال الغني المقيم الراضى لا يلوم<sup>(٣)</sup> »  
وتحدثت بنات ذى الإصبع العدواني عن الصفات التي تتمناها كل منهن في زوجها  
حديثاً طويلاً<sup>(٤)</sup> يعيننا منه الآن قول الكبرى :

ألا ليت زوجي من أناس ذوى غنى      حديث الشباب طيب الريح والعطر  
طيب بأدواء النساء كأنه      خليفة جان لا ينام على وتر  
وإن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحاً باسم الثغر لتجد الأنس في قبره ،  
والراحة في عشرته . قيل لابنة الخس : ألا تتزوجين ؟ قالت : بلى ، لا أريده أخا

(١) عيون الأخبار ٤/٤٨ وجهرة الأمثال ١/١٨٣ وجمع الأمثال ١/١١٠ والفاخر

للسكوفي ٨٩ ججاج : سيد كريم (٢) الأغاني ٣/٩٤ .

(٣) الفخر ١٩٣ وجهرة الأمثال ٢/١٣٣ الحظال : المقتدر على أهله .

(٤) الأغاني ٣/٩٤ وتهذيب السكامل ١/٣٠٥ وجمع الأمثال ١/٢٩٣ وأمال المرتضى

١٧٧ وأخبار النساء لابن القيم ٤٨ وجهرة الأمثال ١/٢٢٥ .



فلان ولا ابن فلان ، ولكن أريده كسوبا إذا خرج ، فحسبوا إذا أتى <sup>(١)</sup> .  
وما زالت هذه نظرتها إلى زوجها في الإسلام ، فإنه لما خطب عمر أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — بعد مقتل زوجها أبان بن سعيد بن العاص ابن أمية — أبت فقيل لها : لم ؟ قالت : يدخل عابساً ويخرج عابساً . ثم خطبها الزبير ابن العوام ، فأبته ، فقيل لها : لم ؟ قالت : ليس لزوجته منه إلقضاء حاجته ، ويقول كنت وكان وكان وخطبها على فقالت : ليس للنساء منه حظ . وخطبها طلحة فرضيته ، قالوا لها : وكيف ذلك ؟ قالت : إني عارفة بخلائقه ، إن دخل ضاحكاً ، وإن خرج بساماً ، إن سألت أعطى ، وإن سكت ابتدأ ، وإن عملت شكر ، وإن أذنبت غفر <sup>(٢)</sup> .

وهذه الصفات التي جاءت في حديث بنات سعد وبنت ذى الإصبع وابنة الحس ، وأم أبان ليست إلا ألواناً من العشرة الحسنة والأخلاق الرضية التي تنس إليها الزوجة في زوجها .

٣ — وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل التي تعارفت عليها العرب ، واقتضتها البيئة من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها ، فهي تؤثره جواداً ، لأن جوده يحقق آماله في حياة ناعمة ، ويكفل له شهرة وسيادة ، قالت إحدى بنات ذى الإصبع :  
ألا ليتني يَمَلَأُ الجِفَارُ لضيفه      له جَفَنَةٌ يَشْقَى بها النِّيبُ والجُرْزُ <sup>(٣)</sup>

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والمناعبة ورجل من النبيت يخطبونها ، فطابت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها في الصباح ما قالوا ، وستعطيني أكرمهم زوجاً لها . وفي الصباح أنشدوها ، وكان من قول حاتم :  
أماوى إن المال غاد ورائح      ويبقى من المال الأحاديث والذكر

(١) عيون الأخبار ١١/٤ (٢) أعلام النساء ١٢/١ .

(٣) النيب : النوق المسنة . الجر : النوق التي تذيب .

فقلت: إن حاتمًا أكرمكم وأشعركم. ثم رضيته زوجًا لها على أن يخلي سبيل امرأته فأبى، فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية وولدت له عديًا<sup>(١)</sup>. وهى تريد أن يكون شجاعا، لتعز بجماعته. وتفخر برهنته، ولتعلو مكانته فى قومده، فلا ينام على وتركها قالت بنت ذى الإصبع، وكما قالت امرأة فى وصف زوجها: ليث عريضة، وجهل ظمينة، وظل صخر، وجوار بحر<sup>(٢)</sup>. وفى رثاء الخنساء لأخيها صخر نموذج للرجل الأثير عند النساء بكرمه وشجاعته وسيادته، وطالما رددت هذه المعانى كقولها:

جَلَدٌ جميل الحياء كامل ورع      وللحروب غداة الزوع مسعار  
مثل الرديني لم تنفد شببته      كأنه تحت طي البرد أسوار  
عبل الذراعين قد تُخشى بديته      له سلاحان: أنياب وأظفار<sup>(٣)</sup>

وقد سئلت ابنة الخلس أى الرجال أحب اليك؟ فقلت: السهل النجيب، السمح الحسيب، النذب الأريب، السيد المهيّب. وأفضل منه الأهيف الخفيف الأنيب العياف، المفيد المتلاف، الذى يخيف ولا يخاف<sup>(٤)</sup>. وذكر أبو على القالى حديثًا طويلًا بين ثلاث فتيات وصفن ما يحببن من أزواجهن، ماخصه أنهن يتطلبن فى الزواج الكرم والشجاعة<sup>(٥)</sup>.

لذلك هجاء عمر بن الطفيل أناسًا بأنهم حقراء لا يخطبون بنات السادة، ولا يقبل أحد على الخطبة منهم:

(١) الأغاني ٩٩/١٦ - ١٠١ وذيّل الأمالى ١٥٤.

(٢) مجالس نعلب ٤٥/١.

(٣) ديوان الخنساء ٨٠ مسعار: مشعل. أسوار: سوار كما فى شرح الديوان، وأرى أنه فارس الفرس، لأن هذا أليق بمدحه.

(٤) ذيّل الأمالى ١١٩ الأهيف والخفيف: الضامر البطن المذيق المخصر. الأنيب العياف: الأبنى للضميم.

(٥) الأمالى ١٦/٣.

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم وتثيب أيّتهم ولما تُخطَب<sup>(١)</sup>  
وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها، لأنه فر في  
الحرب وتركها تسبي<sup>(٢)</sup>. ورأت امرأة زوجها قد قبع في منزله والرجال يقتاتلون  
عدوهم، وهي تنظر إليهم معجبة، فضربها، فقالت أغيرة وجبنا، فذهبت مثلاً<sup>(٣)</sup>.  
وفي حديث بن عمر بين الخطاب وعمرو بن معد يكرب قول عمرو: كنا نغير على  
بني مالك، فأتيننا على قوم سراة، فجلست في موضع أسمع كلامهم، وإذا بجارية  
قد خرجت من خيمتها، وجلست بين صواحب لها، ثم دعت وليدة من ولاندها  
فقالت: ادعى لي فلانا. فلما جاء قالت له: إن نفسي تحدثنى أن خيلاً تغير على  
الحى، فكيف أنت إن زوجتك نفسى؟ قال: أفعّل وأصنع، وجعل يصف  
نفسه ويفرط، فقالت له: انصرف حتى أرى رأيي. وأقبلت على صواحبها  
وقالت: ما عنده خير. ثم استدعت آخر، وخاطبته فأجابها كجواب الأول،  
فصرفتة. ثم قالت لوليدها: ادعى لي ربيعة بن مكدم، فدعته، فقالت له مثل  
قولها للرجلين، فأجابها: إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه، ولكنى إن لقيت  
أعذرت، وحسب المرء غناء أن يُعذر. فقالت له: قد زوجتك نفسى، فاحضر  
غداً مجلس الحى ليعلموا ذلك<sup>(٤)</sup>.

لذلك كان الرجال كثيراً ما يتوجهون بفخارهم بالشجاعة إلى المرأة، ويطلبون  
منها أن تسقيهم الخمر جزاء وتقديراً، قال المرقش الأكبر:

يا ذات أجوادنا قومي خيننا وإن سقيت كرام الناس فاسقيننا  
وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوماً سراة خيار الناس فادعيننا<sup>(٥)</sup>  
وقال عمرو بن كلثوم:

(٢) أشعار النساء للعرزبانى ٥٧ - ٥٩ .

(١) ديوان عامر القصيدة ٨

(٣) المبدأى ٤/٢ .

(٤) الأغاني ١٥/١٣٢

(٥) المفضليات ٢/٢٣١ .

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا<sup>(١)</sup>  
وقال الدهان بن جندل بعد انتصار العرب في ذي قار :

إن كنت ساقيه يوماً على كرم فاستقى فوارس من ذهل بن شيبانا  
واسقى فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكاً وريحاناً  
وقال بكر بن الأصم :

إن كنت ساقيه المدامة أهليها فاستقى على كرم بنى همام  
وأبا ربيعة كلها وتحاماً سبقوا بغاية أفضل الأقسام<sup>(٢)</sup>  
ولقد يشهد لها الرجل على مفاخره ، كقول أمية بن الصلت :

فإما تسألني عنى لبني وعن نسي أخبرك اليقينا

ثقي أني النبيه أبا وأما وأجدادا سموا في الأقدمينا<sup>(٣)</sup>  
٤ — ولقد تؤثر الفتاة أن تتزوج فتى من عشيرتها ، إيثاراً لقرنها من آ لها ،  
ورغبة في أن تقيم يوطنها ، وتهيبا من معاشرة من لا تعرف . ولقد يكون السبب  
أيضاً كما قرر ولها وزن Wellhausen أن النساء كن يحتمين بعشيرتهن حتى وهن  
متزوجات ، وكان أقاربهن يحمونهن ويدافعون عنهن . وفي الحكومة الجمهورية  
بغير حاكم — كما يحلو لولها وزن دائماً أن يطلق على الحياة السياسية للعرب البداءة —  
كانت القبيلة هي التي تكفل السلام والحماية لأفرادها جميعاً ، وكان الفرد يسعى  
ليحقق أهدافه الخاصة في نطاق لا يعدو على مصالح القبيلة ، والمرأة عضو في هذا  
الاتحاد ، فيجب على القبيلة أن ترعى أمنها وسلامتها وحقوقها ، حتى بعد أن تتزوج  
في قبيلة أخرى<sup>(٤)</sup> .

ويدل على إيثارهن للزوج القريب قول إحداهن :

(٢) الأغاني ٢٠ / ١٣٨ .

(١) شرح القصائد العشر ٢١٨

(٣) جبهة أشعار العرب ١٨٧ .

(٤) Women in the Aiyam Al Arab. P. 66

لصوق<sup>(١)</sup> بأكباد النساء ، وأصله إذا ما انتمى من سِرِّ أهلى ومحتدى  
وقول بنت أوس بن حارثة الطائى لأبيها إذ استشارها فى أن يزوجه بالحارث  
ابن عوف : لست بابنة عمه فيرعى رحى ، وليس بجارك فيستحى منك<sup>(٢)</sup> .  
ونصحت أخت أختها ألا تقبل غريبا زوجها ، وقالت لها : إن شر الغريبة يُعلَن  
وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغرك الأجسام<sup>(٣)</sup> . وجاء فى قول  
اخنساء لأبيها وقد رفضت دريد بن الصمة زوجا : أترانى تاركه بنى عمى مثل  
عوالى الزماح ، وناكحة شيخ بنى جُشم<sup>(٤)</sup> .

وقد نمت امرأة عامرية من أبيها وأخيها أنهما زوجها فى عشيرة أخرى :  
لا تحمدن الدهر أخت أخا لها ولا ترثن الدهر بنت لوالد  
هم جعلوها حيث ليست بحرة وهم طرحوها فى الأفاصى الأبعد<sup>(٥)</sup>  
ولما خطب عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة - وكان أبوها نصرانيا -  
أمر ابنه ضبا - وكان مسلما - أن يتولى أمر زواجها ، فزوجها عثمان ، فلما حملت  
كرهت الغربة ، فقالت لأخيها ضب :

ألست ترى يا ضبُ بالله أننى مصاحبة نحو المدينة أُرْكبا

إذا قطعوا حَزْناً تحت ركبهم كما زعزعت ريح يراعا مثقبا

لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما يغنى الخباء المطنبا<sup>(٦)</sup>

قضى الله حقاً أن تموتى غريبة ييثرب لا تلقين أما ولا أبا<sup>(٧)</sup>

ثم بعد ذلك جاءت ميسون بنت بحدل الكلبية ، وكانت بدوية ، فتزوجها  
معاوية ، وأقامت بالشام فى محبوبحة الملك وخفض العيش ونضرة الحضارة ، وكانت

(١) الأغاني ٩/١٤٢ (٢) بجمع الأمثال ١/١٢٤ .

(٣) الأغاني ٩/١١ والشعر والشعراء ١٢٢ .

(٤) تهذيب الكامل ٢/١٢٤ وأشعار النساء للمرزبانى . مخطوط .

(٥) الأغاني ١٥/٦٧ ورسالة الحنين إلى الأوطان ٢٢ وعيون الأخبار ٤/٧٦ .

(٦) معجم البلدان ٨/٩٩٩ .

قد حلت بولده يزيد ، فلم تتجالد على انتظار الوضع ، بل أخذت تهتف بقصيدة تقول في آخرها :

خشونة عيشتي في البدو أشمهي إلى نفسي من العيش الطريف  
فما أبغى سوى وطني بديلاً لحسبي ذلك من وطن شريف<sup>(١)</sup>  
وكثيراً ما كانت المتزوجات في غربة يتغنين بالحنين إلى أوطانهن ، تقول  
امرأة شيبانية كانت متزوجة في بني يشكر :

أصبحت في آل الشقيق غريبة على الذي لا عيب فيه معيب  
وإن زمانا ردى في عشيرتي إلى وإن لم أرجئه لحبيب  
فسمعا زوجها ، فردها إلى قومها<sup>(٢)</sup> .

وكان الخاطب من قومها يحتاج إذا ما آثرت عليه غريباً . فخطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وتزوجت غريباً ، فدعا عليها بالأتسعد ، والأتنسل ، وأن يكون زوجها هرماً كثير الإماء سيء العشرة ضروباً لزوجاته ، قدرا قبيح الصورة :

ونبتتها أحرمت قومها	لتنكح في معشر آخرينا
فإما نكحت فلا بالرفاء	إذا ما نكحت ولا بالبنينا
زوّجت أشمط في غربة	تجنّ الحليلة منه جنونا
خليل إماء يرا وخنه	وللمحصنات ضروباً مهينا
إذا ما نقلت إلى داره	أعد لظيرك سوطاً متينا
وقلبت طرفك في شاق	تظل الحمام عليه وكونا
يُشْمِكِ أخبث أضراسه	إذا مادنوت فتستنشقينا
كأن المساويك في شدقه	إذا هن أكرهن يقامن طينا

(١) حاسة المالددين ٢٣٢ مخطوط .

(٢) أشعار النساء للرزباني ٥١ مخطوط .

فأبعدك الله من جارة وألزمك الله ما تسكرهينا<sup>(١)</sup>

٥ — وقد راعت الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً ، لأن العرب كانوا ذوى حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حد الغلو ، يرون أنهم أرقى الأمم وأصفاها ، فليس شعب بكفء لأن يصهر إليهم .

وكان كثير من الأمم يجرى على ذلك ، فالعبريون كانوا يحرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم ، لأنهم اعتقدوا أنهم شعب الله المختار . واليونانيون كانوا لا يزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة بربر ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم . وأيد فلاسفتهم هذه النظرية ، فأرسطو يرى أن اليونان وحدهم مزودون بالعقل والشجاعة ، ومن عداهم من الشعوب ( البربر ) مزودون بالشجاعة وحدها . وكذلك كان الرومان ، فقد أصدر الإمبراطور فالنتيان قانوناً يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية تتزوج بغير روماني<sup>(٢)</sup> .

وتشدد العرب في حظر تزويج غير العربي وإن كان ملكاً . ومن أمثلة ذلك أن النعمان رفض أن يزوج كسرى بن هرمز ابنته حُرقة ، وكان من نتائج هذا الرفض أن قتل كسرى النعمان ، ثم أن قامت حرب ذى قار وانتصر فيها العرب<sup>(٣)</sup> . وإن أقدم عربي على تزويج عِلْج سخر منه العرب واحتقروه ، قال الأسمر الجعفي في هجاء أبي حُمران :<sup>(٤)</sup>

باعوا جوادهم لتسمن أمهم ولكي يعود على فراشهم فتى  
عِلْج إذا ما برَّ غنبا ثوبها وتخاصمت قالت له : ماذا ترى

ولما جاء الإسلام قضى على نزعة العصبية الجنسية ، وأحل محلها الدين في الكفاءة ، نقل عن عمر وابن مسعود وغيرهما — وهو الظاهر من مذهب مالك .

(١) لسان العرب ١٥/١٧ وحاشية الخالدين ٣٥٢ مخطوط والحاشية البصرية ٢٢٤ مخطوط . مارد : حصن أو قصر . وكون : جمع واكن أى جائم يريد أن الحمام يتف على الحصن فلا يذعر لارتفاعه .

(٢) الأسرة والمجتمع ٣٣ - ٣٥ (٣) تاريخ الطبري ٢/١٥٠ .

(٤) الأصمعيات من مجموع أشعار العرب لوليم بن الورد البروسى ٣/١ .

الاعتداد بالدين وحده ، لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » وقوله : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » وغير هؤلاء يعتدون الكفاءة في الدين والحرية والنسب والصناعة <sup>(١)</sup> .

ولكن بعض العرب ظلوا يستمسكون بنعرتهم القديمة ، ففي الإسلام زوج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصارى يحيى بن أبي حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين ألف درهم ، فقال شاعر يعيره :

لعمري لقد جلّت نفسك خَزَية وخالفت فعل الأكرمين الأكارم  
ولو كان جدك الذان تتابعا يسدر لما راما صنيع الألائم  
فرد عليه إبراهيم بقوله :

فما تركت عشرون ألفاً لقائل مقالا فلا تحفل ملامة لائم  
وإن أك قد زوجت مولى قد مضت به سنة قبلي وحبّ الدرام <sup>(٢)</sup>  
وكان يحيى هذا يهودياً فأسلم <sup>(٣)</sup> ، أو كان أبوه يهودياً فأسلم <sup>(٤)</sup> .

وروى أن يحيى هذا خطب لابنيه بنتى مقاتل بن طلّبة بن قيس بن عاصم ، فأجاباه ، فقال الله الأخ بن حَزَن المنقري :

نُبِئت خولة قالت حين أنكحها لظالما كنت منك العار أنتظر  
أنكحت عبيد ترجو فضل مالها في فيك مما رجوت الثرب والحجر  
لله در جياذ أنت سائسها برذنتها وبها التحجيل والغرر <sup>(٥)</sup>  
وكرر هذا الهجاء <sup>(٦)</sup> .

وفي العصر الأموي عيّر الكميّ اليمانيّن بأنهم زوجوا بناتهم للفرس والعجش

(١) عيون المسائل ٥٩ .

(٢) السكامل المبرد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤ .

(٣) عيون الأخبار ١٦/٤ (٤) الأغاني ٣٦/٩ .

(٥) عيون الأخبار ١٦/٤ (٦) الأغاني ٣٦/٩ .



في العصر الجاهلي ، وافتخر بأن النزاريين لم ينحدروا إلى هذا الدرك :  
وما ضربتُ فحولَ بنى نزار قَوَالُحْ من فحول الأعجمينا  
وما حملوا الحمير على عتاق مطهمة فيلفوا مُبغَلِينَا  
بنى الأعمام أنكحنا الأيامي وبالآباء سَمِينَا البنينا<sup>(١)</sup>  
وكان عقيل بن عُلَفة شديد العجرفة والبذخ بنسبه في بنى مرة ، لا يرى أن  
له كفتاً ، وقد صاهرته قريش وخلفاؤها وأشرافها ، منهم يزيد بن عبد الملك ،  
وسامة بن عبد الله بن المغيرة ، ويحيى وخالد والحارث أبناء الحكم بن أبي العاص<sup>(٢)</sup>  
ولما خطب إليه عبد الملك بن مروان لأحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجة ،  
قال : أما إذ كنتَ فاعلا فجنبتني هجناءك<sup>(٣)</sup> . فهو لا يرفض غير العربي فحسب ،  
وإنما يرفض من أمه غير عربية . وكذلك يرفض أحد الأغنياء لأنه هجين ،  
وإن كان ذا مال كثير :

لعمري لئن زوجت من أجل ماله هجيننا لقد حُبَّتْ إلى الدراهم  
أأنكح عبداً بعد يحيى وخالد أولئك أكفأى الرجال الأكارم  
أبى لى أن أعطى الدنية أننى أمدُّ عنانا لم تحنه الشكائم<sup>(٤)</sup>  
٦ — وهم ترفعوا عن تزويج العبد ، والحر المنحدر من عبد .

ولم ينفردوا وحدهم بهذا الترفع ، فكذلك كان العبريون واليونانيون  
والرومان<sup>(٥)</sup> ، وما زالت آثار من هذا النظام بأمریکا . يقول فوليه Alfred  
Fouillée تحدث مشاهد في الولايات المتحدة لا تجلب نفراً للأمريكان ، وذلك

(١) العقد الفريد ٣/٢٣٣ الفحول : الرجال البيئو الفعولة . قوالح : من قلح النحل  
إذا هدر . مبغلين : مهجنين .

(٢) الأغاني ١١/٨٢ .

(٣) تهذيب الكامل ١/٢٦٨ وأخبار النساء لابن قيم ٥٤ وعيون الأخبار ١٢/٤ .

(٤) الأغاني ١١/٨٦ .

(٥) أساس العدالة في القانون الروماني ٢٩ والأسرة والمجتمع ٣٣ - ٣٧ .

أن الزوج يحبون النساء البيض حباً جماً ، ولقد يشور بهم هذا إلى أن يرووا شهوتهم بالعنف ، ويقضى القانون بأن يطلّى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطّر الحكومة السود الذين يعيشون فى المنطقة التى حدث فيها الجرم أن يشهدوا إحراق رفيقهم ، وهم لا يفعلون ذلك ولا قريباً منه بالبيض إذا ما ارتكبوا هذا الجرم <sup>(١)</sup> .

نعم هنالك فى أمريكا يعيش وسط مائة مليون من الرجال والنساء النازحين من أوربا اثنا عشر مليوناً من أصل إفريقى ، وبين البيض والسود حاجز حصين من اللون يحرص البيض على بقائه وصيافته ، كما يحرص غيرهم على حدود مملكته ، والصلات الاجتماعية محظورة على جانبي هذا الحاجز العنصرى ، وإذا ما حاول أحد من السود أن يتخطى هذا الحاجز ثار البيض <sup>(٢)</sup> .

ومهما يكن العرب قد أحسنوا معاملة العبيد فإنهم فى نظرهم عبيد ، فقد كان الشنفرى أسيراً عند بنى شِبابَة ، فأعطوه لبنى سُلامان ، وعاش فيهم كأنه أحدهم وكان السلاّمى اتّخذهُ ولدًا له ، فقال الشنفرى لبنت السلاّمى : يا أختى اغسلى رأسى . فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً ، وسأل حتى علم أنه من الأواس بن الحجر ، فقال :

ألا ليت شعرى والتلهف ضلة بما ضربت كفّ الفتاة هجينها  
ولو علمت قُعمُوسُ أنساب والدى ووالدها ظلت تفاخر دونها  
أنا ابن خيار الحِجر بيتاً ومنصباً وأُمى ابنة الأحرار لو تعرفينها <sup>(٣)</sup>

فإذا كانت ترفضه أخاً متبنى ، فهى أشد رفضاً لأن يكون زوجها ، لذلك خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وأرجح أنها ردتْه لأن أباه ابن

(١) الإسلام والحضارة العربية ١٤/١ .

(٢) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٢٣ Sir Arthur. Keith

(٣) الأغاني ٨٧/٢١ قعموس : لقب للمرأة الدمية .

أمة ، ففضب شقيق ، وتمنى لها شقوة في زواجها كما سبق <sup>(١)</sup> .

وجاء الإسلام فجعل الحرية شرطاً ، والكفاءة فيها كالكفاءة في الإسلام خاصة بالمعجم ، لأن العرب لا يُستترقون ، إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، فالأنجمي الرقيق ليس كفتناً للحرية ، والحر بنفسه ليس كفتناً لمن لها أب نشأ في الحرية ، ومن له أب لم يسترق ليس كفتناً لمن لها أبوان ، ومن له أبوان كفء لمن لها آباء <sup>(٢)</sup> .

وظلت بعض النساء في الإسلام وبعض الرجال يتشددون في النظر إلى حرية آباء الزوج ، يدل على ذلك أن نصيباً علق جارية ، ومكنت زمانا تمنيه بالأباطيل ، فلما ألح عليها قالت : إليك عني ، فوالله لكأنك من طوارق الليل . فقال لها : وأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت : ما أظرفك يا أسود . ففاظطه قولها ، فقال لها : هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف العقل . ثم قالت له : انصرف حتى أنظر في أمرك ، فأرسل إليها بهذه الأبيات :

فإن أك حالكا فالملك أحوى      وما لسواد جلدى من دواء  
ولى كرم عن الفحشاء ناء      كبعد الأرض من جو السماء  
ومثلى فى دياركم قليل      ومثلك ليس بعدم فى النساء  
فإن ترضى فردى قول راض      وإن تابى فنحن على السواء  
فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتیان على غيرهما ، وتزوجته <sup>(٣)</sup> .

٧ — ثم إلى ذلك كله لا بد أن يكون الزوج كفتناً للزوجة وقومها عراقية نسب وكرم أصل .

وكان العرب يتشددون في عراقه النسب ، ومساواة الخاطب لهم في الشرف .

(١) لسان العرب ١٥ / ١٧ وحاشية الخالدين ٣٥٢ مخطوط والحاشية البصرية ٢٢٤ مخطوط

(٢) عيون المسائل ٦٤ وكثر المال ٣١٢ / ٢ .

(٣) الأغاني ١ / ٣٥٤ .

ويرفضون من يهبط نسبه ، ويضؤل شرفه . يقول جرير بن كليب - أو جزء ابن كليب - النقعسى إن ابن كوز تطلب الزواج من نساء سادتنا ، لأنه رأى أزمة حلت بنا ، فرددناه فى خزى ، لأنه تجاوز قدره ، ولأننا وإن عضنا الزمان ذوو حفاظ يمنعنا مصاهرة غير الأكفاء :

تَبَعَى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةُ كَاسِمَهَا      لَيْسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنَا لِيَالِيَا  
فَمَا أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ عِنْدَى حِرَازَةِ      بَانَ أَبْتُ مَرْزِيًّا عَلَيْكَ وَزَارِيَا  
وَإِنَّا عَلَى عِضِّ الزَّمَانِ الَّذِى تَرَى      نَعَالِجُ مِنْ كَرِهِ الْخَازِى الدَّوَاهِيَا  
فَلَا تَطْلُبْنَهَا يَا بْنَ كُوزٍ فَإِنَّهُ      غَذَا النَّاسِ مَذْقَامُ النَّبِىِّ الْجَوَارِيَا  
وَإِنِ التَّى حُدُثَتْهَا فِى أَنْوَفِنَا      وَأَعْنَاقِنَا مِنَ الْإِبَاءِ كَمَا هِيَ<sup>(١)</sup>

ومهما تنزل بالعربى نكبات تفقده ماله أو جاهه فإنه يعتز بشرفه الموروث ، ويزن الخاطب وزن المدقق المتحرى ، فان أرغم على تزويجها من غير كفء فى العراقة حزن ، كما حدث للمهلهل إذ نفر عن قومه بعد حرب البسوس ، ونزل فى بنى جَنب - حى من مذحج - فخطبوا إليه ابنته ، فقال : إني طريد فيكم ، فمتى زوجتكم قالوا اقتسروه . وهو يريد أن يتنصل ، ولكنهم أجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها أدما ، فقال :

أَعَزَّزَ عَلَى تَغْلِبٍ بِمَا لَقِيتَ      أُخْتُ بَنَى الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشْمٍ  
أَنكَحَهَا فَقَدَّهَا الْأَرَاقِمَ فِى      جَنَّبَ ، وَكَانَ الْحَبَاءُ مِنْ أَدَمَ  
لَوْ بِأَبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطِبُهَا      ضُرِّجَ مَا أَنْفُ خَاطِبِ بَدَمَ  
لِيسُوا بِأَكْفَانِنَا الْكَرَامَ وَلَا      يَفْتَنُونَ مِنْ عَيْلَةٍ وَلَا عُذَمَ<sup>(٢)</sup>

ولام عميرة بن جُعَل قومه بنى تغلب ، لأنهم يزوجون بناتهم من حقراء النسب :

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ٢٤١/١ .

(٢) أشعار المراقبة ٦٩ وعبون الأخبار ٩١/٣ وشرح الحماسة للمرزوقى ١١٨/١ والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ١٤/٢ أبانين : جبل فى سفحه منازل تغلب . ضرج أنه بالدم : قرع أنه ووجهه بالصا كما يقرع الفحل المهجين إذا تعرض لئاقة كريمة .

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخى سلة قد كان منه سليمان<sup>(١)</sup>  
 ٨ — وقد انفرد الحُصْنُ - قریش ومن دان بدینہا من خزاعة لنزولہا مکة  
 ومجاورتہا قریشاً ، وكنانة وجذيلة قيس وثقيف وعامر بن صعصعة . وكانت لهم  
 مناسك خاصة في الحج - باشرطهم في المخاطب أن يكون على دينهم ، لأنهم قد  
 شددوا على أنفسهم في الدين ، وشددوا على الناس<sup>(٢)</sup> ، فلم يزوجوا بناتهم إلا للحُصْنِ  
 أولم يتحمس في دينه .

ومثل هذا التقيد عام في الشعوب ، ففي الهند لا يصح الزواج بين البرهمنين  
 وغيرهم من الطبقات ، والقوانين اليهودية القديمة تحرم الزواج بين اليهود وأهل  
 الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين<sup>(٣)</sup> .

وفي الإسلام لا يصح زواج مسلمة بغير مسلم وإن كان كتابياً ، ولا يجوز  
 زواج مسلم إلا بمسلمة أو كتابية . على أن بعض الفرق الإسلامية ذهبت إلى  
 تحريم الزواج من الفرق الأخرى . واشتد أبو حنيفة في مراعاة الإسلام ، فذهب  
 إلى أن أقدمية الآباء في الإسلام من مقاييس الكفاءة ، فمن له أب واحد في  
 الإسلام ليس كفئاً لمن لها أبوان ، ولكنه يقف عند حد الأبوين ، فمن له أبوان  
 مسلمان كفء لمن لها آباء .

---

(١) الفضليات ٥٨/٢ شارف : كبير . سلة : سرقة ، أي مسروق النصب . الحاصن :  
 الكريمة العفيفة . سليمان : ولدها .

(٢) الخبر ١٧٩ والقاموس المحيط مادة حمن وإنسان العيون ٢٣٠/١ ومعجم البلدان  
 ١٣٨/٨ وبلغ الأرب ٢٨٩/٢ إذا نسكوا لم يسلثو ستماً ولم يطبخوا أفضاً ولم يدخروا لبناً ،  
 ولم يأكلوا ما طبخوا في الحرم ، ولا يمسون دهننا ولا يطوفون في ثياب أتوا بها من الحل ،  
 وتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها مع اعترافهم أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ،  
 ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، وإنما يطوفون في ثياب الحس ، فإن  
 لم يجدوا طائفوا عراة ، فإن طاف رجل منهم أو امرأته في الثوب الذي جاء به من الحل ألقاه  
 بعد الطواف فلا يمس به ولا ينتفع به ، وكانت العرب تسمى هذا الثوب اللقي واسكن الإسلام  
 أبطل ذلك ( ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ) ( يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد  
 واكلوا واشربوا ولا تسرفوا لأنه لا يحب السرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده  
 والطيبات من الرزق ؟ ) . (٣) الأسرة والمجتمع ٣١ .

وقد بقي الاعتداد بالكفاءة في الحسب إلى الإسلام ، فذهب أبي حنيفة على أن غير العربي ليس كقننا للعربية ، وأن غير القرشي ليس كقننا للقرشية ، اعتماداً على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قریش بعضهم أ كفاء لبعض ، رجل برجل » فلا يصح على هذا المذهب زواج عربية من أعجمي أو قرشية من غير قرشي إلا إذا تنازل أولياؤها عن حقهم في الكفاءة<sup>(١)</sup> .

ولما كتب زياد إلى سعيد بن العباس يخطب إليه ، وبعث له بال كثير قسم سعيد المال بين جلسائه ، ثم كتب إلى زياد : أما بعد فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى<sup>(٢)</sup> .

### مرئيتها في اختيار زوجها

أسلفت أن الرجل كان في خطبته يتحرى مميزات خاصة فيمن يصطفها شريكة حياته ، وأن الفتاة وقومها كانوا يتوخون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة أيضاً ، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام ، ولأنه عشرة بين الزوج وزوجته . وقد استمتعت المرأة العربية بحريتها في اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، ولم يكن للأباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تتجد ، إذ كان للولى أن يزوجها بغير استشارتها ، وكل عقد تبرمه بغير رضاه باطل<sup>(٣)</sup> . ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود .

ولهذا كان مركز المرأة العربية جديراً بأن نشيد به ، وبأن يشيد به المستشرقون ، يقول نيكلسون : كان مركز المرأة ونفوذها في الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيماً ، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن ، وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفي بعض الحالات كن يهبن

(١) عيون المسائل ٦٣ والأسرة والمجتمع ٣٦

(٢) عيون الأخبار ١٧/٤ (٣) المرأة في التاريخ والثرائم ٧٤

أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكن يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أندادا ورفيقات <sup>(١)</sup> .

### ولهذه الحرية مظاهر :

١ — كانت المرأة تختار زوجها ، وتزوج نفسها أحياناً ، فعلت ذلك ماوية بنت عفّز من بنات ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبياني وحاتم الطائي ورجل من النبيت ، وقيل هم زيد الخليل وأوس بن حارثة وحاتم ، وآثرت حاتماً <sup>(٢)</sup> . وفعلت هذا أيضاً امرأة من هذيل من بني سهم إذ خطبها تأبط شراً ، فقال لها قائل : لا تنكحيه فإنه وشيك أن يقتل ، فرفضته ، فقال : وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل إن يلاقى مجتمعا فلم تر من رأي فتيلة وحاذرت تأيّمها من لابس الليل أروعا <sup>(٣)</sup> وكذلك فعلت الرباب من بني ذهل ثم من بني سدّوس ، فقد خطبها خدّاش بن حابس التميمي بعد ما هام بها زمناً ، وكان أبواها يتنعمان لجمالها وميسمها ، ويردان خدّاشا ، فأضرب عنها زمانا ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا ، فاتّهبى إلى محلّتهم وهو يتغنّى بقوله :

ألا ليت شعري يارب متى أرى      أنا منك نُججاً أو شفاء فأشتفي  
فقد طالما عنيتني ورددتني      وأنت صفي دون من كنت أصطفى  
آحى الله من تسمو إلى المال نفسه      إذا كان ذا فضل به ليس يكتفي  
فئنكح ذا مال دميأ ملوماً      ويترك حراً مثله ليس يصْطَفِي  
فعرفت الرباب منطقته ، وجعلت تتسمع إليه ، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خدّاش أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خدّاش أن قد عرفت حاجتك ، فاغدُ على أبي خاطبا ، ورجعت إلى أمها فقالت : هل أتزوج إلا من

(١) Alliterary History of the Arabs. Nickolson. P . 87

(٢) الشعر والشعراء ٧٢ والأغاني ١١/١٠٤ و ١٦/١٠٠

(٣) الأغاني ١٨/٢١٧ وشرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٢ والمرزوقي ٤٩١

أهوى؟ قالت: لا، فما ذاك؟ قالت: زوجيني خدasha. قالت أمها: وما يدعوك إلى ذلك مع قلة ماله؟ قالت إذا جمع المال السيء الفعّال فقبحا المال. فأخبرت الأم أباهما بذلك فرضى<sup>(١)</sup>. وقد سبق ما فعلته المرأة الكنانية حين اختبرت ثلاثة من قومها، وانتقت ربيعة بن مكدّم<sup>(٢)</sup>.

٢ — وكانت كثيراً ما تستشار في زواجها، فلا يستبد به وليها كما كان يستبد الأب العبري واليوناني، فالنساء استشارها أبوها حينما خطبها دريد بن الصمة، لأنها كما قال لدريد: «لها في نفسها ما ليس لغيرها»، فرفضت، مؤثرة بنى عمها. ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها — وكان صديق دريد، وصخر غائب في غزوة — قالت:

تبا كرتي حميدة كل يوم      تما يُولي معاوية بن عمرو  
فإلا أعط من نفسي نصيباً      فقد أودى الزمان إذا بصخر  
أتكرهني — هُبلت — على دريد      وقد أُحرمت سيد آل بدر  
معاذ الله يرصعني حَبْرُكي      قصير الشبر من جُشَم بن بكر<sup>(٣)</sup>

ولما خطب الحارث بن سليل الأسد إلى عاتمة بن خصفة الطائي، قال عاتمة لأم الفتاة أريدی ابنتك على نفسها، فاستشارتها<sup>(٤)</sup> وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائي لما خطب إليه الحارث بن عوف المري، فإنه استشار ابنته<sup>(٥)</sup>. واستشار عتبة بن ربيعة بنته هند لما خطبها أبو سفيان وسُهَيْل بن عمرو<sup>(٦)</sup>، وآثرت هند أباً سفيان فحنق عليها سهيل، وقال:

نَبِئتَ هنداً تَبَرَّ اللهَ سعيها      تَأَبَّتْ وقالت وصفَ أهوج مائق

(١) مجمع الأمثال ١/٤٤٠ (٢) الأغاني ١٥/١٣٢  
(٣) الأمالي ٢/١٦١ والأغاني ٩/١١ و١٣/١٣٨ أحرمت: منعني من زواجه. حبركي: قصير الرجلين أو ضعيفهما. الشبر: الخطو أو الحير والعطاء. يرصعني: يتزوجني.  
(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ ونهاية الأرب ٣/٢١ ومجمع الأمثال ١/١٠٧ والمحاسن والأضداد ١٨٣ وجهرة الأمثال ١/١٨٣  
(٥) بلاغات النساء ١٤٩ والأغاني ٩/١٤٢ (٦) الأمالي ٢/١٠٤



فلم تنسحى ياهند مثلى وإننى لمن لم يمتقنى فاعلمى غيرى وامق<sup>(١)</sup>  
على أن أم الفتاة كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ،  
وتشير عليه ، وتهتدى البنت برأيها . هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، فإنه  
رفض أن يزوج بنته للحارث بن عوف ، ودخل على امرأته مغضباً ، فسألته ،  
فأخبرها ، فقالت له : إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ وأشارت عليه أن يتدارك  
ما كان منه ، ففعل وزوجه ابنته<sup>(٢)</sup> . وكذلك فعلت زوجة علقمة بن خصفة  
الطائي لما خطب الحارث بن سليل بنتها<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن المرأة كانت أحياناً  
تغلب زوجها على أمره ، فقد خطب إلى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، ومازالت  
به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنا القرا فسنرى<sup>(٤)</sup> .

### الإسلام وتزويج المرأة نفسها

١ — جاء الإسلام ، وكان لا بد من التشريع الذى يصون سمعة الأسرة ،  
فاختلف الفقهاء فى تزويج البالغة العاقلة نفسها ، فذهب الشافعى ومالك إلى منعها  
من مباشرة عقد زواجها وزواج غيرها ، وعليه كثير من الصحابة مستدلين بأدلة ،  
منها قوله عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي » وقوله : « أيما امرأة نكحت  
بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل » وقوله : « لا تزوج المرأة المرأة ،  
ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » .  
وذهب أبو حنيفة إلى إثبات هذا الحق لها ، واستدل هو وغيره بأدلة منها  
قول النبی صلى الله عليه وسلم : « الثيب أحق بنفسها من وليها » وقوله : « البكر  
تُستأذن فى نفسها وإذنها صمتها » .

والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها الحنفية أن الولي يستأذن المرأة

(١) العقد الفريد ٣/٢١٢ يعنى : يجب (٢) الأغاني ٩/١٤٢ ساجى

(٣) الفاخر ٨٩ وجمع الأمثال ١/١١٠ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٤) بجم الأمثال ٢/٢٦٣

في زواجها ولا يستبد به . والذي يؤخذ من الأحاديث التي استدلت بها مخالفوهم أن المرأة ليس لها أن تستبد بأمر زواجها ، ولكن لها أن تبشر العقد بنفسها <sup>(١)</sup> وبهذا صان الإسلام مكانة الأسرة من أن تعبت بها الأهواء ، أو تعصف بها النزوات ، وحى المرأة من سوء القالة ومن الشبهات .

٢ — وعَضَدَ الإسلام حق المرأة في رضاها بزواجها ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيِّمُ حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا : يا رسول الله وكيف إذن؟ قال : أن تسكت <sup>(٢)</sup> .

وللكبيرة التي أكرهت على الزواج أن تفسخه ، فقد كانت خنساء بنت خُذَام الأنصاري تحت أنيس بن قَتَادَة ، فقتل عنها يوم أحد ، فأنكحها أبوها رجلاً وهي كارهة ، فأتى النبي ، فقالت يا رسول الله : إن أبي تَفَوَّتَ عَلَى فزوجني ولم يشعرني . قال : « لانكاح له ، انكحى من شئت » فرد نكاحه وتزوجت غيره <sup>(٣)</sup> ، واشترت السيدة عائشة بَرِيرَة وأعتقها ، وكان زوجها مغيث مولى ، فغيرها رسول الله ، فاخترت فراقه . وكان يحبها ويمشي في طرق المدينة يبكي ، واستشفع إليها برسول الله ، فقال لها فيه ، فقالت : أتأمر؟ قال : بل أشفع ، قالت : فلا أريده <sup>(٤)</sup> .

أما الصغيرة فاختلف في أمرها ، ألها الخيار إن كان أبوها هو المزوج أم لا ؟ وفي رأى مالك وابن حزم أنه ليس لأحد سوى الأب أن يزوج الصغيرة لو فور شفقتها ، وضم الشافعى الجد إلى الأب .

وفي الحديث أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه عثمان من ابن عمر ،

(١) تيسير الوصول ٣/٣٤٥ — ٣٤٦ وعيون المسائل ٦٧ — ٦٩ وحجة الله البالغة

٩٥/٢

(٢) فتح الباري ٩/١٦٤ وتيسير الوصول ٣/٣٤٦

(٣) فتح المبدى ٣/٢٣٣ والطبقات لابن سعد ٨/٣٣٤ والإصابة ٨/٦٥ والمبسوط ٥/٢

(٤) الإصابة وأسد الغابة ٥/٤٠٩ والطبقات الكبير ٧/١٦٢ والتجريد الصريح

٣/٢٥٥ والمبسوط للرخسى ٥/٩٨

فردّها رسول الله وقال إنها بقيمة ، وإنها لا تنكح حتى تستأمر . قال ابن عمر  
لقد انتزعت من نفسي بعد أن ملكتها <sup>(١)</sup> . على أن بعض المجتهدين كابن شبرمة  
وأبي بكر الأصب لم يثبتا الولاية على الصغيرة لأحد ، والحنفية يثبتونها للأب  
والجد وغيرها من العصابات <sup>(٢)</sup> .

وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن ، فأم كلثوم بنت أبي بكر رفضت أن  
تتزوج عمر بن الخطاب ، فقالت لها عائشة أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت : نعم  
إنه خشن العيش ، شديد على النساء <sup>(٣)</sup> . وكذلك رفضت بنت عبد الرحمن بن  
الحارث بن هشام عبد الملك بن مروان ، وآثرت عليه يحيى بن عبد الحكم <sup>(٤)</sup> ،  
وفضلت عائشة بنت طلحة ابن عمها على بشر بن مروان <sup>(٥)</sup> .

## الخطبة والإملاك

لا يكاد يختلف نظامهم في الخطبة والإملاك عما يجري في العالم الإسلامي  
إلى اليوم ، ذلك بأنهم كانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض  
بنى عمها <sup>(٦)</sup> ، فيقول الخاطب : خطب ، ويقول أهل الزوجة : نكح ، ويقوم  
ذلك مقام الإيجاب والقبول <sup>(٧)</sup> .

فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم ، ونحرت لهم الذبائح ، وخطب خطباء من  
آل الزوجين ، كما حدث في يوم عقد النبي على السيدة خديجة ، فقد خطب عمه  
أبو طالب معدداً بعض مناقب قريش ، ومُنّوها بمناقب ابن أخيه محمد بن عبد الله ،  
وذكر أنه خطب خديجة على مهر قدره اثنتا عشرة أوقية ونشأ ، ثم رد عليه  
عمها عمرو بن أسد أو ابن عمها ورقة بن نوفل معدداً مناقب قريش ومفاخر بيت

(٢) عيون المسائل ٧٢

(٤) العقد الفريد ٢٨١/٣

(٧) إنسان العيون ٤٥/١

(١) المبسوط ٢١٢/٤ - ٢١٥

(٣) العقد الفريد ٢٧٥/٣

(٥) الأغاني ٥٤/١٠

(٦) المحبر لابن حبيب ٣١٠

عبد المطلب ، ومشهدا الحاضرين على قبوله هذا الزواج . ثم أو لم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويفنين <sup>(١)</sup> .

وكانت العروس تزين يوم الإملاك بما تملك ، ، ولقد يستعار لها . حدث عبد الواحد بن أعين عن أبيه قال : دخلت على عائشة رضی الله عنها وعليها درع قِطْرٍ ثَمَنَ خَمْسَةِ دَرَاهِمَ ، فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتي وانظر إليها ، فإنها تزهي أن تلبسه في البيت ، وقد كان لى منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت امرأة تُقَيَّنُ بالمدينة إلا أرسلت إلى تستعيه <sup>(٢)</sup> .

وفي يوم الإملاك يحتفل قومها وقومه وينحرون ، ويسمرون الليل غناء وعزفا ورقصاً . تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبي طالب ، وجاء في حديثه : « قلت ليلاً للغلام من قریش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أنك أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل . فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بغراييل ومزامير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : هذا فلان ابن فلان ، تزوج فلانة بنت فلان فجعلت أنظر ، وضرب الله على أذنى ففتمت ، فما أيقظنى إلا مسّ الشمس <sup>(٣)</sup> . ولما تزوج السيدة خديجة نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس <sup>(٤)</sup> .

ثم لما زوج بنته فاطمة لعلى بن أبي طالب قال : يا على ، لا بد للعرس من وليمة ، فأولم <sup>(٥)</sup> .

وهم في احتفالهم بيوم الخطبة أو الزفاف يشبهون الشعوب كلها ، ولكنهم

(١) إسان العيون ١٠٤/١

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٤٩/١١ وفتح الباري ١٧٨/٥ درع : قميص . تقين : تزين وتزف . قطر : ضرب غليظ من البرود في بعضها قطن . ثمن : منصوب على نزع اخافض .

(٣) تاريخ مكة للفاكهى ٧ من كتاب المنتقى في أخبار أم القرى .

(٤) إسان العيون ١٠٤/١ وبلوغ الأرب للعطار ٢٩

(٥) بلوغ الأرب في مآثر العرب للعطار ٣٣

لم يفعلوا ما كان يفعل الرومان ، إذ كان يقبل جماعة من الفتيان أصدقاء العروس فيأخذون عروسه ، ويمضون في منظر يمثل أنهم انتزعوها من أهلها قسراً . وكان العروس الإسبرطى يذهب إلى عروسه ليلاً فيأتى بها كأنه اختطفها <sup>(١)</sup> . والذي يظهر لى أن تمثيل عادة الاختطاف لم يكن فى العرب ، لأنهم ذوو حمية وغيره وأنفة ، فلا يرتضى أهل الزوجة ذلك المظهر .

## المهر

### المهر والصدوق

المهر فى الأصل العوض الذى يدفع لأهل المرأة ، أما الصدوق فالعوض الذى يدفعه الرجل للزوجة .

وكان العبريون والسريان يطلقون كلمة مهر على الثمن الذى يدفع نظير اقتناء الزوجة ، وكان يدفع لأبيها ، لأن الساميين القدماء كانوا ككل القبائل البدائية ينظرون إلى الفتاة على أنها سلعة قيمة تزيد مال أبيها <sup>(٢)</sup> . ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء قوله تعالى على لسان شعيب لموسى « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك » <sup>(٣)</sup> . ويظهر أن العرب كانوا كذلك ، ففى اللغة : النأجة البنت ، لأنها تعظم مال أبيها بمهرها <sup>(٤)</sup> ، لذلك كانوا يهنتون من ولدت له بنت بقولهم : هنيئاً لك النأجة . أى المنفعة للمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفع <sup>(٥)</sup> ، وأحياناً كانوا يعبرون عن الزواج بأنه شراء ، قال جرهم فى امرأة من بنى فقمس باع إبلا له ومهرها ، وتزوجها ثم وجدها عجوزاً فطلقها :

فبانت ولم أغبن غداة اشتريتها . وبعث تلاد المال بالثمن البخس <sup>(٦)</sup>

- |                                 |                                      |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| (١) دأثر المعارف للبستاني ٩/٣٣٦ | (٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٤١    |
| (٣) سورة القصص ٢٧               | (٤) القاموس المحيط مادة فقع          |
| (٥) مجمع الأمثال ٢/٣٢٧          | (٦) العقد الفريد ٣/٢١٠ وفى الأصل فبت |

ولما خطب صمصمة بن معاوية إلى عامر بن الظرب قال عامر : « إنك أتيتني تشتري مني كبدى . . . » (١) .

وهم أطلقوا كلمة الخُلوان على ما يأخذه الرجل من مهر ابنته أو أخته أو امرأة ما (٢) ، ولم يكن هذا شائعاً ، بدليل أن امرأة نغرت بأن زوجها لم يأخذ من بناته خلواناً : « لا يأخذ الخُلوان من بناتيا » (٣) .

ولكن هذه التفرقة بين المهر والصدّاق توارت في الإسلام ، فالمهر والصدّاق معاً ما يستحق به الحرائر من النساء (٤) ، وإن ظل بعضهم يطلق الصدّاق على الإبل التي تساق مهراً ، ويسمّيها الناجّة ، ويقول : ساق الرجل إلى المرأة صدّاقها ، قال الشاعر :

وليس تلادى من وراثته والذى ولا شاه مالى مستفاد النوافج  
فإذا كان الصدّاق عينا وورقاً لا يقال ساق إليها صدّاقها (٥) .

وجعل الإسلام المهر أو الصدّاق حقّاً للمرأة لا لوليها ، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم ، لقوله تعالى : « وآتوا النساء صدّقاتهن نحلة » وإن كان كثير من العرب ما زالوا إلى اليوم يستأثرون به وهو حرام (٦) ، لأن المهر ما يجب على الزوج لزوجته في مقابل ملك استمتع بهها ، وهو حق خالص لها ، تقبضه هى نفسها أو وكيلها إذا كانت رشيدة ، أو يقبضه ولي مالها إذا كانت صغيرة ، وإذا استهلكه كان ضامناً لمثلها أو قيمته (٧) .

وأبطل الإسلام أيضاً زواج الشغار ، وهو نوع من زواج المبادلة ، وسمى شغاراً لخلوه من المهر ، والطاراز الشائع من هذا الزواج أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته . وكان هذا الضرب من الزواج

(١) العقد الفرید ١٩١/٣ (٢) المخص ٢٥/٤ والأمال ٢٧٦/٢ ولسان

العرب ٢١٠/١٨ (٣) لسان العرب ٢١٠/١٨ والأمال ٢٧٦/٢

(٤) المخص ٢٥/٤ (٥) الحيوان للجاحظ ٣٣٤/١

(٦) ربح المغانى ١٩٨/٤ (٧) عيون المسائل ٨٥ و٢٠٦ و١٠٧

شائعاً عند الساميين قديماً ، ومارسه العرب إلى أن جاء الإسلام ، فنهى عنه النبي وقال ببطالانه كثير من الفقهاء ، وذهب الحنفية إلى فساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل لكل من الزوجتين <sup>(١)</sup> .

### نوع ومقداره

١ — كان المهر يقدم إبلاً أو نقداً ، لأن الثروة عند الشعوب الراحية قطعان من الماشية ، والماشية كالنقد ، « وقد احتفظت اللغات الأوروبية بآثار من هذه الحال البدائية ، الدالة على أن الماشية كانت تستعمل استعمال النقود ، لأنها الثروة الوحيدة ، فهو ميروس يتكلم عن بنات بأنهن أحضرن ثيرانا لوالدهن ، يكنين عن رغبة الناس فيهن ، وأنهم سيدفعون فيهن مالا عظيماً . والقانون الإيرلندي يقدر الغرامات والأثمان عادة برءوس الماشية ، وظلت الحال على ذلك إلى العصور الوسطى <sup>(٢)</sup> » .

وكذلك كان الحال عند العرب . وكان مقدار المهر يتفاوت باختلاف القدرة والمكانة والثروة ، فقد مهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب <sup>(٣)</sup> ، ومهر الحارث بن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة ابن خصفة الطائي مائة وخمسين من الإبل وألف درهم <sup>(٤)</sup> ، وزوج ذو الجدين ابن قيس بن خالد بنته للقيط بن زرارة على مائة من الإبل ، ليس فيها مصبورة ولا ناب ولا كزوم <sup>(٥)</sup> ، وزوج مطرود البجلي ابنته خودة على مائة ناقة ومعها رعاتها <sup>(٦)</sup> . وكان أهل كندة مشهورين بالتغالي في مهورهم ، بدليل قوله صلى الله

(١) عيون المسائل ٨٨ والنظم الاجتماعية والسياسية ٤٠

(٢) اللغة ٦٢٩ ج فاندريس ترجمة الدواخلى والقصاص

(٣) إنسان العيون ١/٥٠

(٤) الميداني ١/١١٠ والحاسن والأضداد ١٨٤ وفي جبهة الأمثال ١/١٨٣ أنه مهر ومائة من الإبل وخادم وألف درهم .

(٥) الأغاني ١٩/١٣١ مصبورة : مشرقة على الموت . وفي الأصل مصابرة . ناب :

مسنة . كزوم : ذهب أسنانها هرما (٦) بلوغ الأرب في أحوال العرب ٢/٣٣

عليه وسلم : « اللهم أذهب ملك غسان وضع مهور كندة <sup>(١)</sup> » ، وذكر الحبي أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل ، وربما مهرت الواحدة ألفاً <sup>(٢)</sup> ، وقد أصدق عمرو بن حجر أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني عقاراً في كندة ، ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة <sup>(٣)</sup> .

وكان المهر الذي قدمه النبي للسيدة خديجة عشرين بكرة <sup>(٤)</sup> ، وقيل إنه كان خمسمائة درهم <sup>(٥)</sup> ، وقيل إنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشاً <sup>(٦)</sup> ، ورأى السهيلي أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدرهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقداً ، وزاد عليه النبي تلك البكرات <sup>(٧)</sup> .

وقد افتخروا بعظمة المهر ، لأنها دليل في نظرهم على علو الشأن ، قال الأبيرد ابن هرثمة العذري ، وقد مهر الفقهاء بنت سنان العذري خمسين بعيراً :

إني أسمح إذ أفرج بينها بأكثبة البقار يا أم هاشم  
فأنفي صداق المحصنات إفلها فلم يبق إلا جلة كالبراعم <sup>(٨)</sup>

وقال خالد بن جعفر يمن على هوازن بقتله زهير بن جذيمة :

وجعلت مهر بناتهم ودماءهم عقال الملوك هجائنا أبكاراً <sup>(٩)</sup>

على أن بعضهم كان يقنع بحسب الخاطب ، ولا يتطاب منه مهراً ، من

(١) البيان والتبيين ٢٨/٢

(٢) ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه (٣) العقد الفريد ١٩١/٣

(٤) سيرة ابن هشام ٢٠٦/١ (٥) لسان العيون ١٥٤/٤

(٦) بلوغ الأرب للعطار ٢٨ وطبقات ابن سعد ١١٥/٨ الأوقية : أربعون درهما ، والنش : نصف أوقية فتكون جلة الصداق خمسمائة درهم ذهباً ( بلوغ الأرب للعطار ٢٩ وفتح المبدى ١٧٩/٢ والطبقات ١١٥/٨ ولسان العيون ١٥٤/١ )

(٧) لسان العيون ١٥٤/١

(٨) معجم الشعراء ٣٥ البقار : واد . البراعم : شماتة الجبال . الإفال : الإبل الصغار

(٩) الأغاني ١٤/١٠



ذلك أن لقيط بن زرارَةَ بن عُدُسَ خطب إلى قيس بن خالد سيد ربيعة ، فزوجه ، وساق عنه المهر وهداها إليه من ليلته<sup>(١)</sup> .

ومن المهر الضئيل رقاع الجلد التي أجبر الملهل على أخذها من قبيلة جَنْب - وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، إبقاء عليهم أن تنفيهم الحرب بسبب النار لأخيه كليب - وسار إلى اليمن ونزل في جنب وهم حى من مذبح ، فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ، فأجبروه وصدقوها جلوداً من آدم - فتحسروا تألم بقوله :

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشَمٍ  
أنكحها فقدّها الأراقِمَ في جَنْبٍ وكان الحِباء من أَدَمَ<sup>(٢)</sup>

وذكر الجاحظ أن الأعرابي الفقير ربما صاد ضبا فاحتمله إلى كفيته فكان مهرها ، وقد قال في ذلك أحدهم :

أمهرتها بعد المطال ضَبَّين من الضَّبَابِ سَحَابَيْنِ سَبَّابَيْنِ  
نِعْمَ لعمر الله مهر العرسين<sup>(٣)</sup>

٢ — أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخفف من غلواء العرب في مهوور بناتهم ، وأن يقيم الزوجية على دعائم أخرى من الدين والخلق غير دعامه المال ، فنهى عن المغالاة في المهور بأحاديث كثيرة ، منها : « لا تغالوا بالنساء فإنما هن سُقْمَا الله<sup>(٤)</sup> » ، وقوله لسهيل بن سعد : « اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد » فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ، فقال : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : معى سورة كذا وسورة كذا ، قال : « اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن<sup>(٥)</sup> » ، وفي حديث ابن عباس

(١) جهرة الأمثال ٢٠١/٢ وأمثال العرب للضي ٢٠

(٢) أشعار المراقبة ٦٩ وعيون الأخبار ٩١/٣ وشرح الحاشية للرزوق ١١٨/١

والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ١٤/٢ وخزانة الأدب ٢٨/٢ والشعر والشعراء ١٠٠ والكامل لابن الأثير ٢٢١/١ .

(٣) الحيوان ٣٦/٦ السجل : الضخم . السبط : الحسن القد والمنظر

(٤) البيان والتبيين ٢٧/٢ (٥) فتح الباري ١٧٨/٩ وتيسير الوصول ٢٨٢/٢

أن النبي زوج رجلاً بدون مهر ، على أن يعلم زوجته أربع سور أو خمساً من كتاب الله ، وفي حديث أبي هريرة أن يعلمها عشرين آية<sup>(١)</sup> . وروى عن النبي أن خير النساء أيسرهن صداقاً<sup>(٢)</sup> .

ونهى عمر عن المغالاة في المهر بقوله : لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة في الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاًكم بذلك ، ما أصدق نساء ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية<sup>(٣)</sup> .

على أن ذلك لم ينزع من العرب ما ألفوا ، وظلوا حراساً على عظم المهر ، وظلت النساء مزهوات بكثرتة ، يدل على ذلك أن عمر نهى عن المغالاة في المهور ، فردت عليه امرأة بقولها : ليس ذلك لك يا عمر ، إن الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً من ذهب » - وهي كذلك في قراءة ابن مسعود - فقال عمر : امرأة خاصمت عمر نفخسته<sup>(٤)</sup> . وروى أن عمر نفسه أصدق أم كلثوم بنت علي أربعين ألفاً ، وأن ابنه عبيد الله أصدق ابنة أبي عبيد الثقفي عشرة آلاف درهم<sup>(٥)</sup> . وقد أصدق مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف ، وأهدى إليها خمسمائة ألف ، فقال أنس بن أبي أنس :

بُضْعُ الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جميعاً  
لو لأبى حفص أقول مقاتلي وأبشه ما قد أرى لالتناع<sup>(٦)</sup>

وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفاً<sup>(٧)</sup> ، وأصدق يحيى بن أبي حفصة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير عشرين ألف درهم<sup>(٨)</sup> . وفي رأى الفقهاء أن أقل المهر ما يمكن أن يتمول به ، وهو ما يجب فيه قطع اليد

(١) فتح الباري ١٧٩/٩ وتيسير الوصول ٢٨٢/٢

(٢) تيسير الوصول ٢٨٤/٢ وسنن أبي داود ٢١٠/١

(٣) الطبقات لابن سعد ١١٥/٨ وتيسير الوصول ٢٨٣/٢

(٤) فتح الباري ١٧٥/٩ والكتشاف ٩٧/١ (٥) عيون الأخبار ٧١/٤

(٦) الردقات من قریش ٧٠ من نوادر المحفوظات (٧) الطبقات ٨٧/٣

(٨) الكامل للبريد ٢٨١/١ وعيون الأخبار ١٦/٤

في السرقة ( ثلاثة دراهم وقيل خمسة وقيل عشرة ) أو هو أربعون أو خمسون على أنه لا يقدر أقله <sup>(١)</sup> ، وخالف في ذلك المالكية والحنفية ، فعند الحنفية أقله عشرة دراهم ، وهي تساوى الآن خمسة وعشرين قرشاً <sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن التقاليد في المهور كان يحنق كثيراً من العاجزين عن دفع مثلها ، يقول أعرابي :

يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أن من شاء يكذب <sup>(٣)</sup>

وصايا للزوجة عند زفافها :

إذا ما تأهبت البنت لتنتقل من رعاية أبويها إلى كفالة زوجها وزودتها أمها وأبوها بوصايا من نتاج الخبرة والتجربة .

١ — فمن وصايا الأمهات ما أوصت به زوجة عوف بن محمّ الشيباني لما زفت بنتها أم إلياس إلى عمرو بن حُجر ، قالت لها : أى بنية إنك فارقتي بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل ، لم تعرفيه ، وقرين لم تألقه ، فكوني له أمة يكن لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عشرًا يكن لك ذخراً .  
أما الأولى والثانية فالتشروع له بالقناعة ، وحق السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك . إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع مَلْهِيَةٌ ، وتنقيص النوم مفضية . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشر فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفسيت مره لم تأمنى غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والسكابة بين يديه إذا كان فرحاً <sup>(٤)</sup> .

(١) فتح الباري ١٧٥/٩ (٢) عيون المسائل ٩٠ (٣) عيون الأخبار ٧٢/٤

(٤) العقد الفريد ١٩١/٣ ومحاضرات الأدباء ١٢٣/٢ وشرح نهج البلاغة ٣٠٨/٤ وجمع الأمثال ١٩٢/٢ ونزعة الأبصار والأسماع ٣٣ ومحاسن النساء لابن هشام ٧ مخطوط وأعلام النساء ٦٠/١

وفي هذه الوصية قوام السعادة الزوجية ، لأنها تريد ابنتها على طاعة زوجها ، وتريدها على العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وأن تراعى راحتها في منامه وطعامه ، وأن تقتصد في نفقاتها ، وتربي أولادها ، وتراقب خدمها ، وأن تصون أسرارها ، وتشاركه مشاركة وجدانية في أفراحه وأتراحه .

إنها إن فعلت ذلك كانت زوجة صالحة ، بل كانت مثلاً عالياً في الزوجات . وإذا كانت قد نبهتها على النظافة - كما سينبه غيرها - فإنها بتجربتها تتفق مع ما يقرره الطب الحديث من أن التهاون في تنظيف الجسم والأعضاء التناسلية ينفّر أحد الجنسين من الآخر ، فتنشأ عن هذه النفرة عوامل نفسية عدة ، كالتمترز والاشتمزاز وغيرها (١) .

وقد فصلت القول في أثر الروائح العطرية في الجاذبية في كتاب آخر (٢) . وليس يعدم المجتمع أن يكون فيه الخير والشرير ، والمسلم والمشاغب ، وأن تكون من الأمهات الشرسة الحريصة على أن تكون ابنتها مثلاً ، فقد أوصت امرأة ابنتها بقولها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه ، انزعى زج رحمة ، فإن سكت فقطعى اللحم على ثرثسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه (٣) .

٢ - ولآباء في هذا المجال إرشاد وتوجيه . ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر ، كان إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال : أسمعين ؟ كوني له أمة يكن لك عبداً (٤) . ومنهم ذو الجدين ، قال لابنته لما زفت إلى لقيط بن زرارة : كوني له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أكثر طيبك الماء ، واعلمى أن زوجك فارس مضر ، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشى عليه وجهاً ، ولا تحلقى شعراً (٥) .

(١) الأزمات الزوجية وعلاجها للدكتور محمد زكي شافعى ١٠٣

(٢) الغزل في العصر الجاهلي ١١٢ (٣) عيون الأخبار ٧٧/٤ ومحاضرات

الأدباء ١٢٤/٢ والإحياء للغزالي ٤١/٢ (٤) عيون الأخبار ٧٧/٤

(٥) الأغاني ١٢١/١٩ والمعتد الفريد ٢١١/٣ وأمثال العرب للضبي ٢٠

وكذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته بأن تتنظف بالماء<sup>(١)</sup> . ولما زفت نائلة بنت الفرافصة الكلبي إلى عثمان رضى الله عنه قال لها أبوها : يا بنية إنك تقدمين على نساء قریش، وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تُغلبى على خصلتين : الكحل والماء ، فتسكحلى وتطيبى بالماء حتى يكون ريحك ريح شئ أصابه مطر<sup>(٢)</sup> .

وما زال الآباء يوصون بناتهم فى الإسلام ، فمثلا أسماء بن خارجة الغزاري قال لابنته وقد زفها إلى الحجاج : يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإن أملك هلكك وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وكونى لزوجك أمة يكن لك عبدا ، واعلمى أنى القائل لأملك :

خذى العفو منى تستدعى مودى      ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب  
ولا تنقُرىنى نقرة الدف مرة      فإنك لا تدرين كيف المغيب<sup>٣</sup>  
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى      إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب<sup>(٤)</sup>  
وهذه الوصايا من الآباء تدور حول النظافة والطاعة وحسن التبعل عامة .

## مكانة الزوجة عند زوجها

مبه لها :

حظيت المرأة العربية عند زوجها ، وأولاهما من تقديره ورعايته وحبه ما يدل على علوم مكاتها فى نفسه ، وأنه نظر إليها على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز ، وأحيانا كان الزواج يسبق بحب ، وكثيرا ما نبقت من الزواج شجرة الحب<sup>(٥)</sup> . فهذا دريد بن الصمة يحب الخنساء ويتغزل بها ، ويخطبها إلى أبيها ، ويحجى فى غزله قوله :

(١) عيون الأخبار ٧٦/٤

(٢) نثر الدر : صورة شمسية بدار الكتب ، وعيون الأخبار ٧٦/٤ والأغانى ٧٦/١٥

(٣) الأغانى ١٢٨/١٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ١٢/١ وعيون الأخبار ٧٧/٤

أن القائل أبو الأسود . (٤) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩ والأغانى ١٢٨/٢ - ١٣٢

أُخْنَسُ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ واعتاده دالا من الحب<sup>(١)</sup>  
 وكثير من العشاق كانوا يحبون ويريدون أن يتزوجوا بمن يحبون ، كالمِرْقَشِ  
 الأكبر<sup>(٢)</sup> ، وعُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ<sup>(٣)</sup> ، وعمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء  
 السماء<sup>(٤)</sup> ، وعدى بن زيد العبادي<sup>(٥)</sup> ، وأبي مالك بن عبد الله بن مسعود<sup>(٦)</sup> ،  
 وعُتْبَةُ بْنُ الْحَبَّابِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَوْحِ<sup>(٧)</sup> ، والمُحَبَّلُ الْقَيْسِيُّ<sup>(٨)</sup> .  
 وقد تغزل بعض الشعراء في زوجاتهم ، لأنهم أحبوهم حبا حارا كما يحب  
 الرجل فتاة لا ينالها ، فمثلا تغزل زهير بن أبي سلمى في زوجته أم أوفى<sup>(٩)</sup> ، وبدأ  
 معلقته بقوله :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِخَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمَتَّلَمُ<sup>(١٠)</sup>  
 وامرؤ القيس تغزل في زوجته أم جُنْدُب بقوله :

خَلِيلِي مَرَّأِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ لِنَقْضِ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمَعْدُبِ  
 فَإِنَّمَا إِنِّ تَنْظُرَانِي سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعُنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ  
 أَلَمْ تَرِيَانِي كُلَّمَا جِئْتَ طَارِقًا وَجَدْتَ بِهَا طَبِيًّا وَإِنِّ لَمْ تَطْلُبْ  
 عَقِيلَةً أَتَرَابَ لَهَا لَا دَمِيمَةً وَلَاذَاتِ خَلْقٍ إِن تَأْمَلْتَ جَانِبَ<sup>(١١)</sup>  
 وتغزل حسان بن ثابت في زوجته الشَّعْنَاءُ<sup>(١٢)</sup> . ثم حدث هذا أيضا في العصر  
 الأموي من الحارث بن خالد المخرومي إذ شب بزوجه أم عمران<sup>(١٣)</sup> .

وإذا فلم يكن العوب شعبا بدائيا ، يحبل عاطفة الحب ، ويقيم الزواج على أنه  
 اتصال حيواني الغرض منه إشباع اللذة ، وإنسال الولد فحسب ، ذلك بأن البدائيين

(١) الأغاني ١١/٩ والأمالى ١٦١/٢

(٢) الأغاني ١٧٩/٣ والشعر والشعراء ٥٤ وتزوين الأسواق ٨٨ ودبوان طرفة ١١٨

(٣) فوات الوفيات ٣٥/٢ والأغاني ١٥٣/٢٠ والوادع ١٦١ وتزوين الأسواق ٧٧

(٤) الدر المنثور ٣٤٨ (٥) الأغاني ١٢٨/٢ - ١٣٢

(٦) تزوين الأسواق ٩١ (٧) تزوين الأسواق ٩١

(٨) الأغاني ١٦/٢١ (٩) الأغاني ١٥٠/٩

(١٠) شرح التصانيد العشر ١٠٣ (١١) دبوان امرئ القيس ٣١ جانب: ضخم قصير

(١٢) الإصابة ١٢٠/٨ (١٣) الأغاني ٣٣٠/٣

لا يعرفون عاطفة الحب ، وقلمنا تغنوا بشعر يصورها ، لذلك لما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة ألجونكون Algonquins لم يجدوا في لغتهم كلمة تعبر عن الحب ، وفي قبيلة الهونتوت نجد الزواج عملاً آلياً ، ولا يأتيه أحد الزوجين بالآخر ، وكذلك في ساحل الذهب وعند الأستراليين البدائيين<sup>(١)</sup> والمتأخرون بعامة أقل من المتدينين ميلاً إلى النساء ، حتى لقد يبقى الرجال أعزاً بمدة طويلة من أعمارهم ، ثم تطراً عليهم الرغبة في الاتصال الجنسي . وهم فقراء عاطفة في عاطفة الحب الجنسي ، لهذا لا يعمر الغرام بالمرأة قلوبهم أو خيالهم<sup>(٢)</sup> . بل كان العرب شعباً متحضراً يؤسس العشرة بعد الزواج على دعائم من الحب والتعاطف والاعتزاز .

وكانت الزوجة العربية أرفع مكانة من اليونانية والرومانية ، لأن هذه لم تكن تنال مثل ما نالت العربية من حب زوجها وتقديره « ولم يعرف الأوروبيون للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس ، ونقل عنهم الإسبان والأوروبيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا »<sup>(٣)</sup> .

### نראؤها بقلب التكريم :

ومن دلائل حبه وتقديره أنه كان يلقبها بالقلب فيها تكريم وإشعار بالعزاة ، فمثلاً قيس بن عاصم يقول لزوجته منقوسة بنت زيد الفوارس الضبي وقد أته بطعام ، أو حاتم يقول لزوجته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك      ويا ابنة ذى البردين والفرس الوردي  
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له      أكيلاً فإنى لست آكله وحدي<sup>(٤)</sup>

(١) قصة الحضارة ٧١ ول ديورانت

(٢) The psychology of Marriage. P. 240. Waltee M. Gallichan

(٣) تراث الإسلام ١/١٥٩

(٤) الأغاني ١٢/١٤٤ وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ وفي شعراء النصرانية ١٣٣

وشرح الحامسة للتبريزي ١٠٠/٤ وحامسة الخالدين ٢٨٩ مخطوط أن الفائل حاتم الطائي .

وعروة بن الورد يلقب زوجته بأبيها العظيم :

أَقْلَى عَلَى اللّوم يَا بَنَةَ مَنْذَرٍ      وَنَامِي فَإِنْ لَمْ تَشْتَبِهِي النّومَ فَاسْهَبِي<sup>(١)</sup>  
ولقد يلقبها زوجها باسم ابنها ، إعزازاً لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر  
التميمي لزوجته :

أَلَمْ تَعْلَمِي أُمَّ الْجَلَّاسِ بَأَنَّنَا      كَرَامَ لَدَى وَقَعِ السِّیُوفِ الصَّوَارِمِ<sup>(٢)</sup>  
وقول عروة في امرأته سلمى :

ذَكَرْتَ مَنَازِلًا مِنْ أُمِّ وَهَبٍ      مَحَلَّ الْحَى أَسْفَلَ ذِي النَّقِيرِ  
وَأَحْدَثَ مَعْبِدَ مِنْ أُمِّ وَهَبٍ      مُعَرَّسُنَا فَوَيْقَ بَنِي النَّضِيرِ<sup>(٣)</sup>  
وقوله أيضاً لزوجته ملقباً بأم مالك تارة وبأم حسان تارة :

سَلَى الطَّارِقَ الْمُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ      إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قِدْرِي وَمَجْزَرِي  
أُيَسْفِرُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرَى      وَأُبْذِلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي ؟  
وقوله أيضاً :

ذَرِنِي وَنَفْسَ أُمِّ حَسَّانٍ إِنِّي      بِهَا قَبْلَ أَلَا أَمْلِكُ الْبَيْعَ مِثْرَ  
أَحَادِيثَ تَبَقَّى وَالْفَتَى غَيْرَ خَالِدٍ      إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيْرٍ<sup>(٤)</sup>  
وربما ناداها الزوج باسمها مجرداً ، إشعاراً بالألفة وقرب النفس إلى النفس ،  
وهذا هو الغالب ، وربما ناداها باسمها مصغراً تدليلاً وإيناساً ، وربما كنى عنها  
بميزة من مميزاتهما ، وخاصة من خواص عملها . قال الشاعر :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَارِبَةَ الْخَدَرِ أَنَّنِي      أَبِيٌّ إِذَا رَامَ الْعَدُوَّ تَهَضُّمِي

ذو البردين : عامر ابن أحيمر بن بهدلة أخذ من المنذر بن ماء السماء بردي ابنه عمرو بن هند  
في جمع من وفود العرب مكافأة له لأنه من أعزهم قبيلة وأكثرهم عدداً ( النقايس ٧١٤ )

(١) شعراء النصرانية ٨٨٣

(٢) حسانة البحرى ٢٤٢ (٣) شعراء النصرانية ٨٩٠ ذو النقيز : ماء أو موضع

لبنى القين ولعلب . (٤) شعراء النصرانية ٩١١ وديوان عروة ١٣ وجمهرة أشعار

العرب ٢١٤ وجموع أشعار العرب ٢٩/١ هامة : طائر يخرج من القبر في زعمهم يطلب النأرة

صير : قبر



وقال أزهري بن هلال التيمي :

أعاتكُ ماوليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدماً<sup>(١)</sup>

وقال تأبط شرا :

إلا تكلماً عِرْسِي منيعة ضُمَّتْ من الله إثمًا مُستسراً وعالناً<sup>(٢)</sup>

وذكرها المنقب العبدى أو عالبة بن يزيد بأنها عرسه :

تهزأت عِرْسِي واستنكرت شيبى ففيمها جَنَفٌ وازورار<sup>(٣)</sup>

وصفر تأبط شراً اسمها فى قوله :

تقول سُلَيْمِي لجاراتها أرى ثابتاً قد غدا مُرْمِلاً<sup>(٤)</sup>

### إشهادها على مفاهمه

إذا كان العربى كلفاً بأن يشيد بمفاهمه ، ويذيع محامده ، فإنه كان كلفاً أيضاً بتوجيه الخطاب إلى المرأة - زوجته أو حبيبته - وإشهادها على هذه المفاهمه . من ذلك قول عروة بن الورد فى إشهاد زوجته على محامده :

وقد علمت سليمى أن رأبى ورأى البخل مختلف شَتِيتُ

وأنى لا يرى البخل رأبى سواء إن عطشت وإن رويت

وأنى حين تشتجر العوالى حوالى اللب ذو رأبى زَمِيتُ<sup>(٥)</sup>

وقول حاتم أوقيس بن عاصم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقاً أو جار بيت فإننى أخاف ملامات الأحاديث من بعدى<sup>(٦)</sup>

وقول أوس بن حجر :

ألم تعلمى أمّ الجلاس بأننا كرام لدى وقع السيوف الصوارم ؟

(١) حماسه البحرى ٥١ (٢) الأغاني ٢١٣/١٨ (٣) الحماسة البصرية ١٠٦ مخطوط.

(٤) الحماسة البصرية ١٢ (٥) ديوان عروة وشعراء النصرانية ٩٠٦ زميت :

وقور . (٦) ديوان حاتم ٩ وشرح الحماسة للتبريزى ١٠٠/٣ وفى الأغاني ١٢/١٤٤

وتهذيب الكامل ١٠٢/٢ أن القائل قيس بن عاصم

وأنا لنعطى الحق منا وأننا لنأخذه من كل أبلج ظالم<sup>(١)</sup>  
وقول عروة :

سلى الطارق المبتتر يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدري ومجزري  
أيسفر وجهي إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر<sup>(٢)</sup>  
وإنه ليتامى فى إشباده على محامده تماديا ، فيتطلب منها أن تسائل الحاربيين.  
عن شجاعته لترهى به ، ويزهى بإعجابها . يقول عامر بن الطفيل :

فلو علمت سليمى عِلمَ مثلى غداة الرّوع واصات السكراما<sup>(٣)</sup>  
ويقول :

هلاً سألت بنا وأنت حفيّة بالقاع يوم تورّعت نهْدُ  
هذا مقامى قد سألت وموقفى وعن المسير فسائلى بعدُ  
أسألت قومى عن زياد إذ جنى فيه السنان وإذ جنى عبد<sup>(٤)</sup>  
ويقول عنتر بن شداد :

سلى عنا الفزاريين لما شفيينا من فوارسها السكبودا<sup>(٥)</sup>  
ويقول :

يا عبل كم من غمرة باشرت بها بمنقف صاب القوائم أسمر<sup>(٦)</sup>  
ويتهدد عامر بن الطفيل زوجته بالطلاق إن هى تفاضت عن الحفاوة ببلائه ، يقول :  
طلّقت إن لم تسألنى أى فارس حليلك إذ لاقى صُداء وخُنعما  
أكر عليهم دُعلاجاً ولبائنه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمجا<sup>(٧)</sup>

### اغتراره امرأ من فراره

أحياناً كان الحارِب يضطر إلى أن يفر ، وهو يعلم أن الفرار مخزاة ومعرفة ،

(١) حماسة البحتري ٢٥٢

(٢) شعراء النصرانية ٩١١ (٣) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

(٤) الديوان القصيدة ٣ (٥) ديوان عنتره ٥٦

(٦) ديوان عنتره ٨٦ (٧) ديوان عامر القصيدة ١٩ ملحق

فيجعل يبرر فراره ، وينحل لنفسه المآذير ، ويختص زوجته بأعذاره ، لأنها الشخص الأول الذي يهيمه أن يشهد له بالشجاعة ، ويحججه أن يصمه بالجبن .

فرّ أوس بن حجر عن بني عبس ، وكان فيهم زهير بن جذيمة العبسي وأولاده شأس ومالك وقيس ، فاعتذر لزوجته بأن أعداءه ذوو دهاء ، فقرّ حتى لا يقتل ، ولم يفر عن جبن ، لأن شجاعته معلومة من قبل :

أجاعة أم الحصين خزاية على فرارى أن لقيت بني عبس  
وربط أبي سهم وعمرو بن عامر وبكرا فجاشت من لقاءهم نفسى  
أو :

لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا وقيسا فجاشت من لقاءهم نفسى  
كأن جلود الثمر جيبّت عليهم إذا جمعوا بين الإناخة والحبس  
فضموا علينا حجر تينا بصادق من رأى حش النار في الحطب اليّس  
قأبت سليبي لم يحرق عمامتى ولا صفحتى وقع القواضب في الترس  
وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس<sup>(١)</sup>

و يعتذر زهير بن هلال لزوجته بأنه لم يفر إلا بعد أن هزم رجاله وتفرقوا ، فلم يحد من الكياسة والحصافة أن يتقدم وحده ، على أنه قد فر بعد أن أثنى الجراح في أعدائه :

أعاتك ما ولّيت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدما  
أعاتك إني لم أكم في قتالهم وقد عض سيفي كبشهم ثم صمعا  
أعاتك أفناني السلاح ومن يطل مقارعة الأبطال يرجع مكلما<sup>(٢)</sup>

و يعتذر شاعر آخر لزوجته بأنه خشى الأسر ، ولم يخش القتل :

قالت سلامة لا أرى لك عادة أن تترك الأعداء حتى تغذرا  
لو كان قتل يا سلام فراحة لكن فررت مخافة أن أوسرا<sup>(٣)</sup>

(١) ديوان أوس بن حجر ١٠ والحاسة البصرية ١٢ مخطوط وحاسة البحرى ٥٢ وفى العقد الفريد ١٧٥/١ أن القائل عمرو بن معديكرب . الحبس : الشجاعة

(٢) حاسة الخالدين ٢٤٤ مخطوط وحاسة البحرى ٥١ (٣) المرأة العربية ١/٢٢

ولقد نظرت امرأة حماس بن قيس إليه وهو يُحِدُّ حربته يوم فتح مكة ،  
 فقالت له : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعدها لحمد وأصحابه ، فقالت : ما أرى يقوم  
 لحمد وأصحابه شيء . قال : والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم . فلما لقيهم  
 خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل وفر ، وقال لامرأته : أغلقى على بابي .  
 فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فاعتذر لها بأن سادة قريش فروا ، وأن  
 المسلمين غلابون ضرّابون :

إنك لو شهدت الخيل يوم الخندمة      إذ فرّ صفوان وفر عكرمه  
 وابو يزيد قائم كالمؤتمه      ولحقنا بالسيوف المساه  
 يفلقن كل ساعد وجمعه      ضرباً فلا نسمع إلا غفمه  
 لم نهيت خافنا وهممه      لم تنطق في الاوم أدنى كلمه<sup>(١)</sup>  
 فخره بحسن عسرتة لها :

كان من سراوة الخلق وسمات الرجولة أن يحسن الرجل عشرة زوجته ،  
 لذلك خايل بعضهم بأنه لا يسىء عشرتها ، كقول ذى الإصبع العدوانى إنه يابى .  
 نداء جارتها وكنتها ، ولا يفجع زوجته بشر :

ثم سلا جارتى وكنتها      هل كنت فيمن أراب أو فرعا ؟  
 أو دعتنى فلم أجب ولقد      تأمن منى حليتى الفجعا<sup>(٢)</sup>  
 ومع شمرة التيميات بالدل وصعوبة المراس كن حظيات عند أزواجهن ،  
 ينعمن بدمائة أخلاقهم<sup>(٣)</sup> .

(١) العقد الفريد ١٧٣/١ ( القائل اسمه الحارث ) وفى سيرة ابن هشام ٢٦/٤ ومجمع  
 البلدان عند الكلام على الخندمة أن القائل حماس بن قيس بن خالد وفى السيرة أيضاً ٢٨/٤ أن  
 القائل اسمه الرعاش الهذلى وفى الكامل للبرد ٣٦٥ طبعة أوروبا أنه أبو عثمان الهذلى الرعاش  
 أو حماس بن قيس . أبو يزيد : حذف هزته لضرورة الشعر . المؤتمه : التى قتل زوجها فبقى  
 لها أولاد أيتام . المسلة : السلون . الغفمة : صوت الأبطال فى الحرب . نهيت : نوع من  
 صياح الأسد مهمة : صوت فى الصدر .

(٢) الأغاني ٩٧/٣ . الكنة : امرأة الابن أو الأخ . أراب : فعل ما يريب . فرع :  
 أغصن أو تسلل إلى غير زوجته من فرع العروس إذا غشيها أو فرع فى الجبل إذا صعد فيه وفى  
 الأصل فدع . الفجع : الأذى (٣) الأغاني ١٠/١٥

على أن الرجال لم يكونوا على نسق واحد في معاملة الزوجات ، وهذا طبيعي ،  
فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : كنا معشر قريش نغلب النساء ،  
فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب  
نساء الأنصار ، فصغبت على امرأتى ، فراجمتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ،  
فقلت : ولم تنكر أن أراجمك ؟ فوالله إن أزواج النبی ليراجمنه ، وإن إحداهن  
لتهجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ذلك . . وفى رواية يزيد بن رومان :  
كنا ونحن بمكة لا يكلم أحد امرأته إلا إذا كانت له حاجة . وفى رواية عبيد  
ابن حش : ما نعد للنساء أمراً . وفى رواية الطيالسى : كنا لا نعتد بالنساء  
ولا ندخلهن فى أمورنا<sup>(١)</sup> .

ولكن فى هذا نظراً ، لأن كثيراً من القرشيين كانوا يحفلون بنسائهم ،  
أو يشركونهن فى أمورهم كما سبق ، وكما سيجى . . ويظهر لى أن خلق عمر كان فيه  
بعض جفاء فى معاملة النساء ، وربما شرکه بعض القرشيين فى خلقه ، وربما توهم  
بعضهم أن القرشيين مثله . ولسنا نستطيع أن ندعى أن العرب كلهم كانوا يحسنون  
معاملة النساء ، لأن هذا مغاير للطبائع ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة عليه القدر  
فى بعض البيئات ومهينة فى بعضها الآخر ، من الوطن الواحد .

ثم إن حسن المعاملة لم يتبدل بالزوج إلى أن يكون خنوعاً لزوجته ، أو  
إمعة لا رأى له ، لأن الخلق العربى مدعوم برجولة وفتوة ، لذلك يقول الثنفرى  
لزوجته : طلقينى إذا رضيت بمخالفتك لى فيما نهيتك عنه ، لأنك إذا الزوج ،  
ومن حقت أن تؤدبينى بسوطك :

إذا ما جئتِ ما أمهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى  
فأنت البعل يومئذ فقومى بسوطك لا أبالك فاضربينى<sup>(٢)</sup>

ويقول عروة إنه لا يصيخ لزوجته إذا أمرته بعقوب :

إذا أمرتني بالعقوق حليلتي فلم أعصها إني إذا لمُضِيع<sup>(١)</sup>  
 وإن فحولة الرجل لتتضح حينما تسيء زوجته إلى ابنه من غيرها ، أو إلى أخى  
 زوجها ، فيردعها ردعا ، من ذلك أنه كان لعمر بن شاس ابن يقال له عرار من  
 أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، وكان عرار يشتمها ، فغضب  
 عمرو وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه ، لأنه يحبه ويعزه ويحميه :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم  
 وإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم  
 وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة تقاسينها منه فما أملك الشيم  
 فإن كنت منى أو تريدن صحبتي فكوني له كالسمن ربت له الأدم  
 وإلا فسيري مثل ماسار راكب تعجل خمسا ليس في سيره أمم<sup>(٢)</sup>  
 وأنف دريد بن الصمة أن تشتم زوجته أخاه ، لأنها إذا تشتمه أيضاً :

أعبد الله لو شتمتك عرسى تساقط لحم بعضى فوق بعض  
 معاذ الله أب يشتمن عرضى وأن يملكن إمرارى ونقضى  
 إذا عرس الفتى شتمت أخاه فليس بحامض الرثين محض<sup>(٣)</sup>

### استماع مسورتها :

هذه العشرة التى يتعاطى الزوجان صفوها ، ويتبادلان فيها الثقة والإعزاز  
 جدرة بأن تمهد للزوجة أحياناً سبيل المشورة على زوجها فيما يعود عليهم بالخير ، وهو

(١) شعراء النصرانية ٩١٤

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر والأمالى ١٨٩/٢ وشرح الحماسة  
 للرزوق ٢/٢٨٠ والأغانى ١٠/٦٠ غير واضح : غير أبيش جميل . العمم : التلم الطويل .  
 شكيمة : جفوة . ربت له الأدم : دهن الوعاء بالرب ليصلح السمن الذى فيه ، أى أحسن معاملته  
 ظاهرة وباطنة بحيث لا يكون فيها تغير كالسمن المربوب وعاءه . تعجل خمسا : سار مسرعاً  
 إل الماء ليقى لإبته بعد أن عطشت أربعة أيام . أمم : إبطاء .

(٣) الوحشيات لأبى تمام ١٠١ مخطوط . حامض الرثين : مر اللحم . محض : خالص النسب

لا يجد غضاضة في أن يستمع إليها ويحقق ما تريد .

ولقد تكون المشورة إصلاحاً بين القبائل ، كما حدث لما خطب الحارث بن عوف هَيْمَةَ بنت أوس بن حارثة الطائي ، فلما هم بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ؟ — وكان ذلك في أيام حرب عيس وذبيان — فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحللا عنهم الديات ، فأنصرفا بأجل الذكر ، وشادا بهما زهير بن أبي سلمى <sup>(١)</sup> .

ولقد تشير الأم على زوجها في تزويج ابنته ، ويرضى هذه المشهورة كما سبق في اختيار الزوج . ولقد تكون مشورتها في شأن من شئون الحياة كالرحلة مثلاً ، فقد أراد الخطيئة أن يسافر ، فأنته امرأته بعد ما أعد راحلته ليركب ، فقالت :

أذكرُ تَحَنُّنًا إليك وشوقنا      واذكر بناتك إنهن صفار  
فقال : حطوا الرحال ، لا رحلت أبدا <sup>(٢)</sup> .

على أنها كانت ذات أثر عظيم في تشجيع زوجها وحفز همته ، وخير مثل في ذلك السيدة خديجة ، فقد آمنت بالنبي ، وصدقت بما جاء من الله ، وآزرته على أمره ، تخفف الله بمؤازرتها عن نبيه ، وكان لا يسمع بما يكرهه من الرد عليه والتكذيب له إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبتته وتصدقته وتمهون عليه أمر الناس <sup>(٣)</sup> .

غبرته عابها وصمما بنهما :

في هذه البيئة التي قامت الأخلاق فيها على الإباء ، والاعتزاز بالشرف ، وحسن الأحذوثة كان لا بد للرجال من الغيرة على العرض ، وكان العدوان عليه يجر حرباً وويلًا .

(٢) الأغاني ٢/١٧٧

(١) الأغاني ٢/١٤١ والمصطف ٢/٢٢٢

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٥٩

وقد افنخر العرب بالعفة ، ومدحوا بها ، وهؤلاء المنتخرون بالعفة والمادحون بها غُيِّرَ على النساء ، وما زالت غيرتهم مضرب الأمثال ، لذا قالوا : « كل شيء مَهْمَةٌ ما خلا النساء وذكرهن » يريدون أن كل شيء يسير جميل مقبول يُعْتَمَلُ الرجل إلا ذكر الحرم ، فإنه يتمتع منه ولا يطيقه<sup>(١)</sup> .

ولهم في الفيرة حديث عجب ، فمثلا قتل آكل المرار حُجْر بن عمرو بن معاوية الكندي أو الحارث بن عمرو بن حُجْر الكندي امرأته هنداً ، لأن عمرو بن الهُبُولَةَ سبها في غيابه ، فلما قدم تبعه وقتله واستنقذها ، وعلم أنه نال منها ، فربطها في أذنان الخليل حتى تقطعت أوصالها<sup>(٢)</sup> . وكذلك فعل الحارث بن عمرو إذ غزا ابن هُبَيْرَةَ النسائي في غيبته ، فأخذ ماله وسبى امرأته ، فأصابها في الطريق ، ثم لحقه الحارث فقتله ، وتخلص امرأته ، ولما عرف أنها مست أمر بها فوثقت بين فرسين ، ثم أحضرهما حتى تقطعت ، وأنشد :

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خَيْتَمُور  
إن من غره النساء بود بعد هذا الجاهل مفرور<sup>(٣)</sup>  
وأرجح أن الحادثة واحدة ، ولكنها نسبت إلى شخصين ، بدليل تشابهها

#### (١) بجمع الأمثال ٧٠/٢

(٢) الأغاني ٨٢/١٥ وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ . سمي آكل المرار لأنه حتى من سبى امرأته حتى أكل المرار وهو يعذب به ولا يدري ( الأغاني ٨٢/١٥ - ٨٤ ) و ( سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ ) أو لأنه أكل هو وأصحابه شجر المرار في غزوة ( سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤ ) وأنا أرجح أحد هذين البينين وأستبعد الرأي الثالث وهو أن امرأته قالت لسايبها : كأنني رجل آدم ( مسترخى الشفتين ) أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار ، قد أخذ برقبتك . والمرار شجر مر إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها وفي آكل المرار خلاف . أم هو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية ( سيرة ابن هشام ٢٥٦/٤ ) والأغاني ٦١/٨ و ٨٢/١٥ وشرح القصائد العشر للتبريزي ٣ ) فهو الجد الثالث لامرئ القيس . أم هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية ( هامش الأغاني ٨٤/١٥ ) والاشتقاق لابن دريد وسيرة ابن هشام ٢٥٥/٤ والقاموس المحيط مادة مر ( فهو جد امرئ القيس لأنه عاش حوالي سنة ٨٠ ) تاريخ العرب ١١٥/١ فيلب حتى ) . (٣) أخبار النساء ٣ وجمع الأمثال ١٧٧/٢



وأن صاحب العقد يذكر هذين البيتين بعد قصة آكل المزار (١) .

أما حماية الزوج لزوجته فإنها صورة من حماية العربي للمرأة عامة ، فلا داعي لتفصيل القول فيها الآن . وحسبنا هنا هذه اللوحة ، يقول مالك بن أبي كعب الأوسى إنه يستعيز بالله من أن تقول زوجته إنه فرّ عنها ، وإنه يجود بآخر قطرة من دمه ليحميها من الأسر :

معاذ الإله أن تقول حليلتي ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلا وأنجو إذا غمّ الجبان من الركب (٢)

وعير عامر بن الطفيل قيساً أنه أسلم زوجته سبية :

وأفلمتاً على الخومان قيس وأسلم عرسه ثم استقاما (٣)

وإذا ما تهاون في حمايتها نبذته ، ورفضت أن تعاشره ، لأنه في نظرها فسل لا تعتز في رحابه ، ولا تطمئن إلى حمايته . من ذلك أن بني عبد مناة أغاروا على عجل وحنيفة في يوم العدّاب ، ويسمى أيضاً يوم الصعاب ، وسبي عمرو بن الحارث أو الحارث بن تولب حسينة بنت جابر العجلي ، وكانت زوجة لابن عمها تمام بن سودة ، ففر عنها فأسرت ، ثم إن زوجها وأباها أتيها ليفادياها ، فرفضت واختارت سايها وقالت تعير زوجها :

تمم قد أسلمتني لرماحهم وخرجت تركض في عجاج القسطل

وتعومني ألا أكره عليكم هيبات ذلك منكم لا أفعل

ثم افتداها أخوها ، وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض تميم ، وقال :

وخيرنا حسينة إذ أتانا سودة ضارعا معه الفداء

وقالت إن رجعت إلى تميم مخيرة فقد ذهب الحياء

وهناها لأبحر إذ أتانا وفيها غيرها منهم نساء

(١) العقد الفريد ٢٠/٢ (٢) حماسة الخالدين ١٠ مخطوط .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٢

وفي ذلك يقول جرير للأخطل :

ورأت حسينة بالعداب فوارسا تحوى التهاب وتقسم الأنفالا<sup>(١)</sup>

### الإسلام ومعاملته الزوجات

لاشك أن الإسلام هذب الأخلاق الجامحة ، وشذب العادات الطالحة ، وسنَّ جديدا من الآداب ، وزاد من عطف الرجال على الزوجات .

فقد شرع القرآن الكريم وسائل تأديب الزوج لزوجته : « واللاتي تخافون تسوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا »<sup>(٢)</sup>

وشرع التحكيم بين الزوجين المتخاصمين : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليا خبيرا »<sup>(٣)</sup> .

وأوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالنساء خيرا في حجة الوداع : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله »<sup>(٤)</sup>

وبين النبي أنه لاغضاضة ولاضير في مداعبة الرجل زوجته : « اللهم في ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك »<sup>(٥)</sup> .

وكان صلى الله عليه وسلم أنبل زوج معاملة ، وأظرف زوج عشرة . وحسبنا قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »<sup>(٦)</sup> .

وقد نهى عن ضرب النساء ، فقليل له يارسول الله إني قد فسدن ، فقال : « اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم »<sup>(٧)</sup> .

(١) أشعار النساء للرزباني ٥٧ - ٥٩ مخطوط (٢) سورة النساء ٣٤ (٣) سورة النساء ٣٥ (٤) تيسير الوصول ٢٥٦/٢ والمغازي للواقدي ٤٣٤ والبيان والتبيين ٢/٣٧ .

(٥) كنز العمال ٣٣١/٧ وعيون الأخبار ٨١/٤

(٦) كنز العمال ٢٥٨/٨ (٧) الطبقات لابن سعد ٨/١٤٧

وقال في خطبة الوداع : « إن الله قد أمر أن تهجروهن وتضر بوهن ضرباً غير مبرح » وهاله أن يلجأ الأزواج إلى الضرب في قلة مبالاة ، فقال : « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائراً فريضٌ عصبٍ رقبته على مريئته يقاتلها ». وشكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضرباً شديداً ، فقام فأنكر ذلك وقال : « يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحي »<sup>(١)</sup> . وللنبي عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في الوصاية بالزوجات والحث على إحسان معاملتهن<sup>(٢)</sup> .

واهتدى بهديه المسلمون ، وساعدهم على تمتيع النساء أن كثرت أموالهم ، حدث محمد بن ربيعة بن الحارث أن أصحاب رسول الله كانوا يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصفون ويتجمل به ، وأنه رأى على عثمان مطرف خز ثمنه مئتا درهم ، فقال له عثمان : هذا لنايلة كسوتها إياه ، فأنا ألبسه أسرها به .

ولا شك أن الإسلام زاد مكانة المرأة عزاً وعلواً ، وعضدها في حريتها في اختيار زوجها ، وكفل لها معاملة حسنة ، حتى لقد دلت بعض المسلمات بمكاتبتهم ، فاشترطن على أزواجهن ، وشططن في معاملتهن ، فمثلاً اشترطت سكينه بنت الحسين على زوجها زيد بن عمرو بن عثمان ألا ينعها سفراً ولا مدخلا ولا مخرجاً ، بل لقد منعه مرة من زيارتها بالطائف حيث أقامت بيت لها ، ثم أمرت بالرحيل إلى المدينة ، وأذنت له فجاءها<sup>(٣)</sup> ، وكانت عائكة بنت يزيد بن معاوية زوجة لعبد الملك بن مروان ، وقد غضبت عليه وهو خليفة ، فاحتجت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل إليها من يخال في إرضائها<sup>(٤)</sup> وقد فعلت ذلك عائشة بنت طاحه مع زوجها مصعب بن الزبير ، حتى أصلح بينهما ابن قيس الرقيات<sup>(٥)</sup> .

(١) كنز العمال ٢٦٠/٨ والطبقات ١٤٨/٨ (٢) كنز العمال ٢٥٨/٨ - ٢٦١

(٣) الأغاني ٩٣/١٧ (٤) الأغاني ١٣٥/٢

(٥) الأغاني ٥١/١٠

## مكانة الزوج عند زوجته

أسلفت القول في الصفات التي كان يتوخاها الخاطب في الفتاة ، ليطمئن إلى حياة منزلية هادئة سعيدة ، وما زال الأزواج يمتدحون في زوجاتهم مظاهر الأنوثة الكاملة التي تتجلى في لين العريكة ، ودماثة الخلق ، وحسن السمع والطاعة . يقول البراء بن قيس في زوجته :

كانت إذا غَضِبَتْ عَلَى تَظَلَّمْتُ      وإذا كَرِهْتُ كَلَامَهَا لَمْ تُثْقَلْ <sup>(١)</sup>  
ويمدح عمرو بن أحمد الباهلي المرأة بأنها ليست ثرثرة الحديث ولا مغالبة ، وبأنها كيسة ، لا تتكلم إلا بما ينفع <sup>(٢)</sup> .  
وقد كانت مكانة الرجل عند امرأته عالية ، وتجلى ذلك في عدة مظاهر .

### مهراله

إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتاً آخر جديداً ، تقيم فيه عمرها ، وتفرس آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبته أمانيتها ، وتشكو إليه آلامها ، بل تمتاز بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميتها وعائلتها ، ووالد بنيتها ، فهي إذا تحبه ويسعددها أن يحبها .  
ولقد تسلك في تحببها إليه أن تتبعل له ، وأن تنجب ، وأن تتذرع بحملها وحسن خلقها .

ولقد يسوقها الحرص على حبه لها أن تتذرع بضرب من الخرافة والوهم ، فتعلق الخرزات ، وتقرأ الرقي . والمرأة هي المرأة في كل عصر وفي كل بيئة ، فما زالت بعض النساء يدنّ بالتعاويد والرقي والتمايم ، ويعتقدن أنها وسائل ناجمة في أن يجتذبن أزواجهن ، ويعمرن قلوبهم .

(٢) البيان والتبيين ١٧٢/٢

(١) معجم البلدان ٣٨٧/٨

وكانت الخرازات في الجاهلية أنواعاً، منها : الهنمة ، وكن يقلن : أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة ، ومنها العطفة والفطسة والسكحلة والصرفة والسلوانة أو السلوان والهبرة والقبل والقيلة<sup>(١)</sup> . ومن خرزاتهن أيضاً الدرديس ، وهي خرزة سوداء كأن سوادها لون السكبد تشف مثل العنية الحمراء ، تتحبب بها المرأة إلى زوجها ، وتوجد في قبور عاد<sup>(٢)</sup> ، والقرزحلة خرزة تلبسها المرأة ليرضى بها زوجها ولا يبتغى غيرها ولا يشرك معها أحداً<sup>(٣)</sup> والسكرار والهجرة ، ورقيتهما : يا كرار كُريه ، يا هجرة أهْمُريه ، إن أقبل فُسْريه . وإن أدير فُسْريه<sup>(٤)</sup> . وقد أشد ابن برى في القرزحلة :

لا تنفع القُرزحَلَةُ العجائِزا إذا قَطَعن دونها المفاوِزا<sup>(٥)</sup>  
وقال شاعر في الدرديس وشدة تأثيرها :

قطعت القيد والخرازات عني فمن لى من علاج الدرديس<sup>(٦)</sup>  
وقال آخر في القبل والفطسة والدرديس :

جمعن من قبل لهن وفطسة والدرديس مُقَابِلًا في المنظم<sup>(٧)</sup>  
وما من شك في أن هذه الودعات خرافة ، لكن لم تقتصر على المرأة العربية ، فقد كان الأقدمون يتخذون الودع والأصداق رموزاً لقدرة النساء على أن يلدن ويهبن الحياة ، ثم زاد شأنه إلى أن صار يقي الأحياء خطر الموت ، ويمنح الموتى طول البقاء ، لذلك أصبح التمنطق بالودع وسيلة لإغراء الرجال بالنساء ، ففي الملاحم البابلية أن أشتار Ishtar ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعها كانت إذا خلعت منطقتها وقفت حركة التناسل حتى تعود إلى لبسها ، واشتهرت منطقة أفروديت Aphrodite بقدرتها على إرغام الناس على الحب ، وكانت قوة برنهلد Brunhild مودعة في منطقتها<sup>(٨)</sup> .

(١) لسان العرب ١٠٧/١٦ ومواد الكلمات . (٢) لسان العرب ٣٨٤/٧

(٣) اللسان ٧٢/١٤ (٤) اللسان ٤٥٢/٢ (٥) اللسان ٧٢/١٤

(٦) اللسان ٣٨٤/٧ (٧) اللسان ٤٥٨/٧ و٣٨٤/٧ (٨) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١

ومردّ ذلك إلى خضوع الناس لسلطان القوى الغيبية في شؤونهم الدنيوية . وما زالت الكثرة العظمى تخضع لهذا السلطان إلى اليوم ، وليس ذلك مقصوراً على غير المثقفين ، لأن الذين تتيح لهم ظروفهم أعظم الفرص للتعلّم والتثقف ينتشر بينهم كثير من الخرافات والأوهام التي لامت إلى الأديان الراقية بصلة . وليست الرقى والتماثم وقراءة الكف ونحوها إلا قليلاً من كثير من الأمثلة التي تدل على ضروب العرافة والسحر المتعددة ، وما زالت باقية بين الطبقات العالية في المجتمعات<sup>(١)</sup> .

ومن مظاهر حبها للزوجها أنها كانت إذا غاب عنها في سفر تأخذ تراباً من قدمه وموضع رجله ، معتقدة أن ذلك يسرع بعودته . قالت امرأة من العرب : أخذت تراباً من مواطئ رجله غداة غداً كيما يشوب مساماً وقالت أخرى :

قالت له واقتبصت من أثره يارب أنت جاره في سفره<sup>(٢)</sup>  
ويتجلى هذا الحب في أن الزوجة كانت تعظم فخيبتها في زوجها أكثر من فخيبتها في أخيها وخالها ، فقد عاد رسول الله من غزوة فلقيته حمنة بنت جحش ، فنعى لها أخاها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله : « إن زوج المرأة منها لم يكن » لما رأى تثبتها عند مصرع أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها<sup>(٣)</sup> .

مخوفها عليه من القتل :

مهما تسكن المرأة العربية كلفة بالشجاعة وبالبطولة فإنها لا بد أن تتخوف على زوجها الردى ، لئلا تحرم حمايته وإعزازه وعشرته ، ولئلا تترمل ، ويتيم بنوها ،

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥ البوت سمث (٢) بلوغ الأرب ٢/٢٣٩

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٢٧ وسيرة ابن هشام ٥٠/٣ والمغازى ٢٨٥

فهي معذورة في أن تحاول أحيانا أن تنفيه عن الحرب وعن الفارات .  
وممن صوروا ذلك عروة بن الورد ، كان قد أجذب هو وصعاليكه ، فأراد أن  
يخرج ليغزو ، فنبهته امرأته خوفا عليه من الردى ، فعصاها وخرج غازيا ، وأصاب  
إبلا عاد بها على نفسه وصحبه وقال :

أرى أم حسان الغداة تلومني      تخوفني الأعداء والنفس أخوف  
تقول سلمى لو أقمت لمرنا      ولم تدر أنى للمقام أطوف  
لعل الذى خوفتنا من أمامنا      يصادفه فى أهله المتخلف<sup>(١)</sup>  
ويكرر هذا المعنى فى قوله :

تقول لك الويلات هل أنت تارك      ضبوا برجل تارة وبمئسر  
ومستثبت فى مالك العام إننى      أراك على أقتاد صرماء مذكر  
فجوع لأهل الصالحين مزلّة      تخوف رداها أن تصيبك فاحذر<sup>(٢)</sup>  
وهو حنى بتكرير هذا<sup>(٣)</sup> .

ويشرکه فى هذا الحديث عمرو بن براقه الهمداني :

تقول سلمى لا تعرّض لتلفّة      وليك عن ليل الصعاليك نائم<sup>(٤)</sup>  
وعمر بن معد يكرب :

أعاذل عذنى بزى ورمحى      وكل مقلّس سلس القياد  
أعاذل إنما أفنى شبابى      إجابتى الصريح إلى المنادى<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ٨٢/٣ وشعراء النصرانية ٨٩٨ وديوان عروة ٢٣

(٢) شعراء النصرانية ٨٨٤ ضبوا : لصوقاً بالأرض لحتل الصيد والمراد أصحاب المال .  
رجل : رجال . مئسر : خيل والمراد خيالة . أقتاد صرماء مذكر : الأقتاد خشب الرجل أو  
جيم أذاته والمراد الرجال . صرماء : مغارة لأماء فيها (أساس البلاغة) مذكر : داهية شديدة  
أو طريق مخوف والمراد على شفا هلاك . فجوع : تفجع الناس بالسطو عليهم . الصالحين : ذوى المال

(٣) ديوان عروة ١٣ و ٢١ (٤) حماسة الخالدين ٥ مخطوط .

(٥) العقد الفريد ١٤٣/١

وكعب بن سعد الغنوي يفصل حواراً بينه وبين زوجته فيقول :

لقد أغضبتني أم قيس تلومني وما لوم مثلي باطلاً بجميل  
تقول : ألا يا استبق نفسك لاتكن تساق لغيراء المقام دحول  
أراك اسراً ترمي بنفسك عامدا مرامي تقتال الرجال بفول  
ألم تعلمي ألا يراخي منيتي قعودي ولا يدني الوفاة رحيلى  
فانك والموت الذى ترهينيه على وما عذأله بعقول  
كداعى هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل<sup>(١)</sup>

هؤلاء الشعراء ومن على شاكلتهم كمضرس بن ربیع<sup>(٢)</sup> قد يكون تصويرهم هذا صادقا ، وقد يكون ضربا من الفخر بالبسالة واقتحام المبالك ، ولكنه على الحالين تعبير عن دخيلة الزوجة ، وخشيته على زوجها ، لأن الشاعر ما كان ليتخذ عذلا وتخوفها مدرجة إلى غره إلا وهو على يقين من صوابه فى تصوير نفسه زوجته .

مرصها على ماله :

من أحق من الزوجة الخبة الوفية بالحرص على مال الزوج ؟ إن الأم تحرص على مال ابنها بدافع الأمومة ، غير متأثرة بنفع شخصي تتوقعه ، أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة فى الحياة ، وبدافع شخصي من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيتها ولزوجها ، وأنها تحقق به آراها ، فهي أشد من الأم حرصاً ، وأشد منها لوما للرجل على الإسراف ، وهي ترى إسرافاً ما يعتده الزوج أريحية وواجباً محتوماً . لهذا أكثر الشعراء من تصوير الزوجات لومات على البذل ، فهل كان ذلك لأنهم يتوسلون بهذا التصوير إلى الفخر بالكرم ؟ أو كان هذا تخيلاً من الشاعر أراد به أن يعظم من عزمته ومروءته ، فهو يكرم حين يلام ؟



أرى أن الرجل كأن صادقاً في حديثه عن لوم امرأته ، فليس من المعقول أن يصم زوجته أو أمه بالبخل المدعى ليمهد به إلى أن يفخر بكرمه وغلبته على اللوم للتخيل ، لأنه بذلك يسيء إلى نفسه أيضاً . وإنما كان الأكمل لفخاره أن تكون أمه كريمة أورثته الكرم ، وأن تكون زوجته كريمة ، لأنها نشأت على الكرم في بيت أبيها صهره ، وعاشت مع زوجها الكريم فصادف كرمه في نفسها هوى . وإذا فالراجح في نظري أن الشعراء كانوا صادقين في تصويرهم ، وأن النساء كن أبخل من الرجال ، كما سألين في أخلاق المرأة . وقد حاولت ماوية بنت عفزر أن تكف زوجها حاتماً عن سخائه فتأبى عليها ، فلما ضاقت به طاقته <sup>(١)</sup> ، وفي ذلك قال قصيدته التي مطلعها :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد      كذلك الزمان بيننا يتردد  
يفخر فيها بكرمه ، ويشيد بآثاره <sup>(٢)</sup> . ويظهر أن حاتماً كان قد أجهد نفسه في الدفاع عن مذهبه ، وفي تحبيب السخاء إلى زوجاته ، بضرب الأمثال ، كقوله لماوية :

أماوى إن المال غاد ورائح      ويبقى من المال الأحاديث والذكر  
أماوى إني لا أقول لسائل      إذا جاء يوماً : حل في مالنا نزر  
أماوى ما يُغنى الثراء عن الفتى      إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر  
أماوى إن يصبح صداى بقفرة      من الأرض لا ماء هناك ولا خمر  
ترى أن ما أهلك لم يك ضرنى      وأن يدى مما بخلتُ به صفر <sup>(٣)</sup>

وقوله لنوار وقد حاولت أن تصده عن سخائه فرفض <sup>(٤)</sup> ، وقوله لزوجتيه .  
معا وقد هددتاه بالطلاق :

(١) ذيل الأمال ١٥٣ والأغاني ١٠٢/١٦ (٢) الأغاني ١٠٢/١٦ (٣) زهر الآداب ١٨٣/٣ وشعراء الصراية ١٠٩ والعقد الفريد ١/٣٣٦ ودبوان حاتم ١١  
(٤) العقد الفريد ١/٣٣٤

وعاذلتين هَبَّتَا بعد هَجْعَةٍ      تلومان متلافا مقيدا ملوَمَا  
 تلومان لما غَوَّرَ النجم ضَلَّةً      فتى لا يرى الإنفاق في الحق مَغْرَمَا  
 فقلت وقد طال العتاب عليهما      وأوعد تمناني أن تبيننا وتَصْرَمَا  
 ألا لا تلومانى على ما تقدما      كنى بصروف الدهر المرء مُحْكَمَا  
 فإنكما لا مَضَى تدركانه      ولست على ما فاتنى متقدما<sup>(١)</sup>

وقد أضاف النمر بن تولب قوما، وعقر لهم أربع قلائص، واشترى لهم زق خمر، خفقت زوجته ولامتة، فقال لها إن لومك سفه، وإنك تتخوفين الغد، ولكنك لا تستطيعين أن تردى الفقر عني بيجلاك، ثم قال إنها بكت لما سبأ الزق لضيوفه، على أنه اشتراه بجمل مسن مهزول، وبكت لأنه نحر لهم قلائص أربعة، على أنه قد نحر مثلاً لغيرهم من قبل، فهذا البكاء ضلة منها وسفه، بل إنه تباك لابكاء. ثم أمرها أن تفسح لإخوته ليستمتعوا معه بما يملك، وقال إنه لا بد أن يموت ويترك ماله فماذا يقسره على البخل؟ ثم ضرب لها أمثلة بمن ماتوا وخالفوا المال لغيرهم:

قالت لتعذلى من الليل: اسمع      سَفَهَ تَبَيُّتُكَ الملامة فاهْجَعِي  
 لا تجزعى لعدٍ وأمرٌ غدٍ له      أتعجَّلين الشرَّ ما لم تمنعِي؟  
 قامت تبكى أن سبأت لفتية      زِقًا وخايبةً بَعُودٍ مُقْطَعِ  
 وقريتُ في مَقَرِّي قلائص أربعة      وقريتُ بعد قِرَى قلائص أربع  
 أتبكيًا من كل شيء هين      سفهٌ بكاء العين ما لم تدمع  
 فإذا أتاني إخوتي فدعهم      يتعللوا في العيش أو يلهوا معي  
 لا تطردهم عن فراشي إنه      لا بد يوما أن سيخلو مضجعي  
 هلا سألت بعاديا وبيته      وانخلَّ والخمر التي لم تمنع

لا تجزعى إن مُنفسٌ أهله كنهه . وإذا علمت فعمد ذلك فاجزعى<sup>(١)</sup>  
وهذا الضرب من المقال كثير<sup>(٢)</sup> .

وبعض الرجال مع نساءهم البخيلات الحريصات على المال أقاصيص ، كهذه  
التي رووها عن حُجَيَّة بن المضرِّب ، فقد رأى جاريته معها قعب من لبن فقال :  
أين تذهبين ؟ قالت إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه . فلما أراح راعيه إبله عليه  
قال لعبديه : أريحا هذه الإبل على أولاد أخى . فأراحها كلها عليهم ، فغضبت  
امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال قصيدة يتحدث فيها عن غضب زوجته وغيظها ،  
وعن أنفته أن تهدي إلى أولاد أخيه لبنا في قعب كما يجاد على السائين والبائسين ،  
وأنه أمر عبديه أن يذبحا النوق عند أولاد أخيه ، ليحتابوا ما يشاءون ، ولم يعبا  
بغضب زوجته وحنقها ، بل إنه أرضى نفسه بهذا الصنيع ، وهو ليس ببلد الحسن  
للموما ، وليس أحق فتخذه بكحلها لتنسيه ماوجب عليه من رعاية أولاد أخيه ،  
وإنما هو رجل يحتفظ لنفسه بمقومات الرجولة ، فلتعش معه على مايريد فيعزها ،  
وإلا فلتفارق ، ثم ذكر الباعث له على حفاوته بأبناء أخيه أنه وفاء لأبيهم :

لججنا ولجَّت هذه في التَّغصُّب      واطَّ الحجاب دوننا والتجنب  
وخطَّت بعود إثمٍ فوق عينها      لتُدْهِب عَقْلِي بالنَّوَكَة زِينِي  
تغم على مال شـفاني مكانه      فلو على ما فاتك اليوم واغضي  
ولا تحسبيني بَلْدَمًا إذ نكحتهُ      ولـكنني حُجَيَّة بن المضرِّب

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢١٥/١ تبكى : تهيج للبكاء . سبأ : اشترى للشرب . خاية :  
جرة عظيمة . عود : مسن من الإبل . مقطوع : مهزول . قرئت في مقرئ : أضفت في مضيف .  
فراشئ : المراد بيتى . عادياء : أبو السموأل . الخل : جم خلة ومن الخمر أو حامضتها أو المتغيرة  
بلا حوضة ، والمراد بالخل والخمر أنه كان يجود بالخمر بنوعيهما (٢) ديوان حاتم ٨ والأغاني  
١٥٨/١٩ و١٠/٢١ و١٠/الألمالى ٣٨/١٩ و٤/٢ و٢٨٠،٤/١٦ و٢٣،١٠٦/٢ و١٥٨/١٩  
وشعراء النصرانية ١٢٦ وشرح الحماسة للبرزى ١١٧/٤ ومنتهى الطلب من أشعار العرب  
١٧/١ ، ١٥٩ مخطوط والمؤتلف والمختلف ٨٦ والأصمعيات ٥/١ وخزانة الأدب ٢١٥/١  
و ٢٩٠/٢ وديوان عبيد القصيدة ٢٨ .

فإن تجلسي فأنت أقفني عيالنا  
رحمت بني معدان إذ ساف ملهم  
ولما رأيت النفس ألا تُقَرَّها  
رثيت لهم لما رأيت سَوَامَهُمْ  
فقلت لعبدنا : أريحنا عليهم  
وقلت : خذوها واعلموا أن عمكم  
عياي أحق أن ينالوا خصاصة  
أحابي بها قبر امرئ لو أتته  
أخى والذي إن أدعاه لعظيمة  
وإن تكروهي هذى المعيشة فاذهبي  
وحقَّ لهم مني وربَّ الخصب  
هدايا لهم في كل قَعْبٍ مُشَعَّب  
عطاء الموالى من أفيلٍ ومُصَعَّب  
سأجعل بيتي مثل آخر مُعْزَب  
هو اليوم أولى منكم بالتكسب  
وأن يشر بوارثنا إلى حين مكسب  
حربياً لآساني على كل مركب  
يحبني وإن أغضب إلى السيف يغضب<sup>(١)</sup>

لم تقتصر الزوجة على أن تلوم في الكرم ، بل لامت أيضاً في إعزاز الخليل  
وتقديم الابن لها ، ونحن نعلم أن العرب كانوا يراعون خيالهم ويؤثرونها أحياناً على  
أنفسهم وأهليهم<sup>(٢)</sup> . يقول ربيعة بن مقروم :

وجُرداً يقرَّب بن دور العيال  
خلال البيوت يُلْكِن الشَّكِيما<sup>(٣)</sup>

وكانوا يخصونها بلبن الإبل تقوية لها وإعزازاً ، قال المتلمس :  
أبقت لنا الأيام واللَّزْ بَاتُ والمعاني المرَّهَق  
جُرداً بأطناب البيوت تُعَلِّ من حَلَبٍ وتُعَبِّق<sup>(٤)</sup>

غضبت الزوجة من هذا الإعزاز ، ورأت أنه إسراف ، فلامت زوجها ،  
لكنه لم يصغ إليها ، يقول قبيصة بن النضراني إنها لامته ، وإنها تجهل قيمة  
الخصان إذا حُزب الأمر :

(١) المؤنث والمختلف ١٨٣ والأغاني ١٠/٢١ لط : لزوم . بدم : أحق ثقيل خيم .  
أقنى عيالنا : خيرهم . النواكة : الحق . ساف : قد . أنيل : ولد الناقة . مصعب : خل من  
الإبل . حريب : في شدة .

(٣) المفضليات ١٨٣/١ .

(٢) الحياة العربية ٢٥٧

(٤) ديوان المتلمس ٩ مخطوط .

هاجرتي يا بنت آل سعد أين حابتُ لِقَحَّةً للورد  
جهت من عنانه المتمد ونظري في عظمه الألد  
إذا جباد الخيل جاءت تردي مملوءة من غضب وحرد<sup>(١)</sup>  
وقال الأعرج المعنى إنها عدلته ، وهي لاتدري أن الحصان أنفع منها إذا  
جد الجد ، وأنه سيجزي صاحبه حين الحرب :

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تلوم وما أدري علام تَوَجَّع ؟  
تلوم على أن أعطى الورد لِقَحَّةً وما تستوى والورد ساعة تفرع  
إذا هي قامت حاسرا مُشَمَّلَةً نخيب الفؤاد رأسها ما تُقَنِّع  
وقت إليه باللباس مُيسراً هنالك يحزني الذي كنت أصنع<sup>(٢)</sup>  
وكذلك تحدث حُزْر بن لُوْذَان<sup>(٣)</sup> وحِبَال بن حِسل<sup>(٤)</sup> وحاجب بن حبيب  
الأسدي<sup>(٥)</sup> وغيرهم .

وعذلت في الخمر أيضا. وأكثر الشعراء من الحديث عن عدلها، قال أبو ذؤيب:  
رأتني صريع الخمر يوما فسؤتها يَقْران إن الخمر شُعْتُ صحابها  
وضاق أحدهم بلومها فتهددها بالتغالي في الشراب إن لم تكف عن اللوم ،  
ولا يخلو تهديده من تصوير فكه :

غضبت على لأن شربتُ بِحَزَّةٍ فلئن أيت لأشربن بخروف  
ولئن غضبت لأشربن بنعجة دَهَسَاء مألثة الإناء سَجُوف  
ولئن غضبت لأشربن بنساقة كُوماء ناوية العظام صفُوف  
ولئن غضبت لأشربن بسائح نَهْدٍ أَشْمٍ المَنَّكِبَيْنِ مُنِيف

(١) شرح الحماسة للبريزي ٨٩/٢ .

(٢) معجم الشعراء ٢٥١ وشرح الحماسة للرزوقي ٣٤٩/١ . مشرعة . نخيب  
الفؤاد : طائفة اللب . ميسراً : مهيباً .

(٣) البيان والتبيين ٣١٦/٣

(٤) المؤلفات واختلاف ٨٦

(٥) الفضليات ١٦٨/٢ .

ولئن غضبت لأشربنّ بواحدى ولأجعلنّ الصبر منه حليفي<sup>(١)</sup>  
 وذهب سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلِ الرِّياحِ إلى أن الخمر هي الثناء والفخر ، وأنها لب  
 الحياة ، وهي خير من زوجته اللائمة :

تقول حوراء ليس فيك سوى الخمر ر معيب يعيبه أحد  
 فقلت : أخطأتِ بل معاقرتي الخمر ر وبذلي فيها الذي أجد  
 هو الثناء الذي سمعت به لا سَبْدٌ تُخَدِي ولا لَبَدٌ  
 ويحك لولا الخمر لم أحفل العير شَ ولا أن يضمّنِي كُحْدَ  
 هي الحيا والحياة واللهو لا أنت ولا ثروة ولا ولد<sup>(٢)</sup>  
 ويبدو أن الليل كان الظرف الملائم لهذه الملامة ، لأن الزوج حينئذ يخلو  
 إلى زوجته فتنفرد به ، ويتناولان معا شئون اليوم ، قال حاتم :

وعاذلتين هبتا بعد هجمة تلومان متلافا مفيدا مُلَوِّما  
 تلومان لما غَوَرَ النجمُ ضِلَّةً فتى لا يرى الإنفاق في الحمد مَعْرُوما<sup>(٣)</sup>  
 ويقول عبيد بن الأبرص :

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحي<sup>(٤)</sup>  
 ويقول النمر بن تولب :

قالت لتعذلي من الليل اسمع سَفَّةً تَبَيَّنَتْكَ الملامة فاهجعي<sup>(٥)</sup>  
 ويقول ضَمْرَةُ بْنُ ضَمْرَةَ إن زوجته عجبت بلومه بعد موهن من الليل :

بكرت تلومك بعد وَهْنٍ في الندى بَسَلٌ عليك ملامتي وعتابي<sup>(٦)</sup>

(١) الأُمالي ١٥٠/١ دهسَاء : محررة اللون أو عظيمة الإلية . سَجُوف : عليها طبقتان  
 من الشحم . كوما : عظيمة السنام . ناوية العظام : سمينة . صفوف : نصف بين رجلها عند  
 الحلب وأن تحلب في عجلين أو ثلاثة ، فهي غزيرة اللبن . سابع نهد : فرس ضخم .  
 (٢) البيان والبيان ٣/٣٤٤ (٣) خزائن الأدب ٢/٢٩٠ .  
 (٤) ديوان عبيد القصيدة ٢٨ (٥) خزائن الأدب ١/٢٥١ .  
 (٦) الأُمالي ٢/٢٨٠ بكرت : المراد عجبت . بسل : حرام .

## وفاءها لها :

إذا ما نجعها الدهر في زوجها وقت له ما عاشت ، ولهذا الوفاء عدة مظاهر .  
 ١ — فعنى تذكره بالخير ، ولقد يتزوجها غيره فلا تفك عن هذه الذكرى ،  
 بل ترطب بها لسانها على مسمع من زوجها الثاني ، من ذلك أنه لما قتل لقيط  
 ابن زرارة تزوج امرأته بنت هانيء بن قبيصة رجل من أهلها ، فكان لا يزال  
 يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت :  
 كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة فرجع إلى وبقميصه  
 نضح من دماء الصيد ، والمسك يذوق من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ،  
 فضمنى ضمة ، وشئني شمة ، فليتني مت شمة . ففعل زوجها مثل ذلك يوماً ،  
 ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء<sup>(١)</sup> .

٢ — ولقد تعاف الزواج بعده ، وتقضى حياتها أيماً ، أو تترهب ،  
 كما ترهبت هند بنت النعمان بن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدى بن زيد ،  
 وحبت نفسها في الدير المعروف بدير هند في الحيرة ، ثم خطبها المغيرة بن شعبة  
 وإلى الكوفة في عهد معاوية فرفضت<sup>(٢)</sup> .

وكذلك فعلت في الإسلام نائلة بنت الفرافصة الكلبية ، فإنه لما قتل عثمان  
 خطبها معاوية وألح عليها ، فقالت : ما يعجب الرجل مني ؟ قالوا : ثناياك ،  
 فكسرت ثناياها ، وبعثت بها إليه فأمسك . ومثلها الرباب بنت امرئ القيس ،  
 كانت زوجة للحسين بن علي ، وكان يحبها وتحبه ، يقول فيها وفي بنته سكينه :  
 لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سكينه والرباب

(١) جهره الأمثال ١٥٣/٢ وجمع الأمثال ٢٠٦/٢ صءاء: بئر عذبة لم يكن عندهم أعذب  
 من مأثها وفيها يقول ضرار السعدي .

ولاني وتهاى يزنب كالتى تطاب من أحواض صءاء مشرباً  
 (٢) الأغاني ١٣١/٢

فلما قتل خطبت ، فقالت : والله لا اتخذت حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

وروى الأصمعي عن رجل من بنى ضبة أنه عرض على فتاة تأيت أن يتزوجها ، فأطرقت ساعة ، ثم رفعت رأسها ، وعيناها تذرفان دموعاً وقالت :

كننا كفصنين من بان غذاؤهما ماء الجداول في روضات جنات  
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه دهر يكرُّ بفرحات وترحات  
وكان عاهدني إن خانتني زمن ألا يضاجع أنثى بعد موتاني  
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مُذْ سُنَيَاتِ  
فأصرف عتابك عمن ليس يصرفه عن الوفاء له خَلْبُ التحيات<sup>(٢)</sup>

٣ — ولقد يدفعها وفاؤها لزوجها أن تحسن أخاء ليثار له ، وتلومه على تغافله عن القصاص لأخيه ، كما فعلت أميمة امرأة عروة بن مرة إذ دخلت على أخيه أبي خراش خويلة بن مرة فرأته يلعب ابنه ، فقالت له : يا أبا خراش ، تناسيت عروة ، وتركت الطالب بثاره ، ولطوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله فبكى أبو خراش ، وقال :

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي وأنى ثوائى عندها لتقليل  
وقالت أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل  
فلا تحسبي أنى تناسيت فقدَّه ولكن صبرى يا أميم جميل<sup>(٣)</sup>

٤ — وإنما لتفجع على زوجها إذا ما اختطفه المنون ، لأنه سندها قد تقوض ، وأملها الفينان قد صوّح ، وقلما تصبر على البلوى ، فتذهب تقص شعرها ، وتشمس وجبها ، وتشق جيبها ، وتلطم خدها ، وتدعو بدعوى الجاهلية . قال طرفة لزوجته :

(١) المحرر ٣٩٦ وأخبار النساء ٦٢ والمستطرف ١٨٥/١

(٣) الأغاني ٥/٢١

(٢) عيون الأخبار ٣١/٤ وأخبار النساء ٦١ .

( ١٤ - المرأة في الشعر الجاهلي )



فإن مت فأنعني بما أنا أهله وشقي على الجيب يا بنة معبد<sup>(١)</sup>  
وقال ضابئ بن الحارث البرجمي :

همت ولم أفعل ، وكدت وليتني فقلت فكان المولاتِ حلأته<sup>(٢)</sup>

وخشى قيس بن مسعود الشيباني على ابنته أن تفعل ذلك إذا قتل زوجها  
لقيط بن زرارة أو مات ، فأوصاها فيما أوصى بالأا تخمش وجهها ، ولا تحلق  
شعرها<sup>(٣)</sup> . وقد جزت نساء قريش شعور رؤوسهن حزناً على قتلى بدر<sup>(٤)</sup> .  
وكان بعضهن من المهتاجات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين ، يدل على ذلك  
قول عبد مناف بن ربيع الهذلي :

يربع قلب ابنتي ربيع عويلهما لا ترقدان ، ولا يؤسى لمن رقد  
كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصباً من بطن حلية لا رطباً ولا نقداً  
إذا تأوب نوح قامتا معه ضرباً أليماً يسبت يلعج الجلدا<sup>(٥)</sup>  
ويدل على ذلك أيضاً قول الخنساء في رثاء أخيها معاوية :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق<sup>(٦)</sup>

هذه الفجعة العظمى التي تفجع بها الزوجة ، فتبهجها وتفقدتها رشدها حلت  
بالمرأة اليونانية أيضاً فأحست بأنها أشد وأدهى من فجعة الأب بابنه والأم بابنها ،  
قالت أندروماخ إن مصابها بقتل هكتور أشد من مصاب أبيه وأمه وأقاربه :

(١) ديوان طرفة ٣٥ (٢) حماسة البحتري ٥ .

(٣) المقد الفريد ٢١١/٣ (٤) المغازي ١١٦ .

(٥) الكامل للعبد ٢٦٣/٣ ابتنا ربيع : أخناه . قصباً : مزماراً يريد أنهما لنواحيهما  
كأن في جوفهما مزماراً . لا رطباً ولا نقداً : ليس القصب رطباً يكتم الصوت ولا متاً كلاً  
يسرع إليه العطب فيخفي الصوت . تأوب نوح : عاودهن نوح في جنح الليل . سبت : نعل .  
يلعج : يهيج . الجلد : الجلد ، والكلمة بسكون اللام وتحريكها كما في القاموس .

(٦) لسان العرب ١١/٣٤٥ وديوان الخنساء ١٧٣ .

جلّ عن واجب التأسي أساكاً ولقد هدّ والديك رداكاً  
إنما لي فوق الجميع شجاًكا<sup>(١)</sup>

ولما جاء الإسلام نعى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في الحزن ، فقال  
ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية<sup>(٢)</sup> ، وروى  
عنه أنه برىء من الصالحة والخالقة والشاقة<sup>(٣)</sup> .

٥ — وكثيراً ما كانت الزوجة ترى زوجها ، تصور في رثائها لمعتها  
ونحيبتها ، وتتحدث عن مآثره في قومه . قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية  
في رثاء زوجها الجراح إنها تلتذ البكاء بدموع غزار تتحدر من جوانب عينيها ،  
فقد كان ملاذها وتركها بغير ملاذ ، وكان أبيعاً حمياً تعزبه ، وتحمي بسلطانها ، وتمشي  
مختالة في الناس ، ولكنها اليوم ذليلة تخضع للذليل ، ويعتدى عليها ، فتضطرب  
إلى أن ترد المعتدى بيدها :

يا عين بكّي عند كل صباح جودي بأربعة على الجراح  
قد كنت لي جبلاً ألوذ بظله فتركتني أضحي بأجرد ضاح  
قد كنت ذات حمية ما عشت لي أمشي البراز وكنت أنت جناحي  
فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظلمي بالزاح  
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدّ فوارسى ورماحي  
وإذا دعت قرية شجّنا لها يوماً على فنن دعوت صباحي<sup>(٤)</sup>  
وقد تمثلت السيدة عائشة بهذه الأبيات بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>

(١) الألياذة ١١٤٥ (٢) شرح المبدى من مختصر الزبيدي ٣٥/٢ .

(٣) شرح المبدى ٣٦/٢ الصالحة : الرافعة صوتها في المصيبة . الخالقة : التي تقس شعرها  
حزناً . الشاقة : التي تشق جيبها حزناً .

(٤) شرح الحماسة للتبريزي ١٨٩/٢ والأمالى ١/٢ جودي ١/٢ جودي بأربعة :  
بالموقين والحاظين أو يشقون أربعة . دعوت صباحي : قلت واسوء صباحي .

(٥) الأمالى ١/٢ .

وصورت جليلة بنت مرة فجيعتها في زوجها كليب ، ووجيعتها من قتل  
أخيها جساس له ، بقصيدة حارة ، يهمنها منها هنا أن قتل زوجها قوض بيتها ،  
وهدم أملها ، ورمأها فأصمأها ، وأحرقها بنار الهم والحزن ، حتى لقد تمت  
لو أن حياتها كانت فداء لزوجها :

جلّ عندي فعل جساس فيا حسرتي عما انجأت أو تنجلى  
فِعلُ جساس على وجدى به قاطع ظهري ومدني أجلى  
ياقتيلاً قوض الدهر به سقف بيتي جميعاً من عل  
هدم البيت الذي استحدثته واثني في هدم بيتي الأول  
ورماني قتله من كذب رمية المضي به المستأصل  
يانسائي دونكن اليوم قد خصى الدهر برزء معضل  
خصى قتل كليب بلظي من ورأى ولظي من أسفل  
ليته كان دما فاحتلبوا درراً منه دمي من أكل<sup>(١)</sup>  
أما حديثهن عن شجاعة الزوج ، وبلائه في الحروب ، وسيادته ، وكرمه ،  
ومحامده فإنه لا يغيّر ماردده الرجال في مرأيتهم ، كرتاء خرنق لزوجها<sup>(٢)</sup> ، ورتاء  
الخنساء مزداس السامي<sup>(٣)</sup> ، ورتاء دختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة<sup>(٤)</sup>  
ولم تختلف الزوجات المسلمات عن هؤلاء في شيء<sup>(٥)</sup> ، وسأفصل القول في  
ذلك في (شعر المرأة) .

(١) أشعار النساء مخطوط ٥٠/٣ والوحشيات ١٠٧ مخطوط والكامل لابن الأثير  
٢١٦/١ والأغانى ٦٣/٥ ونهاية الأرب ٢١٤/٥ .

(٢) ديوان خرنق ٣ - ٥ مخطوط وأشعار النساء مخطوط والأمالى ١٥٨/٢ .

(٣) ديوان الخنساء ١٩٧ وبلاغات النساء ١٦٨ والأغانى ٧٢/١٣ .

(٤) الشعر والشعراء ٢٧٢ .

(٥) مثل رتاء عائكة بنت قنبل لأزواجها الأربعة (الحماسة البصرية ٨٤ مخطوط وحسن الصحابة  
في شرح أشعار الصحابة ٢٩٤/١ ورتاء الرباب لزوجها الحسين بن علي (الأغانى ١٥٨/١٤) .

ليس من الطبيعي أن يطرد حسن العشرة في النساء جميعاً ، وأن يكن كلهن على طراز من الخلق الكريم ، وإنما الطبيعي أن يتفاوتن في ذلك ، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع ، نايبات العشرة .

وقد تحدث الشعر عن هؤلاء أيضاً ، كما تحدث عن الصالحات .

١ — فالمرأة قد تشعب على زوجها ، كما يقول عامر بن الطفيل إن زوجته أصبحت تلومه على غير ذنب ، وإذا مارده عليها دعوى أتته بأخرى ، وهذا ضرب من المعاملة لا يرضاه — على أنه مازال في طبع بعض النساء إلى اليوم — ثم يرى أنه لا خير في صلة وهت أسبابها وتزايلت عراها :

وقد أصبحت عرسي الغداة تلومني      على غير ذنب هجرها وصدودها  
فإني إذا ما قلت : قولي ، فأنقضي      أتنى بأخرى ، خطلة لا أريدها  
فلا خير في ود إذا رثَّ حبله      وخير حبال الواصلين جديدها<sup>(١)</sup>

ويقول عمرو بن قميئة إن زوجته قد ارتحلت إلى أهلها مفضبة ، وهو راض عن فرقها هذه ، بل يدعو عليها بالهلاك ، ويقول إنها قد شفت عليه ، فلا بد أن يقابل شغبها بمثله ، فقد جرب معها اللبن والدمائة ، فلم تكن لينة ولا دمة :

فبيني على نجم شخيسٍ نحوسه      وأشأم طير الزاجرين سنجها  
فإن تشغبي فالشغب مني سجية      إذا شيمتي لم يؤت منها سجيحها<sup>(٢)</sup>

ويتحدث أعشى بنى مازن أو بنى حرماز ( الحارث بن قراد بن سفيان ) عن شغب زوجته شاكياً إلى ملك من ملوك العرب ، فيقول إنه خرج يشغبي من خيرات الأرض ، فنازعته زوجته ، وهربت إلى قومها ، نا كثة بعهدا ، ويغتم شكواه بأن النساء شر غالب للرجال :

(١) ديوان عامر القصيدة ٦

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ١٤ شخيس نحوسه : متمد شؤمه . سجيح : ابن سهل .

ياسيد الناس وديان العرب : إليك أشكو ذرْبَةً من الذرب :  
 خرجتُ أبغيها الطعام في رجب تخلفتني بنزاع وهسرب  
 أخلفت العهد ولطت بالذَّبِّ وهن شر غالب لمن غلب<sup>(١)</sup>

٢ - وقد تتبرم بفقر زوجها ، ونحن نعلم أن العرب عاشوا كما عاش غيرهم ، متفاوتي الفقر والغنى ، وأن الفقر كان أكثر شيوعاً وأوسع دائرة . وكثيراً ما شكوا بعضهم آلام الفقر ، وضاقوا بهم الناس بالفقير أو استهاتهم به ، وكثيراً ما شكوا بعضهم تبرم الزوجات بفقر بعولتهم ، فثلاً عروة بن الورد يزيد ضجراً أن تجتوى الزوجة زوجها الفقير ، لأن تنكرها له أشد عليه مرارة من تنكر الناس :

ذريني للغنى أسمى فإني رأيت الناس شرهم الفقير  
 وأهـونهم وأحقرهم لديهم وإن أسمى له نسب وخير  
 ويُقصَى في الندى وتزدريه حليته وينهره الصغير<sup>(٢)</sup>

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل بفراق زوجته التي قلته لفقره<sup>٤</sup>  
 وأساءت عشرتها له :

تلك عرسى غضبي تريد زياًل البين تريد أم للدلال ؟  
 إن يكن طبك الفراق فلا أحفل أن تعطفى صدور الجمال  
 كنت بيضاء كالمهاة وإذا آ تيك نشوان مُرخياً أذياًل  
 فاتركي مط حاجيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال  
 زعمت أنني كبرت وأنى قل مالى وضمن غنى الموالى<sup>(٣)</sup>

ومنى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل زوجته - وقد سألتاه الطلاق لما افتقر -

(١) معجم الشعراء ١٥ الذربة : السليطة اللسان . اطت بالذَّبِّ : أصرت على الجد في رحلتها وفرقتها .

(٢) ديوان عروة ٢٠ والبيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء النصارية ٨٨٨ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/٢٣٦ .

بأن ماله قد يكثر، فيقتنى العبيد والخدم والإماء، ويمتعهما ويكسوها أنفس الكسا:  
 تلك عرساي تنطلقان على عمدي لي اليوم قول زور وهثر  
 سالتاني الطلاق أن رأتما لي قليلا، قد جثمتي بُنكر  
 فلعلي أن يكثر المال عندي ويُعزّي من المفارم ظهري  
 وتُرّي أعبد لنا وأواق ومناصيف من خوادم عشر  
 وتجُرّا الأذيال في نعمة زو ل تقولان: ضع عصاك لدهر<sup>(١)</sup>  
 ولقد عبت أم حبيش في وجه زوجها ذي الحرق (خليفة بن حمل بن عامر)  
 وخاصته، لأنه افتقر، ورأت إبله مهزولة لا تحمل إلا خرقاً، وحضته على أن  
 يجهد في كسب المال:

ما بال أم حبيش لا تكلمنا لما افترقنا وقد نُثري فنتفق  
 تُقَطِّع الطرف دوني وهي عابسة كما تشاوس فيك النائر الحنق  
 لمأرات إيلي جاءت حمولتها غزّي عجافاً عليها الريش والحرق  
 قالت، ألا تبتغي مالا تعيش به عما نلاق وشر العيشة الرّمق<sup>(٢)</sup>  
 وكذلك حضت تماضر زوجها عروة بن الورد<sup>(٣)</sup>، وبذلك تحدث تأبط  
 شرا<sup>(٤)</sup> وعبيد<sup>(٥)</sup> وجابر الطائي<sup>(٦)</sup>.

ويظهر أن هذه الخصلة لم تزايل المرأة بعد العصر الجاهلي، فقد تحدث أعشى  
 همدان عن تبرم زوجته بفقره:

قالت تعاتبن عرسي وتسألني أين الدراهم عن والدانير؟

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٥ وفي الأغاني ١٦/٦٠ أن الشعر لنبية بن الحجاج السهمي .  
 مناصيف : ج منصف وناصف وهو الخادم ، زول : ظريف .  
 (٢) المؤلف والمختلف ١١٠ وخزانة الأدب ١/٢٧ تشاوس : نظر بتؤخر عينه . غزّي  
 جياع . الرّمق بكسر الميم وفتحها الشيء القليل الذي يحفظ بقية الحياة .  
 (٣) ديوان عروة ٩ (٤) الحماسة البصرية ١٢ مخطوط .  
 (٥) البيان والتبيين ١/٢٣٦ (٦) شرح الحماسة للمرزوق ١/٣٠٤ .

فقلت أنفقتهما والله يخلفها والدهر ذو مِرَّةٍ عُسْرٍ وتيسير  
 إن يرزق الله أعدائى فقد رزقتُ من قبلهم فى مراعيها الخنازير  
 قالت : فرزقك رزقٌ غير متسع وما لديك من الخيرات قَطَامِيرُ  
 وقد رَضِيتُ بأن تحيا على رَمَقٍ يوماً فيوماً كما تحيا العصافير<sup>(١)</sup>  
 لهذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله شيئاً من عرض الدنيا زيادة فى النفقة  
 أو غيرها<sup>(٢)</sup> نزل قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ : إِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ  
 الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمَتِّعْكُن وَأُسَرِّحْكُن سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنْتُن تَرْضَيْنَ اللَّهَ  
 وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُن أَجْراً عَظِيماً »<sup>(٣)</sup> فعرض  
 ذلك على زوجاته ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة<sup>(٤)</sup> .

٣ — ولقد تتبرم بشيبه وكبرة سنه ، وقد اتفق علقمة بن عبدة<sup>(٥)</sup> وأمرؤ  
 القيس<sup>(٦)</sup> والأعشى<sup>(٧)</sup> وعنترة<sup>(٨)</sup> وعبيد بن الأبرص<sup>(٩)</sup> والأسود بن يعفر<sup>(١٠)</sup>  
 وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ثم كثير من شعراء الإسلام كجران العود التميمي  
 وعمر بن أبي ربيعة ، اتفق هؤلاء على أن الشباب والمال — وما يستتبعان من مجد  
 ومحامد وممتعة طبعاً — هما وسيلة اجتذاب المرأة ، ونيل إعجابها .  
 وربما كانت المرأة أكبر بفضة للشيب من الفقر ، لأن الفقر عارض قد  
 يزول ، وأما الشيب فإنه وافد لا يبرح ، وتشتد وطأته حيناً بعد حين .  
 يقول علقمة إنه بصير بنفسية النساء ، عليم بأنهن لا يقبلن على أشيب أو  
 معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الغنى :

(١) الحيوان للجاحظ ٦٢/٧ (٢) تفسير الطبرى ٩٩/٢١ .  
 (٣) سورة الأحزاب ٢٨ و ٢٩ (٤) الطبقات الكبير ٤٧/٨ وتفسير الطبرى ٩٩/٢١  
 (٥) ديوان علقمة ٣ وعبود الأخبار ٤٥/٤ وحماسة البحتري ٢٨٩ والعقد الفريد  
 ٢١٨/٣ والمفضليات ١١٩/٢ والشعر والشعراء ٥٩ .  
 (٦) ديوان امرئ القيس ٩٨ (٧) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ١٣٨/٢  
 (٨) ديوان عنترة ٥٦ (٩) ديوان عبيد القصيدة ١٣٠  
 (١٠) المفضليات ٢١٨/٢ .

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طيب  
 إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له من ودهن نصيب  
 يردن ثراء المال حيثُ علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب<sup>(١)</sup>  
 وقد أعجب أبو عمرو بن العلاء بهذا الرأي ، وقال إن صاحبه أعلم الناس  
 بالنساء<sup>(٢)</sup> .

تحدث الشعراء بكراهية زوجاتهم لشيبيهم ، وهرمهم ، فمثلاً يقول عبيد  
 بن الأبرص إن زوجته تعرض عنه ، وتغالب في مقالها له ، وتمط حاجبها ، لأنها  
 تراه قد كبر :

ألا عتبت على اليوم عرسي وقد هبت بليل تشتكيني  
 فقالت لي : كبرتَ فقلت هُنا لقد أخافتُ حيناً بعد حين  
 تريني آية الإعراض منها وفطنت في المقالة بعد لين  
 ومطت حاجبها أن رأيتني كبرتُ وأن قد ابيضت قروني<sup>(٣)</sup>  
 ويحدثنا المثقب العبدى أو عابة بن زيد بأن زوجته سخرت منه لما رأت  
 شيبه ، وجفته وهجرته :

تهزأت عرسي واستنكرت شيبى فقيمها جَنَفْ وازورار  
 لا تكثري هُزْءاً ولا تعجبي فليس بالشيب على المرء عار<sup>(٤)</sup>

### ١٠- الوصى المرأة بزوجها

أقام الإسلام الحياة الزوجية على دعائم من التعاطف والمشاركة القلبية والثقة  
 المتبادلة والهناء المستطاعة ، وقد أسلفت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان حفيماً  
 بالزوجات ، يوصى بهن الرجال خيراً . وهو كذلك طالما أوصى النساء بأزواجهن<sup>(٥)</sup> ،

(١) الفضليات ١٩٢/٢ (٢) العقد الفريد ٢١٨/٣ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ هنا : تنحى وابعدى (٤) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط

(٥) كنز العمال ٢٦١/٨ - ٢٦٦ و ٣٠٢ - ٣٠٤ .



كقوله: « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع »<sup>(١)</sup>.  
 وقوله: « انظري أين أنت منه إنما هو جنتك ونارك »<sup>(٢)</sup>. وقوله: « خِدْمَتِكَ  
 زوجك صدقة »<sup>(٣)</sup>. وقوله: « خير النساء من تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك  
 إذا أمرت ، وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك »<sup>(٤)</sup>.

## تعدد الزوجات

### ومدة الزوجة

١ — جرى العالم على وحدة الزوجة ، وعلى تعدد الزوجات ، وقديماً اشترط  
 لا بان على يعقوب ألا يقتن بغير ابنته<sup>(٥)</sup>.

وكانت الأسر الشريفة في مصر وبابل تشترط على الزوج في عقد الزواج  
 ألا يقرب الجوارى والإماء . وفي أوراق البردى التي كشف عنها في أسوان  
 عقد زواج ينص على تعهد الزوج ألا يقتن بامرأة أخرى غير زوجته ، فإن فعل  
 قَدَّم لها غرماً<sup>(٦)</sup> . ويذكر ديودور الصقلي أن الكهنة في مصر كانوا يقتصرون  
 على زوجة واحدة ، أما سائر الشعب فإنهم كانوا يعددون الزوجات ، ويختارون  
 منهن من يشاءون ، على أن هيرودوت ذكر من قبله أن المصري كان مثل  
 اليوناني يقتصر على زوجة واحدة<sup>(٧)</sup> ، ومن الممكن أن نرجع هذا التباين إلى أن  
 ديودور جاء بعد هيرودوت بأربعة قرون ، فمن المستظر أن تكون العادات التي  
 شهدناها هيرودوت قد اندثرت أو تزعزعت .

وسار الإسبراطيون على نظام آخر ، ذلك بأنهم لم يسمحوا للرجل أن

(١) كنز العمال ٢٦١/٨ (٢) كنز العمال ٢٦١/٨

(٣) كنز العمال ٢٦٧ (٤) كنز العمال ٢٦٧/٨

(٥) سفر التكوين إصحاح ٣١ آية ٥ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٣

(٧) المحاصرة المصرية . لوبون ٧٠ .

يتزوج غير واحدة إلا في ظروف خاصة ، ولكنهم أباحوا للمرأة أن تتزوج عدة رجال في وقت واحد ، وكانت النساء جميعاً تقريباً يمارسن هذه العادة <sup>(١)</sup> .

ولم يستطع الباحثون أن يقرروا أى النظامين كان أسبق : وحدة الزوجة أم تعدد الزوجات ؟ فبعضهم يرى أن الزواج بواحدة كان هو الأصل عند آبائنا الأقدمين ، وآخرون يخالفون هذه النظرية ، ويذهبون إلى أن المجتمع ابتداءً بتعدد الزوجات ، وبعزز باخوفن Bachofen هذا الرأي ، ويرى أن النساء ثمن على هذا النظام فنجح الرجال إلى وحدة الزوجة <sup>(٢)</sup> .

٣ — أما العرب فقد اقتصر بعضهم على زوجة واحدة ، واشترط بعض الآباء وبعض النساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى . يقول عدى بن زيد :  
بنات كرام لم يُرَبَّنَ بَضْرَةً دُمَى شَرَقَاتٍ بِالْعَبِيرِ رَوَادَعًا <sup>(٣)</sup> .

وجاء في حديث بين الجعفاء بنت علقمة وثلاث نسوة قول إحداهن :  
« خير الرجال الذى يكرم الحرة ولا يجمع الضرة » <sup>(٤)</sup> ، ورفضت ماوية بنت عفزر أن تتزوج حاتماً الطائى بعد أن اختارته وآثرته على خاطبها إلا على شرط أن يسرح زوجته ، فأبى ، فلما ماتت زوجته رضيته وتزوجته <sup>(٥)</sup> .

كذلك استوثقت حَرْقَفَةُ البلوية من خاطبها مَرَّةً بن عوف ألا يتزوج عليها . وكان زوجها لُمْلَيْكَةَ بنت خُصَيْلَةَ المَرِّيَّة — خالف لها وأغلظ الحلف ألا يتزوج غيرها ، فرضيته ، ثم خرج بها يسير حتى نظرا نيران أهله ، فقالت حرقفة : ما هذه النيران ؟ فقال : أما هاتيك فنار بنى وامرائى ، فقالت : أغدرا من أول ليلة ؟ قال : ما غدرت بك ، ولكنى غدرت بسواك <sup>(٦)</sup> .

(١) مركز المرأة في الإسلام ٢٦ وتاريخ اليونان ، جرون ١٣٦/٦ .

(٢) The Psychology of marriage P. 287. waltr. m, gallichan.

(٣) الأغاني ١٥٠/٢ . روادع : فيهن أثر الضيب .

(٤) جهرة الأمثال ١٦٢ . (٥) الأغاني ١٠٤/١١ .

(٦) شرح الحماسة للتبريزى ٢٠٢/١ .

## تعدد الزوجات

كان التعدد وما زال نظاماً طبيعياً ، كثيراً ما تلجئ إليه الضرورات ، « وقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن التعدد نظام ابتكره النبي محمد ابتكاراً لم يسبق إليه<sup>(١)</sup> » ، ولكنهم مخطئون جد الخطأ ، لأن التعدد أسبق من الإسلام بمئات الأعوام .

ذلك بأن الأمم القديمة كانت تعدد الزوجات ، فالعبريون عدّوا منذ عهد قديم<sup>(٢)</sup> يدل على ذلك أن التوراة أباحته ، ولم تحدد العدد ، ثم حدد التلمود العدد<sup>(٣)</sup> ، وما روى عن كثرة عدد نساء سليمان<sup>(٤)</sup> ، ثم عدّوا في عصر متأخر ، ولكنهم اشترطوا على الزوج أن يعدل بين نسائه ، فلا يقبل على واحدة ويعرض عن أخرى .

وحدد الزبانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع بين أربع ، وذهب بعض العلماء إلى منع التعدد ، ورأى بعضهم إباحته إذا عقت المرأة الأولى<sup>(٥)</sup> .

وظل اليهود يعددون زوجاتهم في أوروبا إلى القرون الوسطى ، وهم لا يزالون يمارسون التعدد إلى اليوم في العالم الإسلامي<sup>(٦)</sup> .

وكانت تعاليم زرادشت تخول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتخذوا الحظايا والخليلات ، لأن الشعوب المحاربة في حاجة دائمة إلى الفتيان<sup>(٧)</sup> . لذلك عدد الفرس ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده<sup>(٨)</sup> .

(١) قصة الحضارة ، ول ديوانت ٧٠/١

(٢) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ وقصة الحضارة ٧٠/١ .

(٣) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ .

(٤) سفر التثنية إصحاح ١٧ وتاريخ الطبري ٢٦٠/١ .

(٥) شعار الحضرة ٨٣ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ .

(٧) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ ول دورانت .

(٨) مركز المرأة في الإسلام ٤٤ وحضارة العرب ٤٨٣ .

وقد عدد الرومان ، ويكفى أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع بين أربع ، وبومبي جمع أربعاً . وأن ملك فرنسا داغوبرت الأول جمع بين ثلاث<sup>(١)</sup> :

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد كالإمبراطور قسطنطين وابنه<sup>(٢)</sup> بل إن الإمبراطور فلافيوس فالنتينيان Flavius Valentinien سن قانوناً يبيح التعدد ، وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الميلادي<sup>(٣)</sup> ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعاً أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا ، ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية . ومارس التعدد الأباطرة الذين خلفوا فالنتينيان ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان ، حيث حرم التعدد ، على أنه لم ينجح في تحريره ، ولم يكن في هذا التحريم متأثراً بالمسيحية ، لأن أكبر مستشاريه كان غير مسيحي ، لذلك لم يخضع لتحريم التعدد إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعبروه طاعة<sup>(٤)</sup> .

ونحن نعلم أن المنذر بن الحارث بن أبي جبلة الفسائي كان بطريقاً وحامياً للكنيسة الشرقية ، ولكنه قد تزوج نساء كثيرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالي ذلك ما دام هؤلاء الأمراء غير متزوجين كنسياً إلا بواحدة<sup>(٥)</sup> .

وكان مصرحاً للأثيني أن يتزوج أى عدد من النساء ، حتى لقد افتخر ديموسين بأن في عصمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات ، والشبهات بالشرعيات<sup>(٦)</sup>

(١) با كورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ٧٤ .

(٢) مركز المرأة الإسلام للسيد الأمير على ٤٢ .

(٣) Histoire Des PaPes. Tome . 1.P. 255.

(٤) مركز المرأة في الإسلام ٤٢ (٥) أمراء غسان . تولد له ٣١ .

(٦) مركز المرأة في الإسلام ٢٠ و ٣٦ .

وقد سبق أن المصريين في عهد ديودور كانوا يعددون ، وكان نبلاؤهم يستمتعون بالإماء وما ملكت اليمن<sup>(١)</sup> .

على أن شعوبا أخرى كانت تمارس التعدد كالهندوس القدماء والميديين والبابليين والآشوريين<sup>(٢)</sup> .

٢ — لا عجب إذا في أن يعدد العرب في الجاهلية ، وفي أن يشيع هذا النظام بينهم ، فيمارسه من تواتيه ظروفه ، أو تلجئه حاجة ، أو يتوقع منه خيراً ، فقد بزغ الإسلام وفي ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة ، كمسعود بن معقب وعروة بن مسعود وسفيان بن عبد الله وأبى عقيل مسعود بن عامر وغيلان بن سلامة ، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبو عقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعا<sup>(٣)</sup> ، وكان عند قيس بن الحارث ثمانى نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، نفيهما النبي في أربع<sup>(٤)</sup> ، وقد كان لعبد عبد المطلب بن هاشم ست نسوة ، ولدن له عشرة رجال وست نساء<sup>(٥)</sup> ، وكان عند أبى سفيان بن حرب ست ، وعند صفوان بن أمية ست أيضاً<sup>(٦)</sup> . وكان المغيرة بن شعبه قد تزوج سبعين امرأة<sup>(٧)</sup> وقد ألف أبو الحسن المدائنى كتاباً فيمن جمع أكثر من أربع<sup>(٨)</sup> .

### عراء الضرائر :

التعدد نظام اجتماعى شائع فى الأمم ، لكن شيوعه لم يكن كفيلاً ، ولن يكون كفيلاً بالتخفيف من تباعض الضرائر وتحاسدهن ، لهذا كانت الزوجة

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ والمخاضة المصرية القديمة . لوبون ٧١ .

(٢) مركز المرأة فى الإسلام ٣٤ .

(٣) المحرر ٣٥٧ وبجمل الأمثال للعبدانى ٣٥/١ (٤) عيون المسائل ٥٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ١١٩/١ (٦) الإصابة ١٣٩/٨ .

(٧) كنز العمال ٢٨٨/٨ وفى الأغاني ١٣٧/١٤ أنه تزوج ثمانين أو تسعاً وثمانين

أو ثلاثاً وتسعين .

(٨) معجم الأدباء ١٣٣/١٤ والفهرست ١٠٢ .

نفجع بالضرّة ، وكان بعض النساء يشترطن على الزوج ألا يضارهن بأخرى كما سبق .

وكان عداء الضرائر معهوداً معلوماً ، حتى إن بنت مرة بن عاهان لما قتلتها باهلة لم تجد ما تشبه به ما بينهم وبين باهلة من بفضة إلا داء الضرائر :

إنا وباهلة بن أعصربينا داء الضرائر بفضة وتناسف<sup>(١)</sup>

وكانت المودة لا تصفو بين ضرتين ، وكثيرا ما تشغب الأولى ، فثلاثا كانت الورثة بنت ثعلبة زوجة لذهل بن شيبان ، وكان كلما تزوج امرأة شارتها الورثة وضربتها وأجلتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثة .

يا ويح نفسى اليوم أدركنى الكبير أأبكى على نفسى العشية أو أذر؟  
فوالله لو أدركت فى بقيّة للآقيت ما لاقى صواحبك الآخر<sup>(٢)</sup>

على أن الأزواج كانوا أحيانا يودبون زوجاتهم بالضرائر ، ويمساقبونهن بالتعدد ، يدل على ذلك قول الطهوى :

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسك من الضرائر  
ذات شذاة جمة الصراصر حتى إذا جرس كل طائر  
قامت تُعنّظى بك سمع الحاضر تُصرُّ إصرار العقاب الكاسر<sup>(٣)</sup>  
ثم إن المرأة تحدث بغيرتها فى غير موارد ، من ذلك أن لى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل ، ثم عادت إلى قومها تخبرهم فقالوا : أنت امرأة غيرى ، وهو صاحب نساء ، أرجعى فاستقليه ، فرجعت وقالت :

(١) طهارة العرب ٣٢ باهلة .

(٢) أمثال العرب للضى ٥٥ وجمع الأمثال للميداني ٩٩/١ .

(٣) طهارة العرب ٣٢ ذات شذاة ، ذات خصومة وحدة . جمة الصراصر : الصراصر جمع صرصرة وهى الصوت الشديد ، والمراد صغابة جبهة بالسوء من القول . جرس : صوت والمراد الصياح الباكر . تعنّظى : تذكرك بالفحش لتسمع الحى . تصر : تنصب أذنّها للاستماع

إليك نبي الله وقد أحلّ لك النساء ، وأنا امرأة طويلة اللسان ، لاصبر لي على الضرائر ، فأقالتها <sup>(١)</sup> .

ولما خطب النبي هند بنت أبي أمية القرشية الخزومية قالت له : فيّ خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ، وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال : أنا أكبر منك سنًا ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك ، وتزوجها <sup>(٢)</sup> :

ولم يكن الإسلام والتدين بقدير على أن يمتثل من المرأة غيرتها ، ومن الشطط أن تتطلب منه ذلك ، وإلا فما بال عائشة أم المؤمنين كانت غيرى شديدة الغيرة ؟ كانت تظهر غيرتها فيما تقول وفيما تعمل <sup>(٣)</sup> . من ذلك قولها : دخل عليّ رسول الله فقلت : أين كنت ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سامة ، فقلت ما تشع من أم سامة ، فتبسم . فقلت : ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بُعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت ، أيتهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع . قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيري ، فتبسم رسول الله <sup>(٤)</sup> .

وكانت تغار حتى من صرتها المتوفاة ، التي توفيت قبل أن تكون هي زوجة ، ذلك بأن النبي كان عظيم الوفاء والحب للسيدة خديجة ولذكراها ، وكانت السيدة عائشة تغار من ذلك ، قالت : « ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله إياها وثنائه عليها <sup>(٥)</sup> . ولم تضبط غيرتها يوماً ، وقد سمعت الرسول يكثر من ذكر خديجة ويطريها ، فقالت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب وقال : والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبنى الناس ، وواستني في

(١) الإصابة ١٨١/٨ (٢) الإصابة ٢٠٣/٨ والطبقات ٦٣/٨ .

(٣) أخبار النساء ٩ وعبون الأخبار ١٩/٤ .

(٤) الطبقات ٥٥/٨ وفتح المبدى ج ٣ (٥) فتح الباري ٢٨٥/٩ .

مالها إذ حرمنى الناس . » قالت عائشة : قفلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً <sup>(١)</sup> .

وقد اتفقت عائشة وسودة وصفية — حين علمن أن النبى مكث عند حفصة أطول مما كان يمكث ، وشرب عندها عسلا — على أن يدعين أن فى فم النبى رائحة مغافر ، فألى ألا يذوق العسل <sup>(٢)</sup> ، فنزل قوله تعالى : « يأبىا النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » <sup>(٣)</sup> وسواء أكان هذا هو السبب فى نزول الآية ، أم كان السبب أن النبى خلا بنجارته مارية فى يوم حفصة ببيتها أو فى يوم عائشة ، فما زالت به حتى حلف ألا يقربها <sup>(٤)</sup> ، سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الغيرة محققة فى الحالين ، لأنهن أردن تبغيض عسل صفية إلى النبى ، فزعمن أنه مغافر <sup>(٥)</sup> ، أو أردن الحيلولة بينه وبين جاريته مارية . وربما كان الرجل يبرع فى حيلة لطيفة يطفئ بها جذوة من الغيرة ، كما فعل عبد الله بن رواحة ، ذلك بأنه أصاب جارية له ، فسمعت به امرأته ، فأخذت شفرة وأتته فقالت : أفعلتها يا بن رواحة ؟ قال ما فعلت شيئا . فقالت : لتقرآن قرآنا وإلا بعجتك بها . قال : فكفرت فى قراءة القرآن ، وأنا جنب فهبت ذلك ؛ وهى امرأة غيبرى وفى يدها شفرة ، لا آمن أن تأتى بما قالت ، فقلت :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع  
بيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استنقأت بالكافرين المضاجع  
فلما سمعت ألفت السكين ، وقالت : آمنت بالله وكذبت البصر . ثم أتيت

(١) أسد الغابة ٤٣٨/٥ والاستيعاب ٧٤١/٢ .

(٢) الطبقات ٥٩/٨ وتفسير الطبرى ١٠٢/٢٨ وتفسير النيسابورى ٩٩/٢٨ .

(٣) التجرىم ١ (٤) تفسير الطبرى ١٠٠/٢٨ والنيسابورى ٩٩/٢٨ والجلالين ٤٧٦

(٥) المغافر : شئ ينضجه الثمام والعشر والعرفط مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل

ولكن له رائحة كريهة ( القاموس مادة غفر وغفر وتفسير النيسابورى ٩٩/٢٨ ) .

( ١٦ - المرأة فى الشعر الجاهلى )



النبي فأخبرته بذلك ، فضحك ، وأعجبه ما صنعت <sup>(١)</sup> .

على أن بعض الرجال في الإسلام كان يتحامي هذه الحياة المشوبة ، من هؤلاء أعرابي شاعر يصور في أسلوب فكه بلواه من زواج اثنتين ، ويوصي بالعزوبة :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي	بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت : أصير بينهما خروفا	أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تُضحي وتُمسى	تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذى يُهيج سخط هذى	فما أعرى من إحدى السخطين
وألقي في المعيشة كل شرٍ	كذلك الضر بين الضرّتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى	عتاب دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً	من الخيرات مملوء اليدين
فمض عزباً فإن لم تستطعه	فضرّباً في عراض الجحفاين <sup>(٢)</sup>

### هل في النمر منقصة للمرأة ؟

عرفنا أن الأمم كانت تمارس تعدد الزوجات ، وأنه لم يكن مقصوراً على عرب الجاهلية ، ولم يكن بدعة إسلامية ، بل إن الإسلام حدد العدد المطلق ، وأوصى بالمعدلة بين الزوجات .

وقد ظهر لكثير من الباحثين والمؤرخين وعلماء الانتوجرافيا ، كالأساتذة وسترمارك، وهو بوز، وهيلير، وجنسبرج (westermarck, Hoboose, mheeler and Gensberg) أن هذا النظام لم يبد في صورة واضحة إلا في الشعوب المتقدمة

(١) أخبار النساء ٤٤ .

(٢) الأمالي ٣٥/٢ وسط الآلى ٦٦٩/٢ ضرباً في عراض الجحفاين : تعرض الموت والاستشهاد .

في الحضارة ، وأنه قليل الانتشار أو معدوم في الشعوب البدائية المتأخرة<sup>(١)</sup> .  
 ويعزز لوى Lowie ذلك بقوله في تحليله العوامل النفسية لتعدد الزوجات :  
 إن هذا النظام ليس دليلا على انحطاط المرأة ، أو على الشعور بضقتها ومهاتها ،  
 وليس الدافع إليه الانغماس في الشهوة والتهالك عليها ، إذ قد يحدث أن تدفع المرأة  
 زوجها إلى الاقتران بأخرى ، لشدة رغبتها في طرح جزء من أعباء واجباتها  
 المنزلية على عاتق امرأة أخرى ، وقد يكون الدافع إليه الرغبة الطبيعية في النسل  
 وكثرة الذرية<sup>(٢)</sup> .

وكذلك يذهب جستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى  
 الأخلاقي في الأمم التي تدين به ، ويزيد الأسر ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما  
 وسعادة لا تجدهما في أوروبا<sup>(٣)</sup> .

ويرد منسينور لوروا على الذين ذهبوا إلى أن التعدد أثر للاختلاط بين  
 الرجال والنساء بأنه قد استيقن أن هذا الاختلاط ليس له أثر في أية ناحية من  
 إفريقية - حيث يكثر التعدد - إلا في قطعان البقر الوحش ، ويؤكد أن تعدد  
 الزوجات ليس نتيجة لحياة بدائية همجية كما يزعم الماديون ، وإنما هو أثر لحضارة  
 قديمة غربت شمسها<sup>(٤)</sup> .

وليس من موضوعي أن أبسط حكمة التعدد والأحوال التي تلجئ إليها ،  
 وحسبى أن التعدد ليس دليلا على مهانة المرأة ، لأخلص من ذلك إلى أن العرب  
 لم يكونوا شعبا همجيا بدائيا ، وأن المرأة العربية لم تكن مهينة القدر .  
 وإذا فقدت بطلت دعوى انحطاط المرأة العربية التي اعتمد القائلون بها على  
 تعدد الزوجات .

(١) الأسرة والمجتمع ٨٢ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٤ .

(٣) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ .

(٤) Monseigneur, Leory. La Reeligion des Primitifs, P. 95 (١)

وإني لأسأل : أيهما أدل على ضعة المرأة في نظر زوجها ، وضعته هو في نفسه ، أن يتزوج أخرى أو أخريات زواجا متعارفا عليه معلوما للناس ، أم أن يتخون نفسه ورجولته وزوجته فيجعل يخادن غيرها من النساء ؟  
إن الرجل الغربي لا يكاد يقتصر على زوجة واحدة ، بل يُخال غير زوجته ، ولقد تضطرب هي أيضا إلى أن تخال غيره ، وفي هذا فساد وضلال وانحلال ، لذلك أثر كثير من مفكرهم نظام التعدد .

« وإن رجال الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر من زوجة ، شرعية أو غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداستهم »<sup>(١)</sup> .

ثم إن الإسلام راعى الأحوال التي قد تلجئ إلى التعدد ، فأقره في حدود معلومة ، وجعل الحد الأقصى أربع نسوة ، وأوجب العدل بينهن ، وما من شك في أن الإسلام كان يحذب على النساء ويرفع من قدرهن ، فلو أن التعدد منقصة للمرأة لحظوه الإسلام حظراً كما حظر الزيادة على أربع . وقد جهل بعض أعداء الإسلام هذا كله ، فزعموا أن النبي هو الذي أباح تعدد الزوجات ليستجلب الرجال إلى دينه ، بل زعم ييرون أنه أراد بذلك استمالة الرجال والنساء . وبلغ من تعصب ريفان في كتابه ( ابن رشد ) أن وصف الإسلام بأنه دين الخنازير والقوم المنهمكين في الشهوات . وزعم الأب بروغلي أن تعدد الزوجات نتيجة للإسلام<sup>(٢)</sup> .

ويحسبنا في الرد على هؤلاء أنهم يجهلون ما كان قبل الإسلام عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وأنهم يجهلون أو يتجاهلون ما أضفى الإسلام على المرأة من رعاية وتقدير . وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل الإسلام على المرأة ،

(١) مراكز المرأة في الإسلام ٣٩ .

(٢) الإسلام . الكونت هنري دي كاستري . ترجمة أحمد فتحي زغلول ٥٢ .

يقول مسيو ريفيل : إننا لا نجد عملاً أفاد النساء ورفع من قدرهن أعظم مما أتى به النبي محمد ، فهن مدينات له بأمور كثيرة ، وفي القرآن آيات ساميات في تقرير حقوقهن ، وما يجب لهن على الرجال <sup>(١)</sup> .

### أنكحة الجاهلية

قلت فيما سبق إن الرجل كان يختطف المرأة إلى نفسها أو إلى وليها ، فيجاب أو يرفض ، فإذا أجيب إلى طلبه مهر زوجته ، ثم جمع بعض قومه وجمع ولي الزوجة بعض قومها واحتفلوا بهذا الزواج ، فهو إذاً زواج قائم على الإيجاب والقبول ، وهو الضرب الذي كان شائعاً في العرب ، وجاء الإسلام فأقره .

على أنهم كانوا يعرفون ضروباً أخرى من اتصال الرجل بالمرأة ، ذكرت السيدة عائشة أربعة منها ، لعلها كانت أكثرها شهرة .

قالت : إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء <sup>(٢)</sup> :

١ — « فنكاح منها نكاح الناس اليوم — في الإسلام — يختطف الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها » . وقد أقر الإسلام هذا النوع ، وكان قد ساد وعم في آخر العصر الجاهلي ، وصار هو القاعدة ، حتى إن المرأة إذا ولدت عن الدعارة أو نكاح الرهط نسب وليدها إلى شخص واحد <sup>(٣)</sup> .

وليس بعجيب أن يوافق الإسلام ما أطبق عليه عرب الجاهلية من نظام يكفل للمرأة صيانة ومعزة ، ويصون للأسرة شرفها واستقرارها ، لأن الإسلام أقر كثيراً مما تعارفوا عليه من صالح العمل وطيبه ، فمثلاً كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، ويصلبون قاطع الطريق ، يقول مالك بن عميلة — في مليح ومدر ك ابني عوف وكانا قد سرقا حلل الكعبة في الجاهلية — يخاطب حميد بن زهير بن عم مليح :

(١) المرجع السابق ٢٨ .

(٢) فتح الباري ١/١٥٨ ولانسان العيون ١/٤٧ والاعتصام للشاطبي ٢/١٨٤ .

(٣) Mustem Law. P. 24

تمنى حميداً أنه كان حَيضةً لىالى بانت من مليح أصابعه  
لىالى بانت كفه من ذراعه فأصبح لا يدنو لقرن ينازعه  
ودراس مخزوم تركنا مجدلاً بما قدمت أظفاره وأشاجفه  
فأمسى تليلاً للسباع تنوبه تسيل دما آرابه وكراسفه<sup>(١)</sup>  
وكانوا لا يأكلون الميتة ، فإن حارثة بن أوس الكلبي يقول :

لا أكل الميتة ما عُمرت نفسى وإن برح إملاقى<sup>(٢)</sup>  
ومادعا إليه الإسلام وكانوا يمارسونه : المضمضة والاستنشاق والسواك  
وقص الشارب والختان والاستنجاء وتقليم الأظفار الخ<sup>(٣)</sup> ، وسنرى أنهم كانوا  
يحرمون الأمهات البنات والأخوات والعامت والخالات ويكرهون الجمع بين أختين  
والزواج بامرأة الأب .

وإذا ما عرفنا أن هذا الضرب من الزواج كان هو الشائع عند العرب فى  
الجاهلية ، وأن الرجل كان يدفع مهراً للزوجة ، كان لنا أن نحكم بأنهم لم يكونوا  
همجاً أو متأخرين فى نظمهم الأسرية عن الأمم المتحضرة التى عاصروها . ذلك  
بأن الزواج مر بمراحل ثلاث : الاختطاف ، والشراء ، والعقد . وكان العقد عملاً  
تقديرياً للمرأة ، وفى بعض الأحيان كان يقدم لها مهر ، وقد جرى عليه اليونان  
والرومان<sup>(٤)</sup> .

٢ — « ونكاح الآخر — الصنف الآخر — كان الرجل يقول لامرأته  
إذا طهرت من طمئها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه

(١) المحبر ٣٢٨ درواس : لقب مدرك بن عوف . كان حية : لم يولد . الأشاجع :  
أصول الأصابع فى السكف . تليل : ماقى على عنقه وخده . آرابه : أجزاء يده المقطوعة .  
كراسفه : جمع كرسوع وهو طرف الزند الذى يلى المتصر .

(٢) المحبر لابن حبيب ٣٢٩ .

(٣) المحبر ٣٢٩ .

أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد » .

وهذا الضرب لم يكن يتعارض مع النسب إلى الأب ، لأن الوليد ينسب إليه « وهو يخالف نظام تعدد الأزواج للزوج ، لأن الولد في هذا النظام يتبع أمه <sup>(١)</sup> » .

وقد سبق في الموازنة بين العربية وغيرها أن كثيراً من الأمم كانت تراول نكاح الاستبضاع ، فأفلاطون قد ذهب إلى شيوعية النساء بين الرجال ، وبخاصة الحكام ، فلا يخص أحد نفسه بإحداهن ، والنسل الناتج مجبول النسب ، ومملك للدولة ، فلا يعرف والد ولده ، ولا مولود أباه <sup>(٢)</sup> .

وليكورغ مشرع إسبرطة أباح شيوع النساء ، وسمح للزوجة أن تبيع نفسها لصاحبها بإذن زوجها ، وأباح للزوج أن يدفع زوجته للاستبضاع من آخر ، على أن يكون الولد للزوج <sup>(٣)</sup> .

وأباح شريعة سولون للمرأة أن تستبضع من غير زوجها إذا عجز عن مباشرتها <sup>(٤)</sup> .

وقد أقرت شريعة مانو نظام الاستبضاع عند الهنود ، لأنها كانت تعد العقم كارثة ، وكانت تحض على الإكثار من النسل ولا سيما الذكور « ولذا تداركت العقم بطريقتين : الأولى أن يزوج الرجل — الذي عقم — ابنته ، على أن يكون مولودها الذكر ابناً له ، والثانية أنها أوجبت على الرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد إخوانه أو أقاربه » <sup>(٥)</sup> .

(١) Muslim Law P. 22

(٢) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ و ١٣٥

(٣) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة في التاريخ والشرائع ٧٣

(٤) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة في التاريخ والشرائع ٧٣

(٥) Question feministe. Rosler. P. 143

وذكر العالم الألماني جريم Grimme عن الجرمان القدماء أنهم كانوا يتوخون من الزواج الحصول على وارث شرعى ، حتى إنه كان يحق للرجل أن يطلق امرأته إذا ما تحقق عقمها ، ويأخذ غيرها من غير معارضة<sup>(١)</sup> ، وذكر أن الرجل العاجز عن المباشرة الزوجية كان يجب عليه - ما دامت زوجته راضية عنه - أن يحملها على ظهره ، وينقلها إلى رجل آخر يرضيها<sup>(٢)</sup> .

وقد ورد في بعض القصائد القديمة عن القديسة اليصابات أن أحد فرسان تورنغ لما استوثق من عبثه عن إنجاب وارث له ، مثل أمام الأمير لودفيج زوج اليصابات ، وطلب منه أن يطاء امرأته<sup>(٣)</sup> .

ويذهب ولكن إلى أن هذه العادة التي كان يزاولها بعض العرب تختلف عما كان عند بعض الشعوب ، « ذلك أنه كان يحق للمرأة نفسها أن يستمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب من زوجها أولاداً<sup>(٤)</sup> » .

أريد أن أعتمد على شيوع هذا النوع من الخلاط الجنسي بين شعوب شتى ، لأخلص إلى أنه لم يقتصر على العرب كما كان يذاع .

على أنه ضرب شاذ نادر يتنافى والأخلاق العربية من غيرة وحمية ونخوة واعتداد بالنفس ونغار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ إليه إلا رجل عاجز عن مباشرة زوجته أو فسل ساقط المروءة . وإذا فليس دليلاً على مهانة المرأة العربية .

وقد سجل النمر بن تواب - الشاعر المخضرم - هذا النوع ، ذلك أنه كان لقممان بن عاد أخت محمقة ، وكذلك كان زوجها ، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طهرى ، وهى ليلتك ، فدعبنى أنام فى مضجعك ، فإن لقمان رجل منجب ،

(١) الأمومة عند العرب ٢٥

(٢) الأمومة عند العرب ٢٦

(٣) الأمومة عند العرب ٢٥

(٤) الأمومة عند العرب ٢٥

فمضى أن يقع على فأنجب ، فوقع على أخته ، خملت بـلقيم ، فهو قول النمر بن تولب :

لقيمُ بن لقمان من أخته فكان ابن أختٍ له وابناً  
ليالى حُمقٍ فاستخفصنت عليه ففقر بها مُظالماً  
فأحبها رجل مُحكم فجاءت به رجلاً محكماً<sup>(١)</sup>

٣ — « ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ، دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومّرت ليال بعد أن تضع أرسات إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، إني ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل » .

وهذا النوع هو نكاح المشاركة أو نكاح الرهط ، وهو الذى ذكره سترابون عن أهل اليمن ، وقد أسلفت قوله والرد عليه فى نسب الولد إلى أمه .

على أن هذا الضرب من الاتصال الجنسى نظام اجتماعى بدائى كان فاشياً بين الساميين القدماء ، وربما كان دخيلاً على العرب من الفرس زمن حكمهم لليمن ، وتسلطهم على الحيرة ؛ لأنهم كانوا يمارسون الإباحة الجنسية فى عهد الساسانيين ولا سيما جماعة المانويين ، وربما طرأ على العرب من شرق إفريقيا ، لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك ، وما زالت تدين به<sup>(٢)</sup> .

وقد حدث هيرودوت عن بعض الحبش المقيمين على سطح البحر الأحمر أن النساء عندهم مشتركة ، ومتى كبر الأولاد أعطى كل من الرجال ما شابهه من الأولاد<sup>(٣)</sup> .

(١) الحيوان للجاحظ ٢١/١ والبيان والتبيين ١٨٤/١ مظلّم : فى الظلام

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٦ .

(٣) الأمومة عند العرب ٣٣ .



وكان تعدد الرجال للمرأة الواحدة شائعاً في العصور القديمة<sup>(١)</sup>، وما زال النائر - أعيان الملابار في الهند - يجرون عليه ، كما ذكر باخوفين Pachofin في كتابه (آراء القدماء في القرابة)<sup>(٢)</sup> .

لم يشع هذا النوع في العرب ، ولم يتعد قلة منهم ، وإن ادعى بعض الباحثين أن الشيوعية في النساء كانت نظاماً شائعاً بين العرب ، وقد رددت عليهم في النسب إلى الأم . ومن التعسف بل من الخطأ الفاحش أن تسف الشيوعية من قول عنتره :

إن الرجال لم إليك وسيلة وابن النعامة يوم ذلك مركبي<sup>(٣)</sup>  
 ٤ - « والنكاح الرابع : » يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً لمن أرادهن ليدخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم « وهذا النوع كان محصوراً في الإماماء ، وسأعرض له بتفصيل عند الكلام على الإماماء .  
 ٥ - على أن السيدة عائشة لم تذكر نكاح المتعة ، وربما أغفلته لأنه يشبه النكاح العام ، غير أنه محدود الأجل . وكان العرب يعرفونه ويتارسونه ، وأباحه النبي في بعض غزواته ثم حرمه<sup>(٤)</sup> . وإليه يشير عمر بن قعاس المرادى بقوله :  
 ألا رجل جزاه الله خيراً يدل على مُحَصَّلَة تَدَيَّتْ

(١) Studies in Ancient History. mac Lennan. P. 276

(٢) الأمومة عند العرب ٢٨ .

(٣) ديوان عنتره ٢٠ ابن النعامة : فرسه

(٤) فتح الباري ١٠٢/٩ و ١٤٤ - ١٨٢ و ١٤٩ و ٣٦٩/٧ وصحيح مسلم ١٣٠/٤ - ١٣٥ - والمبسوط ١٥٢/٦ وتفسير الطبري ٨/٥ والكشاف ٢٠٠/١ وروح المعاني ٦/٥ والسنن الكبرى ٢٠٠/٧ - ٢٠٢

تَرْجُلَ لِعَتِي وَتَقُمْ بَيْتِي وَأَعْطِهَا الْإِثَاوَةَ إِنْ رَضِيتَ<sup>(١)</sup>

وكان اليهود يمارسون نكاح المتعة ، ثم نهى الكتاب عنه<sup>(٢)</sup> .

٦ — ولم تذكر نكاح الشَّفَار ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه زواج فردى . كالزواج العام إلا أنه لامهر فيه ، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو موليته ، ولا صداق فيه لكليهما . وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وصححه الحنفية ، ولكنهم قالوا بفساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل<sup>(٤)</sup> .

وهذا النوع من الزواج كان معروفاً عند الأمم السامية قديماً<sup>(٥)</sup> ، ولا تزال له بقايا في كثير من الأمم المتعدنية<sup>(٦)</sup> .

### المحرمات في الجاهلية والإسلام

١ — حرم العرب على أنفسهم أنواعاً من الأقارب . ثم جاء الإسلام فأقر هذا التحريم . كانوا لا ينكحون الأمهات والبنات والأخوات والعما والخاللات<sup>(٧)</sup> وذهب ابن عباس وغيره إلى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين<sup>(٨)</sup> .

(١) خزائن الأدب ٢/٢٤٦ أنشد الأزهري هذا البيت وما بعده في التهذيب بفتح صاد عصلة وقال : مما لأعرابي أراد أن يتزوج امرأة بمتعة . وفي لسان العرب مادة حصل أن . المحصلة بكسر الصاد مى التى تحصل تراب المعدن أو التى تميز الذهب من الفضة ، وذكر البيهقي وقال إن الأزهري قال تبئت أى تبئت عندها لأجامعها ، والجوهري قال تبئت تفعل كذا . والذي أراه أن الكلمة بكسر الصاد والشاعر يريد أنها خبيثة بالرجال فبى تميزه وتؤثره

(٢) شعار المحضر ١٠١

(٣) السنن الكبرى لليهيقي ١٩٩/٧

(٤) فتح البارى ٩/١٤٠ والمبسوط ٥/١٠٥

(٥) النظم الاجتماعية ٤٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١١٤

(٧) الملل والنحل على هامش الفصل ٣ / ٢٣١ وبلغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر في

أخبار البشر لأبى الفدا ٩٩/١

(٨) تفسير الطبرى ٤/٢١٧ - ٢١٩ وروح المعاني ٤/٢٦١

وقد تباعد أهل مكة في المناكح عن البنت، وبنت، والبنت والأخت، وبنت الأخت، غيرة ونفورا من المجوسية، ونزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم<sup>(١)</sup>.

ولاشك أنهم بهذا التحريم سموا على كثير من الشعوب القديمة، لأن زواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الآشوريين والفرس والمصريين، فقد تزوج بطليموس فيلادلفيوس شقيقته — في مصر — وتزوج قمبيز شقيقته — في فارس — وجاء في كتاب زرادشت أن اقتراناً كهذا من أفضل القرب. وما زال المجوس إلى اليوم على آثار أجدادهم. وكان الإسرطيون يبيحون زواج الأخت لأُم<sup>(٢)</sup>. أما زواج الأخت لأب فقد كان مباحاً في كثير من الشعوب المتحضرة القديمة كالعبريين واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقالبة<sup>(٣)</sup>.

وقد تزوج الملك اليهودي هيرود أخته هيرودية، وزوجها لا يزال على قيد الحياة، ولم يرتض يوحنا المعمدان هذا الزواج فندد بالملك وبأخته تنديداً، وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله، لكن هيرود استجاب له بأن قتله<sup>(٤)</sup>.

وكان الفراعنة والبطالسة يتزوجون الأخوات على الإطلاق<sup>(٥)</sup>

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون<sup>(٦)</sup>

وكان العبرانيون يتزوجون بنات الأخ، يدل على ذلك أن عيسى عليه السلام بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر حوارياً يعلمون الناس، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ<sup>(٧)</sup>.

(١) معجم البلدان ٨/ ١٣٧

(٢) دائرة المعارف للبستاني ٩/ ٣٣٨

(٣) قصة الحضارة ١/ ٧٣ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٤) عبقرية المسيح . العقاد ١١٥

(٥) الأسره والمجتمع ٤٧ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ وقصة الحضارة ١/ ٧٣

(٦) المرأة في التاريخ والشرائع ١٧ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٧) تاريخ الطبري ٢/ ١٣

لكن ذلك مازال قائماً ، لأن طائفة الربانيين ( الربائيم ) وهم سواد اليهود يبيحون زواج الرجل بابنة أخيه وابنة أخته وابنة امرأة أبيه . والسامرة والقراءون يمنعون ذلك <sup>(١)</sup> .

أما نكاح زوجة الأب فإن العرب لم يحرّموه ، بدليل قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف » <sup>(٢)</sup> والآية تعني رجالاً خلفوا آباءهم على أزواجهم <sup>(٣)</sup> . وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب إذ قال في زوجته التي خلف أباه عليها :

فلولا إخسوتي وبنيّ منها ملأتُ لها بذي شُطب يميني  
أصلّاة اللجام برأس طِرفٍ أحبّ إليّ من أن تنكحيني <sup>(٤)</sup>  
ولما جاء الإسلام حظر نكاح امرأة الأب ، وفسخ زيجات أربعا كانت قائمة <sup>(٥)</sup>

على أن العرب كانوا يمتنعون هذا النوع ، ويسمون المولود عليه المُقْتِي ، ومن ثم قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلاً » كأنه قال فاحشة في دين الله بالفسة في القبح ، قبيح ممقوت في المروءة <sup>(٦)</sup> ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضيّن ، ويتهمونه بأنه فارسي يدين بالمجوسية ، قال أوس بن حجر :  
والفارسية فيكم غير منكورة فكلكم لأبيه ضيّنٌ سلف <sup>(٧)</sup>

(١) العقائد . عمر عنایت ٨٠ - ٨٢

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) تفسير الطبري ٤ / ٢١٧

(٤) لسان العرب مادة نكح

(٥) الإصابة ٨ / ٥٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ٣ / ١٢٣ و ١ / ١٧ والممل والنعل ٣ / ٢٣٢ وأسد الغابة ٢ / ٢٣٨ والروض الأنف ١ / ١٤٦ والخبر ٢٢٥ والكشاف ١ / ١٩٧ وإنسان العيون ١ / ٤٤ والمبسوط ٤ / ١٩٨ وروح المعاني ٤ / ٧٠١ والمستطرف ٢ / ٧٢ ومعجم البلدان ٨ / ١٣٧

(٦) الكشاف ١ / ١٩٧

(٧) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٧ / ١٢٢

ولم يكن هذا النوع شائعا إذا ، لأن أحق شخص بامرأة المتوفى ابن زوجها  
الأكبر ، وقاما يقدم عليه لقبه .

وقد ظلت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، ذلك أن منظور بن زبان كان  
قد تزوج امرأة أبيه ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، فقال منظور :  
أَعَمُّ أَبِي دِينٍ يَفْرُقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَسْرًا إِنَّهُ لِعَظِيمٌ  
وَهَجَاهُ حَجَرٌ بِنِ مَعَاوِيَةَ بِقَوْلِهِ :

لبئس ما خلف الآباء بعدهم في الأمهات عجان الكلب منظور  
قد كنت تغمرها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمر معذور<sup>(١)</sup>  
كذلك لم يحرم العرب الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى « وأن تجمعوا بين  
الأختين إلا ما قد سلف » .

وقد ألف أبو الحسن المدائني كتابا فيمن جمع بين أختين<sup>(٢)</sup> . وبعضهم  
أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام<sup>(٣)</sup> وإن بقي أثره إلى عهد  
عمر ، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام ، حاف أنه لا يعلم أن الإسلام  
حرم الجمع بين الأختين<sup>(٤)</sup> .

على أن العرب لم ينفردوا بهذا الضرب ، فقد كان العبريون يجمعون بين  
الأختين ، كما جمع يعقوب بن إسحاق بنتى خاله لبان : راحيل وليا ، وأنجبته له ،  
وكان الناس يومئذ يفعلون ذلك ، إلى أن بعث موسى عليه السلام ، وأنزلت عليه  
التوراة<sup>(٥)</sup>

٢ — وإذا فقد كان العرب يحرمون ما حرم الإسلام في قوله تعالى : « حرمت

(١) الأغاني ١١/٥٣

(٢) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢

(٣) المحبر ٣٢٧ ولسان العيون ١/٤٤ والمثل والنحل ٣/٢٣١ وروح المعاني ٤/٢٦١

(٤) فتوح الشام للبصري ٢٢٧

(٥) تاريخ الطبري ١/١٦٣

عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاقي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاقي في حجوركم من نسائكم اللاقي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم» (١)

وزاد الإسلام تحريم امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، وبين المحارم مطلقاً ، فقد نهى رسول الله أن تتكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها ، أو الخالة على بنت أختها ، لا تتكح الصغرى على الكبرى ، ولا الكبرى على الصغرى (٢) .

ولا شك أن العرب بمقتهم نكاح امرأة الأب ، ويتباعدون عن الجمع بين الأختين ، وبتحريمهم ما حرم الإسلام بعد ، قد تساموا عن أمور كانت بين الساميين وغيرهم ذكرتها التوراة (٣) .

ولم يتنقل مختلق أو شعوبي على عربي أنه تزوج أمه ، كما تزوج مارك أنطونيوس فاربوس هليوجو بال أمه ، وكان يعبد الشمس كملوك الفرس ، ويقدم لها القرابين من أجمل بنات إيطاليا ، وقد قتله جنده هو وأمه سنة ٢٢٢ م (٤) ، وكان الكنعانيون يأتون المحارم كلها (٥) .

أما دعوى زواج لقيط بن زرارة بنته ، فقد فندتها فيما سبق . وبذلك امتاز العرب من الأمم التي كانت تبيح الأخت والبنت وبنات الأخ كما سبق ، وامتازوا من العبريين الذين حرمت عليهم عماتهم وخالاتهم ، ولكنهم

(١) سورة النساء ٢٣

(٢) حجة الله البالغة ٩٧/٢

(٣) سفر اللاويين الإصحاح ١٨ آية ٦-٣٠ وحضارة العرب ٨٧

(٤) Histoire Des papes. Tome I. P. 187 Paris

(٥) شعار الحضرة في الأحكام الشرعية للاسرائيليين ١٣

جروا على الزواج بهن<sup>(١)</sup>. وامتازوا من الرومان في زمن القيصر كلوديوس، لأنهم أباحوا في عهده ابنة الأخ وابنة الأخت حتى نقض قسطنطين ما أباحوا<sup>(٢)</sup>.

٣ — وللإسلام الفضل في تمييز نظامين كان العرب يضارون بهما النساء أولهما العزل، ذلك أن الورثة كانوا يمنعون المرأة المتوفى عنها زوجها من الزواج، لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها، أو تعطيمهم الصداق الذي أخذته، وكان الأزواج أيضا يسكون زوجاتهم أحياناً من غير حاجة إليهن، فيضاروهن ويضيقون عليهن، ليستردوا بعض ما آتوهن بأن يحتلن بمهورهن. وقيل كان الرجل القرشي بمكة ينكح المرأة الشريفة وربما لاتوافقها، فيفارقها على ألا تتزوج إلا بإذنه، فإن أعطته وأرضته أذن لها، وإلا عضلها<sup>(٣)</sup>.

هذا هو العزل في رأى المفسرين والفقهاء، وهو في اللغة التضيق، ومنع المرأة الزواج ظلماً<sup>(٤)</sup>، وليس يهمننا أن يكون العازل هو الوارث، أو الزوج، أو غيرها، فإن الأب قد يعزل بناته، كذلك الذى عضلهن ومنعهن الأكفاء فتأذين، فزوجهن<sup>(٥)</sup>.

وواضح أن عضل الورثة كان الغرض منه أن تبقى في العشيرة ثروة الرجل الرجل المتوفى، وأن عضل الزوج كان الباعث عليه أن يسترجع ما قدم من صداق. أما عضل الأب فليس له من باعث إلا الأنفة والغيرة، أو الأثرة، وهو على أى حال عمل شاذ مبين لما كان عليه الآباء.

لكن العزب لم يتوحدوا بهذا العمل، فقد كان العبريون يعتقدون المرأة

(١) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٨/٩

(٢) المرجع السابق ٣٣٨/٩

(٣) فتح الباري ١٨٥/٨ وروح المعاني ٣٤٢/٤

(٤) القاموس المحيط مادة عضل

(٥) الأمل ١٠٥/٢

جزءاً من متاع الرجل ، تورث كما يورث ما خلف ، وللاوارث أن يبيعها أو يعضلها <sup>(١)</sup> .

ومن نعم الإسلام على النساء أن حظر العضل : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبن ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تسكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » <sup>(٢)</sup> .

ثانيهما الزواج بالميراث ، ذلك أن الرجل كان إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس ، فإن كانت تعجبه تزوجها ، وإلا حبسها حتى تموت . وفي رواية البخاري وأبي داود أن أولياء الرجل كانوا أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها ، وإن شاء منعها الزواج حتى تموت ، أو ترد عليهم مهرها ، فهم أحق بها من أهلها <sup>(٣)</sup> .

وكان للولد الأكبر إذا ما طرح ثوبه على امرأة أبيه أن يتزوجها بغير مهر ، وله أن يزوجه أحد إخوته بمهر <sup>(٤)</sup> ، وله أن يعضلها كما سبق ، فلا ينفق عليها ، ولا يخلئ سبيلها لتأحق بأهلها . وقد شكت كبيشة بنت معن إلى النبي صلى الله عليه وسلم ابن زوجها محسن ابن أبي قيس بن الأسلت لما فعل بها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، ثم شكت إليه نسوة آخر كما شكت كبيشة فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » <sup>(٥)</sup> .

ولم ينفرد العرب بهذا النظام ، فقد كان شائعاً عند الإسرائيليين والبابليين والآشوريين ، وكان عند الساميين يعتبر حقاً يتضمن الملكية ، وإذا كانت الزوجة

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ و ١٦٧ (٢) النساء ١٩ (٣) الكشف ٢٠٧/٤

وروح المعاني ٢٤١/٤

(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ٢٣٢/٣ والمستطرف ٧٢/٢

(٥) المحبر ٣٢٦ والبخاري ٢٨٨/٦ وروح المعاني ٢٤١/٤

(١٧ - المرأة في الشعر الجاهلي)



تعد جزءاً من متاع الرجل فإنها كانت ثورث كما يورث غيرها من ماله ، وللوارث أن يبيعها أو يعضاها<sup>(١)</sup> . بل إن شريعة موسى أوجبت على أخى الزوج أن يتزوج زوجة أخيه المتوفى ، وإذا لم يفعل شكته إلى الشيوخ ، فإذا أصر خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت في وجهه ، وصرخت قائلة : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه » ، فيسمى مخلوع النعل<sup>(٢)</sup> ، وتصبح المرأة بعد خلع النعل حرة ، لها أن تتزوج من تشاء ، فكان خلع النعل طلاق<sup>(٣)</sup> .

وواضح أن الغرض من الزواج بالميراث كالغرض من العضل ، إنما هو البقيا على ثروة المتوفى والاحتفاظ بها فى العشيرة ، والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو السبيل إلى ذلك .

## الطلاق

ضرورية :

هل من الحتم اللازم أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بعلاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم ولا تترق ؟ إن هذا مخالف لنواميس الاجتماع ، مناقض لطبائع الناس ، مبين للمشاهد فى كل مجتمع .

لقد كانت الحياة الزوجية فى كل قبيل تهرزها هزات عنيفة تقوض أركانها ، ومازالت إلى الآن عرضة لرجات قوية تهدم بنيانها ، فكان من الطبيعى أن يفزع العالم القديم إلى الطلاق ، وكان من تنظيم الأسرة أن تبيحه الشرائع السماوية الثلاث فى حدود وقيود .

فهل عرف العرب الطلاق ؟ وعلى أى الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرة الرجل يستأثر به ؟ أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟ ثم

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٥ - ٦٧

(٢) المرأة فى التاريخ والشرائع ٤٨ (٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٥

ما الصورة التي نستشفها من نظام الطلاق، لتتصور مكانة المرأة في المجتمع العربي؟ وماذا كانت نظرة الإسلام إلى ما تعارف عليه العرب من صور الطلاق؟

### الطلاق عند الأمم :

مارس العبرانيون الطلاق<sup>(١)</sup>، وخولت القوانين العبرية القديمة الرجل أن يطلق زوجته، ولم تخول الزوجة أن تطلب الطلاق<sup>(٢)</sup>، ولم تمنح المرأة العبرية حق المطالبة بالطلاق إلا في عصور متأخرة، إذ أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق<sup>(٣)</sup>، وليس قبولها الطلاق إلا شرطاً لوقوعه<sup>(٤)</sup>. وإذا فلم يكن من حقها أن تطلق زوجها.

ثم جاءت المسيحية فضيقتة جداً، حتى لقد روى عن المسيح أنه حرّمه، ذلك أن تلاميذه سألوه عنه فقال لهم: « من طلق زوجته وتزوج أخرى يزني، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت آخر تزني<sup>(٥)</sup> »، ولكن الكنائس أباحته في ظروف خاصة، سواء في ذلك الكنيسة الرومية والمذهب الأرثوذكسي والمذهب البروتستانتي<sup>(٦)</sup>. والكاثوليك يحرمون الطلاق لكنهم يفسخون العقد لأسباب قليلة كزنا المرأة، ويعدون هذا انفصالا لا طلاقاً، ولا يجوز لأحد الزوجين أن يتزوج بعده<sup>(٧)</sup>.

وإذا ما عدونا التشريع السماوي وجدنا أن الرومان قد زاولوه وأنه شاع في عهد الجمهورية الأخيرة، وانتشر طمعاً من الرجال في المال، وإعجاباً بالجمال، وغراماً بالنساء. وقد طلق الخاصة والقياصرة كما طلق الشعب، فإن يوليوس قيصر

(١) الإسلام والحضارة العربية ٨٠/٢ ودائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١ والمرأة في

العصور ٨٥

(٢) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة في الإسلام

٧٣ والإسلام والحضارة العربية ٨٠/١ (٣) شعار الحضرة ١٢٦ (٤) الأحكام

الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ (٥) إنجيل مرقس الإصحاح ١٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١٢٧ (٧) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٧/١١

طلق مرتين ، وأنطونيو طلق ثلاثاً ، وأوكتافيو طلق أربعاً . وظل الطلاق منتشراً حتى خففت المسيحية من شرته ، ثم حظر حظراً<sup>(١)</sup> .

لكن الزوجة الرومانية لم تخول المطالبة به ، فإذا حاولت الفراق عرضها عماها للعقاب الصارم<sup>(٢)</sup> .

وكذلك مارسه الأثينيون بدون قيد أو شرط ، وجملوه حقاً للرجل وحده ، فلا نصيب للمرأة منه<sup>(٣)</sup> . وقد أقرته شريعة سولون ، ومنحت المرأة ما كانت محرومة منه . أما ليكورغ فقصر حق التطليق على الرجال<sup>(٤)</sup>

وكان حق الطلاق مباحاً للزوجين في بابل<sup>(٥)</sup> . وأما المصريون القدماء فقد حرموه تحريماً ، ونقل الإسكندر المقدوني عنهم تحريمه .

#### دواعي الطلاق عند العرب :

ليس بمستطاع أن نتعرف بواعث الطلاق كلها ، وبحسبنا أن نمثل ببعضها ، فقد يكون من بواعثه الفقر ، فمثلاً سألت نبيه بن الحجاج السهمي زوجته أن يطلقهما لأنه افتقر فقال :

تلك عِرْساي تنطقان على عَمْدلى اليوم قول زور وهتر  
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جتْمانى بِنَكْر<sup>(٦)</sup>  
ولقد ينضم الكبر في السن إلى الفقر ، وفي هذين يقول عبيد بن الأبرص :  
تلك عرسي غضبي تريد زِيالى ألبين تريد أم لدلال ؟  
زعت أنتى كبرت وأنى قل مالى وضنّ عنى الموالى .

(١) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١ والإسلام والحضارة العربية ٨٠/١

(٢) مركز المرأة في الإسلام ٧٣ للسيد أمير على الهندى

(٣) مركز المرأة في الإسلام ٧٣ (٤) دائرة المعارف للبستاني ٣٣٦/١١

(٥) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٧ Mrs Ray Strachey

(٦) الأغاني ٦٠/١٦ وفي البيان والتبيين ١٩٩/١ أن القائل سميد بن زيد بن عمرو

بن ثعلب . وعند الزحشمى أنه زيد بن عمر بن ثعلب

ومحاً باطلا وأصبحت شيخاً لا يواني أمثالها أمثالي<sup>(١)</sup>  
 وبسبب السكبر طلق عمرو بن عدس دُخْتَنُوس بنت عمه اقيط بن زرارة ،  
 لأنه كان شيخاً هرمًا ، فرآها يوماً تتأفف منه ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟  
 قالت : نعم ، فطلقها<sup>(٢)</sup> .

وربما يدفع إلى الطلاق أن تتناول الزوجة على قوم الزوج وتنال منهم ؛  
 فيندفع بمصيبته لهم إلى تطليقها ، فمثلا كان حسان بن ثابت زوجا لعمرة بنت  
 الصامت الأوسية ، وكانا متصافيين متحابين ، ولما أجار الأوس مَخْلَدَ بن الصامت  
 الساعدي قال أبو قيس بن الأسلت :

أجرت مُخَلَّدًا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت  
 فتكلم حسان في أبي قيس بكلام أغضب عمرة ، فغيرته أخواله ، ونفرت  
 عليه بالأوس . فغضب لهم فطلقها<sup>(٣)</sup> . وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته  
 أم معبد لأنها عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه وسبته ،  
 فطلقها وقال فيها :

أعبد الله إن سببتك عِرْسِي تقدم بعضُ لحي قبل بعض  
 إذا عِرْسُ امرئ شمت أخاه فليس فؤاد شأنه بِمَحْمُضٍ  
 معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملكن إبراهيم وتفضي<sup>(٤)</sup>  
 وشبيه بذلك أن عمرو بن شاس كان له ابن أسود من أمة ، يقال له عرار ،  
 وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، فهددها بالطلاق في قوله :  
 فإن كنت مني أو تريدين صحبتي فكوني له كالسمن رُبَّتْ له الأدم

(١) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩

(٢) بجمع الأمثال للسيداني ١/١٦٤ والأغاني ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧ .

(٣) الأغاني ٣/١٤ .

(٤) الأغاني ٩/٥ . الفؤاد الحامض : الفاسد المتغير .

وإلا فسيري مثل ما سار راكب تعجل خُسا ليس في سيره أمم<sup>(١)</sup>  
ولقد يطلق الرجل امرأته لأنه لا يأنس إليها ، ولا يجد فيها الخلال التي  
يريد ، كما فعل الأعشى لما تزوج امرأة من عنزة فلم يرضها ، ولم يستحسن خلقها  
فطلقها ، وقال :

فبينى فإن البين خير من العصا وألا ترى لى فوق رأسك بارقه  
وما ذاك عندي أن تكون دنيئة ولأن تكونى جئت عندي ببائقة  
ويا جارتا بينى فإنك طالق كذاك أمور الناس غاد وطارقة<sup>(٢)</sup>  
ولقد يطلقها لأنه يجد فيها ميلا إلى غيره ، وتبرما به ، كما طلق الحارث  
ابن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة لما رأى إعجابها بشبان من قومها<sup>(٣)</sup> .

وربما يتوسم الرجل في المرأة التي خطبها شابا وجالا ، فإذا هي عجوز شمطاء  
فلا يجد بدا من تسريحها ، حدث هذا لجهم ، إذ خطب من بنى فقمس ، وباع  
إبلاله ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزا مولية ، فطلقها وقال :

وما لمتُ نفسي مذ فطمتُ بلحية كملت نفسي في عجوز بنى شمس  
فباتت ولم أغبن - غداة اشتريتها وبعثت تلاد المال بالثمن البخس<sup>(٤)</sup>

## أنواع الطلاق عند العرب

### ١ - الطلاق :

كانت العرب تطلق في الجاهلية ثلاثا على التفرقة ، والزواج أحق بزوجه  
إلى أن يستوفى ثلاث طلاقات ، فإن استوفاهما انقطع سبيله إليها<sup>(٥)</sup> ، وفي

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ . ربت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد  
لمدبوغ تتخذ منه الزقاق والأوعية ونحوها ، ورب الوعاء دهنه بالرب وهو خلاصة التمر بعد طبعه  
وعصره لينع فساد السمن . يقول لها : عامليه برعاية كما تتصالحين السمن بدهن وعائه .

(٢) ديوان الأعشى ١٨٣ وشعراء النصرانية ٣٦٣

(٣) جمع الأمثال للعبداني ١١١/١ والمحاسن والأضداد ١٨٤

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ .

(٥) المحبر ٣٠٩ والمثل والنحل على هامش الفصل ٢٤٣/٣ وبلوغ الأرب للألومي ٩/٢

ذلك يقول الأعشى لزوجته .

فبيني حصان الفرج غير ذميمة ومومومةً فينا كذاك ووامقه  
وذوق فتى قومٍ فإنني ذائقٌ فتاةً أناسٍ مثل ما أنت ذائقه  
فبيني فإن البين خيرٌ من العصا وألا تَرَى لي فوق رأسك بارقه  
ويا جارتا بيني فإنك طالقـه كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه<sup>(١)</sup>

فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

وكان هذا هو الغالب . وقد التزم أهل مكة هذا التفريق ، يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب : كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها<sup>(٢)</sup> .

وأحياناً كانوا يوقعون الثلاث دفعة واحدة ، يدل على ذلك قول الشاعر :  
فإن تَرَفُقِي يا هند فالرفق أيمس وإن تَخْرُقِي يا هند فأخرقُ أشام  
فانت طلاقٌ والطلاق عزيمة ثلاثٌ ومن يَخْرِقُ أعقُ وأظلم  
فبيني بها أن كنت غير رفيقة وما لامرئ بعد الثلاث مُقَدَّم  
ولكن طلاق الثلاث دفعة واحدة في الإسلام كان لا يقع إلى عهد عمر  
إلا طلقة واحدة ، روى مسلم عن ابن عباس أن الطلاق كان في عهد رسول الله  
وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد  
استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم<sup>(٣)</sup> .

على أنه وردت آراء أخرى في أن العرب كانوا يطلقون ويراجعون ، ولاحد  
لهم ينتهون إليه ، وكانوا يضارون النساء بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق

(١) ديوان الأعشى ١٨٣ والأغاني ٨/٨٠ .

(٢) معجم البلدان ٨/١٣٨ .

(٣) تفسير القرطبي ٣/١٣٠ والسنن الكبرى للبيهقي ٧/٣٣٦ .

مرتان فإمساك بمعروف أو تمرّيح بإحسان<sup>(١)</sup> . ولكنى أرجح أن هذا لم يكن نظاماً عاماً ، لأن رأى ابن عباس أجدر بالقبول ، وأقرب إلى المعقول ، ولأن بعض ما روى عن هذا الإطلاق غير مقبول ، وكيف نقبل ما ذكره ابن زيد أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ، ثم إذا أراد أن يراجعها كان ذلك له<sup>(٢)</sup> ؟ وكيف نقبل ما ذكره الرازي أن الرجل كان له أن يطلق امرأته ألفاً ، ثم يراجعها بعد كل مرة<sup>(٣)</sup> ؟

ومهما يكن من شيء فإن الإسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم في أن جعل الطلقات ثلاثاً ، ثم زاد أموراً ، منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره . ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثاً دفعة واحدة ، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء في حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والحقّقين إلى وقوعه واحدة<sup>(٤)</sup> .

## ٢ - الخلع :

وكان من صور الطلاق في الجاهلية أن تفتدى المرأة من زوجها بماله، وتختلف منه إذا أساء عشرتها<sup>(٥)</sup> ، من ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : « يا بني ارفع عصاك عن بكرتك ، فإن كانت نفرت من غير أن تنفّر فذاك الداء الذى ليس له دواء ، وإن لم يكن بينكما وفاق ، ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك » ورد

(١) تفسير الطبرى ٢/ ٢٧٦ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢/ ٣٦١ وتفسير القرطبي

١٢٦/٣ (٢) تفسير الطبرى ٢/ ٢٧٦ والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٣٣٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢/ ٣٧٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٣/ ١٣٠ وعبود المسائل ١٤٥ - ١٦٠ .

(٥) الكشف ١/ ١٩٧ .

عليه صداقه وخلعها<sup>(١)</sup> ، وكذلك خلع دعب بن عبد الله من رجل إيادى زوجته وتزوجها<sup>(٢)</sup> .

ولما جاء الإسلام أقر الخلع<sup>(٣)</sup> ، مراعاة لصالح المرأة ، لأنها قد تبغض زوجها وتتأذى بعشرته ، ويأبى هو أن يخلصها ، حرصاً عليها ، أو نكايه لها ، أو أسفاً على ما أنفق من ماله في زواجها . قال تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ »<sup>(٤)</sup> .

ولقد يكون في الخلع رعاية لصالح الزوج أيضاً ، فيما إذا أتت الزوجة بفاحشة مبينة كافي الآية ، والمراد بها النشوز وسوء الخلق أو الزنا<sup>(٥)</sup> ، وقد كشفت جميلة بنت عبد الله بن أبي للنبي صلى الله عليه وسلم عن كراهيتها لزوجها ، ورغبتها في فراقه ، فقال زوجها : إني أعطيتها أفضل مالى ، حديقه ، فلتردد على حديقتي . فأمرها النبي بردها عليه ، وفرق بينهما<sup>(٦)</sup> ، ورويت هذه الحادثة بطرق أخرى ، ولكنها كلها تدل على أن العرب كانوا يعرفون الخلع ، وإلا لم يطلب الأزواج ما لهم قبل الفرقة .

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع ، أو تطلب الطلاق من غير حاجة ، أو خضوعاً للهوى ، لقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » ، والمراد النشوز والبغضة من الزوجة ، والتقصير في الحقوق من الزوج ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم تُرَحْ رائحة الجنة »

(١) أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري ٤٣ مخطوط وفتح الباري ٣٤٦/٩ وعيون الأخبار ٧٦/٤ .

(٢) الفاخر . الكوفي ٤٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٣٧/٣ .

(٤) البقرة ٢٢٨ .

(٥) روح المعاني ٢٤٢/٤ .

(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٢١٣/٧ وتفسير الطبري ٢٨٠/٢ والنيسابوري ٣٦٣/٢ .



و « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة »  
و « المختلعات هن المناققات <sup>(١)</sup> » .

### ٣ - الظهار :

قال الشافعي رضى الله : « سمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول :  
« كان أهل الجاهلية يطلقون ثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق . فأقر الله  
تعالى الطلاق طلاقاً ، وحكم في الإيلاء والظهار بما بين في القرآن » <sup>(٢)</sup> . ذلك بأن  
الرجل كان يظاهر من زوجته في الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها : « أنت علىَّ  
كظهر أمي » يريد تحريمها على نفسه تحريماً مؤبداً ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم  
لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت حين فرغت إليه لما ظاهر منها زوجها  
« حرمت عليه <sup>(٣)</sup> » . ثم أنزل الله تعالى حكم الإسلام . وقيل إنهم كانوا  
يعمدونه طلاقاً ، ويحيزون للمظاهر أن يتزوج زوجته ثانياً <sup>(٤)</sup> ، ولكن جواب  
الرسول لخولة يناقض هذا . وربما كان الأكثر يحرمون بالظهار ، والأقل  
لا يحرمون به .

أما حكم القرآن في الظهار فواضح من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من  
قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل  
أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي  
السبيل <sup>(٥)</sup> » ، ومن قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ،  
وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٣١٦/٧ وتيسر الوصول ٣٣٨/١ .

(٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢ .

(٣) تفسير الطبري ٣/٢٨ والقرطبي ٢٧٠/٢٨ وطبقات بن سعد ٢٧٦/٨ .

(٤) تفسير الطبري ٦/٢٨ والنيسابوري ٨٢/٢١ والمبسوط ٢٢٤/٦ .

(٥) سورة الاحزاب ٤ .

من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتاسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتاسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً »<sup>(١)</sup> .

وبهذا أبطل الإسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان في جوفه ، وفاس لم على هذا المستحيل أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كأمه ، ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة .

#### ٤ — الإيلاء :

كان الإيلاء من أنواع الفرق في الجاهلية كما ذكر الشافعي<sup>(٢)</sup> والقرطبي<sup>(٣)</sup> ، يولى الرجل من زوجته السنة والسنتين وأكثر ، إيذاء لها ، فلا يقربها . فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه ، ثم يطلق إن شاء أو يفيء في يمينه ، « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »<sup>(٤)</sup> فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكى<sup>(٥)</sup> .

### حق المرأة في الطلاق

١ — تميزت المرأة العربية بأن لها الحق في أن تكون العصمة بيدها فتطلق

(١) سورة المجادلة ١ - ٤ .

(٢) بلوغ الأرب ٥٠/٢ .

(٣) تفسير القرطبي ١٠٣/٣ .

(٤) سورة البقرة ٢٢٦ و ٢٢٧ .

(٥) تفسير القرطبي ١٠٣/٣ .

الرجل ، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق ، سواء أكان على بدل أم لم يكن ، وهذا حق لم تظفر به امرأة في الأمم التي عاصرت العرب . « فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حولن الخباء ، فإن كان بابہ قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابہ قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها<sup>(١)</sup> » ولعل السبب في هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكاً للمرأة ، وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضرة<sup>(٢)</sup> ، فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقته . أما الحضريات فكانت لمن طريقة أخرى في الإعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح<sup>(٣)</sup> .

ومن هؤلاء اللاتي امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، إحدى نساء بني عدى بن النجار ، كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها ، فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته<sup>(٤)</sup> ، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجليّة ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج السامية ، وفاطمة بنت الخرشب الأثمارية ، والسوداء العنزية الهزانية<sup>(٥)</sup> ومنهن ماوية بنت عفزر ، وقد طلقت زوجها حاتماً الطائي لما تخرق في كرمه وضاق به<sup>(٦)</sup> .

وقد ورد في الشعر ما يثبت ذلك ، قالت امرأة من بني جذيمة بن عامر وقد أوقع بهم خالد بن الوليد بالغمة نيساء :

(١) الأغاني ١٠٢/١٦ وذيل الأمل ١٥٣ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٧ .

(٣) مجمع الأمثال للبيداني ٣١٨/١ .

(٤) الأغاني ١١٩/١٣ والميداني ٣١٨/١ .

(٥) الميداني ٣١٨/١ والمحبر ٣٩٨ .

(٦) الأغاني ٩٩/١٦ وذيل الأمل ١٥٣ .

فَسَكَتُ تَرَى بِالْمُعْصَاءِ مِنْ فَتَى أَصِيبَ وَلَمْ يَجْرَحْ وَقَدْ كَانَ جَارِحًا  
أَلْطَلْتُ بِخَطَّابِ الْأَيَامِ وَطَلَّقْتُ غَدَاتُذٍ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ نَاكِحًا<sup>(١)</sup>  
ويقول عبيد بن الأبرص لزوجته :

وعيشى بالذى يفنيك حتى إذا ما شئت أن تنأى فبيني<sup>(٢)</sup>  
ويقول الشنفرى :

إذا ما ماجئت ما أنهارك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى<sup>(٣)</sup>  
وحتى على فرض أن هذا تهكم من الرجل فإنه دليل على أن المرأة أن تطلب  
الطلاق .

٢ — وكان للمرأة أن تطلب الطلاق ، فلم تسكن كغيرها من نساء الأمم  
المعاصرة لا رأى لها ولا اختيار . وهى إما أن تطلب الطلاق بالاختلاع كما سبق ،  
وإما أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته :

تلك عرسى غضبى تريد زىالى ألبين تريد أم لدلال  
إن يكن طيبك الفراقى فلا أحفل أن تعطفى صدور الجمال<sup>(٤)</sup>  
وكما حدث سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجته :

تلك عرساى تنطقان على عمد لى اليوم قول زور وهتر  
سالتانى الطلاق أن رأنا ما لى قليلا قد جئنا بُنكر<sup>(٥)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٥٧/٤ ومعجم البلدان ٣٠٧/٦ ألفت : لزمت . الغميصاء : موضع  
قرب مكة .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٣ .

(٣) الوحشيات لأبى تمام ٢٧ مخطوط وأخبار النساء ٥٤

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١١٩/١ .

(٥) البيان والتبيين ٩٩/١ وفى الأغاني ٦٠/١٦ أنه نبيه بن الحاج .

ويقول أبو قرْدُودَة :

كَبَيْشَة عَرَسِي تَرِيد الطَّلَاقَ      وَتَسْأَلُنِي بَعْدَ وَهْنٍ فَرَاقًا<sup>(١)</sup>

وقد سألت ضَبَاعَة بنت عامر بن قرط زوجها عبد الله بن جدعان أن يطلقها، لأنه كان كبيراً، وعاشت معه زماناً لاتد، ولأن هشام بن المغيرة المخزومي أغراها بطلب الطلاق. فقال لها عبد الله: أخاف أن تزوجى هشام بن المغيرة، قالت: لا أتزوجه. قال: فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها بين إساف ونائلة، وتغزلين لى خيطاً يقطع ما بين الأخشيين، وتطوفين بالبيت عريانة. فأرسلت إلى هشام تخبره، فأرسل إليها: ما أيسر ما سألك، وما يُلَوِيك هذا، وأنا أيسر قريش في المال، ونسأى أكثر نساء رجل من قريش، وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة، فلا تأبى عليه. فقالت لزوجها، فإن تزوجت هشاماً فعلى ما قلت. فطلقها، فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجُرُر، وجمع نساء ففسجن ثوباً يع ما بين الأخشين، ثم طافت بالبيت عريانة<sup>(٢)</sup>.

على أن المرأة كانت لبقّة في تصرفها بعصمتها، لا تطلق زوجها حماقة وهوى، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية، لا تفصمه إلا إذا لم تجد بداً من فصمه. فهو لاء اللأى كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها، يدل على ذلك أن ماوية لم تطلق حاتمًا إلا بعد ما يئست من كفه عن التخرق في كرمه، ونخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيتها إن أنجبت منه<sup>(٣)</sup>. ويدل على ذلك أن رجلاً من آل أبي طالب غضب على امرأته يوماً فقال لها: أمرك بيدك. فقالت: أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة، فحفظته وأحسننت صحبته،

(١) الحيوان للجاحظ ٤٦٣/٥.

(٢) الإصابة ١٣٣/٨ و ٣٥٣/٤ ورسالة القيان للجاحظ ٥٧ وأشعار النساء للمرزباني ٢٤

(٣) الأغاني ١٠٢/١٦.

فلا أضيعه إذ كان في يدي ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حتمك . فأعجبه قولها وأحسن صحبتها<sup>(١)</sup>.

٣ — ثم جاء الإسلام فأبقى على حق المرأة في الطلاق إذا اشترطته على الزوج . وإلى ذلك ذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة<sup>(٢)</sup>.

وأباح لها أن تختلع ، وأن تطلب التفريق لعيب في الزوج ، أو لامتناعه عن الإنفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة<sup>(٣)</sup>.

وأباح للتي زوجت صغيرة أن تفسخ زواجها عند بلوغها ، أو أن تمضيها<sup>(٤)</sup>. والفكرة العامة التي نستنبطها أن الإسلام أبقى على بعض النظم العربية الصالحة في الطلاق ، وأبطل الإيلاء على أنه طلاق ، وحرم الظهار ، وصان للمرأة حقها في الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها .

ثم إنه بغض الطلاق إلى الرجال ، فقد ورد في القرآن الكريم : « فإن كرهتموهن فعسى أن تسكرهوا شيئاً ويعمل الله فيه خيراً كثيراً »<sup>(٥)</sup> و « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة »<sup>(٦)</sup> و « إن خفتم شقاق بينهما فابعثو حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما »<sup>(٧)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق<sup>(٨)</sup>

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ .

(٢) عيون المسائل ١٦٩ .

(٣) عيون المسائل ٢٠٥ .

(٤) عيون المسائل ٧٧ .

(٥) سورة النساء ١٩ .

(٦) سورة الطلاق ١ .

(٧) سورة النساء ٣٥ .

(٨) السنن الكبرى للبيهقي ٣٢٢/٧ .

وقال: أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فخرام عليها رائحة الجنة<sup>(١)</sup>، وذهب الفقهاء إلى أنه قد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً<sup>(٢)</sup>، كما أنه قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً<sup>(٣)</sup>.

وما من شك في أن الطلاق نظام طبيعي لا مفر منه أحياناً، وليس أدل على ذلك من لجوء بعض المسيحيين إليه، « والأفضل أن يقتصر الإنسان على امرأة واحدة لا يبدلها، ولكن قد يحدث زواج غير موفق، فعلينا أن نسن قوانين تحول الرجل أن يفهم هذه الرغبة التي لا مندوحة من تغييرها، مراعاة لصالح المجتمع »<sup>(٤)</sup>

### مسيرة بهر الطلاق

قد يشور الزوج، وقد تهتاج المرأة، وقد تنزل بهما عارضة فيفترقان، وهذه حال طبيعية لا منجاة منها. فإذا ما وجدنا الرجل يندم على الطلاق، ويتحسر على سعادة قد ذهبت، وإذا ألقينا المرأة المطلقة تُثنى على زوجها، وتأسف على صلة قد انقطعت، كان لنا أن نوقن بأن العلاقة الزوجية في العصر الجاهلي كانت وطيدة الدعامة، عالية المكانة.

١ — أما الزوج فكثيراً ما حزن وندم، وإذا كانت أخبار حزنه وندمه أكثر من أخبار المرأة، فذلك لأنه هو المطلق في الأعم الأغلب، ثم لأنه لا ينجل من البوح بما يمتضه من الألم والندم والحزن إلى زوجته التي طلقها، أما الزوجة فإنها في موضع المرغوب عنها، فلا تكشف عن حسرتها وندمها، وهي إلى ذلك تستحي أن تعلن توجعها وتأنيبها على أن تعود.

(١) حجة الله البالغة للدعلوي ١٠٣/٢ :

(٢) البسوط للسرخسي ٦/٢ .

(٣) عيون المسائل ١٤٧ .

(٤) The Psychology of Marriage P. 240 Walter M. Callchan

كانت أم أوفى زوجة زهير بن أبي سلمى ، وقد ولدت له أولاداً ماتوا ، ثم تزوج فغارت ، وطابت الطلاق ، فطلقها ، لكنه حسب أنها ملته لطول عشرتها له ، وأقسم أنه حسير النفس لفرقتها ، وهى لا تبالي بالفرقة ، وأوصاها ألا تتقول عليه لآلها ، فتدعى أنه أساء عشرتها ، ثم ذكرها بما كان بينهما من صلة الأولاد والمودة ، وبرعايته لها وتمتعها :

لعمرك والخطوب مُغَيَّرَات      وفى طول المعاشرة التقى الى  
لقد باليتُ مَطْعَنَ أم أوفى      ولكن أم أوفى لا تبالي  
فأما إذا ظعنتِ فلا تقولى      لدى صِهْرٍ أُذِلَّتِ ولم تُذالى  
أصبتُ بنىً منك ونلتِ منى      من اللذات والحلل العوالى<sup>(١)</sup>

وكان لسلمى بن ربيعة زوجة ، وقد فارقت له لأنه يستهلك ماله ، ويعرض نفسه للمعاطب ، ولحقت بقومها ، فأخذ يتلف عليها ويتحسر ، ويبكى بكاء حاراً :  
حلت ثُمَاضِرُ غُرْبَةٍ فاحتلت      فَلَجَّجًا وأهلك باللوى فالحلة  
وكان بالعينين حب قرنفل      أو سنبلا كحلت به فانهلت<sup>(٢)</sup>  
وقد تهيب أبو قرودودة أن يطلق ، لأنه يحب زوجته الحسنة ، فلا يطيق صبراً على فراقها ، ولكنها أصرت على الفراق فألمته وأبكته :

كُبَيْشَةُ عرسى تريد الطلاقا      وتساألنى بعد وهن فراقا  
كُبَيْشَةُ إذ حاولتُ أن تبين      يستبقُ الدمع منى استباقا  
وقامت تريك غداة الفراق      كَشْحًا لطيفًا ونغذا وساقا

(١) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغاني ١٥٠/٩ .

(٢) شرح التبريزى للعجاسة ٥٥/٢ غربة : دار بعيدة . الحلة : موضع في بلاد بني ضبة .  
فلج : واد في طريق البصرة وبين الحلة وفلج مسير عشر . القرنفل والسنبل : من أخلاط  
الأدوية التى تحرق العين وتسيل دموعها .



ومنسدلاً كمنافى الحبـال توسعه زَنَبَقًا أو خِلَاقًا<sup>(١)</sup>

ولما تخالبت على عروة بن الورد امرأته ، ولحقت بأهلها أرق ، لما شام البرق  
من ناحيتها ، ودعا لدارها بالسقيا ، وتحسر وتذكر ، وتعزل بها :

أرقت وصحبتي بمضيق عميق لبرق من تهامة مستطير  
سقى سلمى وأين ديار سلمى إذا كانت مجاورة السرير  
إذا حات بأرض بنى عليّ وأهلى بين إمرة وكير  
ذكرت منازل من أم وهب محل الحى أسفل من تقير  
وأحدث معبد من أم وهب مُعرّسنا بدار بنى النضير  
وقالوا : ما تشاء فقلت : ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثر  
بأنسة الحديث رُضابُ فيها بُعِيدَ النوم كالغنب العصير  
سقوني الحمر ثم تكففوني عداة الله من كذب وزور  
وقالوا : لست بعد فداء سلمى بمغنٍ ما لديك ولا فقير  
فيا للناس كيف غلبت نفسى على شيء ويكرهه ضميرى<sup>(٢)</sup>

ولقد يأسى بعض الأزواج إرعاء على ولده من مطلقاته ، لا حسرة على  
الزوجة ، لأنها ذات شغب وصخب ، يقول الغزّر لما فارقت زوجته الناقية :

أجَدَّ فراق الناقية فانتوت أم البين يحلّولى لمن هو مولع ؟  
لقد كنت أهوى الناقية حنّبة وقد جعلت أقران بين تقطّع

(١) الحيوان للحافظ ٤٦٣/٥ . منسدلاً : شعرا مسترسلا . الزنبق : دهن الياسين .  
قال الأزهرى وأهل العراق يقولون لدهن الياسين دهن الزنبق . الحلاق : ضرب من الطيب  
وهو الخلق .

(٢) الأغاني ٧٧/٢ ودبوان عروة ١١ والشعر والشعراء ٢٦٠ مضيق عميق : موضع  
قرب المدينة . السرير : موضع ببلاد بنى كنانة . أمرة : منزل في طريق مكة من البصرة . كير :  
جبل بأرض غطفان . تقير : موضع بين حجر والبصرة . آثر ذى أثر : أول كل شيء .

قنولا بديها هبة هيرة إنه بنى الذى يشفى ستامى، وصعصع  
لكان فراق الناقية غبطة وهان علينا وصايا حين يقطع<sup>(١)</sup>

بل لقد بلغ الحزن بعبد الله بن العجلان لما طلق زوجته هند، ثم تزوجت  
غيره أن مات أسفاً عليها، ذلك بأن أباه اضطره إلى تطليقها اضطراراً فقال :

فارقته هنداً طائعاً فندمت عند فراقها  
فالعين تدرى دمعها كالدر من آماقها  
متحلباً فوق الردا ء يحول من روقاقها<sup>(٢)</sup>

وقال :

فما مغول تبكى لفقد أليفها إذا ذكرته لا يكف زفيرها  
بأغزر منى عبرة إذ رأيتها يُحَثُّ بها قبل الصباح بعيرها<sup>(٣)</sup>

وله فيها غزل وحنين كثير<sup>(٤)</sup> . وكذلك حزن عمرو بن شاس لما طلق  
زوجته<sup>(٥)</sup> ، وحسان بن ثابت إذ طلق امرأته عمرة<sup>(٦)</sup> .

٢ — وما زال بعض الرجال يأسون بعد الطلاق إلى الإسلام ، من هؤلاء  
عبد الله بن أبى بكر ، كان قد تزوج عائكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من  
أجمل نساء قريش ، فلما دخل بها غلبته على عقله ، وأحبها حباً شديداً ، فأمره  
أبوه أن يطلقها ، ففعل بعد لأى ، ثم جزع جزعاً شديداً ، حتى عاف الطعام  
والشراب ، وأنشد :

(١) أمثال العرب للضبي ٢٢ . يحلولى : بحسن . هيرة وصعصع : ولداه منها .

(٢) الأغاني ١٩/١٠٢ .

(٣) الأغاني ١٩/١٠٤ .

(٤) الأغاني ١٩/١٠٢ - ١٠٥ .

(٥) جهرة الأمثال ١٧٣ .

(٦) الأغاني ٣/١٤ .

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلاً      ولا مثلاً في غير شيء تطلق  
لها خلقٌ سمح ورأى ومنصب      وخلقٌ سوى في الحياة ومصدق  
أعانتك لا أنساك ما هبت الصبا      وما ناح قمرى الحمام المطوق  
أعانتك لا أنساك ما حجج راكب      وما لاح نجم في السماء مخلوق  
أعانتك قلبى كل يوم وليلة      إليك بما تخفى الصدور معلق  
ولولا انتقاء الله في حق والدى      وطاعته ما كان منا التفريق

فبلغ أبا بكر شعره ، فأمره فراجعها<sup>(١)</sup> ، وفرح بمراجعتها ، وفاضت فرحته شعراً طروباً كما فاض حزنه من قبل شعراً غضوباً<sup>(٢)</sup> .

٣ — أما الزوجة فقد أثر عنها أحياناً ما ينبيء عن عرفانها جميل زوجها ، وتقديرها حسن عشرته بعد الطلاق. فمثلاً أغار عروة بن الورد على مزينة ، وأصاب منهم امرأة اسمها سلمى ، فاستاقها وأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، ثم كرهت أن تكون سبياً ، وأن تنادى بأنها أمة عروة ، فاحتالت على عروة حتى أتت قومها ، فاخترتهم ، فطلقها عروة ، فأقبلت عليه قائلة : « يا عروة ، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود بدءاً ، وأحمى لحقيقة . وما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فأرجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم »<sup>(٣)</sup> .

(١) المردفات من قريش للدائى ، من نواذر المخطوطات ٦٢ ونزعة الأبصار والأسماع ١٣ وأسد الغابة ٤٩٨/٥ والإستيعاب ٧٦٨/٢ والأغانى ١٦/١٢٨ .  
(٢) المردفات من قريش ٦٢ .  
(٣) الأغانى ١٨٥/٢ .

وكذلك لما أسلم قيس بن عاصم ، وعنده امرأة من بنى حنيفة - أبى أبوها وأهلها أن يسموا ، وخافوا إسلامها ، وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها فى شيء ما بقيت - طالبتة بالفرقة ، ففارقها . فلما احتملت للتحق بأهلها أثنى عليها بقوله : « أما والله لقد صحبتنى سارة ، ولقد فارقتنى غير عارة ، لا صحبتك مملولة ، ولا أخلاقك مذمومة ، ولولا ما اخترت ما فرق بيننا إلا الموت ، ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاع » . فقالت له : « أنبئت بحسبك وفضلك ، وأنت والله إن كنت للدائم الحبة ، الكثير المودة ، القليل اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيد النبوة ، ولتعلمن أنى لأسكن بعدك إلى زوج » . فقال قيس : « ما فارتقت نفسى شيئاً قط فتبعته كما تتبعتها<sup>(١)</sup> » .

## العدة

عرف العرب الطلاق ، وجروا على طرق عدة فى إيقاعه ، ولم تقف بهم معرفتهم عند ذلك ، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم ، وحداداً على الزوج ، « وكانت مشهورة معلومة فى الجاهلية ، لا يكادون يتركونها »<sup>(٢)</sup> . يدل على ذلك ما ذكره البخارى أن امرأة توفى عنها زوجها ، غشوا على عينيها ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه فى الكحل ، فقال : « لا تكحل ، قد كانت إحدا كن تمكث فى شر أحلاسها (أو شريبتها) فإذا كان حول قمر كلب رمت ببعرة . فلا ، حتى تمضى أربعة أشهر وعشراً »<sup>(٣)</sup> .

وتفصيل ذلك أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حِفْشاً ، ولبست شريابها ، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتى بدابة : حمار أو شاة أو حاطر ، فتفتض به ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ، ثم تراجع بعد ماشاءت من

(١) الأغاني ١٢/١٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٢٦/٣ وحجة الله البالغة ١٠٦/٢ .

(٣) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٢٥٧/٣ وفتح الباري ٩/٤٢٨ .

طيب أو غيره . وكانت ترمى بالبعرة أمامها ، فيكون ذلك إحلالاً لها ، أو ترمى بها كلباً أو غيره ، لئلا ترمى من حضرها أن مقامها حولاً أهون عليها من بعرة ترمى بها كلباً أو غيره ، أو أن رمى البعرة إشارة إلى رميها العدة كما ترمى البعرة <sup>(١)</sup> . وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ ﴾ <sup>(٢)</sup> وهذه المدة كفيلة ببيان الحمل إن كان حمل .

أما المطلقة فقد ذكر أنها كانت تعتد في الجاهلية ، ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدتها ، وأجابه . وذكر أيضاً أنها كانت لا تعتد ، وأن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين وهن في عصمة الآخرين <sup>(٣)</sup> . ويعزز ذلك أن عمر رضى الله عنه بلغه أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها ، ففرق بينهما ، وعاقبهما ، وقال : لا تنكحها أبداً . وجعل الصداق في بيت المال ، وعلم على ذلك ، فقال : رحم الله أمير المؤمنين ، ما بال الصداق وبيت المال ؟ إنما جهلا ، فينبغي أن يردما إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ قال : لما الصداق بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وتكمل عدتها من الأول ، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقراء ، ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بقوله : أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة <sup>(٤)</sup> .

لكني أرجح أن ترك العدة كان جهلاً ، وأن الحوادث التي كانت فيها ولادة من الأول على فراش الثاني منشؤها الجهل أو الانخداع بأنه لا حمل من الزوج الأول .

(١) فتح الباري ٩/٤٢٨ والتجريد الصريح ٣/٢٥٧ الحنفى : البيت الصغير . الأحلاس ج جلس وهو التوب أو السكاء الرقيق . تفتض به : تمسح به جلدها . قال ابن قتيبة : سألت المجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لاتمس ماء ولا تتلم ظفراً ولا تربل شعراً ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض أى تكسر ماى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يعيش بعدما تفتض به . (٢) البقرة ٢٣٤ . (٣) المحبر ٣٣٨ . (٤) تفسير القرطبي ٣/١٩٤ .

## الفصل الثالث

# البنات

كشفت الدراسة السابقة للأم وللزوجة عن مكانة عالية للمرأة في المجتمع العربي، وعن تفوقها على غيرها من معاصراتها.

فكيف صور الشعر الجاهلي البنات؟ وما مكانتها التي رسمها لها؟

مب بعضهم للبنات

١ — الفكرة الشائعة إلى الآن أن البنات كن بفيضات إلى الآباء جميعاً ، ولكن في هذا الحكم بعض الخيف ، لأن كثيراً من الآباء كانوا يحبون بناتهم ويعزونهن ، ويخدبون عليهن ، فقد دخلت أم الحكم على أبيها الزبير بن عبد المطلب ، فهش لها ، وقال :

يا حبذا أم الحكم كأنها ريمٌ أجَمَّ  
يا بعايا ماذا يَشَمُّ سامٌ فيها فسَمَمٌ<sup>(١)</sup>

وكان لمعن بن أوس — الشاعر المخضرم — ثلاث بنات ، وكان يؤثرهن ويعتز بهن ولا يحب أن يكون له بهن رجال ، لأن في الإناث من هن أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم إذا مرضوا ، ويعدنهم إذا سقموا ، وينحن عليهن إذا ماتوا :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكذَّبُ نساء صوالح

---

(١) الأمازي ١١٧/٢ أجم : ليس له قرنان وفي رواية الأمازي أحم . يشم : يخبر . سام : فسهم : فارغ فقرع وغلب .

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملأته ونوائح<sup>(١)</sup>

ويقول حسان بن الغدير فى تحبيب البنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكى والجُيوبُ النواصِح<sup>(٢)</sup>

ويتجلى حب الأب لابنته فى قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب إليه بنته عُمَيْرَة : يا صعصعة إنك أتيتنى تشتري منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، والحبيب كفء الحبيب ، والزواج الصالح أب بعد أب<sup>(٣)</sup> .  
وفى قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة وقد خطب إليه ابنته : مرحباً بابن لم ألدّه ، أقرب قريب خطب إلىّ أحب حبيب ... قد زوجتكها وهى ألوّطُ بقلبي ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك<sup>(٤)</sup> .

ولقد يتجلى حب الأب لابنته فى خشيته عليها من الحزن بعد موته ، فمثلاً تخوف لبید أن تَحْمَش بنتاه الوجه، وتحلّقا الشعر ، تفجماً عليه إذا مات، ونصحهما ألا تتأدیا فى الحزن وأن ترضیا بقضاء الله :

تمنى ابتسای أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربیعة أو مُضَرّ؟  
وفى ابْنَى نزار أسوة إن جرعتما وإن تسألأهما تخبرا منهما الخبر  
فإن حان يوم أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلّقا شعر  
وقولا هو المرء الذى لا حلیفه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر  
إلى الحول ثم اسم السلام علیكما ومن بیک حولاً كاملاً فداء عذر<sup>(٥)</sup>

بل روى مايدل على عطف الأب على ابنته وهو يوجد برمقه ، فإنه لما طعن

(١) اللطائف والظرائف للعلالى ٦٧ ومحاضرات الأدباء ٢٠٤/١ والأغاني ١٥٧/١٠

(٢) المؤنث والمختلف ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ٥٩/٢ والعقد الفريد ٢١٠/٣ وجمع الأمثال ٢٨٦/١

(٤) محاضرات الأدباء ١٢٣/٢ .

(٥) ديوان لبید ١ والأغاني ٩٨/١٤ .

لقيط بن زرارة يوم شُعب جبلة بقي يوماً ثم مات ، وجعل يقول عند موته :

يا ليت شعري عنك دُخْتَنُوسُ إذا أتاها الخبر المرموس  
أَتَحْلِقُ الرأس أم تَمِيس لا بل تَمِيس إنها عروس<sup>(١)</sup>

وكأنما لم يجد جعدر بن ضبيعة ما يوثق به قسمه على الجلال والكفاح  
حين تستجر السيوف والرماح غير أن يدعو على ابنته باليتم، قال في يوم التحاليق  
.. من أيام البسوس لبكر على تغلب - :

قد يَتِمَّتْ بنتى وآمت كُنْتِي وشَعَمْتُ بعد ادهان بُجَمَّتِي  
ردُّوا على الخليل إن أمت إن لم أناجزها فجزوا لِمَتِي<sup>(٢)</sup>  
على أن البنت كانت مدللة في صغرها ، تلعب بالعرانس والدمى ، وتحلى  
بما تحلى به البنات ، قال امرؤ القيس :

وهي إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوارٍ من لُعب<sup>(٣)</sup>

٢ - ثم جاء الإسلام فزادهن عزازة ، فقد أوصى بهن النبي خيراً ، كقوله :  
من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . وقوله :  
من كانت له أنثى فلم يندها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله تعالى  
الجنة . وله في هذا أحاديث شتى<sup>(٤)</sup> .

وجاء في حديث عن السيدة عائشة أنها كانت تلعب مع الجوارى بالبنات  
( التماثيل الصغار يلعب بها ) بعد زفافها ، فإذا دخل رسول الله خرجن ، وإذا  
خرج دخلن . وقد قدم رسول الله من غزوة تبوك ، فوجد في سترها بنات لها ،

(١) الأغاني ٣٨/١٠ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٣٣/٢ والمرزوقي ٥٠٧/٢ السكنة : زوجة الأخ أو الابن  
والمراد هنا امرأته هو . إدهان : المراد به هنا دهان الرأس والعناية بالشعر وق رواية التبزي  
بعد الرهان وهو تحريف .

(٣) ديوان امرئ القيس ٥٥ والكنز الثمين ١٩٦ .

(٤) تبخير الوصول ٤٧/١ وكنز العمال ٢٧٧/٨ .



فقال : ما هذا ؟ قالت : بناتي . ورأى بينهما فرساً له جناحان ، فقال : ماذا أرى وسطين ؟ قالت : فرس ، قال : وما هذا الذي عليه ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسايمان خيلاً لها أجنحة ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بدت نواجذه <sup>(١)</sup> .

وكانت قبل زفافها تلعب على المرجوحة <sup>(٢)</sup> . وأرجح أنها كانت تلعب بالدمى في بيت أبيها ، ثم استأنفت لعبها في بيت الرسول .  
وروى عن أم زينب بنت نبيط بن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله حلى أمها وخالتها برعاش من ذهب ولؤلؤ <sup>(٣)</sup> .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله المثل الأعلى في العطف على البنات ، كان يصلى وهو يحمل على عاتقه حفيدته أمامة بنت أبي العاص <sup>(٤)</sup> ، وكان يقبل بنته السيدة فاطمة إذا قدم من سفره ، وكان يكتنيتها بأمه <sup>(٥)</sup> .

وقد رفض بعض الآباء أن يزوجوا بناتهم إلا بعد الاستيثاق من الزوج ألا يجمع الضرة كما سبق .

وكذلك رفض رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتزوج على بن أبي طالب ضرة على ابنته ، لأنه كان يغار على بناته غير شديدة ، ذلك أنه لما علم أن على بن أبي طالب يريد أن يتزوج على فاطمة غضب وصعد المنبر وقال : إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ، وينكح ابنتهم ، فإنما هي بُضعة مني ،

(١) سنن أبي داود ١٩٧/٢ و ٢٠١ والإحياء ٣٤٥/٢ وربع الأبرار للزحمرى والقاموس المحيط والصحاح والطبقات ٤٠/٨ .

(٢) الطبقات ٤٠/٨ .

(٣) الإصابة ٤٧/٨ وأسد الغابة ٤٢١/٥ و ٥٨٥ .

(٤) الإصابة ١٤/٨ وهي بيت بنته زينب .

(٥) أسد الغابة ٥١٩/٥ والإصابة ١٥٧/٨ .

يُرِينِي مَا أَرَاهَا ، وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا<sup>(١)</sup> .

وقد اقتدى به كثير من المسلمين في عطفه على البنات مثل رَحَاطَن بن المعلِّ  
في قوله :

لولا بَنَاتِ كُرْغَبِ الْقَطَا رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ  
لَكَانَ لِي مُضْطَرَّبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ  
وَأَمَّا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ  
لَوْ هَبْتَ الرِّيحَ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ<sup>(٢)</sup>  
ويشبهه في حده أبو خالد القناني<sup>(٣)</sup> وإسحاق بن خلف<sup>(٤)</sup> والمرار بن منقذ<sup>(٥)</sup> .  
على أن هؤلاء جروا أيضاً على عرق من حذب الآباء في الجاهلية ، إذ ليس  
من الطبيعي أن يبدل الإسلام طباع العرب من التقيض إلى التقيض في برهة من  
الزمن ، فيسلخهم من حياتهم الأولى ساخناً في بضعة أعوام ، لأن خروج الأفكار  
من عقول الجماعة صعب كدخولها<sup>(٦)</sup> فلا بد للانسلاخ من عاداتهم الأولى من  
زمان طويل يكفل تحولهم في تَوَدَّة .

لذلك لم يكن عجباً أن أحب العرب البنات ، وعطفوا عليهن ، ولم يكن  
عجباً أن أبغضهن بعضهم حتى في الإسلام كما سيجيء .

على أنهم ما كانوا يقيمون بالسكر الذكر ، فإن كان البكر ابن بكر  
تشاءموا به ، وإن كان ابن بكرين فهو في الشؤم مثل قيس بن زهير ، فإنه كان  
أزرق وبكراً ابن بكرين . ثم إنهم كانوا يحبون أن تبكر البكر بخارية<sup>(٧)</sup> .

(١) فتح الباري ٢٨٦/٩ وسنن أبي داود ٢٠٦/١ وأسد الغابة ٥٢١/٥ والإصابة  
١٥٨/٨ (٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٨٧/١ .

(٣) المرزوقي ٢٨٤/١ .

(٤) المرزوقي ٢٨٢/١ .

(٥) الفضليات ٨٩/١ .

(٦) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩ .

(٧) الحيوان للجاحظ ١٧٤/٣ .

ويعمل الجاحظ لذلك بأنهم كانوا لا يعنون بحياة الولد البكر كما يعنون بحياة  
الثاني ، فهم يؤثرون أن تبكر البكر بحارية ، لشدة خوفهم على الذكر . ولكن  
هذا التعليل لا يتفق مع قوله إنهم كانوا يتشاءمون بالبكر ( الذكر ) وإنهم  
كانوا أشد تشاؤما بالبكر ابن البكر وابن البكرين ، فالعلة إذا تشاؤم لا خوف  
على الوليد .

ولقد يكون مبعث تشاؤمهم أنهم اعتقدوا أن ابن البكر أو البكرين نجى  
في شرح شباب والديه وفورتهما فيرث عنهما نزقا لا يصح أن يوصف به الرجل ،  
أما الأثني فإن طبيعتها السالبة تخفف من حدة النزق والرعونة .

### مرح البنت شكر بما لأبيها

كانت البنت تسكرم مرضاة لأبيها ، وتعظيما له ، ولم تمدحها المادح إلا لأنه  
يعلم عزازتها على أبيها ، وأن مدحها تبجيل له . يدل على ذلك أن أوس بن حجر  
كان قد سقط من فوق ناقته ، وآواه فضالة بن كلدّة ، وكانت تمرضه حليلة  
بنت فضالة حتى برى ، فقال :

لعمرك ما ملت نواء ثوبها حليلة إذ ألقى مراسي مقعدي  
ولكن تلت باليدين ضمانتي وحل بشرج فلقبائل عودي  
ولم تلمها تلك التكاليف أنها كما شئت من أكرومة وتخوّد  
سأجزيك أو يجزيك عنى مثنوب وقصرك أن يثنى عليك ويحمد<sup>(١)</sup>

ولما أغار النيمان بن وائل بن الجلاح الكلبي - قائد الحارث بن أبي شمر -  
على بني ذبيان ، وسبى سبيا من غطفان ، وأخذ عقرب بنت النابغة ، سألها من  
أنت ؟ فقالت : أنا بنت النابغة ، فقال لها : والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ،  
ولا أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلّاها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى

بهذا منا ، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم ، فقال النابغة في مدحه :

يقودهم النعمان منه بمُخَصَّفٍ      وكُنْدٍ يغم الخارجيَّ مناجِدِ  
فأب بأبكار وعُونِ عقائل      أو انس يحميها امرؤ غير زاهدِ  
غرائر لم يلقين بأساء قبلها      لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافدِ  
أصاب بني غيظ فأضحوا عباده      وجلها نُعْمَى على غير واحدِ  
فسكنتَ نفسى بعد ما طار روحها      وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهد<sup>(١)</sup>

### اعتماد أبيها برأيها وبجوارها

١ — أليست استشارة الرجل لابنته دليلا على إعزازها وتقديرها ؟ لقد كان أبوها يستشيرها في زواجها كما سبق ، وكان يستشيرها أيضا في أموره الخاصة ، ويستصوب رأيها . هكذا كان يفعل لقيط بن زرارة ، فكان يرجع إلى رأى ابنته دختنوس ، ويستصحبها معه في غزواته ، ويرجع إلى رأيها<sup>(٢)</sup> . وهكذا كان يفعل عامر بن الظرب ، فقد كانت ابنته عمرة تقرر له العصا إذا سها في الحكم ، وفيه يقول التمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرر العصا      وما علَّم الإنسان إلا ليعلم<sup>(٣)</sup>

ولقد بلغ بالبنت حسن الرأى وعلو القدر إلى أن تصلح ما بين أبيها وجدها لأُمها ، كما فعلت الجُمَانَةُ بنت قيس بن زهير العبسى ، إذ قالت لأبيها لما تنازع مع عمه الربيع بن زياد العبسى في درع لقيس اغتصبها الربيع : دعنى أناظر جدى ، فإن صلح الأمر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك . فأذن لها ، فأنت جدها الربيع فقالت : إذا كان قيس أبى فإنك جدى ، وما يجب من حق الأبوة علىَّ إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعته العناية ، وتجلى عن محضه

(١) شعراء الصراية ٦٦٨

(٢) السكامل لابن الأنبر ٢١٢/١

(٣) الأغاني ٣/٥ ولسان العرب مادة قرع

النصيحة . إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إليك سوء عزمه ،  
والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يُخَوِّف بالوعيد ، ولا يردعه  
التهديد ، فلا تركز إلى منابذته ، فالخزم فى متاركته ، والحرب متلفه ، والسلام  
أرخى للبال . ثم قالت :

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه      وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى  
فرأى أبى رأى البخیل بماله      وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى  
فرق جدها ورد الدرع إلى أبيها وتصافيا<sup>(١)</sup> . ولكن الصفاء كان مؤقتاً  
لأن أسباباً أخرى أشعلت الحرب بينهما<sup>(٢)</sup> .

٢ — وإذا أجارت نفذ أبوها إجارته ، ولو أن أباهما لا يعتد بها ما أمضى  
إجارته . من ذلك أن عمرو بن عبد الملك طلب مروان بن زنباع العبسى ، فخرج  
هاربا حتى أتى أبيات بنى شيبان ، فلجأ إلى أعظمها — وكان لجماعة بنت عوف  
الشيبانى — فاستجارها ، فأجارته ، ثم لحقته خيل عمرو ، فبعثت جماعة إلى أبيها  
أنها قد أجارته ، فحماء من مطارديه<sup>(٣)</sup> . وكذلك أجارت فكيهة بنت قتاد  
السليك بن السلكة من بعض قومها ، فلما أدركوه قامت دونه ، وكشفت خمارها  
عن شعرها ، وصاحت بإخوتها فجاءوها ، ودفعوا عنه حتى نجا من القتل ، فمدحها  
السليك بقوله :

لعمري أهلك والأنبياء تَمْنَى      لنعم الجار أخت بنى عوارا  
من الخفريات لم تفضح أباهما      ولم ترفع لإخوتها شـنـارا  
وما عجزت فكيهة يوم قامت      بنصل السيف واستلبوا الخمارا<sup>(٤)</sup>

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٢٥

(٢) الأغاني ٢٨/١٦ وشعراء النصرانية ٩٢١ والكامل لابن الأثير ٢٠٤/١

(٣) أخبار النساء لابن قيم ٦٥

(٤) المحجب ٤٣٣ والأغاني ١٣٧/١٨ والمحاسن والأضداد ٥٥

٣ — وقد أبقى الإسلام على حقها في الإجارة ، لأنها تسكريم لها وإعزاز . من ذلك أنه لما أُسِرَ أبو العاص بن الربيع في غزوة بدر ، وشرعت قريش تفدى أسراها ، بعثت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم — وكانت بمكة — بمال في فداء زوجها أبي العاص ، وفيه قلادة لها كانت السيدة خديجة أدخلتها بها على أبي العاص — وهو ابن أختها — ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ، وقال : إلا رأيتم أن تطلقوها لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها فافعلوا . ففعلوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذي لها . ثم فرق الإسلام بينهما ، وجاءت زينب إلى المدينة .

وبعد مدة قابلت سرية لرسول الله أبا العاص عائداً من الشام ، فأصابوا مامعه ، وهرب منهم ، ولكنه أقبل في الليل حتى دخل على زينب ، فاستجار بها ، فأجارته . وفي صلاة الصبح صرخت من ضفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف فدخل على ابنته ، فقال لها : أي بنية أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له . ثم أسلم أبو العاص ، فرد عليه رسول الله زينب بالنكاح الأول ، ورد عليه ماله <sup>(١)</sup> .

وفي الإسلام أيضاً أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحبابها ، فأجارهما النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> .

كنايته بأ-مها :

ومن مظاهر تقدير البنت وعزازتها أن الآباء كثيراً ما كانوا يُكَنِّونَ

(١) - سيرة ابن هشام ٢/٢٩٧ و ٣٠٤ وتاريخ الطبري ١/٢٩١ وتاريخ البعقوبي ٧٣/٢ والإصابة ٨/٩٢ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٠  
(٢) - سيرة ابن هشام ٤/٣٠

باسماء بناتهم كما يكونون بأسماء أبنائهم . يقول أوس بن حجر مفتخراً بنصرهم ،  
وبمسألة أبي ليلى :

وجاءت سليمٌ قَضَّها وقضيضها      بأكثر ما كانوا عديداً وأوكوا  
وجئنا بها شهباء ذات أشلةٍ      لها عارض فيه الأسنة تلمع  
فردُّ أبو ليلى طفيلَ بن مالك      بمنعرج الثوبان لا يتَقَصَّعُ <sup>(١)</sup>

ويقول راشد بن شهاب الشكري في هجاء قيس بن مسعود الشيباني :

فمها أبا الخنساء لا تشتمني      فتفرع بعد اليوم سنك بالندم <sup>(٢)</sup>

وأمثال هذا كثير ، مثل حذيفة — أو سهيل — بن المغيرة كان يكنى  
أبا أمية <sup>(٣)</sup> ، وربيعه بن رباح والد زهير اشتهر باسم أبي سلمى <sup>(٤)</sup> ، ووالد حنظلة  
الطائي كنى بأبي عفراء <sup>(٥)</sup> ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية كان يكنى بأبي أمية <sup>(٦)</sup>  
والناطقة الذيباني كان يسمى أبا أمامة <sup>(٧)</sup> ، ولقب معن أحد أجداد أعشى باهلة  
باسم بنته فسمى أبا باهلة <sup>(٨)</sup> ، وكنى مالك بن عمرو بن ثابت بأنه أبو حنّة <sup>(٩)</sup> ،  
وجابر بن أسامة الجهمي بأبي سعاد <sup>(١٠)</sup> ، وعمرو بن عبدالله الجمحي بأبي عزة <sup>(١١)</sup>  
وحاتم الطائي بأبي سقانة <sup>(١٢)</sup> . وهناك أبو أمامة <sup>(١٣)</sup> ، وأبوريطه <sup>(١٤)</sup> ،  
وأبو أمنة <sup>(١٥)</sup> ، وأبو جميلة <sup>(١٦)</sup> ، وأبو أسماء ، وأبو كدراء العجلي <sup>(١٧)</sup> ،

(١) ديوان أوس ١١ وأساس البلاغة مادة شل . أوكوا : جاءوا بأمر شديد . أشلة

جمع شليل وهو ما يلبس تحت الدرع . لا يتقصع : لا يخرج من ثقب الجبل

(٢) المفضليات ١٠٨/٢ (٣) الإصابة ٢٠٣/٨

(٤) الأغاني ١٣٩/٩ (٥) الأغاني ٨٩/٩

(٦) الأغاني ٤٦/٨ (٧) الأغاني ١٥٤/٩ وخزانة الأدب ٥/٢

(٨) خزانة الأدب ١٣٠/١ (٩) الطبقات الكبير ٤٥/٣

(١٠) أسد الغابة ٢٠٨/٥ (١١) طبقات الشعر لابن سلام ٩١

(١٢) أسد الغابة ٤٧٥/٥ (١٣) المعارف ٢٧/٣

(١٤) أسد الغابة ١٩٨/٥ (١٥) أسد الغابة ١٣٢/٥

(١٦) أسد الغابة ١٦٠/٥ (١٧) الوحشيات لأبي تمام ٦٢ خطوط

وأبو نائلة<sup>(١)</sup>، وأبو نابة<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن اليهود الذين عاشوا بالحجاز حاكوا العرب في ذلك، لأن أبا الحارث الذي أجلي عمر آله إلى أريحاء بفلسطين كان يسمى أبا زنب<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الأب يكنى باسم ابنته إعزازاً لها، فإنه كان يتجه إليها بفخروه كما كان يتجه به إلى محبوبته وزوجته. قال ثعلبة بن عمرو:  
أُسماء لم تسألني عن أبيك والقوم قد كان فيهم خطوب  
إن عريباً وإن ساءني أحب حبيب وأدنى قريب  
ثم أخذ يعدد مفاخره، ويصف مهره ونكايته بعلوه<sup>(٤)</sup>.

### بغض بمفهم البنات

١ — رغب كثير من العرب عن البنات، وذاعت بغضتهم، واشتهروا بها. فقد قيل لأعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت<sup>(٥)</sup>. وقد هجر أبو حمزة الضبي خيمة امرأته حين ولدت بنتاً، وكان يقيل ويبيت عند جيرانه، فمر بنحباؤها يوماً، فسمعها تتغنى لابنتها بقولها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا  
غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا  
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا  
نبت ما قد زرعه فينا

فثاب إلى رشده، وولج الخباء فقبل رأس زوجته، وقبل ابنته<sup>(٦)</sup>. وكانوا

(١) المغازي ١٨٧ (٢) المعارف ٢٥٨

(٣) المغازي ٢٧١

(٤) سمط اللآلي ٥٢/١ والمفضليات ٥٣/٢

(٥) اللطائف والظرائف ٦٨ ونزهة الأبصار والأنامع ٤٤

(٦) البيان والتبيين ١٨٦/١ و ٤٧/٤



إذا هناؤا بها قالوا : آمنكم الله عارها ، وكفناكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر<sup>(١)</sup> .  
وقد سجل القرآن الكريم هذه البغضة في مواضع شتى ، قال تعالى :  
« ويعملون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل  
وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على  
هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون<sup>(٢)</sup> » وقال : « ويعملون لله  
ما يكرهون »<sup>(٣)</sup> وقال ، « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ،  
إنكم لتقولون قولاً عظيماً<sup>(٤)</sup> » وقال : فاستفتهم الربك البنات ولهن البنون .  
أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ،  
وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون<sup>(٥)</sup> »  
وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم<sup>(٦)</sup>  
على أن بعض النساء شاركن في هذه البغضة ، قالت امرأة مُحَمَّمة إنها لا تبالي أن  
تلد مُحمَّقا ، لأنهم ذكور :

وما أبالي أن أكون مُحمَّمة إذا رأيت خصية معاقمة<sup>(٧)</sup>

وفالت قابلة لامرأة اسمها سحابة وقد ضربها الحاض ، وهي تطلق على يديها :

أيا سحاب طرقي بخير وطرقى بخصية وأير<sup>(٨)</sup>

ولا ترينا طرف البُظير

٢ — ولم تقتصر هذه البغضة على الجاهليين ، فقد كان بعض المسلمين يبغضون  
البنات ، على تنديد القرآن والحديث ببغضة أسلافهم للبنات . فليس من الإنصاف  
أن يوصم الجاهليون وحدهم بهذه الوصمة .

(١) محاضرات الأدباء ٢٠٤/١ (٢) سورة النحل ٥٧ - ٥٩

(٣) سورة النحل ٦٢ (٤) سورة الإسراء ٤٠

(٥) سورة الصافات ١٤٩ - ١٥٤ (٦) سورة الزخرف ٧١

(٧) البيان والتبيين ١/١٨٥

(٨) شرح الحماسة للمرزوقي ١٦٨/٤ والحيوان ١٨١/٥ والبيان والتبيين ١/١٨٥

ترقى : المراد بشرى بخروج الجنين

فقد رأى عمرو بن العاص معاوية ومعه ابنته عائشة ، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه تنفحة البيت . فقال عمرو : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويؤثرن الضغائن . قال : لا تنقل كذا يا عمرو ، فوالله ما مَرَّضَ المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان إلا هن . فقال عمرو : ما أراك إلا حبيبتهم إلى <sup>(١)</sup> .

وكذلك كان عَمِيل بن عُلْفَة يؤثر موت البنت على أن تحيا وتتزوج ، وإن عظم الزوج وكثر المهر :

إني وإن سيق إلى المهر ألف وعُبدان وذوودٌ عَشْرُ  
أحب أحبّارى إلى القبر <sup>(٢)</sup>

وكان إسحاق بن خلف البهراني يود أن تموت ابنته أميمة وهو يعلم أنها كلفة بحياته ، غير أنه في تعجله موتها صور حبه لها وحدها عليها وحزنه من بكائها عليه إذا مات في قوله :

لولا أميمة لم أجزع من العدم وزادني رغبةً في العيش معرفتي  
ولم أجب في الليالي حِنْدِس الظلم ذلّ اليتيمة يخفوها ذوو الرحم  
وكنّت أبكى عليها من أذى الكلم والموت أكرم نزال على الحرم  
فإذا تذكرت بنتي حين تندبني فاضت لعة بنى عبرتي بدم <sup>(٣)</sup>  
فلما مات قال أبيتاً منها :

فألان نمت فلا هم يؤرقني بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلمٌ

(١) المطائيف والغرائف للشعالبي ٦٨ ونزهة الألبار والاشماع ٤٤

(٢) زهر الآداب ١٧٤/٢ تحقيق زكي مبارك ، وذكر أنه ابن علفمة ، والصواب علفة كما في المؤلف والمختلف للأمدى ١٦٠ ومعجم الشعراء للبرزباني ٣٠١ وشرح الحماسة

لمنبريزي ٢٠٩/١ و ٢٣/٣ و ٨٦ وطبقات الشعراء لابن سلام ٥٦١

(٣) فوات الوفيات لابن شاذكر ١٠/١ وزهر الآداب ١٧٤/٢

لَمَوْتُ عِنْدِي أَيَادٍ لَسْتُ أَنْكُرَهَا أَحْيَا سُرُوراً وَبِي مِمَّا أَتَى أُمُّ<sup>(١)</sup>  
وَعَدَّ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وسائل السِّرِّ التي يَرْجِيهَا كُلُّ أَبٍ  
لَابْنَتِهِ ، وَفَضَّلَ الْقَبْرَ عَلَيْهَا جَمِيعاً :

لِكُلِّ أَبِي بِنْتٍ يُرَجَّى بِقَاوُهَا ثَلَاثَةُ أَصْهُارٍ إِذَا ذَكَرَ الصَّهْرُ  
فَبَيْتَ يَنْطَلِبُهَا وَبَعْلٌ يَصُونُهَا وَقَبْرُ يَوَارِيهَا ، وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ<sup>(٢)</sup>  
وَرَوَى أَنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ لَمَّا بَشَّرَ بِابْنَتِهِ بَكَّى ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ :  
وَكَيْفَ لَا تَأْخُذْنِي الْعَبْرَةُ ، وَهِيَ عَوْرَةٌ ، هَدِيَّتُهَا سَرَقَةٌ ، وَسِلَاحُهَا الْبُكَاءُ ،  
وَمَهْنَتُهَا الْغَيْرُ<sup>(٣)</sup> .

أَمَّا أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ فَكَانَ أَشَدَّ بَغْضَةً لِلْبَنَاتِ مِنَ الْبَنِينَ ، وَيَرَى فِي  
دَفْنِهِنَّ مَكْرَمَةً .

وَإِنْ تُعْطَى الْإِنَاثُ فَأَيُّ بُؤْسٍ تَبَيَّنَ فِي وَجْهِهِ مُقَسَّمَاتٍ  
.....

وَدَفْنٍ وَالْحَوَادِثُ فَاجِعَاتٌ لِأَحْدَاهُنَّ إِحْدَى الْمَكْرَمَاتِ<sup>(٤)</sup>

## الوَاد

كَيْفَ يَطِيقُ أَبٌ أَنْ يَبْوَى ابْنَتَهُ حَفْرَتَهَا بِيَدَيْهِ ؟  
وَأَيْنَ ذَهَبَتْ عَاطِفَةُ الْأَبُوتِ ، وَأَصْرَةُ الْإِنْسَانِيَةِ ، وَخَلَقَ الرَّحْمَةَ وَالشَّفَقَةَ ؟  
إِنَّ الْوَادَ صُورَةٌ بِشَعَةِ تَسْتَدِرُّ الدَّمُوعَ ، وَتَسْتَثِيرُ الْأَلَمَ ، فَكَيْفَ صَبَرَ  
الْأَبُ عَلَيْهِ ؟

وَكَيْفَ احْتَمَلَتْ الْأُمُّ آلامَهُ ؟ وَهَلْ يَتَّفِقُ الْوَادُ مَعَ مَا قَدِمَتْ مِنْ عَزَازَةِ  
الْمَرْأَةِ أُمًّا وَزَوْجَةً وَابْنَةً ؟

(٢) زهر الآداب ١٧٤/٢

(٤) اللزوميات ١٠١/١

(١) زهر الآداب ١/٢٠٤ و ١٧٤/٢

(٣) معاضرات الأدباء ١/٢٠٤

## سبب الواد

١ — ذكر القرآن الكريم أن بعضهم كانوا يثدون مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجدهم عن الإنفاق على الذكور وعلى الإناث معاً ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ﴾ <sup>(١)</sup> .

وذكر أن بعضهم كانوا يثدون تخففاً من الأولاد ، لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ <sup>(٢)</sup> . لهذا قدم الله تعالى رزق الآباء على رزق الأبناء في مقام توقع الفقر والخشية منه في المستقبل ، وقدم رزق الأبناء على رزق الآباء في مقام الفقر الواقع الحادث <sup>(٣)</sup> فالأولون هم الأغنياء والآخرين هم الفقراء .

كان الواد أثراً من آثار الفقر المتخوف أو الحادث ، لأن البيئة شحيحة بالزاد ، ضئيلة بالخير ، كثيرة الفواجع والمجاعات ، ليس بها زرع يمون سكانها ، ولا صناعات ينشرونها في الآفاق ، فتدر عليهم الأموال ، والإناث في هذه البيئة عبء على الآباء ؛ لأنهم يأخذون ولا يعطون ، وينفقون ولا يكسبون ، « ولا شك أن الواد عادة منكسة ، ولكن المجاعات الكثيرة نتيجة لندرة الأمطار دفعت إليها » <sup>(٤)</sup> .

وإذا كان العرب قد اضطروا إلى استكمال حاجتهم بالإغارة على القبائل المجاورة ، فإنهم قد اضطروا أيضاً إلى الواد خشية الإملاق <sup>(٥)</sup> . وكان العرب الذين يثدون يعتقدون أن الواد يدل على الأريحية ، كما كان بعضهم يباهى به ، وبعضهم يقتتره منجاة من احتمال متاعب من بنات قد يؤسرن . ولكن القرآن الكريم يذكر الفقر وحده ، وهذا حق ؛ لأن البيئة مجدبة جداً ،

(١) سورة الإسراء ٣١ (٢) سورة الأنعام ١٥١

(٣) روح المعاني ٨/٥٤ (٤) Nicholson. P. ٥٦

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٦٧

وقد ذكر مستر داوتي كثيراً من المشقات التي يقاسمها سكان الصحراء في أكثر شهور السنة ، حيث لا يجد الطعام إلا الأغنياء<sup>(١)</sup> .

ومما يدل على أن الواد كان في الأغنياء أيضاً أن مهابل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها ، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها ، فكبرت حتى تزوجت<sup>(٢)</sup> .  
وسنرى أن كثيراً من الأغنياء وأدوا .

وكان الواد مقصوراً على الإناث ، وإذا فالمراد من الأولاد في الآيتين الكريمتين الإناث ، وهذا هو المفهوم من حديث صعصعة بن ناجية ، ذلك بأنه خرج يبحث عن ناقتين له ، فر على قوم من بني أثمار من تميم ، وإذا شيخ يوقد ناراً في مقدم بيته ، ونساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض ، وتسكمت النساء فقلن : « قد جاء » يعنين الولد . قال الشيخ : « إن كان غلاماً فوالله ما أدرى ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمع صوتها ، اقتلها » قالت : « ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله » ، قال : « إني أراك بها حفياً فاشترها مني » فأعطيته ناقتين وجمل<sup>(٣)</sup> .

فهذا الرجل حيران ، ماذا يصنع بابنه الذكر ؟ وكيف يطعمه ؟ ولكنه لم يهتم بقتله ، بل اعتزم قتل الأنثى<sup>(٤)</sup> .

٢ — وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أن من أسباب الواد الغيرة على البنات أن يسبين أو يزوجن بغير أكفاء<sup>(٥)</sup> ، وقالوا إن أول من فعل ذلك قيس بن

(٢) الأغاني ١٧٥/٩

Moslem Law. P. 26 (١)

(٣) تفسير الطبري ٧٥/١٥ والنيسابوري ٣٣/١٥ والكشاف ٥٤٦/١ والاعتصام

١٨١/٢ (٤) النقاظ ٦٩٧

(٥) النيبابوري ٣٣/١٥ و ٧٧/١٤ والكشاف ٥٢٦/٢ والقرطبي ١١٧/١٠

والاعتصام ١٨١/٢ وروح المعاني ٣٢/٨

عاصم ، ذلك بأن تميم منعت الإناوة عن النعمان بن المنذر ، فخرجهم وسبى نساءهم ، ثم وفد قيس على النعمان ليسترد السبايا ، فأثرن العودة ، إلا بنته فقد آثرت سابيها على أبيها ، فانصرف قيس فوآد كل بنت ، وجعل ذاك سنة كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب ، فكان كل سيد تولد له بنت يندبها خوفاً من الفضيحة<sup>(١)</sup> ولما وفد قيس بن عاصم على رسول الله سألته بعض الأنصار عن وأده ، فأخبرهم أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها<sup>(٢)</sup> ، وحدث رسول الله بقوله : كنت أخاف سوء الأحداث والفضيحة في البنات ، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها<sup>(٣)</sup> . وقد أمره النبي أن يعتق عن كل موءودة رقبة ، فقال له أبو بكر : فما الذي حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك . فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر<sup>(٤)</sup> .

وإني أشك في أن يكون قيس هذا أول وائد ، لأنه أدرك الإسلام ، وأسلم<sup>(٥)</sup> ، فليس بمعقول أن ينشأ الوآد قبيل الإسلام بسنوات ، ثم يشيع في بعض قبائل العرب في زمن وجيز ، ثم ليس بمعقول أن يخاكي العرب قيس ابن عاصم ويشايعوه في عمله ، لأن حادثته فردية لا ينشأ عنها عمل إجماعي ، وكان حرياً بالعرب أن يعيروه لا أن يخاكوه .

على أنهم اختلفوا في أول وائد ، فقليل إنه قيس ، وقيل إنه أمير من ربيعة ، وذكروا في سبب وأده قصة تشبه تمام الشبه قصة قيس<sup>(٦)</sup> .

ويرجع بعضهم القهقري إلى زمن أبعد ، فينسب الوآد الأول إلى لقمان ابن عاد ، لأنه كان يقتل نساءه انتقاماً ، بعد أن خُنته ، فلما قتل أخراهن ونزل من

(١) الأغاني ١٢/١٤٤ والكامل للمبرد ٢٨٨/١ وصحيح البخاري في الوآد وبجمع الأمثال ٣٨٩/١ وشرح ابن أبي الحديد ٢٤٢/٣ ونهاية الأرب ١٠٧/٣ وفي الأغاني أن التي امتنعت بنت أخته . (٢) الأغاني ١٢/١٤٣

(٣) الأغاني ١٢/١٤٣ (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٥

(٥) الأغاني ١٢/١٤٣ (٦) بلوغ الأرب ٣/٤٢

الجلبل كان أول من تلقاة صُحْر ابنته ، فوثب عليها فقتلها ، وقال : أنت أيضاً امرأة ، فضربت العرب المثل بقتله صُحْرًا ، قال خُفّاف بن نُذبة :  
وعَيَّاشٌ يُدْبِئُ لِي الْمَنَاسِيَا وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُحْرٍ  
وقال عروة بن أذينة :

أتجمع تهيّاماً بليلى إذا نأت وهجرانها ظالماً كما ظَلِمْتُ صُحْرُ<sup>(١)</sup>  
وسواء أكان الوائد الأول معلوماً أم مجهولاً ، فإنى أرجح أن الخوف من العار كان باعثاً من بواعث الواد ، لأن الحروب والغارات كانت لا تحبو نارها ، وكان السبي من آثارها ، والغرب غير على النساء ، والسبي معرة في نظرهم ، كما سئرى في فصل السبايا .

وإذا كان القرآن الكريم قد اقتصر على ذكر الفقر والخوف من الفقر ، ولم يشر إلى السبّاء ، فإن ذلك راجع إلى أن الفقر والخوف منه مردّهما إلى الله تعالى ، وإليه الأمل في زوالهما ، أما السبي فرجعه إلى العباد وحروبهم ، والحروب لا مندوحة عنها ، والسبي نتيجة من نتائجها ، فكيف ينهاهم القرآن الكريم عن الواد مخافة السبي ، وهو لا يحيد عنه ؟

نعم كان السبي — كما سألين في السبايا — متوقعاً لا مفر منه « فكان الدافع إلى الواد النزوع إلى المحافظة على الشرف ، لأن الآباء كانوا يخشون إطعام أفواه لا فائدة فيها ، ويخشون أيضاً أن يصيبهم العار من وقوع بناتهم في قبضة الغالبيين »<sup>(٢)</sup> .

٣ — وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافي إلى أن وأد البنات دون الذكور راجع إلى عقيدة دينية قديمة .

وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق

إله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهم .

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التي تربط وأد البنات بنظام من العقيدة ، كقوله تعالى « ويجعلون لما لا يعلمون - أى لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جحد - نصيباً مما رزقناهم - من الزروع والأنعام - تالله لتسالن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم - أى لآلهتهم - ما يشتهون - أى البنين - وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم <sup>(١)</sup> .

وهو يذهب إلى أن هذا نوع من الواد مقصور على البنات ، غير الواد الذي سببه الفقر <sup>(٢)</sup> .

٤ - وقيل إن بعضهم كان يثد نوعاً من الإناث هن الزرقاء ، والشَّيَاء - السوداء أو التي في بدنها بقع تخالف سائره - والبرشاء - التي بها نكت صفار تخالف بقية لونها - والكسحاء ، وسبب هذا الواد التشاؤم من هؤلاء <sup>(٣)</sup> .  
وإن صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهن كان مشفوعاً إلى التشاؤم منهن ، وربما كان السببان معاً مشفوعين إلى الفقر أو مخافة الفقر .

### طريقة الواد :

تنوعت وسائل الواد ، فبعضهم كان يحفر حفيرة ، تمخض المرأة على حافتها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ولداً احتفظت به ، وبعضهم كان يرميها من شاطئ جبل ، ومنهم من كان يفرقها ، ومنهم من كان يذبجها <sup>(٤)</sup> .  
والأعم الأكثر أن تواد البنت حين ولادتها ، وإن وردت أخبار عن وأد في الكبير ، فقد ذكر قيس بن عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأته

(١) سورة النحل ٥٦ - ٥٩

(٢) الأسرة والمجتمع ١١٩ - ١٢٣ ومجلة الرسالة ٣ مارس سنة ١٩٤١

(٣) لإنسان العيون ٥٠/١ والروض الأنف ١٤٨/١

(٤) تفسير الطبري ٨٤/١٤ والكشاف ٥٢٦/٢ واليسابورى ٧٧/١٤



ولدت بنتاً في سفره ، فدفعتها إلى أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت سنون حتى كبرت الصبية ويفعت ، فزارت أمها يوماً ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك ، وقصت عليه حيلتها . قال : فأمسكت حتى اشتغلت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهي تقول : يا أبت أمغلى أنت بالتراب ؟ أتاكركي أنت وحدى ومنصرف عني ؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريته وانقطع صوتها . فما رحمت أحداً من واريته غيرها . فدمعت عينها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن هذه لقسوة . وإن من لم يرحم لا يرحم<sup>(١)</sup> . ويذكر الزمخشري أن الرجل كان إذا أراد أن يستحيي بنته ألبسها جبة صوف أو شعر ، وأرعاها إبله أو غنمه في البادية ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأُمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، ثم يدفعها فيها ويهيل عليها التراب<sup>(٢)</sup> .

وأرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر بعيد الاحتمال ، فما الذي زين لأبيها أن يستحييها إلى هذه السن ؟ ولماذا لم يتخلص منها وهي واعدة ؟ لماذا أبقاها سنوات ينفق عليها ويتعلق بها وتتعلق بها أمها ثم يقتلها ؟

### هل انتصر الوأد على الإناث :

لم يقتصر القتل على الإناث ، بل تعداهن إلى الذكور ، بدليل قوله تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، ليردوهم وليأبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»<sup>(١)</sup> . وذلك أن أهل المدر والحريث كانوا يقسمون ما حرقوا قسمين : قسماً لآلهتهم وقسماً لله ، فإن سقط فيما لآلهتهم شيء مما لله تركوه وأقروه ، وإن سقط فيما جعلوه لله شيء مما لآلهتهم ردوه<sup>(٢)</sup> . فوبخهم الله على زعمهم وسوء فعلهم ، ثم شبه بضالّهم هذا ضلالاً آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أو سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوَاد أو بالنحر للآلهة ، وكان الرجل في الجاهلية يخلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب في ابنه عبد الله<sup>(٣)</sup> ، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالاً أن ينحرن أحدهم للكمبة شكرًا لربه ، فلما استكمل أولاده العدد ، همّ بإنجاز ما وعد ، وأجال القداح بينهم ، فكان الذبح نصيب عبد الله ، فعماه أخواله بنو مخزوم ، وأشاروا على عبد المطلب أن يحتكم إلى كاهنة بنى سعد ، فحكمت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله<sup>(٤)</sup> :

ويظهر من نص الآيات القرآنية النهي عن قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً<sup>(٥)</sup> .

على أننا لم نعرف حادثاً للممّ بقتل الولد الذكر غير حادث عبد المطلب .

هل كان الوَاد عاماً ؟

ذهب المنتصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أن الوَاد كان عاماً في القبائل كلها . ونقل الميداني عن الهيثم بن عدي أنه كان في قبائل العرب قاطبة ، يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل إلا في تميم ، فإنه

(١) سورة الأنعام ١٣٦ - ١٤٠ (٢) الخبر ٣٣١

(٣) الكشاف ٣١٢/١ والاعتصام ١٨٣/٣ وروح المعاني ٣٢/٨

(٤) سيرة ابن هشام ١٦٧/١ والكامل لابن الأثير ٢١٥/١ وإعلام النبوة ٢٦

(٥) الاعتصام ١٨٣ وبلوغ الأرب ٤/٣

تزايد فيهم قبل الإسلام<sup>(١)</sup> .

وذهب الباقر إلى أنه كان في بعض القبائل ، ولم يكن في جميعها ، وذكروا هذه القبائل وهي : تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل<sup>(٢)</sup> .  
ومن لم يندوا : الطلس وهم جميع أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك ،  
وعجيب وإياد بن نزار<sup>(٣)</sup> .

وهذا هو الحق ، لأن إعراز بعضهم للبنات — كما سبق — يتنافى وذلك  
الوَاد العام . ولو أن الوَاد كان عاما في العرف كما ذهب الهيثم بن عدى لقلت النساء  
قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات كما رأينا . ولو أنه كان عاما لتباهى به  
الشعراء ، ولهجوا الذين لا يندون ، لأن الوَاد فضيلة وتركه رذيلة .

### الأمم والوَاد :

هنا تصمت المراجع والأخبار والأشعار صمتا عجيبا ، فلا تنفع غلتنا ، بل  
لا تبيل بعض صدانا إلى معرفة حال الأم من واد ابنتها ، أكانت تشارك الأب  
في كراهيته لابنتها ؟ أم كانت تحبها وتؤثر بقاءها وتبكي لوعة وشجى حينما يختطفها  
أبوها ليئدها ؟

وكل ما عثرت عليه أن كبيرة بنت أبي سفيان — مخضرمة — قالت لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم : إني وأدت أربع بنين لي في الجاهلية ، فقال : أعتق أربع  
برقاب<sup>(٤)</sup> ، والظاهر أنها تريد أربع بنات :

وأستنتج من حادثة قيس بن عاصم السابقة أن امرأته كانت حريصة على  
استحياء ابنتها ، لأنها أخفتها عند أخوالها ، ثم بكيت لما توجست أنه سيقتلها<sup>(٥)</sup>

(١) يجمع الأمثال ١/ ٣٨٩ وبلوغ الأرب ٣/ ٤٢

(٢) الكامل للبرد ١/ ١٨٨ وشرح ابن أبي الحديد ٣/ ٢٤٢

(٣) المحبر ١٧٩ و ١٨١ (٤) الإصابة ٨/ ١٧٦

(٥) الأغاني ١٢/ ١٤٣

ثم إن صعصعة بن ناحية مر برجل يحفر حفرة وامرأته تبكي ، وأخبرته أنه يريد وأد ابنتها ، فرق لها صعصعة وفداها <sup>(١)</sup> .

على أنى أفزع إلى الأمومة أستنبها ، فتخبرني صادقة أن النساء كن في القبائل الوائدة حسيرات القلوب ، كسيرات النفوس ، غزيرات الدموع ، وأن غريزة الأمومة وطبيعة الأنوثة لا تقر هذه القسوة ، ولا ترضى أن تنتزع منها ثمرة من ثمراتها لتقدم طعمة للثرى .

ولم تكن المرأة العربية وحدها هي التي سلبت بناتها فرضيت أو كظمت لوعتها ، فقد كانت المرأة في أثينا خاضعة للزوج ، حتى إنه إذا شاء انتزع من الأم ابنتها وتركها في الجبل أو الطريق في جرة من الفخار ، تبكي بكاء يفتت الأكباد إلى أن تلفظ أنفاسها . ولا تستطيع الأم أن تعارضه أو تنطق بكلمة <sup>(٢)</sup> .

#### أعياء الموءودات :

سيدان من سادات العرب حملا لواء الرحمة ، وأُنقذا من ظلمات الخفائر بنات كثيرات ، هما صعصعة بن ناجية ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

أما صعصعة جد الفرزدق فقد سمي محبي الموءودات ، وكان السبب في مكرمه هذه أنه مر برجل من قومه - تميم - يحفر بئراً ، وامرأته تبكي ، فقال لها صعصعة ما يبكيك ؟ قالت : يريد أن يثد ابنتي هذه . فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : الفقر . قال : فإني أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما تعيشون بالبناتهما ، ولا تثد الصبية . فرضى الرجل ، فأعطاه الناقتين وجملاً فخلاً ، وقال في نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها . نجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة ، وقيل أربعمائة ،

(١) الأغاني ١٩/٤

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray Strachey

وقيل ستا وتسعين ، وقيل ثلاثمائة وستين <sup>(١)</sup> وقيل مائتين وثمانين <sup>(٢)</sup> وقيل مائة وأربعاً <sup>(٣)</sup> . وليس من المنتظر أن يبلغنا العدد الحقيقي أو القريب منه ، لأن المبالغة والتنفج والمبالغة لا بد أن تضاعف العدد أو تضخمه . ولقد يكون من الصواب أيضاً أن كثيراً من الفقراء ادعوا أنهم سيئذون لينالوا من عطاء صعصعة .

وقد خايل الفرزدق بإحياء جده للوئيدات في عدة قصائد ، كقوله :

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي	متى تخلف الجوزاء والدلو يُمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر	على النقر 'يُعلم' أنه غير مُخفر
على حين لا تبميا البنات وإذ هم	عكوفاً على الأحصان حول المدور
أنا ابن الذي رد المنية فضاه	فما حسب دافعت عنه بمُغور
وفارق ليلى في نساء أتت أبي	تمارس ريناً ليلاً غير مقرر
فقلت : أجر لي ما ولدت فيني	أتيتك من هزل الحولة مُقتر
رأى الأرض منها راحة فرمى بها	إلى جدد منها إلى شر مُخفر
فقال لها : فيني فيني بدمتي	لبنتك جاز من أبيها القنور <sup>(٤)</sup>

وقال أيضاً :

وجدى الذي منع الوائيدات وأحيا الوئيد فلم يواد <sup>(٥)</sup>  
وروى أن غالب بن صعصعة وفد على النبي وأخبره بفعال أبيه في المؤودات ،  
فاستحسنه وسأله : هل له في ذلك من أجر ؟ فقال : نعم <sup>(٦)</sup> . وروى أن صعصعة  
نفسه قدم على النبي فأسلم ، وقص عليه إحياء الوئيدات ، وسأله : هل لي في ذلك  
من أجر ؟ فقال : هذا باب من البرِّ لك أجره إذ منَّ الله عليك بالإسلام <sup>(٧)</sup> .

وأما السيد الآخر فزيد بن عمرو بن نفيل القرشي ، كان يستحي المؤودات

(١) الأغاني ١٩/٣ - ٥ (٢) الكامل للمبرد ١/٢٨٩

(٣) المحبر ١٤١ والنقائض ٢٦٤ (٤) الأغاني ١٩/٢ ودبوان الفرزدق ٤٧٧

(٥) الأغاني ١٩/٤ (٦) الأغاني ١٩/٢

(٧) الأغاني ١٩/٤

فإذا بصر برجل يهيم بواد ابنته قال له : لاتقتلها ، أنا أكنيتك مئوتتها . وبأخذها وينفق عليها حتى تسكبر ، ثم يقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مئوتتها <sup>(١)</sup> . وقيل إنه أحياسنًا وتسعين مئة ودية <sup>(٢)</sup> .

### الوَادُ عِزْرُ غَيْرِ الْعَرَبِ :

لم يكن العرب بدعاً في وأد البنات ، لأن بعض الأمم القديمة فعات بالبنين فعلاً أبشع من فعل العرب .

فالفيثيون كانوا يعبدون الطبيعة ، ويرمزون لها بصنم اسمه بَعلَ يمثل إله النور المسمى مولوخ ، واتخذوا له زوجة أشركوها في الألوهية سموها عشتار (الزهرة) وكانوا في عبادة عشتار يستبيحون النساء عامة ، وفي عبادة مولوخ يضحون بالأولاد إحراقاً في النار الملتهمة <sup>(٣)</sup> .

وكان الأب الإسرائيلي يستطيع أن يبيع أبناءه ذكوراً وإناثاً للرق ، وقد حدثت التوراة فيما بعد من هذا الحق ، لكن الأب ظل يملك أن يقتل أبناءه سواء أكانوا كباراً أم صغاراً <sup>(٤)</sup> .

وكان الإمبراطيون يقتلون المشوهين والمرضى والضعاف من الأولاد عقب ولادتهم ، ويتركونهم في القفار طعاماً للوحوش والطيور . ولقد تتحقق الأم نفسها من صلاحية ولدها للحياة فتغمسه في دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل على قوة بنيته وجدراته بالحياة فيربّي ، وإن مات فقد تخلص المجتمع من إنسان ضعيف لا يستحق أن يعيش . وكان هذا النظام أو ما يقرب منه سائداً في أثينا وروما ،

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ١١٣/٣

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٤٥/٣

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع لمحمد جيل بهيم ٤٤

(٤) سفر الملوك الثاني ٤ : ١ وسفر الخروج ٢١ : ٧ وسفر التكوين ٣٨ : ٢٤ وسفر

التثنية ١٨ : ٩ و Israel from its Pegining. 190. Adolphe. Iods.

وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو<sup>(١)</sup> . وأحيانا كان الآباء يقدفون بأبنائهم خارج الحدود ، وإن كانوا أحماء ، لعجزهم عن الإنفاق عليهم . وفي روما كان يحمل الطفل عقب ولادته ويوضع عند قدمي والده ، فإما أن يرفعه فيصير فرداً من الأسرة ، وإما أن يحمله إلى مفترق الطرق ليموت أو ليصير من الرقيق<sup>(٢)</sup> .

وقد اعتاد الصينيون أن يلقوا أبنائهم وبناتهم في البحر إذا مسهم عوز<sup>(٣)</sup> . ولم تسكن هذه الشعوب لتفرق في القتل بين الذكر والأنثى . على أن بعض الشعوب البدائية وغيرها كانت تقتل الأولاد كلهم أو بعضهم لأسباب اقتصادية أو دينية ، فبعض العشائر الأسترالية تختص الذكور بالقتل ، وبعضها تختص الإناث ، وفي بعضها تقتل الأمهات بعض أولادهن بغير تفرقة بين ذكور وإناث<sup>(٤)</sup> ، وبعضهم لا يتركون للأم إلا ولداً أو اثنتين ، ويربون الآخرين إلى سن العاشرة ، ثم يذبحونهم ويأكلونهم ، وتبكي الأم قليلاً ثم لا تأبى أن تأخذ نصيبها من لحم ابنها طعاماً<sup>(٥)</sup> . وما زال الإسكيمو يئدون البنات بعد ولادتهن بزمن قصير ، لأن حياتهم شاقة ذات شظف وفقر<sup>(٦)</sup> . وللزوجين في تاهيتي أن يقتلا طفلهما دون أن يلومها أحد<sup>(٧)</sup> .

### الوآد ومطنة المرأة العربية :

أسلفت أن الوآد عند العرب لم يكن عرفاً عاماً ، وأن قليلاً من القبائل مارسته ، وحتى هذه القبائل نفسها لم يَفُش الوآد في أفرادها جميعاً ، وإلا فكيف

(١) جمهورية أفلاطون ١٣٤ والأسرة والمجتمع ١١٨ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٣٥ و ٤٧ وتطور النظرية التربوية ٥٢ لصالح عبد العزيز

(٢) تطور النظرية التربوية ١١٥

(٣) باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ٧٣

(٤) الأسرة والمجتمع ١١٩ (٥) مقدمة المحاضرات الأولى . لوبون ٣٧

(٦) النظم الاجتماعية والسياسية ١٥ (٧) قصة الحضارة ١/٦٨

يستمتع بالحياة ، وينجب الأبناء ؟ كيف نجا من الواد آلاف من النسوة اللاتي  
أدركن الإسلام وعددن صحايات ؟

وبينت أن اليونان والرومان وغيرهم كانوا أقسى على أبنائهم من العرب ،  
إذ قتلوا الذكور والإناث .

على أن الواد للفقر ليس دليلا على انحطاط مكانة المرأة ، ذلك أنه حينما  
تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة ، أو أزمات مالية قاسية ، أو زلازل  
وبراكين مدمرة ، قد تنقلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والأبوة ،  
فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهما أو تركهما <sup>(١)</sup> ، فثلا كان الإسرائيلي يبيع نفسه  
أو أولاده إذا احتاج <sup>(٢)</sup> .

فالواد في حالة العوز إبقاء على النفس ، ولتجنب البنت ماتقاسى من شطف  
وجوع ، وليس في هذا مهانة لها .

أما الواد خشية العار من سبي يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب ،  
بل إنه دليل على صيانتها وإعزازها وحمايتها وتجنيبها وتجنب قومها ما قد يلوثهم  
من معرة سبائها ، ونفر عدوهم بامتلاكها ، ومعيشتها بين أعداء قومها معيشة  
الذليلة الكسيرة .

### حب البنت لأبيها

تتعلق البنت بأبيها منذ طفولتها ، تجد فيه حاميا وعائلا وراعيها ، فإذا  
ما زوجت ظلت تحبه وتذكره وتشتاقه ، ولا شك أنها كانت تؤثر أباه على  
زوجها « لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين البنت وأبيها وبين  
الآخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته » <sup>(٣)</sup> .  
ومن مظاهر حبها لأبيها :



١ — أنها تتخوف عليه أن يقتل في حرب ، فتحاول أن تنفيه ، لأنه رجلها  
وليس لها أب غيره . يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتي إن انطلاقتك واحداً إلى الرّوع يوماً تاركى لأباليا  
دعينا من الإشفاق أو قدّمي لنا من الحداث والمنية واقيا  
ستتلف نفسى أو سأجمع هَجْمَةً ترى ساقمها يألمان التراقيا<sup>(١)</sup>

ويزعم السفر فتحاول أن تنفيه ، وحشة في بعده ، وخشية عليه من ضرر ،  
حتى لقد استشفعت بنت الأعشى بشريف من العشيرة ليصرف أباه عن رحلته ،  
فلما رُئست دعت ربها أن يحفه برعايته ليثوب إليها سالما :

تقول بنتى وقد قرّبتُ مرتحلاً ياربَّ جنبُ أبى الأوصاب والوجما  
واستشفعتُ من سِرة الحى ذا شرفٍ فقد عصاها أبوها والذي شَفَعَا  
عليكٍ مثلُ الذى صَلَّيتِ فاغتمضى نوما فإربُ لجنب المرء مُضطجعاً  
واستغبرى قافل الركبان وانتظرى أوبَ المسافر إن رَيتُها وإن سَرَعَا  
كوفى كمثل التى إذ غاب وافدها أهدتُ له من بعيد نظرةً جزعاً  
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوباً لذى اغتراب ولا يرجوله رجماً<sup>(٢)</sup>

على أنه يصور في موضع آخر عواطف ابنته ، من حبتها له وشفتها عليه ،  
وشعورها بالآلام اليتيم في بعده ، وإيثارها لقربه ، وأنها تقنع من كل شئ ، وترضى  
به ، مادام أبوها بجوارها ، وهى تتوجس أن يصيبه مكروه في رحلته ، ولا طاقة لها

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ مخطوط والوحشيات ٧٣ مخطوط . هجمة : جماعة من  
الإبل أقلها أربعون وأكثرها مائة . التراقى : جمع ترقوة وهى مقدم الحاقق فى أعلى الصدر واليراد  
أن الذين يسبقان هذه الإبل يتبعان من كثرتها ويتبين تعبهما فى حركة صدرهما .

(٢) ديوان الأعشى ١٠١ تحقيق محمد حسين و ٧٣ تحقيق رودلف جيبير والموشح ٥٢  
وخزانة الأدب ١٠٤/٢ صليت : دعوت . مرتحل : حمل يوضع عليه الرحل . ينمر لك قصة  
التيامة حين غاب عنها أخوها ورحل يلتمس هون جبان فظلت ترتب عودته فى شوق وأمل  
حظرات جازعة ، وقد أكلت القصة بعد ذلك فى ستة أبيات

باحتمال فقدته ، ولن تجد بعده عطوفاً أو معيناً ، لأنها على ثقة من أن الناس سيحفظونها ، والأقارب سيهجرونها . ولكنه شرع يواسيها ويخفف عنها بأمثال بضربها من أسفاره الماضية وأوبته سالماً ، ومن مناجات القدر المقيم وإن كان ملكاً ممنعاً ، أو إنساناً متحصناً في برج مشيد :

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتم  
أبانا فلا رمت من عندنا فإننا بخير إذا لم ترم  
ويا أبتا لا تزل عندنا فإننا نخاف بأن تخترم  
أرانا إذا أضمرتك البلا دنجفي وتقطع منا الرحم<sup>(١)</sup>

٢ — هذا الحب الذي يدفعها إلى الخوف عليه والرغبة في قربه ، يدفعها أيضاً إلى أن تتعلق بما يطمئنها على حياتها ، فتود أن يظل شاباً قوياً ، وتجزع إذا ما رآته قد هرم وضعف . يقول ذو الإصبع العدوانى وقد بكت بنته أمامه إذ رآته في كبرته قد نهض فسقط وتوكل على العصا :

جزعت أمامه أن مشيت على العصا وتذكرت إذ نحن في الفتيان  
وسلاًها بأمثال من تغير الأحوال ، ثم قال :

لا تعجبين أمام من حدث عراً فالدهر غيرنا مع الأزمان<sup>(٢)</sup>  
وقد ظلت عاطفة البنوة هذه إلى بعد العصر الجاهلى ، وظلت البنت تبكى بعد أبيها ، فقد خرج مالك بن الرّيب مع سعيد بن عثمان ، فتعلقت ابنته بشوّه وبكّت ، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك ، أو يحول الموت بيننا فلا نلتقي ، فبكى ، وقال :

ولقد قلت لابنتي وهى تبكى بدخيل الموم قلبا كئيبا  
وهى تدرى من الدموع على الخد ين من لوعة الفراق غروبا

(١) ديوان الأعشى ٧٣ نشره رودلف جيبير والأغاني ١٣٧/٨ وخزانة الأدب ١٠٤/٢

(٢) الأغاني ١٠٩/٣

عبرات يكدن يجرحن ما جُرْ ن به أو يدعن فيه ندوبا  
 حذر الختف أن يصيب أباهما ويلاق في غير أهل شعوبا  
 اسكتي قد حززت بالدمع قلبي طالما حز دمعكن القلوبا  
 فعسى الله أن يدافع عني ريب ما تحذرين حتى أءوبا<sup>(١)</sup>

٣ — وإن حبها لأبيها ليحملها على أن تضن بماله كما ضنت الأم والزوجة ،  
 فمثلا عاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباهما ، لأنه يضع ماله فيما ينوب قومه  
 من حمالات ، وفيما يمنحه فقراءهم ، ويمين به مستمنحهم ، فقال :

وقالت : لا أراك تليق شيئا أتُهلك ما جمعت وتستفيد؟  
 فقلت : بحسبها يُسرّ وعارٌ ومُرّ تحل إذا رحل الوفود  
 وأخذ يدافع عن مذهبه ويضرب لها الأمثال<sup>(٢)</sup> .

٤ — وإذا ما لجعها الدهر في أبيها حزنت حتى يمضها الحزن ، وبكت حتى  
 يجرقها البكاء ، وفعلت ما يفعل النسوة الحزينات ، قال لبيد :

تمنى ابتئى أن يعيش أبوها وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟  
 فإن جان يوما أن يموت أبوكا فلا تخمشا وجهها ولا تحلقا الشعر<sup>(٣)</sup>  
 وقال في رثاء أربد مخاطبا ابنته مى :

يا مى قومي فى المآتم واندبى فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا  
 وقولى : ألا لا يُبعد الله أربداً وهدى به صدع الفؤاد الموجعا<sup>(٤)</sup>  
 وقال أبو ذؤيب الهذلى فى توقعه ما تفعل بناته بعد موته من ضرب صدورهن  
 بالنعال :

وقام بناتى بالنعال حواسرا وألصقن وقع السبت تحت القلائد<sup>(٥)</sup>

(١) الأغاني ١٩/١٦٧ (٢) الأغاني ١١/١٣٣

(٣) الهذليات ١٣٣ مخطوط والموشح ١٧ (٤) ديوان لبيد ٦

(٥) اليان والتبيين ٣/١١١ . السبت : النعال المدبوعة بالقرط

وصور عبد مناف بن ربيع الهذلي تصويراً أليماً ما تفعل أختاه على أيهما  
من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق ، كأن في جوف كليهما مزماراً  
لا يفتأ يصوت ، ومن صفق الصدر بالسبت صفقا يחדش الجلد :

ماذا يغيرُ ابنتي ربيعٍ عويلهما لا ترقدان ولا بُوسَى لمن رقدَا  
كلتاها . أبطنتُ أحشاؤها قصباً من بطن حَلَمَةٍ لا رطباً ولا نَقْدَا  
إذا تأوَّب نوحٌ قامتَا معه ضرباً أليماً بسبتٍ يلتمجُ الجلدُ<sup>(١)</sup>  
ولقد كانت أحياناً تبكي أباهما في المواسم ، فإنه لما قتل رجل من جهينة  
حصين بن عمرو الكلابي قامت صخرة ابنة عمرو تبكيه في المواسم ، حتى ضرب  
بها المثل ، قال الأخنس :

كصخرةٍ إذ تسائل في مراح وفي جَرَمٍ وعلمهما ظنوت  
تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبير اليقين<sup>(٢)</sup>  
والآباء في كل عصر على يقين من نجمة بناتهم فيهم ، وبكائهن إياهم ،  
يقول أبو فراس الحمداني قبيل وفاته سنة ٣٥٧ هـ مخاطباً ابنته :

أبُنَيْتِي لَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ  
نوحى عــــلى بحسرة من خلف سترك والحجاب  
قولى إذا كلمتــــنى فعميتُ عن رد الجواب  
زين الشباب أبو فرا س لم يمتّع بالشباب<sup>(٣)</sup>  
٥ — وإذا قتل أبوها أشعلت الحفيظة في صدور أوليائه ، ليأثروا له ،  
فيشفوا بعض ما تجد من مض الحزن ولوعة الأسى ، فقد حسنت أمامة بنت كليب

(١) سمط اللآلى ٢٢١/١ وتهذيب الكامل ١٩٦/٢ ينير : يفيد . رطب : لين يخفى الصوت . نقد : متأكّل . تأوَّب نوح : عاودهم النواح ليلاً . الجلد : بكسر اللام هو الجلد يسكونها . (٢) لسان العرب ٢٤٣/١٦ مراح : حتى من قضاة . (٣) وفيات الأعيان ١٢٧/١

عنها المهليل ليثار له ، قال المهليل :

تسألني أمانة عن أبيها وما تدرى أمانة عن ضميري

فلا وأبي أمانة ما أبوها من النعم المؤبّل والجزور<sup>(١)</sup>

ولما قتل حذيفة قالت ابنته هند تحرض قومها على الطلب بدمه :

فيا لبني ذبيان بكّوا عميدكم بكل دقيق الحد أبيض باتر

وكل رُدَيْني أحم كعوبه ينوء بنصل كالعقيقة زاهر

وكل أسيل الحد طاو كأنه ظليم ، وجوداء النسالة ضامر

فإن أتم لم تُصَبِّحوا القوم غارة يُحدّث عنها وارد بعد صادر

وترموا عُقَيْلاً بالتي ليس بعدها بقاء فكونوا كالإماء العوائر<sup>(٢)</sup>

٦ — ثم تراثه ، فتصور لخيبتها فيه ، وتعدد مناقبه ، وتشيد بمفاخره ، كما فعلت الأم في رثاء زوجها .

ومن أمثلة ذلك أن هند بنت عتبة تراث أبيها يوم بدر بأن هلك أبيها لا مثيل له ، وأن الفاجعة التي نزلت بها تنسى المنجوعات لخيبتها ، وتستدر دموعهن :  
مواساة لها ، وأنها كانت تخشى هذا اليوم من قبل ، ثم نزل بها ما خشيت ، فطار عقلها وعزب رشدها :

لله عينا من رأى هلكا كهلك رجاليه

ياربّ بالك لي غداً في النائبات وباكيه

قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حقّ حذاريه

قد كنت أحذر ما أرى فأنا الفداة مؤاميه

(١) رياض الأدب في مرآي شوارع العرب للأب لويس شيخو ٦ المؤبّل : الكثير .

(٢) رياض الأدب ٧ ، جرداء النسالة : قليلة الشعر العوائر : الجماعات المتفرقة من الجراد ، فيكون المراد الإماء التداولات في كل مكان . وأرجح أن في الكلمة تحريفاً ، صوابه ( الأعاور ) والمفرد أعور وعوراء ومعناه الضعيف الجبان الذي لا خير فيه . والجمع عور وجمع الجمع أعاور .

يا رَبُّ قَائِلَةٌ غدا يا ويح أم معاوية<sup>(١)</sup>  
وتقول أيضاً في رثاء أبيها وعمها شيبة :

من حَسَّ لى الأخوين كالفصنين أو من رَأَهما

.....

ويلى على أبوى والقبر الذى واراها<sup>(٢)</sup>

وتصور صفية بنت مسافر عينها قد جرحها الدمع كأنها رمذى قرحها  
الرمد ، وإنها لتبكي منذ انبلاج الفجر ، وحق لها أن تبكى طويلاً ؛ لأن البيت  
قد خرب بقتل أبيها وقومها :

يا من لعينٍ قذاها عائرُ الرمد حدَّ النهارِ وقرنُ الشمس لم يَقْدِرْ

.....

كانوا سُقوب سماء البيت فانقصفت فأصبح السَّمَكُ منها غيرَ ذى عمد<sup>(٣)</sup>

ولما قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث رثته ابنته قتيلة ، وعاتبت  
النبي ، وودت لو أنه كان قد عفا عنه ، ثم نفثت نفثات ناجت بهن راكباً من  
مكة إلى المدينة ، مؤملة أن يبلغ قبر النضر بعد أيام خمسة ، راجية له السلامة في  
رحلته ، ليسرع بتحية منها إلى القتيل العزيز النضر ، ومع التحية بلاغ تحب أن  
يصل إلى النضر أن عبراتها بعضها مسفوح ، وبعضها مكظوم يَخْفُقُ ، وتساؤل  
نفسها : أيسمعنى النضر إن ناديته ؟ ثم تؤمن بالواقع الأليم فتقول : وكيف يسمعى  
ميت مقبور ؟

(١) سيرة ابن هشام ٤١٦/٢ ، النائبات : نواب الدهر . مواميه : مختلطة العقل .

(٢) الأغاني ٢١٠/٤ . حس . أحس .

(٣) سيرة ابن هشام ٤١٧/٢ قذاها : آذاها . عائر الرمد : أله أو قرخته . حد النهار  
أوله . لم يقدر : لم يكمل ضوؤه . سقوب : عمد الجباء التى ترفعه .

ياراكباً إن الأثيل مَظَنَّةٌ من صبح خامسة وأنت مَوْفَقٌ  
أبلغ بها مَيتاً بأن تحيية ما إن تزال بها النجائب تَخْفُقُ  
منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بوا كفها وأخرى تَخْنُقُ  
هل يَسْمَعَنَّ النضر إن ناديتُه أم كيف يَسْمَعُ ميت لا ينطق؟<sup>(١)</sup>  
وكثير غيرهؤلاء مات آباؤهن فصورن لواعجهن ، وشدن بفضائل آباءهن<sup>(٢)</sup>.

٧ — وإنه ليسرها أن يشبه ابنها أباه ، ولقد تتسأى بمجد أبيها فتري من  
العسير على ابنها أن يلحق به ، تقول منفوسة بنت زيد الفوارس وهى ترقص  
ابنها حكيم بن قيس بن عاصم :

أشبهه أخى أو أشبهن أباً كما أما أبى فلن تنال ذاكا  
تَقْصُرُ أن تناله يداكا

وهى بذلك ترد على زوجها فى قوله لابنه وهو يرقصه :  
أشبهه أباً أمك أو أشبه عمل ولا تكونن كهلوفٍ وكل  
يصبح فى مضجعه قد انجدل وارق إلى الخيرات زنتاً فى الجبل<sup>(٣)</sup>  
وتقول السيدة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم وهى ترقص ابنها الحسين :  
إن بنى شبيه النبى ليس شبيها بعل<sup>(٤)</sup>

(١) حسنة الخالدين ٩٧ مخطوط وفيه أن الشعر لليلى بنت النضر وفى المرجع نفسه ٣٧٢  
أنه لقتيلة بنت النضر . وفى معجم البلدان مادة أثيل أن الشعر لبنت النضر . وفى لسان العرب  
١١٢/١٢ أنه لقتيلة بنت النضر وكذلك فى حسنة البجترى ٤٣٤ وأسدة الغابة ٥/٥٣٣ وفى  
سيرة ابن هشام ٢/٢٠٤ والأغانى ١٩/١ الدار أنه لقتيلة أخت النضر . الأثيل : موضع  
قرب المدينة دفن النضر به .

(٢) الأغانى ١٦/٣٠ و ٣٩/١٠ وأمثال العرب للأضي ٣٣ ومعجم البلدان ٢/٧٧٩  
وسيرة ابن هشام ٤/٨٤ وحسنة البجترى ٢١٢ وبلاغات النساء ١٧٩ و ١٨٩ .

(٣) لسان العرب مادة وكل والأغانى للأطفال عند الرب لأحمد عيسى ٥ هـ هلوف :  
ثقل بطين لأغناء منده . وكل : ضعيف زنتاً : صعوداً .

(٤) الأغانى للأطفال عند العرب ٢٧

### إبارة قومها علي قوم زوجها :

بلغ المرأة إعزازها لأبيها وأخيها وقومها واعتزازها بهم أنها لم تقتفر لزوجها أن يتجنى على أخيها ويتنقصه .

من ذلك أن لبيد بن عنبسة الفسائي - وإلى ربيعة من قبل ملك اليمن - تزوج الزهراء أخت كليب ، وفي حديث بينهما أحست أنه يحقر من شأن أخيها كليب ، فقالت له : لا أعلم في العرب ذا لبدة أشد منه . فهاج لبيد ولطمها ، وقال لها : أنت أمتي فاقبلي ما يأتيك منا نحن الملوك . فقالت له : أنا أكرم منك . وفارقه غضبي ، حتى انتهت إلى كليب وقالت له :

ما كنت أحسب والحوادثُ جمةً أنا عبيدُ الحى من قحطان  
حتى علقتى من لبيدٍ لطمه سَجَرَتْ لها من حرها العينان  
إن ترضَ تغلبُ وائلٍ بفعالهم تكن الأذلة عند كل رِهان  
فاهتاج كليب وقصد إلى لبيد ، وجَلَّه بسيفه ، فقامت الحرب بين اليمن وبين ربيعة ومضر وإياد وطبي ، وقضاة ، وتقدمهم كليب ، وظفر هؤلاء باليمن في موقعة خَزَازَى ، وتحرروا من سلطانهم <sup>(١)</sup> .

وهي لا ترضى أن يباغت زوجها قومها ، فيغزوهم وينتصر عليهم ، لذلك تنذرهم بنفسها ، كما فعلت سلمى بنت عمرو ، ففي حرب بين الأوس والخزرج جمع أُحَيَّةَ بن الجلاح الأوس لبني النجار ليفزهم ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ، وله منها ولد اسمه عمرو ، وكان يومئذ فطيا أو دون الفطيم . فلما قارب أُحَيَّةَ أن يغير عمدت إلى ابنها فربطته بخيط أوجعه ، فبات يبكي . وهي تحمله ، وبات أُحَيَّةَ معها ساهراً يقول : ويحك ما لا بنى ؟ فتقول : والله ما أدرى ، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط من الصبي فنام ، فلما هدا قالت : وارأساه .



فبات أحيحة يعصب لها رأسها ، ويقول : ليس بك بأس . حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له : نعم أنت فقد ذهب عني ما كنت أجد . وإني أفلت به ذلك ليثقل رأسه وليشتد نومه بعد طول السهر .

فلما نام قامت وتدلّت من الحصن ، وانطلقت إلى قومها ، فأندرتهم بما جمع لهم أحيحة ، لحذروا وأعدوا واجتمعوا . فلما أقبل أحيحة في قومه وجد القوم على حذر ، فلم يكن بينهم كبير قتال ، ثم رجع فلم يجد سلمى ، فعرف أنها خدعته وأنذرت قومها ، فطلقها ، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف ، فولدت له عبد المطاب . وسماها قومها المتدلية ، وقال أحيحة في ذلك قصيدتين <sup>(١)</sup> .

وقد تنذرهم برسول لأنهم منها بعيد ، كما فعلت هند من بني نهد لما رأت قوم زوجها بني عامر قد جمعوا لغزو بني نهد ، فقالت لعنهم فقير يتيم من بني عامر : لك خمس عشرة ناقة على أن تأتي قومي فتنذرهم ، فرضى ، وحملته على ناقة لزوجها ، وزودته طعاماً وشراباً ، فركب وأنذرهم ، فاجتمعوا واستعدوا ، وواقبتهم بنو عامر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه العامريون ، وفي ذلك يقول عبد الله ابن العجلان من قصيدة :

ألم يأت هنداً كيفما ضنّع قومها    بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرُها <sup>(٢)</sup> ؟  
وقد تنذر قومها برسالة رمزية ، كما أنذرت زهير بن جناب أخته - وكانت متزوجة في بني القين بن جسر - بأن قوم زوجها يعتزمون الغارة عليه ، وذلك بأن أرسلت إليه رسولا معه صرة فيها رمل ، وصرة فيها شوك وفتاد ، فقال زهير إنها تخبركم بعدو كثير ذى شوكة ، وأشار عليهم بالارتحال ، فقال الجلاح ابن عوف : لا نرتحل لقول امرأة . فظعن زهير وأقام الجلاح ، فصبحه بنو القين ، فقتلوا عامة قومه ، واستاقوا أموالهم وماله ، ثم قاتلهم زهير وهزمهم <sup>(٣)</sup> . وكذلك أنذرت امرأة من هذيل قومها <sup>(٤)</sup> .

(١) الأغاني ١٣/١١٩ والكمال لابن الأثير ٢٤٢/١ (٢) الأغاني ١٩/١٠٤

(٣) الكامل لابن الأثير ١٨٠/١ والأغاني ٢١/٦٧ (٤) الأغاني ١١/١١٤

## الفصل الرابع

# الأخت والقريبة

حظيت البنت عند أبيها ، وحظيت الزوجة عند زوجها ، وتبوأ الأم مكانة عليّة في نفوس بنيها ، فمن الطبيعي أن تنال الأخت عزازة أخيها ، وأن تسعد القريبة بحب ذويها .

## الأخت

أحب الأخ أخته وأعزها ، وأحبت الأخت أخاها واعتزت به .

١ — وأي دليل على الإرعاء والحب من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات ، جاء في حديث الخنساء للسيدة عائشة قولها : زوجني أبي رجلاً مبذراً ، فأذهب ماله ، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما ، ثم ضيع زوجي ماله مرة أخرى ، فقسم أخى ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما . فلما كانت المرة الثالثة قالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار ؟ فقال :

والله لا أمنحها شيئاً ، وهي حصّانٌ قد كفتني عارها  
وإن هلكتُ خرّقتُ خمارها وأنخذت من شعر صدارها<sup>(١)</sup>

وأى شيء أدل على الإرعاء والحب من أن يتخير الرجل زوجته ثيباً حتى لا تضار أخواته كما تضارهن الشابة ؟ حدث جابر أن رسول الله سأل : هل نكحت يا جابر ؟ فقال نعم . فقال رسول الله : ماذا ؟ أبكراً أم ثيباً ؟ فقال : بل ثيباً . قال الرسول : فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبي قتل

(١) الإصابة ٦٨/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والهاسن والأضداد ١٤٣

يوم أحد ، وترك لي تسع أخوات ، فسكرت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ،  
ولكن امرأة تمسطن وتقوم عليهن ، فقال الرسول : أصبت <sup>(١)</sup> .

٢ - وكان الأخ يستمع لمشورة أخته ، ويذعن لرأيها في أمور شتى ،  
من هذا أن سَفَّانة ابنة حاتم الطائي - بعد أن أطلقها النبي من السبي وكساها  
وأعطاه - لحقت بأخيها عدى ، وكان قد فر إلى الشام هارباً ، فرغبته في الإسلام ،  
وأن ياحق برسول الله سريعاً ، وجاء في كلامها : « فإن يكن الرجل نبياً فللسابق  
إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذلل في عز اليمين وأنت أنت » فقال لها :  
« والله إن هذا للَرَأْيُ ، وقدم على رسول الله وأسلم <sup>(٢)</sup> .

٣ - وكان الأخ يحمي أخته حتى من زوجها القوام عليها ، فلا يفضى عن  
مساءة زوجها إليها ، ولا يغفر له أن يستذلها . من ذلك أن بكرّة بنت مَلِيس  
من بني مُقَلَّد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بني سَلِيط ، فضر بها  
فشجها ، فلقى أخوها زوجها ، فلامه على ضربه وشجّه إيّاها ، فوقع بينهما شجار ،  
فشج تميم أخا بكرّة أيضاً ، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته ، فشج الزوج فأَمّه <sup>(٣)</sup> .

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت به أخته من زوجها ليبد بن  
عنبسة إذ لطمها واستذلها وتنقص من قدر أخيها ، وكان من أثر ثورته حرب  
زبون بين اليمنيين وربيعة ومضرو ومن حالقهما <sup>(٤)</sup> .

٤ - وكان يحمي من تجيره إعزازاً لها واعتداداً بحمايتها ، وقد ضرب المثل  
بُفْكِيهَة ، فقيل : أوفى من فكيهة ، وهى امرأة من بني قيس بن ثعلبة ، كان  
من وفائها أن الشكليك بن الشككة غزا بكر بن وائل ، فبصروا به ، فعدا حتى

(١) فتح الباري ٧/٢٧٥ وكنز العمال ٨/٢٨٨

(٢) -يرة ابن هشام ٤/٢٤٨ وأسد الغابة ٥/٤٧٥

(٣) النقائش ٢ أمه : أصاب أم رأسه .

(٤) أخبار الرقصة ١٩ وكتاب بكر وتغلب ١٥

ولج دار فكيمة فاستجار بها ، فأدركوه وحاولوا أن ينتزعه منها ، ونزعوا  
خمارها ، فاستغاثت بإخوتها ، فجاءوا عشرة ، فمنعهم وأجاروا السليك ، وفي ذلك  
يقول مادحاً لها :

لعمر أليك والأنبياء تنمي      لنعم الجار أخت بني عوارا  
من الخفريات لم تقضح إياها      ولم ترفع لإخوتها شنارا  
وما عجزت فكيمة يوم قامت      بنصل السيف وانتزعوا الخمارا<sup>(١)</sup>

٥ - وكان يفار عليها كما يفار على زوجته ، من ذلك أن القتال - عبد الله  
ابن المضرحي - كان يتحدث إلى ابنة عمه ، فقدم أخوها زياد ورآها ، فنهى  
القتال ، وحلف لئن رآه ثانية ليقترنه وبعد أيام رآه يحدثها ، فأخذ السيف  
ليضربه ، فبصر به القتال فخرج هارباً ، فتبعه زياد ، فلما دنا منه ناشده القتال  
بالله وبالرحم ، فلم يلتفت إليه ، فعطف القتال على زياد فقتله وقال :

تهبتُ زياداً والمهامه بيننا      وذكرته أرحام سَعد وهَيم  
فلما رأيت أنه غير منته      أملتُ له كفى بلدنٍ مقوم  
ولما رأيت أنني قد قتلتُه      ندمت عليه أي ساعة مندم<sup>(٢)</sup>

بل لقد غار الأخ على أخته من أن يتغزل فيها شاعر ، لأن في غزله تشهيراً  
بها ، وجرحاً لشرف آله . علم الإصبع بن محضن أن مالك بن الصمصامة يحب  
أخته جنوب ، فألقى يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقترنه ، ولئن عرض بها في  
شعره أو ذكرها ليأسرته ، ثم لا يطاقه حتى يميز ناصيته في نادى قومه . فبلغ ذلك  
مالكا ، فقال في قصيدة :

(١) الحاسن والأضداد ٥٤ والخبر ٣٣ ، والأغاني ١٨/١٣٧

(٢) الأغاني ٢/١٥٩

فما الحلقُ بعد الأثرِ شَرَّةً بقيَّةً من الصد والمجران وهي قريب  
أحب هبوط الواديين وإني لمشتهر بالواديين غريب  
أحقاً عباد الله أن است خارجاً ولا والجأ إلا على رقيب<sup>(١)</sup>  
لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحياناً وسيلة للكيد والإغاطة والتجريح ،  
كما تغزل قيس بن الخطيم بعمرة بنت رواحة في تمهيدته للفخر بانتصار الأوس  
على الخزرج في يوم بُعاث :

أتعرف رسماً كطُرَاد المذاهب لعمرة وَحشاً غير موقف راكب  
ترأت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضئت بحاجب<sup>(٢)</sup>  
فرد عليه عبد الله بن رواحة عدواناً بعدوان ، وتغزل في ليلى بنت الخطيم  
أخت قيس :

أشاقنك ليلى في الخليط المجانب نَعَمَ فرشاش الدمع في الصدر غالي<sup>(٣)</sup>  
وكذلك تغزل حسان بن ثابت بللى بنت الخطيم في نغمه بانتصار الخزرج  
على الأوس في يوم الريع<sup>(٤)</sup> ، فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوجة حسان<sup>(٥)</sup> .  
٦ — ما من شك في أن إعزاز الرجل لأخته يستتبع إعزازه أيضاً لابن  
أخته ، ولقد فصلت القول في الخلال ومكانته في نفس ابن أخته ، ومنزلة ابن  
أخته من نفسه ، وحسبي أن أذكر هنا أن ابن الأخت كان كثيراً ما يعد من  
العشيرة ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار يوماً ، فقال لهم : هل  
فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا إلا ابن أخت لنا . فقال رسول الله : ابن أخت  
القوم منهم<sup>(٦)</sup> .

(١) الأغاني ١٩/٨٣

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٠ وطلقات الشعراء ١٩٠

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٨٨

(٤) ديوان حسان ١٦ ؛ والأغاني ٣/١٢

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغاني ٣/١٢

(٦) فتح الباري ٦/٢٠٢ ؛ وصحيح البخاري ١٤/١٢٣

لذلك كانت قريش والخمس يشترطون على من يزوجه من الحلة أن يكون بنوه حسناً مثلهم<sup>(١)</sup> ويمدح أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ابن أخته زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مُكذَّب زهيرٌ حساماً مفرداً من حمائل<sup>(٢)</sup>

وإذا كان بشامة بن الغدير لم يورث ابن أخته زهير بن أبي سلمي كما ورث غيره ، فإن زهيراً كان يعتقد أنه ذو حق في أن ينال من مال خاله كما نال إخوته وعصبته ، فقد قال له : ماذا قسمت لي يا خاله ؟ فقال له : شعري . ثم أعطاه من ماله أيضاً<sup>(٣)</sup> .

٧ — وكذلك أحببت الأخت أخاها ، واعتزت به ، وكثيراً ما كانت تؤثره على زوجها ، لأن روابط العاطفة في الجماعات الأولى كانت بين الأب وابنته والأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفي كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ولا يرى زوجته إلا زائراً . بل إن الأخ في المدينة القديمة كان أعز على المرأة من زوجها ، فزوجة ألتا فرنيز أنقذت أخاها لا زوجها من خضبة دارا ، كذلك أنتجونا نحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها . والفكرة القائلة بأن زوجة الرجل أقرب إنسان إلى قلبه فكرة حديثة ، وغير محققة إلا في بعض الأمم<sup>(٤)</sup> .

ولم تطق الزهراء بنت وائل أن يتنقص زوجها لبيد بن عنبسة الفسافي من قدر أخيها كليب ، فقالت له في عزة وغضب : لا أعلم في العرب ذا لبدة أشد من كليب . فهاج لبيد ولطمها ، فقالت له : أنا أكرم منك ، وذهبت مفضبة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١١٥/١ (٢) المواهب الفتحية ١٦٢/١

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٦٣ . والأغانى ١٥٠/٩ ورسالة الغفران للبرقي ٥٤٧

(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ٨/١

إلى أخيبها<sup>(١)</sup> .

أليس من الطبيعي إذاً أن تندب الأخت أخاها إذا اخترمه المنون ؟ بلى لقد كانت تندبه بقلبها ولسانها ودموعها ، وكانت تراثيه متفجعة متوجعة . وكانت الخنساء كغيرها من الجاهليات قد حلفت رأسها ، والتدمت بنعلها حزناً على أخويها ، تقول في ذلك :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النملين والرأس الحليق<sup>(٢)</sup>  
وكانت تابس صداراً من شعر حزناً على أخويها اللذين قتلا في الجاهلية ،  
فدخلت على عائشة فقالت لها : يا خنساء هذا نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : ما علمت ، وقصت عليها إكرام صخر لها ، وقوله لامراته :  
ولو هلكتُ خَرَقْتُ خمارها واتخذتُ من شعر صدارها  
وقالت : فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ، ونذرت ألا أنزعه حتى أموت<sup>(٣)</sup> .

وليس يعني كثيراً أن تمجد الأخت أخاها ، وتؤبنه بذكر محامده ، لأن غيرها من الرائين والرئيسات يشركونها في ذلك ، وإنما يعني ما ينبىء عن حرقها ولهب حزنها . وإني لأحس حرارة الحزن في كثير من مرثي الأخوات لإخوتهن ، ولا شك أن زعيمتهن في هذا الضرب الخنساء ، وأنها المقدمة في هذا الفن ، فقد تميزت بكثرة مرثيها لأخويها ولاسيما صخر ، وتفردت مرثيها بصدق العاطفة وحرارتها ، فكانت جذيرة بالزعامة في النساء الشاعرات ، وكانت زعامتها منفذاً لنحلها قصائد لم تقرضها .

(١) كتاب بكر وتقلب ١٥ وأخبار المراقبة ١٩

(٢) ديوان الخنساء ١٧٣ والكمال للمبرد ٢٦٢/٢ ولسان العرب ٣٤٠/١١ قال المبرد : كانت المرأة إذا أصيبت في حميم جعلت في يدها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها .

(٣) الإصابة ٦٧/٨ والشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والخصائص والأضداد ١٤٢

ويطول بي القال إن أنا حاولت أن أستشهد من رثاء الخنساء، وحسبى أن  
أستدل من إحدى سرائيبها على توهج حزنها، وتضرم لوعتها، وتذكرها أخاها  
صخراً ليلاً ونهاراً، وصلحها ومساءها. وإن هذه الذكرى لتتحد في الصباح  
والمساء، لأنهما زمن الغارة، وزمن الضيافة، وإن حزنها ليشد بها حتى لتكاد  
تبغض نفسها، ولا يعزبها بعض العزاء إلا أنها ترى الموت حقاً على الناس ينزل  
بهم، فيبكي الأحياء ويمضهم، وهي ترى حولها كثيراً من الباكين والباقيات.  
ثم خيل لها حزنها الأليم أنه لا مثيل له، وخيل لها حبتها لأخيها أنه فقيد لا فقيد  
مثله، فقالت إن البواكي لا ينحن على عزيز عظيم كأخي، ولكني أنسى بهن،  
ثم أقسمت أنها ستظل وفيه له ذاكرة حتى يعين حينها، ولن يتطرق سرور إلى  
قلبها، بل ستعيش حياة كثيفة سوداء لا لذة فيها ولا أنس، وكيف تستطيع  
الحياة بعد ما ضم التراب أخاها الحبيب؟ وهي بذلك كله تكشف عن ألم ممض  
وحزن دفين، ودمع غزير سخين، وزفير متاهب:

يذكرني طلوع الشمس صخراً	وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولاً	ونائحة تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكي أخاها	عشية رزئو أو غبّ أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن	أعزى النفس عنه بالتأسي
فقد ودعت يوم فراق صخر	أبي حسن لذاتي وأنسى
فيا لهفي عايه ولهف أمي	أصبح في الضريح وفيه يمسى <sup>(١)</sup>

وتتجلى الوعة أيضاً في أن أم عمرو بنت مكرم ترى أخاها ربيعة بن مكرم  
بأن دمعها مدرار لا يرقأ، وحزنها شديد لا يهدأ، ولو أن حب الأخت لأخيها

(١) ديوان الخنساء ١٥١ أبو حسان: كنية من كنى صخر  
(٢١ - المرأة في الشعر الجاهلي)



ووجودها عليه يرجعانه أو يحفظانه ، لحق لما أن تطلب رجعة أخيها أو خلوده ،  
ولو أن الفداء بقي إنساناً لموت لغدته بأهلها جميعاً ، وبما لها :

ما بال عينك منها الدمع مُهراق      سَجَلًا فلا عازب منها ولا راق ؟  
أبكي على هالك أودي وأورثي      بعد التفرق حرناً حرّه باق  
لو كان يُرْجع ميتاً وَجْدُ مشقة      أبقي أخى سالمًا وجدى وإشفاق  
أو كان يُفدَى لكان الأهل كلهم      وما أثمرُ من مال له واق  
فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة      وما سَرَتْ مع السارى على ساق  
تبكي لذكرته عينٌ مفعّعة      ما إن يحف لها من ذكره ماق <sup>(١)</sup>  
ومثل هذا الضرب كثير في رثاء النساء <sup>(٢)</sup> .

## القريبة

١ — امتدت عزازة الأم والبنت والزوجة والأخت إلى الخالة والعمة والقريبة ،  
فكانت المرأة العربية عزيزة ، تستمتع بعزتها من مناح عدة ، وتشعر بأن رجالها  
يقدرونها ويحسونها ، ولقد تسعد في آن واحد بزواج يحب ، وأب يحذب ، وأخ  
يعطف ، وابن يبرّ ، وقريب يحنو . فمثلا حزن السليك بن السليكة السعدي —  
أمه جارية حبشية — لأنه لم يجد المال الذي يفتدى به خالاته من السبي :

أشاب الرأسَ أنى كل يوم      أرى لى خالة بسين الرجال  
يشقى على أن يلقين ضيا      ويعجز عن تخلصهن مالى <sup>(٣)</sup>  
وكثيراً ما يفدى الرجل بأمه وخالته أو بخالته وحدها ، دلالة على عزازتها

(١) بلاغات النساء ١٧٧

(٢) قتيلة أخت النضر بن الحارث ( بلاغات النساء ١١٩ ) ومند بنت حذيفة ( بلاغات  
النساء ١٧٣ ) وصفية بنت عبد المطلب ( سيرة ابن هشام ١٥٦/٣ ) والفراعة بنت شدداد  
( الحاسة البصرية ٩٢ ) وليلي بنت كليب ( أشعار النساء للرزباني ١٩/٣ ) وعمرة بنت  
مرداس ( الأغاني ٦٩/١٣ ) وعمرة الهذلية ( حاسة البعثرى ١٣٠ ) والحرق ( ديوان  
الحرق ٢ ) . (٣) الكامل المبرد ٢٥١/١

وحبه لها ، قال حاتم في رده على زوجته وقد لامته على كرمه :

فهبلا فذاك اليوم أمى وخالتي فلا يأمرني بالدنية أسود<sup>(١)</sup>  
وفدى عمرو بن قميئة رفاقه الشجعان بخالته :

فقلت لهم سيروا فدى خالتي لكم أما تجدون الرخ ذات سهام<sup>(٢)</sup>  
وفدى حاجز بن عوف الأزدي رجليه — وقد نجاه جريه من أعدائه —  
بأمه وخالته :

فدى لكما رجلى أمى وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثائب<sup>(٣)</sup>  
ومن إعزاز القرية أن يحير لها قريبها كما يحير لأمه وابنته وأخته وزوجته .  
من ذلك أن مسعود بن معتب الثقفي — حين دارت حرب بين كنانة وقيس —  
ضرب خباء على امرأته سبيعة بنت عبد شمس وقال لها : من دخله من قرش  
فهو آمن . فجعلت توصل في خبائها ، ولكن قيسا انهزمت ، وخاب ظن زوجها ،  
وهرع القيسيون إلى خباء سبيعة يستجيرون بها ، فأجار لها حرب بن أمية ، وقال  
ياعمة ، من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن . فنادت بذلك ، فاستدار  
القيسيون بخبائها ، وسمى الموضع مدار قيس<sup>(٤)</sup> .

وكذلك أجار النبي صلى الله عليه وسلم لعمته أم هانئ اثنتين من أحماها يوم  
فتح مكة<sup>(٥)</sup> .

وتقتضى عزازة الخالة أن يثور ابن خالتها لفضبها ، فإذا ما رجعنا إلى حرب  
اللبسوس ألفينا السبب المباشر الأخير لها فيها أن كليبا قتل ناقه رجل من جرهم اسمه  
سعد كان جارا للبسوس خالة جساس ، ففضبت اللبسوس وتآلم جاراها ، فوعدها

(١) حاسة البجزي ٢٣١ وديوان حاتم ٦ وشعراء النمرانية ١١٢

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٢٢ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٢٥/١ مخطوط . ذات

سهام : ذات توهج . (٣) الأغاني ١٢/٤٩

(٤) الأغاني ١٩/٢٩ (٥) سيرة ابن هشام ٣١/٤

جساس أن يعوضه عن ناقته ناقة ، فأبت ، فزادها إلى عشر ، فلما كان الليل رفعت صوتها لتسمع جساسا ، وهي تخاطب جارها الجرمي :

أيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل      فإنك في قوم عن الجار أموات  
ودونك أذوادى إليك فإننى      محاذرة أن يغدروا بينيتاى  
لعمري لو أصبحت في دار مُنْقَذٍ      لما ضيم سعد وهو جار لأيتاى  
ولكننى أصبحت في دار غُربةٍ      متى يَعدُ فيها الذئب يَعدُ على شاتى  
فلما سمع جساس قولها سكنها ووعدا أن يعقر في غدة جملا أعظم  
من سراب - ناقة حارها - ووفى بما وُعد ، فقتل في غده كلبيا ، وقامت حرب  
البسوس<sup>(١)</sup> .

وتستطيع عزازة الخالة أن يعز الرجل ابنها ، فإنه لما غزا عمرو بن هند طينا وأسر منها ، وكان في الأسرى قيس بن جَعْدَر ، وهو ابن خالة حاتم الطائي ، وفد حاتم على عمرو ، وسأله أن يطلق الأسرى ، فوهبهم له إلا قيس بن جعدر ، فاستمطفه حاتم بقوله :

فككت عديا كلها من إسارها      فأفضل وشفّعتني بقيس بن جَعْدَر  
أبوه أبى والأمهات أمهاتنا      فأنعم فذلك اليوم نفسى ومعثرى  
فأطلقه<sup>(٢)</sup> .

٢ - وكانت المرأة تقدر هذه القرابة وترعاها ، وتمتز بها ، ففي يوم أحد حمل شَماش بن عثمان الخزومي إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم : ابن عمى يدخل على غيرى ؟ فقال رسول الله : أحملوه إلى أم سلمة . فحمل إليها ، فمات عندها<sup>(٣)</sup> .

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢١٥ وأخبار المراقبة ٢٣

(٢) الأغاني ١٩/١٠٨

(٣) المغازي ٣٠٢ .

ومن رعايتها لهذه القرابة إيثارها الزواج بالأقارب ، وتفضيلها قومها على قوم زوجها كما سبق .

أما حزنها على ابن أختها أو ابن أخيها أو قريبها فإنه يتمثل في كثير من المراثي ، كثرثاء أمية بنت عبد شمس لابن أخيها أبي سفيان بن أمية ، ولقتلى قومها في حروب الفجار :

أَبَى لَيْلِكَ لَا يَذْهَبُ      وَنَيْطُ الطَّرْفِ بِالْكُوكَبِ  
وَهَذَا الصَّبْحُ لَا يَأْتِي      وَلَا يَدْنُو وَلَا يَقْرُبُ  
بِعَقْرِ عَشِيرَةٍ مَنَا      كَرَامِ الْحَيِّمِ وَالْمَنْصَبِ  
أَلَا يَا عَيْنَ فَاكِهِيهِمْ      بَدَمْعِ مِنْكَ مُسْتَقَرَّبِ  
فَإِنْ أَبْكَ فَهَمْ قَوْمِي      وَهُمْ رَكْنِي وَهُمْ مَنْكَبِ  
وَهُمْ أَصْلِي وَهُمْ فَرْعِي      وَهُمْ نَسْبِي إِذَا أُنْسَبِ  
وَهُمْ مَجْدِي وَهُمْ شَرْفِي      وَهُمْ حَصْنِي إِذَا أُزْهَبِ  
وَهُمْ رَحْمِي وَهُمْ تَرْسِي      وَهُمْ سَيْفِي إِذَا أُغْضِبِ  
(١)

ومرثيتها تكشف عن حزن ، وأرق ، وحسرة ، ونفار .  
وكذلك رثت الحرنق قومها<sup>(٢)</sup> وربطة بنت عاصم<sup>(٣)</sup> ، وهند بنت عتبة<sup>(٤)</sup> ،  
وصفية بنت مسافر<sup>(٥)</sup> .

(١) الأغاني ١٩/٨٠ مستغرب : بالغ منتهام .

(٢) ديوان الحرنق مخطوط .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي ٦٩/٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ١٦/٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ١٧/٢ .

## الفصل الخامس

# حقوق المرأة المالية

كان العرب في منزلة وسط بين الملكية وما يشبه الاشتراكية ، ذلك بأن « الخيمة وأثاثها ملك للفرد ، أما المرعى والأرض الصالحة للزرع فهي ملك شائع للقبيلة كلها<sup>(١)</sup> » .

وقد ذكر سترابون أن اشتراكية الأسرة في الملكية كان النظام الشائع في اليمن ، لكن الرجل الأكبر هو المهيمن على الثروة<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا النظام الوسط بين الملكية والاشتراكية كان للفرد أن يقتني ويحوز ، وللقبيلة أن تقتطع منه ما تحتاج إليه في تحمل الديات ودفع المغارم والإنفاق على الغارات وإكرام الوافدين .

### ملكية المرأة :

اشتركت المرأة في هذه الملكية ، ولكن في طور متأخر أجحف الرجال بها ، وكثيراً ما كانت تعجز عن المطالبة بنصيبها ، وتعجز عن نياله بالقوة - على أنها كانت في هذا الطور تملك بأن يتدخل قريب من أقاربها لينيلها حقها<sup>(٣)</sup> ١ - ولست أشك في أن المرأة الجاهلية كانت تملك ، فالقرآن الكريم يثبت ملكيتها ، والشعر يذكرها ، والأخبار كثيرة فيها . قال تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع<sup>(٤)</sup> ٢ -

(١) تاريخ العرب ١ / ٣٣ فليب حتى

Muslem Law . P . 21 (٢)

Muslem . Law P . 28 (٣)

وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النساء اللاتي يتولون شؤونهن ، لا رغبة فيهن ، بل في ما لهن ، وكانوا يسيئون صحبتهم ، ويتر بصون بهن الموت ليرثوهن ، وقد سأل عروة بن الزبير السيدة عائشة رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : يابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله ، ويريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، فنبهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن <sup>(١)</sup> .

وروى عنها أيضاً في تفسير قوله تعالى : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تتوئنهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » <sup>(٢)</sup> أن المراد اليتيمة التي تكون عند الرجل ، لعلها أن تكون شريكته في ماله وهو أولى بها ، فيرغب عنها أن ينكحها ، فيعضلها ليحتجز مالها ، ولا ينكحها غيره حتى لا يشركه أحد في مالها <sup>(٣)</sup> . والرواة جميعاً على أن لليتيمة مالا <sup>(٤)</sup> .

٣ — أما الأخبار التي تثبت ملكية النساء فمستفيضة . يقول حاتم الطائي لاسرأته وقد لا مته على البذل إن مالك كثير مصون ، فلماذا تلوميني على أن أسخو بمالي :

تلوم على إعطائي المال ضلة إذا ضنَّ بالمسال البخیل وصردا  
تقول : ألا أمسك عليك فإنني أرى المال عند المسكين مُعَبِّدا

(١) فتح الباری ٩/٩١ وتفسير الطبري ٥/١٩٣ وروح المعاني ٤/١٨٩

(٢) سورة النساء ١٢٧

(٣) فتح الباری ٩/١٦٠ وتفسير الطبري ٥/١٩٢

(٤) تفسير الطبري ٥/١٩١ - ١٩٥

ذريتي وحالي إن مالكِ وافر وكل امرئ جار على مائهودا<sup>(١)</sup>  
وقد كانت أم حاتم عتبة بنت عفيف كريمة ، لا يسألها أحد شيئاً إلا أعطته ،  
وكانت ذات يسار ، ولا تمسك شيئاً ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ،  
ومنموها مالها ، ثم دفعوا إليها صيرمة من إبلها<sup>(٢)</sup> ، فهي مثرية ذات مال خاص  
بها ، وإخوتها يرون سفها في بذلها فيحجرون عليها ، ثم بعد حين يردون عليها  
قطيعاً من إبلها .

كذلك روى أن بنت مهليل بن زيد أخت زيد الخليل كانت تملك مائة  
من الإبل مع خالها<sup>(٣)</sup> ، وأن هند بنت صعصة جد الفرزدق قالت : من جاءت  
من نساء العرب بأربعة كأربعة يخل لي أن أضع خمارى معهم فلها صيرمتي<sup>(٤)</sup> .  
وكان لضباعة بنت عامر بن قرط مال كثير<sup>(٥)</sup> . وكانت السيدة خديجة صاحبة مال  
ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالاً من قريش ليتاجروا لها ، وقد تاجر لها النبي  
صلى الله عليه وسلم في اليمن وفي الشام ، وتقاضى منها أجره أربع بكرات  
أو قلوصين<sup>(٦)</sup> . وفي حديث السيدة أسماء للرسول قولها : يا رسول الله مالى مال  
إلا ما أدخل على الزبير فأتصدق . قال : « تصدق ولا تؤعنى فئوعى عليك<sup>(٧)</sup> » .  
ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء مالا يتصدقن منه ، أو أنها مظنة أن يكون لها  
مال كغيرها تتصدق منه .

وسيتبين من حقها في التصرف المالى ما يعزز هذه الملكية .

(١) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠

(٢) الأغاني ٩٣/١٦ وذيل الأمالى ٢٣

(٣) الأغاني ٤٩/١٦ - ٥٠

(٤) النقائض ٢٦٤

(٥) أشعار النساء للرزباني ٢٤

(٦) لسان العيون ١٤٧/١ - ١٥٢

(٧) صحيح البخارى بشرح الكرماني ١٢٦/١١ لا تؤعنى : أى لا تبغى .

## الملكية بين المرأة العربية وغيرها

هذا الحق الذى خُوِّلته المرأة العربية فى الجاهلية لم نلّه إلا المرأة المصرية ، لأن النساء فى مصر القديمة كن يملكن (حوالى ٤٠٠٠ ق م) أكثر الأراضى ، وذلك لأن التركة كانت تورث فى الأعم الأغلب بطريق النسب إلى الأم<sup>(١)</sup> . وكذلك المرأة البابلية ، لأن النساء كن يملكن ، وكن حرات فى أن يتعاقدن ، وكن يرثن<sup>(٢)</sup> .

على أن أكثر النساء كن محرومات منه ، كالمرأة العبرية واليونانية .

ولم يكن القانون الإنجليزى الذى سن فى القرن الثامن عشر بأعظم حدبا على حق المرأة فى التملك ، فقد حرّمها كل حقوقها المالية تقريباً ، فنزلت عن ثروتها عند الزواج ، ورأى المشرعون فى ذلك صوتاً للمرأة ورعاية ، حتى قال بلاكستون Blackstone فى شرحه على قوانين إنجلترا سنة ١٧٦٥ م : إن القيود التى تروح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها ، لأن القانون الإنجليزى يؤثرها بعطف شديد<sup>(٣)</sup> .

ولم تخوّل المرأة الإنجليزية حق التملك إلا منذ ١٨٨٢ م مع أنها كانت تراول أعمالاً ، ولكن أجرها للأب أو للزوج<sup>(٤)</sup> ، فهى محرومة حق الملكية ، وحق التصرف .

وما زالت المرأة الفرنسية المتزوجة محظوراً عليها تصرفها فيما تملك إلا بإقرار زوجها ، ما لم تشترط فى عقد الزواج أنها حرة فى تصرفها المالى بعد الزواج<sup>(٥)</sup> .

(١) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٨ Mrs Ray strachey

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٦ Mrs Ray strachey

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرأة فى المصور ٩٤

(٥) القانون المدنى الفرنسى - بلانيول وروبير ص ٦٢٠ بند ١٨١٠ و ١٨١٩



### حرية المرأة العربية في التصرف المالى

ليس حق الملكية وحده دليلاً على علو مكانة المرأة ، فإن المرأة الرومانية كانت تملك ، ولكنها محرومة حق التصرف المالى ، وزوجها هو الوصى على مالها ، وله أن يقيم وصياً يخلفه بعد موته . كذلك كانت المرأة العبرية فى طور متأخر تملك بالميراث ، ولكن زوجها هو السيد والوصى ، وحتى النذر ، الذى كانت تنذره لا قيمة له مالم يؤيده زوجها .

أما المرأة العربية فقد استمعت بالحقين معاً : التملك ، والتصرف . ويظهر أن الحضريات عامة كن أكثر أملاً كما وأعظم حرية فى تصرف شئونهن المالية .

ومن أمثلة هؤلاء السيدة خديجة بنت خويلد ، فقد كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم بشىء تجعله لهم <sup>(١)</sup> . وأسماء بنت مخزبة أم عبد الله بن أبى ربيعة كانت تاجر فى العطور بالمدينة ، وكانت تجلبها من الين <sup>(٢)</sup> . وكانت تباع عطرها إلى أجل مسمى <sup>(٣)</sup> . ومُلكة والدة السائب بن الأقرع كانت تباع العطر زمن النبی صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> . وكانت منشم عطارة يغمسون أيديهم فى طيبها ويتحالفون عليه أن يستमितوا فى الحرب ، أو كانت تباع الحنوط أيضاً ، وسموا حنوطها عطرا ، لأنهم أرادوا به طيب الموتى <sup>(٥)</sup> . وقد حدثت قتيمة أم بنى أثمار أنها جاءت النبی صلى الله عليه وسلم وهو فى المروة فى إحدى عمره فقالت : « يارسول الله إني امرأة أبيع وأشتري ، فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن أن آخذها به ، ثم

(١) أسد الغابة ١٦/١ وتاريخ الطبرى ١٩٦/٢

(٢) الإصابة ١٠/٨ والأغاني ٦٤/١ (٣) الطبقات الكبير ٢٢٠/٨

(٤) الإصابة ١٩١/٨ (٥) مجم الأمثال ٣٤٨/١

زدت ثم زدت حتى آخذها بالذى أريد أن آخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذى أريد أن أبيعها به . فقال لها الرسول : لا تفعلى هكذا يا قيلة ، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعطى به الذى تريد أن تأخذه به ، أعطيت أو منعت ، وإذا أردت أن تبيع شيئاً فاستامى الذى تريد أن تبيعه به أعطيت أو منعت » (١) .

ومعلوم أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالى . وقد خولتها حرية التصرف المالى أن تخالف أباه وإخوتها ، فقد كانت غنيّة بنت عفيف أم حاتم من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تبقى على شىء تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجبوا عليها ، ومنعوها ما لها ، فكتت دهرأ ، ثم أعطوها قطيعاً من إبلها ، فسألته امرأة محتاجة ، فأعطتها القطيع وقالت :

لعمري لقدّمّا عضى الجوع عضه	فأليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولاً لهذا اللأى اليوم أعطى	فإن أنت لم تفعل قمض الأصابع
فماذا عسى أن تقولوا لأختكم	سوى عذلكم أو عذل من كان مانعاً؟
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركى يابن أمّ الطبايعا؟ (٢)

وكانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتبها الناس . فقال لها : يابنية إن القويين إذا اجتمعوا فى المال أتلفاه ، فيما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى . فقالت : والله لا أمسك أبداً . وقال : وأنا والله لا أمسك أبداً . قالت : فلا تتجاوز ، فقاسمها ماله وتبائنا (٣) .

(١) الطبقات الكبير ٢٢٨/٨

(٢) الأغاني ٩٣/١٦ وذيل الأمل ٢٣ (٣) ذيل الأمل ٢٣ والأغاني ٩٤/١٦

وقد سبق في الخلع والعضل ما يدل على حرمتها في التصرف المالي .

### المرأة العربية والميراث :

المؤرخون والمفسرون مطبقون جميعاً على أن المرأة كانت مسلووبة حق الميراث، لأن أهل الجاهلية لم يورثوا النساء ولا الصغار من الغلمان ، وقالوا : لا يرث إلا من طاعن بالرمح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة<sup>(١)</sup> . وقالوا إن العرب ظلوا على ذلك إلى أن مات أوس بن ثابت - وقيل أوس بن مالك ، وقيل ثابت بن قيس - وترك ابنتين وابناً صغيراً ، وزوجة أم حكة - أو بنت حكة أو أم حكة أو أم كلثوم - فجاء ابنا عمه فأخذا ميراثه كله ، ولم يتركا لامرأته وأولادها شيئاً ، لأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً . فقالت امرأته لهما : تزوجا اليتيمتين - وكان بهما دمامة - فأبيا . فأتت رسول الله فأخبرته ، فدعاها ، فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً ، ولا ينكي عدواً . فقال : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن . فانصرفوا ، فأنزل الله الآية الكريمة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو أكثر نصيباً مفروضاً »<sup>(٢)</sup> .

ثم نزلت بعد ذلك : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عابداً »<sup>(٣)</sup> .

ثم نزلت : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . . . والله عليم حكيم »<sup>(٤)</sup> .

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٨٥ و ٥/ ١٩١ والكشاف ١/ ١٩٠

(٢) سورة النساء ٧ (٣) سورة النساء ١٢٧ (٤) سورة النساء ١٢

لكن ذلك في حجة إلى مناقشة ونمحيص :

١ — فلو أن حرمان المرأة من الميراث عرف عام في العرب ما شكت أم كحة للرسول أنها وأولادها قد حُرِمَ الميراث ، وإنما تدل هذه الشكاية على أن أولياء الميت كانوا عادة يعطون الزوجة والبنات بعض ماترك ، وهم في هذه الحادثة ضيقوا على الزوجة وأولادها ، واحتازوا التركة كلها ، فلم تجد بداً من أن تستنجد برسول الله ، فكان حكم القرآن فيصلا بين المرأة والرجل إلى اليوم .

٢ — ثم إنني أجد في الطبري نصاً آخر أستنتج منه أن الثروة كانت من نصيب الولد الأكبر وحده ، لأنه يقول : « فكانوا لا يعطون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر <sup>(١)</sup> »

وتمعارضة هذا النص بسابقه أستنتج أن الذكور الكبار والمقاتلين كانوا يفضلون على الذكور الصغار ، وعلى الإناث في تقسيم الغنائم والأسلاب ، لأن عبء القتال ، وتبعة النار ، وحماية الخوذة كانت كلها على الرجال وحدهم دون الأطفال والنساء ، فحق لهم أن يستأثروا بالأسلاب ، لأنهم هم الذين غنموها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم في معامع القتال .

٣ — وإذا كان النظام العام ألا ترث المرأة ، فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بعضهن ثريات مشهورات الثروة كما سبق ؟ ومن أين حصلن على المال الذي كان يزين لبعض الرجال أن يفضلوهن حتى يفترقن أنفسهن ، أو حتى يمتن فيرث الرجال ما خلفن ؟

قد يقال إنهن حزن هذا المال عن هبة أو وصية أو عطاء ، وأنا لا أجد هذا ، ولكني أرى أن التي تنال مالا بهبة أو وصية أو عطاء أجدر بأن تناله

أيضاً بالمشاركة في التركة على أى وجه من وجوه المشاركة .

والقرآن الكريم أوصى بالرعاية على اليتامى في مالهم ، وحظر أكله بالباطل ، وحبب إلى المسلمين نكاح اليتامى على أن يُعطين صداقهن كاملاً : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حرباً كبيراً » <sup>(١)</sup> وفي آية ثانية : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » <sup>(٢)</sup> وفي آية ثالثة : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » <sup>(٣)</sup> .

وقد أوصى النبي باليتامى أصحاب المال خيراً ، وحذر الأوصياء من العدوان على مالهم .

ومن المعقول أن يكون بعض هؤلاء قد ورثوا قبل مشرق الإسلام ، وأن يكون آخرون قد ورثوا في مشرق الإسلام ، لأن القرآن الكريم ينص على أن اليتامى كان لهم مال قبل أن تنزل الآية ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ٠٠ ﴾ وذلك أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ، ويجعلون لليتيم الردى والخسيس مكانه ، فنهاهم الله عن هذا التبديل ، ونهاهم عن خلط مال اليتامى بمالهم حتى لا يأكلوه . وقد تشدد بعض الأوصياء في تحريمهم ، حتى كرهوا أن يخالطوا اليتامى ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

كذلك ينص القرآن الكريم على أن الإناث اليتامى كان لهن مال ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ والمراد كما قالت السيدة عائشة أن تكون اليتيمة منهن في حجر وليها ، فيرغب في مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، فنهوا أن

(٢) سورة النساء ٣

(٤) تفسير الطبري ١٥٤/٤

(١) سورة النساء ٢

(٣) سورة النساء ٦

ينسكحون إلا أن يمسحوا لهن في إكمال الصداق ، أو أن تكون اليتيمة ذات مال فلعل وليها ينكحها لمالها وهي لا تعجبه ، ثم يسمى صبيحتها ، فنهوا عن هذا <sup>(١)</sup> .

٤ — وقد عثرت على نصوص فريدة تكشف الحجاب عن هذه الحقيقة : أن المرأة كانت تراث ، وهي نصوص كالشعاع الذي ينبعث من خلال السحب الكثيفة يعلن أن الشمس هاهنا ضوءها ، لكنه لم يذهب كله ، ولم تغرب الشمس . هي كالآثر الوحيد الذي بقي سليماً على عوادي الدهر وعوادي الناس في أكاداس من آثار مهشمة ، وتقوش ممسوخة ، وألواح محطمة .

(١) يقول ابن حبيب : « ورث ذو الجاسد وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ماله لولده في الجاهلية ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فوافق حكم الإسلام » <sup>(٢)</sup> .

(ب) ويذكر ابن حزم الأندلسي أن عامر بن جشم أول من أعطى الذكر حظين والأنثى حظاً <sup>(٣)</sup> .

ولم يكفل البقاء لهذا الأثر أن عامراً ورث بناته ، وإنما كفل له البقاء أنه فرى فرىاً عجيباً اتفق مع ما شرع الإسلام فيما بعد ، ولولا هذا لضاع ما عمله عامر كما ضاع ما عمل غيره .

(ج) ووجدت الواقدي يذكر في قصة أم كحة أنها قالت للنبي عليه الصلاة والسلام : لقد مات بعلي فانتقل الميراث إلى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أئني للبنات أن يتزوجن إذا لم يكن لديهن مال ؟ <sup>(٤)</sup> .

فهذه الزوجة تشكو إلى النبي أن عم بناتها قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هي أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يقبل

(١) تفسير الطبري ١٥٥/٤ وسنن أبي داود ٢٥٥/١

(٢) لمخبر لابن حبيب ٢٣٦ (٣) جبهة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٠

(٤) المنازي ١٤٧

أحد على بناتها وهن لا مال لهن ، وتصرخ من استئثار الرجل بتركه أخيه .  
ومعنى هذا أنها كانت تتوقع كما يتوقع غيرها من هذا العم أن يترك لبنات أخيه  
نصيلاً من تركه أبيهن .

( د ) ثم أجد نصاً رابعاً في الطبرى صريح الدلالة : « كان جابر بن عبد الله  
الأنصارى ثم السلمي له ابنة عم عمياء ، وكانت دميعة ، وكانت قد ورثت عن  
أبيها مالا ، فكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا يفكحها ، رهبة أن يذهب  
الزوج بمالها ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان ناس في حجورهن  
جوار أيضاً مثل ذلك ، فجعل جابر يسأل النبي : أترث الجارية إذا كانت قبيحة  
عمياء ؟ فجعل النبي يقول : نعم » <sup>(١)</sup> .

ولا شك أن هذه كانت ورثت في الجاهلية ، بدليل أن جابراً رغب عن  
أن يتزوجها ، وعضلها . وفي سؤال جابر أترث الجارية القبيحة العمياء ؟ دليل  
على أن مبعث الاستنكار أو العجب أنها مؤوفة لا أنها أنثى .

( هـ ) كذلك وجدت أن ضباعة بنت عامر بن قرط ورثت من زوجها  
هؤذة بن على الحنفي مالا كثيراً ورجعت به إلى قومها <sup>(٢)</sup> .

هـ — لست أشك إذاً في أن المرأة كانت ترث في كثير من الأحيان ،  
وأن بعض الناس كانوا يحرمونها حقها في التركة بغياً منهم وعدواناً .

ولكن لم تكن المرأة ذات حق معلوم مقرر كهذا الذي حدده القرآن  
الكريم ، وإنما كان العرب يسرون مع المرأة على نظام يشبه التخارج في  
الإسلام ، فيرضونها بمقدار من المال قل أو كثر .

وليس في هذا الحرمان ما يفض من قدر المرأة ، لأن هؤلاء الذين حرموها  
كانوا يخارجونها على قدر من التركة ترضاه .

ولو أن خَتَنِي أم كحة خارجاها هي وأولادها على شيء من تركة زوجها ما شكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا غرابة في هذا ، فإن بعض المسلمين في مصر يفعلون مثل ذلك إلى الآن ، ولقد يخص الوالد بنيه الذكور بقسط من ثروته ، ويدع الباقي ليقسمه البنون أو البنات بعد وفاته . ولقد يكسر بعضهم ماله كله على الذكران ويدع الإناث ، ويخصهن بنصيب ضئيل . فهل معنى ذلك أن هذا نظام عام في المسلمين ؟ أو أنه هو نظام الإسلام ؟ لا .

كذلك كان العرب يفعلون في توريث البنات ، كما كانوا يفعلون في الزواج ، أكثرهم لا ينكح امرأة الأب ، ولا يجمع بين الأختين ، وأقاربهم كان يفعل ذلك « وما زالت بعض الأسر الكبيرة في داخل سوريا ولبنان — وهم الإقطاعيون الذين يرغبون في أن يبقوا على نفوذهم وتراثهم — لا يورثون النساء ، لأن تقسيم الثروة وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، لذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث ، ويعوضونهن نقداً ، ويحتفظون بالأرض للذكور » (١) .

ومالنا لا نعود القهقري إلى عهد عمر رضى الله عنه ، لنجد غيلا بن سامة الثقفي قد أسلم وتخته عشر نسوة ، فقال له النبي : اختر منهن أربعاً . فلما كان في عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال له : إني لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تمسك إلا قليلا . وأيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن في مالك ، أو لأورشين منك ، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال (٢) .

(١) عائشة أم المؤمنين لزاهية قدورة ٣٦

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٣٩ وكنز العمال ٢٩٠/٨ أبو رغال : رجل من ثمود أو هو دليل الحبشة في سيرهم إلى مكة .

( ٢٢ - المرأة في الشعر الجاهلي )



### ذكرورثه برثونه :

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث أحياناً، عسفاً من إخوتها أو ولى المتوفى، فإن هذا الحرمان لا ينافي مكانتها العالية التي أسلفتها في مواضع شتى ، لأن بعض الذكور كانوا يحرمون أيضاً ، وقد سبق أن الصغار كانوا لا يرثون .

وقد مات أبوطرفة - وطرفة صغير - فأبى أعمامه أن يقسموا له ماله ، فقال :  
ما تنظرون بئال ورثة فيكم صغر البنون ورهط وردة غُيبُ

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظلل له الدماء تصبب<sup>(١)</sup>  
وكان الخطيئة ينسب إلى أوس بن مالك العبسى تارة ، وإلى الأفغم بن رباح الشيباني تارة ، وقد أتى أخويه من أوس يطلب منهما بعض المال ، فرفضاً ، فهجأهما ، ثم لحق بإخوته من بى الأفغم ومدحهم ، ومن مدحه قوله :

قوى إذا انتسبوا فقرعهم فرعى وأثبت أصلهم أصلى  
وسألمهم ميراثه من الأفغم ، فأعطوه نخیلات لم تقنعه ، فسألمهم ميراثه كملاً ، فلم يعطوه شيئاً ، فغضب عليهم ، وهجأهم ، وانسل من النسب إليهم ، وانتسب إلى أوس بن مالك<sup>(٢)</sup> .

ثم إن الزوج كان لا يرث زوجته أحياناً « لأن الحرة إذا ماتت آلت أملاكها إلى أولادها ، فإن لم يكن لها أولاد فإلى إخوتها وأقاربها من القبيلة . أما الرقيقة فإن زوجها كان يستولى على أملاكها ، فإن مات الزوج لم ترث منه الرقيقة شيئاً ، بل تسلم إلى بنينا منه أو إلى ورثته »<sup>(٣)</sup> .

### مميزات المرأة العربية بالميراث :

وإذا فقد تميزت المرأة العربية من نساء العالم القديم ، لأنهن كن محرومات

(١) خزانة الأدب ١٨٦/٢

(٢) خزانة الأدب ١٧٤/٢

من الميراث في قانون حمورابى والقوانين الآشورية . ولم يكن لمن إلا المهر يدفعه الأب لابنته ، فإذا مات قبل أن يمهرها منحها إختوها جزءاً من ربع ما خلف أبوه ، أما العين فإلهم وحدهم<sup>(١)</sup> .

وكانت المرأة العبرية لا ترث قديماً ، بل لقد كانت تورث كما يورث متاع الرجل ، ثم ورثت البنت أبها في عصر متأخر إذا لم يكن له أبناء ، فإذا خلف ذكراً حجبتها ، فلا ترث شيئاً<sup>(٢)</sup> ، وإذا ما ورثت فعليها أن تتزوج رجلاً من أسرة أبيها من قبيلته ، ليرث كل من بنى إسرائيل نصيب آبائه ، ولا ينتقل ميراث قبيلة إلى أخرى<sup>(٣)</sup> ، وبذلك تنتقل أملاك المرأة إلى تصرف زوجها ، فكلانها لم ترث شيئاً . أما الزوجة فلا حق لها في ميراث زوجها ، بل ظلت تورث كما تورث تركته<sup>(٤)</sup> .

كذلك لم ترث المرأة اليونانية ، فإذا مات أبوها ورثه إختوها ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجت أكبر الوارثين الأقربين ، فهى ذات صلة بالتركة ، لكنها لا تنال منها شيئاً ، وولدها من هذا الزوج ينسب إلى جده لأمه ، وإليه ينتقل ما خلف هذا الجد<sup>(٥)</sup> .

ولم ترث المرأة الحبشية مخافة أن ينتقل الملك بالزواج إلى الأجانب ، إلا إذا فقد الورثة من الذكور إلى الدرجة السادسة . وكان مثل هذا القانون عند الفرنجة<sup>(٦)</sup> .

### الإسلام ونورث النساء :

كفل الإسلام للمرأة حقاً معلوماً ، ونصيباً مقررأً مقدراً مفروضاً في التركة ، فاستكملت المرأة حقوقها المالية .

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧١ (٢) النظم الاجتماعية ١٧٠

(٣) The Holy Bible Numbers 36. 8-9 وسفر العدد لإصحاح ٣٦ آية

٨ و ٩ (٤) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ (٥) المرأة في التاريخ والشرائع ٧٤

(٦) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٦٩

ولا شك أن نظام التوريث في الإسلام قد استوفى العدل والإنصاف والرحمة جميعاً ؛ لأنه فرض للمرأة نصف الرجل ، والرجل هو المكلف الإنفاق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده منها وإن كانت ذات مال ، وهو المكلف البذل في وجوه أخرى لا تكلفها المرأة . فالإسلام سخي في فرضه للأثني نصف الذكر « ويظهر من مقابلة الإسلام بالقوانين الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللاتي يزعم بعض الناس أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقاً في الميراث لا مثيل لها في قوانيننا <sup>(١)</sup> .

لهذا فإن ليفي Levy يجافى الحق في دعواه أن حق الملكية والميراث في الإسلام نظري لا عملي ، وأن البنات لا يرثن في كثير من القبائل <sup>(٢)</sup> . لأن حرمان المرأة ميراثها معصية لله لا يجرؤ عليها إلا شذاذ من الناس ، وهؤلاء الشذاذ كثيراً ما يقدرون للنساء نصيباً ، سواء أكان المقدر لهذا النصيب الأب قبل موته - إذ قسم أكثر أملاكه على الذكور ببيع صوري وترك بعضها ليقسمه الذكور والإناث بعد وفاته ، أم وزع أملاكه على الذكور جميعاً بنسب يراها - أم أن الذكور اتفقوا مع الإناث على أن يخرجن من التركة لقاء نصيب معين .

(١) حضارة العرب . جستاف لوبون ١٩٧٤

(٢) An. Introduction to the sociology of Islam. by Levy. P.141 (٢)

## الباب الثاني

# المرأة في الحياة العامة

جلوت صور المرأة في الحياة الأسرية في الباب الأول ، والآن أشرع أجلو  
صورها في الحياة العامة .

والبابان معا دراسة للمرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهما متصلان  
اتصالا يقرب من التداخل أحيانا ، لكن دواعي الفصل بينهما أقوى من دواعي  
الإدماج والوصل ، ذلك بأن المرأة أما زوجة و بنتا وأختا وقرية وذات حق في  
حيازة المال وامتلاكه ألصق بحياة الأسرة ، وأوثق صلة بنظامها ، من صلتها بحياة  
المجتمع ونظم القبائل ، فهي في هذا الباب عضوفي أسرة ، وإن لم يزاياها اشتراكها  
في المجتمع .

أما المرأة من حيث أخلاقها ومشاركتها في الحروب وأعمالها وصناعاتها  
وسفورها وحجابها ، فإنها أقوى وشيجة بالحياة العامة ، وبنظم المجتمع كله ، فهي  
هنا عضوفي جماعة ، أو فرد في قبيلة ، وإن لم تنفك عنها سمتها الأسرية .

وإذا فقد كانت دراسة المرأة في الباب الأول لإبراز مكاتبا وقيمتها في  
الأسرة ، أما دراستها في هذا الباب فهي لجلاء أعمالها ومكاتبا في القبيلة وفي  
المجتمع كله .

## الفصل الأول

# أخلاق المرأة

### شجاعتها النفسية

سأحدث في فصل الحرب عن شجاعة المرأة العملية ، إذ قادت الجيش ، وأسهمت في الحرب ، والآن أتحدث عن شجاعتها النفسية وجراتها القلبية .  
وللمرأة في هذا المجال نصيب أى نصيب ، فهي لا تتطامن وإن كان الهلاك محققا ، ولا تذلل وإن رأت النكال محققا . فقد أقسم عمرو بن هند بعد يوم أوارّة ليحرقن من بنى حنظلة مائة ، فأحرق ثمانية وتسعين . ثم أقبل وافد من البراجم فأتهم به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر . . . . . بن دارم . فقال : إني لأظنك أعجمية . فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم . قال : فمن زوجك ؟ قالت : هوذة بن جزول . قال : أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك . فقال : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . فقالت : أما والذي أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدي ، وأسافيا حلى . قال : اقدفوها في النار . فالتفتت ، فقالت : ألا فتى يكون مكان عبوز ؟ فلما أبطئوا عليها قالت : صارت الفتیان حُمَّمَا . فأحرقت (١) .

وكانت تستطيع أن تنجو إذا ألانت القول ، وخضعت للملك الجبار الخائق

ولكنها كانت جريئة مغيلة ، فجهته بما لم يكن يتوقع .  
 ولقد يطبق قومها على خطأ فلا تحفل بإطباقيهم ، ولا تسكت بثلومهم لها .  
 من ذلك أن يزيد بن عبد المدان كان قد أسر عامر بن مالك ملاعب الأسنة  
 وأخاه عبيدة بن مالك ، ثم أطلقهما ، فلما مات يزيد رثته أختهما زينب بنت  
 مالك وذكرت نعمته مرتين<sup>(١)</sup> . فلامها قومها وعيروها أن بكته ، فردت عليهم  
 بقولها :

ألا أيها الزاري علىّ بأنني زاريرة أبكى كريماً يمانيا  
 ومالي لا أبكى يزيد وردني أجراً جديداً مدرعى وردائيا<sup>(٢)</sup>  
 ومن شجاعتها أنه بعد فتح مكة بايع الرسول الرجال ثم النساء ، وفيهن هند  
 بنت عتبة متتعبة متنكرة تخشى ما فعلت يوم أحد . فقال رسول الله : تبايعني  
 على ألا تشركن بالله شيئاً . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لم تأخذه على  
 الرجال ، وسؤتيكه . قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنت لأصيب من  
 مال أبي سفيان الهمة والهمة ، وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا . فقال  
 رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما  
 سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين . قالت : يا رسول الله هل تزني الحرة ؟  
 قال : ولا تقتان أولادك . قالت : قد ربيناهم صفاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ،  
 فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب . . . . قال :  
 ولا تعصيني في معروف . قالت : ما جاسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك  
 في معروف<sup>(٣)</sup> .

وشجاعة هند تتجلى في قولها : ربيناهم صفاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، ونى  
 قولها : إنك تأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال .

(٢) الأغاني ١٠/١٤٣

(١) الأغاني ١٠/١٤٣

(٣) تاريخ الطبري ٣/١٢١ ، والمغازي ١٦ ، والطبقات الكبير ٨/١٧٢ .

وقد تزعمت أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية بذات جنسها ، وكانت تقيمتن إلى النبي ، تطالب بحقوق المرأة ، وتريد أن تساويها بالرجل في الثواب ، وأعلمته أنها سفيرة النساء إليه ، ودلت على مطلبها بما أعجب رسول الله ، ووفقت في سفارتها ، وعادت مرهوبة بما نالت لبنات جنسها من خير .

ذلك أنها قالت لرسول الله : إني رسولُ مَنْ ورأى من جماعة النساء ، يقلن بقولي ، وعلى مثل رأيي . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فأمنّا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدّرات قواعد بيوت . . وحاملات أولادكم ، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، ورينا أولادهم ، أفنشاركمهم في الأجر يا رسول الله ؟ فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يا رسول الله . قال انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقتها ، يعدل كل ما ذكرت . فانصرفت وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قاله لها رسول الله <sup>(١)</sup> .

ولم تطغ هيبه عمر بن الخطاب ورهيبته على شجاعة المرأة ، فتسكت عما ترى في قوله من مخالفة القرآن ، والاتقاص من حقوق النساء ، في حين سكت الرجال . ذلك أن عمر قال : أيها الناس ما هذه الصدقات التي قد مددتم إليها أيديكم ؟ لا يبلغني أن أحداً جاوز بصدقه صداق النبي صلى الله عليه وسلم . فقامت امرأة برّزة فقالت : ما جعل الله لك ذلك يا بن الخطاب ، وقد قال الله عز وجل : « وإن آتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر : ألا تعجبون ؟ أمير أخطأ وامرأة أصابت <sup>(٢)</sup> .

(١) الاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ١٤٩ مخطوط ونزّهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع ٣٩ وصحيح مسلم .

(٢) الاستبصار في معرفة الأصحاب ١/٣٧٥ وبلغات النساء ١٢٨ .

## استمعوا كما بعقيدتها

إذا دان الإنسان بعقيدة وأشربتها روحه فأخلص لها ، ثم ابتلى فيها فنافح عنها بنفسه ودمه وماله ، فهو عزيز النفس ، قوى الشخصية ، ذو رأى يخضع له ، وليس إائعة تديعاً . فهو يلاحى عن عقيدته حتى يتبين له بطلانها فينزعها من نفسه غير آسف عليها .

كان كثير من رجال الجاهلية على ذلك ، فماذا كان نصيب النساء ؟  
١ - صبرن على الأذى ، وفدين عقيدتهن بأنفسهن إذا اعتصمن بالشرك ، وناخن عنه .

ولست أشيد بهن إعجاباً بعقيدتهن ، أو إشاراً لمن ، بل أريد أنهن صاحبات عقيدة ناخن عنها ، لأنهن في رأيهن الحق ، فلما استبان لمن ضالاهما ، وشرح الله صدورهن للإيمان سارعن إليه بقدر ما كن ينفرن منه ، وأخلصن له بقدر ما كن يبغضنه . وهن في هذا شبوهات بعمر ، كان من أشد المشركين بغضة للإسلام وللنبي ، فلما هداه الله إلى الحق كان أحد رجلين رجا المسلمون أن يعز الله بهما الإسلام .

وهؤلاء المشركات كثير ، منهن العَصَاء بنت مَرْوَان من بنى أمية ، كانت تحت يزيد بن يزيد بن حصن الخطمي ، وكانت تؤذى النبي وتعيب الإسلام ، وتعرض على الرسول ، وتهجو المسامين بشعرها ، كقولها :

فَبَاسَتْ بَنِي مَالِكٍ وَالنَّبِيتِ وَعَوَفٍ وَبَاسَتْ بَنِي الْخَزْجِ  
أَطْعَمَ أَتَاوَى مِنْ غَيْرِكُمْ فَلَا مِنْ مُرَادٍ وَلَا مَذْحِجٍ  
تَرْجُونَهُ بَعْدَ قَتْلِ الرَّءُوسِ كَمَا يُرْتَجَى مَرَقُ الْمُنْضَجِ<sup>(١)</sup>  
فَالَى مُعْمِرِ بْنِ عَدَى الْخَطْمَى أَنْ يَقْتُلَهَا إِذَا رَدَّ اللَّهُ الرَّسُولَ مِنْ بَدْرِ إِلَى  
الْمَدِينَةِ ، وَوَفَى بِنَذْرِهِ فَقْتُلَهَا ، وَأَشَادَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِعَمِيرِ .

ومنهن أم جميل بنت حرب بن أمية ، كانت زوجة لأبي لهب ، وقد

(١) الخبر ٢٨٣ والمغازي ٣ و ١٧٢ الأنابى : الرجل الغريب .



أظهرت صنوف العداوة للنبي ، وأثارت عليه حقد زوجها ، فانضم إلى أخيها  
أبي سفيان في مناهضته للدعوة . وكانت كسابقتها تهجو النبي بشعرها كقولها :

مُدَّيْنَا عَصَيْنَا وأمره أَيْبُنَا  
ودينيه قَلَيْنَا

وفيها وفي زوجها نزلت سورة المسد<sup>(١)</sup>

ولقد يسلّم ابنها وزوجها ، وتأنى هي الإسلام ، فقد أسلم الطفيل بن عمرو  
الدوسى ، وعاد إلى قومه ، ودعا أبويه إلى الإسلام ، فأسلم أبوه ولم تسلم أمه<sup>(٢)</sup> .

ولقد تعير زوجها إسلامه ، وتؤنبه وتنتقصه جبهة ، تريد أن يثبت على  
الشرك ، وأن يبلى في مكائفة الإسلام ، فإن زوجة العباس بن مرداس  
بنت الضحّاك بن أبي سفيان لما علمت بإسلام زوجها قوضت خيمتها ، وارتحلت ،  
وقالت تؤنبه وتهيجه بثنائها على المسلمين :

ألم ينفه عباس بن مرداس أننى	رأيت الورى مخصوصة بالفجائع
أتاهم من الأنصار كل سَمْدَع	من القوم يحمى قومه فى الوقائع
بكل شديد الموقع عَضْبٍ يقوده	إلى الموت هام المَقْرَبَاتِ البَزَائِعِ
لعمرى لئن تابعت دين محمد	وفارقت إخوان الصفا والصنائع
أبدلت تلك النفس ذلاً بعزة	غداة اختلاف المَرْهَفَاتِ القواطع
وقوم هم الرأس المتقدم فى الوغى	وأهل الحجا فينا وأهل الدسائع
سيوفهم عزّ الدليل ، وخياهم	سبهم الأعادى فى الأمور الفظائع <sup>(٣)</sup>

(١) تفسير الطبرى ٢١٩/٣٠ وسيرة ابن هشام ٣٧٨/١ مذمما : قال ابن إسحاق كانت  
قريش تسمى رسول الله مذمماً ثم يسبونه . وفى التاموس مادة ذم أن المذم المذموم جدا

(٢) الأغاني ٥١/١

(٣) الأغاني ٦٤/١٣ السميذع : السيد الكريم الشريف الشجاع . المقربات : جمع  
مقربة وهى الفرس التى يكرمها صاحبها ويقربها . البزائع : جمع بزيمة وهى الخفيفة وفى الأصل  
برائع وهى جمع بريعة أى فائقة الجمال . الصنائع : جمع صنعة وهى الإحسان والكرم .  
الدسائع : جمع دسيسة وهى العطية الجزيلة والمائدة الكريمة والقوة .

وفي يوم فتح مكة رأى أبو سفيان جيش المسلمين ، وأيقن أنه لاطاقة لقريش . به ، فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ( وكان قد سمع من النبي حين أسلم أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ) فقامت إليه امرأته هند ، فأخذت بشاربه وقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ، قُبِّحَ من طليعة قوم . فقال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم<sup>(١)</sup> . وفي رواية أنها قالت : اقتلوا هذا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، وفي أخرى أنها قالت : اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلا قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم<sup>(٢)</sup> ، وفي رابعة أنها أخذت برأسه وقالت له : بس طليعة القوم أنت ، والله ما خُدِشْتَ خُدْشاً ، يا أهل مكة عليكم الحميت الدسم فاقتلوه<sup>(٣)</sup> ، وتذهب رواية خامسة إلى أنها أخذت بلحيته فاطمته وقالت : اقتلوا الشيخ الأحمق فإنه قد صبا<sup>(٤)</sup> .

والروايات كلها توحى بمعنى واحد هو سخطها على زوجها ، ورميها بإسلامه ، وتغييره الجبن والخور ، وتحريضها على قتله .

على أن نساء ثقيف قد حزنَّ أشدَّ الحزن لما هدم الطاغية المغيرةُ بنُ شعبة وأبو سفيان بن حرب بأمر من النبي ، وخرجن حسراً يبكين عليها ، ويقان إنها كانت عظيمة تعبد وتدفع عنهن الشرور ، ويعين قومهن بالضعف والوؤم ، لأنهم لم يحسنوا الدفاع عنها :

(١) سيرة ابن هشام ٢٣/٤ الحميت : وعاء الدمن والرق الصغير والرق بلا شعر .  
الأحمس : إما أنها تريد أنه من الأحس وهم قريش وكنانته وجديلة ومن تابعهم لتجسسهم في دينهم ،  
وفي هذا تفضيع لإسلامه ، وإما أنها تتمك به ، لأن الأحس الشجاع . وأرجح أن الكلمة بحرفة  
أصلها الأحش بالسين وهو السمين لأن الحميش الشحم أو أن أصلها الأحمق بدليل الرواية الأخرى .

(٢) تهذيب الكامل ٦٣/١

(٣) لسان العيون ٩٤/٣

(٤) المغازي ٤١٣

أَلَا ابْكَيْنَ دُفَاعُ أَسْلَمَهَا الرُّضَاعُ  
لَمْ يُحَسِّنُوا الْمِصَاعُ<sup>(١)</sup>

ولما قبض رسول الله ذهب بنعيه إلى حضرموت رجل من كليب يقال له  
جَهْلِيل بن سيف ، وكان بها ست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موته ،  
ففرحن وخضبن أيديهن بالحناء ، وضربن بالدفوف ، وخرج إليهن بغايا  
حضرموت ففعلن كفعلهن ، وكانت البغايا نيفاً وعشرين امرأة ، فكتب امرؤ  
القيس بن عابس الكندي إلى أبي بكر :

شمت البغايا يوم أعان جَهْلِيلُ بنعياً أحمد النبي المهتدى

. . . . .

اشفر الغليل بقطعهن فإنها كالجر بين جوانحي لم تبرد  
وكتب إليه شداد بن مالك :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته أن البغايا رُمن كل مرام  
أظهرن من موت النبي شماتة وخضبن أيديهن بالعلمام  
فاقطع هُدَيْتَ أ كفن - بصارم كالبرق أومض في متون غمام  
فكتب أبو بكر إلى عامله على كندة أن يقطع أيديهن ، ففعل<sup>(٢)</sup> .

٢ - أسامت بعض النساء في مطلع الدعوة ، وكان منهن إماء ، ولكنهن  
صبرن وصابرن ، واحتملن صنوف الإيذاء والتعذيب ، وجهد ساداتهن في ردهن  
عن الإسلام فما استطاعوا . منهن أم عُبَيْس - أو عُنَيْس - ، وزَيْنَة ، وقد  
أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر ، فزعمت قريش أنه ما أذهب بصرها إلا  
اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ،

(١) تاريخ الطبري ١٤٢/٣ دُفاع : شىء عظيم يدفع به مثله . الرضاع : اللثام . المصاع :  
الضرب بالسيف .

(٢) المحبر ١٨٤ - ١٨٨ والقاموس مادة جهيل .

فرد الله بصرها . ومنهن النهديّة وبنتها ، وقد مرّ بهما أبو بكر حين بعثتهما سيديهما بطحين لها وهي تقول : والله لأعتقكما أبداً . فراجعها أبو بكر ، فقالت أنت أفستهما فأعتقتهما ، فأعتقتهما ومنهن جارية بنى مؤمل التي كان يعذبها عمر ابن الخطاب لتترك الإسلام ، ويضربها حتى إذا ملّ ضربها قال : إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول كذلك فعل الله بك ، فاشتراها أبو بكر فأعتقها . ومنهن أم عمار ابن ياسر ، كان بنو مخزوم يعذبونها برمضاء مكة إذا حيت الظهيرة فيمر بها — وبزوجها وابنها عمار — رسول الله فيقول : صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة . ولما ضاق بها بنو مخزوم قتلوها <sup>(١)</sup> .

وقد هاجرت بعض المسلمات مع أزواجهن إلى الحبشة ، وتركهن الوطن والأهل حفاظا على عقيدتهن ، وفرارا بدينهن ، كرقية بنت الرسول ، وسهيلة بنت سهيل بن عمرو ، وأم سلمة بنت أمية ، وليلي بنت أبي حثمة ، وأسماء بنت عميس ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، وأمينة بنت خلف ، وغيرهن <sup>(٢)</sup> . وقد آمنت أم كلثوم بنت عقبة وحدها دون قومها وهاجرت وحدها <sup>(٣)</sup> .

على أن المرأة التي أسلمت لم تكف باستمساكها بدينها وصبرها على الأذى ونزوحها عن الوطن ، بل لقد دافعت فيما بعد عن هذا الدين بيدها كما يدافع الرجال .

وبحسننا من التنويه بحمايتها لعقيدتها وتمسكها بها أن فاطمة بنت الخطاب بكرت إلى الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد ، وكان أخوها عمر لم يسلم ، وكان ذا شكيمة وقسوة على المسلمين ، فخرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهو يعترزم أن يقتل النبي ، لأنه في رأيه

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٠ - ٣٤٢

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٤ - ٣٥٣ ولإنسان العيون ١/ ٣١٩ .

(٣) الإصابة ٨/ ٢٧٥

صاني ، قد فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فعمل في طريقه أن أخته فاطمة وختنه سعيدا قد أساما ، فرجع إليهما ، وكان عندهما خَبَّاب بن الأَرْتَ يقرئهما صحيفة فيها سورة طه . فلما أحسوا به اختبأ خَبَّاب في مخدع ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت نخدها ، فبطش عمر بسعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه ، فضر بها فشجها ، فقالت له : قد أسامنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك . .

فلما رأى ما بأخته من الدم ندم ورق ، وطلب منها الصحيفة ، فقالت له : إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الظاهر . فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فقرأها وأسلم <sup>(١)</sup> .

أية شجاعة هذه ؟ لقد كان الرجال يرتعدون من عمر ، لأنه شديد التنكيل بمن أسلم ، وكان من المتوقع أن تكون أخته أشد فرقا منهم ، لأنها دانت بما يبغض ، وانحازت إلى ألدائه ، لكنها لم تهيب أخاها الجبار حين أسلمت ، ولم تفزع منه حين انكشف له إسلامها ، بل لقد جبهته بأنها أسلمت فليفعل بها ما يريد ، وجبهته بأنه مشرك لا يتسامى إلى أن يمس الصحيفة ، وكانت شجاعتها هذه نعمة وبركة ، لأن عمر أسلم حينئذ ، وأزر الإسلام بقوته وشخصيته وعبقريته .

### عزة نفسها

لم يُؤثر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع ، وإنما كانت كالرجل شمعا وإباء ، واعتزازا بالكرامة ، واعتدادا بالنفس .

ولقد يهبط الدهر بها من سماء الملك إلى ثرى الشعب ، وتتلفت حوا إليها فتجد الدولة غير الدولة ، والصولة غير الصولة ، لكنها تظل كما كانت عزيزة أبية

تَجِبُهُ الْوَالِي الْجَدِيدُ الظَّافِرُ بِمَا لَا يَتَوَقَّعُ . مِنْ ذَلِكَ أَنْ خَرَقَاءَ <sup>(١)</sup> بِنْتُ النِّعْمَانِ ،  
 أَوْ هِنْدَ <sup>(٢)</sup> بِنْتُ النِّعْمَانِ ، أَوْ الْخُرَقَةَ <sup>(٣)</sup> بِنْتُ النِّعْمَانِ لَقِيَتْ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ  
 أَمِيرَ الْقَادِسِيَّةِ بَعْدَ هَزِيمَةِ الْفَرَسِ وَقَتْلِ رَسْتَمٍ ، فِي حَشْدٍ مِنْ قَوْمِهَا وَجَوَارِيهَا ، فَقَالَ  
 سَعْدٌ : أَيَتَسَكَّنُ خَرَقَاءُ ؟ قَالَتْ : هَآنُذِهِ . قَالَ : أَنْتِ خَرَقَاءُ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَمَا  
 تَسْكَرُارُكَ فِي سُؤَالِكَ ؟ ثُمَّ قَالَتْ : إِنْ الدُّنْيَا دَارُ زَوَالٍ ، وَلَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ ،  
 كُنَّا مَلُوكَ هَذَا الْمِصْرِ ، يُجَبِّي لَنَا خِرَاجَهُ ، وَيُطِيعُنَا أَهْلَهُ ، فَلَمَّا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَانْقَضَى ،  
 صَاحَ بِنَا صَاحُ الدَّهْرِ ، فَصَدَعَ عَصَانَا ، وَشَتَّتْ شِمْلَنَا ، وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يَا سَعْدُ  
 لَا يَأْتِي قَوْمًا بِمَسْرَةٍ إِلَّا وَيُعَقِّبُهُمْ حَسْرَةً :

فَبَيْنَمَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأُمُورَ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوَاقَةٌ لَا نَعْرِفُ  
 فَافًّا لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّبُ تَارَاتُ بِنَا وَتُصَرِّفُ  
 فَأَكْرَمَهَا سَعْدٌ وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهَا <sup>(٤)</sup> .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ الَّذِي لَقِيَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَعْدَ فَتْحِ الْخَيْرَةِ ، فَقَالَ لَهَا :  
 أَسْمَى حَتَّى أَزُوجَكَ رَجُلًا شَرِيفًا مُسْلِمًا . فَقَالَتْ : أَمَّا الدِّينُ فَلَا رَغْبَةَ لِي فِيهِ  
 غَيْرَ دِينِ آبَائِي ( الْفَصْرَانِيَّةِ ) ، وَأَمَّا التَّزْوِيجُ فَلَوْ كَانَتْ فِيَّ بَقِيَّةٌ لِمَا رَغَبْتُ فِيهِ ،  
 فَكَيْفَ وَأَنَا عَجُوزُ هَرْمَةٍ أَتُرَقِّبُ الْمُنِيَّةَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَغَدٍ ؟ فَقَالَ : هَذَا فَرَضٌ عَلَيْنَا  
 أَوْصَانَا بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَتْ : مَا لِي حَاجَةٌ غَيْرَ هَذَا ، فَإِنِّي  
 سَاكِنَةٌ فِي هَذَا الدَّيْرِ الَّذِي بَنَيْتُهُ ، الْمَلَاصِقُ لِهَذِهِ الْأَعْظَمِ الْبَالِيَةِ مِنْ أَهْلِ ،  
 حَتَّى أَلْحَقَ بِهِمْ . فَأَمَرَ لَهَا بِمَعُونَةٍ وَكِسْوَةٍ . فَقَالَتْ : أَنَا فِي غِنًى عَنْهُ ، مَا طَلَعَتْ  
 الشَّمْسُ بَيْنَ الْخَوَرَنَقِ وَالْدَّيْرِ إِلَّا عَلَى مَا هُوَ تَحْتَ حَكْمِنَا ، فَمَا أَمْسَى الْمَسَاءُ

(١) مروج الذهب ١/٢٠٥ .

(٢) معجم البلدان ٤/١٨٣ والسكامل ١/٢٧٧ وتهذيب السكامل ٢/١١٩ والأغاني

١٣٦/١٤ .

(٣) نزهة الأبصار والأسماع ٣٥ .

(٤) مروج الذهب ١/٢٠٥ ونزهة الأبصار ٣٥ وخزانة الأدب ٣/١٨٢ .

حتى صرنا خولاً لغيرنا . وأنشدت البيتين السابقين <sup>(١)</sup> .

وروى أن المغيرة بن شعبة خطبها وهو وال على الكوفة ، وكانت مترهبة في ديرها ، وكانت قد عميت ، فقالت : لو كنت جئتني لجمال أو مال لأجبتك ، ولكنك أردت أن تتشرف بي في محافل العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان ابن المنذر ، وإلا فأى خير في اجتماع أعور وعمياء <sup>(٢)</sup> ؟ .

وإذا كانت عزة النفس قد تجلت في ابنة الملك فإنها قد تجلت في كثيرات من غير بنات الملوك ، من ذلك أن تغلى المرأة زوجها الذي فجعها بضرة ، كما فعلت زوجة زهير بن أبي سلمى <sup>(٣)</sup> ، وأن تنفر من السبي كما سبق في السباء ، وأن تثور لعدوان زوجها على كرامة قومها كما فعلت أخت كليب مع زوجها ليبد بن عنبسة <sup>(٤)</sup> .

ومن هؤلاء بنت السلمي ، فإن أباهما كان قد أخذ الشنفرى من بنى شَبَابَة بعد أسره وكفله حتى صار كابنه ، فقال الشنفرى لبنت السلمي يوماً : يا أختي اغسلي رأسي ، فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته <sup>(٥)</sup> .

ومنهن سلمى الكنانية ، فقد سباهها عروة بن الورد ، فأعتقها وتزوجها ، وعاشت معه بضع عشرة سنة ولدت له فيهن أولاداً ، ولكنها كانت ضيقة الصدر بهذه الحياة ، لأنها أنفت أن تقول النساء إنها سبية ، وأنفت أن يتزوجها عروة قسراً ، فاحتالت عليه ، حتى عادت إلى قومها ، واضطرت إلى تطليقها ، وتحسر في شعر <sup>(٦)</sup> .

(١) معجم البلدان ١٨٣/٤ .

(٢) الأغاني ١٤/١٣٦ والسكامل ١/٢٧٧ وتهذيب السكامل ٢/١١٩

(٣) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغاني ٩/١٥٠

(٤) كتاب بكر و تغلب ١٥ وأخبار المراقبة ١٩

(٥) الأغاني ٢١/٨٧

(٦) ديوان عروة ١١ والأغاني ٢/٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠

وكذلك فعلت امرأة تولت ، فلما فارقت حزن ونفت حزنه في شعر<sup>(١)</sup> .  
وقد ذكرت في السبايا أن فاطمة بنت الخرشب رمت نفسها من فوق جبل  
قيس من زهير فراراً بها من أن يسبها ، فيلحق بها وبأبنائها عار السباء<sup>(٢)</sup> .  
على أن عزة النفس تبدو في صنيع بهيئة بنت أوس الطائي ، فإنه لما تزوجها  
الحارث بن عوف ، أمر أبوها أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ، وأمر بييت  
فضرب لها ، وأنزلها وزوجها فيه ، فلما مد الحارث يده إليها قالت له : مه ، أعمد أبي  
وإخوتي ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحل بها ، ثم أراد أن يمسه في الطريق  
فرفضت قائلة : أكما يفعل بالأمه الجليمة أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنجر  
الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل مثلى<sup>(٣)</sup> .

## عفتها

١ — قامت الأخلاق العربية على دعائم ، منها الاعتزاز بالشرف ، والحرص  
على حسن الأحداث ، وسمعة الأسرة ، وصيانة المرأة ، فكان لا بد للرجال والنساء  
من العفة ، ومن التعفف ؛ لأن العدوان على العرض قد يجر ويلا ، ويشعل حرباً ،  
ولأن المجانة ليست من سمات السادة .  
لذلك أكثر الرجال من الفخر بعفتهم وبصياتهم حرمة جيرانهم<sup>(٤)</sup> ،  
وكثيراً ما مدحوا ورثوا بالعفة<sup>(٥)</sup> .

(٢) الأغاني ١٦/٢١

(١) الأغاني ١٩/١٥٩

(٣) الأغاني ٩/١٤٣

(٤) الأغاني ٣/٩٧ وديوان حاتم ٣ و ١٧ وديوان أوس بن حجر ٢٤ وديوان قيس  
ابن الخطيم ٥ و ١١ و ٢٩ وديوان عنزة ١٨٥ ومجالس تعاب ١/٢٥٣ وشعراء النصرانية  
١٢٢ و ٦٤٨ .

(٥) ديوان النساء ٦٨ و ٧٠ و ٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨ . وديوان الحرق ٩  
مخطوط ومراثي شواعر العرب ١٤٧

(٢٣ - المرأة في الشعر الجاهلي)



والعرب غير على النساء إلى حد المغالاة ، وهم يبيحون للرجل أن يذكر أى شئ إلا النساء ، وفي أمثالهم : كل شئ مَهْةٌ ما خلا النساء وذكرهن <sup>(١)</sup> .

لذلك لما نزل الخطيئة ببني مُقَلَّد بن يربوع وسأله عما يرضى وعما لا يرضى ، جاء في قوله : «ولا تجعلوا فناء بيتي مجاساً لكم ، ولا تسمعوا بناتي غناء شبابكم» <sup>(٢)</sup> .

ولذلك افتخروا بحماية زوجاتهم من العُيَّار ، كقول أحدهم في أمته أو في امرأته :  
حَمَيْتُ عَنْ الْعُيَّارِ أَطْهَارَ أُمِّهِ وَبَعْضَ الرِّجَالِ الْمُدَّعَيْنَ غُنَاءً <sup>(٣)</sup>

وهدد الأصبغ بن محصن مالك بن الصمصامة بالقتل إن عرض لأخته ، وبالأسر وجزَّ الناصية إن تغزل فيها ، فقال مالك :

فَمَا الْخَلْقُ بَعْدَ الْأَسْرِ شَرٌّ بَقِيَّةً مِنْ الصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ وَهِيَ قَرِيبٌ  
(٤) . . . . .

وهمَّ عبد الله بن الْمُضَرَّحَى أن يقتل ابن عمه لما رآه واقفاً يحدث أخته ، وكان قد أنذره من قبل <sup>(٥)</sup> .

٢ — في هذا المجتمع الذى يقدر العفة ، فيعف فيه الناس أو يتعففون ، ولا يجاهرون بالفحشاء إلا قلة من الشعراء جاهروا بفحشهم كما سبق ، في هذا المجتمع كانت عفة المرأة أعظم حلالها ، وأنغر خلالها ، وكانت المرأة العفيفة الممنعة هى المثل الأعلى فى نظر الرجال ، لأنهم كانوا يدينون بما قاله على بن أبى طالب من بعد : « خيارُ خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال

(١) أمثال الميداني ٧٠/٢ وجمهرة الأمثال ١٣٠/٢ مه : يسير محتمل

(٢) الأغاني ١٧٩/٢

(٣) شرح التبريزي للحماسة ١٤٣/١ غناء : ساقطون لاقية لهم

(٤) الأغاني ١٥٩/٢٠

(٥) الأغاني ٨٣/١٩

بعلها ، وإذا كانت جبانة فَرِقت من كل شيء يعرض لها «<sup>(١)</sup> .

ومن قديم قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هي الفراهة والجمال ، ومزاياها النفسية هي العفة والعمل في غير ابتذال ، وأن الأمم التي لاتعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة التي فقدها اللاسيديميون . Les. L'acédemoniens .<sup>(٢)</sup> .

وقد صرح سُئِكُ بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التي تجود بوصليها ، ويعلق بالمنعة التي لاتأتى ربية :

يَعَافُ وَصَالَ ذَاتَ الْبَذْلِ قَلْبِي وَأَتَبَّعَ الْمُمَنَّعَةَ النَّوَارَا<sup>(٣)</sup>  
٣ — وللعفة مظاهر شتى ، فقد تكون في أن تخالط المرأة الرجال وتحدثهم ، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول ، يقول في ذلك سويد بن أبي كاهل :

تُسْمَعُ الْخُدَّاتُ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْمَعْ<sup>(٤)</sup>  
ويقول كعب بن الزُّوَّاع :

وَيَخَالُهَا الْمَرْحُ السَّفِيهُ تَحِبُّهُ وَنَوَالُهَا غَيْرَ الْحَدِيثِ بَعِيد<sup>(٥)</sup>  
وقد تضرب عفتها وهيئتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجروا أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته ، وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبدة :

مُنْعَمَةٌ مَا يَسْتَطَاعُ كِلَامُهَا عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تَزَارَ رَقِيبٌ  
إذا غاب عنها البعل لم تُفَشِّ سره وَتُرْضَى إِيَّابَ الْبَعْلِ حِينَ يَثُوبُ<sup>(٦)</sup>

لذلك احترق الشعراء الغزلون بوهج الحرمان ، وطالما عبروا عن حرمانهم بشعر حزين ناطق بالآنين .

(١) شرح نهج البلاغة ٤/٣٤٦ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٠١ إبراهيم سلامة .

(٣) الأغاني ٤/٣٦٤ (٤) المفضليات ١/١٩٠ .

(٥) المؤلف والمختلف للآمدي ١٢٧ (٦) المفضليات ١٩١/٢ وديوان علقمة ٣ .

ولقد يفخر الزوج بعفة زوجته ، كقول معن بن أوس :

لعمرك ما عِرسى بدارٍ مَضِيعةٍ وما بها إن غاب عنها بخائف<sup>(١)</sup>

ولقد تفتخر هى بعفتها ، فقد قالت الخنساء لبنيها : « والله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أبأكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم »<sup>(٢)</sup> .

وقد شاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته ، لأنه يقاسم أخته ماله ، ويعطيها خير النصفين :

والله لا أمنحها شرارها وهى حصانٌ قد كفتنى عارها<sup>(٣)</sup>

وهم يعجبون بالمرأة الطيبة السمحة التى لا تناو لها الألسن ، يقول الشنفرى :

فيا جارتى وأنت غير مُلِمةٍ إذا ذُكِرَتْ ولا بذات تَلَفَتْ  
أُميمةٌ لا يُخزى نساها حليلها إذا ذُكر النسوان عَفَّتْ وجَلَّتْ  
إذا هو أُمسى أب قرّة عينه مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلت  
تَحُلُّ - بمنجاةٍ من اللوم - بَيْتَهَا إذا ما بيوتٌ بالملامة حُلَّتْ<sup>(٤)</sup>

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة ، منها أن سهيل بن مالك نزل ضيفا على أخت حارثة بن لأم - لأنه قصده فلم يجده - فأكرمه ، وراها جميلة ، فوقع فى نفسه منها شئ ، فجلس بفناء الحباء يوماً وجعل ينشد :

يا أخت خير البدر والحضاره كيف ترين فى فتى فزاره ؟  
أصبح يَهْوَى حُرّةً مِعْطاره إياك أعنى واسمعى يا جاره .

(١) ديوان معن ٣٥ .

(٢) طهارة العرب ١٥ .

(٣) الإصابة ٦٧/٨ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والخاصن والأضداد ١٤٣ .

(٤) الأغانى ٩١/٢١ والمعضليات ٦/١ ١ تحل بيتها : تنزله .

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنيهها ، فقالت : ما يقول هذا ذو عقل أريب ، ولا رأى مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما أقمت مكرماً ، ثم ارتحل متى شئت مساماً<sup>(١)</sup> .

بل لقد بلغت العفة بها أن تبغض من يسيء الظن بها وإن كان زوجها ، فقد شك الفاكه بن المغيرة في زوجته هند بنت عتبة - وكانت بريئة - وقضى الكاهن ببرائتها ، فأرادها الفاكه على أن تعود إليه فرفضته ، وتزوجها أبو سفيان<sup>(٢)</sup> .

وهي تأنف من الزنا وتجهر بذلك أمام الرسول ، بل تجد في المباشرة المشروعة شيئاً ، فكيف بالحرمة ؟ ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تلا على النساء اللاتي بايعنه : « ولا تزنين » قالت هند : وهل تزني الحرة ؟<sup>(٣)</sup> . وفي رواية أنها قالت : ما أقبحه حالاً فكيف به حراماً ؟<sup>(٤)</sup> .

٤ - ولست أريد بهذا القول أن أزعم للمرأة العربية طهارة الملائكة ، ونقاوة القديسات ، لأن المرأة كالرجل بشر يعتريه الشر ، وتسيطر عليه الغريزة ، فلا بد أن تجافى بعض النساء العفة ، فيعلم خبر بعضهن ، ويخفى خبر الأخريات ، ولكن المكشوفات والمستورات جميعاً قلة ضئيلة في المجتمع العربي القائم على الغيرة وحماية العرض والضم بالمرأة عن سوء الظن .

من هؤلاء فاقرة زوجة مروة الأسدي ، فقد غاب عنها أعواماً ، فبهوت عبداً لها كان يرعى ماشيتها ، وترددت طويلاً ، ثم لانت له . لكنّها ندمت فيما يزعمون فقالت : « خير قليل وفضحت نفسي » . وأقبل زوجها فعلم ، فشبهت شهقة أماتها . فقال مرة :

لحَا اللهُ رَبُّ النَّاسِ فَاقْرَ مَيِّتَةً وَأَهْوَنَ بِهَا مَفْقُودَةً حِينَ تُفَقِّدُ

(١) بحم الأمثال المبدائي ٤٣/١ (٢) المستطرف ٧٣/٢ وشرح نهج البلاغة ١١٢/١

(٣) الإصابة ٢٠٥/٨ والطبقات الكبير ٤/٨ (٤) ضهارة العرب ١٢ .

لعمرك ما تقتادنى منك لوعة ولا أنا من وجدٍ عليك مُسَهَّدٌ  
ثم قتل العبد<sup>(١)</sup> .

ومنهن رقاش الطائية ، كانت زعيمة في قومها تغزو بهم ، وكانت كاهنة لها .  
حزم ورأى ، زعموا أنها حملت من خادمها — وكان أسيراً جميلاً من إباد —  
فدعاها قومها للغزو فأمرتهم حتى تضع ، فلما وضعت قال شاعرهم :

نُبْتُ أَنْ رِقَاشَ بَعْدَ شِمَاسِهَا حَبَلْتُ وَقَدْ وَلَدْتُ غَلاماً أَكْهَلَا  
فَاللَّهُ يُحْظِيهَا وَيَرْفَعُ بُضْعَهَا وَاللَّهُ يُلْقِيهَا كِشَافاً مُقْبَلَا  
كَانَتْ رِقَاشُ تَقُودُ جَيْشاً جَحْفَلَا فَصَبَّتْ وَأَخْرَجَتْ بَنَ صَبّاً أَنْ يَحْمَلَا<sup>(٢)</sup>

#### ٤ — قصة الفطيرة :

أما اسم هذا الرجل فمختلف فيه ، أهو الفِطِيُون<sup>(٣)</sup> أم القَيْطُون<sup>(٤)</sup> ، أم  
القَيْطُون<sup>(٥)</sup> ، أم القَيْطُور<sup>(٦)</sup> .

والراجح أن أى كلمة من هذه ليست علماً عليه ، لأن الكلمة إن كان  
يهودياً تدل على من رأس اليهود وولى أمرهم ، كما أن النجاشى تدل على من  
ملك الحبشة<sup>(٧)</sup> .

وأما القصة فملخصها أنه كان ملكاً على يهود المدينة ، وكان يفتنُّ العرائس  
قبل أزواجهن ، سواء أ كن عبريات أم عربيات ، فلما تقوى الأوس والخزرج  
وتزعمهم مالك بن العجلان ، وتزوجت أخته فضلاء أنفت أن يفعل بها ما يفعل  
بغيرها ، واستشارت أخاها ، فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على

(١) مجمع الأمثال العبدانى ٢٢/١

(٢) مجمع الأمثال ٢٢٣/١

(٣) الروض الأنف ٢٤/٢ ومعجم البلدان ٢٨/٧ والحاسن والأضداد ٢١٦ .

(٤) معجم البلدان ٢٩/٧ ومعجم ما استعجم ٣٧١/٢ وخلاصة الوفا بأخبار دار المعطى ٨٤ .

(٥) خلاصة الوفا ٨٣ والأخبار الطوال للدينورى ٤٣ . والبده والتاريخ المقدسى .

(٦) خلاصة الوفا ٧٩ .

(٧) الروض الأنف ٢٤/٢ .

القطيوني فقتله<sup>(١)</sup> .

وفي رواية أخرى أن القيطوني ابن عم أسعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك ابن صُيُح ، وكان ملكاً على تهامة والحجاز من قبل ابن عمه أسعد ، ثم نزل يثرب واعتدى وتجبّر ، حتى أمر ألا تهدي امرأة إلى زوجها قبل أن يبدؤوه بها ، إلى أن زوجت أخت مالك بن العجلان فقتله مالك ، وعلم أسعد بن عمرو بذلك ، فسار إليهم وانتقم منهم<sup>(٢)</sup> .

وقد رووا قصة أقدم من هذه وشبيهة بها ، نسبوها إلى عَمَلِيق - أو عَمْلُوق - ملك طسم وجديس ، وقالوا إنه بلغ من طفيلانه ألا تزف امرأة من جديس قبل أن يبدأ بها ، ثم قتله رجل من جديس ، بعد أن هاجته أخته الممتدى عليها ، واستنجدت جديس بملك اليمن أو ملك نجران - ذو جيشان أو ذو حسان أو حسان - فانتقم من جديس<sup>(٣)</sup> .

وهذه القصة وتلك تغايران ما كان العرب يأخذون أنفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وشراء العرض بالمهيج والأرواح . فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملك ونجوره بيناتهم حيناً من الدهر ، حتى يقبض الله لهم رجلاً منهم يتفكر ليفتال الملك العاهر .

وإن كان القطيوني يهودياً فليس ميسوراً له أن يستبيح هذا العمل البشع المنافي لدينه ، دون أن يجد حرداً ومقاومة عنيفة من شعبه ورجال دينه ، على أن اليهود

(١) خلاصة الوفا ٧٩ - ٨٠ و ٨٢ - ٨٤ ومعجم البلدان ٤٢٨/٧ والروض الأنف

٢٤/٢ والبدء والتاريخ للعقدي .

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ٤٣ .

(٣) مروج الذهب ٢٤٣/١ والأخبار الطوال ١٧ والمعارف ٢١١ وأخبار النساء ١٦ والأغاني ١٠/٤٥ - ٤٧ ومعجم البلدان ٥١٦/٨ وخزانة الأدب ٨٩/٢ والحاسن والأضداد ٢١٤ وتاريخ حضرموت السياسي ٣٦ ومنتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لشوان الحميري ١٧ .

بالمدينة لم يكن عليهم ملك فى أى عهد من عهودهم .

وبين القصتين تشابه أو تماثل تام ، فكل من الرجلين طاغية ، وكل منهما يفتزع العرائس قبل أزواجهن ، والناس يسكتون على هذا الجبروت ردحا من الزمان ، ثم تستثير أخت أخاها فى القصتين ، فيقتل الملك الظالم ، وبعد مقتله يستنجد الأقربون إليه بملك آخر . وهذا التماثل التام يحمل على استبعاد القصتين كليهما ، بهذا التفصيل .

على أن أوروبا كانت تخضع لمثل هذا النظام فى عهد الإقطاع ، فكان للسيد فى أوائل هذا العهد حق الليلة الأولى ، وذلك أنه يجوز له أن يفض بكارة العروس قبل أن يباشرها زوجها ، وربما كان السيد يمثل فى ذلك حقوق القبيلة القديمة <sup>(١)</sup> .

وذكر المستشرق جورج سميل أن مثل هذا كان شائعا فى بعض مقاطعات إنجلترا وأسكتلندا فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الميلاد <sup>(٢)</sup> . وكان الليبيون يقدمون العذارى وهن على أهبة الزفاف إلى الملك ، فمن أعجبته افتضاها <sup>(٣)</sup> .

## حيائها

حياء المرأة وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، والحياء يتناول مالا تتناول العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ، ولكنها تبدى بعض محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، وتخضع فى القول ، ولكنها المرأة الحمية لا تفعل ذلك وقد اتهم شو بنهور المرأة بأنها أقل حياء من الرجل ، لأنها لا تعرف الحياء بمعزل من غريزة الاحتجاز الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ، فيستترون فى الحمامات العامة ، ولكنها المرأة لا تستتر على المرأة إلا لعيب

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ١ / ٦٨

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٧ : دائرة المعارف للإبستانى ٩ / ٣٣٧

جسدى تواريه<sup>(١)</sup>. لكن ذلك موضوع نظر، لأن المرأة تستجى حيث لا احتجاز، ولأن بعض النساء لا يستجى من بعض، كما أن بعض الرجال لا يستجى بعضهم من بعض، ولكن النساء يستحين من الرجال. وحياء المرأة من مكالاتها الخلقية فى نظر الرجل، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها، وقد أعجب به العرب، لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة. قال أوس بن حجر إن خسكهن تبشم:

نواعم ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوالف<sup>(٢)</sup>  
وقال حاتم:

يضىء لها البيت الظالم خصاصه إذا هى يوماً حاولت أن تبسما<sup>(٣)</sup>  
وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مقنعة لا تتلفت، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء ضائع، وإذا كلت رجلاً أوجزت:

لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلتفت  
كأن لها فى الأرض نسيّاً تقصه على أمها وإن تكلمك تبئت<sup>(٤)</sup>  
وقال عنتره إنهما غضيصة الطرف<sup>(٥)</sup>، ومدحها الأعشى بأنها لا تتجسس على أخبار جاراتها، ولا تختل أسرارهن<sup>(٦)</sup>.

ولقد شهد أعداء القوم بعة نسائهم، فقد سبى زهير بن جنداب نساء من غطفان، ثم رد إليهم السبايا، وقال من قصيدة:

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأحرزت النساء  
فولوا الفضل منا ما رجعتن إلى عذراء شيمتها الحياء<sup>(٧)</sup>

(١) هذه الشجرة ١٢١ العقد (٢) ديوان أوس بن حجر ١٤

(٣) الأغاني ١٥ / ١٥٩

(٤) الأغاني ٢١ / ٩١ والفضليات ١ / ١٠٧ ومحاضرات الأدباء ٢ / ١٣٦ النسي: الشيء المفقود. تقصه: تبحث عنه. أمها: قصدها الذى تريده. تبئت: تقطع كلامها لأنظيها

(٥) ديوان عنتره ١٤٣ (٦) شعراء النصرانية ٣٦٧

(٧) السكامل لابن الأثير ١ / ١٧٩



## كرمها

اشتهر العربي بكرمه وبشجاعته ، وكان الكرم والشجاعة معاً الفصيلتين ،  
الكبريين في الحياة البدوية ، وكانت المرأة كريمة وإن لم تبلغ الرجل في كرمه .  
فمثلاً كانت غنيّة بنت عفيف أم حاتم الطائي من أسخى النساء ، وأقراهن للضيف ،  
وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها  
مالها ، فحكمت دهرّاً لا تنال يدها شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها  
قد وجدت ألم الحاجة وارعوت ، أعطوها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من  
هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصِرْمة نخذيها ،  
فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ، ثم  
أنشأت تقول :

لعمري لقد عَضَّي الجوع عضة      فآليت ألا أمنع الدهر جائعاً  
فقلوا لهذا اللائم اليوم أعفنى      فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابع  
فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم      سوى عدلكم أو عدل من كان صانعاً  
وماذا ترون اليوم إلا طييمة      فكيف بتركي يابن أم الطبايعاً<sup>(١)</sup> ؟  
وكانت سقانة بنت ابنها حاتم كجدها وكأبيها في الجود ، وكان أبوها يعطيها  
الصِرْمة من الإبل فتبهبأ الناس ، فقال لها أبوها ، يابنية إن الغويين إذا اجتمعوا في  
المال أتلغاه ، فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أمسك وتعطي ، فقالت : والله  
لا أمسك أبداً . فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً . قالت : فلا تتجاوز . فتقسمها  
ماله وتباينا<sup>(٢)</sup> .

وكانت تُبَيِّنُ من شاعرات العرب وكرمائهن ، وكان زوجها كريماً لم ،

يوجد أكرم منه في زمانه ، وقد أتاه أخو امرأته يوما فأعطاه بعيراً من إبله ،  
وقال لامرأته : هاتى حبلاً ، فقالت : ما بقى عندى حبل ، فقال : على الجمال  
وعليك الحبال ، فرمت إليه خارها وقالت : اجعله حبلاً لبعضها وأنشدت :

حلفت يمينا يابن قُحْفَانَ بالذى      تَكْفَلُ بالأرزاقِ فى السهلِ والجبلِ  
تَزَالُ حِبَالُ مُحَمَّدَاتٍ أَعِدُّهَا      لها مامشى منها على خفه جملِ  
فأعط ولا تبخل لمن جاء طالباً      فعندى لها خُطْمٌ وقد زالت العلل<sup>(١)</sup>

وقد نزل ببعضهن ضيفان فأكرمهم ، مثل أخت حارثة بن لأم<sup>(٢)</sup> ، وشذرة  
أم الزبرقان بن بدر ، فقد أكرمت الخطيئة وأولاده ، وقيل إن التى أكرمتها  
هنيذة بنت صعصعة زوجة الزبرقان<sup>(٣)</sup> .

لكن الأنباء عن كرمها قليلة ، لأنها أقصر باعاً من الرجال فى هذا المجال ،  
ذلك بأن مالها أقل ، وهى فى أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب ،  
ثم إنها ليست مختلطة بالرجال اختلاطاً يبعثها على الكرم ويمهد أمامها الطريق  
إلى الشهرة به .

## بجملها

١ - أسلفت المقال فى أن المرأة كانت ضئيلة بمال زوجها ، حريصة على  
مال ابنها وأخيها ، وأنها طالما لامتهم فى الكرم ، وطالما لامتهم فى الخمر والميسر  
وإشار الخيل بالعناية ، لذلك يقول زهير فى مدح حصن بن حذيفة بن بدر :  
بكَرْتُ عليه غَدْوَةً فوجدته      قعوداً لديه بالصَّريمِ عواذله  
يُفَدِّينُهُ طَوْرًا وطوراً      يلهنه وأعيافاً يدرين أين مخاتله

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٦٧/٤ خطم : جمع خظام ما يوضع فى أنف الجمل

(٢) الأغاني ١٨٠/٢

(٣) بجم الأمثال ٤٣/١

فأعرضن منه عن كريم مُرَرّاً جُمُوع على الأمر الذي هو فاعله<sup>(١)</sup>  
وقد عاتبت سلمى بنت الأسود بن يَعْفَر أباها على إضاعته ماله فيما ينوب  
قومه من ديات ، وما يمنحه فقراءهم ويعين به مستمنحهم ، فقال لها :

وقالت لا أراك تُليقُ شيئاً أتُهلك ما جئت وتستفيد؟<sup>(٢)</sup>

٢ — وقد تحدث الشعراء عن لوم الزوجات والأمهات والبنات والأخوات  
في البذل ، وأكثروا من هذا الحديث كما سبق في فصول الأم والزوجة والبنات  
والأخت . ولا شك أنهم صادقون فيما حدثوا ، وإلا فكيف يفترى إنسان على  
أمه وبنته وزوجته وأخته فيصمها بالبخل ، وهو يعلم أن في هذا منقصة له ؟

وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامته على الكرم ، وأنه خالفها ،  
ايتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم كرمه والفخر بنفسه ، لأن هذا التخيل نفسه  
منقصة له . إذاً كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما  
كان هذا منهن حرصاً على مال الرجال ، وربما كان بخلاً .

ومهما يكن من شيء فإن النساء كن أقل من الرجال كرمًا ، وكن أحرص  
على المال منهم ، ولعل أسباب ذلك أنهن أحفل بالثروة ، وتنميتهن ، وأنهن  
لا يخالطن الناس كما يخالط الرجال ، فلا يخفان بأحاديث الكرم كما يخفلون ، ثم  
لأنهن أحسن تدبيراً للمال من الرجال ، وهن ربات البيوت يباشرن حاجتهن ،  
ويعدن طعامها ، ويفسكن في غدها ، ثم إنهن أميل إلى الجانب العملي ،  
فلا يخفان بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ، بينما قد يغفل الرجل عن غده  
وهو في نشوة الثناء وأريحية العطاء ، وأخيراً هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنيهن ،  
والرجال كثيراً ما يؤثرون غيرهم على أنفسهم .

(١) شرح ديوان زهير للشلب ١٤٠ وشعراء النصرانية ٥٧٩

(٢) الأغانى ١١/١٣٣

فليس بعجيب أن يكنَّ أحرص من الرجال على المال ، وأن يدبرن للأبناء  
طعامهم ، ويقتصدن فيما يقدمن لهم إلى حد الإقلال أحياناً ، يقول الشنفرى :  
وأثم عيال قد شهدت تقوُّهُمُ إذا أطعمتهم أو تحَّتْ وأقَلَّتْ  
تخاف علينا العيَل إن هي أكَثَرَتْ ونحن جياغُ أى آل تألَّتْ  
وما إن بها ضنُّ بما فى وعائها ولكنهما من خيفة الجوع أبقت<sup>(١)</sup>

### بين أهدر فرها فى الإسلام وفى الجاهلية :

١ — ذاعت شجاعة كثيرات من المسلمات ، كأم الخير بنت الحرَّيش  
البارقية ، فقد حرّضت جند عليّ يوم مقتل عمّار بن ياسر على معاوية ، ولما آلت  
الخلافة إليه بعث إليها ، وذكرها خطبتها الحماسية الثائرة ، وقال لها : والله لو قتلتك  
ما حرّجت فى ذلك . فقالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يجرى الله ذلك على  
يدى من يسعدنى الله بشقائه<sup>(٢)</sup> .

ومثابها سودة بنت عمار ، حرّضت المسامين يوم صفين على قتال معاوية  
بأبيات منها :

شمر كفعل أيبك يابن عمار واقصد لهند وابنها بهوان  
ثم وفدت على معاوية فى خلافته فذكرها ما قالت ، فقالت : إى والله  
ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب . . . . .<sup>(٣)</sup> .

وكذلك فعلت الزرقاء بنت عدىّ الهمدانية فى يوم صفين ، وقال لها معاوية  
لما أوفدت عليه : قد أشار علىّ بعض من عرفك بقتلك ، فقالت له : لئوم من

(١) المعضيات ١ / ١٠٨ أو تحت : أعطت قليلا العيل والميلة : الفقر . أى آل تألَّت :  
أى سياسة ساست .

(٢) بلاغات النساء ٤١ ، والعقد الفريد ١ / ٢١٧

(٣) العقد الفريد ١ / ٢١١ وبلاغات النساء ٣٥ .

المشير ، ولو أطعته لشاركته<sup>(١)</sup> .

ومثلهن آمنة بنت الشريد ، ولها مع معاوية حوار طويل يدل على الجرأة والاعتزاز<sup>(٢)</sup> .

٢ — ومن الأمثلة العالية في الاستمساك بالعقيدة والدفاع عن الرأي وفي الشجاعة العظمى أسماء بنت أبي بكر ، فقد دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير بعد ماخذله الناس ، فشكا إليها ، واستشارها فقالت : « إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تقل إني كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي ، فليس هذا فعل الأحرار ، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة سوط في ذل » . قال : إثم أخاف أن يمشوا بي . قالت : يا بني إن الشاة لا تألُم السليخ بعد الذبح<sup>(٣)</sup> .

٣ — وذاع كرم كثيرات من المسلمات ، وإذا كان كرم الجاهلية يراد به أحياناً حسن الأحدوثة ، والتباهي ، وتجنب اللوم ، فإن كرم المسلمات كان ابتغاء وجه الله ، وكان عطفاً على المحتاجين . فقد حدث البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلهن في الصدقة ، فأخذن ينزعن الفتخ وأخواتهم وأخترص والسحاب والقرطة والعقود والأطواق والخلائيل ويلقنهن في ثوب بلال ، وكان قد بسط ثوبه ليضمن فيه صدقاتهن<sup>(٤)</sup> .

وكذلك فعلت النساء لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ إِنِ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدَّقَاتُ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ 》 .

(١) العقد الفريد ١ / ٢١٣ و بلاغات النساء ٣٧

(٢) أعلام النساء ١ / ٤ - ٦ .

(٣) بلاغات النساء ١٣٠ - ١٣١ وتاريخ الطبري ٧ / ٢٠٣

(٤) فتح الباري ١٠ / ٢٧٨ الفتخ : جم فتخة الحاتم الكبير في اليد أو الرجل أو الحلقة من فضة كالحاتم لا فص له . الخرس : حلقة الذهب والفضة أو الحلقة الصغيرة من الحلي . السحاب : قلادة من مسك وقرنفل ومحب بلا جواهر .

وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عائشة كانت صائمة ، وقد بعث إليها ابن الزبير نحو مائة ألف ، فتصدق بها . فلما دنا الإفطار طلبت من أم ذرّة أن تأتيها بإفطار ، فقالت أم ذرّة : أما استطعتِ فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنفيني ، لو كنت أذكرتني لفعلت <sup>(١)</sup> . ويذكر أنها تصدقت بسبعين ألفاً وإنما لترقع جانب درعها <sup>(٢)</sup> .

وقد اشتهرت بالكرم كثيرات مثل زينب بنت جحش ، وسكينة بنت الحسين ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية <sup>(٣)</sup> .

٤ — أما عفتهم في الإسلام فليست في حاجة إلى بيان ، لأن الإسلام حاط المرأة والأسرة بسياج حتمين من العفة والحياء .

٥ — والذي أستخلصه من أخلاقها في الجاهلية وفي الإسلام أن الإسلام قوى في المرأة بعض الفضائل ، فرغبها في الكرم على أنه صدقة وقربى إلى الله . وواجب اجتماعي على الأغنياء الفقراء ، وزادها حرصاً على العفة بحضه عليها ، وتشديده العقاب للزاني والزانية ، ونمى حيائها ، وأبقى على أخلاقها الأخرى من الشجاعة والاستمساك بالعقيدة ، وعزة النفس . ثم حلاها بنوع آخر من الفضائل كالصبر والقناعة والصفح ، وحرّم فجور الإماء وكسب البغايا . فلم يكن في أميات فضائل المرأة المسلمة خلق جديد لا عهد لها به ، وحسبها انخراطاً في الأخلاق العالية التي دعا إليها الإسلام كانت من حلاها . وليس طبعياً أن تكون المرأة في الجاهلية محرومة الأخلاق الكريمة ، ثم نراها تتصف بها في مطلع الإسلام ومستقبله ، لأن الجديد من الأخلاق محتاج إلى أن يعمر طويلاً حتى يصير خلقاً عاماً « ويجب لكي يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر في تكوين العرق — وهو نوع من الناس ذوي أخلاق مشتركة تتنقل إليهم بالوراثة المنتظمة —

(١) الطبقات ٨ / ٤٦ والإصابة ٨ / ١٤١ (٢) الطبقات ٨ / ٤٥

(٣) الإصابة ٨ / ٩٢ وبلاغات النساء ١٢٩ والطبقات الكبرى لابن سعد .

أن يتوالى التطور بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قرونا كثيرة، سائراً نحو غرض واحد<sup>(١)</sup> .

فلم يكن مستطاعاً أن ينسلخ العرب نساء ورجالا من أخلاقهم الجاهلية أنسلاخاً تاماً على أثر اعتناقهم للإسلام ، لأن ذلك الانسلاخ يقتضى زماناً طويلاً لتتحول الأخلاق في تودة « وعلى ما في السجيا الخلقية من الثبات تراها تقدر كالصفات الجثمانية أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل ، ولا سيما بالبيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد »<sup>(٢)</sup> . وإن خروج الأفسكار من عقول الجماعة صعب كدخولها<sup>(٣)</sup> . وقد جاء الإسلام فوجد في العرب فضائل وذرائل ، أما الفضائل فشجعها ونماها ، وأما الرذائل فأبطلها وحرّمها ومحّاها .

فأيس بصحيح « أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفطن وما جرى في هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح النساء به لكان نقصاعليهن وذما لهن »<sup>(٤)</sup> . لأن الجود والوفاء والشجاعة والاستمسالك بالعقيدة والعفة فضائل يمدح بها الرجال ، وقد مدحت بها النساء في الجاهلية والإسلام .

(١) حضارة العرب : لوبيون ٧٨ . (٢) حضارة العرب : لوبيون ٨١ .

(٣) روح الاجتماع : جستاف لوبيون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩ .

(٤) زهر الآداب للحصري ٢ / ٥٥ .

## الفصل الثاني

# المرأة سافراً ومهجبة

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامي والعربي ردحاً من القرن العشرين ، واحتكم أنصار السفور إلى التاريخ وإلى الدين ، واستند أنصار الحجاب إلى التاريخ وإلى الدين ، ثم قضى التطور بالقلب لدعاة السفور ، فسفرت نساء في مصر وفي غير مصر ، لكن الحجاب ما زال صفيقاً في بعض البلاد العربية ، رقيقاً في بعضها الآخر .

كذلك كان شأن السفور والحجاب في العصر الجاهلي ، فنحن نجافى الحق إذا زعمنا أن النساء العربيات كن كلهن سوافر ، ونحن نجانب الصدق إذا حكمننا بأنهن كلهن محجبات ، لأن العربيات مارسن السفور ، ومارسن الحجاب .

### السفور

١ — كان كثير من النساء سوافر مكشوفات الوجوه ، إذ لم يكن بين رجال العرب وبعض النساء حجاب ، « ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلمتة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . ثم كانت الشرائف من النساء يعمدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً »<sup>(١)</sup>.

(١) رسالة القيان من ثلاث رسائل للجاحظ ٥٦



وقد ذكر الأصمعي أن المرأة كانت تلتقي خمارها لحسنها ، وهي على عفة<sup>(١)</sup> .  
وكانت نساء الأنصار لا يحتلمن ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن  
إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين  
يبدنن عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً  
رحيماً ﴾<sup>(٣)</sup> . ما يثبت أن بعضهن كن سافرات ، لأن الغرض من الآية أن يأمر  
النبي الذنوة الحرائر ألا يتشبهن بالإماء في ملابسهن إذا هن خرجن من بيوتهن  
لحاجتهن ، فلا يكشفن شعورهن ووجوهن ، بل يجب عليهن أن يبدنن من  
جلابيبهن ؛ لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول ، إذا علم أنهن حرات<sup>(٤)</sup> .

٢ — وكان بعضهن قد أسرفن في سفورهن وتبرجهن ، فنهاهن الله  
عن ذلك بقوله لنساء النبي : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية  
الأولى ﴾<sup>(٥)</sup> . ولم يتفق المفسرون على زمن الجاهلية الأولى ، فهي القديمة التي  
كانت في زمن إبراهيم عليه السلام ، أو هي التي بين آدم ونوح ، أو بين إدريس  
ونوح ، أو هي زمن داود وسليمان . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد .  
وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر ، وقيل إن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل  
الإسلام ، وليست لها أخرى ، وإنما أريد بالأولى الجاهلية القديمة<sup>(٦)</sup> . وقيل إن  
الجاهلية الأولى كانت قبل الإسلام ، وفي الإسلام نفسه أخلاق منها ، فقد قال  
النبي لأبي الدرداء - وقد قال لرجل ينازعه يا بن فلانة لأم كان يعير بها  
في الجاهلية - يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية . قال : أجاهلية كفر أم إسلام ؟

(١) شرح المفصليات لابن الأنباري ١ / ١٢٠

(٢) سورة النور ٣١ (٣) سورة الأحزاب ٩٥ (٤) تفسير الطبري ٢٢ / ٣٣

والنيسابوري ٢٢ / ٣٢ والرازي ٥ / ٢٤٩ والطبقات الكبير ٨ / ١٢٧

(٥) سورة الأحزاب ٣٣ (٦) تفسير النيسابوري ٢٢ / ١٠

قال : بل جاهلية كفر . وقال النبي : ثلاث من أهل الجاهلية لا يدعهن الناس :  
الطعن بالأنساب ، والاستمطار بالكواكب ، والنياحة<sup>(١)</sup> .

والذى أرجحه أن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، لأن القرآن  
ينهاهم عن عمل شهدوه أو سمعوا به ، وليست كلمة ( الأولى ) مقابلة لكلمة  
( الأخرى ) التى يتوقعها السامع ، بل هى وصف للجاهلية دال على أنها مضت  
وولى عهدا . وهذا التعبير شبيه بقول الشاعر : « على لاحب لا يهتدى بمناره »  
فليس المراد أن فى الطريق مناراً لا يهتدى ، وإنما المراد أنه طريق لا منار فيه  
يهتدى به السائر ، وكقول الشنفرى فى لاميته ( ولست بمحيار الظلام<sup>(٢)</sup> ) .

فظاهر لفظه أنه لا تبلغ منه الحيرة ما تبلغه ممن اشتدت حيرته فى الظلام ،  
ولكن هذا ليس مراده ، وإنما مراده أنه لا تقع له حيرة أصلاً .

ومهما يكن من أمر الجاهلية الأولى فقد بالغوا فى تشويهها بمبالغة بعيدة  
من الصواب ، فزعموا أن المرأة كانت فى هذه الجاهلية تلبس درعا من اللؤلؤ ،  
فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال<sup>(٣)</sup> .

والصحيح أن المراد بالتبرج فى الآية الكريمة التبختر والتكسر فى المشية ،  
والخضوع بالقول ، وإظهار الزينة والحاسن للرجال<sup>(٤)</sup> ، فقد روى عن قتادة  
أنهن كانت لهن مشية وتكسر ، وروى عن ابن نَجَّيْح أنهن كن يتبخترن ويظهرن  
ويبرزن محاسنهن<sup>(٥)</sup> . «

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر هنا خاص بنساء النبي ، فظللن على  
سفورهن ، مثل سكيمة بنت الحسين<sup>(٦)</sup> وروى عن عطاء أنه كان يكره أن

(١) تفسير الطبرى ٤/٢٢

(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزعشمى ٢٣ (٣) التيسابورى ١٠/٢٢

(٤) لسان العرب مادة برج (٥) الطبرى ٤/٢٢ (٦) الأغاني ١٥٩/١٤

تطوف المرأة بالبیت وهي منتقبة ، حتى أخبرته صفية بنت شيبة أنها رأت عائشة تطوف منتقبة ، فرجع عن رأيه<sup>(١)</sup> ورويت عن عائشة أخبار عدة تثبت أن بعض النساء كن يسفرن ، من ذلك قولها إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجُور فششقنهن فاتخذن خمرًا<sup>(٢)</sup> . وقولها يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وليضرن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكشف مروطن فاختمرن بها<sup>(٣)</sup> . وقد دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق يشف عن جيبيها ، فشقته عائشة وأبدلتها به خماراً كشيفاً<sup>(٤)</sup> .

وروى عن أم سلمة أنه لما نزلت : « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية<sup>(٥)</sup> .

٣ — وكانت هنالك حالات لامندوحة فيها عن السفور حتى من المحجبات ، فكن يسفرن في المناحة ، لأن الفجیعة والحزن والنواح تنحرف بالمرأة عما اعتادت من تستر وتقمع ، يدل على ذلك قول مهلهل في رثاء كليب إنهم كانوا يفارون على نسائهم أن يبرزن من خدورهن ، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حلين :

كننا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجةً عن الأوطان  
نخرجن حين ثوى كليب حُسرًا مُستَيَقنات بَعْدَهُ بهوان  
فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعُهُ من الأكفان  
يخمشن من آدم الوجوه حواسرا من بعده وَيَعْدُنَ بالأزمان<sup>(٦)</sup>  
وقوله :

وإذا تشاء رأيت وجهاً وانحما وذراعاً باكية عليها بُرُئُسُ

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٠/٢ (٢) سنن أبي داود ١١٨/٢ حجور : جمع حجر وهو ما بين اليدين من الثوب (٣) المرجع السابق ١١٩/٢ وتفسير الطبري ٩٤/١٨ (٤) الطبقات الكبير ٤٤/٨ (٥) سنن أبي داود ١١٨/٢ (٦) الكامل لابن الأثير ١٨٩/١ وشعراء النصرانية ١٦٢ عواتق : جمع عاتقة وهي التجارية أول ما أدركت أو التي لم تتزوج

تبكى عليك ولست لأثم حرة      تأسى عليك بعبرة وتنفّس<sup>(١)</sup>  
وقول الربيع بن زياد العبسي :

من كان محزوناً بمقتل مالك      فليأت نسوتنا بوجه نهار  
يخمد النساء حواسرا يندبنه      يطمئن أوجههن بالأسحار  
قد كن يخبان الوجوه تسترا      فاليوم حين برزن للنظار  
يضر بن حرّ وجوههن على فتى      عفّ الشائل طيب الأخبار<sup>(٢)</sup>

وكن يسفرن إذا أيقن هزيمة قومهن وخشين السبي ، فيتشبهن بالإماء حتى  
يزهد فيهن ، ويتأهبن للفرار سافرات ، يقول قيس بن الخطيم :

صَبَحْنَا كَمْ شَهَاءٍ يَبْرِقُ بَيْضُهَا      تُبِينُ خَلَاخِيلَ النِّسَاءِ الْهَوَارِبِ<sup>(٣)</sup>  
وقوله الأفوه الأودي :

يوم تُبْدِي البَيْضَ عَنْ لَمَعِ الْبَرَى      ولأهل الدهر فيها صَعَصَعَةٌ<sup>(٤)</sup>  
وقول طرفة :

سأئلوا عنا الذي يعرفنا      بقوانا يوم تَخْلُقُ النَّامُ  
يوم تبدى البيض عن أسواقها      وتلف الخيل أعراج النعم<sup>(٥)</sup>  
ويقول عوف بن عطية التميمي :

ولنعم فتيسان الصباح لقيم      وإذا النساء حواسير كالقنقر  
من كل واحة الحمار وأختها      تسقى ومنطقها مكان المنزر<sup>(٦)</sup>

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٩٧/٢ وأخبار المراقبة ٥٦

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٣ والكامل لابن الأثير ٢٠٧/١

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط وجمهرة أشعار العرب ٢٥٢

(٤) ديوان الأفوه الأودي ١٧ مخطوط

(٥) ديوان طرفة ١٠٤ وشعراء النصرانية ٣١٤ والأغاني ٤٤/٥ الأعراج : جمع عرج

وهو النطيع من الإبل

(٦) المفضليات ١٢٧/٢ العنقر : أصول الفصص والبقل والبردى مادام أبيض . منصفها

مكان المنزر ، سقط لإزارها من فزعها فظهر منصفها

ويقول مهلهل :

على أن ليس يؤني من كليب إذا برزت مخبأة الخدود<sup>(١)</sup>  
ويقول سبرة بن عمرو النقعسي في هجاء بني نهشل إن نسوتهم أشبهن  
بالإماء مخافة السباء فبرزن مكشوفات :

ونسوتكم في الرّوع بادٍ وجوهها يُخَلَّنَ إماء والإماء حرائر<sup>(٢)</sup>  
ويقول الأعرج المَعْنِي في رده على امرأته التي عدلته لعنايته بخصانه :

تلم على أن أعطى الورد لَقَحَةً وما تستوى والورد ساعة تَفْزَع  
إذا هي قامت حاسراً مُشْمَعَةً نَحِيبَ الفؤاد رأسها ما تُقْنَع<sup>(٣)</sup>

وقد يسفرن إدلالا بنجاهن أو مكاتهن ، أو خضوعاً لعرف قبيلتهن ، يقول  
المسيب بن عاس :

أرحلت من سلمى بغير متاع قبل العطاس ورُعْتَهَا بوادع؟  
إذ تستيك بأصلتي ناعم قامت لتفتنه بغير قنّاع<sup>(٤)</sup>

ويقول الشنفرى :

عُفَاهِيَّةٌ لَا تَقْصُرُ السّرَ دونها ولا تُرْجَى للبيت إن لم تُبَيَّت<sup>(٥)</sup>

وقد تقدم في الفصول السابقة أن المرأة كانت تغشى مجامع الرجال ، وتخطب ،  
وتنشد الشعر ، وتعرض على القتال ، وتقاتل ، وتخدم الجرحى ، وهذا يستدعى  
أن يكون وجهها مكشوفاً للناظرين .

(١) الأغاني ٥/٥٣

(٢) شرح الحماسة للبربري ١/١٢٧ والامرؤوق ١/٢٣٨ (٣) معجم الشعراء ٢٠١

(٤) الفضليات ١/٥٨ وديوان المسيب الملقب بديوان الأعشى ٣٥٤ وسمط اللآلي

١/١٧٨ متاع : متعة . العطاس : الصبح . أصلي : خدناعم حسن

(٥) الأغاني ٢١/٩١ عفاهية : ممتلئة .

## الحجاب

لم تكن النساء كلهن سافرات، وإنما سفر بعضهن، وتحجب بعضهن ففطين وجوههن، وليس في هذا تناقض، أو شذوذ، لأن المجتمعات كثيراً ما تتباين عاداتها، وتتغير نظمها في البيئة الواحدة والعصر الواحد. ففي مصر اليوم سافرات ومحتجبات، في المدينة الواحدة، والقرية الواحدة، وسفور المرأة في القاهرة والإسكندرية غير سفور المرأة القروية، وحجاب هذه غير حجاب أولئك. أما دعوى فير Weir أن الحجاب لم يكن معروفاً في الجاهلية<sup>(١)</sup> فغير صحيحة تدحضها الأخبار، وتبطلها الأشعار.

١ — فالأخبار صحيحة في ممارسة النساء للحجاب، منها أنه كان السبب في اليوم الثاني من أيام الفجار الأول أن شاباً من قريش وبني كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بني عامر بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر فأبت، فامتنها أحدهم، فاستغاثت بقومها فقامت حرب<sup>(٢)</sup>.

ومنها أن السبب في اعتقال عبد الله بن علقمة بصاحبته حُبَيْش أنه نزل ضيفاً عند آلها، فأجاسوه في متحدث لهم، فخرجت حُبَيْش وعلى وجهها سب أخضر، فضر به الهواء، فأنكشف وجهها وبداها، فهم بها عبد الله<sup>(٣)</sup>.

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لي أن أضع خماري معهم فلها صِرْمَتِي: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع، وزوجي الزبرقان بن بدر. وهي ذات الخمار، لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها، فقالوا لها: ما هذا، ولم تكوني متبرجة؟ فقالت: داخلتنى خيلاء حين رأيتم، فأمر أسراة من العرب وضعت

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٦٦ T. h. Weir

(٢) الأغاني ١٩/٧٤ (٣) تزيين الأسواق ٨١ داود الأنطاكي.

خمارها عند مثلكم فلها صرمتي<sup>(١)</sup> .

وفى أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب ، كقولهم ( إِنْ الْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ  
الْحِقْرَةَ )<sup>(٢)</sup> ، أى لا تحتاج إلى تعلم الاختمار ، يضرب مثلاً للرجل المجرب .

٢ — والشعر الجاهلى حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور ، فمثلاً  
يقول النمر بن تولب فى امرأته التى هجرته :

وصدّت كأن الشمس تحت قناعها      بدا حاجب منها وضّدت بحاجب<sup>(٣)</sup>  
ويقول الربيع بن زياد العبسى بعد مقتل مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك      فليأت نسوتنا بوجه نهـار  
قد كن يخبان الوجوه تستراً      فالיום حين بدوّن للنظار  
يخمشن حُرّات الوجوه على امرئ      سهل الخليفة طيب الأخبار<sup>(٤)</sup>  
ويتغزل الحطيئة فى قوام محبوبته ووجهها ، ويكنى عن وجهها بأنه موضع النقاب :  
طافت أمانة بالركبان آونةً      يا حُسْنُهُ من قوامٍ قماومُنَّ قبا<sup>(٥)</sup>  
ويعجب الشنفرى بحبيبتة وهى منتقبة لا تكشف وجهها :

فقد أعجبتنى لاسقوط قناعها      إذا مامشت ولا بذات تلتفت<sup>(٦)</sup>  
وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على النار بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن  
يدعوا السلاح ويتكجلوا وينتقموا كالنساء :

إن أتم لم تطلبوا بأخيكم      فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق  
وخذوا المكاحل والجاسد والبسوا      نقب النساء فبئس رهقُ المرهق<sup>(٧)</sup>

(١) النقائض ٢٦٤ (٢) مجمع الأمثال ١٧/١ وجهرة الأمثال ٦١/٢ ولسان  
العرب مادة خر . العوان : الثيب أو بنت الثلاثين .

(٣) الأغاني ١٥٩/١٩ (٤) النقائض ٨٦ (٥) خزانة الأدب ٣٩٥/٣

(٦) الأغاني ٩٠/٢١ (٧) شرح الحماسة للبربري ٥٥/٤ وحشوا بالأبرق :

كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية . المرهق : اللدليل المضيق عليه .

ولقد يتمثل الحجاب في أن تتخدر المرأة ، فلا يراها إلا الأقربون ، ولا تبرز إلا في الفواجم . يدل على ذلك قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء  
فإن تكن النساء مخبآتٍ فحق لكل مُحَصَّنَةٍ هِداء<sup>(١)</sup>

وفي قول مهامل يرثى كليباً :

على أن ليس عدلاً من كليب إذا برزت مخبأة الخدور<sup>(٢)</sup>

وفي قول عدى بن زيد :

يسارقن م الأستار طرُفاً مُفْتَرَاً وَيُزْرِنُ من فُتُق الخدور الأصابع<sup>(٣)</sup>

٣ - وإذا كان المراد بالحجاب لبس الحمار ونحوه ، فإنه لم يكن مقصوراً على العرب ، بل كان شائعاً منذ أقدم العصور في بابل وأشور وفارس والروم والهند<sup>(٤)</sup> ، فقد كانت النساء الرومانيات مغاليات في الحجاب في العهد الأول للجمهورية ، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ، ووجهها ماثم ، وعاليتها رداء طويل يلامس كعبيها ، وفوقه عباءة لا تبدى شيئاً من قوامها . ثم تغيرت الحال في عهد الإمبراطورية ، حتى هالت بعض المصلحين ، وهب ( كاتون ) ينذر بالخطر الخدق الذي سيأتيهم كل شيء<sup>(٥)</sup> .

كذلك عرف الرس القدماء الحجاب ، وعدوا كشف المرأة أو الرجل عن شيء من جسده غير الوهم مظهراً منافياً للاحتشام والأدب . وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى إخصي القدم<sup>(٦)</sup> . وبعد حكم دارا الأول كان احتجاج نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاماً ضرورياً مراعى ، فصرن

(١) شرح ديوان زهير لثعلب ٧٤ (٢) الأمل ١٣٢/٢ وكتاب بكر وتغاب ٧١

(٣) الأغاني ١٥٠/٢ (٤) الإسلام والحضارة العربية محمد كرد على ٨٨/١

(٥) المرأة المسلمة ١٢٣ فريد ومدي (٦) قصة الحضارة الفارسية ١٩ ول ديورانت



لا يحسرن على الخروج إلا في هوداج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع خاص أو عام . بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أدنى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والإخوة . ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكراً أو صوراً في النقوش أو التماثيل التي خلفتها إيران القديمة . أما الخليلات والحظيات فسكن على ضد ذلك ، يتمتعن بحرية عظيمة ، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم<sup>(١)</sup> .

وشاع الحجاب عند المنود أيضاً ، حتى في عصر المهابراته . وعرفه الآثينيون القدماء<sup>(٢)</sup> ، وقد ورد في الإلياذة قول هكتور : « لست أرضى الغار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب » ومن هذا ، ومن ذكر قناع إيقاب ، وبرقع هيلانة ، وبرقع النساء والربات ، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب<sup>(٣)</sup> . على أنه مازال شائعاً إلى العصور الوسطى وما بعدها ، وما زالت له آثار ، ولم تغير منه النصرانية شيئاً<sup>(٤)</sup> ، لذلك كان دائعاً في الدولة البيزنطية<sup>(٥)</sup> ، وإن لم يكن عاماً<sup>(٦)</sup> .

٥ — ثم جاء الإسلام ففصل في مشكلة السفور والحجاب ، قال تعالى : « وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

(١) المرجع السابق ٦٠ (٢) مركز المرأة في الإسلام ٢٤ السيد أمير على الهندي

(٣) الإلياذة ٤٧٥ (٤) التمدن الاسلامي ٧٧/٥ جرجي زيدان

(٥) مركز المرأة في الإسلام ٣٤ (٦) الإمبراطورية البيزنطية ٣٤ نورمان بيتنر

النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » <sup>(٢)</sup> .

واختلف في الإدناء الذي أمرن به ، فقال بعضهم : هو أن يغطين رؤوسهن ووجوههن ، فلا يبدن إلا عيناً واحدة . وقال بعضهم : بل يشدن ثُجراً على جباههن . وروى عن ابن عباس أن إدناء الجلابيب هو أن تتقنع وتشد حبيبتها ، وعن قتادة أن يقنعن على الجوانب <sup>(٣)</sup> وذهب آخرون إلى أن المراد ستر الرؤوس والأعناق والنحور <sup>(٤)</sup> .

وبذلك حرم على المرأة المسلمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام أجنبي ليس من المحارم ، إلا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، كالوجه والكف ، لأن في إخفاءهما تضييقاً وحرَجاً <sup>(٥)</sup> .

ونهى الإسلام عن التبرج كما سبق .

وهو بذلك يدرأ الفتنة ، ويبقى النفوس نزواتها ، لذلك أحل للعجائز اللاتي لا أرب فيهن ما لم يحله للشابات والجماليات ، يقول تعالى : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » <sup>(٦)</sup> .

وقد صور الشعراء بعضهن مختمرات ، فعمر بن أبي ربيعة يقول في إحدى صواحبه :  
واشتكت شدة الإزار من البُهِر وألقت عنها لى الخمار <sup>(٧)</sup>

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٩٥ (٣) تفسير الطبري ٣٣/٢٢ والنيسابوري ٣٢/٢٢ والرازي ٢٤٩/٥ والطبقات الكبير ١٢٧/٨  
(٤) تفسير الجلالين ٢٩٥  
(٥) تفسير الطبري ٩٤/١٨ والنيسابوري ٧٦/١٨ والبيضاوي ٤٧٦ والجلالين ٢٩٥  
(٦) سورة النور ٦٠ (٧) الأغاني ٩٧/٣

وقد جلس هو والغرييض في نسوة مقنعات بأخمرتهم<sup>(١)</sup> . والحارث بن خالد يقول في امرأة مختمرة وهي تخج :

يقعدن في التطواف آونةً      ويظفن أحياناً على فُتْر  
ففرغن من سبع وقد جَهَدَتْ      أحشاؤهن موائل الخُمُر<sup>(٢)</sup>

على أن قلة من المسلمات كانت تسفر ، وزعيمتهن في ذلك عائشة بنت طلحة كانت لا تستر وجهها من أحد<sup>(٣)</sup> ، وسكينة بنت الحسين ، كانت برزة أديبة تجالس الجلة من الرجال والأدباء<sup>(٤)</sup> . وقد أشرفت هند بنت النعمان بن بشير على وفد عند زوجها وهي سافر ، وكذلك كانت تسفر امرأة عبد الملك بن مروان<sup>(٥)</sup> . وكان عمرة صاحبة أبي دَهَبَل - وهب بن زمعة الشاعر الإسلامي - امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار<sup>(٦)</sup> .

وفي حديث أنصَب أنه جالس هو وكثير والأحوص نساء بارزات لأعهد لهم بهن ، وسمعوا الغناء ، وتغلدوا بالعميق جميعاً<sup>(٧)</sup> .

وكانت خُرَقاء العامرية حبيبة ذى النُرمة تقعد للحجيج وتحادثهم ومعها فاطمة ابنتها<sup>(٨)</sup> .

ولقد كان الباعث لمن على السفور في الإسلام كما كان في الجاهلية : الزهو بالجمال ، والاعتداد بالتصون ، والاعتزاز بالعفة ، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة في سفورها فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسَّعني بميسم جمال ، فأحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد<sup>(٩)</sup> .

---

(١) الأغاني ٨٣/٦      (٢) الأغاني ٩٧/٣      (٣) الأغاني ٥١/١٠  
(٤) الأغاني ١٦٥/١٤      (٥) العقد الفريد ٢٨٩/٣      (٦) الأغاني ١٥٠/٦  
(٧) الأغاني ١٣٧/١      (٨) الأغاني ١١٩/١٦      (٩) الأغاني ٥١/١٠  
وزهر الآداب ٢٣١/١

وقد سجل الشعراء هذا السفور ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاها الحسن أن تتقدما<sup>(١)</sup>

وقول الشماخ :

« أطارت من الحسن الرداء المحبّرا »

لأنها مدلة بجمالها فلا تحتمر ، ولا تستر شيئا من الناظرين<sup>(٢)</sup> .

وإذا فالحجاب الذى دعا إليه الإسلام سهل ميسور مقبول ، وهو شبه بما كان فى الجاهلية ، وبما نرى اليوم فى البوادي والقرى .

ولكن بعض المسلمين تشددوا فيه ، ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل والقادر بالله العباسى أمرها بمنع النساء من الصلاة فى المساجد ومخالطة الرجال فى المحافل والمجتمعات .<sup>(٣)</sup> .

وكما ضعفت مكانة المرأة وساء ظن الرجال بها ، وساء ظنهم بها ، علت حولها الأسوار ، وخيفت عاينها الأنظار ، وعاشت فى منزل أشبه بالحصن ، كالوردة فى أصيص مغلق .

### خمرها وملابسها

#### — ١ —

كانت أغطية رؤوسهن متنوعة ، ولها أسماء شتى منها :

١ — الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . وهو شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، فهو يشبه ما يسمى فى عصرنا ( الطرحة ) ، ومن أسمائه .

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١٢٧/٣

(٢) السكامل للبرد ٤٩١/١

(٣) الإسلام والحضارة العربية ٨٩/١

النَّصِيفُ<sup>(١)</sup> ، والقناع<sup>(٢)</sup> ، والبرقع<sup>(٣)</sup> ، والسَّبَّ<sup>(٤)</sup> .

٢ — وإذا كان الغطاء وحده فهو المِقْنَع ، والمِقْنَعَةُ ، وهى أصغر من القناع<sup>(٥)</sup> .

٣ — والنَّقَابُ القناع على مَارِنِ الأنف ، وهو على وجوه . قال الفراء : إذا أدت المرأة نقابها إلى عينيها فتلك الموصوفة ، فإن أنزلته دون ذلك إلى المحجر فهو النقاب ، فإن كان على طرف الأنف فهو اللثام .

وقال ابن سيرين: النقاب مُحَدَّث ، أراد أن النساء ما كن ينتقبن أى يختمرن . قال أبو عبيد : ليس هذا وجه الحديث ، ولكن النقاب عند العرب هو الذى يبدو منه تحجر العين ، ومعناه أن إبداءهن الحاجر محدث ، إنما كان النقاب لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو إحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمه عندهم الموصوفة والبرقع<sup>(٦)</sup> .

٤ — والموصووص النقاب على مَارِنِ الأنف لا تظهر منه إلا العينان ، وهو البرقع الصغير<sup>(٧)</sup> ويسمى البُخْنَقُ<sup>(٨)</sup> .

٥ — البرُّقُعُ والبرُّقُوع ، وهو للدواب ، ولنساء الأعراب ، فيه خرقان للعين ، والبرقع الموصووص هو الصغير العينين<sup>(٩)</sup> .

٦ — القِنَاع ، ما تتقنع به المرأة من ثوب ، تغطي رأسها ومحاسنها به ، وهو أكبر من القنَّع والمِقْنَعَة . وذهب الأزهري إلى أنه لا فرق عند الثقات من أهل اللغة بين القناع والمقنعة ، ويظهر أنه كان فى صدر الإسلام من لبس الإماء ،

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة خمر (٢) القاموس مادة قنع  
(٣) القاموس المحيط مادة برقم (٤) القاموس مادة سب (٥) لسان العرب  
القاموس مادة قنع . (٦) لسان العرب والقاموس مادة قنق والقاموس مادة لثم ولقم  
(٧) لسان العرب مادة وصوص (٨) القاموس مادة بخق (٩) لسان العرب  
مادة برقم

فقد رأى عمر جارية عليها قناع فضر بها بالدرة وقال أنشبهين بالحرائر<sup>(١)</sup> .  
 ٧ — البُخْنَقُ : برقع يغشى العنق والصدر ، والبرنس الصغير ، وعن ابن  
 سيده أنه البرقع الصغير . وهو أيضاً خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبل منه  
 وما دبر غير وسط الرأس . وقال الجوهري : هو خرقة تقنع بها الجارية ، وتشد  
 طرفيها تحت حنكها لتقي الحمار من الدهن ، وتحفظ الدهن من الغبار<sup>(٢)</sup> .

٨ — وفي الشعر ذكر لهذه الخُمُر .

فمن ذكر الحمار قول صخر في أخته الخنساء :

ولو هلكتُ خَرَقَتْ خِمَارَهَا      وَاتَّخَذْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارِهَا<sup>(٣)</sup>  
 وقول المرار بن منقذ :

وهوى القلب الذى أعجبه      صورة أحسن من لاث الخُمُر<sup>(٤)</sup>  
 ومن ذكر القناع قول عنترة :

إن تُغْدِرَ في دوني القناع فإنني      طَبَّ بأخذ الفارس المستلثم<sup>(٥)</sup>  
 وقول عروة بن الورد :

فراش فراش الضيف والبيت بينه      ولم يُلبسني عنه غزال مقنّع<sup>(٦)</sup>  
 ومن ذكر البرقع قوله النابغة الجعدي يصف خشفًا :

وخذًا كهبز قُوع الفتاة مُمَعًّا      رَوْقَيْنِ لَمَّا يَعْدُ أَنْ يَتَقَشَّرَا  
 وقول توبة :

وكنْتُ إذا ما جئتُ ليلي تبرِقت      فقد رابني منها الغداة سفورها<sup>(٧)</sup>

(١) لسان العرب مادة قنع (٢) لسان العرب مادة بخنق والقاموس مادة بخق

(٣) تهذيب الكمال ١٩٢/٢ والشعر والشعراء ١٢٤ والإصابة ٦٧/٨

(٤) المفصليات ٨٧/١ (٥) لسان العرب مادة قنع وشرح العاقلات السبع لابن

الانباري مخطوط ٥٨ تغني : ترخى على وجهك (٦) شعراء الزمراية ٩١٣

(٧) لسان العرب مادة برقع

ومن ذكر الوصاوص قول المنقّب العبدى :  
 ظهري بكّالة وسدّكن رَمَما وَتَقَبَّنَ الوصاوص للعيون  
 ويروى ، أرين محاسنا وكننّ أخرى .  
 وأنشد ابن برى لشاعر :  
 يا ليتها قد لبست وَصواصا <sup>(١)</sup> :

ومن ذكر النّصيف قول النابغة فى المتجردة :  
 سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد <sup>(٢)</sup>  
 وقول ثعلبة بن صُعير فى وصف النعامه ، إنها حضنت بيضها بجناحيها ، وهى  
 فى خبائها ، فلم يبد إلا وجهها ، كالمرأة من الخُمس تتقنع ، ولكن يبدو بعض  
 رأسها ووجهها :

فبنت عليه مع الظلام خباءها كالأخمسية فى النّصيف الحاسر <sup>(٣)</sup>  
 وقول لىلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد :

بككت تغلبُ الغلباء يوم وفاته وأبرّرَ منها كلّ ذات نصيف <sup>(٤)</sup>  
 ومن ذكر السبّ قول معن بن أوس :

إذا ما لبس الحلى والشىّ أشرقت وجوه ولَبَّاتِ يُسَلِّبُنَا الحُلْمَا  
 ولئن الشُّبُوبَ حِمْرَةَ قرشية زُبَيْرِيَّةَ يَفْلُحْنَ فى لَوْنِهَا عِلْمَا <sup>(٥)</sup>  
 ومن ذكر اللثام قول قيس بن الحداية :

نَشَرْتُ على فيها اللثام وأعرضت وأمعن بالكحل السحيق المدامع <sup>(٦)</sup>

(١) لسان العرب مادة وصص (٢) ديوان النابغة ٢٩

(٣) المفضليات ١٢٨/١ (٤) حماسة البجترى ٤٣٦

(٥) البيان والتبيين ٣٥٤/٢ . لئن : أدرك وطوين . الحمره : هيئة الاختمار لونها :  
 إدارتها وطبها . يفلح : يسمن من علمه بابه نصر وضرب .

(٦) الأغاني ٧/١٣

ومن ذكر البخناق قول عنتره :

نخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء بخناق وعقود<sup>(١)</sup>

— ٢ —

أما ملابسها فكثيرة أيضا ومنوعة ، منها :

١ — الرِّبْطَة ، وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، وهى كل ثوب لين رقيق<sup>(٢)</sup> .

قال سُلَيْمَى بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيض يَرْفُلُنْ كالدَّمَى فى الرِّبْط والمُذْهَب المصون<sup>(٣)</sup>  
وقال الأعشى :

والساحبات ذبول الربط آونة والرافلات على أعجازها العجل  
وقال الرَّمَق — عبيد بن سالم الخزرجى — فى مدح أبى جيلة :  
أمثال غزلان الصرا ثم يأتزرن ويرتدنا  
الرِّبْطَ والدياج والزَّرَّ رَدَّ المضاعف والبرينا  
وذكر حسان فى قوله :

يَحْمَلْنَ حُوقاً حُور المدامع فى الرَّرِّ يَطُّ ويبضَّ الوجوه كالبرد<sup>(٤)</sup>  
٢ — المِرْطُ كساء من صوف أو خز<sup>(٥)</sup> .

ويظهر أن ذيله كان طويلا ينسحب على الأرض . يقول امرؤ القيس :  
خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مِرْطٍ مرحل<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان عنتره ٦٤ (٢) القاموس مادة ربط (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٨٣/٣  
(٤) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى  
دولاب السق يصف أعجازهن بالضخامة . (٥) الأغاني ٦٩/١٩ الصرائم : قطع الرمل .  
الزرد : الدرع الزرودة . البرين : جمع برة وهى الخلل . (٦) ديوان حسان ٣٣ حو :  
جمع حواء أى ذات شفة حمراء ضاربة إلى السواد (٧) القاموس مادة مرط .  
(٨) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرحل : فيه صور الرجال  
( ٢٥ — المرأة فى الشعر الجاهلى )



ويقول :

دخلت على بيضاء جِثِّ عظامها تُعَفِّي بذيل المِرط إذ جِثَّتْ مُودِقٌ<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر المِرط والريطة المنتخان بن عَوَيْمِر الهذلي في قوله :

فَحُورٌ قد لهُوتُ بهن حيناً نواعمُ في المِرَوط وفي الرِّياط<sup>(٢)</sup>

٣ - الصدر ، وهو ما تلبسه المرأة على صدرها ، قال عروة بن الورد  
في نغره بسباياهم من طيئ :

تري كل بيضاء العوارض طفلة تُقَرِّي - إذ شال السَّماك - صدرها<sup>(٣)</sup>  
وكانت الحزينة تتخذه من شعر ، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها صخر :  
ولو هلكت خَرَقَتْ خمارها وأخذت من شعر صدرها<sup>(٤)</sup>  
٤ - السابري ، ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تصدُّ عن المأثور يَدْنِي ويَدْنِيها وتدني عليَّ السابريَّ المَضَلَعَا<sup>(٥)</sup>  
٥ - الجُبَّة ، وهي ثوب واسع<sup>(٦)</sup> ، ويظهر أنها كانت من ملابس الإماء ،  
بدليل قول أوس بن حجر في الأطلال :

تمشي بها رُبْدُ النعمام كما تمشي إماء سُرِبَلَتْ جُبَبَا<sup>(٧)</sup>  
وهم ميزوا الإماء بالجُبَب ، لأن الأزياء كانت تختلف ، فالحجرات زى ،  
ولذوات الرايات زى ، وللاماء زى ، ولكل مملوك زى<sup>(٨)</sup> .

٦ - الحَبْرَة ، وهي ضرب من برود اليمن ، وهي أيضاً البرد الموشى<sup>(٩)</sup>

(١) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ٢٥١/١٢

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٢٩

(٣) شعرا النصرانية ٩١١ تفرى : تشق . شال السماك : ارتفع هذا النجم .

(٤) الشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ١٩٢/٢ والإصابة ٦٧/٨ والمحاسن

والأضداد ١٤٣ (٥) ديوان امرئ القيس ١١٣ الماضع : المخطط المير أو الذي وشيه

على شكل الأضلاع (٦) القاموس مادة جب (٧) ديوان أوس ٢

(٨) البيان والبيان ٩٧/٣ تحقيق هارون (٩) القاموس مادة حبر

٧ - وهناك أنواع كثيرة ، منها : اللِّفَاع والمِلْحَقَة ، وهو ما تتلفع به المرأة<sup>(١)</sup> ، وهو ( الشال ) في عصرنا . والنَّطَاق والمِنَظَقَة ، وهي شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها فتُرسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل ينجر على الأرض ، ليس لها حُجْزَة ولا ساقان ولا نِيفَق<sup>(٢)</sup> ، وهي تشبه بعض الشبه ما يسمى الآن ( الجونلا ) .

والبَتّ ، وهو الطيلسان من خز ونحوه<sup>(٣)</sup> .

والْحَلَّة ، وهي إزار ورداء ، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة<sup>(٤)</sup> .

والْبُرْد ، هو الثوب الموشى ، والكساء الذى يلتحف به<sup>(٥)</sup> .

والمِعْرَض ، الثوب تعرض فيه الجارية وتُجَلّى<sup>(٦)</sup> .

والبُرْنَس ، كل ثوب رأسه ملتزق به ، دُرَاعَة كان أوجبة أو مُعْطَرَا ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النساء يلبسنها فى صدر الإسلام<sup>(٧)</sup> .

قال مهمل :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً وذراعاً باكية عليها بُرْنَس<sup>(٨)</sup>

٨ - وكانت تسمى الملابس بأسماء دالة على نقوشها . فالْمَرْحَل بُرْدٌ فيه تصاوير الرجال ، والمَرْجَل إزار فيه صور الرجال .  
والوصائل ثياب يمنية مخططة<sup>(٩)</sup> ، قال لبيد :

---

(١) القاموس مادة لفع (٢) القاموس مادة نطق . نيفق : مقسم  
(٣) القاموس مادة بت (٤) القاموس مادة حل (٥) القاموس مادة برد  
(٦) لسان العرب مادة عرض (٧) لسان العرب مادة برنس  
(٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١٩٧/٢ وأخبار المراقبة ٥٦ .  
(٩) القاموس مادة وصل

غرائر أبكار عليها مهابة<sup>(١)</sup> وعُون كرام يرتدين الوصائل<sup>(٢)</sup> ،  
والمجسّد والمجسّد ثوب مصبوغ بالجسّد أو الجساد وهو الزعفران<sup>(٣)</sup> ،  
قال طرفة في وصف القينة :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ونجسّد<sup>(٤)</sup>  
والمذهب ماجعل نسجه بخيوط من ذهب ، قال سلمى بن ربيعة :  
والبيض يرفلن كالسدى فى الریط والمذهب المَعُون<sup>(٥)</sup>  
والخال ، ضرب محكم من برود اليمن الموشاة ، وهو أيضاً الثوب الناعم<sup>(٦)</sup> .  
والمرجل ، ضرب محكم من برود اليمن ، والممرجل ضرب من ثياب الوشى  
فيه صور المراحل ، ويقال لها المراحل أيضاً ، وفى الحديث ( حتى يبنى الناس  
بيوتا يؤشونها وشى المراحل<sup>(٧)</sup> ) والمصلب فيه نقش كالصليب ، وفى حديث  
عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى التصليب فى ثوب قصّه ، أى  
قطع موضع التصليب منه . وقد نهى عن الصلاة فى الثوب المصلب ، وفى حديث  
عائشة : فناولتها عطافاً فرأت فيه تصليبا ، فقالت : نحيه عنى . وكانت أم سلمة  
تكره الثياب المصلبة<sup>(٨)</sup> . والمبرج ما فيه صور البروج ، وفى التهذيب قد  
صور فيه تصاوير كبروج السور .

قال العجاج :

« وقد لبسنا ثوبه المبرجا » .

وقال فى وصف ناقة :

« كأن برجا فوقها مبرجا » . شبه سنامها ببرج السور .

والثوب المبرج أيضاً المعبّن ، أى فى وشيه ترايع صفار تشبه بعيون الوحش<sup>(٩)</sup>

(١) ديوان لبيد ٢٢ عون : ج عوان وهى المتزوجة (٢) القاموس مادة جسد

(٣) ديوان طرفة ٢٦ (٤) شرح الحاشية للتبريزى ٨٣/٣

(٥) لسان العرب ١٣/٢٤٢ (٦) لسان العرب ١٣/٢٨٣ و ٢٩١ والقاموس مادة رجل.

(٧) لسان العرب مادة صلب (٨) لسان العرب مادة برج وعين

والمسهم البرد المخطط بوشى على شكل السهام ، قال أوس :  
 فإننا رأينا العرض أحوج ساعة إلى الصون من رباط يمانٍ مسهم  
 وفي حديث جابر أنه كان يصلى فى برد مسهم<sup>(١)</sup> .  
 والمضرس ، ثوب موشى ، به أثر ، قال أبو قلابة :  
 ردع الخلق بجلدها فكأنه رباط عتاق فى الصوان مضرس<sup>(٢)</sup>  
 والمضد ، ثوب موشى فى جوانبه ، أو موشى على العضد من لابس ، قال زهير  
 يصف بقرة :

فجالت على وحشيها وكأنها مسربة من رازقٍ مضد<sup>(٣)</sup>  
 والمضلع ، ثوب مخطط على شكل الأضلاع ، أو هو الموشى ، أو المسير ،  
 وقيل برد مضلع إذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وفى الحديث أنه أهدى له  
 صلى الله عليه وسلم ثوب سيرا مضلع بقر<sup>(٤)</sup> .  
 والمكعب ، الطوى الشديد الأدراج فى تربيعة ، أو ما فيه وشى مربع<sup>(٥)</sup>  
 أو هو المنقوش على هيئة الكعب<sup>(٦)</sup> .  
 والمهبال ، ما فيه نقوش وصور كالأهلة<sup>(٧)</sup> .

والخال ، ضرب من برود اليمن الموشية قال الشاعر :  
 وبردان من خالٍ وسبعون درهما على ذاك مقرون من الجلد ماعز<sup>(٨)</sup>  
 والمعرجن ما فيه صور العراجين والنخل ، قال رؤبة : « فى خد  
 مياس الدثى معرجن<sup>(٩)</sup> » .

والمطير ، ضرب من البرود ، قيل هو المشقق المكسر ، قال العجير السلولي .  
 إذا مامشت نادى بما فى ثيابها ذكى الشدى والمندلى المطير<sup>(١٠)</sup>

(١) لسان العرب مادة سهم (٢) لسان العرب مادة مضرس . قوله مرة على اللفظ فقال  
 مضرس ، ومرة على المعنى فقال عتاق (٣) لسان العرب مادة عضد . وديوان زهير ٩٢  
 والكنز الثمين ٨٠ رازق : ثوب كتان أبيض . (٤) لسان العرب مادة ضلع  
 (٥) لسان العرب مادة كعب (٦) الإفصاح ١٦٠ (٧) الإفصاح ١٦٠  
 (٨) لسان العرب مادة خيل (٩) لسان العرب مادة عرجن (١٠) لسان العرب مادة طير

أو هو المزين بصور الطيور <sup>(١)</sup> .

٩ — وأما ألوانها فأكثرها شيوعاً اللون الأحمر، وقد كان العرب مغرمين بالحرمة في الخدوج، يمثل ذلك قول علقمة إن الجبال قد احتملت :

عَقْلًا وَرَقْمًا تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتَبَعُهُ      كأنه من دم الأجواف مَذْمُومٌ <sup>(٢)</sup>

وقول المسيب بن علس إن الظمان تحمل :

عَقْلًا وَرَقْمًا ثُمَّ أَرْدَفَهُ      كَلَّلَ عَلَى أَطْرَافِهَا الْخَمْلُ <sup>(٣)</sup>

وكذلك صور الخدوج امرؤ القيس <sup>(٤)</sup>، وطيفيل الغنوى <sup>(٥)</sup> والخطيئة <sup>(٦)</sup> .

كذلك كانوا يؤثرون الحرمة في لون الملابس ، قال أوس بن حجر إن ملابسهن متنوعة الألوان وواسعة :

يَلْبَسْنَ رِيْطًا وَدِيْبَاجًا وَأَكْسِيَةً      شَتَّى بِهَا اللَّوْنُ إِلَّا أَنَّهَا قُورٌ <sup>(٧)</sup>

وكان اللون الأحمر شعار الملوك والأشراف، ولعل هذا مما حببه إلى الناس،

على رغبتهم فيه ، قال النابغة الذبياني في مدح الفساسنة :

تَحْيِيْمُهُمْ بِيَضُ الْوَلَانِدِ بَيْنَهُمْ      وَأَكْسِيَةُ الْإِضْرِيْجِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ <sup>(٨)</sup>

وظل إيثارهن اللون الأحمر إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فالسيدة عائشة كانت تحب من ألوان الملابس الأحمر والمعصر ، فكانت تلبس درعاً معصراً أحياناً ، ومذهباً أحياناً ، ومضرجاً وهو الذي كان يسمى المورّد ، وكانت عليها ثياب حمراء كأنها شرر وهي محرمة <sup>(٩)</sup> . وقد وصف المتنبي الحسان الطاعنات بأهن حمر الحلى والنوق والثياب :

(١) الإفصاح ١٦١ (٢) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجال المهودج أو ضرب من الوشي . الرقم : ضرب مستدير أو مخطط من الوشي أو المز أو البرود . مضموم : مطلى بالدم (٣) ديوان المسيب بن علس الملاحق يديوان الأعشى ٣٥٧ الخمل : هذب القטיפه ونحوها (٤) ديوان امرئ القيس ٣٢ (٥) ديوان طيفيل ٣٣ (٦) ديوان الخطيئة ٣٧ (٧) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء أى واسعة . (٨) ديوان النابغة ٨ الإضرع : المز الأحمر . (٩) الطبقات ٤٧/٨ والأنساب ٦٦٥/١

من الجآذر في زى الأعراب مُحَرَّ الحلى والمطايا والجلابيب؟<sup>(١)</sup>

### حُلِيِّهَا

#### غرام النساء بالحلى

كلفت المرأة بالحلى في كل بيئة وفي كل عصر، تضيف إلى جمالها تجملاً، وترهى به وتفاخر وتكاثّر، وتختبأ ألباب الرجال، وقلماً تبدو عاطلاً من حلاها، وإن غنيت بجمالها ومكاتها، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل، كقول الشماخ:

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عطلاً حُسَّانة الجيد<sup>(٢)</sup>

وإذا كانت الزينة شية للأنتى من بنى الإنسان، فإنها من شيات الذكر في الحيوان، لأن الطليمة تزين الذكران من الطيور والحيوان بما يغرى الأنثى ويجتذبها، أما في عالم البشر فإن الأنثى تزين لتجلب الذكر « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرننا اليوم على المسرح، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة مالا نبصر نظيره في عصرنا »<sup>(٣)</sup>

لهذا شاع الحلى في العصور القديمة عند الأمم، وكان عظيم الشأن عند الأمم التي اتصل بها العرب، فالإسرائيليات كن يتأقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنظف والأساور والرعل والعصاب والمصاعيد والخواتم والأحراز والخُرصان والتيجان وغيرها من الملابس والمرايا<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى ١/ ١١٤ الجآذر: ج جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعراب: جمع أعراب وهم سكان الحيام والوبره المطايا: النوق وأجودها الحر . (٢) ٥٠٠ مجم البلدان ٨/ ٥٢٥ (٣) الحياة والحب . لميل لوفادفيج ٢٢ (٤) سفر أشعيا ٣/ ١٨ - ٢٣ النظف: الأفرط . الرعل: ج رعلة وهي الإكليل من ريمان وآس . الحرصان: ج خرص وهو حلقة الذهب والفضة أو حلقة الفضة أو الحلقة الصغيرة من حلى .

والمرأة الفارسية كانت مولعة بأصناف الحلى ، من تيجان وأقراط وخلاخيل وغيرها ، حتى لقد كانت تلبس حذاء مذهباً<sup>(١)</sup> .

والمرأة الرومانية أسرفت فى زينتها إسرائفاً حمل ( كاتو ) على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها، واحتدت المناقشة فى التريديون بين كاتو وأحد الأعضاء الجانحين إلى أن تطلق للمرأة الحرية فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض : إن النساء لا يستطعن العمل فى الوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات أو جنديات يحزن النصر ، وليس لمن من العمل العام ما يشغل فراغهن ، فماذا يستطعن أن يعملن إن لم يخصن أوقانهن للزينة والملبس<sup>(٢)</sup> ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالمصائب والخواتم والأساور والخللاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار واللآلىء والأقراط ، وكان خضاب الأطفال شائعاً ، والكحل بالإثمد كذلك . وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلاً مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء<sup>(٣)</sup> .

### صنوف الحلى :

تنوع حلى المرأة العربية ، وتعددت أصنافه ، فكان لكل عضو من أعضاء الزينة حلى يلائمه .

١ — فى اليد السوار والإشوار ، وهو القلب أيضاً ، وموضعه المعصم . قال العرندس الكلابى :

بل أيها الزاكب المفى شبيبته ييكى على ذات خلخال وإسوار

وقال المرار بن سعيد الفقعسى :

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٧ ول ديورانت .

(٢) المرأة فى مختلف العصور ٢٧ - ٢٩ .

(٣) الحضارة المصرية القديمة لوبون ٧٥ .

كما لاح تبرّ في يدي لمعت به كعابُ بدا إسوارها وخضيبها<sup>(١)</sup>  
وقال النابغة الذبياني :

وأبدت سيواراً عن وشوم كأنها بقية ألواح عليهن مذْهَب<sup>(٢)</sup>  
وفيهما الدُمْلَج - بضم اللام وفتحها - وهو المِعْضَد والمِعْضَدَة<sup>(٣)</sup> ، قال عنترة :  
وتحتي منها ساعد فيه دملج مضى ، وفوق آخر فيه دُمْلَج<sup>(٤)</sup>  
وأشَد ابن الأعرابي :

والبيض في أعضادها الدماليج وَمُعْطِيَاتٌ بَدَلٌ في تَعْوِيج<sup>(٥)</sup>  
وإذا كان السوار من فضة فهو القَلْد<sup>(٦)</sup> .

وقد يكون على الساعد حلّ من مرجان ، قال لبّيد :

وعالين مضْهُوفاً وفرداً سُمُوْطَه جُمان ، ومرجان يشد المفاصل<sup>(٧)</sup>  
وفي الأصابع الخواتم ، ويقال للخاتم خَيْتَامٌ أيضاً ، أشد ابن برى :  
يا هُند ذات الجورب المنشَقُّ أخذت خَيْتَامِي بغير حق<sup>(٨)</sup>

٢- وفي ساق الرجل الخَلخال ، وهو أيضاً الخَلْجَل والخُلْجُل ، قال الشاعر :

براقة الجيد صموت الخلل<sup>(٩)</sup>

وقال الأعشى :

وساقان مارَ اللحم مَوْرّاً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصلصل<sup>(١٠)</sup>

وقال طفيل الغنوى :

وفي الظاعنين القلبُ قد ذهبَتْ به أسيلة مجرى الدمع ربا المُخْدَم<sup>(١١)</sup>

(١) لسان العرب مادة سور (٢) ديوان النابغة ٢٨ .

(٣) لسان العرب مادة عضد (٤) ديوان عنترة ٣٥ .

(٥) لسان العرب مادة دملج (٦) لسان العرب مادة قلد .

(٧) ديوان لبّيد ٢٢ مضعوفاً : ثياباً مضعفة (٨) لسان العرب مادة ختم .

(٩) لسان العرب مادة خلل (١٠) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : تحرك واضطرب .

(١١) ديوان طفيل ٣٣ المخدّم : موضع الخدمة وهو الخلل .



وفى تفسير قوله تعالى : ( ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن )  
أن المرأة ربما اجتازت وفي أرجائها الخلخال ، وربما كان فيه الجلال ، فإذا ضربت  
برجائها علم أنها ذات خلخال وزينة ، فتهبى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما  
أمرن ألا يبدن ذلك ، لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه<sup>(١)</sup> .

٣ — أما الأذن فإياها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرها .  
ومن أنواع حلبيها القُرْط وهو الشَّنْف ، أو الشَّنْف ، فى أعلى الأذن ، والقُرْط  
فى أسفائها ، قال الراجز يخاطب امرأته :  
قَرَطْتُكَ اللهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ عَقَارِبَا سَوْدًا وَأَرْقَمَيْنِ<sup>(٢)</sup>  
وقال أبو كبير الهذلى :

وبياض وجهك لم تَحُلْ أسرارهُ مثل الوذيلة أو كَشَنَفِ الْأَنْصَرِ<sup>(٣)</sup>  
والْحَبِّ ، القُرْط من حبة واحدة ، وهو الْخِرْصُ أيضًا ؛ أو الْخِرْصُ الحلقمة من  
ذهب أو فضة قال الشاعر :

عَلَيْنِ لُعْسٌ مِنْ ظَبَاءٍ تَبَالَةٍ مَذْبُذِبَةِ الْخِرْصَانِ بِادٍ نَحُورِهَا<sup>(٤)</sup>  
وقد تكون للقُرْط ذلاذل حسان تهبز بحركة العنق ، قال المرقش الأكبر :  
يُهَدَّلُنْ فِي الْأَذَانِ مِنْ كُلِّ مُذْهَبٍ لَهُ رَبْدٌ يَعْبَا بِهِ كُلِّ وَاصِفٍ<sup>(٥)</sup>  
وكنوا عن طول العنق بطول مهبوى القُرْط ، قال عبيد :

بَانَ الْخَلِيطُ الْأَلَى شَاقُوكَ إِذْ شَحَطُوا وَفِي الْخُدُوجِ مَهًا أَعْنَاقُهَا عَيْطُ  
نَاطُوا الرِّعَاثَ لِمَهْوًى لَوْ يَزِلُّ بِهِ لَا نُدَقُّ دُونَ تَلَاقِي اللَّبَّةِ الْقُرْطِ<sup>(٦)</sup>

(١) لسان العرب ١٣/٢٨٤ .

(٢) لسان العرب مادة قُرْط (٣) اللسان مادة شنف . الأنصر : الذهب أو الفضة .

(٤) لسان العرب مادة خرس (٥) المفضليات ٣١/٢ ربذ : عذبة .

(٦) ديوان عبيد القصيدة ٢٢ العيط : على وزن سبب وهو أعيط ومى عيطاء والجمع

عيط بكسر العين وسكون الياء ( اللسان والقاموس ) وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا :  
علقوا . الرعاث : ج رعثة ومى القُرْط .

وقال النابغة :

إذا ارتعشتُ خاف الجبان رِعائِها      ومن يتعلق حيث عُلقَ يَفِرَّقُ<sup>(١)</sup>  
وقد يكون دقيق الصنع يشبه فِقَر الجُرادة أو فِقَر أمير النحل ، وتشده المرأة  
بأذنها بخيط حتى لا يسقط ، قال سيار الأبنى :

كَانَ خَوْقَ قِرطِهَا المَعْقُوبَ      عَلَى دَبَابَةٍ أَوْ عَلَى يَعْسُوبِ<sup>(٢)</sup>

٤ — وللعنق القلادة، وهى العقد، وقد تكون من ذهب . قال المتنب العبدى :  
أرين محاسناً وكننَ أخرى      من الأحياد والبشرِ المصُونِ  
ومن ذهبٍ يلوح على تَرِيبِ      كلون العاج ليس بذى غُضُونِ<sup>(٣)</sup>  
وقد تكون من ياقوت وشذر وجزع من اليمين ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :  
تَحَلَّيْنِ ياقوتاً وشذراً وصِيفَةً      وجَزَعاً ظفاريّاً ودرّاً تَوأماً<sup>(٤)</sup>  
وقد يكون من لؤلؤ وزبرجد ، قال النمر بن تولب :

أَنَاةٌ عَلَيْهَا لؤلؤ وزبرجد      ونظم كُناجواز الجراد مُفَعَّلِ<sup>(٥)</sup>  
وقال طرفة :

وفى الحىِّ أحوى يَنْفُضُ المَرَدَ شادنٌ      مُظَاهِرٌ سِمَطَى لؤلؤ وزبرجد<sup>(٦)</sup>  
وقد يصاغ الياقوت دقيقاً على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

(١) ديوان النابغة ٣٩ .

(٢) الأمل ١/ ١٨٤ . الموق : حلقة القِرط . معقوب : مشدود بالعقب لئلا يزيف .

(٣) المفضليات ٢/ ٨٩ .

(٤) المفضليات ٢/ ٤٥ : تمانين : لبس الحلى . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من ذهب .  
صيفة : ما يصنع من الذهب وليست فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرها : الخزر التيماني وهو  
نقيس . ظفار : بلد باليمن . توأّم : اثنتين اثنتين .

(٥) جبهة أشعار العرب ١٩٦ .

(٦) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبي الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد :  
ممر الأراك المدرك أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر :  
لبس ثوباً فوق آخر . شبه المرأة بالظبي فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

غرائر في كَنٍ وصون ونعمة يُحَكِّينَ ياقوتا وشذراً مُفَقِّراً<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر العقد المنظوم من أولؤ وزجرجد كثير من الشعراء ، مثل قيس بن  
الخطيم<sup>(٢)</sup> وعالقمة<sup>(٣)</sup> ، والنقيب العبدى<sup>(٤)</sup> ، وعنتر<sup>(٥)</sup> .

٥ — وللوسط الوِشاح ، وهو كِرْسَان من أولؤ وجوهر منظومان ، يخالف  
بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقيها ، وكشحيها<sup>(٦)</sup> .  
وقال أبو على : لا يكون وشاحا حتى ينظم بلؤلؤ أو ودع<sup>(٧)</sup>

قال عروة بن حزام :

كَأَن شَاحِيهَا إِذَا مَا ارْتَدَّتْهُمَا وَقَامَتْ عِنَّا مُهْبَرَةً سِلْسَانُ<sup>(٨)</sup>  
وقال عنتر<sup>(٩)</sup> :

والشمس بين مُضَرَّجٍ وَمُبَلَّجٍ وَالْفَصْنُ بَيْنَ مُوَشَّحٍ وَمُقَلَّدٍ<sup>(١٠)</sup>  
وأنشد أبو على :

وتكسو الوشاح الرِّخْوُ خَصْرًا كَأَنَّهُ إِهَانٌ ذَوَى عَنْ صَفْرَةٍ فَهِيَ أَحْلَقُ<sup>(١١)</sup>  
٦ — وقد ساعد على كثرة الحلَى أن اللؤلؤ في خليج فارس ، والمرجان في  
البحار المحيطة بالعرب ، وأن التجار ينفدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان  
بالذهب والفضة والزمرد والياقوت وغيرها . ثم إن العرب يضربون في البلاد  
المجاورة لهم فيبتاعون منها حلّيا لنساءهم .

(١) ديوان امرئ القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات . مفقر : مصوغ على شكل  
فقار الجراد

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١ .

(٣) ديوان علقمة ٩ (٤) شعراء النصرانية ٤٠٦ (٥) ديوان عنتر ٧٠ .

(٦) لسان العرب مادة وشح (٧) المختص ٩٨/٤ .

(٨) النوادر ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٨ .

(٩) ديوان عنتر ٦٩ الشمس : وجهها الجميل . مضرج : بحر . مبلج : نقي . الفصن :  
قدها . مقلد : عليه قلادة .

(١٠) المختص ٩٨/٤ إهان : عذق الكباش .

وكانوا يعجبون بالنساء الخوالى ، ويعجبون بوسوسة الحلى ، قال الأعشى :  
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفَتْ كما استعان بريحٍ عِشْرِقُ زَجَلٍ<sup>(١)</sup>  
وتصور النابغة أن الحلى يستمد للألاء من بريق ترائبها :

ترائبها يستضيء الحلى منها كجَمَرِ النارِ يُزْرِى بالظلام<sup>(٢)</sup>  
وبعد فقد وصف القرآن الكريم الجنة والخور العين في سور شتى<sup>(٣)</sup> ،  
وذكر حليهن ، وما من شك في أن العرب كانوا يعرفون أصناف الحلى التي ذكرها  
القرآن الكريم .

٧ — هذه الأزياء التي كانت المرأة تحتال فيها ، والحلى التي كانت تزينها  
وتحليها ، دليل على عناية المرأة في نفسها ، وعزازتها على ذويها ، ودليل على أن  
قلب الجزيرة كان وثيق الصلة بأطرافها وبالممالك المجاورة ، يجتلب منها أنواع  
الكساء وأصناف الحلى .

ولئن كان ارتداء الكساء الفاخرة والتزين بالحلى الغالية النادرة من حظ  
النساء الثريات المترفات ، إن هذا يشعر بعلوم مكاتهن وعظم تقديرهن .  
وليس فيه انتقاص من أقدار الفقيرات ، لأن الحكم هنا للوجد والمعصرة ،  
والعجز والمقدرة ، لا للعزاة والمهانة .

ولقد كان يود المملق أن يثرى ليابس نساءه مثل ما تابس المثریات ، ويمتعين  
بالحلى الذى يشبهه لهن ، وكن يشركنه في هذا الوداد ، كما تطمح المرأة المعاصرة  
في أرق دوله متحضرة إلى أن تنعم بما تنعم به زميلتها الغنية من وسائل الرفه  
والترف ، وليس في حرمانها نقيصة لها أو نزول بقدرها .

(١) ديوان الأعشى ٤٢ : عشرق : نبات له ورق يطير إذا يبس . زجل : بصوت  
فيه الريح . (٢) ديوان النابغة ٧٣ (٣) منها سورة الرحمن وسورة النهر وسورة الواقعة .

## الفصل الثالث

# صناعات المرأة

مارست المرأة في البيئة البدوية من الصناعات والأعمال العامة ما يلائم البيئة، وما تحتاج إليه الأسرة .

١ — قربت أولادها، واشتركت في الحرب ، وضمدت جراح المقاتلين، كما يتبين في دراسة الحرب .

ودبرت شئون الأسرة ، كما يقول الشنفرى :  
وأم عيال قد شهدتُ تقوُّهُمُ      إذا أطعمتهم أو تحَتَ وأَقَلَّتْ  
تخاف علينا الجوع إن هي أكَثَرَتْ      ونحن جِياع ، أى آل تَأَلَّتْ<sup>(١)</sup>  
وهي تداوى الجرحى والمرضى بعيدة عن ميدان الحرب أيضاً ، فقد كانت  
لكعبية بنت سعد الأسامية خيمة بالمسجد تداوى فيها المرضى والجرحى ، وهي  
التي عاجلت سعد بن معاذ من جرحه يوم الخندق<sup>(٢)</sup> .  
وكانت لرُقَيْدَة الأنصارية خيمة في المسجد تداوى فيها الجرحى ، وتحسب  
بنفسها على خدمة جرحى المسلمين<sup>(٣)</sup> .

واشتهرت بعضهن بالطب في الجاهلية ، كزَيْنَب طيِّبَة بنى عَوَّاد ، كانت  
تعالج الأبدان ، وتطب العيون ، وتداوى الجراح<sup>(٤)</sup> .

لذلك يقول قيس بن الخطيم :  
طعنْتُ ابن عبد القيس طعنةً نائِرَ      لها نَفْدٌ - لولا الشعاعُ - أضاءها  
.. .. .. ..

---

(١) المنفصليات ١٠٨/١ والأغاني ٩١/٢١ أو تحت : أعطت قليلا . تألت : أقسمت .  
آل : قسم . (٢) الطبقات الكبير ٢١٣/٨ والإصابة ٧٦/٨ . (٣) الإصابة ١٠/٨  
وتهذيب التهذيب ٤١٨/١٢ وفيه أن رفيدة هذه هي التي سماها ابن سعد كعبية .  
(٤) الطبقات الكبير والإصابة .

يهون على أن ترُدَّ جِراحُها عيون الأواسى إذ حَمَدَتْ بلاءها<sup>(١)</sup>  
و يقول دراج لزوجته وقد طعن :

شُدِّي على العصب أم كهَمَسَ ولا تَهْلِكْ أذْرى وأرؤُسْ  
مقطّعاتٌ ورقابٌ خُسْ<sup>(٢)</sup>

وكان محمد بن الجهم يقول : لاتهابونا بكثير مما ترون من علاج القوابل  
والعجائز ، فإن كثيرا من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء<sup>(٣)</sup> .

٢ — وكانت تغزل وتنسج ، ولم يكن أحب إليها في فراغها من الغزل  
والنسج ، وقد مارستهما اليهوديات أيضا ، لأن النبي صالح أهل مقنا على أشياء ،  
منها أن يعطوه كل عام ربع ما اغتزلت نساؤهم<sup>(٤)</sup> .

وقد مارسن مع الغزل نسج الأقمشة<sup>(٥)</sup> . فالسيدة عائشة كانت تغزل<sup>(٦)</sup> .  
وحث النبي على تعليم النساء الغزل وحببه إليهن بقوله : « نعم لهُو المؤمنة في بيتها  
المغزل » ، وذكر زياد بن السكن أنه دخل على أم سَلَمَةَ ويدها مغزل تغزل به ،  
فقال لها : كلما أتيتك وجدت في يدك مغزلا . فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب  
بحديث النفس ، وإنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظممكن  
أجراً أطولكن طاقة<sup>(٧)</sup> .

وقد ذكر الشعراء هذه الحرفة ، قال جَنْدَلُ بْنُ الْمُثَنَّى الحارثى يصف سرايا :

(١) ديوان قيس بن الخطيم ه مخطوط وشرح الحماسة للرزوقي ١٨٥/١ الشعاع :  
الدم المنتشر . الأواسى : المداويات للجراح . ويذكر الرزوقي أنه ذكر النساء لأن الرجال  
كانوا يأفنون من الصناعات ويعلمونها الإمام والعبيد والحرائر اللاتي لسن في غاية بعيدة  
من الشرف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١١١/٢ العصب : أطناب المفاصل وهو أيضاً الشد والطنى  
وضرب من البرود ولعل المراد هنا السابري . أم كهَمَسَ : زوجته . لا تهلك : لا تخفك .  
خُسْ : منخفضة منقضة من الطمن .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٣٢٢ (٤) فتوح البلدان ٦٧ .

(٥) فتوح البلدان ٦٠ (٦) الإصابة ١٠٩/٣ .

(٧) الأجر الجزل في الغزل للسيوطى مخطوط والطبقات الكبير .

كَانَهُ بِالصَّخَصَحَانِ الْأَنْجَلِ قُطْنٌ سَخَامٌ بِأَيَادِي غَزَلٍ<sup>(١)</sup>  
وَحَمَسَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ دَارَةَ قَوْمَهُ عَلَى الثَّارِ ، فَقَالَ لَهُمْ إِنْ لَمْ تَتَّارُوا فَسَكُونُوا  
نِسَاءً ، وَامْسَكُوا الْمَغَازِلَ بِدَلِّ الرِّمَاحِ :

لَئِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَتَّارُوا بِأَخْيَكُمْ فَسَكُونُوا نِسَاءً لِلْخُلُقِ وَالسَّكُخْلِ  
وَيَبْعُوا الرِّدْنِيَّاتِ بِالْحَلِيِّ وَاقْعُدُوا عَنْ الْحَرْبِ وَابْتَاعُوا الْمَغَازِلَ بِالنَّبْلِ<sup>(٢)</sup>

٣ — وَكَانَ بَعْضُهُنَّ يَحْتَرِفُ بِالتَّجْمِيلِ وَالتَّزْيِينِ ، مِثْلُ آمَنَةَ بِنْتِ عِفَّانَ أُخْتِ  
عُثْمَانَ بْنِ عِفَّانَ<sup>(٣)</sup> ، وَمِثْلُ أُمِّ رِغْلَةَ الْقُسَيْرِيَّةِ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَقَالَتْ  
لَهُ : إِنِّي امْرَأَةٌ مُقَيَّنَةٌ أَقْبَيْنَ النِّسَاءِ وَأَزَيْنَهُنَّ لِأَزْوَاجِهِنَّ ، فَهَلْ هُوَ حُوبٌ فَأَنْبِطَ  
عَنْهُ ؟ فَقَالَ : يَا أُمُّ رِغْلَةَ ، قَيْنِيهِنَّ وَزَيْنِيهِنَّ إِذَا كَسَدْنَ<sup>(٤)</sup> . وَلَمَّا اشْتَرَى النَّبِيُّ صَفِيَّةَ  
مِنْ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سَلِيمٍ حَتَّى تَهَيِّئَهَا ، فَسَطَّطَهَا وَعَطَّرَهَا وَنَمَّصَتْهَا ،  
وَاشْتَرَكَتْ مَعَهَا صَوَاحِبَ لَهَا ، مِنْهُنَّ أُمُّ سِنَانِ الْأَسَامِيَّةِ<sup>(٥)</sup> .

٤ -- وَبَعْضُهُنَّ احْتَرَفْنَ بِالْإِرْضَاعِ ، وَلا سِوَا أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، إِذَا كَانَ الْخَضِرُ  
يَسْتَرْضِعُونَ الْبَدَوِيَّاتِ ، وَيَعْطُونَهُنَّ أَوْلَادَهُمْ لِيَرْضِيَنَهَا .  
وَيُظْهِرُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَرْضِعُونَ أَوْلَادَهُمْ هُمُ الْأَغْنِيَاءُ الْقَادِرُونَ عَلَى اسْتِئْجَارِ  
الْمَرَاضِعِ ، وَأَنَّ الْمَرَاضِعَ كُنَّ مِنَ الْخِثَابَاتِ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَرْضَعَاتِ سَلَمَى بِنْتُ ظَالِمِ الْعَامِرِيَّةِ أَرْضَعَتْ ابْنَ النِّعْمَانِ<sup>(٦)</sup> ،  
وَالسَّيِّدَةَ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ أَرْضَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٧)</sup> ، وَفِي حَدِيثِهَا أَنَّهَا  
خَرَجَتْ وَمَعَهَا زَوْجُهَا فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ تَلْتَمِسُ الرِّضْعَاءَ<sup>(٨)</sup> .

(١) لسان العرب ٤/١٤ وأساس البلاغة مادة سخم . الصخصحان : الأرض المستوية .  
الأنجل : الواسم . سخام : لين المس كالخمر . والبيت في الأساس منسوب إلى أبي النجم .

(٢) حاشية البحرى ١١ الخلق : نوع من الطيب (٣) الإصابة ٣/٨

(٤) الإصابة ٢٣١/٨ (٥) الطبقات الكبير ٨/٨٦ (٦) الأغاني ١٠/٩

(٧) لسان العيون ١/٩٦ والمعارف ٤٣ (٨) تاريخ الطبرى ٢/١٢٦

وقد أرضعت سفيان بن الحارث أيضا<sup>(١)</sup> ، ومنهن ثؤيبه مرضع حمزة ابن عبد المطلب<sup>(٢)</sup> ، وأم بُردة بنت المنذر بن زيد مرضع إبراهيم بن النبي منذ ولادته<sup>(٣)</sup> .

وكانت السيدة خديجة تسترضع لأولادها قبل أن تلد<sup>(٤)</sup> .  
وإذا فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم استئجار الظنيرة ، كما كان العرب يفعلون<sup>(٥)</sup> .

على أن بعضهم كان يعيب الإرضاع ، ففي أمثالهم : تجوع الحرة ولا تأكل بشديها . وقد فسر أبو هلال بأنها تجوع ولا ترضع لقوم على جُعل ، فيلحتمها عيب ، ويقول : كان أهل بيت زُرارة حُضَّان الملوك ، فافتخر بذلك حاجب ابن زُرارة بقوله :

حَصَّنَا ابن ماء المزن وابن مُحَرِّق إلى أن بدت منهم لِحًا وشوارب  
فعابه الناس وقالوا : ما رأينا من يفتخر بالمعائب غيره ، لأن الظئر خادم ،  
والخدمة تضع ولا ترفع . وقيل في تفسير المثل إن الحرة لا تهتك نفسها ، ولا تبدى  
ما لا ينبغي أن يبدي<sup>(٦)</sup> .

ولقد يعزز الترفع عن الإرضاع أن حسان بن ثابت رد على وفد تميم بمسمع من النبي وجاء في رده :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالأعند ذكر المكارم  
هُبْلَتُمْ ، علينا تفخرون وأنتم لنا خَوْلٌ من بين ظئر وخادم  
فقال رسول الله : لقد كنت غنيا يا أخا بني دارم - يريد الأقرع بن حابس -  
أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوا<sup>(٧)</sup> .

(٢) لإنسان العيون ١/٩٦ .

(٤) الإصابة ٨/٦١ .

(٣) الاستيعاب ٢/٧٨٨ والإصابة ٨/٢١٥ .

(٥) الميسوط للسرخسي ١٥/١١٨ .

(٧) أسد الغابة ١/١٢٠ .

(٦) جمهرة الأمثال ١/١٨٢ .

(٢٦) - المرأة في الشعر الجاهلي



٦ — وكان منهن قابلات ، كملى امرأة أبى رافع ، كانت قابلة السيدة مارية القبطية ، فلما ولدت إبراهيم بَشَر به أبو رافع النبي فوهب له عبداً <sup>(١)</sup> ، وكانت قابلة للسيدة خديجة أيضاً <sup>(٢)</sup> . وكانت سودة أو سودة بنت مسرح قابلة للسيدة فاطمة حين وضعت الحسين بن على <sup>(٣)</sup> .

ومنهن خافضات ، وكن محقرات ، ففي يوم أحد مر سباع بن عبد العزى العُبْشَانِي على حمزة بن عبد المطلب فقال له : هلم إلى يابن مقطعة البظور — وكانت أمه ختانة بمكة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله <sup>(٤)</sup> . وقد نصح النبي لأم عطية — وكانت تخنن النساء — بقوله أَشْمِيهِ وَلَا تَنْهَكِيهِ ، فإنه أُسْرَى للوجه ، وأخطى عند الزوج <sup>(٥)</sup> .

٧ — ومنهن من كن ينسجن الحضر ، وينمقنها ويخرقنها ، فقد أخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت : كنا نكون في عهد رسول الله وأبى بكر وصدر من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تخالطن ، وربما غزلت بعضنا فيه الخوص ، فأخرجنا منه عمر <sup>(٦)</sup> .

وكان بعض الحضر منمقاً جميلاً ، يقول النابغة الذبياني في الأطلال التي تجعدت رمالها من الريح إنها كالخصير الذي نمقته الصانعات :

كَأَنَّ مَجَرَ الرَّامِاسَاتِ ذُبُولَهَا عَلَيْهِ حَصِيرٌ نَمَقَّتُهُ الصَّوَانِعُ <sup>(٧)</sup>

٨ — واشتهرت رُدَيْنَةُ بتقويم الرماح ، حتى نسبوا الرماح إليها ، فقالوا ردينية ورْدُن . وهى امرأة سَمَّهَر ، وكانا يقومان الرماح بخط هَجَر <sup>(٨)</sup> .

٩ — وبعضهن يرعين الإبل والغنم . وسيرد في أعمال الإماء أنهن مارسن

(١) الاستيعاب ٢٢/١

(٢) الإصابة ٦١/٨

(٣) الإصابة ١١٧/٨

(٤) تاريخ الطبرى ١٨/٣

(٥) الحيوان ٢٨/٧ والبيان والتبيين ٢١/٢ . أشمى : أقطم قليلاً . لا تنهكى :

(٦) الطبقات الكبير .

لا تبالغى في القتل

(٨) لسان العرب ٣٧/١٧ والقاموس مادة سهر .

(٧) ديوان النابغة ٤٩

الرعى كالعبيد . ويظهر أن الرعى كان من أعمال العبيد والإماء ، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات ، ولذلك يقول ذو الإصبع العدواني في خطابه لابن عمه - وكانت أمه أمة - :

عنى إليك فما أُمى براعية ترعى الخاض ولا رأيى يتغبون<sup>(١)</sup>  
وحدثت سلامة الضبية أو سلامة بنت الحر قالت : مر بى رسول الله فى بدء الإسلام ، وأنا أرعى غنماً لأهلى ، فقال لى : يا سلامة بم تشهدين ؟ قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم أشهد أن محمداً رسول الله ، فتبسم ضاحكاً<sup>(٢)</sup> .  
وظل الرعى عملاً لبعضهن إلى الإسلام ، فقد كان الجنون ولىلى يرعيان غنماً لأهلها وهما صبيان عند جبل التَّوْبَاد ، وفيه يقول بعد كبره :  
وأجهشتُ للتَّوْبَاد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى<sup>(٣)</sup>  
ويدل على رعيهما معاً قوله :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للآتراب من ثديها حجم  
صغيرين رعى البهْم ياليت أنسا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم<sup>(٤)</sup>  
وكانت الراعيات خبيرات بالمرعى ، فقد تخصصت امرأتان إلى ابنة الخس فى مراعى أبويهما ، فقالت الأولى : إبل أبى ترعى الإسليح . فقالت ابنة الخس : رَغْوَة وَصَرِيح ، وسنام إطريح . قالت الأخرى : مرعى إبل أبى الخُلَّة . قالت ابنة الخس : سريعة الدَّرَّة والجُرَّة<sup>(٥)</sup> .

(١) الأمالى ٢٥٦/١ والفضليات ١٥٨/١ الخاض : الحوامل من النوق أو الحوامل فى عشرة أشهر والراد النوق مطناً .  
(٢) الاصابة ١١٠/٨ (٣) الأغانى ٥٢/٢ .  
(٤) الأغانى ١١/٢ .

(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ السندوبى و ١٦٢/٢ الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت فى الشتاء تسلىح الإبل إذا استكثر منها . الإطريح : الذى طال ومال أحد شقيه الخلة : بضم الحاء شجرة شاكه وما فيه حلاوة من النبات . الدرة : كثرة اللبن . الجرة بكسر الجيم وتفتح ما يفيض به البعير فىأكله ثانية ، واللقمة يتعلل بها إلى وقت علقه .

٩ — وكانت الثريات يمارسن أعمال الرجال أحياناً ، مثل طلاء النوق .  
الجرب ، فقد كانت الخنساء تغطي نوق أبيها ، فرآها دريد بن الصمة في مبادلها ،  
فأعجب بها وأحبها ، وقال فيها :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به      كالיום طالى أينقُ جُرب  
متبذلاً تبدو محاسنه      يَضَعُ الهناء مواضع النَّقَب  
متحسراً نَضَحُ الهناء به      نَضَحُ العبير برِيطَةِ الْعَصَب<sup>(١)</sup>

وشبيه بهذا أن يدبغن الجلود ، ويزلن عنها اللحم ، وفي أمثالهم : « حَلَّاتٌ  
جارية عن كوعها » أصله في التي تضع الجلد على كوعها ، ثم تسحاه بالسكين ، فإن  
أخطأت قطعت كوعها<sup>(٢)</sup> .

وحدثت أسماء بنت عُحميس أن رسول الله أتاها يوماً وقد هنأت - دبت -  
أربعين جلداً . . . .<sup>(٣)</sup> .

١ — وكن يحنين الكمأة ، ولم يكن هذا عمل الحفريات وحدهن ، بل  
شاركت فيه الثريات ، فمثلاً حليلة بنت فضالة بن كَلْدَة كانت مع صواحبها  
يحنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض في الربيع ، حين أبصرن أوس بن حجر  
طريقاً لا يستطيع الحراك ، إذ سقط من فوق ناقته . والدليل على ثراء أبيها  
قول أوس :

ولم تلها تلك التكاليف أنها      كما شئت من أكرومة وتخوؤ

(١) الأغاني ١٣/١٣٠ والوحشيات ١٧١ مخطوط والشعر والشعراء طبعة شاكر ٣٠٢  
الهناء : النظائر . النق : الجرب . نضح الطيب : أثره في الثوب . ربطة العصب : ملاءة  
مزخرفة .

(٢) جمهرة الأمثال ١/٢٣٧ وجمع الأمثال ١/١٧٦ الكوع : طرف الزند الذي يلي  
الإبهام . الحل : قطع اللحم عن الأديم والمعنى أنها فشرت اللحم من كوعها ، وهو يضرب لمن  
يتعاطى مالا يحسنه . (٣) الطبقات الكبير ٨/٢٠٦

وقوله في رثاء أبيها .

أَبَادُ لَيْحَةٍ مِنْ تَوْصِي بِأَرْمَلَةٍ      أُمٍّ مِنْ لَأْشَمَتْ ذِي طِئْمَرَيْنِ مُمَحَالٍ ؟  
أَبَا دَلِيحَةٍ مِنْ يَكْفَى الْعَشِيرَةَ إِذْ      أَمْسَوْا مِنَ الْأَمْرِ فِي لَبْسٍ وَبَابِلٍ <sup>(١)</sup>

١١ — والروايات كثيرة في معابة حلبها اللبن . من ذلك أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بني يربوع فقتل الرجال ، والحارث يومئذ غلام ، فبقيت النساء ، وكانت نساء بني ذبيان لا يحلبن النعم ، فلما بقين بغير رجال طفقن يدعون الحارث ، فيشد عصاب الناقة ثم يحلبنها ، ويمكن رجالهن ، ويبكي الحارث معهن ، فتشأ على بغض خالد <sup>(٢)</sup> .

ويذكر الميداني أن النساء في البادية كن لا يحلبن ، لأنه عار عندهن ، وإنما يحلب الرجال <sup>(٣)</sup> .

لذلك يقول النابغة الذبياني في الهجاء :

قَدْ رَأَيْنَا مَكَانَ أُمِّكَ إِذْ تَمْنَعُ مِنْ دِرَّةِ اللَّقِيحِ الْفَصِيلِ <sup>(٤)</sup>

١٢ — وكان بعضهن يرقين كخالدة بنت أنس الأنصارية ، فقد عرضت رقاها على النبي فأمر بها <sup>(٥)</sup> . ومثل الشفاء المدوية فإنها لما عرضت رقاها على النبي قال لها : ارقى بها وعامىها حفصة <sup>(٦)</sup> .

وكان منهن الفكية المزاحمة التي تؤنس النساء وتسليهن ، ففي سنن أبي داود : كانت امرأة مكية بطالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثابا ، فقدمت المكية المدينة فتعارفتا ، فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وقالت

(١) الأغاني ١٠/٧ و ١٨ أشعت : مغبر الرأس من شدة بؤسه . ذو طمرين : لا بس أسالا .

(٢) الأغاني ١٠/١٦ (٣) بحج الأمثال ٢/٣٣٥

(٤) ديوان النابغة ٤٦ (٥) أسد الغابة ٥/٤٣٣

(٦) الإصابة ٨/١٢١ وفتوح البلدان ٤٧٧ والطبقات ٨/٥٩ والاستيعاب ٢/٧٦١ .

الملكية : عرفت هذه ؟ قالت : لا . ولكننا التقينا فتعارفنا . فضحكت عائشة .  
وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف  
منها اثتاف ، وما تناكر منها اختلف<sup>(١)</sup> .

### ١٣ — الكهانة والعرافة

وإذ كانت الكهانة عظيمة الخطر في الحياة الجاهلية ، وإذ كانت نساء  
شيركات قد اشتهرن بها ، فمن حقها أن أفرد لها بعناية خاصة . والكهانة بكسر  
الكاف حرفة الكاهن ، وبفتحها مصدر الفعل كَهَنَ ، وهي الإخبار بالغيب  
الذي سيقع<sup>(٢)</sup> .

وللسابقين آراء في وسائل الكاهن إلى معرفة الغيب<sup>(٣)</sup> ، ليس من موضوعي  
أن أعرض لها . وهم ينظمون في سمطها العرافين والزاجرين للطير والطارقين  
للحصى وغيرهم<sup>(٤)</sup> . وإن كان ابن خلدون يفرق بين الكاهن والعراف بأن  
الكاهن أصفى روحاً وأقوى تخيلة ، فهو يعتمد على روحه ، أما العراف فإنه  
أضعف منه ويعتمد على ظنه وترجيحه<sup>(٥)</sup> . وبعضهم يقصر الكهانة على المستقبل  
والعرافة على الماضي . ولكن الأكثر على أنهما من واد واحد .

والكهانة قديمة النشأة جداً لأن الإنسان كان محاطاً بقوى خفية لا يستطيع  
أن يفهم كتبها ، وكان عاجزاً عن مقاومتها ، فحاول أن يستميلها بالتضرع تارة  
وبالقتل أخرى ، فنشأ الدين والسحر ، وكانا وليدَي هذا الجهد المزدوج ، وكان  
طبيعياً أن يلتقيا في نقط عدة ؛ لأنهما يستعملان في غرض واحد ، وإليهما يلجأ

(١) سنن أبي داود (٢) القاموس مادة كهن

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٦٩ وشرح صحيح مسلم للنووي وشرح سنن أبي داود للخزرجي  
وبلوغ الأرب ٢٦٩/٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ٣٦٩ والقاموس المحيط مادة عرف .

(٥) المقدمة ٣٧٣ .

الإنسان في حال بؤسه أو خوفه ، تضرعاً أو خيفة ، رغبة أو رهبة . ومن العبث أن نبحت فيما إذا كان السحر وليد الدين أو الدين وليد السحر ، فالاعتقادان قد ظهرا في وقت واحد ، أملاهما مظهر العالم والطبيعة<sup>(١)</sup> .

وقد عرف العرب الكهانة ، وكثر فيهم الكهان والكواهن . فمن الكهان عَزَّى سَلَمَة ، وشَيْق بن أَمَّار ، وحازِي جُهَيْنَة ، وسَطِيح بن مازن الفسائي<sup>(٢)</sup> ، وخُنافر بن التَّوَّام الحميري<sup>(٣)</sup> ، وسَواد بن قارب الدوسي<sup>(٤)</sup> . ومن العرافين رَبَّاح ابن عَجَلَة عراف اليمامة ، والأباق الأسدي عراف نجد<sup>(٥)</sup> ، وهما اللذان ذكرهما عروة بن حزام في قوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه      وعراف نجد إن هما شفياني  
فقلنا: شفاك الله ، والله مالنا      بما ضمنت منك الضلوع يدان<sup>(٦)</sup>

### أما النساء الكواهن فيكثير :

١ — منهن عُفَيْراء الكاهنة الحميرية ، ومن قصتها أن مَرثَد بن عبد كلال انتصر في غزاة وغم ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه . ثم رأى رؤيا أذعرتة في منامه ، ولم يستطع أن يتذكرها في صحوه فحزن ، وجعل يسأل الكهان فلا يعلمون ما بنفسه ، فاشتد حزنه وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ؛ لأن أتباعهن من الجانِّ أطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشد الكواهن إليه ، وسألهن فلم يجد عندهن علما . ثم اهتدى مصادفة إلى عُفَيْراء ،

(١) مصر القديمة ٦٣٠/٧ سليم حسن ومقدمة المحاضرات الأول ٤٨ - ٥٦ جستاب

لوبيون . (٢) البيان والتبيين ١/٢٨٩ و٣٠٨ .

(٣) بلوغ الأرب ٢٩١/٣ (٤) المرجع السابق ٢٩٩/٣

(٥) مقدمة ابن خلدون ٣٧٤

(٦) الأغاني ١٥٥/٢٠ والوادع للأقال ١٦١ ومقدمة ابن خلدون ٣٧٣ .

فعرفت حامه الذى كان قد نسيه ، وقصته عليه ، وأولته له ، فسر منها ، وأهدى إليها مائة ناقة كؤماء<sup>(١)</sup> .

٢ — ومنهن زبراء ، وهى أمة من مولات العرب كانت تُخوِّد من بنى رثام ، وقد أُنذرت بنى رثام وهم فى عرس لهم بأن بنى داهن يبيتون الشر لهم ، فكذبها بعضهم ، وبقوا فى عرسهم ، وصدقها آخرون فانصرفوا ، فطارتهم بنو داهن وناعب فقتلوا من فى العرس<sup>(٢)</sup> .

٣ — ومنهن طريقة الكاهنة ( يضم الطاء وفتح الراء أو بفتح الطاء وكسر الراء ، أو طريقة بالطاء المفتوحة ) . وهم ينسبون إليها التكهن بسيل العرم ؛ لأنها رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى سيل فيدمر الجنتين ، وأُنذرت بذلك عمرو بن عامر الذى يقال له مزقياء بن ماء السماء ، فباع أمواله وارتحل هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، وكانت طريقة معهم ، ثم أصابتهم الحمى ، فأشارت عليهم أن يتفرقوا فى جهات أخر ، فأطاعوها<sup>(٣)</sup> .

٤ — ومنهن عرافة الحجاز ، وهى التى احتسك إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله ، ومنعه بنوه وأخواله بنو مخزوم وعطاء قریش ، وذهبوا إليها يسألونها ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا ، عشر من الإبل . قالت : فارجعوا ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عايبها وعليه بالتقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه . فعادوا وضربوا بالتقداح ، فكانت تخرج على عبد الله ، حتى بلغت مائة ، فخرجت على الإبل فذبجوها وتركوها للآكلين

(١) بلوغ الأرب ٢٩٦/٣ . (٢) الأمل ١٢٦/١ .

(٣) مروج الذهب ٢٣٩/١ وأخبار مكة للأزرقي ٥٢-٥٥ والأغانى ١٣/٥-١٠ وجمع الأمثال للبيداني ٢٥٣/١ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ٢٨٦/١ والأعلاق النفيسة لابن رسته ١١٤/٧ .

ونجا عبد الله<sup>(١)</sup>.

٥ — ومنهن كاهنة بنى سعد اسمها هذيم ، وكأنت بالشام ، وهى التى كان يريد الاحتكام إليها عبد المطلب وقريش حين تنازعوا فى حفر زمزم<sup>(٢)</sup>.

٦ — ومنهن الغيطة - كاهنة من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة ، وهى أم الغياطل - التى قيل إنها تنبأت ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٣)</sup> ، وفى مسند أحمد ابن حنبل أن كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاما<sup>(٤)</sup>.

٧ — ويطول القول إذا فصلنا أخبار هؤلاء ، وأخبار غيرهن ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهن كفاطمة بنت مرة الخثعمية<sup>(٥)</sup> ، والزرقاء بنت زهير<sup>(٦)</sup> ، وكاهنة بنى حدس<sup>(٧)</sup> . وبعضهن كن حسيبات كأمرثد السابقة ، وسامى الممدانية<sup>(٨)</sup> ، وغيرها<sup>(٩)</sup>.

### سجع السكواهن :

كان الكهان والكواهن يعمدون إلى لغة مسجوعة ، لا فرق فيها بين سجع الرجال وسجع النساء ، مثل قول زبراء لبني رثام تنذرهم بهجوم أعدائهم :  
واللوح الخفافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن  
الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو ختلا ، ويحرق أنياباً عُصلا ، وإن صخر الطود  
لينذر تُكلا ، لا تجدون عنه مَعْلًى<sup>(١٠)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام ١/١٦٦ وأخبار مكة للأزرقي ٢٨٨ وتاريخ الخميس ١/٢٠٧ وتاريخ الطبري ٢/٢٧٤ وفى تاريخ الخميس أن اسمها سجاح أو قطبة .

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٥٥١ (٣) سيرة ابن هشام ١/٢٢٥

(٤) المسند ١/٣٣٢ وتاريخ ابن عساكر ٣٦٧ .

(٥) مجمع الأمثال ٢/٤٦ (٦) الأغاني ١١/١٥٥

(٧) سيرة ابن هشام ٣/٤٣٨

(٨) الأمالي ٢/١٢١ . (٩) جمهرة خطب العرب ١/٢٣٩ - ٣٥٢ .

(١٠) الأمالي ١/١٢٦ اللوح : الهواء . يادو : يخل . عصلا : معوجة . معلى : منجاة .



ومثل قول طريفة لقومها وقد أصابتهُم الحمى في مكة : « من كان منكم ذاظمٌ بعيد، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلق بقصر عُمان المشيد . ومن كان منكم ذا جاد وصبر ، على أزومات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مُرّ . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوَحْل ، المطاعم في المَحْل ، فليلق بيثرب ذات النخل . ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ، والمُلْك والتأثير ، ولبس الديباج والحريز ، فليلق ببُغْرى وعَوير . ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخليل العِتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المِهراق ، فليلق بأرض العراق <sup>(١)</sup> .

ومثل قول الرقاء بنت زهير وقد سألتها قومها حين نزلوا بهجر : ما تقولين يازرقاء ؟ قالت : « سَمَفٌ وإهان ، وتمر وألبان ، خيرٌ من الحوان . . . » <sup>(٢)</sup> . وكان هذا السجع ضروريا للكهان والكواهن ، لأن له رنيناً موسيقياً ، ووقعا جميلا ، فيؤثر في النفس ، وتجذب موسيقاه قلوب السامعين ، فيموء عليهم الكاهن أو الكاهنة ، ويمتلك عواطفهم ، ويخدر وعيهم ، ويخدشهم بما يزعم أنه عليهم به ، فيسمع الناس عنه مصدقين لما يقول ، غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه . لذلك كثيراً ما لجأ الساجعون من الكهان إلى نوع من الغموض ، لتحتمل الكلمة أو الجملة عدة معان ، وليذهب السامعون في فهمها كل مذهب . « والترنيم هو الأساس الذي قام عليه السحر ، ومن المهم كما يقول المصريون القدماء أن يكون الصوت مضبوطاً ، لأن الصوت هو الذي يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما يقول كمباريو ، وما يصدق على الموسيقى يصدق على الشعر أيضاً <sup>(٣)</sup> .

(١) أخبار مكة للأزرقي ٥٢ ومروج الذهب ٢٣٩/١ والأغلاق النفيسة ١١٤/٧ وجمع الأمثال ٥٢٣/١ .

(٢) الأغاني ١٥٥/١١ ومعجم ما استعجم للبكري ٢٢/١ .

(٣) مبادئ علم الاجتماع الديني ٤٧ تأليف باستيد ترجمة محمود قاسم .

لذلك نعى النبي عن سجع الكهان خاصة<sup>(١)</sup>.

### دلالة السحرانة على علو مكانة المرأة :

ومما يسترعى النظر أن الأحداث الكبار ، والهجرات المشهورة ، وتفرق القبائل في أماكن شتى ، كانت مصحوبة بذكر الكاهنات وسجعهن ، وقد سبق سجع طريفة لما تنبأت بسيل العرم ، ولما أشارت على قومها بالتفرق من مكة فأطاعوها ، ونزلوا بأماكن شتى<sup>(٢)</sup> . كذلك لما تفرقت قضاة في البلاد ونزل بعضهم بهجر أشارت عليهم بالرحلة إلى الخيرة فأطاعوا<sup>(٣)</sup> .

وكذلك سبق أن عبد المطلب لما نازعته قريش في زمزم هم بالاحتكام إلى كاهنة بالشام ، وأنه احتكم إلى أخرى بالحجاز لما عزم على قتل ابنه عبد الله ، وأن كاهنة تنبأت بالبعثة الحمدية .

ولست أريد بذكر هذا أن يكون تصديقاً للكواهن ، وإنما أريد أن العرب كانوا يجلون الكهان - من رجال ونساء - ويحتكمون إليهم في المشكلات ، ويصدرون عن رأيهم . وقد نسبوا إلى الكواهن أحداثاً أعظم مما نسبوا إلى الكهان ، وسواء أكان لها نصيب من الصحة أم لم يكن ، فإنها دليل على أن المرأة كانت في نظرهم جديرة بأن تُسْتَفْتَى ، وأن تنبئ بالغيب ، وأن يطاع نصيحها ، وتتبع مشورتها ، كما سنرى عند الأشوريين .

### شك المرأة العربية في السحرانة :

شك رجال في صدق الكهان والكواهن ، مثل المرقم<sup>(٤)</sup> ، وربيعة

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) أخبار مكة ٥٢ - ٥٥ ومعجم البلدان ٧/ ٣٥٥ ومروج الذهب ١/ ٢٣٩ ومعجم

الأمثال ١/ ٢٥٣ .

(٤) حاسة البحرى ٢٥٥ والأغانى ١/ ١٥٧ .

(٣) الأغاني ١١/ ١٥٥

ابن مقروم<sup>(١)</sup> ، وعالقمة بن عبدة<sup>(٢)</sup> ، والناطقة الذيباني<sup>(٣)</sup> ، ولييد<sup>(٤)</sup> .

وشكت نساء في صحة الكهانة كما شك الرجال . من هؤلاء هند بنت عتبة ، فإن زوجها الفاكه بن المغيرة ظن بها سوءاً فالحقها بألها ، ولم تسكن تعرف لنفسها جرماً ، واستوثق أبوها من براءتها ، فخرج بها في وفد من النساء والفاكه معه إلى بعض الكهنة ، فلما شارفوا بلده تغيرت هند وامتنع لونها ، فقال لها أبوها : إني أرى ما بك ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ، فبلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا . قالت : يا أبت إن الذي رأيت مني ليس لمكروه عندي ، ولكنني أعلم أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب ، ولا آمن أن يسمني ميسماً يكون عليّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإني سأمتحنه قبل أن نسأله . وامتحنه فعرف صدقه ، ثم قصوا عليه أمر هند فقضى ببراءتها<sup>(٥)</sup> .

### الكهانة في الأمم :

لا يكاد يخلو شعب من الكهانة ، فقد كان الآشوريون - وهم أقدم الأمم السامية - يعتقدون أن المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تفهم السحر وتمارسه ، وأن تعرف الغيب وتتكهن به<sup>(٦)</sup> .

وكان في مصر كاهنات ، زعم هيرودوت أنه كان محرماً على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أم لمعبودة . وهذا قول لا نصيب له من الصحة ، لأن النساء كن يستخدمن في المعابد ، وكثيراً ما وجدنا ذكراً

(١) حاسة البجري ٢٥٧ (٢) الفضليات ٢٠١/٢

(٣) ربيع الأبرار ١٢٣ مخطوط والمدة ٢٠٢/٢ والبيان والتبيين ١٨٤/٣ والحيوان ١٣٨/٣ .

(٤) ديوان لبيد (٥) شرح نهج البلاغة ١١٢/١ .

(٦) مقال المذكر والمؤنث : . عمر الدسوقي . الرسالة العدد ( ٢٨٥ ) ١٩ ديسمبر

١٩٣٨ عن :

لكاهنات ، وخاصة في عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت<sup>(١)</sup> .  
 وليس هذا بمعجيب في الشرق عند قدماء المصريين وغيرهم ، لأن السحر  
 كان عظيم الأثر في حياتهم<sup>(٢)</sup> .  
 وكان في اليونان والرومان كهان وكاهنات ، وإن كان النساء أقل عدداً<sup>(٣)</sup> .  
 ثم كانت في أوروبا في العصور الوسطى ساحرات قاسيات يزعمن أنهن  
 على صلة بالله ، ويرى الناس أنهن على صلة بالشيطان ، وقد حوكن أمام محاكم  
 التفتيش وقطن ، وأحرقن ورجعن ، وأحرقت منهن آلاف في دول شتى<sup>(٤)</sup> .

#### ١٤ — معرفتها الفريدة والمكناية :

نعرف أن عرب الجاهلية كانوا يتعاملون بالتجربة والملاحظة والمخاطبة ،  
 وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به . فالبدواة كانت غالبية على العرب ،  
 وهي طور اجتماعي طبيعي تجتازه الأمم في سيرها إلى الحضارة ، ومن شأنها  
 ألا تتيح للبداة دراسة منظمة ، ولا تفكيراً متفلسفاً ، ولا تعمقاً في الربط  
 بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعللها ، وإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم  
 فهي نتاج طبعه ، وخطرة من فكره .

وبديهي أنني لا أعنى بالثقافة أو المعرفة أن العرب كانت لهم علوم ذات  
 أصول وقواعد ، لأن طور البدواة يناقض ذلك ، وإنما أعنى المعرفة التي تستمد  
 من الفطرة والبيئة والأحداث ، كالذي قاله ابن خلدون في طب الجاهلية :  
 « وللبادية من أهل العراق طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على  
 بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ،  
 إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب

(١) ديانة قدماء المصريين ٧٣ إستيندروف الألمانى ترجمة سليم حسن .

(٢) المرجع السابق ٨٣ (٣) الإلياذة ٤٦٤ .

(٤) المرأة في مختلف العصور ٤٣ .

من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون <sup>(١)</sup> .

وأفصد في هذا الفصل إلى تبيان نصيب المرأة من الثقافة في العصر الجاهلي ، لأرؤز قيمتها ومكانتها من هذه الناحية أيضاً ، ولأتعرف قدرها بالقياس إلى أقدار الرجال .

١ - لكنني أرى أن أقدم للموضوع بخلاء هذه الفكرة : أكان العرب يعرفون الكتابة والقراءة ؟ أم أنهم كانوا كما أشيع عنهم جهلة لا يكتبون ولا يقرءون ؟ ثم أبين نصيب المرأة من هذا الجهل أو من هذا العلم .

أما العرب البداءة فإنهم ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لأن الحياة البدوية تباعد ما بينهم وبين هذه المعرفة ، وهذا شأن البداءة في كل الأمم .  
وأما أهل الحضرة فقد كان بعضهم على علم بالكتابة والقراءة قبل بزوغ الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فقد وجدت كتابات عربية في جنوبي الجزيرة من عهد دولة معين ، وسبأ وحِمْيَر ، وجمع المنتقبون مئات الألواح والصور منها . وقد كتب العرب على قبة غُمدان ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المُشَقَّر ، وعلى الأبلق الفرد <sup>(٢)</sup> .

ووردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلمون أبناءهم الكتابة في الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة في داره بعد مقتل أبيه ، فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ولد سماء زيدا باسم أبيه . وكان لحمد صديق من الدهاقين العطاء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حماداً

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٠٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٦٨/١ غمدان : قصر بين صنعاء وطبوه . مأرب : بين صنعاء وحضر موت باليمن . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حصن السوءل بتيما .

أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الفارسية فلقنها ، وتولى كتابة العربية لكسرى<sup>(١)</sup> .

تعلم عدى بن زيد في كُتَّاب عربي ثم كُتَّاب فارسي ، وصار من أكتب الناس بالعربية والفارسية وكتب بالعربية في ديوان كسرى<sup>(٢)</sup> ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده<sup>(٣)</sup> . وقد تعلم المرقش الأكبر هو وأخوه حرمة الكتابة من نصراني بالحيرة ، وكان يكتب شعره<sup>(٤)</sup> .

وقد دونوا تاريخهم في الجاهلية ، فإن هشام بن محمد الكلبي قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولى منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة<sup>(٥)</sup> .

ودونوا الشعر أيضاً ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس ، أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي ، وقال ابن رشيق مثل ذلك<sup>(٦)</sup> . وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان ، أو ما صار منه<sup>(٧)</sup> . وابن جني يقول : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطُّنُوج - الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عُبَيْد قتل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفزه فأخرج تلك الأشعار<sup>(٨)</sup> .

(١) الأغاني ١٠٠/٢

(٢) الأغاني ١٠٩/٢

(٣) الأغاني ١٠١/٢

(٤) الأغاني ١٨١/٥ والشعر والشعراء ٥٥ وشرح المفصلات لابن الأنباري ٤٦٠

والمعارف ٣١٩ .

(٥) العمدة ٦١/١

(٥) تاريخ الطبري ٣٧/٢

(٨) الخصائص لابن جني ٣٩٣

(٧) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٣

وقد فصلت القول في تدوينهم بعض الشعر في العصر الجاهلي بكتابي  
( الحياة العربية من الشعر الجاهلي <sup>(١)</sup> ) .

وقد عرف الحجازيون الكتابة ، لأنه لما ظهر الإسلام كان في قريش  
سبعة عشر رجلاً يكتبون ، ذكر أسماءهم البلاذري <sup>(٢)</sup> .

وقد كان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربي ويعلمونه صبيان المدينة  
في يثرب ، فتعلم منهم الأوس والخزرج ، فكثرت كتبهم من قلة ، وبلغوا  
أحد عشر ، منهم خضير الكاتب ، وسويد بن الصامت ، وعبد الله بن أبي <sup>(٣)</sup> .  
وفي موقعة بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من المسلمين  
الكتابة <sup>(٤)</sup> ، وهذا دليل على معرفتهم بها .

وقد ذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة  
مكتوب :

أَلْهَى قُصِيًّا عَنِ الْجَدِّ الْأَسَاطِيرُ      وَرَشُوهُ مِثْلَ مَا تُرْشَى السِّفَاسِيرُ  
وَأَكْلَهَا اللَّحْمَ بَحْمًا لَا خَلِيطَ لَهُ      وَقَوْلُهَا رَحَلَتْ عَيْرٌ أَتَتْ عَيْرُ  
فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا مَا قَالَهَا إِلَّا ابْنُ الزَّبْعَرَى <sup>(٥)</sup> .

وروى أن ورقة بن نوفل كان في الجاهلية يكتب كتابة عبرية <sup>(٦)</sup> .

ثم إننا نعلم أن قريشاً تأمرت على النبي ومن أسلم معه ، وتعاقدت في صحيفة

(١) الطبعة الرابعة

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦٠/٢ وفتوح البلدان للبلاذري ٤٧١ وعيون الأخبار ٤٣/١  
والمعارف ٢٧٣ والمزهر ٣٥١/٢ .

(٣) فتوح البلدان ٤٧٣ - ٤٧٩ .

(٤) الكامل للمبرد ٢١٣/١ والسيرة الحلبية ٢٥٤/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل  
٢٤٧/١ وإمتاع الأسماع ١٠١/١ .

(٥) طبقات الشعراء ١٩٧ الأساطير : الحرافات . الفاسير : ج سفسير وهو السمار .  
أكلها اللحم بحمًا : كناية عن الفقر لأنهم يأكلون اللحم بغير خبز .

(٦) الأغاني ٢٠/١٣ .

مكتوبة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلقوا الصحيفة في الكعبة ، وقد دعا رسول الله على كاتبها فשל بعض أصابعه<sup>(١)</sup> .

وقد كتب النبي إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وإلى ابني الجاندی ملك عمان : جيفر وعياذ أو عباد ، وإلى العبالة من حمير ، وإلى هوزة بن علي ، وإلى الملوك والعطاء<sup>(٢)</sup> ، وكان له نحو أربعين كاتباً لكل منهم عمل أو أكثر ، وهم كلهم أو جابههم عرفوا الكتابة قبل الإسلام .

ثم إن في اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه<sup>(٣)</sup> ، والشعر الجاهلي حافل بالدلالة على الورق الذي يكتب فيه .

فمثلاً يقول الحارث بن حلزة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لمن الديار عفون بالجيس آياتها كمهارق الفرس<sup>(٤)</sup>

وهو نفسه يذكر أن حلف ذي الجاز كان مكتوباً :

واذكروا حلف ذي الجاز وما قدّم فيه العهود والكفلاء

حذر الخون والتعدي وهل تنقض ما في المهارق الأهواء<sup>(٥)</sup>

لأنهم كانوا في الجاهلية يدعون من يكتب لهم الحلف والمدة ، تعظيماً للأمر ، وتبعداً من النسيان . والمهاريق التي وردت في قول الحارث بن حلزة ليس يراد بها الصحف والكتب ، لأنه لا يقال للكتب مهاريق حتى تكون كتب دين أو عهود وميثاق وأمان<sup>(٦)</sup> .

ويقول البعيث بن حرث الحنفي :

لمن طلل كروضات السخال تأبده كالمهاريق البوالى<sup>(٧)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٣٧٢/١ (٢) الحيوان ٩٨/١ .

(٣) بلوغ الأرب ٣٦٧/٣ - ٣٧٩ .

(٤) الفضليات ١٣٠/١ المهارق : جمع مهريق : الصحيفة معرب .

(٥) البيان والبيان ٦/٣ وشرح القصائد العشر للتبريزي ٣٦٩

(٦) الحيوان ٦٩/١ (٧) معجم البلدان ٣١٧/٤

( ٢٧ - المرأة في الشعر الجاهلي )



على أننا نجد في شعر أبي ذؤيب الهلالي وصفًا لكاتب يمني يكتب دينا له  
على رجل مشهور بالوفاء :

عرفت الديار كرقم الدوا      ة يزبره الكاتب الحميري  
برقم ووشى كما زخرقت      بمشمها المزداهة الهدي  
أدان ، وأنباه الأولو      ن أن المدان الملي الوفي  
فقمتم في صحن كالرياء      ط فيمن إرث كتاب يحيى<sup>(١)</sup>  
ونجد في شعر علباء بن أرقم ذكراً للدين المكتوب :

أخذت لدين مطمئن صحيفة      وخالفت فيها كل من جار أو ظم<sup>(٢)</sup>  
وكذلك في شعر المرق العبدى :

فلا أنا مولاهم ولا في صحيفة      كفلت عليهم والكفالة تعنى<sup>(٣)</sup>

وقد أكتروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رسالها ، والخطوط المنتظمة  
التي تصنعها الرياح فيها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من  
هذا التصوير كثرة تدعونا إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلي .

فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التي تحكى عنهم ، لأن هذا  
الفيض من التشبيه ينبىء عن معرفة بالورق والكتابة عند بعض الشعراء المشبهين  
على الأقل ، ومن خصائص التشبيه في العصر الجاهلي أنه لا ينجح إلى العلائق  
الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما ينجح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسى  
للمشبه والمشبه به ، فالتشبيه هنا ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة ، وإنما هو  
تصوير لعلاقة يحددها الشاعر بين منظر الأثر العائى وبين الكتابة .

ومن ذلك تصوير معاوية بن جعفر عم لبید لآثار الدار بأنها كتابة

(١) ديوان الهذليين ١/٦٤ . يزبره : يكتبه . الليشم : الإبرة التي تشم بها  
المرأة كفنها . المزداهة : العجبة . الهدي : العروس . أذان : باع إلى أجل فصار له دين على  
المشتري . الأولون : كبار السن . الملي : الموسر . الرباط : جمع ربطة وهي الملاءة لم تلتق .  
إرث : أصل .

(٢) الأصمعيات ١٨٠ .

(٣) الأصمعيات ١٩٠ نعتي : تحتبس أى أن الكناية تحبس صاحبها على الوفاء بما كفل

ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق يتخوف أن ياحقه عيب :

فإن لها منازلَ خاويات على كَمَلَى وقفتُ بها الركابا  
من الأجزاء أسفل من تَمِيل كما رجعت بالقلم الكتابا  
كتابَ نَحْبَرٍ هاجٍ بصير مُنَمَّعُهُ وحاذر أن يعابا<sup>(١)</sup>  
وقول الأحنس بن شهاب التغلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، لأن  
العنوان مجود الخط واضحة :

لابنة حِطَّانَ بن عوف منازل كما رَقَّش العنوان في الرِّقِّ كاتب<sup>(٢)</sup>  
وقول امرئ القيس إن الآثار مثل الكتاب المخطوط في سعف النخل  
الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لمن طل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العُسيب اليماني<sup>(٣)</sup>  
وقول طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التي تمها كاتب في  
وضح النهار ، وذلك أجود لها :

أشجأك الربع أم قِدْمُهُ أم ترابٍ دارسٍ حَمَمُهُ  
كسطور الرق رَقَّشهُ بالضحى مرقَّش يَشْمُهُ<sup>(٤)</sup>  
ومثل هذا ورد في شعر حاتم<sup>(٥)</sup> والمرقش الأكبر<sup>(٦)</sup> وثعلبة بن عمرو العبدى<sup>(٧)</sup>  
وقد جاء ذكر الورق الشامي في وصف طرفة لناقته ، وتشبيهه بياض  
خدها بالقرطاس<sup>(٨)</sup> .

(١) الفضليات ١٥٧/٢ تلى : ماء بقرب المدينة . الأجزاء : منعطفات الوادى . تميل : تصغير تلى على حذف الزيادة كما قال البكرى . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر : محسن . هاج : قارىء .

(٢) الفضليات ٤/٢ والأحنس هذا جاهلى لا صحابى كما توهم الفيروزا بادى إذ التيس عليه بالأحنس بن شريق .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٨٦ .

(٤) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢٤٦/٢ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٥) شعراء النصرانية ١١٨ (٦) البيان والتبيين ٢٨٨/١ والأمالى ٢٤٦/٢

(٧) الفضليات ٨١/٢ (٨) ديوان طرفة ١٩ .

وجاء ذكر المجلة في مدح النابغة للفساسة ، والمجلة الصحيفة ، فقد قال أبو جاتم إن بيت النابغة يروى مجاتهم ومحاتهم ، فمن روى مجاتهم فقد أراد الصحيفة ، ومن روى محاتهم فقد أراد بلاد الشام . قال النابغة :

مجاتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون خيراً العواقب<sup>(١)</sup>

ثم إن القرآن الكريم كثيراً ما ذكر الكتابة والصحف والقلم والقراءة ، وليس بمعقول أن يخاطب بهذا قوماً يجهلون الكتابة والقراءة . من ذلك قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق »<sup>(٢)</sup> و : « كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون »<sup>(٣)</sup> و « في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة »<sup>(٤)</sup> و « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه »<sup>(٥)</sup> و : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »<sup>(٦)</sup> و : « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى »<sup>(٧)</sup> و : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة . وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا بعد ما جاءتهم البينة »<sup>(٨)</sup> و : « لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون »<sup>(٩)</sup> و : « لو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين »<sup>(١٠)</sup> و : « هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه »<sup>(١١)</sup> و : « وما قدرنا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً »<sup>(١٢)</sup> .

- |                          |                      |
|--------------------------|----------------------|
| (١) الأمل ١/٢٤٥          | (٢) سورة العلق آية ١ |
| (٣) سورة الانقطار آية ١٠ | (٤) سورة عبس آية ١٤  |
| (٥) سورة الحاقة الآية ١٩ | (٦) سورة الإسراء ١٤  |
| (٧) سورة الأعلى ١٨       | (٨) سورة البينة ٢    |
| (٩) سورة الأنبياء ١٠٥    | (١٠) سورة الأنعام ٧  |
| (١١) سورة الأنعام ١٥٥    | (١٢) سورة الأنعام ٩١ |

وإذا فليس بصحيح ما شاع عن جهل العرب بالخط ، سواء في ذلك ما يكرره بعض المؤرخين المسلمين وما يقرره بعض المستشرقين مثل نيكلسون<sup>(١)</sup> .

ب — وإذا فما معنى أميين في القرآن الكريم ؟

كيف تتفق معرفة العرب القراءة والكتابة مع قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »<sup>(٢)</sup> ؟

الذي يظهر من سياق الآية الكريمة ومن تفسيرها أنه لا تعارض ، ذلك بأن العرب أمة أمية ، على معنى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به ، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى ، يهديهم بالقرآن الكريم ، ويعلمهم ما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وابن زيد<sup>(٣)</sup> . ويعزز هذا التأويل ختام الآية « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » أى أن هؤلاء الأميين كانوا قبل النبي وقبل القرآن الكريم في ضلال من عقائدهم .

على أن النيسابورى يورد رأيا آخر في تفسير الأميين ، فيقول إن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب أو أم القرى<sup>(٤)</sup> ، ويشاركه في ذلك ابن عبد ربه<sup>(٥)</sup> ، وهو رأى ضعيف .

وأما قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . . . . . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى . . . »<sup>(٦)</sup> . فإن الأمى هو النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> ، إما لأنه لم يقرأ الكتب التى كانوا

(١) Nicholson. P. 31

(٢) سورة الجمعة ٢ (٣) تفسير الطبرى ٦١/٢٨ - ٦٢ .

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٦٤/٢٨ .

(٥) العقد الفريد ١٦٢/٢ المطبعة الشرفية .

(٦) سورة الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ (٧) تفسير الطبرى ٥٦/٩ .

يقرءونها و يدينون بها ، وإما لأنه لم يطالع كتابا ولم يصاحب معلما<sup>(١)</sup> .  
وفى قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإنهم إلا يظنون  
فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به  
ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »<sup>(٢)</sup> . فإن المراد  
أناس من اليهود ، وهم أميون أى لا يقرءون ولا يكتبون ، كقوله صلى الله  
عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أو أنهم لا يحسنون أن يكتبوا  
فيطالعوا التوراة .

وروى عن ابن عباس أن الأميين قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله  
ولا كتابا أنزله ، فكتبوا كتابا بأيديهم ، ثم قالوا قوم سفلة جهال : هذا من  
الله . وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سمعهم أميين لجحودهم كتب  
الله ورسله<sup>(٣)</sup> .

وإذا فايست كلمة أميين فى القرآن الكريم دالة على العرب وحدهم ، فقد  
أطلقت على اليهود أيضا ، ولم يتفق المفسرون على أن معناها الجاهلة بالقراءة  
والكتابة ، فقد ذهب بعضهم إلى أنهم الذين ليس لهم كتاب سماوى يدينون به ،  
أو إلى أنهم الذين لا يحسنون أن يكتبوا و يقرءوا .

لكنى أرجح التأويل الأول ، وهو أن الأميين من ليس لهم كتاب سماوى .  
وعلى فرض أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، فإن القرآن  
الكريم أطلق هذا الوصف مراعىا الحال العامة فى العرب ، لأن أكثرهم  
لا يقرءون ولا يكتبون ، وشتان بين أن يكون الشعب كله جاهلا بالكتابة ،  
وبين أن تكون الكثرة جاهلة .

وهذا الحكم لا يتعارض مع ما أسلفت من معرفة العرب بالكتابة .

(١) النيسابورى ٥٩/٩ والعقد الفريد ١٦٢/٢ (٢) سورة البقرة ٧٨ و ٧٩ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٦٩/١ والنيسابورى ٣١٨/١ .

لأننا في مصر في القرن العشرين ما زلنا نحارب الأمية المتفشية ، على أن في مصر بضعة ملايين يقرءون ويكتبون ، ومازلنا نقول إن مصر قطار زراعي ، ناظرين إلى غلبة الزراعة على بنيتها ، وإن كان فيها كثير من الصناعات والتجارة والموظفين والعلماء .

ح — كان بعض النساء يعرفن الكتابة والقراءة وبعضهن يعلمنها ، منهن فاطمة بنت مَرَّ الخُعمية ، كانت قد قرأت الكتب في الجاهلية<sup>(١)</sup> :

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد قتل أبيه ، ثم كان من أكتب الناس ، وكتب للنعمان الأكبر<sup>(٢)</sup> .

ومنهن الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية ، كانت تكتب وترقي . وقد قدمت على النبي قبل الهجرة فقال لها : ما عليك أن تعلمي حفصة رُقِيَةَ الملة كما علمتها الكتابة<sup>(٣)</sup> . فكانت حفصة وأم كلثوم من زوجات النبي تكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرأن المصحف ولا تكتبان<sup>(٤)</sup> .

ولا شك في أن هؤلاء النسوة القارئات الكتاتيب قليل ، لأن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هنالك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ، ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن تتعلم النساء القراءة والكتابة ، لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومن عجب أن ينسب إلى عمر قوله في النساء : « جنبوهن الكتابة » . وإلى علي بن أبي طالب أنه قال لرجل يعلم امرأة الخط : « لاترد الشر شرّاً »<sup>(٥)</sup> ، فإننا لا نمنح إلى تصديق شيء من هذا . وكيف يحث النبي الشفاء العدوية على أن تعلم زوجته الكتابة ثم يقول عمر وعلى هذا ؟

(١) الروض الأوفى ١٠٤/١ وجمع الأمثال للعبداني ٤٦/٢ . (٢) الأغاني ١٠١/٢

(٣) الإصابة ١٢١/٨ والاستيعاب ٧٦١/٢ وفتوح البلدان ٤٨٧ .

(٤) فتوح البلدان ٤٧٣ . (٥) صبح الأعشى ٦٤/١

وإنما يقال هذا في عصور الضعف الخلقى والسياسى ، حيث يشيع سوء الظن  
بالمرأة ، ويتوهم الرجال أن تعليمها يفسدها أو يضاعف شرها ، وحيث يزددون  
المرأة ، ولا يرونها جديرة بأن تثقف . ذكر أن بعضهم رأى امرأة تتعلم الكتابة  
فقال : أفعى تُسقى سماً<sup>(١)</sup> .

وسئل فقيه بدمشق في العصر العباسى الثانى : هل يجوز أن تتعلم النساء  
الكتابة ؟ فأجاب بأنه لا يجوز . وفي عهد من عهود الضعف افترى بعضهم أن  
النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة  
النور<sup>(٢)</sup>

وما دفع هؤلاء إلى افتراء الأحاديث المكذوبة والكلمات المنحولة إلى عطاء  
الإسلام إلا شعورهم بضعف حجتهم ، واستنادهم إلى قول ذى هيبة ومحبة وسطان ،  
يحسبون أنهم يزعمون الحق بما يروون وبما يزعمون .

ولم يكن عجباً من رجل ساخط على الحياة وعلى الناس والنساء خاصة أن  
ينادى بحرمانهن الكتابة والقراءة ، قال أبو العلاء :

علموهن الغزل والنسج والرّد ن وخنوا كتابة وقراءة  
وصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزى عن يونس وبراءه<sup>(٣)</sup>

وأن يتردد صدى هذه الدعوة في العصر الحديث على لسان الرافعى<sup>(٤)</sup> :

يا قوم لم تُخَلِّقْ بنات الورى للدرس والطّرس وقال وقيل  
لنا علوم ولها غيرها فعلموهن كيف نشرُ الغسيل  
والثوب والإبرة في كفها طِرسٌ عليه كل خط جميل

(١) صبح الأعشى ١/٦٤ (٢) التراتيب الإدارية ١/٥٠ عن كتاب الترياس .

(٣) المزوميات ١/٦٢ الرّدن : تنسيق المتاع (٤) ديوان الرافعى ٢/٤٨ .

## ١٥ - معرفتها النجوم :

١ - عرف العرب بالملاحظة والمشاهدة وطول المراتة كثيراً من الأجرام السماوية ، والأحوال الجوية ، وحركات الكواكب ، ومنازل القمر ، والأنواء . فهم يذكرون في شعرهم أسماء نجوم شتى كالفرقدين والدبران والثريا والعنقود والسماكين والشعرى . وقد سجل شعرهم هذا كله .

وهم سمو الأنجم الأربعة التي خلف النسر الواقع أو الطائر صائياً<sup>(١)</sup> .

وقد جمع كتاب أبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي المتوفى سنة ٥٣٧٦ نحو خمسين ومائتين من الكواكب التي يعرفها البدو<sup>(٢)</sup> .

وهم عرفوا منازل القمر بأن اتخذوا في السماء ثمانى وعشرين كوكبة (مجموعة) لا تبعد عن فلك القمر كثيراً ، تدل كل منها على موضع القمر في إحدى ليالى الشهر . كذلك جاء في القرآن الكريم : « والقمر قدرناه منازل »<sup>(٣)</sup> و : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »<sup>(٤)</sup> وقد وضعوا لكل منزلة اسماً ذكرها ابن منظور<sup>(٥)</sup> .

وعرفوا الأنواء - والنوء سقوط منزلة من منازل القمر مع الفجر في الغرب وطلوع منزلة مقابلة لها في الشرق من ساعتها - ونسبوا إليها عدة ظواهر طبيعية من الأمطار والرياح والحر والبرد ، وعزوا كل غيث إلى تأثير المنزلة الساقطة في الغرب أو الطالعة في الشرق ، حتى شاع استعمال النوء بمعنى الغيث<sup>(٦)</sup> .

والدليل على شيوع قولهم بالأنواء ونسبتهم المطر إلى النجوم لا إلى الله قول

(١) لسان العرب مادة نوا .

(٢) القهرست ٢٨٤ وصور الكواكب للصوفي . مخطوط بدار الكتب وبه صور .

(٣) سورة يس ٣٩ (٤) سورة يونس ٥ (٥) لسان العرب مادة نوا .

(٦) لسان العرب مادة نوا وأساس الفلك والجغرافية ٨٥ محمد فخر الدين وعبد الفتاح



النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والأنواء<sup>(١)</sup> ، وقول أبي العلاء المعري إنه لا ينسب الأمطار إلى الأنواء كما كان العرب يقولون : مطرنا بنوء المرزَم وغيرهما من النجوم :

ولست بالناسب غيثاً هَمَى إلى السماكَيْن ولا المرزَم<sup>(٢)</sup>

وطبعي أن تكون معرفتهم بالأنواء عظيمة ، لأن حياتهم وأرزاقهم ذات صلة وثيقة بالمطر وبالمرعى ، فيهم يتطلعون إلى السماء يتشوفون مطرها ، ويشمّون برقها ، لذلك كانت لهم فراسة وخبرة بالسحاب والمطر والجهايم ، وبالبرق المنجز والخلب ، والرياح وخواصها .

وقد ألف بعض السابقين من علماء اللغة كتباً جمعوا فيها ما كان للجاهليين من معرفة بالسما .

منها كتاب الأنواء لأحمد بن داود بن وَتَد<sup>(٣)</sup> ، وكتاب الأنواء لأحمد ابن عبيد الله الثقفي<sup>(٤)</sup> ، وكتاب الأنواء لأحمد المرثدي<sup>(٥)</sup> ، وكتاب الأنواء لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي<sup>(٦)</sup> ، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار لإبراهيم بن سفيان الزياتي<sup>(٧)</sup> ، وكتاب الأنواء لمُؤَرِّج بن عمر النحوي<sup>(٨)</sup> ، وكتاب الأنواء وكتاب المطر لابن دُرَيْد<sup>(٩)</sup> ، وكتاب الأنواء لأبي إسحاق ابن الزجاج النحوي<sup>(١٠)</sup> ، وكتاب الأنواء وكتاب الشمس والقمر للنضر بن شميل

(١) لسان العرب مادة نَوَأ (٢) شرح التوير على سقط الزند ٢١٣/٢ .

(٣) معجم الأدباء ٣٢/٣ (٤) معجم الأدباء ٢٤٠/٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٨٧/١٤ (٦) معجم الأدباء ١٩٦/١٤ .

(٧) معجم الأدباء ١٦١/١ .

(٨) بغية الوعاة للسيوطي ٤٠٠ طبعة السعادة بمصر وكشف الظنون ٢٦٦/٢ .

(٩) الفهرست ٨٨ و ٦١ و بغية الوعاة ٣٠ - ٣٢ ونزهة الألباء لابن الأنباري ٣٢٣

وكشف الظنون ٢٦٦/٢ .

(١٠) الفهرست ٨٨ .

النحوى<sup>(١)</sup>، وكتاب أبي حنيفة الدينورى<sup>(٢)</sup> الذى بين فيه ما كان يعرفه العرب من السماء والأنواء والرياح، وتقسيم العام إلى أزمان الخ وهو يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب وأشعارها وأسجاعها فى ذلك.

وكتب الأنواء كثيرة، منها كتاب للأصمعى، وكتاب لأبى محمّد، وكتاب لقطرّب، وكتاب لابن الأعرابى، وكتاب للمبرّد، وكتاب لابن قتيبة وكتاب للدهنى، وكتاب للمريدى، وكتاب لوكيع وغيرهم<sup>(٣)</sup>.

وللفنصر بن شميل كتاب الصفات، وهو كبير يحتوى على عدة كتب، ذكر فى الكتاب الرابع منه ما يتعلق بالشمس والقمر والليل والنهار، وذكر فى الخامس ما يتصل بالرياح والسحاب والأمطار<sup>(٤)</sup>.

(ب) وقد أسهمت المرأة فى هذه المعارف.

روى ابن دريد أن شيخاً من الأعراب كان فى خبائه وابنة له بالفناء، فسمع رعداً، فقال: ما ترين يا بنية؟ فقالت: أراها حواء قرّحاء، كأنها أقرب أُنّان قمرًا. ثم سمع راعدة أخرى، فقال: كيف ترينها؟ قالت: أراها حجة التّرجاف، متساقطة الأكفاف، تتألق بالبرق الولاف. قال: هلمى المعرفة أنثى نؤيا<sup>(٥)</sup>.

وروى عن الأصمعى أن أعرابياً ضريباً كانت تقود ابنته، وهى ترى غنيمات، فرأت سحاباً، فقالت: يا أبت جاءتك السماء. فقال: كيف ترينها؟

(١) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥ ونزهة الألباء ١١١ وكشف الظنون ٢/٢٦٦

(٢) الفهرست ٧٨ و ٨٨ وكشف الظنون ٢/٢٦٦.

(٣) الفهرست ٨٨ (٤) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥.

(٥) المطر والسحاب لابن دريد ١٤ مخطوط. حواء. سوداء. حمرة. قرحاء. يتألق برقها من روضة قرحاء إذا كان فيها نوار أبيض. أقرب: خصور. قرء: فى لونها بياض إلى كدرة. التّرجاف: الاضطراب. متساقطة الأكفاف: مهلة الجوانب مسترخية لكثرة مائها. البرق الولاف: الذى يرق برقاً متتابعاً وهو لا يكاد يخف. المعرفة: المسجاة. أنثى نؤيا: أحفر حفرة حول الحباء تمنع السبل عنه.

قالت : كأنها فرس دهاء تجرُّ جِلالها . قال : ارعى غنياتك . فرعت مايتاً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عينُ جمل طريف . قال : ارعى غنياتك . فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : سَطَحَتْ وَايَضَّت . قال : أدخلى غنياتك . فجاءت السماء بشيء شطأ له الزرع وأينع ، وخضر ونضر<sup>(١)</sup> .

وروى عن الأصمعي أن معقراً بن حماد البارقي خرج ذات يوم وقد كف بصره وابنته تقوده ، فسمع رعداً ، فقال لها : ما ترين ؟ قالت : أراها حَمَاءَ عَقَّاقَةٍ ، كأنها حَوْلَاءُ نَاقَةٍ ، لها سيرٌ وان ، وصدرٌ دان . فقال : مرّى فلا بأس عليك . ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين ؟ فقالت : أراها كأنها لحم نثت ، منه مَسِيكٌ ومنه مُنْهَرِت . فقال : وائلي ، الجئي بي إلى جانب قَفْلَةٍ ، فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل<sup>(٢)</sup> .

وذكر أن أعرابياً شام برقا فقال لابنته : انظري أين ترينه ؟ فقالت : أناخ بذى بقر بَرَكة ، كأن على عضديه كِتَافاً . ثم قال لها بعد قليل : عودي فشيئ . فقالت : نَحْنُهُ الصَّبَا ، وَمَرَّتُهُ الْجَنُوب ، وَاَنْجَفَنَّهُ الشَّمَالُ اَنْجَافاً<sup>(٣)</sup> .

وإذا ارتبنا في هذه الأخبار وذهبنا إلى أنها من وضع ابن دريد أو غيره لإحياء كلمات لغوية ، أو نظمها في سمط موضوعي ، فإننا لانرتاب في أن واضعها

(١) المطر والسحاب : مخطوط . الحلال : ما يوضع فوق الفرس ليصونها . جمل طريف : مطرف أى يستطرف السكّاء فلا يرعى في مكان واحد . شطأ له الزرع : أخرج ثمره . أينع : نضج .

(٢) المطر والسحاب : الحماء : السوداء المحمرة . العقاقرة : التي يتسرب برقها والسحاب وينشق عناقى أو هى السحابة المنبجعة بالماء . الحولاء : جلدة رقيقة مملوءة ماء كأنها مرآة تخرج مم سليل الناقة فشيء السحاب بها في كثرة الماء . لحم نثت . مستخ منتن . وائلي : بادري . قفلة : شجرة يابسة .

(٣) المطر والسحاب : ذو بقر : موضع . البركة : ما ولى الأرض من صدر العير . عضديه : ما بين مرفقيه إلى كتفيه . كتافاً : حبلاً مشدوداً به . نحته : صرفته نحوهم . مرته الجنوب : استخرجت ماءه . انجفته : استخرجت أقصى ما فيه من ماء .

كانوا على علم بمعارف المرأة الجاهلية وجدارتها بأن ينسب إليها مثل هذا .  
والأخبار مستفيضة بعلم السيدة عائشة بالنجوم ، فقد وفدت عائشة بنت  
طلحة على هشام ، وسمرت عنده مع مشايخ بني أمية ، فساتذاكروا شيئاً من  
أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا فاضت معهم فيه ، وما طاع نجم ولا غار إلا ستمته ،  
فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ فقالت :  
أخذتها عن خالتي عائشة<sup>(١)</sup> .

### ١٦ — فبرتها بالمرعى :

ليس أحد أخبر بالمرعى من العرب ، لأن جُلَّ حياتهم رعى ، وجل ثروتهم  
إبل وشاء .

وقد كان بعض النساء يمارسن الرعى ، ويكتسبن من تجربتهن خبرة ودراية ،  
وبعضهن يستمعن من الرجال ومن النساء ما يبصرهن بصنوف المراعى وأثرها  
في السائمة ولبنها .

روى أبو زيد أن امرأتين تخاصمتا إلى ابنة الخس في مراعى أبيهما ،  
فقالت الأولى : إبل أبي ترعى الإسليج . فقالت ابنة الخس : رغوّة وصريح ،  
وسنامٌ وإطريخ . وقالت الأخرى : مرعى إبل أبي الخلة . قالت ابنة الخس :  
سريعة الدرة والجيرة<sup>(٢)</sup> .

(١) الأغاني ١٠/١٧ .

(٢) البيان والتبيين ١٦١/٢ ولسان العرب مادة سلع وطلع . الإسليج : بقلة من  
أحرار البقول تنبت في الشتاء تملح الإبل إذا استكثرت منها . إطريخ : طويل مائل .

## الفصل الرابع

# المرأة في الحرب

تمهيد :

١ — أسست الحياة القبلية على العداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، مؤازرة في غارة أو درءاً من غارة ، لأن العرب عاشوا في بيئة مؤرثة للحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم ، في بلاد شحيحة بالكأ ، ضئيلة بالماء ، لاملكية في أرضها لأحد . وهم يتنازعون على الشرف والرياسة ، ويتغلورون رغبة في السلب والغنيمة ، لأن أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم في أيدي غيرهم . وإن القطامي - الشاعر المخضرم - ليصور ذلك في حديثه عن الخيل والخيالة :

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهباً حيث كانا  
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا  
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا<sup>(١)</sup>

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ، لأن شعارهم نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، ومن يسلّم أخاه يعير . بل إن الشاعر كان يعير قبيلته كلها إن تخلت عن نصرته . قال قريظ بن أنثف - وكان بعض بني شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فاجأ إلى بني مازن من تميم فأنجدوه - :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا  
إذا لقام بنصري معشر حشن عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا

(١) شرح الحماسة للبريزي ١/١٨١ الضباب : ضبة وضبيب وحسل وحسيل . الملول : الحى المال في مكان واحد .

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا  
 لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا  
 يحزنون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا  
 فإيت لي بهم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناً وركباناً<sup>(١)</sup>  
 وكثيراً ما كانت تنشب الحروب الضغن قديم وقرته الصدور ، أولهزيمة  
 وثأر ، والعربي لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ، ولا إساءة كابد حرقها . قال  
 زفر بن الحارث مصوراً هذا الشعور في العصر الأموي :

لعمري قد أبت وقية راهط لمرواف صدعا بيننا متنائياً  
 وقد نبئت المرعى على دمن الثرى وتبقى حرازات النفوس كما هيأ<sup>(٢)</sup>  
 ثم هم يتسلحون بالشجاعة ، فهي عدتهم ظاهرة وباطنة ، وهي مفخرتهم  
 يابسونها وتلبسهم ، لأنهم لا يهتمون بشرطة ، ولا يتقون بأسوار ، وقد ألفوا  
 أن يدفعوا عن أنفسهم ، « ويتجافون عن المجوع ، ويتوجسون للنبات  
 والهيعات ، وينفر دون في التفر والبذاء ، مدلين بيأسهم ، واثقين بنفوسهم ،  
 قد صار لهم البأس خاتماً والشجاعة سجية »<sup>(٣)</sup> .  
 وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه  
 شب كبير وهي تتمشى في دمه .

وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحسن البلاء في حماية  
 الذمار ، والأخذ بالثأر ، وبالعدوان في كثير من الأحيان ؟ .  
 وطالما فزع طفلاً على قعقة السلاح ، وصياح المتقاتلين ، وسمع الأفاصيص

(١) شرح الحماسة للبربري ١/٥ والمرزوقي ١/٢٣ وفي رواية أخرى بنو اللقيطة ،  
 وهي نضيرة بنت عصيم ولا صلة لها ببني شيبان ، أما الشقيقة فهي بنت عباد بن يزيد بن عوف  
 ابن ذهل بن شيبان . ذو لؤثة : ضعيف .  
 (٢) حماسة البحرى ١٧ (٣) مقدمة ابن خلدون ١٨/٤ النبأت : الأصوات  
 الخفية . الهيعات : الأصوات المنزعجة .

عن شجيمان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها .

ثم شب فرأى الرماح تشبك ، والسيوف تشتجر ، والقسي تتقارع ، والأبطال في الميدان تتصارع .

ثم كبر فشارك في المواقع ، وأفنى العمر في المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خالقاً عاماً في العرب ، « وكانت تشبه شجاعة الإغريق القدماء ، تعتمد على الحماسة ، وتختفي سريعاً أمام الفتور والتأخر »<sup>(١)</sup> .

كانت الحروب من خصائص العرب ، ولا سيما البدو ، وقد وصفهم بذلك منذ القدم سمنه Simneh مؤرخ مصر في عهد الأسرة التاسعة عشرة إذ قال : إنهم رعاة يحبون الحرب ، ويعير بعضهم على بعض<sup>(٢)</sup> .

فلا عجب أن ورث منهم أبناؤهم الشجاعة والفروسية ، لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد في الفروسية وركوب الخيل . . . . . ترجع في الغالب إلى استعداد فطري ورثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلاً بالحروب<sup>(٣)</sup> .

٢ — وإذا تقصينا أيام العرب وجدناها كثيرة جداً ، حتى لقد أفرد لها بعض المؤرخين كتباً أو فصولاً طويلاً ، وألفيناها تزخر ببطولة الرجال ونغارهم وحسن بلائهم . وقلمنا وجدنا فيها تفصيلاً لجهود المرأة ، أو نغاراً من المرأة بنصيبها في حروب قومها .

فهل كانت المرأة منزوية متخلفة عن الحروب ؟ لا فقد أسهمت فيها بنصيب

(١) Nicholson. P 81

(٢) تاريخ الإسلام السياسي . حسن إبراهيم ١/٦٥ .

(٣) المهنود الحمير . على عبد الواحد ٧٨ .

عظيم ، وجهد ماثور لم يفرد له مؤلف فصلا من كتاب .

وسأ كشف عن هذا الجهد الذى بذلته المرأة فى الحرب ، مانقطاً من المراجع ما تفرق هنا وهناك ، وسيكون هذا رداً على أنها « لم تكن فى مقدمة المحاربين ، ولم تكلف أن تقوم بما يقوم به الرجال ، لأنه كان من النادر أن تتيج لها ظروفيها ذلك ، وإنما كانت تقتصر على إثارة العواطف ، كما فعلت فى يوم ذى قار ، وعلى مد المحاربين بالطعام والشراب ، وتضميد الجراح »<sup>(١)</sup> .

ولاشك أن دراستنا لنصيب المرأة فى الحروب كفيلة بأن ترسم صورة صحيحة لمكاتها وأخلاقيها وأعمالها فى العصر الجاهلى .

## المرأة المحاربة

كان الرجال ومايزالون فى كل أمة ينهضون بأعباء الحروب ، ولقاء الصناديد ، حاملين أرواحهم على أكفهم وشباً أسلهم وسيوفهم .

وكان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الفانيات جر الذيل . فإن شاركن فى الحرب فإنما يقمن بما تطيقه الأنثى من تخميس وتضميد وإطعام وسقى . ولكن هذا لا يؤخذ على إطلاقه ، فإن بعض النساء حاربن كما يحارب الرجال ، بل أدرن قطب الحرب أحياناً ، وكمن القنائدات لجيش من الرجال .

وقد جانب الجاحظ بعض الصواب فى قوله : « والمرأة إذا ضعفت عن كل شئ نزعته إلى الصراخ والولولة ، التماساً للرحمة ، واستجلاًباً للفانيات من حمايتها وكفاتها أو من أهل الحسبة فى أمرها »<sup>(٢)</sup> ، وسنرى أن هذه لم تكن نزعته على الإطلاق .

Women in the Aiyam al Arab. P. 1. (١)

(٢) الحيوان ٦ / ٢٧٩ .

( ٢٨ - المرأة فى الشعر الجاهلى )



ولاشك أن المرأة العربية — بمشاركتها مشاركة فعالة في الحرب — قد تفوقت على المرأة اليونانية كما يصورها هوميروس في قوله :

سار هيكطور حينئذ وأتى باب إسكيتية والزَّانُ ظليل  
فتلقته نساء وبنات منه عالماً تتقصى سائلات  
عن بنيهن وإخوان ثقات

لأن عمل النساء هنا مقصور على الاستطلاع والاستخبار . وليس في الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب وإن كن قد شاكن في كثير من الأعمال ، كفصل الموتى وإعداد المعدات وإقامة الصلوات ، وربما عَنَقْنَ على خمول كما فعلت هيلانة مع زوجها فاريِس<sup>(١)</sup> .

وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية في الحرب قيس بن الخطيم في قوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أولَ راجب  
أَوَيْتُ لعوف أن تقول نساؤهم ويرمين دَفْعاً ليقنا لم نحارب<sup>(٢)</sup>

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر : هل أنت مطيعي فيما أمرك ؟ قال : ما أنا بتارك رأيك . قال : قاتلوا القوم بالنساء فضلاً عن الرجال . قال الحارث : وكيف ؟ قال : تعمدون إلى كل امرأة لها جلد ونفس فتعطونها إداوة وهراوة ، فإذا صفت أصحابك فصفن خلفهم ، فإن ذلك مما يزيد الرجال جلدًا وشدة ونشاطًا ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته ، فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه . فقبل الحارث بن همام مأمره

(١) الإلياذة . ترجمة البستاني ٥٧ :

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط . راجب : ميت . يرمين دفعاً : يرميننا من فوق الأظام دفاعاً عن أنفسهن .

به ، وكان النصر لهم <sup>(١)</sup> .

المرأة فائز للجيوش :

وأى دليل على مشاركة المرأة فى الحرب وممارستها ما يمارس الرجال من  
إظهارها وفواجعها أقوى من أن تقود الجيش ؟

إن قيادة الجيش لا تناط إلا بالشهم الجلد الحنك المطاع ، وإن القائد  
ليصرف جنده ، ويدبر الخطط للنصر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمت إلى هذه  
الرتبة العالية ، فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها ، وسمو مكانتها ، ودليل على  
خضوعهم لها وطاعتها .

ومن هؤلاء القائدات :

١ - رقاش ، كانت فى طيء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتمنون برأيها ،  
وكانت كاهنة لها حزم وعزم .

وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إباد بن نزار يوم رعى جابر ، فظفرت  
بهم ، وغنمت وسبت ، ثم بعد ذلك حملت فتراخت عن الغزو ، فقال شاعرهم :

نُبذْتُ رَقَاشَ بَعْدَ شِمَاسِهَا حَبَلٌ وَقَدْ وَلَدَتْ غَلاماً أَكْهَلَا

فَاللَّهُ يُحْظِيهَا وَيَرْفَعُ بُضْعُهَا وَاللَّهُ يُلْقِحُهَا كَشَفَاً مُقْبَلَا

كانت رقاش تقود جيشاً جحفلاً فصبّت وأخرب من صبا أن يحبلاً <sup>(٢)</sup>

ويظهر لى من حق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلخت من أنوثتها أو  
انسلخت منها أنوثتها ، فلما حمت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأربية  
ما زالت أنثى تتزوج وتحمل وتلد ، نقيبت ظنه . ولعله سخط أيضاً لأنه خشى  
ألا يكون فى رجال القبيلة من يخلفها فى القيادة وبث الحماسة ويؤمن الزعامة ، فيعجزون

(١) شرح الحماسة للبربرى ٢ / ٣٤ وكتاب بكر وتقلب ٨٣

(٢) جهرة الأمثال لأبى حلال ١ / ٣١٣ وجم الأمثال ١ / ٢٦٣

عن الغارة واكتساب الفنائم .

٢ — وهذه قائدة أخرى وزعيمة ، كانت تناوى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قومها ياتمون بأمرها ، ولعابها لو أسلمت لكان لها في التاريخ شأن أى شأن ، تلك هى أم قرفة .

وقد ضرب العرب المثل بعزتها ، فقالوا : أمنع من أم قرفة . وهى امرأة فزارية ، كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم<sup>(١)</sup> . كانت فاطمة بنت ربيعة بن زيد الفزارى هذه زعيمة مطاعة ، وكانت تجاهر بعدائها الإسلام ، حتى لقد بعثت إلى النبي أربعين رجلاً من بطنها ليفزوه فى المدينة ، فبعث النبي إليها فى السنة السادسة للهجرة زيد ابن حارثة فى خيل ، فلقبها بواذى القرى ، فهزمتها ، فلفف ألا يفسل ولا يدهن حتى يفزوه ، فسأل رسول الله أن يبعثه إليهم ، فبعثه فى خيل عظيمة ، فانتصر فى هذه المرة ، وسبى أم قرفة ، وكانت عجوزاً كبيرة ، وسبى ابنتها ، ثم أمر زيد قيس بن المسحّر أن يقتل أم قرفة ، فربط حبلين برجلها ، ثم ربطهما بين بعيرين وزجرهما فذهبا بها ، فشقها شقاً<sup>(٢)</sup> .

ويذكر ابن هشام أنه قتلها قتلاً عنيفاً ، ولا يفصل هذا القتل<sup>(٣)</sup> ولكن وصف القتل بالعنف كاف فى الدلالة على نوعه .

٣ — قتلت أم قرفة وسبيت ابنتها سلمى ، وقدم زيد بن حارثة بها على رسول الله ، وكانت من نصيب قيس بن المسحّر أو سلمة بن عمرو الأكواع ، فدأها رسول الله هذا أو ذاك فوهبها له ، فأهداها إلى خاله حزن بن أبى وهب<sup>(٤)</sup>

(١) تاريخ الطبرى ٨٤/٣ وتاريخ الخميس ١٣/٢ وجمع الأمثال ٢٤٩/٢

(٢) تاريخ الطبرى ٨٣/٣ وتاريخ اليعقوبى ٧٤/٢ وابن الأثير ٧٩/٢ وتاريخ الخميس ١٣/٢ والتنبية والإشراف ٣١٩ و ٢٢٠ ولم يذكر طريقة القتل .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤

(٤) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٤ وتاريخ اليعقوبى ٧٥/٢ وتاريخ الطبرى ٨٤/٣

وقيل كانت لعائشة فأعتقها<sup>(١)</sup>. وفي رواية أخرى أن رسول الله بعث بها إلى مكة ففادى بها أسرى من المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وأيا ما كان الأمر فقد رجعت سلمى إلى قومها ، وارتدت معهم عن الإسلام ، ثم انضمت إلى طليحة هي وعيينة بن حصن . ولست أشك في أنها لم تنس مصرع أمها العنيف ، ولم تنس مقتل أخيها حكمة يوم أغار عينية بن حصن على سرح المدينة ، ولم تنس مرارة السبي ومذله ، فأرادت أن تشتفي بالنار .

وقد شرعت تحقق ذلك ، وتحلق حول لوائها جموع من غطفان وفزارة وأسد وهوازن وسليم وطيب ، فقادتهم كقادت أمها الجوع من قبل ، وأمرتهم أن يهجموا على خالد بن الوليد ، وكان مشعولا بحرب المرتدين ، فसार إليها .

كانت سلمى تشرف على المعركة وهي راكبة جملا كانت أمها تركبه في المارك من قبل ، وليس أدل على عظم خطرهما من أن يدبر خالد أمره للقضاء عليها أولا ، فيعد من يعقر جملا مائة من الإبل ، فعقر السامون جملا ، وقتلوا ، وقتلوا مائة من اللتفين بجملا ، ودارت الدائرة عليها<sup>(٣)</sup> .

٤ — وبعد قليل ظهرت امرأة أخرى تنزع قومها ، وتقدمهم في الحرب ، بل لقد تنبأت أيضاً ، ودان لها كثير وآمنوا بها . أما اسمها فسجاح ، وأما كنيثها فقام صادر .

وهي بنت أوس بن حق بن أسامة من تميم ، أو بنت الحارث بن سويد ابن عققان<sup>(٤)</sup> ، أو بنت سويد بن أسامة التميمي<sup>(٥)</sup> .

وأما تاريخها فمن المرجح أنه قد شوه كثيراً ، لأنها ارتدت عن الإسلام ، وترعمت بعض القبائل المرتدة ، ولكن هذا التشويه لا يغير الجوهر ، وهو أن

(١) تاريخ الطبري ٢٣٤/٣

(٢) الكامل لابن الأثير ٧٩/٢

(٣) تاريخ الطبري ٢٣٤/٣

(٤) الأغاني ٦٤/١٤ وفتوح البلدان ١٠٦

(٥) أوائل الأوائل لأبي هلال ٢٢٢ مخطوط .

سجاح كانت زعيمة في قومها ، ومتنبئة ، وقائدة مطاعة . نشأت سجاح بين  
أخوالها بني تغلب ، وتنصرت ماثم<sup>(١)</sup> ، فلما كانت السنة الحادية عشرة للهجرة  
تنبأ بعض العرب ، وارتد بعضهم ، ووضعوا التيجان على رؤوسهم ، وامتنع قوم  
من دفع الزكاة ، فتنبأت سجاح في بني تغلب ، وخرجت بجمع منهم — الهديل  
ابن عمران — إلى بلاد بني تميم ، فلقبها بنوحنظلة وصدقوها ، وأجمع بنو تميم على  
نصرتها ، وفيهم بعض ساداتهم ، كالأحنف بن قيس وحارثة بن بدر والزبرقان  
ابن بدر وعطار بن حاجب وغيرهم من سادة تميم .

وكان فيما أغرتهم به أن الله لم يجعل هذا الأمر في ربيعة ، وإنما جعله في  
مضر ، وأن تميم تعدل قريشاً في السيادة والشرف ؛ لأنهما معاً من مضر ، وادعت  
أنه أنزل عليها (يا أيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن  
قريشاً قوم يبيعون)<sup>(٢)</sup> . فعلى المضريين أن يقصدوا جموع ربيعة ويفضوها ، ثم  
يكرؤوا على قريش ويغلبوها .

وراجت دعوتها ، وانضم إليها عدد كبير من إياد وقيم ، ومن القبائل العربية  
النصرانية بالجزيرة<sup>(٣)</sup> ، ثم سيرت جمعاً إلى بني ضبة من الرّباب ، وسارت بجمع  
آخر من التغلبيين والنمر بن قاسط إلى تيم وعدى وثور ، ثم اتجهت إلى اليمامة<sup>(٤)</sup> .  
وراسلت مالك بن نويرة ، ودعته إلى المواجهة فأجابها ، ونهاها عن غزوها  
بني تميم ، فأجابته ، وقالت : نعم فشأنك ممن رأيت ، وأنا امرأة من بني يربوع ،  
وإن كان ملك فهو لكم<sup>(٥)</sup> .

(١) فتوح البلدان ٩٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٣٢٩/٥

(٢) الأغاني ١٦٦/١٨ (٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٦٧/٣

(٤) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط وتاريخ العقوب ١٤٤/٢ والأغاني ٦٥/١٨

(٥) الأغاني ١٤ / ٦٤

ومما أيقنت من قوتها وسيطرتها على هذه القبائل بعد أن هُزمت مرتين<sup>(١)</sup> أرادت أن تقضى على منافسها مُسَيْمَةَ ، فتوجهت إليه لتحاربه ، وعزمت على أن تشخص بعد الانتصار عليه إلى أبي بكر وقریش .

ومما بلغ خبرها مسيمة ضاق ذرعاً ، وتحصن في حصن اليمامة ، فلما أحاطت به استشار قومه فيما يفعل ، فأشاروا عليه أن يسالمها ويدع لها الأمر وإلا هلكوا جميعاً<sup>(٢)</sup> ، ولكن لقاءها لمسيمة كان مغرب مجدها المأمول ، فقد تزوجته ، وجعلت دينه ودينها واحداً ، وآمنت به .

ويروون في ذلك روايات تحمل في طياتها عناصر الشك فيها<sup>(٣)</sup> .

فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل مسيمة وأسرى قيس بن عاصم مؤذن سجاح ، فرت إلى بني تغلب بالعراق<sup>(٤)</sup> يائسة من تحقيق أحلامها بعد أن ظفر خالد بالمرتدين ، وبعد أن قتل أكبر حلفائها مالك بن نويرة .

وقيل إنها أسلمت وهاجرت إلى البصرة ، وحسن إسلامها ، وصلى عليها سمرة بن جندب الفزاري وإلى البصرة من قبل معاوية قبل ولاية عبيد الله ابن زياد<sup>(٥)</sup> .

وفي سجاح يقول مؤذنها قيس بن عاصم :

أضحت نبيننا أثى نطيفُ بها وأصبحت أنبياء الله ذُكْرانا<sup>(٦)</sup>

ولا شك أن سجاح لم تدع النبوة في أخوالها وقومها ، وأنهم لم ياتنفوا بها هم وغيرهم من المرتدين إلا وهي جديرة في نظرهم بهذه الزعامة الدينية والسياسية .

(١) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط . هزمت بنو ضبة جموع بني حنظلة الذين أوفدهم إليهم سجاح ، وقتلها بنو تميم وعدى وثور حين سارت إليهم قتالاً شديداً .

(٢) الأغاني ١٨ / ١٦٦

(٣) الأغاني ١٨ / ١٦٥ - ١٦٦

(٤) الكامل لابن الأثير ٢ / ٢٧١ والأغاني ١٨ / ١٦٦

(٥) فتوح البلدان ٩٤ و ١٠٦ والأغاني ١٨ / ١٦٧

(٦) الأغاني ١٢ / ١٥

## المرأة محاربة :

١ — اشتركت المرأة في الحروب اشتراكاً عملياً ، فكانت تضرب الأعداء بالهراوى ، وتساعد قومها على النصر<sup>(١)</sup> . وقد رمت النساء الخزرجيات الأوس بالحجارة من فوق الآطام في حرب حاطب ، وفيهين يقول قيس بن الخطيم :

أويت لعوف إذ تقول نساؤهم ويرمين دفعاً ليتنا لم نحارب<sup>(٢)</sup>

بل لقد كانت تقدم حيث يحجم الرجل ، وتشجع حين يجبن ، ففي يوم أحد سقط لواء قريش ، فلم يتقدم لرفعه أحد ، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبها ليهرن ، فتقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فراجع المشركون واجتمعوا حولها ، واثنتفوا القتال . وفيها يقول حسان بن ثابت :

فولوا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب<sup>(٣)</sup>

وقد شهدت هذه الموقعة نسبية بنت كعب المازنية أم عمارة هي وزوجها وابناها ، فقالت يومئذ قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، حتى قيل إنها جرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه ، وتذب بسيفها ، وترمي دونه بقوسها ، حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو بن قيثة بجرح غائر في عاتقها ، وأصابته هي إصابات ، ولم يبق منها إلا درعان كانتا عليه . ورأى النبي بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ وفي حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذي ضرب ابني قتال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعتزنت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم

(١) كتاب بكر وتغلب ٨٣

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ والمغازي ٢٠٩ أويت لهم : رقت وأشفقت .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٥ وزاد الماد ٢ / ١٣١ وتاريخ الطبري ٣ / ١٧ والمغازي

٢٠١ والسكامل لابن الأثير ٢ / ٦٣ وديوان حسان ١٣ الجلائب : العبيد .

عمارة . ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبي : الحمد لله الذي ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك .

وهي نفسها قد أصيبت يمتاها في موقعة اليمامة وجرححت جرحات<sup>(١)</sup> .

ولما انهزم المسلمون في يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن نا كصين حثت في وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هناك المنزل اغزل به ، وهات سيفك . وقصدت إلى أحد مع بعض النساء<sup>(٢)</sup> .

وقد جرؤت صفية بنت عبد المطلب على ما رهبه حسان بن ثابت ، ذلك أن نساء المسلمين كن في الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية في فارغ - حصن حسان - وتحدثت صفية فقالت : وكان معنا حسان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا بالرسول ، وحاربوا مع المشركين ، فقلت يا حسان : إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : بغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما قال لي ذلك ، ولم أر عنده شيئاً احتجزت ، وأخذت عموداً ونزلت من الحصن إلى اليهودي فضرته حتى قتلتته ، فلما فرغت منه رجعت إلى حسان فقلت : انزل إليهِ فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب<sup>(٣)</sup> .

ويروى الواقدي أن صفية رأت يهوداً جاءوا ليهجموا على الحصن ، فأشارت على حسان أن يحاربهم فامتنع ، فلما رأت يهودياً يصعد إلى الحصن قالت لحسان :

(١) المغازي ٢٦٣ و ٢٦٦ وزاد المعاد ١٣١/٢ والإصابة ١٩٩/٨ وسيرة ابن هشام

٣٠/٣ و ٧٥/٢ وفتوح البلدان ٩٩

(٢) المغازي ٢٧٢

(٣) تاريخ الطبري ٥٠ / ٣ والاستبصار في أنساب الأنصار ورقة ١٩ مخطوط وسيرة

ابن هشام ٢٤٦/٣ والأغاني ١٦٣/٤



شد على يدي السيف ، فضربت عنق اليهودي ، ثم رمت برأسه إليهم  
فانكشفوا<sup>(١)</sup> :

لهذا لما أنشد حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد غدوت أمام القوم منتظما      بصارم مثل لون الملح قطّاع  
يَحْفَظُ عني نجادَ السيف سابعةً      فضفاضةً مثل لون النهى بالقاع  
ضحك رسول الله ، فظن حسان أنه ضحك من وصف نفسه بالشجاعة  
مع جنبه<sup>(٢)</sup> .

ومن نغار المرأة أن يتحاجل كثير من الرجال فلا تتحاجل مثلهم ، بل تثبت ،  
وتشير على القائد أن يضربهم كما يضرب أعداءه سواء بسواء ، ذلك أنه في  
غزوة هوازن كان المشركون قد تهيئوا وأعدوا ، وسبقوا المسلمين إلى الوادي ،  
فكمنوا لهم في شعبه وأحنائه ومضايقه ، فشددوا على المسلمين ، وانشمر الناس  
راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين  
أيها الناس ؟ هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . ولكن نداه  
لم يُجِدْ شيئاً ، وبقي رسول الله في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ،  
واغبت المفاقون أيما اغتباط ، حتى قال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ،  
وصرخ كلداء بن حنبل : ألا بطل السحر اليوم . ثم صرخ فيهم العباس فاستجاب  
له مائة من الفارين .

في هذا الحول الشديد والمأزق الضيق المبيد التفت رسول الله ، فرأى أم سليم  
بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة - وهي حازمة وسطها ببرد لها ،  
ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، وأدخات  
يدها في خزامته مع الخطام ، فقال لها الرسول : أم سليم ؟ قالت : نعم بأني أنت  
وأُمِّي يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ،

(١) المغازي ٢٨٢

(٢) الأغاني ١٦٦/٤ يحفز : يدفع . النهى : الغدير .

فإنهم لذلك أهل . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طاحنة : ما هذا الخنجر معك .  
يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به . فقال :  
ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟<sup>(١)</sup>

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن الربيع بنت معوذ .  
ابن عقبة الأنصارية<sup>(٢)</sup> ، وصفية بنت عبد المطلب<sup>(٣)</sup> ، وخولة بنت الأزور<sup>(٤)</sup> .  
وهؤلاء اللاتي حاربن في مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتي حاربن في الجاهلية ،  
دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلي نار الحرب ، وتمارس أحياناً  
ما يمارس الرجال .

وما من شك في أن هؤلاء المسلمات اللاتي نأخن عن عقيدتهن وحاربن .  
كما يحارب الرجال ، قد جرين على خلق أصيل في نفوسهن منذ الجاهلية ، جاء  
الإسلام فزاده وقواه ؛ لما بث في النفوس من حماسة دينية ، وبما أعد للمجاهدين  
من مثوبة ورضوان . فليس من الحق أن ندعى أن الإسلام قد صاغ من الجبانة  
شجاعة في بضع سنوات ، لأن هذا يخالف لسنة الحياة ، ولأن المرأة التي لم تسلم  
كانت تحارب وتقود الجيش في مستهل الإسلام وفي حرب الردة ، وكانت تمارس .  
ذلك قبل الإسلام ، فمن أين جاءت شجاعتها إن كان الإسلام هو الذي شجع  
المرأة المسلمة وأغراها بالقتال ؟

٢ — وبعد فقد حققت بعض النساء العربيات باشتراكهن في الحرب .  
ما كان يتخيله أفلاطون في جمهوريته وما كان يريده ، فقد فرض الجندية على  
المرأة ، وأشركها مع الرجل في حماية الوطن والقتال دونه ، وذلك في رأي خير من  
أن تعيش كلا على الرجال المقاتلين يحمونها من السبي<sup>(٥)</sup> ، لذلك سوى بين .

(١) سيرة ابن هشام ٧١/٤ - ٧٥ وتاريخ الطبري ١٢٩/٣

(٤) اندر المنشور ١٨٥

(٣) المغازي ٢٨٢

(٢) الإصابة ٨٠/٨

(٥) جمهورية أفلاطون ١٣٩ و ١٢٤

الفتيات والفتيان في طرائق التربية وفي الواجبات الوطنية ، وقال في جمهوريته :  
 « ليس للرجال في إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس للنساء واجبات  
 خاصة ، وإنما واجبات الرجال هي واجبات النساء ، فإن الطبيعة قد سوت بينهما  
 في المواهب ، وما المرأة في الحقيقة إلا رجل ضعيف » وقال أيضاً : « أترانا نفرق  
 بين إناث الكلاب وذكورها فنخرج الذكور وحدها للصيد ، ونكلفها وحدها  
 حراسة الأغنام ، وندع الإناث في المنازل ، بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينهما  
 وبين مشاركة الذكور في الصيد والحراسة ؟ حقاً إننا لا نفعل ذلك ، فيجب أن  
 تتعلم النساء الأعمال العسكرية والرياضة البدنية ، ويعاملن معاملة الرجال ، لأن  
 التباين العقلي بين المرأة والرجل موجود مثله بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة ،  
 فهو تباين في الجنس الواحد أيضاً<sup>(١)</sup> .

لا أريد من ذلك أن أدعو إلى أن تستوى المرأة بالرجل في جميع الحقوق  
 والواجبات والأعمال ، وإنما أريد أن أبين أن بعض النساء العربيات قد حققن  
 بعض ما كان يريده أفلاطون ، ويتخيله النظام الأسمي للمجتمع المثالي الذي ينشده ،  
 في حين أن خياله هذا لم يتحقق في بلاد اليونان نفسها .

### المرأة والنار :

هذه الحروب المتوالية لا بد أن تنجلي عن قتلى وجرحى وأسرى وأسلاب ،  
 ولا بد أن يعقب هذا في نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها إلا أن  
 يثار ، وكان العرب كلفين بالنار جد الكلف ، حتى لقد كانوا يجرمون على أنفسهم  
 النساء والحمر والطيب إلى أن يثاروا ، وحتى لقد كان القريب يثار من قريبه ،  
 وكان قبول الدية عاراً لا يرضاه إلا الأذلاء<sup>(٢)</sup> .

(١) جمهورية أفلاطون ١٢٥ - ١٣١ و ١٣٩ و ٢٠٩ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٨٩

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي للمؤلف ٢٢٦ الطبعة الرابعة .

وقد كان للنساء شأن عظيم في النار .

١ — فكان يقرعن المنهزمين تقرعاً يزيد المزيمة ألماً ، و يبتعث الحمية  
لنثار ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مكدّم جمعاً من قومها :  
ألا هل أتاها على نايها بما فضحت قومها غامد  
تمنيتم مائتي فارس فردكم فارس واحد  
فليت لنا بارتباط الخيو ل ضاناً لها طالب قاعد<sup>(١)</sup>

٢ — وكنا لا يفتان يحرضن على النار بالقول الملهب المشير ، وطلما نفرن  
من قبول الدبة أيما تنفير . قالت كبشة أخت عمرو بن معدى كرب الزبيدية  
تحرّض قومها على أن يثأروا لأخيها عبد الله — وقد هم أخوها عمرو أن يقبل  
الدبة ، أو هي توهمت أنه سيقبلها — أبيتاً على لسان التثليل كأنها وصية لهم ،  
لتزيدهم جداً في النار له ، ولتحتاج حميتهم ، نهتهم فيها عن قبول الدبة وعن  
طاعة عمرو ، ثم هاجت نخوتهم بأنهم إن لم يثأروا نعام مجدوع الأذان ، حقراء  
لا يستحقون أن يردوا الماء ، إلا بعد النساء الحبيّض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه : لا تعقلوا لهم دمي  
ولا تأخذوا منهم إفاًلاً وأبكرأً وأنزل في بيت بصعدة مظلم  
ودع عنك عمراً إن عمرا مسلم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم  
فإن أتم لم تثاروا واتدبتم فمشوا بأذان النعام المصلم  
ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم<sup>(٢)</sup>

وحملت بنت حكيم العبيدية قومها على أن يثأروا من ربيع قاتل أبيها ،

(١) البيان والبيان ١ / ٢٠٨ وبلاغ النساء ١٥١

(٢) حسنة أبي تمام شرح التبريزي ١ / ٢١٧ وحسنة البحتري ٣٠ والأمل ٢ / ٢٢٦  
لا تعقلوا دمي : لا تأخذوا بدله دية . الإفال : صغار الإبل . الأبكر : فتیان الإبل . صعدة :  
مكان باليمن . اتدبتم : قاتلتم الدبة . مشوا : امشوا . المصلم : المنقطع الأذان . ارتملت : تاعلت

فقاتلت لهم : عجلوا بقتله ، وإلا فأنتم نساء ، ور بيع ربكم فاسجدوا له ، وما أنتم  
إذاً إلا حقراء ضعاف كقصار المعيز وقباحها :

أيرجور بيع أن يثوب وقد نوى      حكيم<sup>(١)</sup> ، وأمسى شلوه بمطَبَق ؟  
فإن كنتم قوماً كراماً فمَجَّلُوا      له جرأة من بأسكم ذات مَصْدَق  
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم      فكونوا نساء في الملاء المَخْلَق  
وقولوا : ربيع ربكم فاسجدوا له      فما أنتم إلا كَمِعَزَى الحَبْلَق<sup>(٢)</sup>

واستثارت هند الجلاحية قومها بأنهم عبيد إن لم يثاروا :

فإن لم يثاروا من قد أصابوا      فكانوا أعبداً لبني كلاب<sup>(٣)</sup>  
وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر ، كقولها :

ولن أسلم قوماً كنت حربهم      حتى تعود بياضاً جُؤنة القمار  
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة      يَنْبُذْنَ طَرْحاً بمِهْرَات وأمهار  
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنع<sup>(٤)</sup>      عند البيوت حُصَيْنًا وابن سِيَّار  
فتغسلوا عنكم عاراً يخللكم      غسل العوارك حيصاً بعد أطهار<sup>(٥)</sup>

ولقد تعدد إلى كلام مثير يشعر المتواني عن الثأر بعجزه ليدفع التهمة عن  
نفسه بالجد في الثأر ، كما قالت ريحانة بنت معد يكرب لابنها دريد بن الصمة  
بعد أن سر حول على مقتل أخيه عبد الله :

يا بني إن كنت عجزت عن الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من  
زبيد — تعنى عمرو بن معد يكرب الزبيدي — ، فأنف ابنها من ذلك ،  
وحلف ألا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ

(١) حساسة البحرى ٣٥ مطبق : قبر الخلق : المطيب . الحبلق : قصار المعزى ودماهما .

(٢) الأغاني ١٢٢/٢٠

(٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطلعنوا . مكتنع : دان . حصين

ابن ضمضم ومنصور بن سيار من بني مرة . العوارك : الحوائض .

حتى يدرك ثأره، ففزا غطفان وقتل من بنى عبس وفزارة وبنى مرة وبنى ثعلبة، وكان ذلك يوم الغدير، وجاء إلى أمه بذؤاب بن أسماء فقتله بفنائها، وقال: هل بلغت ما في نفسك؟ قالت: نعم متعت بك. وقد نخر بفعله في عدة قصائد<sup>(١)</sup>.

٣— ولقد يهجن النخوة للثأر بالمظهر المثير، كما فعلت خويلدة عجوز بنى رثام، فقد حدثوا أنه كان لها أربعون رجلاً من إخوتها وأخواتها، وكانت عقيماً، فهي ترى هؤلاء جميعاً بنيتها، ثم إن بنى ناعب وبنى داهن تظاهروا على بنى رثام — وهم جميعاً من قضاة متجاورون بين الشجر وحضرموت — فقتلوا منهم ثلاثين رجلاً، فهلمت خويلدة هلعاً شديداً، وبالغ الرواة فزعموا أنها عمدت إلى خناصرهم فقطعتها، ونظمت منها قلادة، وألقها في عنقها، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سعوة المهري وهو ابن أختها، فأناخت بفنائها، وأنشدته قصيدة منها:

ياخير معتمد وأمنع ملجأً      وأعز منتقم وأدرك طالب  
جاءتك وافدة الشكالى تفتلى      بسوادها فوق الفضاء الناصب  
فابرؤ غليل خويلدة الشكلى التي      رُميت بأثقل من صخور الصاقب  
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه      علق بشوئى داهن أو ناعب  
فاهتاج ابن أختها، وخرج في منسر من قومه، فطرق ناعباً وداهناً وأوجع فيهم<sup>(٢)</sup>.

٤— ولقد يبلغ بها الحق حداً يقرب من الوحشية، بل هو ضرب من الوحشية، ففي غزوة أحد لما التقى الجمعان، حرضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال<sup>(٣)</sup>.

(١) الأغاني ٦/٩ و ٢٦/١٤

(٢) الأمل ١٢٧/١ الصاقب: جبل معروف

(٣) سيرة ابن هشام ١٣/٣

وكانت هند تعرض وحشياً على أن يقتل حمزة ، وكلما مرت به قالت له :  
إيه أبادسة ، اشف واشتف<sup>(١)</sup> . وكان وحشى هذا عبداً لجبير بن مطعم  
ابن عدى ، فقال له جبير : قد علمت أن حمزة قتل طعيمة بن عدى يوم بدر ،  
فحزنت نساؤنا أشد الحزن ، فإن قتلته فأنت حر<sup>(٢)</sup> .

ولم يكف هندا ما ذاقته من حلاوة النصر والثأر ، فشرعت هى ومن معها  
يمثلن بالقتلى من المسلمين ، فيجد عن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها  
خدما وقلائد ، ثم لم يشف ذلك ما بنفسها من موجدة ، فبقرت بطن حمزة ،  
واقطعت فائدة من كبده ولا كتبها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم عات  
صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ والحرب بعد الحرب ذات سَعْرٍ  
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكرى  
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى<sup>(٣)</sup>

ولم أجد من المؤرخين من يدفع هذه التهمة عن هند أو يخالف الآخرين في  
جوهرها ، فإيس يجدى دفاع ميور Muir عنها ، ولا تكذيب لامانس Lamans  
للمؤرخين ، لأنهما لا يعتمدان على دليل . يقول ميور : إن مؤرخى السيرة قد  
بالغوا في تصويرها محقة متبررة<sup>(٤)</sup> . ويذهب لامانس إلى أبعد من ذلك ،  
فيدعى أن كتاب السيرة زعموا أن شريفات قرشيات شاركن في غزوة أحد ،  
وفسحوا المجال لادعاء كاذب أن هندا مثلت بنجد حمزة ، وهو ادعاء اخترعه

(١) سيرة ابن هشام ٦/٣

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٨٦

(٣) سيرة ابن هشام ٤٢/٣ والمغازى ٢٦٩ وتاريخ الطبرى ٢٣/٣ والطبقات الكبير  
٤/٣ سمر : سمر وأصله بضم العين . عتبة : أبوها . أخى : الوليد بن عتبة . بكرى : حفظة  
ابن أبى سفيان . عمى : شيبه بن ربيعة . وهؤلاء الأربعة قتلوا يوم بدر .

(٤) Muir, The Caliphate, its rise, Decline and Fall, 3-129

أنصار العباسيين<sup>(١)</sup>. وهى تشبه فى قصتها هذه أم هكتور ، على أن أم هكتو تمت أن تأكل كبدا أخيل ، ووفقت عند حد التمنى :

من لى بذا السَّفَاكُ أَقْضَمُ كَبْدَهُ قضا فلا أبقي عليه ولا أذر<sup>(٢)</sup>

٥ — وإذا كان الرجال قد حرموا على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا فإن النساء أشبهنهم فى ذلك ، فقد حرمت هند بنت عتبة على نفسها أن تبكى قتلاها الأربعة فى يوم بدر حتى تثار من النجى وأصحابه ، وحرمت على نفسها الطيب حتى تغزو النجى والمسلمين ، ولم تقرب فراش أبى سفيان من يوم أن حلقت رأسها حزنا على قتلاها حتى كانت وقعة أحد<sup>(٣)</sup> .

وهن أشبهن الرجال أيضاً فى أن الثأر يشفى بعض حزنهن ، ويكفكف من خبيعتن ، لذلك يطر بن له ، وينتشين به ، ويكافئن الثأر . ففي يوم أحد منحت هند بنت عتبة وحشياً ثيابها وخدمتين من جزع ظفار كانتا فى ساقبها ، ومسكتين وخواتم من ورق كن فى أصابع رجليها<sup>(٤)</sup> . ووعدته أن تعطيه عشرة دنانير إذا عاد إلى مكة<sup>(٥)</sup> . كذلك أشادت الخنساء بقيس بن عامر بن الأمرار الجشمى ؛ لأنه قتل هاشم بن حرمة قاتل أخيها معاوية بن صخر ، وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً ، وبنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ؛ لأنه أقر عينها فنامت بعد أرق طويل :

فدَى للفراس الجُشمى نفسى	أفدّيه بمن لى من جميع
أفدّيه بكل بنى سليم	بظاعنهم وبالأنس المقيم
كما من هاشم أقررت عيني	وكانت لا تنام ولا تنيم
خصمت بها أبا الأمرار قيساً	فتى فى بيت مكرمة كريم <sup>(٦)</sup>

(١) H.Lamans L'arabie occidentale avant L'hegire P. 124

(٣) المغازى ٣٢٤

(٢) الإلياذة ١١١٥

(٥) المغازى ٢٧٩

(٤) شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٨٦

(٦) ديوان الخنساء ٢٣١ ولسان العرب ١٦ / ٧٨ والأغانى ١٣ / ١٤٠ وبلغات

النساء ١٦٧ الحميم : القريب والإخوة وبنو العم والعشيرة : الأنس : الحى المقيمون .

( ٢٩ - المرأة فى الشعر الجاهلى )



وتحدثت صفية بنت الخرع عن فرحتها لما قتل عبد يغوث بالنعمان  
ابن حساس فقالت :

تقد أخذنا شفاء النفس لو شُفيتُ وما قتلنا به إلا امرأً دونه<sup>(١)</sup>  
وقد بقيت بغضة المرأة لواترها ، وتلففها على الثأر منه إلى ما بعد العصر  
الجامع<sup>(٢)</sup> .

### المرأة جاسوسة في الحرب :

تعطى الدول في حروبها الحديثة جواسيس من الرجال ومن النساء ، ولقد  
يكون النساء أقدر من الرجال على تلقط الأنباء ، وتعرف الدخائل ؛ لأنهن  
يتنكرن بجمالهن وبمكرهن ودهائهن ، وبالرغبة في حديثهن ، فيبغفن ما لا يباغ  
الرجال .

وقد عرف العرب الجاسوسية ، وتذرعوا بالنساء لمعرفة ما خفي عليهم من أنباء  
العدو . من ذلك أن رجلاً من غني قتل شاس بن زهير العبسي ، وأنكر بنو غني  
أن يكونوا هم القتل ، فأرسل زهير امرأة إليهم على أنها تاجرة ، وأمرها أن  
تكتم نسبها ، وأن تتعرف خبر ابنه شاس ، فاتصلت بنساء غني ، وعرفت من  
إحدهن أن زوجها هو قاتل شاس ، ثم عادت إليه فأخبرته ، فأغار عليهم<sup>(٣)</sup> .  
وقد اصطفى حاطب بن أبي بلتعة سارة المزنية ، وقيل إنها كانت مولاة  
لبنى عبد المطلب ، وأرسل معها كتاباً إلى قريش بمكة ، يحذرهم المسلمين ، وجعل  
لها جملاً على ذلك ، فوضعت الكتاب في رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ، وخرجت  
به ، فبعث رسول الله وزامها على بن أبي طالب وأبا مرثد والزيبر ، فأدركوها

(١) الأغاني ١٥/٧٣ .

(٢) بلاغات النساء ١٢٨ و ١٣٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٠ .

تسير على بعير لها ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فأنكرت ، فأناخوا جماها ، واثتمسوا الكتاب معها فلم يجدوه ، فهددوها أن يعرّدها إن لم تخرجه ، فلما رأت إصرارهم أخرجته من قرون رأسها أو من حُجْرَتِها ، فانطالقوا به إلى رسول الله <sup>(١)</sup> .

### الظلمة في الحرب :

١ — كان الحاربون كثيراً ما يصطحبون معهم نساءهم في الحروب ، ففي يوم ذى قار استصحب العرب طعائهم ، وأمر حنظلة بن ثعلبة أن تقف الطعائن خلف الناس ، ثم قال : يامعشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم . ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ، وتبع الظعن يقطع وُضُنَّه ، فسمى مقطّع الوُضُن <sup>(٢)</sup> ، وحاكاه العرب ، فقطعوا وُضُن نساءهم حتى يقتدروا أنفسهم على الثبات ، دفاعاً عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة راحلها . وكان لقيط بن زُرارة يغزو ومعه ابنته دُخْتَنُوس <sup>(٣)</sup> .

وفي يوم التحالق كانت مع عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس أمه على ناقه لها ، فلما توسط الثانية ضرب عرقوبى الناقة ، ثم انتضى سيفه وقال : والله لا يجرى رجل من بكر بن وائل إلا ضربته بالسيف <sup>(٤)</sup> .

وفي يوم قيّف الرّيح بين عامر بن صعصعة وبين الحارث بن كعب وحافئها أقبلت مذحج ومعها النساء والذراري حتى يشجعنهم على القتال والثبات <sup>(٥)</sup> .

٢ — وقد حدثت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج في سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرجن معهن خرج بها معه <sup>(٦)</sup> .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٠٥ وفتح الباري ٧/٢٣٧ وتاريخ الطبري ٣/١١٣

(٢) أوائل الأوائل ٢٣٥ مخطوط وتاريخ الطبري ٣/١٥٤ والأغانى ٢٠/١٣٦

والنقائس ٦٤١ الوُضُن : جمع وُضُن وهو حزام الرجل .

(٣) السكامل لابن الأثير ١/٢١٢٠ (٤) شرح التبريزي للحامسة ٢/٣٤

(٥) السكامل لابن الأثير ١/٢٣١

(٦) فتح الباري ٦/٥٨ والزبيدي ٢/٢٦٣ وسيرة ابن هشام ٣/٢٤٢

وفى غزوة أحد بعث النبي الحباب بن المنذر ليحزر له قريشاً ، ومأعزاً  
سأله : هل رأيت ظمناً ؟ قال : رأيت النساء معهن الدفاف والطبول ، فقال رسول الله :  
أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر<sup>(١)</sup> . وقد تحقق ما توقعه ، فإن قريشاً  
خرجت وخرج معها أحلافها ، واصطحب كثير من القرشيين نساءهم ، فكانت  
هند وضرتها أميمة بنت سعد مع زوجها أبي سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث  
ابن هشام مع عكرمة بن أبي جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع الحارث  
ابن هشام ، وبرزة بنت مسعود النخعية وضرتها البقوم بنت المزدل مع زوجها  
صفوان بن أمية ، وريطة بنت منبه مع عمرو بن العاص ، وسلافة بنت سعد مع  
طلحة بن أبي طلحة ، وكانت خنساء بنت مالك مع ابنها أبي عزيز بن عمير الخ  
وكانت عمرة بنت علقمة وحدها<sup>(٢)</sup> .

وما زالت المرأة العربية ترافق المحاربين إلى خلافة عثمان<sup>(٣)</sup> .

### أثر الظما :

١ — كن يهجن حماسة الرجال ، ويحفزنهم إلى المخاطرة والاستبسال ،  
فيقاتل الرجل حتى الموت ، حماية لنسائه اللاتي كن يصاحبن القبيلة في الحروب  
العظيمة ، ويقمن خلف صفوف القتال<sup>(٤)</sup> .

وكن يحمسن بضروب شتى ، فهن أحياناً يابهن العواطف بأناشيدهن  
المشجعة ، كأنهن قواد يسكبون في قلوب الجنود حميا البطولة . وأحياناً يضربون  
على الدفوف كأنهن فرقة موسيقى حربية ، وتارة يثرن إقدام الرجال بنظراتهن  
إلى بلائهم ، وشهودهن إقدامهم . والرجال — منذ كانوا وكانت النساء — يبذلون

(١) المغازي ٢٠٧

(٢) سيرة ابن هشام ٦/٣ والمغازي ٢٠١ والكمال لابن الأثير ٦٣/٢ وتاريخ الطبري .

١٠/٣ والأغاني ١١/١٢٠ . وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩

(٣) فتح الباري ٥٧/٦ (٤) Nicholson P. 82

في محضرهن من أفانين البطولة والشهامة حيث تراد البطولة والشهامة ، ومن ضروب البراعة والكياسة واللباقة حيث تطلب البراعة والكياسة ما لا يبذلون في مغيب النساء .

كان تشجيع النساء للمقاتلين عرفاً عاماً بين العرب ، حضريهم وبدويهم ، ملوكهم وغير ملوكهم ، فإن الحارث بن أبي شمر الملك الغساني<sup>(١)</sup> في حربه مع المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في يوم حليلة وجد أن الحرب قد قامت بينهما أياماً وهي سجال ، فأمر ابنته أن تُطَيَّبَ جنوده ، ثم نادى : يا فتيان غسان ، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي . فاستشاط لبيب بن عمرو الغساني شجاعة ، وشد على المنذر فقتله ، ثم قاتل فقتل<sup>(٢)</sup> .

والمؤرخون مختلفون في اسم بنت الملك ، أمى هند<sup>(٣)</sup> أم حليلة<sup>(٤)</sup> ، ويرجح تولدكه أن حليلة اسم مكان لا اسم امرأة ، مستدلاً بما ذكره ياقوت والبكري<sup>(٥)</sup> ، وبأن النابغة يذكر يوم حليلة في الأيام التي كان يفاخر بها الفساسة السابقون للحارث ، ويستنتج أن يوم حليلة هو يوم الحيار<sup>(٦)</sup> ، وهو الذي ذكره الحارث ابن حنظلة في معلقته .

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء . بلاء<sup>(٧)</sup>  
وكان ذلك حوالي ٥٤٤ م<sup>(٨)</sup> .

(١) يرى تولدكه . أنه الحارث بن جبلة (أمراء غسان ٢٢ تولدكه) وهو نفسه الحارث الأعرج (ابن الأثير ١/ ٢٢٣) .

(٢) السكامل لابن الأثير ١/ ٢٢٣

(٣) ابن الأثير ١/ ٢٢٣ وأمراء غسان لتولدكه ١٩

(٤) ابن الأثير ١/ ٢٢٥ وبجمع الأمثال ٢/ ٢٠٢ والمعارف ٢٨٠ وأمثال العرب للضي ٧٩

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٢٨٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢/ ١٣ و ٣٢٥

(٦) أمراء غسان لتولدكه ١٩ - ٢٠

(٧) شرح الفوائد العشر للتبريزي ٢٦٨ الحياران : بلد ، وقال ابن الأنباري بلدان ، وقال صاحب القاموس موضع وكذلك قال صاحب اللسان وذكر هذا البيت .

(٨) أمراء غسان ١٩

والعرب قد ضربوا المثل بيوم حليلة فقالوا : ما يوم حليلة بِسر<sup>(١)</sup> ، والناطقة قد ذكره في مدح الفساسة إذ قال في سيوفهم :

تُخَيَّرُنْ مِنْ أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جُرِّين كل التجارب  
وذكر بعض الشعراء في فخرهم بانتصار الفساسة في هذا اليوم أن هند طابت الجنود ، ونص على أن حليلة اسم واد :

يوم وادي حليلة وازدلفنا بالعناجيج والرماح الظماء  
وأنت هند بالخلق إلى من كان ذا نجدة وفضل غناء<sup>(٢)</sup>  
ولما كانت حرب بين إباد وكسرى أنوشروان حست هند بنت طارق ابن بياضة قومها بقولها :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق  
والمسك في المنارق مشى القطا النواتق  
إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق  
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق<sup>(٣)</sup>

ثم حست بهذا القول ابنة الفند الزماني قومها في يوم تحلاق اللعم<sup>(٤)</sup> ، ثم شجعت به عربية قومها في يوم ذي قار<sup>(٥)</sup> ، وفي يوم أحد حست به قريشاً هند بنت عتبة وصواحبها<sup>(٦)</sup> ، وحسن بقولهن أيضاً :

(١) الميداني ٢٠٢/٢ وأمثال العرب للضي ٧٩ وتهذيب الكامل ١٦١/٢

(٢) الكامل لابن الأثير ٢٢٣/١ العناجيج : جياذ الحبل والإبل .

(٣) معجم ما استعجم ٧٠/١ النواتق : الكثيرات الولادة .

(٤) شرح الحماسة للبربري ٣٥/٢ والأغاني ١٤٤/٢٠

(٥) النقاظ ٦٤١ ولسان العرب ١٢ / ٨٧ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٣٠

والمغازي ٢٠٦ وأشعار النساء للمرزباني ٥٧ مخطوط وتاريخ الطبري ١٥٣ / ٢ وشرح نهج البلاغة ٣٦٦/٣ ، وفي النقاظ ٣٦٨ أن يوم ذي قار هو يوم قراقر وحنو ذي قار وهو أيضاً يوم الجبايات ويوم ذات العجرم ويوم الغدوان والبطحاء وكل هذه الأسماء ذكرها الشعراء .

(٦) تاريخ الطبري ٣ / ١٥ والفاخر للكوبي ١٩ والمعاني لابن قتيبة ٢٢٣ والأغاني

ضرباً بنى عبد الدار ضرباً حماة لأدبار  
ضرباً بكل بَنَار<sup>(١)</sup>

وإذا صح أن هند بنت طارق أول قاتلة للرجز الأول ، وأن هؤلاء قد تفننوا  
به في الحروب ، فانه إذا تدرج هذا التدرج التاريخي ، لأن النساء أتعبن به  
فرذذنه في حرب بعد حرب .

على أنه في يوم تحلاق الهمم أثارت بنت أخرى للفند الزماني قومها بقولها :  
وغى وغى وغى حَرَّ الحِرَارُ والتَّظَى  
ومُنَّتْ منه الرِّبَا يا حَبِذا الحَاقِقُونَ بالضَّحَا<sup>(٢)</sup>

ولقد كان الإنشاد يصحب أحياناً بتيكيت الفارين ، ففي يوم حضرة الموادي  
بين دوس وبنى الحارث جعلت البنات الأربع لخالد بن ذى سبلة يخفضن على  
الثبات والإقدام ، فإذا رجع إليهن رجل فار أعطينه مكحلة وشمرة وقلن : معنا  
فانزل ، أى أنك من النساء . وجعلت هند ترتجز بقولها :

مَنْ رَجُلٌ يَنْزِلُ الصَّكْتِ بِهِ فَذَلِكُمْ تَرْنُو لَهُ الْحَبِيبِ<sup>(٣)</sup>

وهذا التحميس كثير في الجاهلية<sup>(٤)</sup> ، وبقى إلى صدر الإسلام ، فقد حرصت  
الخنساء بنيتها الأربعة على الاستبسال في حرب القادسية ، وكان لتجريض النساء  
أثر عظيم في حرب علي ومعاوية .

٢ — وإن الشعر لحافل بتصوير الحماسة التي كانت تتمشى في نفوس الرجال  
من الظمآن ، وحافل بالفخر بحمايتهم من السبي ، ولطالما أشهد الشجعان النساء  
على بلائهم الجيد الذي أبلوا . يقول سلامة بن جندل :

(١) سيرة ابن هشام ١٣/٣ والمغازي ٢٢٤ والأغاني ١٦/١٤ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٣٧/٢

(٣) الأغاني ٥٣/١٢ وفي الأصل ترني به .

(٤) أيام العرب ١٧٩ وشعراء النصرانية ٢٤١

ألاهل أتى أنباؤها أهل مأرب كما قد أتت أهل الدِّبَا والخَوَزَنَقِ  
بأننا منعنا بالفروق نساءنا ونحن قتلنا من أتاننا بمَلَزَقِ<sup>(١)</sup>  
ويقول عمرو بن كلثوم في ذلك أبياته المشهورة :

على آثارنا بيضُ حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا  
ظعائن من بني جُشم بن بكر خلطن بمسيم حسباً ودينا  
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا فوارس مُعاليينا  
ليستاهنَّ أبدانا وبَيْضاً وأسرى في الحروب مقرّنيننا  
إذا مارحن يمشين الهويننا كما اضطربت متون الشاريننا  
يقن جياننا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعنونا  
إذا لم نحملن فلا يقيننا لشيء بعدهن ولا حيننا  
وما منع الطواغن مثلُ ضرب ترى منه السواعد كالْبَرِينَا<sup>(٢)</sup>  
وبفخر قيس بن الخطيم بأنهم حموا نساءهم من السبي ، وبأنهم انتصروا في  
يوم بُعَاث ، ويعير خصومهم الهزيمة والأسر :

وإننا منعنا في بُعَاث نساءنا وما منعتْ مِلمُخَرِيَّاتِ نساءها<sup>(٣)</sup>  
وهم يتجهون بفخرهم بشجاعتهن وانتصارهم إلى المرأة ، كقول حاجب  
ابن دينار المازني :

سلى يشكراً عنا وأبناء وائل لهازمها طراً وجمع الأرقام  
ألم تعلمي أنا إذا الحرب ثمرت سهامٌ على أعدائنا في الخلاقم؟

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٦ مخطوط . ملزق : أرض معينة . الدِّبَا : سوق للعرب .  
الخوزاني : قصر بالحيرة والمراد أهلها .

(٢) شرح المعانيق السبع لابن الأنباري ٧٦ مخطوط والتبريزي ٢٤٧ الأبدان: الدروع .  
البرين : جم برة وهي حلقة في أنف البعير . وفي التبريزي ( القلبن ) جمع قلة وهي خشبة ياعب  
بها الصبيان ويضربونها بالقلل .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٦ مخطوط .

عتاة قُرَاةٌ فِي الشَّتَاءِ مَسَاعِرٌ حَمَاءٌ كَهَمَاءُ كَالْيُوثِ الضَّرَاغِمِ <sup>(١)</sup>  
ومثل هذا كثير <sup>(٢)</sup> .

٣ — وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَصْحَبُ الْحَارِبِينَ لِتَضُمَّدَ جِرَاحَهُمْ ، كَمَا يَعْمَلُ الْآنَ نِسَاءُ  
الصَّالِبِ الْأَحْمَرِ وَرَجَالَهُ ، وَلِتَسْقِيَهُمُ الْمَاءَ .

وكثيرات هن اللاتي نفرن مع المسلمين في غزواتهم الأولى ، وكان الرسول  
يفزؤ بالنساء ، فيداوين المرضى ، ويعطينهم من الغنائم ، ولكن لم يفرد لهن سهما <sup>(٣)</sup> .  
وقد جاءت إليه امرأة في نساء من بنى غفار وقان إيهن يردن أن يخرجن معه في  
خبر فيداوين الجرحى ويؤمن المسلمين بما يستطعن . فقال لهن : على بركة الله <sup>(٤)</sup> .  
منهن أم عمارة بنت كعب ، وأم حكيم بنت الحارث <sup>(٥)</sup> ، والربيع بنت معوذ <sup>(٦)</sup>  
وليلي الغفارية <sup>(٧)</sup> .

وكانت في أحد أربع عشرة امرأة يحمان الطعام والشراب على ظهورهن ،  
ويسقين الجرحى ويداونهم ، كفاطمة بنت الرسول ، وأم سليم بنت ملحان ،  
والسيدة عائشة ، وخمينة بنت جحش ، وأم أيمن <sup>(٨)</sup>

ولما انهزم المسلمون كانت عائشة وأم سليم قد شمرتتا حتى بدت خلاخيلهما ،  
وهما تحملان القرب ، وتفرغان الماء في أفواه القوم ، فإذا فرغت القربة عادتا  
فملائتاها <sup>(٩)</sup> . ومنهن أيضاً الشُمَيْرَا بنت قيس <sup>(١٠)</sup> وكُعَيْبَةُ بنت سعد <sup>(١١)</sup>

(١) العقد الفريد ٧٨/٣

(٢) أمية بن الأسكر ( البيان والتبيين ١٩٢/١ ) ودريد بن الصمة ( البيان والتبيين  
١٠١ / ٢ ) والذهان بن جندل ( الأغاني ٢٠ / ١٣٨ ) وعمرو بن حوط ( الفرائد ٦٩ )  
والأعشى ( الأغاني ٢١ / ١٤٠ ) .

(٣) المدونة الكبرى للإمام مالك ١ / ٣٧٠ وسيرة ابن هشام ٣ / ٣٩٥

(٤) سيرة ابن هشام ٣ / ٣٩٥ (٥) ألف باء ٢ / ٢١٠

(٦) الإصابة ٨ / ٨٠ وفتح الباري ٦ / ٦٠ .

(٧) الاستيعاب ٢ / ٧٨٠ (٨) المغازي ٢٤٦ .

(٩) فتح الباري ٦ / ٥٨ و ٧ / ٢٧٩ (١٠) المغازي ٢٨٥ .

(١١) الاستيعاب ٢ / ٧٧٩ وطبقات ابن سعد ٨ / ٢١٣



وَأُم سَايِلُ<sup>(١)</sup> ، وقد اختصها عمر بِمِرْبَطٍ جَيِّدٍ ، وآثرها به على زوجته ، وقال :  
أَحَقُّ بِهِ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ لَنَا الْقَرَبَ يَوْمَ أَحَدِ<sup>(٢)</sup> .

٤ — وفي شعر النساء كثير من الفخر بالنصر ، وتعمير للأعداء المنهزمين ،  
وإشادة بشجاعة الصناديد من العشيرة . تقول عائكة بنت عبد المطالب بن هاشم  
في نغرها بيوم عكاظ أيام الفجار :

سائل بنا في قومنا وليكف من شرِّ سماءه  
قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باقي شناعه  
فيه السَّخَّورُ والقنا والكبش ملتئمٌ قِنَاعَه  
بعكاظ يُعْشَى الناظرين إذا هم لحوا شعاعه  
فيه قتلنا مالكا قَمَرًا وأسلمه رعاعه  
ومجدلاً غادره بالقاع تَنْهَسُهُ ضباعه<sup>(٣)</sup>

وتغلب نغار غفيرة الكلبية على عطف الأنثى على الأنثى ، فتحدثت في  
زهو بأن قومها قتلوا فتيان قيس ، فتأملت نساؤهم ، وقد كن يوشكن أن يتخضبن  
للزواج ، ووصفتن بأنهن مغبرات الألوان من الحزن والفجعة والمذلة :

تركنا الطلُسَ من فتيات قيس أيامي بعد تيسير الخضاب  
فلم أر لِمَتَّادَةٍ كَالْعَوَالِي ولا لِنَّارٍ كَالْقَوْمِ الْغَضَابِ  
أَرَأَيْتَ الْبَجْدَ لِي دِمَاءَ قَيْسٍ وَالصَّقَّ خَدَّ قَيْسٍ بِالْتَرَابِ<sup>(٤)</sup>  
ووصفت امرأة من الأزد قومها بقولها :

(١) كنز العمال ٩٧/٧ .

(٢) الاستيعاب ٨٠٤/٢ وفتح الباري ٢٨٢/٧ وكنز العمال ٩٧/٧ .

(٣) شرح الحماسة للثيريزي ١٣٠/٢ وبلاغات النساء ١٩١ . السور : الذرع أو  
السلح . القناع : المراد به البيضة . الرعاع : سفلة الناس . غادره : الضمير للغيل . تنهسه :  
تزعج لحمه .

(٤) الوحشيات لأبي تمام ٢ مخطوط الطلس : المغبرات من الحزن والتدل .

قوم إذا حضروا المياج فلا ضرب<sup>١</sup> ينهبهم ولا زجر  
خزُر العيون إلى لوائهم يتزidon كأنهم نُمر<sup>(١)</sup>  
وكذلك نغرت امرأة من عبد القيس<sup>(٢)</sup> ، ونغرت أم الحباب<sup>(٣)</sup> .  
وهنا نلاحظ أن النساء كالرجال في المدح بالشجاعة والثناء بها، لأنها فضيلة عظيمة في  
الحياة البدوية ، لذلك أثرها العرب ، وفضلها اليونان القدماء ، فكانوا يرون أن  
الجندي أكبر خادم للوطن ، فيصفون عليه من الإجلال أكثر مما يصفون على  
الفنان « وحين أرادوا أن يكتبوا شيئاً على قبر اسخيلوس لم يذكروا مهارته  
الفنية ، بل كتبوا : إنه أبدى شجاعة فائقة في معركة مرثون »<sup>(٤)</sup> .

٥ — وما من شك في أن اشتراك المرأة في الحرب ، سواء أفادت الجيش ،  
أم حاربت أم رافقت المحاربين لتحضهم وتسقيهم وتداوى جراحهم ، دليل على  
شجاعتها وتشوقها إلى انتصار قومها ، واعتزازها بسيادتهم وحريتهم وقوتهم ،  
ودليل على سمو مكانتها في القبيلة ، لأنها جديرة بأن تشارك الرجال في الذود عن  
الحمي ، وفي كسب النصر ، ولو أنها لم تكن جديرة بالمشاركة في هذا العمل الخطير  
ما سمح الرجال لها بأن تشاركهم فيه .

ثم إن في إعجابها بالشجعان ، وإشادتها بالبطولة والأبطال ، وحرص المقاتلين  
على نيل إعجابها وثنائها ، دليلاً على عظيم أثرها وعلو قدرها .

### تجنبها عن الحرب أحياناً :

١ — ليس من الطبيعي أن يستن العرب جميعاً نظاماً واحداً ، يأخذون به  
أنفسهم دائماً ، لأن العرف لا بد أن يتغير بتغير الناس ، وكثيراً ما يتخلى عنه  
الآخذون به في ظرف من الظروف ، لذلك كان بعض العرب ينحون المرأة عن  
الحرب .

(١) قواعد الشعر للشعب ١٧ يتزidon : يسرون سيراً فوق العنق .

(٢) حاسة البحرى ٤٥ (٣) ربيع الأبرار للزخمرى ٩٣ مخطوط .

(٤) مقدمة الشعر عند أرسطو ٢ .

ولعل مردّ هذا إلى أن بعضهم كان يدين بأنها لا تصبر طويلا على أهوال الحرب كما يصير الرجل ، ولأنه كان يحرص عليها و يضمن بها أن تصطلي بسعير القتال وتناجيه . ولقد يتجلى إثارها للعمل المنزلى في قول امرئ القيس بن عابس الكندى .

أيا تمّلك لا تمّلى صابنى وذرى عدلى  
ذرى وسلاحى ثم شدى الكف بالفرل<sup>(١)</sup>  
وفي قول حُرَيْث بن سلمة :

تقول ابنة العُمَيْرى لما رأيتها تنكرت حتى كدت منك أهال  
فإن تعجبي منى عُمَيْرُ فقد أتت ليالٍ وأيام على طوال .

.....

ولكنها في كِلّة كلّ شتوة وفي الصيف كنّ بارد وجمال  
تصان وتعلّى المسك حتى كأنها إذا وضعت عنها النصيف غزال<sup>(٢)</sup>

والدليل على أن بعضهم كان لا يصطحب الظعائن أن حاجب بن زرارة استعد للقاء بنى عامر في يوم رَحَرَ حان ، وأرسل إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا ، وأمرهم فحملوا الأهل والمتاع وساروا نحو بلاد بغيض ، ولبث هو مع القوم ، ينتظر العامريين<sup>(٣)</sup> .

وفي حرب داحس والغبراء قال قيس العبسى : الرأى أننا لا نلقى ذبيان وحلفاءها ، فإننا قدوترناهم ، فهم يطالبوننا بالذحول ، والذي ينبغي أن نفعله أن نرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر ، ويبقى أولو القوة والجلد منا على ظهور الخيل<sup>(٤)</sup> ثم أن دُرَيْد بن الصّعة سغه رأى مالك بن عوف حين سارت ثقيف للقيان الرسول في غزوة حنين ، لما علم أن مالكا ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم

(٢) البيان والتبيين ٣/ ١٩٠ .

(٤) أيام العرب ٢٦٥ .

(١) أخبار المراقبة ٩٥ لا تملى : لا تضجى

(٣) الكامل لابن الأثير ٢٠٣/ ١

وأبناءهم ، وسأله دريد فى ذلك فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فهزىء برأيه ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المهزم شىء ؟ إنما إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . فلم يستمع مالك إليه<sup>(١)</sup>

كذلك اختلفت قريش وأحلافها ، وهم يزعمون السير إلى أحد ، فرأى صفوان بن أمية أن تخرج النساء مع المحاربين ليحمسنهم ويذكرنهم قتلى بدر ، وواقعه عكرمة وعمر بن العاص ، ورأى نوفل بن معاوية أن هذا ليس برأى ، لأنه لا يأمن الهزيمة فتفضح النساء ، وواقعه صفوان بن أمية . فجاء نوفل إلى أبي سفيان يعرض عليه رأيه ، فصاحت هند : إنك والله سامت يوم بدر فرجعت إلى نسائك نعم تخرج فنشهد القتال ، فإنه لما ردت القيان إلى الجحفة يوم بدر قُتِلَتِ الأُحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لا أخالف قريشاً فيما أجمعت عليه ، فخرجوا بنسائهم<sup>(٢)</sup> . ويتضح من هذا أن النظام الأعم الأغلب كان أن تخرج الطعان مع المحاربين ، وكان هذا النظام متبعاً حتى عند ترجيح الهزيمة أو التخوف منها فى حرب بعيدة عن الديار .

٢ — وسواء أكان إبعاد المرأة عن الحرب خوفاً عليها من عواقب الهزيمة ، أم ظناً من بعض الرجال بمعجزتها عن البلاء ، فإن الإسلام لم يشجعها على أن تحارب فقد قالت السيدة عائشة للنبي : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور<sup>(٣)</sup> ، وله فى هذا أحاديث شتى<sup>(٤)</sup> .

وفى غزوة خيبر خرجت أم زياد الأشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لهن النبي : يا ذن من خرجتن ؟ وظهر فى وجهه الغضب . فقان : خرجنا ومعنا دواء

(١) تاريخ الطبرى ١٢٦/٣ وسيرة ابن هشام ٦٥/٤ .

(٢) المغازى ٢٠٠ وشرح نهج البلاغة ٣٥٩/٣ .

(٣) فتح البارى ٣/٦ والطبقات ٧٩/٦ .

(٤) فتح البارى ٥٧/٦ والطبقات ١٦٥/٦ و٥٠/٨ .

ندأوى به الجرحى ، وتناول السهام ، ونسقى السويق<sup>(١)</sup> .

ولما استأذنته أم كبشة القضاية أن ترافق جيشه ، قال : لا . قالت : إني لست أريد أن أقاتل ، إني أريد أن أدأوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء . قال : لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجامسى ، لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة<sup>(٢)</sup> . ولم يأذن لأم ورقة بنت عبد الله أيضاً ، وقال لها : قبرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة<sup>(٣)</sup> .

ويظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم أباح للنساء أن يصحبن الجيوش فى بعض غزواته ليسقين الماء ويدأوين الجرحى ، فلما قوى الإسلام وكثر عدد المساهمين أثر أن تقرر النساء فى بيوتهن ، اكتفاء بالرجال فى الحفاظ ، وصيانة للمرأة عن أهوال المعارك ، وإثارة لأن تفرغ لشئون الأسرة ، وإبعادا لها عن الاسترجال .

### المرأة والسلام

إذا ما ذكرت المرأة بدرت إلى الذهن صفات الأنثى من رقة ولين وعطف وشفقة وحنان ، فهل كانت المرأة الجاهلية حجراً صلباً لا حنوفيه ولا إشفاق ؟ هل كانت المرأة العربية دائماً تسعر الحروب ، وتوقد الضغائن ، وتورث العداوات ؟ هل غفلت عما تجره الحروب عليها من ثكل ويتم وترميل وأحزان ؟ وعما قد يصيبها من سبى ومذلة وهوان ؟ .

لا ، وإنما عاشت فى بيئة تتوالد حروبها ، وتتفاقم منازعاتها ، فلم تستطع إلا أن تدفع فى تيار الرجال .

وهل كان يجديها أو يجدى الرجال أن تتخلف عنهم حيث تستطيع أن تقدم العون ، وتذكى الحماسة ، وتسهم فى القتال ؟ وهل كان الرجال يصيخون إلى أصواتها

(١) الإصابة ٨ / ٢٣٥ .

(٢) الإصابة ٨ / ٢٧٠ .

(٣) الإصابة ٨ / ٢٨٩ .

الحنون الرقيق يدعوهم إلى السلام ، ويحيب إليهم الوئام ، وهم يثقون أن أعداءهم  
يتميزون منهم الغرة ليسكروا عليهم كرة بعد كرة ؟

تتعسف إذا ما ملنا المرأة على مشاركتها في الحروب ، وتتجنى عليها إذا ما  
انتفعناها ، لأنها لم تحمل غصن الزيتون في عالم يتلهب كالأتون .

وها هي ذى المرأة المعاصرة تدعو إلى السلام في عصر الحضارة الزاهية ، فلا  
يستمع لها إلّا كماكون ، وقد نحت أصوات الدعاة إلى السلام من العلماء ورجال  
الدين ، وليس لدعواتهم من الأثر إلّا ما للصوت يردد صدهاء ، ثم تبتلعها البيداء  
أو يخنقه الفضاء .

ومع ذلك فلم يخل تاريخ المرأة العربية من جهد بذلته لنشر لواء السلام ، فإنه  
لما تزوج الحارث بن عوف بـهَيْسَةَ بنت أوس الطائي رفضت أن يقربها ، وقالت  
له : لقد ذكرت لي من الشرف مالا أراه فيك . قال : وكيف ؟ قالت : أتفرغ لنكاح  
النساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً — وكان ذلك في حرب عبس وذبيان —  
قال : فيكون ماذا ؟ قالت : أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى  
أهلك . فخرج وسعى بين القوم بالصالح ، وحمل الديار هو وهرم بن سنان ، وقد  
مدحهما بذلك زهير بن أبي سلمى <sup>(١)</sup> .

كذلك أسلفت في دراسة ( البنت ) أن الجمانة بنت قيس بن زهير العبسي  
أصلحت بين أبيها وجدها لأنها .

وأسلفت في الفصول السابقة أن المرأة كانت تجير ، والإجارة ضرب من  
كف التمتل ودرء الفتنه .

# السبَايا والاماء

## السبَايا

طبيعى أن تكشف الحرب عن قتلى وجرحى وسبَايا وأسرى ، وما زال هذا ديدن الحرب إلى العصر الحاضر .

وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الفنائم الأخرى ، لأن في الأسر والسبي إذلالاً للعدو وقهراً ، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبَايا ، فهم يبادلون بهم أسرارهم تارة ، ويأخذون فداءهم تارة ، ويستخدمون الأسرى فى العمل عبيداً ، ويتزوجون السبَايا بغير صداق ، ويستولدونهم . وهم إلى ذلك كله كلفون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا فى عدوهم ، وظفروا به ، وليس بعد الأسر والسبي دليل على مقدرتهم وصولتهم .

ولقد يخرضهم على السبي أنه انتقام ، وجزاء بالمثل ، يؤيد ذلك قول المرعش السكاكى :

لو كنت حراً كريماً ذا محافظة      ما نمت إلا ونار الحرب تشتعل  
حتى تساق نساء سوق نسوتكم      بما أصابكم أو يُبْلَغ الأجل<sup>(١)</sup>  
ولما افتخر عامر بن الطفيل بأنه سبي امرأة من عبس ثم من بنى سكين -  
وقد استردها قومها بعد أيام - رد عليه عروة العبسى يعيره سبيه ليلي بنت شعواء  
الحلالية وحسنا

إِنْ تَأْخُذُوا أَسْمَاءَ مَوْقِفَ سَاعَةٍ فَمَا أَخَذُ لِي وَهِيَ عَذْرَاءُ أَعْجَبَ  
لِبَسْنَا زِمَانًا حُسْنَهَا وَشَبَابَهَا وَرُدَّتْ إِلَى شَعْوَاءِ وَالرَّأْسُ أَشْيَبُ  
كَمَا خَذْنَا حَسَنَاءَ كَرَهَا وَدَمَعَهَا غَدَاةُ اللَّوَى مَعْصُوبُهُ بِتَصَبُّبٍ<sup>(١)</sup>

### السبي نظام عام :

وقد حدث السبي كثيراً ، حتى لتخولني هذه الكثرة أن أذهب إلى أنه نظام عام متواضع عليه . ولا أستثنى من ذلك إلا أهل مكة ، لأنهم كانوا آمنين ، فلم تُسَبَّ قرشية قط ، فتوطأ قهراً أو تجال عليها السهام . قال حرب بن أمية يرغب الحضرمي في نزول مكة — ويكنى أبا مطر — :

أبا مطر هلم إلى صلاح فيكفك الندامى من قريش  
وتنزل بلدة عَزَّتْ قديماً وتأمين أن يزورك رب جيش<sup>(٢)</sup>

وتسكني هذه الأمثلة لشيوع السبي : فقد أغار قيس بن زهير العبسي على بني يربوع ، فأصاب ابنتي قرواش بن عوف ومائة من إبله<sup>(٣)</sup> . وأغار بسطام بن قيس على بني مالك بن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة ، وهاج أبو جندب بن مرة خلعاء بكر وخزاعة على بني لحيان ، فقتل منهم وسبي من نسائهم وذراريهم سبائاً<sup>(٤)</sup> . وأغار الهذيل بن هُبيرة التغلبي على بني يربوع ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً ، وسبي سبياً كثيراً<sup>(٥)</sup> . وفي يوم جَدُود أغار الحارث بن شريك الشيباني في بكر بن وائل على بني ربيع بن الحارث فأصابوا سبياً ونعماً<sup>(٦)</sup> . وفي يوم التَّسَار سبيت نساء كثيرات من شريفات بني عامر<sup>(٧)</sup> . وفي يوم الزَّوَيْرين بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم

(١) الأغاني ١٨٧/٢ .

(٢) معجم البلدان ١٣٧/٨ صلاح : اسم لمكة (٣) النقايش ٨٤ .

(٤) النقايش ٧٥ (٥) الأغاني ٤٧/٢١ .

(٦) النقايش ٧٠٣ (٧) النقايش ٣٢٦ والكمال لابن الأثير ٢٢٢/١ .

(٣٠ - المرأة في الشعر الجاهلي )



ونسأئهم ، ووصل الخوفزان بن شريك إلى من بقي من النساء اللاتي خلفهن الرجال ، وساروا عنهن للقتال ، فأخذ جميع ما خلفوه من نساء وأموال<sup>(١)</sup> .

وكان السبي هدفا مرموقا ، يدل على ذلك أن عامر بن الطفيل قال لبني عامر يوم قييف الرنج — بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب : — أغيروا بنا عليهم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ، ونسبي نساءهم<sup>(٢)</sup> .

الفخر بالسبي والتعير به :

أما فخرهم بالسبي فكثير جداً ، لأنه الآية على القدرة والظفر بالخصم ، ولأنه مضاعفة لزهو الغالب ونشوة الغلب ، ثم إنه إرهاب للآخرين الذين قد تسول لهم قوتهم أن يحاربوا هؤلاء الأقوياء الغلابين ، وكثيراً ما يتصل بالفخر تعيير . يقول طفيل الغنوي في رده على زيد الخيل وقد أدرك بنو عامر ثأرهم من طيء :

وقتلنا سرابهم جهاراً وجثا بالسبايا والنهب  
سبايا طيء أبرزن قنبراً وأبدلن القصور من الشعاب  
سبايا طيء من كل حي بمن في الفرع منها والنصاب<sup>(٣)</sup>

ويقول الحارث بن حلزة :

ثم ملأنا على تميم فأحرمتنا وفينا بنات مري إماء<sup>(٤)</sup>

ثم أوفى بخير قيس بن الخطيم بصونهم نساءهم في يوم بعاث ، وبسبيهم نساء الخزرج :

ربنا تلى هذه البيت وأما سبيهم بالسبايا مع فيهم .  
(١) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٥ بين بني تميم بن مر بن أد وبني عامر بن تميم في سقطة وبين آل زيات ( تميم ) وعلى وثور . أطلع نوح بن عبيد بن أد وضبة بن أد ) وحلفائهم طيء وغطفان .

(٢) النقائض ٤٦٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٣١ . ٧٨١ .

(٣) الأغاني ١٦٦/٤ .

(٤) شرح القصائد العشر للبرقي ٢٧٧ لما بلغنا الحساء . ملأنا على عيم فلما صرنا في بلادهم دخلنا في الأشهر الحرام فكفنا عن قتالهم وقد سلبنا بلادهم قبل دخول الشهر الحرام .

وإنا منعمنا في بفاث نساءنا وما منعت مُمخّزيات نساءها<sup>(١)</sup>  
وعيّر زهير بن جناب التغلبيين بقوله :

تبا لتغلب أن تساق نساؤهم سوق الإمام إلى المواسم عَطَلا<sup>(٢)</sup>  
وبقوله :

وسبينا من تغلب كل بيضا ٠ رقاد الضحا برؤد الرضاب<sup>(٣)</sup>  
وباهى الأفوه الأودى بأنهم سبوا حسانا لم يستطع رجالهن أن يحموهن ،  
وأنهم مشوا يهن يناغين العبيد ، وعليهن ملاسهن الطويلات الذبول تتدلى على  
أطراف الدوق ، دلالة على ترفهن :

فأبنا يحور كالظباء وجامل ولم تمنع البيض الحسان بعولها  
تناغى المضارب المشاة خرائد ٠ تمسح أطراف القلاص ذبولها<sup>(٤)</sup>  
وكذلك باهى عنزة بسبيهم من بنى ضبة وتميم :

فخلّوا لنا عوذ النساء وجبّوا عبايد منهم مستقيم وجامح<sup>(٥)</sup>  
وهم يفخرون بأن السبايا حسان منعمات ، يقول زهير بن جناب في تعبيره  
بنى تغلب :

وسبينا من تغلب كل بيضا ٠ رقاد الضحى برؤد الرضاب<sup>(٦)</sup>  
وبأنهن حسيبات شريقات ، لأن هذا أدل على السطوة ، وعلى نفاسة الفتيمة ،  
وأشد إيلاماً للعدو ، كقول الأسود بن يعفر في ابنه الجراح ، وكانت أمه أخيدة ،  
سباها الأسود من بنى نهد في غارته عليهم :

- 
- (١) ديوان قيس بن الخطيم ٤ (٢) الأغاني ٢١/٦٤ وأخبار المراقبة ١٥ .  
(٣) الأغاني ٢١/٦٥ وأخبار المراقبة ١٦ .  
(٤) ديوان الأفوه الأودى ١٧ مغلوط . جامل : قطيع من الجمال برعاته . المضارب :  
العبيد والأجراء والخم .  
(٥) عنزة ٤٤ عبايد و يروى عبايد وما معنى يقال ذهبوا عبايد وعبايد أي متفرقين .  
جبوا : فروا . مستقيم وجامح : بعضهم على الطريق وبعضهم عدل عنه وضل .  
(٦) الأغاني ٢١/٦٥ وأخبار المراقبة ٢٦ .

فأبَاء جِرَاحِ ذَوَابَةِ دَارِمٍ وَأُخْوَالِ جِرَاحِ سَرَاةِ بَنِي نَهْدٍ<sup>(١)</sup>  
وَبِالسَّبَاءِ وَالسَّبَايَا افْتَخَرَ طَرْفَةٌ<sup>(٢)</sup> ، وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ<sup>(٣)</sup> ، وَزَيْدُ الْخَلِيلِ<sup>(٤)</sup> ،  
وَعُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ<sup>(٥)</sup> وَالْأَعَشَى<sup>(٦)</sup> .

### المرح بالسبي :

١ — مدحوا القادرين على السباء كما نخروا بالسباء ؛ لأنهم بهذا المدح  
يضعفون من سطوة المدوح ومن لذته بالنصر ، فالأعشى يقول في مدح قيس  
ابن معديكرب إنه أذل أحياء كثيرة ، وسبي نساءهم ، وفيهن الغانية المترفة الممتلئة  
الجسد ، حتى إنها لضخامتها تأتزر بثوبين قد لفق أحدهما على الآخر ، وهي  
جميلة جداً تعلق التأمم وقاية من الحسد ، ولا تقوم من فراشها لتشرب الغبوق  
إلا ضحا ، وقد لجعها قيس في أهلها ، وسبها واستمتع بها :

فِيَارُبَّ نَاعِمَةٍ مِنْهُمْ تَشْدُ اللَّفَاقَ عَلَيْهَا إِرَارَا  
تَنْوُطُ التَّمِيمَ وَتَأْبَى الْغَبْوَ قَ مِنْ سِنَّةِ النَّوْمِ إِلَّا نَهَارَا  
مَلَكْتَ فَعَانَقْتَهَا لَيْلَةً تَنْصُ الْعُقُودَ وَتَدْعُو يَسَارَا<sup>(٧)</sup>

ولم تشذ المرأة عن الرجل ، فقد مدحته بالسبي كما يمدح الرجل ، قالت جنوب  
المذلية في رثاء أخيها عمرو :

وَالْمُخْرَجُ الْعَاتِقَ الْحَسَنَاءَ مُدْعِنَةً فِي السَّبْيِ يَنْفُحُ مِنْ أُرْدَانِهَا الطَّيِّبِ<sup>(٨)</sup>  
وَقَالَتْ الْخُنْسَاءُ فِي رثاء صخر :

---

(١) الأغاني ١١/١٣٣ (٢) ديوان طرفة ١٢٨ وشعراء النصرانية ٣١٣ .  
(٣) ديوان عامر القصيدة ٢ (٤) الأغاني ١٦/٥٥ (٥) ديوان عروة ١٩ .  
(٦) ديوان الأعشى الكبير ١٣ تحقيق محمد حسين .  
(٧) ديوان الأعشى الكبير ٤٩ اللفاق : ثوبان يلفق أحدهما بالآخر . الإزار : الملحقة .  
وكل ما ستر . تنوط : تعلق . تنص : ترفع وتظهر . يسار : شعار لهم بالمير .  
(٨) رياض الأدب ٧٨ .

وسبى كآرام الصريم حويته خلال رجالٍ مستكينٍ عواطله<sup>(١)</sup>  
 ٢ — فن الطبيعي — والسبي مفخرة للسابي ومعرة للمسي — أن يستमित  
 بالرجال في الحرب حتى لا يهزموا فتسبي نساؤهم .  
 يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام      نحاذر أن تقسم أو تهونا  
 أخذن على بعولتهن عهدا      إذا لاقوا فوارسَ معامينا  
 ليستلبن أبدانا وبيضا      وأسرى في الحديد مقرنينا  
 إذا ما رحن يمشين الموينا      كما اضطربت متونُ الشاريننا  
 يقن جياننا ويقن لستم      بعولتنا إذا لم تمنعنونا  
 إذا لم نحمهن فلا بقينا      لشيء بعدهن ولا حيننا  
 وما منع الظعان مثل ضرب      ترى منه السواعد كالقلينا<sup>(٢)</sup>  
 وقال الأفوه الأودي :

نقاتل أقواماً فتسبي نساءهم      ولم ير ذو ذعر لنسوتنا حجابا<sup>(٣)</sup>  
 ولذلك كان من مفاخر الرجل أن يبق النساء السبي ، يقول الشمر ذك بن شريك  
 في رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عوذُ النساء وشكرت      مآزرَ يومٍ لا تُواري خلاخه  
 وثقن به عند الحفيظة فارعوى      إلى صوته جاراته وحلائله<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان النساء ٢٠٠ آرام الصريم : طباء بيض في كتيب من الرمل . خلال رجال : جعلتهن في رجاله . مستكين عواطله : قد ذللن وفقدن حليهن .

(٢) شرح القصائد العشر للبرزى ٢٤٧ القلون : جمع قلة وهي الحشبة التي يلعب بها الصبيان يضربونها بالقلل .

(٣) ديوان الأفوه الأودي ٢١ مخطوط .

(٤) الأمالي لليزيدي ٣٤ والأغانى ١٢/١١٣ ومراث وأشعار لليزيدي ٨١٦ مخطوط  
 عوذ النساء : جمع عائد وهي الأتني الحديثة التاج .

ومدح خُرَيْب بن الحَرْب التيمي بنى جُلَيْم ، لأنهم هموا الغريبات من السبي  
يوم ذى قار :

وإن لُجَيْمًا أهل عز وثروة وأهل أيادٍ لا يُنَال قديمُها  
هم ممنوعوا في يوم قار نساءنا كما منع الشَّوَلُ الهجانَ قرومُها<sup>(١)</sup>  
وكان لقيط بن يَمْعُرٍ قد حذر إِياداً بعد هزيمتها للفرس في دير الجاجم قبل  
وقعة ذى قار بقوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيْرًا على نسائكم كسرى وما بَجَعَا<sup>(٢)</sup>

استخلص السبايا :

تتفانى القبيلة في حماية نساءها حين يدوى نفيـر الحرب ، ويعظم تفانيها إذا  
سبيت نسوة منها . عندئذ تنفر القبيلة كلها سراعاً إلى الميدان لاستخلاص السبايا ،  
ويقدم كل فرد حياته ثمناً لشرف القبيلة وتخايص نساءها من أيدي أعدائها ،  
يقول طرفة بن العبد :

ونحن إذا ما الخيل زایل بينها من الطعن نَشَاجٌ مُخَلٌّ ومُزْعَفٌ  
وجالت عذارى الحى شتى كأنها تَوَالِي صَوَارٍ والأسنّة تَرَعَفُ  
ففتناً غداة الغبِّ كلَّ نَقِيْذَةٍ ومنا الكمي الصابر المتعرِّف<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٢٠/١٤٠ الشول : جم شائلة وهي من الإبل ما أتى على حائها أو وضعها  
سبعة أشهر فجف لبنها . الهجان : الإبل البيض والسكرام الجياد القروم : جم قرم وهو الفحل  
من الإبل .

(٢) الأغاني ٢٠/٢٤ .

(٣) ديوان طرفة ١٢٧ زایل : فرق . نشاج : طعن يخرج الدم بصوت . مخل : يتعرف  
الدم ويهزل الطعن . مزعف : قاتل . توالى صوار : أواخر قطع من البقر . شبه العذارى  
حين جلن فزعان بقر يتبع بعضها بعضاً . فتنا : ردنا . غداة الغب : غداة اليوم التالي  
ليوم الحرب . النقيذة ما يستنقذ من الأعداء . المتعرف : الذى يبحث عن الرئيس ويتعرفه  
ليحمل عليه .

وكذلك نغر زيد الخيل بأنه استعاد السبايا اللاتي كانت قزارة وغطقان  
قد أخذتها منه ومن نهبان :

لقد علمت نهبان أني حميتها وأنى منعت السبي أن يتبددا<sup>(١)</sup>  
وافتخر طفيل الغنوى بأنه تخلص السبايا ، ولام بني جعفر على ضعفهم :  
فنحن منعنا يوم حرس نساءكم غداة دعانا عامرٌ غيرَ مُؤْتَلٍ  
رددنا السبايا من نُفَيْلٍ وجَعْفَرٍ وهن حبالى من نُحَفٍّ ومُثَقَلٍ<sup>(٢)</sup>  
وبحسب الرجل شرفاً أن يحمى المرأة من السبي أو يتخلصها من سابيها ،  
وقد ضرب المثل بريبعة بن مكدم ، لأنه حمى الظعائن ، وزعم الرواة أنه حماهن  
وهو ميت ، فقد هجم بنو سليم يطلبون دماءهم من الحارث بن مكدم وريبعة  
ابن مكدم الكنانى ، فلقوا ظعائن من كنانة ، فأرادوا أن يسبوها ، فأنعهم  
ريبعة فى فرسان معه ، فشد عليه نبيشة بن حبيب السامى فرماه فى عضده ، فلاحق  
بالظعن يستدعى ، حتى انتهى إلى أمه ، فقال : اجعلى على يدي عصابة ، وهو  
يرتجز بقوله :

شدى على العصب أم سَيَّارٍ فقد رزيتُ فارساً كالدينار  
يطعن بالرمح أمام الأديار

وشدت عليه أمه عصابة ، فكرر على القوم وهو ينزف حتى أثنىهم  
وكشفهم ، وقال للظعائن : أسرعن ركابكن حتى ينتهين إلى أدنى البيوت  
من الحى ، وسوف أقف دونكن لم على العقبة ، فأعتمد على رحى فلا يقدمون  
عليكن . ففعلن ذلك ، واعتمد على رحله واقفاً على متن فرسه ، حتى بلغت النساء  
مأمنهن ، وما يقدم عليه أحد خشية منه ، ثم رموا فرسه لما رأوه مائل العنق ،  
فقمصت ، فمال عنها ميتاً ، فأسرعوا وراء النسوة فلم يلحقوهن . قال أبو عمرو

(١) الأغاني ٥٣/١٦ .

(٢) ديوان طفيل الغنوى ٣٧ مخف : لم شغل بطنها . مثقل : عظم بطنها .

ابن العلاء إنه لا يعلم قتيلاً حتى الظعان غير ربيعة<sup>(١)</sup> . وقد مدحه كثير من الشعراء ، وضرب العرب به المثل ، يقول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل<sup>(٢)</sup>  
ولقد كان استخلاص السبايا مجداً يفخر به الذراري وإن بعدوا ، ففي يوم  
الحِذاب سَبَتْ قيس عيلان نساء من سليط ، فأدركتهم بنو الخطافي وبنو ثعلبة ،  
فاستنفدوا السبايا ، وإلى ذلك يشير جرير بقوله :

لقد جُرِّدَتْ يومَ الحِذاب نساؤهم فسامت بمجالها وقلت مهورها<sup>(٣)</sup>  
ومن الطبيعي أن تكون المرأة أعظم لطفة على إنقاذ السبايا ، وأن تبتهج  
بتخليصهن وتشيد بمخلصهن ، لأنها تعلم ما تقاسى السبية من آلام السبي والغربة  
والحنين إلى الأهل ، لهذا شادت عمرة بنت دريد بن الصمة في رثاء أبيها  
بفسكه السبايا :

ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق<sup>(٤)</sup>  
وكان دريد قد قال لربيعة السلمي لما ضربه بسيفه : إذا أتيت إلى أمك  
فقل لها إنك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك .  
فلما رجع إلى أمه أخبرها ، فقالت له : لقد أعتق قتيلاً ثلاثاً من أمهاتك<sup>(٥)</sup> .  
ومدحت الحنساء أخاها صخراً بأنه فكك السبايا :

ردّاد عادية فكّك عانية كضيقم باسل للقرن هَصَّار<sup>(٦)</sup>  
وقالت :

وبيضٍ منعت غداة الصبا ح تُكشِّفُ للرَّوع أذيالها<sup>(٧)</sup>

(١) الأغاني ١٤/ ١٢٦ وجمع الأمثال ١/ ٢٠٣

(٢) الأمالي ٢/ ٢٧٠ . (٣) النقائض ١٣ (٤) الأغاني ٩/ ١٥

(٥) معجم البلدان ٥/ ١٣٨ . (٦) ديوان الحنساء ١٣٦

(٧) الديوان ٢٠٩ .

## اعتناق السبايا :

١ — أطلق العرب الأسرى أحياناً بغير عوض ، إكراما لشاعر يشفع ، كما أطلق الحارث بن أبي شمر أسرى بني تميم وفيهن شاس بن عبدة ، لما شفع فيهم علقمة ومدحه بقصيدته ، بل إنه أطلق الأسرى وكساعم وحجام وزودهم زادا كثيراً<sup>(١)</sup> . وأحياناً كانوا يطلقون الأسير بعد جز ناصيته ، كما فعل الحارث بن عباد بمهل<sup>(٢)</sup> .

كذلك كانوا يعتقون النساء ، كرامة لشفيح ، أو زرعاً لجليل ، أو عفواً بعد مقدرة . فقد أكرم يزيد بن عبد المدان دريد بن الصمة ، وردّ عليه سبايا رجل من ثُمالة كان جارا لأخيه عبد الله ثم جارا له ، فقال دريد في مدحه :

مدحت يزيد بن عبد المدان	فأكرم به من فتى مُتَمَدِّح
إذا المدح زان فتى معشر	فإن يزيد يزين المدح
وردّ النساء بأطهارها	ولو كان غير يزيد فَضَح
وقلت له بعد عتق النساء	وفك الرجال ورد اللّحج

(٣) .....

ولما انتصر زهير بن جناب على غطفان قتل منهم وأسر ، ثم ردّ لهم النساء والأولاد وأخذ الأموال<sup>(٤)</sup> ، وقال :

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأحرّرت النساء<sup>(٥)</sup>  
وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة في الجاهلية ومثلها في الإسلام<sup>(٦)</sup> .  
وإذا كان السبي مفخرة للسابي فقد كان إطلاق السبايا مفخرة أيضاً

(١) السكامل لابن الأثير ٢٢٤/١ والمعارف ٢٧٠ (٢) ابن الأثير ٢٢٠/١

(٣) الأغاني ١٨/٩ (٤) ابن الأثير ٢٢٦/١ (٥) ابن الأثير ١٧٩/١

(٦) تبصير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ٤٩/١ .



ومأثرة يمدح بها ، فإنه لما أغار الحصين بن الحُمام على بنى عقيل وبنى كعب أنحن  
فيهم ، واستاق نعماً كثيراً ونساء ، وكان فيهن أسماء بنت عمرو سيد بنى كعب ،  
ثم أطلقها الحصين ومن عليها ، وقال في ذلك :

تركنا من نساء بنى عقيل أيامى تبتغى عقد النكاح  
فأبنا بالنهب وبالسبايا وبالبيض الخرائد والأقاح  
وأعتقنا ابنة العُمريِّ عمرو وقد خضنا عليها بالقداح<sup>(١)</sup>

وفى يوم أوراة الأول ذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر بن وائل ،  
وأحرق بعض السبايا ، فكلّمه رجل من قيس بن ثعلبة فى شأن الباقيات من  
السبايا فأطاقهن ، فقال الأعشى يفتخر بشجاعة هذا القيسى :

ومنا الذى أعطاه بالجمع ربّه على فاقة وللملوك هياتها  
سبايا بنى شيبان يوم أوراة على النار إذ تجلّى به فتياتها<sup>(٢)</sup>

وقد مدحت عمرة بنت دريد بن الصمة أباهاً بفكه سبايا بنى سليم :  
ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق<sup>(٣)</sup>  
وكانت القبائل الفقيرة الضيقة المراعى القليلة الأنعام لا تجد ما تفتدى به  
سباياها وأسراها ، فتعتمد على كرم السابى ، وتنتظر إطلاقهن بغير فداء<sup>(٤)</sup> ، أو  
تتحنن الفرص لتسترد سباياها بالقوة ، وتثار من خصومها .

٢ — وفى الإسلام كان ذلك ، فإنه لما سبى رسول الله سبياً كثيراً من  
هوازن أتى وفدهم إليه مسلمين ، ورجوا منه أن يمن عليهم ، وقال أحدهم  
يا رسول الله : إنما فى الحظائر عمتك وخالاتك وحواضنك - يشير إلى حاضنته

(١) الأغاني ١٢/١٢٢ وشعراء النصرانية ٧٤٥ الألفاظ : الإبل الحديثة النواج

(٢) ديوان الأعشى (٣) معجم البلدان ١٣٨/٥ .

(٤) Women in the Aiyam Al arab. P. 69 (٤)

من بنى سعد وهم من هوازن - ولو أننا أرضعنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان .  
ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين .  
فقال رسول الله : أأبناءؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا بين .  
أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا . فقال لهم : أما  
ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأشار عليهم أن يتشفعوا به إلى المسلمين ،  
ويتشفعوا بالمسلمين إليه . ففعلوا ، وتنازل المهاجرون والأنصار إلا الأقرع بن  
حابس وبنى تميم وعيينة بن حصن وبنى فزارة وعباس بن مرداس . فقال  
رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض  
من أول سبي أصيبه <sup>(١)</sup> .

٣ — وبهذا التسريح الذى لا عوض فيه امتاز العرب والمسلمون من الأمم  
الأخرى ، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم بعد أن يتموا فى الرق ست  
سنوات . وكان الآثينيون يطلقون أسراهم إذا ما أدوا ثمن الإطلاق . ولم يعطف  
عليهم الإمبرطيون بمثل هذا التسريح العوضى ، ولم ينيلوهم حقاً من حقوق البشر ،  
بل كانوا إذا زاد عدد الأرقاء من الأسر والشراء قتلوهم غير مستبشرين إلا من  
يحتاجون إليه <sup>(٢)</sup> .

### إطوار السبايا بعوضها :

جرى الأقوياء من العرب على أنه من العار أن يستردوا السبايا بمال ، لأن  
هذا دليل الضعف ، فلا هم قادرون على استخلاصهن واستنقاذهن عنوة ، ولا هم  
قادرون على استرجاعهن بغير مال ، سواء أكان ذلك بالانتقام من أعدائهم

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤ وصحيح البخارى بشرح السكرماني ٩٠/١١ والكامل  
لابن الأثير ١٠٢/٢ .

(٢) دائرة المعارف للبستاني ٦٩٦/١ .

وجزائهم سبياً بسبي ، أم بإطلاق السابي للسبايا تكريماً لقومهن أو لمن يشفع فيهن . لذلك عير سويد بن أبي كاهل بنى شيبان بأنهم اشتروا نساءهم من بهراء التي أغارت عليهم .

ظللن ينازعن العضاريط أزرها وشيبان وسط القطططانة حُضَّر<sup>(١)</sup>

١ — على أنهم كانوا يمارسون فداء الأسرى والسبايا ، وكانت لهم نار تسمى فار الفداء ، يوقدونها إذا طلب منهم الفداء ، كراهة أن يعرضوا النساء نهاراً لثلاث يفتضحن<sup>(٢)</sup> .

من ذلك أن أنس بن مدركة الخثعمي أغار على ناس من ثمالة كانوا جيراناً لدريد بن الصمة ، وغنم وسبي ، وذهب بسبيه وغنائه إلى نجران ، فذهب دريد إلى يزيد بن عبد المدان بنجران ، ليرد عليه ما سلب أنس ، وجاء في قصيدته ليزيد طلبه رد السبايا بالمن أو بالفداء :

بنى الديان ردوا مال جارى وأسرى في كبولهم الثقال

وردوا السبي إن شئت بمنّ وإن شئت مفاداةً بمال<sup>(٣)</sup>

٢ — ولم أعترف بما قرأت على مقدار ما كان يدفع فداء للمرأة إلا في مرة واحدة ، هي أن أبجر بن جابر العجلي فادى أخته حسينة من عمرو بن الحارث بمائة من الإبل وخمسة أفراس<sup>(٤)</sup> .

أما فداء الرجل فإنه ذكر مرات ، فأحياناً كان خمسمائة من الإبل ، وقد كانت فداء لحاجب بن زرارة لما أسره العامريون والعبسيون يوم شعب جبلة . وكان أحياناً مائتين دفعت فداء لعمرو بن عمرو<sup>(٥)</sup> . وفي يوم الشالان أسر العامريون وبرّة بن رومانوس الكلبي أخا النعمان بن المنذر لأمه ، فافتدى بألف

(١) الأغاني ١١/١٦٦ العضاريط : الأجراء والخدم . القطططانة : موضع .

(٢) مطالع البدور ١٨/٢ (٣) الأغاني ١٧/٩ .

(٤) أشعار النساء للعرزباني ٥٧ - ٥٩ (٥) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٤

بغير و فرس<sup>(١)</sup> . وفي يوم طَخُفَة بين بنى يربوع وجيش النعمان بن المنذر انهزم جيشه ، وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان وحسان بن المنذر ، ثم أطاقوها ، فأعطى النعمان بنى يربوع ألقى بغيره ، وأبقى لهم الرقادة<sup>(٢)</sup> .

وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بغير وثلاثين فرساً وبهودج أمه<sup>(٣)</sup> ، وفي رواية أخرى أن عتيبة بن الحارث قال لبسطام - وقد عاب بسطام هودج أمه - أما واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتيني أمك بكل شيء ورثك قيس بن مسعود ، وبجملها وحِدَجِها ، فأنته أم بسطام على جملها وحِدَجِها وبثلاثمائة بغير<sup>(٤)</sup> .

وقدم سيار بن عمرو الفزاري للأسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث ابن ظالم ألف بغير ، وهى دية الملوك ، ورهنه بها قوسه ، وفي ذلك يقول قراد بن حنش الصاردي :

ونحن رهننا القوس ثمّت فُوْدِيَتٌ      بألفٍ على ظَهرِ الفَزَارِي أَقْرَعَا  
بعشر مئتين للملوك سعى بهما      ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا<sup>(٥)</sup>

هذا التفصيل الذى نجده فى فداء الأسير لا نجد مثله فى فداء السبية ، وكل ما نعلم أن سايها كان يتقاضى قدرًا من المال ليطلقها .

فقد أغار قيس بن زهير بن جذيمة العبسى على بنى يربوع ، فلم يصب غير ابنتى قرواش بن عوف ومائة من الإبل لقرواش ، ثم اتفق قيس أن يرد ما أخذ .

(١) ابن الأثير ٢٣٤/١ (٢) ابن الأثير ٢٧٣/١ .

(٣) النقااض ٣١٦ (٤) النقااض ٧٦ و ٣١٦ .

(٥) بلوغ الأرب ٢٢/٣ قال ابن عبد ربه فى العقد إن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري احتل للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث بن ظالم ألف بغير وهى دية الملوك ، ورهنه بها قوسه فوق ، وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان إن أحبا سيار لأمه الحارث بن أبى سفيان الصاردي تكفلها للأسود بن المنذر فقام منها بثلاثمائة ثم مات ، فزهن سيار قوسه على المائتين فلما مدح قراد بن حنش بنى فرارة جعل الدية كلها لسيار .

وَيُعْطَى فَرَسًا . فلما رأى أصحابه ذلك قالوا : لا نصالحك أبداً ، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين ، فعمدت إلى غنيمتنا فجعلتها في فرس لك تذهب به دوننا . فاشتري منهم غنيمتهم بمائة من الإبل<sup>(١)</sup> .

والذي يوحى به النص أن نصيب أصحاب قيس كان مائة من الإبل عوضاً عن نصيبهم من الغنيمة كلها ، وهي مائة من الإبل وامرأتان ، وليس يفهم منه قيمة فداء المرأتين وحدها

٣ -- وسنعرف أن الإسلام أقر إطلاق السبايا بعوض .

وبهذا الإطلاق المالى تميز العرب في الجاهلية ، وتميز المسلمون على الرومان ، ذلك بأن الرومان كانوا يطلقون العبيد بالمكاتبه وبالتدبير ، ولكن العتق لا يتحررون الحرية الكاملة ، بل يبقون خاضعين لسيادة مولاهم ، فإذا افتقر السيد أو أُمْلِقَ أبوه أو أمه كان على المعتق أن يعود إلى الرق ، أو أن يقوم بأود الملق ، وإذا أهان العبد سيده بعد عتقه جاز له أن يسترده<sup>(٢)</sup> .

### بغض المرأة للبي :

اعتزت المرأة بحريتها كما اعتز الرجل ، وأبغضت السبي كما أبغض الأسر ، لأن في سبيها إذلالاً لها ، وتغريباً وحرماناً من الوطن ومن الأهل ، وقسراً على معيشة لا ترضاها مهما تكن معززة مكرمة .

وقد تجلّت كراهيتها للسبي في عدة مظاهر :

١ - كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ، ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها ،

لأنها تعلم أنهم يقصدون الحرائر ويريدونهن . قال سيرة بن عمرو الفَقَّعْسَى :

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوها  
يَحْلَنَ إماء والإماء حرائر<sup>(٣)</sup>

(١) النقائش ٨٤ .

(٢) دائرة المعارف للبستاني ٦٩٦/١١ .

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٣٨/١ .

وقال طرفة بن العبد مفتخراً على تغلب يوم تخلاق اللهم :

سـ ائلوا عنا الذي يعرفنا      بخَزَازَى يوم تخلاق اللهم

يوم تبدى البيض عن أسواقها      وتلف الخليل أعراج النعم<sup>(١)</sup>

وقال قيس بن الخطيم في هجاء الخزرج :

صبحناكمُ بيضاء يبرق بيضاها      تبين خلاخيل النساء الموارب<sup>(٢)</sup>

وقال الشمر دل بن شريك في رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عودُ النساء وشمرت      ما زر يوم لا توارى خلاخاه

وثقن به عند الحفيظة فارعوى      إلى صوته جاراته وحلائله<sup>(٣)</sup>

٢ - وإذا وقعت الواقعة ، ولجعت المرأة بالسبي سخطت على قومها الذين

تركوها تؤسر ، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم . من ذلك أنه لما سبيت سلمى بنت

المخارق في يوم النصار قالت تمير جواباً - مالك بن كعب من بني أبي بكر

ابن كلاب - والطفيل ؛ لأنهما فرا :

لما الإله أبا ليلى بفرته      يوم النصار وقنب العير جواباً

كيف الفخار وقد كانت بمُعْتَرِك      يوم النصار بنو ذبيان أرباباً

لم تتمعوا القوم إذ شلوا سوامكم      ولا النساء وكان القوم أحزاباً<sup>(٤)</sup>

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها ، لأنه فر

عنها وتركها تسبي<sup>(٥)</sup> .

(١) الديوان وكتاب بكر وتغلب ٨٩ أعراج النعم : قطعان الإبل .

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٣) الأملاني لليزيدي ٣٤ مخطوط والأغاني ١٢/١١٣ ومراث وأشعار لليزيدي

٨١٦ مخطوط .

(٤) النقائش ٢٤٢ والكمال لابن الأثير ٢٥٩/١ أبو ليلى : الطفيل والد عامر .

جواب : لقب مالك بن كعب لأنه كان يجوب الآبار يحفرها ويتخذها لنفسه . القنب : جراب

قضب الدابة . العير : الحمار الوحشي .

(٥) أشعار النساء للرزباني ٥٧

بل لقد كانت المرأة تزدرى الأسير وإن كان قومها هم الذين أسروه ، لأنها مفتونة بالبطولة والشجاعة والأنفة كما سبق في صفات الزوج الأثير . فمثلاً لما أسر فتى من بنى عمير بن عبد شمس عبد يغوث بن صلاء سيد بنى الحارث ، يوم الكلاب الثانى ، وانطلق به إلى أهله ، وكان الأسر أهوج ، قالت له أمه لما رأت عبد يغوث عظيماً وسيماً : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم . فضحكت وقالت : قبحك الله من سيد قوم أسرك هذا الأهوج . وإلى هذا يشير عبد يغوث بقوله :  
وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترعى قبلى أسيراً يمانياً<sup>(١)</sup>

وكذلك سخرت بطممان بن عمرو الدارمى امرأة من أسريه ، فقال :  
ألا هزئت منى بنجران إذ رأيت عثارى فى الكلبين أم أبان  
كأن لم ترعى قبلى أسيراً مكبلاً ولا رجلاً يرعى به الرجوان<sup>(٢)</sup>

وما زالت المرأة العربية تحقر الأسير إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فإن حمدة أو حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصارى لامت زوجها رَوْح بن زِنَاع وعيرته ، لأنه أسر يوم المرج ، وقيل لأنه أسر قبل ذلك فى حرب غَسَّان ، وافندى . تقول فى ذلك :

وهل هند إلا مهرة عربية سليمة أفرس تجلّ لها بفل  
فان تُنَجَّتْ مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقرافاً فما أنجب الفحل<sup>(٣)</sup>  
على أنه تزوجها وهو سيد يمانية الشام وقائدها وخطيبها ، وهى يمانية مثله ، ولو أنها نزارية وهو قحطاني مثلاً لقليل إن سخطها عليه مبعثه ما بين اليمانية

(١) الفضليات ١٥٦/١ والأغاني ٧١/١٥ .

(٢) معجم البلدان ٧١/٤ الكلبين : القيدى . يرى به الرجوان : استهزاء كأنه رى به رجواً بثر أى ناحيتها وجانباها ( القاموس مادة رجا ) .

(٣) الأغاني ١٣٤/٨ والنبيه والإشراف للسعودى ٣١ وسمط الآلى ١٧٩/١ وفى رأى ابن سيد ه أن الصواب نفل لا بفل لأن البفل لا يلد . والنفل الحسيس من الإنسان والحيوان .

والنزارية من صراع . كذلك رفض عقيل بن علفة أن يزوج عثمان بن حيان المرى - وهو من أبناء عمومته - لأنه كان قد مسه أو مس أباه أسر<sup>(١)</sup> .

٣ - وقد صور الشعراء ما يعتاج في أحشاء السبايا من حزن ولوعة ، وما ينزل بهن من هم وحسرة . فعروة بن الورد يقول إن سباياهم من طيبي يشقن صدورهن إذا جن الليل وطلع النجم :

رحانا من الأجبال أجبال طيبي      نسوق النساء عُودَها وعِشارها  
تري كل بيضاء العوارض طفلة      تُقرى إذا شال السّمك صدارها  
وقد علمت أن لا انقلاب لأهلها      إذا تركت من آخر الليل دارها<sup>(٢)</sup>  
ومجمع بن هلال يفخر بأنه أسر امرأة من مجاشع ، ويقول إن قلبها قد امتلأ حزنًا وجزعًا ، وإن حزنها مقيم لا يبرح ، وهي تدعو عليه بالتماسة كما أتمسبها :  
وعائرة يوم الهيمًا رأيتها      وقد ضمها من داخل الخلب مجزع  
لها غلّال في الصدر ليس ببارح      شجى نشب والعين بالماء تدمع  
تقول وقد أفردتها من حليها      تعست كما أتعستني يا مجمع<sup>(٣)</sup>  
والنايفة يصور السبايا حيارى سواهم ، يخططن على الأرض بالعيدان كما يفعل المكروب المهوم الساهم ، أو هن يخططن على الرمل ليتعرفن متى ينطلقن من الإسار ، وهن كاسفات لا يترين ولا يبرزن مواضع جملهن :  
ويخططن بالعيدان في كل منزل      ويخبأن رمان الثدى النواهد<sup>(٤)</sup>  
والنايفة الجمعدى يصور حزنهن يتجلى في بكائهن وفي السكابة الناطقة على

(١) سبط اللآلى ١/ ١٨٠ .

(٢) ديوان عروة ١٩ وشعراء النصرانية ٩١١ عوذ : حديثات الولادة . عشار : حوامل . تفرى : تشق . السّمك : الأعزو والرامح نجمان نيران .

(٣) شرح الحماسة للرزوقي ٣/ ٧١٦ الهيبا : اسم موضع كانت فيه وقعة لبني نيم الله ابن ثعلبة على بني مجاشع . الخلب : حجاب القاب . الغلّال : حرارة الجوف . شجى نشب : حزن دائم ملازم .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/ ٦٣ .

( ٣١ المرأة في الشعر الجاهلي )



وجوهين ، وحسرتين على فراق أطفالهن الرضع :

فلم أر يوماً كان أكثر باكياً      وجوها ترى فيه الكتابة مجتلى  
ومفتصلاً عن ثدى أم تحبه      عزيز عليها أن يفارق مفتلى<sup>(١)</sup>

٤ - وليس أدل على بغض المرأة للسباء من أن تعيش مع سابها حيناً من الدهر ، وتلد له ، واسكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفاً من أن تسمى أمة . فإذا ما برقت لها بارقة أمل في التحرر والفكاك من السبي انطلقت لا تلوى على شيء . ولقد تحسن الحيلة في أن تسترد حريتها وقيمتها ، ثم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد تبخع نفسها حتى لا تقع أسيرة .

فقد أغار عروة بن الورد على مزينة فأصاب منهم امرأة بكراً من بنى كنانة يقال لها سلمى وتكنى أم وهب ، فأعتقها ، واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه ، وكانت تقول له : لو حججت بي فأمر على أهلى وأراهم ؟ فخرج بها ، ثم أتى يثرب ، وكان يخالط بنى النضير ويعاملهم ، وكان قومها يخاطبونهم ، فأتوهم وهو عندهم فقالت لهم سلمى إنه عائد بي قبل أن ينتهى الشهر الحرام ، فتمالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب سبياً ، وافقدوني منه ، فإنه لا يرى أنى أفارقه ، ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له فادنا بصاحبتنا ، فإنها وسيطة النسب فينا ، وإن علينا سبة أن تكون سبياً ، فإذا سارت إلينا وأردت معاودتها فخطبها ، فإننا نزوجك . فقال لهم : ذلك لكم ، ولكن خيروها ، فإن اختارتني انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها . فوافقوه ، فما كان الغد جاءوه ، فامتنع من فدائها ، ثم رضى ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، وأقبلت عليه فمدحته ، ثم قالت : ما مرّ على يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؛ لأننى لم أكن أشاء أن

(١) الشعر والشعراء ٢٥١/١ تحقيق شاكر . مفصل ومفتلى : مفطوم .

أسمع امرأة من قومك تقول « قالت أمة عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم . لحزن عروة وندم ، وقال ، في ذلك شعراً يدل على خيئته وألمه <sup>(١)</sup> .

كذلك سبى الحارث بن تولب امرأة من بنى أسد يقال لها جمرة بنت نوفل ، فوهبها لأخيه النمر ، ففكر كتمه ، فخبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً . ثم قالت له في يوم : أزرني أهلي ، فإني اشتقت إليهم . فقال لها : أخاف إن صرت إلى أهلك ألا تعودى . فواتقته على أن ترجع إليه ، فخرج بها حتى أوصلها بلادها . فلما أطل على الحى تركته واقفاً ، وانصرفت إلى منزل بعلمها الأول ، فلما مكثت طويلاً ولم ترجع عرف ما صنعت ، وأنها اختدعته ، فانصرف وقال :

جزى الله عنا جمرّة ابنة نوفل جزاء مغفل بالأمانة كاذب  
لأن عابها أمس موقف راكب إلى جانب السرحات أخيب خائب  
وقد سألت عنى الوشاة ليكذبوا على وقد أبليت في النوائب  
وصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضت بحاجب  
وقال فيها أشعاراً كثيرة <sup>(٢)</sup> .

وكذلك سببت امرأة من طسم اسمها عَنز ، شعاعها سابوها في هودج ، والطفوها بالفعل والقول ، فلم يابها إلا لطف عن مذلة السباء ، فقالت :

شرُّ يومئذ وأغواه لها ركبت عَنزٌ بحدجٍ جملا  
أى شريومئذ يوم تكرمُ وهى سبية <sup>(٣)</sup> .

أما قتلها نفسها فيتمثل في فاطمة بنت الخُرشب الأثمارية ، ذلك أنها عرض لها قيس بن زهير فافتاد جماعها ، يريد أن يرتبها بدرعه التى أخذها ابنها الربيع ، حتى يردّها . فقالت له : ما رأيت كاليوم فعل رجل ، أين ضل حالك ؟ أترجو

(١) ديوان عروة ١١ والأغاني ٧٦/٢ والشعر والشعراء ٢٦٠ .

(٢) الأغاني ١٩/١٥٩ .

(٣) جمرّة الامثال لابن هلال ٨/٢ وجمع الأمثال ١/٣٢٨ ولسان العرب ٧/٢٥٠ .

أن تصطاح أنت وبنو زياد أبداً ، وقد أخذت أمهم قتال الناس في ذلك ماشاءوا .  
 أن يقولوا ؟ وحسبك من شر سماعه . فعرف قيس مقالها فغلى سبيلها <sup>(١)</sup> . وفي  
 رواية أنه لم يخل سبيلها ، بل قال لها : إني ذاهب بك لترعى إبل . فلما أيقنت  
 أنه ذاهب بها رمت بنفسها عن البعير ، خوفاً من أن يلحقها ويلحق بنيه عار  
 السبي ، فسقطت على رأسها فماتت <sup>(٢)</sup> .

### معاملة السبايا :

تضع الحرب أوزارها ، وتنجلي عن سبايا ، فيقسمن بالسهم بين المحاربين كما  
 تقسم الغنائم . يقول الأعشى :  
 فما برحوا حتى استخضت نساؤهم وأجروا عليها بالسهم فذلت <sup>(٣)</sup>  
 ويقول الحصين بن الحمام :

وأعتقنا ابنة العمرى عمرو وقد خضنا عليها بالقداح <sup>(٤)</sup>  
 فإذا لم يطلق السابي سبيته بفداء أو من ، وإذا لم يتخلصها قومها منه عنوة ،  
 فكيف كان يعاملها ؟ وعلى أى وضع كانت تقيم عنده ؟

### استبداد السبايا :

١ — كان أول ما يلجأ إليه السابي أن يستولد السبية ، لأنها لا تكلفه مهراً ،  
 ولأنها تلد له أولاداً نجباء ، كما اعتقد العرب في أولاد الغرائب .  
 والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد تزوج زُرارة بن عدس أمته رُشَيَّة ، وكان  
 قد أصابها من الرقيقَات — حى من العرب — فولدت له عمراً وذؤيباً  
 وبرغوثاً <sup>(٥)</sup> ، وكانت له زوجات من سبايا من بنى عجل ومن بنى عبد القيس  
 ومن الأزد ، وقد أنجب له <sup>(٦)</sup> .

(١) النقاى ٩٠ وجمهرة الأمثال ٢٢٨/١

(٢) الأغاني ٢١/١٦ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٢٦١

(٤) شعراء التصانية ٧٤٥

(٥) أمثال العرب للعفضل الضبي ٧

(٦) مجمع الأمثال ١١٦/١

وتزوج ضَمْرَة بن جابر سبية من عبد القيس وسبية من الأزْد<sup>(١)</sup> ، وسبي الصَّمَّة بن عبد الله ربحانة بنت معد يكرب الزبيدي ثم تزوجها .

واشتهر كثير من أبناء السبایا ، وسادوا ، وفرعوا أبناء الحرائر المہيرات ، مثل دريد بن الصمة أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأتمهم نقيية ، وأشعرهم ، وكان سيد بني جُشَم وقائدهم ، وهو وإخوته عبد الله وعبد يفيوث وقيس وخالدهم جميعاً ربحاناً بنت معد يكرب الزبيدي أخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سبها ثم تزوجها فأولدها بنيه<sup>(٢)</sup> . ومثل الأشهب بن ثور بن حارثة ، كانت أمه لخالد بن مالك فاشترها منه ثور بن حارثة في الجاهلية ، فولدت له أربعة نفر كانوا من أشد العرب لساناً ويدا ، وأنعمهم جانباً في الجاهلية والإسلام ، حتى كانوا يأخذون هُذْباً من قطيفة أمهم ، ويلقونه على الماء فلا يَرِدُه أحد<sup>(٣)</sup> .

٢ - وكانوا يفخرون بزواجهم ، إذلالاً بقوتهم ، وإذلالاً لعدوهم ، قال عمرو بن ربوع الغنوي في هجاء عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

ألم نحم نجداً بمسنونة عتاق تبارى بقُرسانيها  
فسائل جُداماً ونُلماً بنا ويَحْصَب من بعد خُولانيها  
ومَذْحَج يُنبِؤك عن حربنا وما كنت تجهل من شأنها  
نكحنا نساءهم عَنَوَةً ببيض الصَّفَاح ومُرانيها<sup>(٤)</sup>

وقال عمرو بن الذارع الحنفي في يوم النَّشَاش - وكان لبني حنيفة على بني نمر - :  
إذا نحن شئنا زوجتُنا رماحنا كما أمكنتنا من بنات المهاجر<sup>(٥)</sup>  
وافتخر النابغة الجعدي بأنهم أكثر القبائل سبياً ونكاحاً للسبایا :

(١) الليداني ١١٧/١ (٢) الأغاني ٢/٩ .

(٣) الأغاني ١٥٣/٨ (٤) المؤلف والمختلف ١٥٦ تبارى : تعارض وتزاحم .

مرانيها : جمع مرانة وهو الرمح الصلب واللدن

(٥) معجم الشعراء ٢٢٥

فَمَا وَجَدَتْ مِنْ فِرْقَةٍ عَرَبِيَّةٍ كَفِيلاً دَنَا مِنْهَا أُعْزِرَ وَأَنْصَرَا  
وَأَكْثَرُ مَنْ نَاكَحَا لِعَرَبِيَّةٍ أَصَابَتْ سِبَاءً أَوْ أَرَادَتْ تَخَيُّراً<sup>(١)</sup>  
وافتخر المطوَّح بن عثمان التغلبي على بني نمير بأنهم نكحوا نساءهم قسراً  
واغتصاباً ، وبأن بني تغلب أعزّة لم تغتصب منهم نسوة :  
هُمْ أَنْكَحُوا بِالغُصْبِ مِنْ فِتْيَاتِكُمْ جِهَاراً وَمِنْ سَرَِّ الْجَاهِرَةِ الْغُصْبُ  
وَمَا كَانَ مِنْهُنَّ قَوْمٌ سَبِيَّةٌ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْوَالِنَا عِنْدَهُمْ نَهَبٌ<sup>(٢)</sup>  
وتباهى الأعشى بيوم ذى قار ، وأن الرماح مكنت العرب المنتصرين من  
زواج نساء المهزومين من الفرس وحلفائهم من العرب :

أَلَا يَا رَبَّ مَا حَسَرَى سَتُنْكَحُهَا الرِّمَاحُ حَمّاً<sup>(٣)</sup>  
٣ — ولم ينفرد العرب بنكاح السبايا ، لأن هذا العرف كان شائعاً عند كثير  
من الأمم القديمة والمعاصرة للعرب .

كان شائعاً عند الآشوريين والإسرائيليين واليهود واليونان والرومان<sup>(٤)</sup> ،  
وكان المولى الإسرائيلي كثيراً ما يتخذ إحدى إمائنه حليمة ، جاء في التوراة : إذا  
ابتعت عبداً عبرانياً فيخدمك ست سنين ، وفي السابعة يخرج حراً بالجان . .  
وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها مولاه ، ويخرج  
وحده<sup>(٥)</sup> .

وكان على الإسرائيلي إن أراد الزواج بإحدى سبائيه أن يدعها شهراً تنجب  
أهلها ثم يتزوجها . فإن لم ترقه بعد الدخول بها سرحها ، ولا يجوز له بيعها ،  
وحينئذ تصير حرة . ولعل هذا التشريع الذي حسن حال السبايا جاء متأخراً ،  
وما من شك في أنه يحمل طابع الصحراء ، ونكاد نتنسم فيه روح الفروسية .

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٥ (٢) حماسة الخالد بن ٥٥ مخطوط

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣٠٣ .

(٤) الرق في الإسلام لأحمد شفيق ١٢ والنظم السياسية والاجتماعية ٣٣ و ٧٠ .

(٥) سفر الخروج ٢ : ٢١

والحرية العربية ، وربما نقلته بعض القبائل الإسرائيلية معها قبل نزوحها من الجزيرة العربية <sup>(١)</sup> : ولكن مع ذلك ظل مركز السبية أحط من الزوجة الحرة من الوجهة الاجتماعية والقانونية <sup>(٢)</sup> .

وكان الزواج بالسبية شائعاً عند الآشوريين ، وعقدت له قوانينهم فصلاً خاصاً ، وإذا تزوج السيد سبيته ارتفعت إلى مقام الزوجة <sup>(٣)</sup> .

وفي القوانين البابلية نوعان من الإماء يطلق على أحدهما أمم Amatum ، والميم الأخيرة للتنوين ، ويطلق على الثاني شجيم sugitim ، والميم للتنوين أيضاً ، وهما تضارعان في العربية كلمة أمة وشجيمية ، والفرق بينهما في البابلية أن الأمة هي الجارية التي كانت تختارها الزوجة العاقر لبعولها لتلد ، كما فعلت سارة مع إبراهيم إذ اختارت له أمة مصرية ولدت له إسماعيل ، جرياً على عادة البابليين . وكانت الأمة أحط من الزوجة مقاماً وعليها أن تطيع زوجة سيدها ، فإن عصتها حل بها عقاب شديد ، أما الشجيمية فهي الأسيرة <sup>(٤)</sup> .

وكذلك جرى الفرس القدماء على السبي والاستمتاع بالسبايا <sup>(٥)</sup> ، وكن متعة للأغنياء ، حتى كان من دأب الطبقة العالية ألا ينفروا إلى الحرب إلا والسبايا مصاحبات لهم . وقد ذكروا أن قصر الملك في الإمبراطورية الأخيرة كان يضم من الخظايا عدداً يتراوح بين ٣٢٩ و ٣٦٠ ، لأنه صار من العادات المرعية ألا يضاجع الملك امرأة غير مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن فائقة الجمال <sup>(٦)</sup> . وكذلك كان الحال في مصر ، فللمرجل أن يباشر أمته ، وله أن يرفعها إلى مقام الزوجة <sup>(٧)</sup> .

(١) النظم السياسية والاجتماعية ٣٨

(٢) المرجع السابق ٣٨ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧

(٤) المرجع السابق ٣٦

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٦ ول ديورانت .

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٦٠ (٧) الرق في الإسلام ٩ .

وقد اعتبرته شريعة ماني نوعاً من الزجاج . وشاع عند الإغريق في بعض عصورهم ، واحتفظ به الإسبرطيون رمزاً لعقد الزواج <sup>(١)</sup> . وأقره أرسطو ، ولم يكن للمرأة التي تباع أو تؤسر أن تمتنع من أن يباشرها سيدها <sup>(٢)</sup> .

وكان الرومان في أول أمرهم يسكروهن التسرى ، حتى تسرى اثنان من كبرائهم وأمرائهم ، فأقبلوا عليه إقبالا ، على أن السُّرية كانت عندهم أحط منزلة من الزوجة <sup>(٣)</sup> .

وكان الساميون عامة ينظرون إلى السُّرية على أنها أقل شأناً من الزوجة ، ويعتبرونها من العبيد <sup>(٤)</sup> .

وما زال السلاف في روسيا والصرب يمارسون زواج الاغتصاب إلى القرن الماضي ، ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في تمثيل العروس لدور المعتصب لعروسه في بعض حفلات الزواج <sup>(٥)</sup> .

٤ — فليس بصحيح إذاً أن السبية عند العرب كانت من الناحية الجنسية خاضعة لآسرها ورهن مشورته ، وأن هذه معاملة استمرت إلى الإسلام ، وهي تنطوي على خزي وعار ومذلة وهدم لكرامة المرأة وشرف قبيلتها <sup>(٦)</sup> .

ليس هذا بصحيح ، لأن السبي نظام ضروري يتبع الحرب . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيراً من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن ، فيصرن حليلات وأمهات أولاد وأعضاء في الأسرة ؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن ؟ بلى . ثم إن الأمم القديمة كلها كانت تمارس زواج السبايا ومباشرتهن كما سبق .

على أن العرب كانوا يكرمون زوجاتهم السبيات ، ويفخرون بحسن

(٢) الرق في الإسلام ١٩ .

Westermarck P. 386 (١)

Gibbon. 11, 205 (٣)

(٤) سفر التكوين ١٢ : ١٦ وإصحاح ٢٠ : ١٤ وسفر الملوك الثاني لإصحاح

٢٦ : ٥

(٥) قصة الحضارة ١/ ٧٤ ول ديورانت .

(٦) Women in the Aiyam El Arab. P. 70

معاملاتهم والحدب عليهن ؛ لأن زواج السبية لم يكن مقصوداً به إزالتها هي ، بل كان مرغوباً فيه ؛ لأنه ضرب من الفروسية ، ولأنه لا مهر فيه ، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق ، لذلك يقول سعد بن مالك جد طرفة :

فألهم بيضات الحدو ر هناك لا النعم المراح<sup>(١)</sup>  
ويقول حاتم الطائي :

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولا كئنا خاطئناها بخير نساها  
فما زادها فينا السباء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا  
ولكننا خطئناها بخير نساها فباعت بهم بيضا وجوههم زهرا  
وكانن ترى فينا من ابن سبية إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا  
ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضا ويصدرها خرا  
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله إذا ماسرى ليل الدجا قمرأ بدرأ<sup>(٢)</sup>  
كانت السبية تعامل معاملة حسنة « معتمدة على جمالها أو مواهبها أو نسلها ، ولكن هذا لا ينفي أن بعضهن كن يعاملن معاملة فيها قسوة<sup>(٣)</sup> »

### بيع السبايا وهبتهن وإرتهن :

١ - هل من الطبيعي أن يكلف كل رجل أن يتزوج بسباياه ؟ لقد يكن كثيرات يضيق بزواجهن ، ولقد يكون له في زواجهن السابقة مغنى ومقنع ، وربما لا يرقنه أو لا يروقه بعضهن ، فياجأ إلى وسيلة غير الزواج للانتفاع بهن . لذلك كان بعض العرب يبيعون السبايا ، حتى لقد كانت في مكة سوق منظمة لبيعهن بيع العبيد<sup>(٤)</sup> . وقد اشترى ثور بن أبي حارثة من خالد بن مالك أمته

(٢) العقد الفرید ٣/٢١٠

(٤) النظم السياسية والاجتماعية ٣٣

(١) الحاشية ١/١٩٨

(٣) Muslim Law P. 24



رُمَيْلة واستولدها أربعة من بنيه<sup>(١)</sup> ، وباع رجل في الجاهلية امرأة وأنجبت من سيدها ، فلما مات عنها أريد بيعها وفاء لدينه، فشكت حالها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر الوارث أن يعتقها وعوضه عنها بعبد<sup>(٢)</sup> .  
وكثيراً ما كانت السبايا يوهبن كما يوهب المال ، فقد أغار الحارث بن تَوَلْب — وكان سيداً معظمًا — على بني أسد ، فسبي امرأة منهم يقال لها جمره بنت نَوْفَل ، فوهبها لأخيه النمر<sup>(٣)</sup> . وكان النعمان يهب السبايا ، وبهذا مدحه النابغة في قوله :

الواهب المائة المِئْكَاءَ زَيْنَهَا سَعْدَانُ تَوْضِيحَ فِي أَدْبَارِهَا اللَّابِدُ  
وَالرَّاكضَاتِ ذِيوَلِ الرِّيطِ فَأَنْقَهَا بَرْدُ الْمَوَاجِرِ كَالْغَزْلَانِ بِالْجَرْدِ<sup>(٤)</sup>  
٢ — والعرب لم يشذوا في هذا أيضاً ، لأن العبرانيين كانوا يبيعون النساء وإن لم يكن رقيقات ، فقد قال يوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهودي اليوم أني قد اشتريتها لتسكون لي زوجة<sup>(٥)</sup> .

وكان الرومانيون يبيعون الأسرى والسبايا للنخاسين كما يبيعون الغنائم ، وإذا حملوهم إلى رومة باعوهم بالمراد ، وكانوا يبيعون عقب كل حرب ألوفاً من السبايا والأسارى<sup>(٦)</sup> .

### الفقرة عاشر: أحياناً :

١ — لا شك أن الناس مختلفون في كثير من الأخلاق والعادات، ولا شك أن ظروف السباء مختلفة أيضاً ، فقد يسبي الموتور فيتشفى ممن سباهن وممن

(١) الأغاني ٨/١٥٣

(٢) كنز العمال ٤ الحديث رقم ٥١٢٦ وابن حنبل ٦/٣٦٠ وأبو داود ٤/٢٦

(٣) الأغاني ١٩/١٥٨ .

(٤) ديوان النابغة ٢١ . المِئْكَاء : الغلاظ الشداد . سعدان توضح : نبت جيد التغذية :

للايل بهذا المكان . اللبد : المتلبدة الوبر . فأنقها : نعم عبثها . الجرد : الموضع الذي

لا ينبت أو موضع يلازم تميم (٥) راعوث ٤ : ٩ و The Holy Bible .

(٦) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيوبوس

أسرهم ، وقد يسبى القوي الغاصب فيحسن معاملة أسراه وسبائهم .  
على أن القسوة في معاملة السبائا كانت عملا معييا عند العرب يعبر به .  
القساة ، فقد عاب خُفاف بن نُدْبة العباس بن مرداس بأنه يستهين بسبائا العرب ،  
ويقتل الأسرى . فلما علم العباس قال لخفاف في ملاء من بني سُلَيم : وإنك  
لتعلم أني أطلق الأسير ، وأصون السبية . . . وأما استهاتي بسبائا العرب فإني  
أخذو القوم في نسبائهم بفعلهم في نسائنا<sup>(١)</sup> . وفي أحوال نادرة سولت الظروف  
للأسر أن يقتل أسراه ، فقد قتل بنو تميم عبد يغوث بن صلاء<sup>(٢)</sup> . وذبح المنذر  
ابن ماء السماء أسرى بني بكر على جبل أوراة ، وأحرق سبائا منهم<sup>(٣)</sup> ، وإلى  
ذلك يشير الأعشى بقوله :

سبائا بني شيبان يوم أوراة على الفسار إذ تُجلى له فتيائهما<sup>(٤)</sup>  
وافتخر تميم بن الحبيب السامى بأنهم بقروا النساء الحبلى :  
بقرنا الحبلى من زهيرة مالك لبياس قوم من رجاء التجبر<sup>(٥)</sup>  
وردد عامر بن الطفيل الفخر ببقر الحبلى .

بقرنا الحبلى من شئوة بعدما خبطن بغير الریح نهداً وخمعا  
ونحن صبحنا حى نجران غارة تبيلُ حبلاها مخافتنا دما<sup>(٦)</sup>  
وكرر هذا<sup>(٧)</sup> .

ومن هذا الخلق الذى يعدى على النساء قول جهم بن سبيل الكلابي .  
حلفتُ لأن تُنجنَ نساء سامى نتاجا كن أكثرهُ اخذاج<sup>(٨)</sup>  
٢ — على أن هذه القسوة كانت شاذة عند العرب كما سبق ، ولم ينفردوا .

(١) الأغاني ١٦/١٣٥

(٢) المفضليات ١/١٥٣

(٣) ديوان الأعشى ٦٣

(٤) الديوان القصيدة ١٢

(٥) الديوان القصيدة ٢٧

(٦) الديوان القصيدة ٢٧

(٧) الديوان القصيدة ٢٧

(٨) الديوان القصيدة ٢٧

(١) الكامل لابن الأثير

(٢) معجم البلدان ٧/٣١٧

(٣) الديوان القصيدة ٢٧

(٤) الديوان القصيدة ٢٧

(٥) الديوان القصيدة ٢٧

(٦) الديوان القصيدة ٢٧

(٧) الديوان القصيدة ٢٧

(٨) الديوان القصيدة ٢٧

(٨) معجم البلدان ٤/٢٠ . المهاج : إلقاء الجنين ناقصا .

بهم ، كدريد بن الصمة وإخوته ، والأشهب بن ثور ، وأبناء زرارة بن عدس ، كما أسأفت ذلك . أما أبناء الإمام فكانوا لا يلحقون بأبائهم إلا إذا ادعواهم ، كعنترة بن شداد .

وليس في نحر أبناء السبايا هذا الشعور بالنقص الذي نجده في نحر أبناء الإمام ، وفي محاولاتهم التعويض عنه بالإشادة ببطولتهم تارة ، وبالمباهاة بأبائهم تارة .

ثم إن أبناء الإمام كانوا يتحاشون أن يذكرُوا أمهاتهم في نغارهم أو في غير نغارهم ، على حين نجد كدريد بن الصمة يذكر في رثائه لأخيه عبد الله - وهو أحد أشقائه - أنه ابن أمه ، وشريكه في رضاع ثديها اللث العذب :

دعاني أخى والخليل بينى وبينه      فلما دعاني لم يخذني بقعد  
أخى أرضعتني أمه بلبانها      بثدي صماء يبيننا لم يُجَدَّ<sup>(١)</sup>

ولو أنه كان يجد في نفسه ما وجد عنترة بن شداد من هوان أمه وضعة منزلتها ما سلك هذا المسلك في تأكيد حبه لأخيه ، وتفجعه عليه .

وقد سبق أن اخذنا ودريد بن الصمة تهاجيا لما رفضته زوجا ، وأنها رفضته لكبر سنه ، ولو أن سبي أمه عار لجاء في رفضها ذكر له كما سنرى في رفض الشريقات لأبناء الإمام ، بل إن أباهما هاشم له ورحب به ، وأنبأها أن سيد بني جشم جاء يخطبها .

وسنرى أن الإمام مارس من الأعمال ما لم تمارس السبايا . وإذا فقد استبان لى أنه لا مندوحة من التفريق بين السبايا والإماء في صفة كل منهن ، وفي مكاتبتها في نظر العرب ، وفي منزلة بنيتها في الحياة الاجتماعية .

(١) الأغاني ٩/٤ ، ولسان العرب مادة قعد وشمرء النصرانية ٧٥٧ قعد : جبان لثيم قاعد عن الحرب والمكارم . لم يجدد : لم ينضب لبنة عن عيب أو لم ييبس .

## معاملة الائمة

— ١ —

١- استنباط المعنى :

كان ساداتهم يستولدونهم أحياناً .

ومن الطبيعي ألا يسمى ابن الأمة إلى مكانة ابن الحرة إلا إذا تميز بصفات  
تجبر ما في استرقاق أمه من خدش لمكانته ، وقد كان الأكرسة وأكثـر عرب  
الجاهلية لا يسودون أولاد الإمام ، ويسمونهم الهجناء ، ويسمون أولاد الميـيرات  
الضـرحاء<sup>(١)</sup> . بقول مهـليل في امرئ القيس بن حـمـام - وكان هـجيناً :

لما توغر في الكراع هـجينهم هـلـيات أثار جابراً أو صـنبلاً<sup>(٢)</sup>

وقد سبق في الزواج أن العربية كانت تأنف أن يتزوجها عبد أو ابن أمة ،  
فقد عاش الشنفرى أسيراً في بني سلامان حينا ، لا تحسبه إلا أحدهم ، حتى لقد  
اتخذـه السـلامى ولداً ، فقال الشنفرى يوماً لبنت سيده : اغسلى رأسى يا أختى .  
فأنكرت أن يكون أخاها ولطمتـه<sup>(٣)</sup> . لذلك كان أبناء الإمام يعيرون بأمهاتهم ،  
يدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسى سبى سلمى الغفارية ، فولدت له أولاداً ،  
وكان شديد الحب لها ، وكان أولاده يعيرون بأمههم ، ويسمون بنى الأخيـذة .  
فـقالت له : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردنى  
إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . ففعل ما أشارت به ، وتزوجها من  
قومها<sup>(٤)</sup> .

ومن التعبير بالأم الرقيقة قول أوس بن حجر :

(١) جبهة الأمثال ١٥ .

(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ١١ ولسان العرب مادة هلل . توغر : أخذ في مكان وعـر  
وأنشده الجوهري لما توغل .

(٣) الأغاني ٢١/٨٧ .

(٤) الأغاني ٣/٣٨ .

أَبْنَى لُبَيْسَى إِنْ أَمَكُم أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُم عَبْدٌ<sup>(١)</sup>  
 وقول عُثَيْرَةَ بْنِ جَعْلٍ فِي هَجَاءِ خَصْمَيْهِ :

وَجَدَّا كَمَا عَبْدَا عُثَيْرَ بْنَ عَامِرٍ وَأَمَّا كَمَا مِنْ قَيْنَةِ أُمَيَّانَ<sup>(٢)</sup>  
 وقول حسان بن ثابت :

أَبُوكَ أَبُوكَ وَأَنْتَ ابْنُهُ فَبَيْسَ الْبَيْتِ وَبَيْسَ الْأَبِ  
 وَأَمَّكَ سَوْدَاءُ نَوِيَّةٌ كَأَنَّ أُنَامِلَهَا الْخَنْظَبَ  
 بَيَّيْتُ أَبُوكَ بِهَا مُغْدِفًا كَمَا سَاوَرَ الْهَرَّةَ الثَّغْلَبَ<sup>(٣)</sup>  
 ويعير الأسود بن يعفر بنى نُجَيْحٍ بقوله :

أَبْنَى نُجَيْحٍ إِنْ أَمَكُم أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُم وَقَبٌ  
 أَكَلْتُ خَبِيثَ الزَّادِ فَاتَّخَمْتُ مِنْهُ وَشَمَّ خَمَارَهَا الْكَلْبُ<sup>(٤)</sup>

وكثير من الشعراء افتخروا بأن أمهاتهم حرائر ، وكثير من السادة مدحوا  
 بخرية أمهاتهم كما سبق في ( الأم ) ، كقول الخنساء في رثاء صخر :

يَا بْنَ الْقُرُومِ ذَوِي الْحِجَا وَابْنَ الْخَضَارِمَةِ الْمُرَاغِدِ  
 وَابْنَ الْمُهَاجِرِ لِلَهَا ثَرُ زَانِمَا الشِّيمِ الْمَوَاجِدِ<sup>(٥)</sup>

٢ - وقد اشتهر بعضهم بالفروسية ، كخفاف بن عمير بن الشريد أمه نُدْبَةُ  
 وهى أمة سوداء وإليها نسب<sup>(٦)</sup> ، والسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ أمة السلَكَةِ أمة سوداء  
 نسب إليها<sup>(٧)</sup> ، وعنترة بن شداد أمة زَبَيْبَةَ أمة سوداء<sup>(٨)</sup> ، والحارث بن  
 عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي أمة حبشية اسمها سَبْحَاءُ ، وكذلك عثمان بن.

(١) ديوان أوس بن حجره (٢) الفضليات ٦٠/٢ .

(٣) الخنظب : ذكر الجراد أو ذكر الخنفساء . مغدِف : سافد .

(٤) لسان العرب ٣٠٠/٢ وقب : عبد . (٥) ديوان الخنساء ٦٢ .

(٦) الشعر والشعراء ١٢٢ والأغاني ١٣٤/١٦ (٧) الشعر والشعراء ١٣٤ .

(٨) الأغاني ١٤٢/٧ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأبارى ٥٠ .

عَنْبَسَةَ ، ومالك بن ضَبَّ الكلبي ، وشقيق بن سلمة ، وحفظة بن صفوان الكلبي<sup>(١)</sup> . وقد ذكر المبرد طائفة من النجباء أبناء الإمام<sup>(٢)</sup> .

٣ - لذلك لم يطلق بنو الإمام صبراً على هذا التعبير ، فطالما ردوا عليه بفخرهم بأنهم شجعان فرسان مغاوير ، وبأنهم كرماء ماجدون ، لكننا لا نجد في شعرهم اعتزازاً بنسب الأم أو سخطاً على السبي والاسترقاق ، أو نزوعاً إلى المساواة ، ودعوة إلى الأخوة الإنسانية . وأنى لهم أن يدعوا إلى ذلك وهم لا يدينون به ، والعصر كله يدين بالسباء ، وبالتفاوت في القدر بين الحر والعبد ، وبين الحر والحر ؟

لذلك يعترف خُفاف بن ثُدْبَةَ بأن نسبه من جهة أمه أسود ، لكن مآثره سودته في قومه ، يقول عن نفسه وعن العباس بن مرداس وهو ابن أمة مثله :

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم<sup>(٣)</sup>

وله شعر كثير في دفاعه عن نفسه<sup>(٤)</sup> . وفَصَّل في بعضه مفاخره ، فيقول إنه جلد صبور لبق ، ينتسب إلى أجداد ذوى عزة ، وذوى مفاخر ، لكنه لم يعين هؤلاء الأجداد أم آباء أمه أم آباء أبيه :

إن تعرضي وتضني بالنَّوال لنا فواصِلان إذا واصلت أمثالي

إني صبور على ما ناب معترفٌ أَصْرَفُ الأمر من حال إلى حال

أَتَمُّى إلى مجد أجداد لهم عَدَدٌ مذلّين لوطء الحق أَرْوَالُ<sup>(٥)</sup>

وكثيراً ما دافع عنتر عن سواده ، وخايل ببطولته ، وإذا كان قد حرم

(٢) الكامل للمبرد ١/٣١١ .

(١) المجر ٣٠٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١٢٢ .

(٥) منتهى الطالب ١/٢١ .

(٤) منتهى الطالب ١/١٥ - ٢٢ مخطوط .

(٣٢ - المرأة في الشعر الجاهلي)

السراوة من جهة أمه فإنه قد أحرز نصف الجدد من أبيه ، وكسب نصفه الآخر بسيفه ، فهو إذا خير من شريف الأب والأم :

إني امرؤ من خير عيس منصبا شطري ، وأحى سائري بالمنصل  
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفت خيراً من مُعمٍ مخول  
إن كنت في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماء الأعزل  
وبذالي ومُهَندي نلت الملا لا بالقراية والعديد الأول<sup>(١)</sup>  
ويدافع عن سواده بأنه تمييز له ، وعلم على شجاعته يوم الحرب :

لئن يعيبوا سوادى فهو لي نسب يوم النزال إذا ما فاتني النسب<sup>(٢)</sup>  
وكذلك دافع السليك بن السليكة عن رق أمه بقوله :

ألا عتبت عليّ فصارمتني وأعجبتها ذوو اللمم الطوال  
فإني يا بنسة الأقوام أُرِي على فعل الوضى من الرجال  
أشأب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرجال  
يشق عليّ أن يلقين ضيا ويعجز عن تخلصهن مالى<sup>(٣)</sup>  
ولم يُغض أبناء الإمام عن مهانة تلحق بأمهاتهم ، وإنما دافعوا عنهم وأحسنوا ،  
فقد استطاعت امرأة من بنى مرة على سُمَيَّة أم أُرطاة ، وسببتها ، فخرج إليها  
أُرطاة ، فسبها وضربها ، فلامه قومه ، وقالوا : مالك تدخل نفسك في خصومات  
النساء ؟ فقال :

يعيرني قومي الجاهل — وانلنا عليهم — وقالوا أنت غير صميم  
هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تُجوز سبّي واستحلّ حريمي

(١) ديوان عترة ١١٩ وربع الأبرار ٨ مخطوط والماني الكبير لابن قتيبة ٥٠٧/١  
ويريد بالعمم المخول قيس بن زهير وكان له عشرة أعمام وعشرة أخوال .  
(٢) الديوان ١٠ . (٣) تهذيب الكامل ٩٧/٢ .

إذا أنا لم أمنع عجوزي منكم . فكانت كأخرى في النساء عقيم<sup>(١)</sup>  
ثم جاء نصيب فدافع عن سواد لونه في الإسلام بقوله :

ليس السواد بناقصي مادام لي هذا اللسان إلى فؤاد ثابت  
من كان ترفعه منابت أصله فبيوت أشعاري جعلت منابتي  
كم بين أسود ناطق ببيانه ماضي الجنان وبين أبيض صامت<sup>(٢)</sup>

على أننا إذا كنا لا نجد في العصر الجاهلي شاعراً نافحاً عن نسبه ، أو حاول  
السمو به إلى سمت العرب ، فليس معنى هذا أنهم ارتضوا حياتهم ، واطمأنوا إلى  
أقدارهم ؛ لأنه لاشك في أنهم كانوا يحنون آلامهم في أنفسهم ، ويكتبون سخطهم  
أن يظهر ..

٤ — وكان العرب لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم ، فلا يرثون إلا  
إذا ادعواهم ، وأشهدوا على أنهم ألصقوا بهم نسبهم . فإذا لم يلحق الرجل ابنه  
بنسبه استعبده<sup>(٣)</sup> . وقد ألحق شداد ابنه عنتره به لما أبلى في رد المغيرين على بني  
عبس إذ قال له أبوه : كُرَّ يا عنتره . فقال : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن  
الحلاب والصر . فقال : كرَّ وأنت حر . فكر وهو يقول :

أنا الهجينُ عنتره كل امرئ يحتمى حره  
أسوده وأحمره والواردات مُسفره

وقاتل يومئذ قتالا مجيداً ، فادعاه أبوه ، وألحق به نسبه<sup>(٤)</sup> .

وربما كان من أسباب احتقار بعضهم لأبناء الإماء أن بعض الإماء كن  
يزنين في الجاهلية ، وكان سادتهن يأتونهن أيضاً ، فإذا أتت المرأة بولد فربما

(١) الأغاني ١١/١٤٠ . (٢) الأغاني ١/١٣٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٧٥ والأغاني ٧/١٤١ .

(٤) الأغاني ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات للزوزني ٥٠ مخطوط .



يدعيه الزاني ، فإن مات السيد ولم يكن قد ادعاه ولا أنكره ، فادعاه ورثته لحق به ، لكنه لا يشارك مستاحقه في ميراثه ، إلا أن يستلحقه قبل القسمة ، وإن كان السيد أنكره لم يلحق به .

من ذلك أن زمعة بن قيس كانت له أمة ، وكان يلم بها ، فظهر بها حمل وكان سيدها يظن أنه من عتبة بن أبي وقاص ، فعهد عتبة قبل موته إلى أخيه سعد أن يستلحق ذلك الحمل . فلما كان عام الفتح تنازع في الولد سعد وعبد ابن زمعة ، الأول يقول أنه ابن أخي ، والثاني يقول إنه أخى وابن جارية أبي ، واجتكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقضى بأن الولد للفراش <sup>(١)</sup> . ثم إن الأمة أدنى شأنًا من السبية كما سبق ، وابنها مثلها في ضعة الشأن .

٥ — ليس العرب بدعا في نظرتهم هذه إلى أبناء الإماء . ففي شريعة حورابي أن أولاد الرجل من جاريته لا يعدون أولاداً شرعيين ، إلا إذا نسبهم إليه ، فإذا نسبهم إليه كان لهم حق الإرث ، وإلا فلا ميراث ، ولسكنهم يعتقون <sup>(٢)</sup> . والرومان كانوا يعدون أولاد السبايا عبيداً كأمهاتهم <sup>(٣)</sup> .

وقد حدث هيرودوت عن اللاتسيين أنهم كانوا يلقبون أولاد الإماء بأسماء أمهاتهم لا آبائهم ، فلو سئل أحدهم عن اسمه ذكر اسمه واسم أمه ثم جدته لأمه . وأعجب من ذلك أن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً عد أولادها أحراراً ، أما إذا كان الزوج حراً وامراته أمة فأولادها رقيق ، وإن كان أبوه أعظم رجل في المملكة <sup>(٤)</sup> .

ولم ينتسب ابن الجارية إلى أبيه عند اليهود وإن تهود ، لقول الكتاب :

(١) فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي ١٧٣/٢ .

(٢) العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ٤٧ .

(٣) تاريخ الحضارة ١٤٨ شغلر سنيويورس . (٤) الأمومة عند العرب ٤٥ .

« عصوا الله وجاءوا بنسل غريب<sup>(١)</sup> ». لذلك كان من الطبيعي ألا يرث<sup>(٢)</sup> وجرى الآشوريون على حرمان أبناء السبايا من لليراث ، إلا إذا لم يكن للآب أولاد من زوجة حرة<sup>(٣)</sup> .

وكذلك البابليون ، فإنهم لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود<sup>(٤)</sup> .

وقد أقر أرسطو امتناع الرجل بجاريته على أن يكون ابنها حراً<sup>(٥)</sup> .

وكان من أهم مصادر الرق عند الإسرائيليين تناسل الأرقاء ، فكانت القاعدة عندهم . أن الولد يتبع أمه حرية ورقا ، فابن الرقيقة يولد رقيقاً ولو كان أبوه حراً ، بل لو كان أبوه هو السيد نفسه وكذلك كان اليونان يفعلون .

فإذا ادعاه أبوه لحق به ، فصار ولداً شرعياً . لكن اليونان اعتبروا حرته ناقصة ، لأنه من الجائز أن يعود إلى الرق بعد موت أبيه<sup>(٦)</sup> . ولم تسمُ أمة بأبناء الإماء كما سمت مصر ؛ لأن المصريين كانوا يسوونهم بأبناء الزوجات الشرعيات حتى في التربية والميراث<sup>(٧)</sup> .

وإذا فقد كان أبناء الإماء عبيداً في نظر العرب والرومان واللاسيين واليهود ، وكانوا محرومين من الميراث في عرف العرب وشرعة حمورابي واليهود والآشوريين ، والبابليين ، وكانوا لا يلحقون بنسب الآباء في الأمم إلا إذا ادعواهم .

ولم يفاير العرب في نظام النسب إلا أرسطو والمصريون القدماء .

(١) شعار المضر ٨٩ .

(٢) شعار المضر ١٧٣ .

(٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ .

(٤) المرجع السابق ٣٦ .

(٥) الرق في الإسلام ١٩ .

(٦) قصة الملكية في العالم ٥٣ ، ٧٧ .

(٧) الحضارة المصرية ٧١ . لوبيون .

## - ٢ -

وكانت الإمة تستعبد كما يستعبد الأسير ، والأسير كان في عداد العبيد ، فقد  
أسرزيد الخليل جماعة من بني عامر وحلفائهم ، منهم الخطيئة الشاعر ، ثم من  
عليه وأطلقه وقال :

أقول لعبدي جَزُول إِذْ أَسْرَتْهُ أَثْبَنِي وَلَا يَغْرُرُكَ أَنْتَ شَاعِرٌ  
فَدَحَهِ الْخَطِيئَةُ بِقَصِيدَتَيْنِ<sup>(١)</sup> .

وكن إذا يقمن بأعمال تناسب عبوديتهن .

١ — فيخدمن سادتهن ، ولهذا الخدمة مظاهر شتى ، فقد تكون خدمة  
للملوك تشبه عمل الوصيفات . يدل على ذلك قول النابغة الذبياني في مسح عمرو  
ابن الحارث الفسائي :

تَحْيِيهِمْ بِيضُ الْوَلَانِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةِ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ<sup>(٢)</sup>  
وَقَدْ يَطْبَخُنَ الطَّعَامَ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُنَّ كُنَّ يَسْتَقِلْنَ بِالطَّبِيخِ فِي بَيُوتِ الْأَشْرَافِ .  
لأن نساءهن مترفات أو مترفات أو مكفيات العمل ، قال طرفه :  
تَبَيْتَ إِمَاءَ الْحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثَ الْمُتَحَرِّفَ<sup>(٣)</sup>  
وقال إن الإماء اشتوين لنا ولد الناقة على الرماد الحار وعلى الجمر ، وسعين .  
علينا بقطع من السنام السمين :

فَطَلَّ الْإِمَاءُ يَمْتَلِلْنَ حُورَاهَا وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسَّديفِ الْمَسْرُودِ<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني ١٦/٥٤ .

(٢) ديوان النابغة ٨ الولائد : الإماء . الإضريح : خز أحر أو أصفر .

(٣) ديوان طرفه ٤٤ و ١٢٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ المتحرف : الذي أذهبت  
السنون ماله . (٤) ديوان طرفه ٣٥ وشرح المعاني السبع لابن الأنباري ٣٧ مخطوط .  
يمتللن : يشوين في الملة وهي الرماد الحار والجمر . الحوار : ولد الناقة . السديف : قطع  
السنام . المسرود : السمين .

وإذا ما فرغ السادة من الطعام أكلت الإمام ما بقي ، يدل على ذلك قول النابغة :

فظل الإمام يبتدرن قديميها كما ابتدرت سعدٌ مياه قراقر<sup>(١)</sup>

ويقول عمرو بن قبيصة :

ورأيت الإمام كالجعثن البالي عكوفاً على قرارةٍ قدّر

ورأيت الدخان كالردغ الأضخام يذباع من وراء الست<sup>(٢)</sup>

ومدح الأسود بن يعفر قوماً بأنهم كرماء لا تميل إمامهم أواني الطبخ ،  
أي لا يفرغن من الطهو للضييفان :

بها ليل لا تصنعى الإمام قدورهم إذا النجم وافاهم عشاء بشمال<sup>(٣)</sup>

وكن يحتطب بن أيضاً ، يقول الأخنس بن شهاب في وصفه الأطلال إن النعام  
يمشي بها آمناً متثاقلاً كمشي الإمام الحواطب أعيانهم ثقل الحمل :

فلا بنة حطان بن قيس منازل كما تنمق العنوان في الرق كاتب

تمشي بها حول النعام كأنها إماء تزجى بالعشى حواطب<sup>(٤)</sup>

ويقول طرفة في هذا المعنى :

حاسبى رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفس لم أرمه

لا أرى إلا النعام به كالإماء أشرفت حزمه<sup>(٥)</sup>

(١) أساس البلاغة مادة قدح . قدح . بقية المرق في القدح .

(٢) ديوان عمرو بن قبيصة ٦٦ الجعثن : أصول الصليان وهو نبت . الردغ : الطين .  
ينباع : يخرج في شدة .

(٣) لسان العرب ١٩٦/١٩ لا تصنعى : لا تميل أو لا تنقص القدور ( القاموس  
والأساس ) وفي اللسان لا تصفو أى لا تأخذ صفوه .

(٤) شرح الحماسة للابريزى ١٢٣/٣ والموشح ٤٤ وشعراء النصرانية ١٨٤ حول :  
لم تحمل . (٥) ديوان طرفة ٧٠ .

وقد وصف قيس بن الخطيم الإمام بأنهن حواطب ، مما يدل على شيوع هذا العمل في طبقة خاصة أو على أنه عمل مرهق :

أصَابَتْ سِرَاءَ مِلاَغَرَ سِيوفُنَا وَغَوَدَرُ أَوْلَادِ الْإِمَاءِ الْحَوَاطِبُ<sup>(١)</sup>  
وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً . يؤيد ذلك قول امرئ القيس إنهم  
خرجوا للصيد وشرع عبيدهم يجمعون الحطب ليشتروا القنص :  
خَرَجْنَا نَرِيْعُ الْوَحْشَ بَيْنَ ثُعَالَةٍ وَبَيْنَ رُحَيَاتٍ إِلَى فَيْجٍ أُخْرُبُ  
إِذَا مَا رَكَبْنَا قَالَ وَلَدَانِ أَهَانَا تَعَالُوا إِلَى أَنْ يَأْتِنَا الْصَيْدُ نَحْطَبُ<sup>(٢)</sup>  
وكن يرعين الغنم والإبل كما يرعى العبيد ، قال ذو الإصبع العدوانى فى رده  
على ابن عمه وتعريضه به - وكان ابن أمة :

عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أُمَى بِرَاعِيَةٍ تَرعى الْمَخَاضَ وَمَا رَأَى بِمَغْبُونٍ<sup>(٣)</sup>  
وقال الأعشى :

وَالْبَيْضُ قَدْ عَنَسَتْ وَطَالَ جَرَاؤُهَا وَنَشَانٌ فِي قَيْنٍ وَفِي أَذْوَادٍ<sup>(٤)</sup>

٢ - يحترفن بالبغاء :

(١) كان بعض الإمام جميلات كما وصفهن طرفة<sup>(٥)</sup> ، وعبدية بن الطيب<sup>(٦)</sup>  
جوسلامة بن جندل<sup>(٧)</sup> ، وامروء القيس<sup>(٨)</sup> . وكن لا يتحرزن ولا يتصون ، فكان  
الرجال يستمتعون بهن . يدل على ذلك قول الأعشى :

وَالْبَيْضُ قَدْ عَنَسَتْ وَطَالَ جَرَاؤُهَا وَنَشَانٌ فِي قَيْنٍ وَفِي أَذْوَادٍ

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٢) معجم البلدان ١/١٤٨ . (٣) المفضليات ١/١٥٨ والأمالى ١/٢٥٥ الخاض :

الحوامل من النوق أو التى بلغت سنتين . (٤) ديوان الأعشى ٩٩ : عنست : لم يتزوجن .

طال جراؤها : طال زمن شبابها . قن : رق . جذاء : جماعات من الإبل .

(٥) ديوان طرفة ٣٥ . (٦) المفضليات ١/١٤٣ . (٧) المفضليات ١/١١٨ .

(٨) ديوان امرئ القيس ١٤٢ .

ولقد أخالهن ما يمتنعى عُصراً يمان على بالأجساد<sup>(١)</sup>  
وقد أحب واحدة منهن ، وأكثر من التشبيب بها ، أحب هُريرة ، وكانت  
هى وأختها خالدة قينتين لبشر بن عمرو مرثد ، قدم بهما اليمامة لما هرب  
من النعمان<sup>(٢)</sup> .

(ب) لهذا احترف بعضهم بالبغاء ، وكان البغاء مقصوداً عابثاً ، والدليل  
على ذلك أن البغى فى اللغة الأمة أو الحرة الفاجرة<sup>(٣)</sup> ، ومن إطلاقها على الأمة  
قول الشاعر :

نغر البغى بحـدج ربّـها إذا ما الناس شلّوا<sup>(٤)</sup>  
ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإمام خاصة ، وأن البغى الأمة<sup>(٥)</sup> .  
وقد عبر الأعشى عن الإمام بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر أو المنذر ابنه :  
يَهَبُ الجِلَّةَ الجُراجِرَ كَالْبَسِ تان تحنو لدرّدق أطفال  
والبغايا يَزْ كُضْنَ أ كَسَبَةَ الإِذْ مَرِيحٍ وَالشَّرْعِيَّ ذَا الأَذْيَالِ<sup>(٦)</sup>

ثم إن القرآن الكريم عبر عنهم بالفتيات ، وهذه الكلمة لم تطلق فى القرآن  
إلا على الإمام « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما  
ملكتم أيمنهم من فتياتكم المؤمنات<sup>(٧)</sup> » ، « والذين يبتغون الكتاب مما  
ملكتم أيمنكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ،  
ولا تسكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ،

(١) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الشباب والفتاة . قن : رق . أذواد : جماعات  
من الإبل . (٢) الأغاني ٧٧/٨ .

(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى . (٤) جهرة الأمثال ١٠٧ .

(٥) الأمالي ١٧٥/٢ . (٦) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ٨٣/١٨ الجلة :

الإبل المنسة . الجراجر : جمع جرجوز وهو البعير الضخم . درّدق : صفار الإبل . الشرعي :  
نوع من البرود . (٧) سورة النساء الآية ٢٥ .

ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم<sup>(١)</sup> . فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ما خص القرآن الإمام بالذكر ، على أن أنفة العرب وغورتهم على الحرائر ، وعفة الحرائر أيضاً وتخوفهن سوء القالة ، كل ذلك كان مغنياً عن نهى العرب عن إكراه النساء الحرات على البغاء<sup>(٢)</sup> .

(ج) وإذا فقد كان بعض الرجال يقتنى الإمام ويكرههن على البغاء ، ليجابن له مالا ، أو ليلدن أولاداً يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه ، فمثلاً كان عبد الله ابن جدعان نخاساً ، له ست جواريزنين ويبيع أولادهن<sup>(٣)</sup> ، وكان عبد الله ابن أبي بن سسلول يجبر جاريتيه أو جواريه الست على البغاء ؛ لأنه كان يبيع أولادهن ، ويتقاضى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل إليه جارية ليباشرها تكريماً له ، فشكت إحداهن أو اثنتان منهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية . وعن ابن عباس وعن علي أن بعض الرجال كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، يأخذون أجورهن فتموا عن ذلك في الإسلام<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن شذاً من الأعراب كآل عزة بالعراق ظلوا يجبرون جواريتهم على الزنا مجلبة للأولاد كفعل الجاهلية<sup>(٥)</sup> .

ولم يكن هذا العمل القبيح موقوفاً على ابن جدعان وابن أبي ، وإنما مارسه غيرهما كما سيبي .

(د) ولكن يميزون بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدهن<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة النور الآية ٣٣ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٦١ - ٣٦٨ .

(٣) الأعلاق النفيسة لابن رسته ٢١٥/٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٠٣/١٨ وتفسير القرطبي ١٥٤/١٢ والإصابة ١٨٩ و٢١/٨ وفتح الباري ٣٧٨/٤ وتفسير الألوسي ١٥٧/١٨ والعقد القريد ٢/٣ وتفسير الجلالين ٢٩٥ وتفسير الرازي ٣٩١/٦ . (٥) تفسير الألوسي ١٥٧/١٨ . (٦) إنسان العيون ٤٦/١ .

وقد ذكرتهن السيدة عائشة في أنسكحة الجاهلية<sup>(١)</sup> . وقيل إنهن كن تسعا أو أكثر معروفات ، سمى منهن هشام بن الكلبي أكثر من عشر في كتابه : المثالب<sup>(٢)</sup> . وهن جميعاً من سواقط الإمام مثل سُرَيْفَة جارية زمعة بن الأسود ، وأم عُليط جارية صفوان بن أمية ، وحنّة القبطية جارية العاص بن وائل<sup>(٣)</sup> .

وقد اشتهر من هؤلاء ثَمَمَة أم زياد وإخوته ، وهى جارية فارسية أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطليب<sup>(٤)</sup> ، وكان لها أبناء اشتهروا . فابنها أبو بكر . نُفْع انضم إلى الرسول في حصار الطائف سنة ٨ هـ عندما وعد من ينضم إليه أن يكون حراً ، سواء أكان حراً أم عبداً ، وصار من مواليه<sup>(٥)</sup> . وابنها نافع بقى مع الحارث بن كلدة فأعلن حرثته وبنوته كما أعلن بنوة أُرْدَة بنت سمية<sup>(٦)</sup> .

وهؤلاء جميعاً إخوة زياد لأمه ، وبحسب زياد من نباهة الشأن أن ادعى أخوته معاوية ، وأن جعله أكبر ولاته .

( هـ ) وإذا ما تفضنت وجوه هؤلاء البغايا الحسان ، ويبيت أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن غلبتهن طبيعتهن ، ففسرن بين الرجال والنساء ، يتكسبن بذلك ، ويتعزبن بشيوع الفاحشة ، ويثأرن من المجتمع الذى يحقرهن .

يدل على ذلك قول السيدة عائشة : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغيّاً فى

(١) فتح البارى ١٥٩/٩ . (٢) بلوغ الأرب للألوسى ٥/٢ .

(٣) بلوغ الأرب للألوسى ٥/٢ . (٤) أسد الغابة ١٥١/٥ . والروض الأنف

١٣/٢ والمعارف ٩٧ ومجمع البلدان ١٥٢/٢ والأغانى ٦٥/١٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

٣١٥/١ . (٥) المغازى ٣٧١ والروض الأنف ٣٠٤/٢ .

(٦) فتوح البلدان ٣٤٣ و٣٥٠ والمعارف ٩٧ .



: شبيبتهما ، فإذا أسنَّت وصلته بالقيادة<sup>(١)</sup> . وفي شعر امرئ القيس<sup>(٢)</sup> والأعشى<sup>(٣)</sup> .  
وعنترة<sup>(٤)</sup> ما يدل على ذلك .

( و ) وهؤلاء البغايا كن محقرات ، لأنهن جعلن حقارة الإمام إلى حقارة  
البغاء ، والدليل على تحقير الإمام وبخاصة في نظر النساء أن عاصية بنت ثابت  
ابن أبي الأفاع زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت  
اسمى فسمنى . فقال : أنت جميلة . ففضبت وقالت : ما وجدت اسما تسمينى به  
إلا اسم أمة ؟ وأنت النبي صلى الله عليه وسلم واستسمته فسمها جميلة أيضاً .  
ففضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن  
الله عند لسان عمر وقلبه<sup>(٥)</sup> .

ويدل على ذلك أيضاً هجاء عمرو بن معد يكرب لخصومه بقوله :

وكنتم أعبداء أولاد غيلٍ بنى آملٍ مرّ السّفاد<sup>(٦)</sup>

وقد أكثر يزيد بن مفرغ من هجاء عباد بن زياد ، والتنديد بمعاوية ، لأنه  
ادعى أخوة زياد ، كقوله لعباد :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعباً قابك بانصداع  
فاشهد أن أملك لم تبشّر أباسفیان واضعة القفّاع  
ولكن كان أمر فيه لبسٌ على وجلٍ شديدٍ وارتياح<sup>(٧)</sup>  
وقوله لمعاوية :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُغلّلةً من الرجل اليماني

(١) عيون الأخبار ٤/ ١٠٢ . (٢) ديوان امرئ القيس ١١٣ .

(٣) ديوان الأعشى ١٢٢ و ١١٤ . (٤) ديوان عنترة ١٥٢ . .

(٥) الإصابة ٤٠/ ٨ .

(٦) لسان العرب ١٨/ ٤٧ القيل : اللبّ ترضعه المرأة ومى حامل . آمل : إمام .

(٧) الأغاني ١٧/ ٥٧ و ٦٦ والشعر والشعراء ١٣٣ .

أنفضب أن يقال أبوك عفاً وترضى أن يقال أبوك زان ؟  
 فاشهد أن رُمِّمَكَ من زياد كَرَحَمَ الفيل من ولد الأوتان  
 وأشهد أنها ولدت زياداً وصخره من سُمَيَّة غير دان<sup>(١)</sup>  
 وله في هذا المجال جولات<sup>(٢)</sup> .

وكانت البغايا يشعرون بمباهاتهن كما يشعر الإمام بعامة ، ومصدق هذا أن  
 بيوتهن كانت بمنأى عن المساكن ومضارب الحيام ، وأن روادهن كانوا ينسأون  
 إليهن في الظلام ، لذا سَمَّينَ الْمُظْلِمَاتِ تقول العوراء بنت سُبَيْع في رثاء أخيها  
 إنه كان عفاً لا يرود بيت مظامة :

أبكي لعبد الله إذ حُشَّتْ قبيل الصبح ناره  
 طيان طاوى الكشح لا يُرَخَى لمظلمة إزاره<sup>(٣)</sup>

وقد قيد العرب البقاء بقيود ، منها أنه كان يحظر على العربية أن تمتنن بالبغاء  
 لأنه كان يقصر على الرقيقات الأجنبية ، ومنها أن كثيراً من الالتزامات العائلية  
 كانت تجب بسببه<sup>(٤)</sup> كما ذكرت السيدة عائشة في حديثها عن نكاح الجاهلية  
 أن البغى إذا حملت ووضعت جمعوا لها القافة ، فألحقوا ولدها بمن يرونها شبيهاً له  
 من الذين ترددوا عليها ، فيدعى ابنه ولا يمتنع من إلحاقه<sup>(٥)</sup> .

( ز ) ولست أرتاب في أن تأجير الأمة للزنا امتهان لها ، ومهانة لسيدها ،  
 ولا يسمح هذه الوصمة عن العرب أن بعض الأمم شاركهم فيها ، فالرومان كانوا  
 يسبون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان  
 لأنهن يحلبن للمالكين ثروة من الفجور<sup>(٦)</sup> .

(١) المرجع السابق . (٢) الأغاني ٥٧/١٧ - ٧٠ وخزانة الأدب ٥١٦/٢ .  
 ووفيات الأعيان ٣٢٣/٣ والمقد الفريد ٢٣١/٣ ويذكر صاحب العقد أن عبد الرحمن  
 ابن حسان بن ثابت هو القاتل : ألا أبلغ معاوية بن حرب . الأبيات .  
 (٣) مرآئي شواعر العرب ١٤٧ حش : أوقدت . (٤) الأسرة والمجتمع ٧٥ .  
 (٥) لسان العيون ٤٧/١ . (٦) الرق في الإسلام ٣٤ .

وقد أقر المشرعون هذا الضرب من الاستغلال ، حتى إن صولون نظم البغاء وأنشأ منازل خاصة للبغايا ، واشترى عددا كبيرا من الإماء ، ووزعن على هذه المنازل لتنتفع الدولة بأجورهن . وكان بحوار هذا البغاء التجارى بناء آخر دينى فى معابد لإلهة فينوس ( الزهرة ) يخصص للمعبد ، وانتشر هذا البغاء فى بلاد اليونان ، وعدوه من صالح الأعمال ، ونذروا به للإلهة فينوس ، ومدحوه<sup>(١)</sup> .

وكانت الفتيات والزوجات يحجن للرجال أن يباشروهن فى هيكل الإلهة عشتروت ببعملبك ، ويعتبرن هذا عملا مقدسا ، لأنه زلنى إلى إلهة الخصب والتناج ، وقد ظلت هذه العبارة المقدسة إلى عهد قسطنطين<sup>(٢)</sup> .

كذلك كان لزاما على كل امرأة فى بابل وأشور أن تمارس العبارة المقدسة مرة فى حياتها ، فكان هيكل مليتاربه الجمال يعص بهؤلاء النسوة<sup>(٣)</sup> ، وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات فى آشور تقديسا للإلهة استار<sup>(٤)</sup> ، كذلك كان الفينيقيون والإسرائيليون يمارسون العبارة المقدسة ، واتخذوا البغاء تسكريما لعشتروت<sup>(٥)</sup> .

بل إن فساد الخلق تسرب إلى زوجات بعض القياصرة ، وجاهرن به ، وحسبنا أن نذكر اسم ليفيا أو ستيليا زوجة كاليكولا ( ٣٧ - ٤١ م ) ومسآلين زوجة خليفته كلود ( ٤ - ٥٤ م ) . وكانت تيودورا زوجة جستنيان الأول سيئة السيرة ، وقالوا إنها فسقت علانية مع ابنها ومع أختها ، ومع سيدات الحاشية وتمادت إلى أن كانت تخرج مع أختها فى الليل فتفتشان بساطا فى الشارع وتفسقان عليه<sup>(٦)</sup> .

(١) قصة الملكية فى العالم ٧٩ . (٢) النظام السياسية والاجتماعية ٢٢ .

(٣) P. A. Rosler. La Question femineste. 137

Rosler. P. 140 (٤)

(٥) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى جستاف لويون ٥١ .

(٦) Histoire Des Papes. Tome 2. 67

فإذا كان بعض العرب قد أجز الإمام للفجور فإن غيرهم قد فعل ذلك أو ما يشبهه . ولكن هذا لا يبرئ العرب من اللوم ، سواء أكان الباعث لهم الرغبة في المال ، أم في الأولاد الذين يباعون أحياناً ، أم إطفاف الضيف كما سبق ، أم كان الباعث أن هذا ضرب مشوه من العبارة المقدسة ، التي كانت معروفة عند الآشوريين والبابليين والفيثقيين والرومان واليهود ، والعرب على صالة بهؤلاء جميعاً .

والواقع أن عدد الإمام الثلاثي كن يبعين كان قليلاً جداً كما سبق ، ولم يكن يمارسه من نساء العرب أحد .

### — ٣ —

وكن يُبَعَّنَ وَيُورَثَنَ ، فقد اشترت أم حبيبة بنت أبي سفيان أمة اسمها بركة جاءت بها من الحبشة معها<sup>(١)</sup> . وورث النبي عن أمه مولاته أم أيمن — اسمها بركة<sup>(٢)</sup> — ويظهر أنها هي التي ذكر ابن سعد أنه ورثها من أبيه ، وأنها كانت جارية عسراء اللسان ، واسمها أم أيمن ، وهي حاضنة الرسول ومربيته ، وقد أعتقها حين تزوج السيدة خديجة ، وكان يدعوها أمه ، وكان إذا نظر إليها يقول : هذه بقية أهل بيتي<sup>(٣)</sup> .

وسيأتى حديث الشعر عن هبة الإمام القيان ، وعن أثر القيان في الفناء .

### السبأ بين الجاهلية والإسلام

بزغ الإسلام والسبأ ضرورة من ضرورات الحرب في كل الأمم ، فلا مندوحة عن الحرب ولا مناص من السبي والأسر ، وقد تغفل نظام الرق في الحياة

(١) الإصابة ٢٧/٨ . (٢) المعارف ٤٧ .

(٣) الطبقات الكبير ٦٢/٧ .

الاجتماعية والاقتصادية ، وصار دعامة في صرح الحياة . فلو أن الإسلام أبطل الرق دفعة واحدة لهدم هذا الصرح، وأوقع الناس في اضطراب وثورات وشور، ولأضر بالسادة المالكين والأرقاء أنفسهم .

ثم إن الأرقاء لم يكونوا قد بلغوا من الوعي الحد الذي يجعلهم يستغلون مكائدهم ، ويدفعهم أو يدفع بعضهم إلى التمرد والثورة على هذا النظام العام . ولم يكن الأحرار الذين يقتنون العبيد قد ارتقى بهم تفكيرهم وسمت بهم أخلاقهم وعواطفهم إلى اجتواء هذا النظام ، وإثارة حرية البشر على استعبادهم وتسخيرهم .

لذلك لم تحرم اليهودية أو المسيحية الرق ، ولم تسن من القوانين ما يضيّق نطاقه ، وكل ما فعلت أن أوصلت الأحرار بإحسان معاملة الأرقاء ، وأوصت الأرقاء بالإخلاص لسادتهم<sup>(١)</sup> .

وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والتيسيين وتلميذ أرسطو في القرن الثالث عشر ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية وإلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ، ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب<sup>(٢)</sup> .

لكن الإسلام نظم الرق كما نظم شؤون المجتمع ، وإذا ما وازنا بين حال السبايا في الإسلام وحالهن في الجاهلية وجدنا الإسلام قد أقر بعض ما تعارف عليه العرب ، وعدل بعضه ، وأبطل الباقي .

### ما أقره الإسلام

١ — أقر الإسلام السبي في الحرب المشروعة . فقد سبي النبي صلى الله عليه وسلم نساء من هوازن ثم ردهن . وسبي من بنى المصطلق<sup>(٣)</sup> . وأسرى المسلمون

(١) رسالة بولس إلى أهل أفسس ٦ : ٥ - ٩ . (٢) بلال داعي السماء ٧٤ . (٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١١/٩٠ وفتح الباري ٥/١٢٢ والسنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٤ والتنبيه والإشراف ٢١٥ .

من طي، سبايا، فيمن بنت حاتم، فاستعطفت النبي بمكازم أبيها فغلب سبيلها<sup>(١)</sup> وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونسأولهم. فقال رسول الله: أصبت فيهم حكم الله<sup>(٢)</sup>. ثم لما بعث معاوية بسر بن أرطاة لينكل بشيعة على سار حتى همدان فتغفلهم، وأغار عليهم فقتلهم وسبى نساءهم<sup>(٣)</sup>

٢ — وأقر الإسلام إعتاق السبايا، كما أطلق النبي سبايا هوازن. وأقر إطلاقهن بعوض، فقد كتب النبي عليه الصلاة والسلام جويزية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق، وقيل إنها كانت في سهم ثابت بن قيس، وكانت نفسها فأنجز رسول الله كتابتها وتزوجها، فأرسل الناس ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق، إكراماً لهم، لأنهم صاروا أصحاب رسول الله<sup>(٤)</sup>.

٣ — وأقر الإسلام بيع السبايا، لكنه راعى ألا يفرق بين الأقوياء القاربة، فقد بعث رسول الله حارثة بن زيد نحو مدين، فأصاب سبياً من أهل مينا، فبيعوا ففرق بينهم، فخرج رسول الله وهم يبكون فقال: ما لهم؟ فقتل: يا رسول الله فرق بينهم. فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً. قال ابن هشام: أراد الأمهات والأولاد<sup>(٥)</sup>. وفي الحديث الشريف: من رضى رقيقه فليمسكه، ومن لم يرض فليبيعه، فلا تعذبوا خلق الله<sup>(٦)</sup>.

ولما باع على بن أبي طالب جارية وولدها وفرق بينهما نهاه رسول الله عن ذلك ورد البيع، وقال بهما أو أمسكهما جميعاً<sup>(٧)</sup>، وكذلك أمره لما باع غلامين أخوين وفرق بينهما<sup>(٨)</sup>. وفي عهد عمر رضى الله عنه أتى الصحابة إلى المدينة بسبى فارس، وكان فيمن ثلاث بنات ليزدجرد - ملك الفرس - فباع

(١) الأغاني ١٦/٩٣.

(٢) التنبيه والإشراف ٢١٧ والخراج لأقرشي ١٤. (٣) النقايس ٦١٧.

(٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي ٢/٢٤٨. (٥) سيرة ابن هشام ٤/٣١٢.

(٦) البيان والتبيين ٢/٣٦. (٧) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٦.

(٨) المرجع السابق ٩/١٢٧.

'لمسامون السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً ، فقال له علي بن أبي طالب : بنات الملوك لا يعامان معاملة غيرهن . فقال عمر لعل : كيف الطريق إلى معاملتهن ؟ قال يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومن فأخذهن علي بن طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لحمد بن أبي بكر ، والثالثة لوالده الحسين<sup>(١)</sup> ، وهي شاهبانو shahbanu<sup>(٢)</sup> .

٤ — كما أقر أن يوهبن وأن يورثن وأن يخدمن سادتهن .

### ما علمه العرب من الإسلام

١ — كان العرب يديحون للسيد أن يستولد سبيته ، و يديحون له أن يستولد أمته ، لكنها تظل أمة بعد أن تلد له فأقر الإسلام حق السيد في استيلائها ، أما حريتها أو عبوديتها بعد أن تلد لسيدها فقد تعارضت فيها الآراء حقبة من الزمن حتى استقرت المذاهب الأربعة ، فتقررت حرية السبية أو الأمة بعد موت سيدها بولادتها منه ، وماخص الآراء :

(١) لا يجوز لولى السيد أن يبيع أمته بعد وفاته إذا كانت أم ولد . حدثت سلامة بنت معقل فقالت : قدم بى عمى فى الجاهلية فباعنى من الحباب بن عمرو ، فولدت له عبد الرحمن ، ثم هلك ، فقالت امرأته : والله تباعين فى دينه . فأثبت رسول الله فشكوت له ، فاستدعى البُشَير بن عمرو أخا الحباب فقال : أعتقوها ، فإذا سمعتم برقيق قدم على فأتوني به أعوضكم منها ففعلوا<sup>(٣)</sup> .

ثم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة رسول الله ، فقال قوم : أم الولد مملوكة ، ولولا ذلك لم يوضع رسول الله منها .

وقال بعضهم : هى حرة قد أعتقها رسول الله . ففى كان الاختلاف<sup>(٤)</sup> .

(١) ربيع الأبرار للرخيمى . (٢) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ١٨١ .

(٣) أسد الغابة ٤٧٧/٥ وسنن أبى داود ١٠٦/٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٦٠/٦ .

ورويت في عتق أم الولد أحاديث شتى منها : « أم الولد حرة وإن كان سقطاً » و : « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات ، إلا أن يعتقها قبل موته » و : « من وطئ أمة فولدت له فهي معتقة عن ذُبُر منه <sup>(١)</sup> .

(ب) ثم جاء عمر رضي الله عنه فقرر أن أم الولد تتحرر إذا مات عنها سيدها ، وقال الأمة يعتقها ولدها وإن كان سقطاً ، وطبق ذلك فأعتق أمهات الأولاد ، وقال : أعتقن رسول الله . وأمر بتقويم أمهات الأولاد بقيمة عدل في أموال أبنائهن ثم يعتقن ، ومكث على ذلك صدراً من خلافته إلى أن توفي رجل من قريش كان له ولد من أمته ، فسأل عمر الغلام يوماً : ما فعلت يا بن أخي في أمك ؟ قال : قد خيرني إخوتي في أن يسترقوا أمي أو يخرجوني من ميراثي من أبي ، فكان ميراثي من أبي أهون علي من أن تسترق أمي . ثم قام عمر فخطب في الناس فقال : إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم قد حدث لي رأي غير ذلك ، فأيمأ امرئ . كانت عنده أم ولد يملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل عليها <sup>(٢)</sup> .

(ج) ويظهر أن الحكم لا يمكن قد استقر ، فإن علي بن أبي طالب انحرف عن رأي عمر <sup>(٣)</sup> . ثم رجع إليه <sup>(٤)</sup> . وقيل إن ابن عباس أيضاً عارض رأي عمر ، وقيل إن علياً وابن عباس كانا يوافقانه <sup>(٥)</sup> . وأصر بعض المسلمين على أن النبي أقر بيع أم الولد <sup>(٦)</sup> ، وروى ابن حنبل عن جابر : « كنا نبيع سراريننا أمهات أولادنا

(١) كنز العمال ٢٤٨/٥ الحديث ٥٠٣٩ - ٥٠٤١ ومسنند الإمام أحمد ٣٠٣/١ و

٣١٧ . (٢) كنز العمال ٢٥٢/٥ الحديث رقم ٥١١٨ .

(٣) كنز العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٠ و ٥١٣١ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٣٤٢/١٠ (٥) كنز العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٣٢ و

٢٤٨/٥ رقم ٥٠٣٩ و ٢٤٨/٥ رقم ٥٠٤١ والطبقات لابن سعد ١٥٥/٨ ومسنند أحمد

ابن حنبل ٣٠٣/١ و ٣١٧ (٦) كنز العمال ٢٥٣/٥ رقم ٥١٢٥ وابن ماجه



والنبي صلى الله عليه وسلم فينا حتى لا يرى بذلك بأساً<sup>(١)</sup> . وذهب آخرون إلى أن النبي لم يقر بيعها مستدلين بأن تحابة النبي وافقوا رأى عمر<sup>(٢)</sup> . وقد أورد البخارى حديثين في أم الولد أيحكم بيعتها أم لا<sup>(٣)</sup> .

ثم جاء العيني فاجمع الآراء المختلفة فيها<sup>(٤)</sup> .

(د) ثم لما تكونت المذاهب أخذت بالرأى القائل إن أم الولد لا يصح بيعها ، وعلى ذلك أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم . لكن داود والظاهرية والإمامية الاثنى عشرية والمعتزلة ذهبوا إلى جواز بيعها . فمثلا يرى الإمام مالك أنه لا يجوز بيعها إذا حلت من سيدها ، ولا يجوز له أن يقبل منها مالا تفقدى به نفسها<sup>(٥)</sup> :

وهذا الجدل الطويل والخلاف فى الرأى فى صدر الإسلام وبعده دليل على أن الإسلام لم يحسم الحكم فى أم الولد إلى أن تكونت المذاهب الأربعة . وإذا فالشبه قوى بين النظام الذى سار عليه العرب فى الجاهلية فى معاملة الأمة أم الولد وبين الآراء الإسلامية التى تبيح بيعها فى الإسلام ، وإن كان رأى الجمهور أكسبها فى الإسلام حقاً لم يكن لها فى الجاهلية .

(١) مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣/٣٢١

(٢) سنن أبى داود باب العتق ٨ والعيني على البخارى عتق باب ٨

(٣) فتح البارى ٥/١١٨ (٤) هذه الآراء هى : « أ » الثابت عن عمر عدم جواز بيعها ، وروى مثله عن عثمان وهو قول أكثر التابعين ومالك والثورى والأوزاعى والليث وأبى حنيفة والشافعى فى أكثر كتبه ، ونقل عن المزنى أنه قال : قطع الشافعى فى أربعة عشر موضعاً من كتبه بالاتباع . قال العيني وهو الصحيح من مذهبه وعليه جمهور أصحابه « ب » يجوز للسيد أن يعتق أم الولد مقابل مال يأخذه فتكون كالمسكينة . « ج » يجوز بيعها من غير قيد أو شرط وهو رأى أبى بكر وعلى وابن عباس وغيرهم . « د » يجوز لسيدها وحده أن يبيعها فى حياته فإن لم يبيعها ومات عنها نصير حرة . « هـ » يجوز بيعها سداً لدين سيدها التوفى « و » يجوز بيعها ولو كان إذا كان ولدها موجوداً عند موت أبيه سيدها تعتق وتحسب من نصيب الولد فى التركة وترث معه « ز » يجوز بيعها على شرط أن تعتق ولا يجوز بغير هذا الشرط « ح » إن عتقت وأبقت لم يجر بيعها وإن جرت أو كفرت جاز بيعها ( شرح العيني على البخارى ٦/٢١٧ - ٢٢٠ ) (٥) شرح الموطأ ٣/٨٧ .

٢ — وحبب الإسلام إلى الناس أن يتسروا ؛ لأن نكاح المَـرَـيَّة تكريم لها ، وإذا ما ولدت ارتفعت منزلتها فصارت أم ولد . قال تعالى : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة<sup>(١)</sup> » .  
 أى انكحوا من السرارى أى عدد بالغاً ما باغ ، كما يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة ، وسوى في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة والسرارى من غير حصر ؛ لقلة تبعتهن ، وخفة مئوتتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن<sup>(٢)</sup> .  
 وحبب النبي إلى المسلمين أن يتزوجوا بهن بعد عتقهن ، وذكر السيوطى أحاديث ترغب في التسرى ، منها :

« اتخذوا السرارى فإنهن مباركات الأرحام ، وإنهن أنجب أولاداً<sup>(٣)</sup> »  
 وجرى كثير من المسلمين على ذلك ، فعمر بن الخطاب يقول : « ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يحملون عز العرب ودهاء العجم .  
 وأنشد راجز من بنى سعد :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأنافيا شئت من خال وعم<sup>(٤)</sup> .  
 وسئل المغيرة بن شعبه عن صفات النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والعربية أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء<sup>(٥)</sup> . أو بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعمية<sup>(٦)</sup> .  
 ولما اتسعت الفتوح وكثرت السبايا راجت سوق السرارى وعظم الإقبال عليهن ، حتى لقد روى عن عبد الملك بن مروان قوله : عجبت لمن استمتع بالسرارى

(١) سورة النساء : (٢) روح المعاني ٤/ ١٩٥

(٣) الدرارى في أبناء الدرارى ١٤٧ للسيوطى مخطوط .

(٤) تهذيب الكمال المبرد ٢/ ١٠١ (٥) نزهة الأبرار والأشباع ١٤٧

(٦) العقد الفريد .

كيف يتزوج الحرائر؟ . وكان يقال : من أراد قلة المتونة، وخفقة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر<sup>(١)</sup> .

وكان الخلفاء والأمراء والسراة في العصر العباسي ينجحون إلى السراري ، لذلك لا نجد في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح ، والمنصور والمخلوع ، وأما الباقيون فكلهم أبناء السراري والجواري<sup>(٢)</sup> .

على أن هذا الجنوح إلى السراري كان يضاده جنوح آخر إلى إثارة الحرائر ولا سيما في الحجاز . فقد كثرت السبايا في صدر الإسلام ولكن لم يتزوج خليفة من الراشدين جارية<sup>(٣)</sup> . وكان أهل المدينة يكرهون استيلاء الإماء حتى نشأ فيهم على بن الحسين ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وفاقوا أهل المدينة فقياً وعلماً وورعاً ، وهم جميعاً أولاد سراري ، فرغب الناس في التسرى<sup>(٤)</sup> وكانت شهرة هؤلاء الثلاثة شرفاً لأبناء السراري عامة ، فقد حكى قرشي أن سعيد ابن المسيب سأله عن أخواله فقال : أمي فتاة . فنقص في عينه . ثم دخل عليه هؤلاء الثلاثة ، فسأله القرشي عن أم كل منهم . فقال : فتاة ، فقال له القرشي : رأيتني نقصت في عينك لأنني ابن فتاة ، أفألي بهؤلاء أسوة ؟ فجل في عينه<sup>(٥)</sup> .

ويروون أن عبد الملك بن مروان تنقص من قدر ابنه مسامة . وكان ابن أمة - متمثلاً بشعر يخقر من شأن أبناء الإماء . فرد عليه مسامة متمثلاً بشعر يرفع من أقدارهم ، فسر عبد الملك وقبل رأسه ، وأمر له بمائة ألف<sup>(٦)</sup> .

وكان بعض العرب يتشدد في عروبة من يصير إليه وإن كان ابن خليفة ، كعقيل بن علفه المري ، فإنه لما خطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده قال له :

(١) اللطائف والظرائف للنعالي ٦٤ . (٢) اللطائف والظرائف ٦٤ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٢٦/٣ و ٢٩ .

(٤) وفيات الأعيان ٣٢٠/١ واللطائف والظرائف ٦٤ .

(٥) ربيع الأبرار للزحشرى ٨ مخطوط .

(٦) حسانة الخالدين ٣٥ مخطوط و ربيع الأبرار ٣ .

جنبني هجئاً ولدك<sup>(١)</sup> . لهذا عمد بعضهم إلى العزل ليحولوا دون ولادة الإمام ، وقام جدال في العزل أحرام أم مباح<sup>(٢)</sup> .

والذي يظهر لي أن نكاح الإمام كان في الإسلام كما كان في الجاهلية وسطاً بين الرغبة فيه والرغبة عنه ، وأن الإمام وأبناءه من غير ساداتهم في الإسلام — كن في الغالب أدنى إلى التحقير منهم إلى التوقير . وقد سبق أن العرب كانوا لا يسودون أبناء الإمام ويسمونهم الهجئاء ، ويسمون أولاد الخرائر الصرخاء ، وسار على سنتهم بنو أمية ، فلم يستخافوا ابن أمة ؛ لأنه في أيهم لا تصالح به العرب<sup>(٣)</sup> .

٣ — كان الإسلام أعظم عطفاً على الأسرى والسبايا ، لأنه ابتدع وسائل لتحرير الرقيق . من هذه الوسائل تحرير الأرقاء الذين خرجوا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وتحرير العبد إذا عذبه سيده ، والتدبير . ومنها أنه جعل العتق كفارة لكثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم عمداً والخمث في اليمين .

وكثيراً ما رغب النبي إلى المسلمين أن يعتقوا ويتزوجوا عتائقهم<sup>(٤)</sup> . وأباح الإسلام للأرقاء أن يكتبوا سادتهم<sup>(٥)</sup> ، وحبب إلى المسلمين أن يساعدوهم في جمع هذا المال ليتحرروا ، وجعلهم مصرفاً من مصارف الزكاة . قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٦ (٢) السنن الكبرى للبيهقي ٧/٢٢٨ - ٢٣١ ومفتاح كنوز السنة مادة العبيد ٣٣١ ومادة العتق ٣٣٣ .

(٣) جمهرة الأمثال ١٥ والعتيد الفريد ٣/٢٢٩ .

(٤) فتح الباري ١٠٤/٥ وكنز العمال ٥/٢٤٥ - ٢٥٠ وفتح الباري ٥/١٢٥ وسنن أبي داود ١/٢٠٤ واليعني على البخاري ٩/٣٦٩ ومسند أحمد بن حنبل ٢/٤٢٠ و٤٢٢ و٤٢٩ و٤٣٠ و٤٤٧ و٢٢٥ و٩٤٠/٣ .

(٥) المكتبة هي أن يكتاب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً عليه فإذا أداه فهو حر . ولها حالتان . الأولى أن يطلبها العبد ويأبأها السيد وفيها قولان : أن الموافقة واجب على السيد أو أنها غير واجبة ( تفسير القرطبي ١٢/٢٤٥ ) .

خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم<sup>(١)</sup> . » . وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والمغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل<sup>(٢)</sup> ، وجعل إعطائهم من أنواع البر فى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . وآتى المال على حبه ذوى القربى . . . وفى الرقاب<sup>(٣)</sup> . لذلك تنافس المساهمون فى عتق الأرقاء ، حتى لقد أنفق أبو بكر كثيراً من ماله فى شرائهم وإعتاقهم ، وحتى قيل إن النبی أعتق ٦٣ نسمة وإن السيدة عائشة أعتقت ١٠٠<sup>(٤)</sup> ، وإن العباس أعتق ٧٠ وإن عثمان أعتق وهو محاصر ٢٠<sup>(٥)</sup> .

وإذا كان العرب قد افتخروا فى الجاهلية بإحسانهم معاملة الأرقاء فإن الإسلام كان أعظم حفاوة بهم وهدياً عليهم . حتى لقد أوصى الله بحسن معاملتهم فى عداد من أوصى بهم من الأعداء . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذی القربى والیتامى والمساكين والجار ذی القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبیل وما ملکت أیمانکم . إن الله لا یحب من كان مختالاً مغوراً<sup>(٦)</sup> » ، وأمر النبی بأن ینادوا بکلمات لا تؤذى « لا یقولن أحدکم عبدی وأمتی ، ولا یقولن المملوک ربی وربتی ، ولیقل المالك فتای وفتاتی ، ولیقل المملوک سیدی وسیدی . فإنکم المملوکون والرب الله عزوجل<sup>(٧)</sup> .

ولیس أدل على سماحة الإسلام وتقديره لحرية العتقی من أن النبی صلی الله علیه وسلم لم یخبر معتوقة السيدة عائشة على ما لا ترضی ، ذلك أن بريرة كانت

(١) سورة النور ٢٣ وکنز العمال ٥/٢٤٨ (٢) سورة التوبة ٦٠ .

(٣) سورة البقرة ١٧٧ . (٤) الأنساب للسهماني ١/٦٦٣ .

(٥) التراب الإدرية ١/٢٩ (٦) سورة النساء ٣٦ .

(٧) سنن أبي داود ٢/٢٠١ وفتح الباری ٥/١٣٠ وربع الأبرار ٢ مع بعض تغيير

مولاة لعائشة فأعتقتها . فقال لها الرسول : ما كنت بضمك فاختارى ، وكان زوجها مغيث يمشي خلفها ويبكى ، وهي تأباه . فقال النبي لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال لها : اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً لا حاجة بى إليه . فاختارت نفسها <sup>(١)</sup> .

وكان النبي يكرم جاريته أم أيمن كثيراً <sup>(٢)</sup> ، وكان يوصى بالرفيق كثيراً ، كما قوله : من رضى رقيقة فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خالق الله <sup>(٣)</sup> وقال فى حجة الوداع : أرقاءكم أرقاءكم ، أطمعوهم مما تأنكون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن جاءوا بذنوب لا تريدون أن تغفروهم فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم <sup>(٤)</sup> .

والوصايا بحسن معاملة الأرقاء كثيرة <sup>(٥)</sup> .

### ما أبطله الإسلام

١ - قصر الاسلام الأسر على أن يكون فى الحرب بين المسلمين والمشرىين أو بين المسلمين والكفار <sup>(٦)</sup> ، وبهذا ألغى الأسر والسبى بالنخاسة والاختطاف ، فضيق مجال الأسر .

٢ - إذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم يخدرون فى أن

(١) التجرىء الصرىء ٣/٢٥٥ والبسوط ٥/٩٨ وأسء الغابة ٥/٤٠٩ .

(٢) الطبقات السكبر ٧/١٦٢ . (٣) الببان والتبىن ٢/٣٦ .

(٤) مسند الإمام أءء ٤/٣٦ و ٥/١٦٨ و ١٧٣ .

(٥) مسند الإمام أءء ١/١٢ و ٢/٩٠ و ١١١ و ٢٤٨ و ٣٤٢ وفتح البارى ٥/١٢٥ .

(٦) روى عن ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبءة الأونان . وقىل كل من خالف دىن الإسلام من مشرك أو كثنائى إذا لم يكن صاءب عهد ولا ذمة . ذكره الماوردى واختاره ابن العربى ، وقال : هو الصرىء لعموم الآفة فىه . والآفة هى « فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » تفسىر القرطبى

يمنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وفي أن يطلقوهم بعوض أو فدية ؛ وفي أن يقتلوا من يرون في حياته خطراً عليهم ، أو يرون في قتله قصاصاً عادلاً ، وفي أن يسترقوهم .

وقد اختلف في قوله تعالى : « فإذا القيم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخنتهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها <sup>(١)</sup> » ، فذهب بعض السلف إلى أن الآية في أهل الأوثان وهي منسوخة ، وبعضهم إلى أنها في الكفار جميعاً وهي منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم <sup>(٢)</sup> » وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة <sup>(٣)</sup> » وقوله تعالى : « فإما تنفقتم في الحرب فشرد بهم من خلفهم <sup>(٤)</sup> » ، وإذا فليس يجوز الفداء ولا المنع عليهم ، وقيل : تجوز المفاداة بالمرأة لأنها لا تقتل ، وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة . ورأى بعض السلف أن الآية « فإما منا بعد وإما فداء » . ناسخة للآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . فليس للإمام أن يقتل الأسير ، وإما له أن يمن أو يفادي أو يسترق .

وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الآية محكمة ، والإمام مخير في كل حال . لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، وصفة النسخ والنسخ أنه ما لم يحز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ للآخر ، وقد أذن القرآن بقتلهم في آية أخرى . وإلى هذا ذهب كثير من السلف كابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري وأبي عبيد وغيرهم ، وهو المختار ، لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ، فقد قتل النبي عقبة بن أبي معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وقتل بنو قريظة لما نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة

(١) سورة محمد ٤ .

(٢) سورة التوبة ٥ .

(٣) سورة التوبة ٣٦ .

(٤) سورة الأنفال ٥٧ .

أسارى المشركين يوم بدر، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده :  
وأخذ من سلامة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين ، وهبط عليه قوم  
من مكة فأخذهم ومن عليهم ، ومن على سبي هوازن ، وهذا كله ثابت صحيح<sup>(١)</sup> .  
وإذا فالنظام الغالب في الإسلام هو المن والنفاء ، لكن النظام الذى كان  
غالبًا في الجاهلية هو الاسترقاق .

٣ - وحرّم الإسلام قتل النساء في الحروب<sup>(٢)</sup> ، وقد حدث ذلك على قلة في  
الجاهلية إذ أحرق المنذر بن ماء السماء سبائاً من بكر بن وائل<sup>(٣)</sup> ، وأحرق عمرو  
ابن هند امرأة من بنى حنظلة هاجت حنقة برودها عليه<sup>(٤)</sup> . وذكر بعض  
الشعراء أنهم بقروا بطون الحبلى<sup>(٥)</sup> ، على أن هذا كان عملاً نادراً يدفع إليه  
الغضب والتشفى ، وكان العرب يعيرون فاعله<sup>(٦)</sup> .

٤ - وحرّم الإسلام بغاء الإمام سواء أكان عاملاً أم خاصاً ، وقد سبق أن  
بعضهم كان يكره إمائه على البغاء ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرر هوا فتياتكم  
على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »<sup>(٧)</sup> .

ولم يقتصر الإسلام على تحريم البغاء العلنى العام ، بل حرم المخادنة أيضاً : « ومن  
لم يستطع منكم طويلاً أن ينسكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من  
فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فأنكحوهن بإذن  
أهلبن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسأغات ولا متخذات

(١) تفسير الطبرى ٢٦/٢٦ - ٢٧ وتفسير النيسابورى ٢٦/٢٦ وتفسير القرطبي  
٢٢٥/٢٦ - ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخارى بفتح الكرماني ١٣/٢٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير .

(٤) الأغاني ١٩/١٢٩ وجمع الأمثال ١/٣٦٠ .

(٥) ديوان عامر بن الطفيل النصيدة ١٢ و ٢٧ ومعجم البلدان ٧/٣١٧ .

(٦) الأغاني ١٦/١٣٥ . (٧) سورة النور ٢٣ .



أخذان<sup>(١)</sup> ، « ، وقد روى عن ابن عباس أن المسأخات هن المعالمات بآزنا ، وأن  
متخذات الأخذان هن ذوات الخليل الواحد ، وأن أشل الجاشاية كانوا يحرمون  
ما ظهر من آزنا ، ويستحلون ما خفي . ويقولون إن ما ظهر يؤم ، وإن ما خفي  
لا بأس به ، فأنزل الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ،  
وعن قتادة أن المسأخة البغى التي تؤجر نفسها من غرض لها ، وذات الخلدن ذات  
الخليل الواحد<sup>(٢)</sup> ، فنهى الله تعالى عن البغاء بنوعيه ، ونهى عن نسكاح البغى  
أيضاً ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب البغى<sup>(٣)</sup> .

سواء بطل الإسلام عبودية ابن الأمة من سيدتها ، وقرر أنه حر ، ويرث أباه<sup>(٤)</sup>  
وقد أسأمت أن العرب في الجاشاية كانوا يستعبدون أولاد الإماء ، ولا يتحرر  
الولد ولا يرث إلا إذا ادعاه أبوه وأشهد الناس على إخاقه به . أما إذا تزوج رجل  
أمة لغيره فإن أبناءها يتبعونها في النرق<sup>(٥)</sup> .

٦ - ثم إن الإسلام لم يبح ملازمة السبية قبل الثبوت من استبراء رحمها .  
فقد قسم النبي سبايا أو طاس وبنى المصطلق ، وأمر ألا توطأ حامل حتى تضع ،  
ولا حائل حتى تحيض<sup>(٦)</sup> ، وقال : لا توطأ حائل حتى تضع ولا غير ذات حمل  
حتى تحيض حيضة<sup>(٧)</sup> . وقال لا يخل لأمريء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع  
على امرأة من السبي حتى يستبرئها<sup>(٨)</sup> .

٧ - ونحن نعلم أن الإسلام دين المساواة في أسمى صورها ، وأنه قائم على أنه  
لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وطالما حض النبي على حسن معاملة الأرقاء ،  
وكثيراً ما رغب الإسلام في عتقهم . لذلك قل أن نجد في شعر المسلمين في صدر  
الإسلام من غير بالسبي ، أو هجا برق الأم كما كان يحدث في العصر الجاهلي .

(١) سورة النساء ٢٥ . (٢) تفسير الطبري ١٣/٥ والنيسابوري ٢٣/٥ .  
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٢ و٢٨٧ والعيني على البخاري ٩/٦٣٤ والأما إلى ٢/٢٧٥ .  
(٤) السكشاف ١/٢٠٠ والعقد الفريد ٣/٢٠٩ (٥) السكشاف ١/٢٠٠ .  
(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٤ (٧) سنن أبي داود ١/٢١٣ .  
(٨) سنن أبي داود ١/٢١٣ .

## الفصل السادس

### المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

تبوأَت المرأة في الحياة الأسرية مكاناً عالياً لم تقبواهُ أختها المعاصرة لها ، ولقد يكون من البدهة أن تدل هذه المكانة على قيمة المرأة في القبيلة وفي المجتمع كله ؛ لأن القبيلة هي الأسرة الكبيرة ، والمجتمع إن هو إلا قبائل يجمعها الجنس والبيئة والاشتراك في كثير من نظم الحياة .

لكن ذلك ليس بمحتوم فقد تعززت المرأة في أسرتها ، ولكنها لا تستمتع بمثل هذه العزاة في قبيلتها أو في المجتمع ؛ لأن العزاة في الأسرة عزاة في نطاق ضيق ذي حدود ، كثيراً ما تحتبس فيها ولا تتخطاها إلى الميدان الأعظم اتساعاً وهو ميدان القبيلة والمجتمع ، ذلك بأن الرجال يستأثرون بالنفوذ في هذا الميدان ، ويخبر ررنه عن النساء ، وإن كن في أسرهن عالياً القدر ساميات المكانة .

وسألجأ هنا إلى الشعر أستبيته وأستنطقه كما لجأت إليه فيما مضى ، وسأضيف إليه من التاريخ ما أحجته لتوضيح الألوان الفاصلة والملاصق الحائلة ، والأحداث المبهمة أو المغفلة ، لأستطيع أن أرسم صورة بارزة المعالم للمرأة ، تكشف عن مكانتها في الحياة العامة ، فأبين ما بين هذه الصورة وصورة المرأة في الحياة الأسرية من تشابه وتماثل أو تناقض وتناقض .

ولقد يبدو أن في بعض ما روى عن جهود المرأة في الحياة العامة وفي الحروب مغالاة ، ولست أدفع هذا كله ، ولست أقره كله ، ولكني أرى أن ما عُزى إلى المرأة - على مبالغته أحياناً - كقول بأن يقدم لنا صورة صحيحة من حياة المرأة في الجزيرة العربية ، لأنه صدى للواقع الذي كان ، وتعبير عما يمكن أن يكون .

## شعور المرأة بمساواتها للرجل

كانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل في مكانته ، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظراته إلى الرجل . فقد أنشدت فتاة عضلها أبوها ومنعها الأكفاء :

أَيُّ جَرٍّ لَاهِينَا وَنُلْجَى عَلَى الْعَبَا وَمَا نَحْنُ وَالْفَتَيَانُ إِلَّا شَقَائِقُ<sup>(١)</sup>

وفي أمثال العرب : « إن النساء شقائق الأقوام » والشقائق جمع شقيقة وهي

كل ما يشق نصفين ، فالنساء إذا مثل الرجال ، لمن مثل ماعليهن من الحقوق<sup>(٢)</sup>

ولقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال في كثير من الحقوق أن عجب

بعضهن من أن يذكر القرآن الكريم الرجال ويفعل النساء فيما يأمر وينهى ،

أو فيما يعد ويوعد ، أو هن وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال ،

واحتججن على الرجال فقلن : أسلمنا كما أسلمتم ، وفعلنا كما فعلتم ، فتذكرون في

في القرآن ولا تذكر<sup>(٣)</sup> ؟ وروى أن أم سلمة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله يذكر الرجال ولا يذكر . وروى أن نساء قان له : لماذا يذكر

المؤمنون ولا يذكر المؤمنات<sup>(٤)</sup> ؟ وروى أن سلامة حاضنة إبراهيم بن النبي

قالت للنبي : إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء . قال : أوصو بحباتك

دَسَسْنِكَ لِهَذَا ؟ قالت : أجل هن أمرنني<sup>(٥)</sup> .

أليس هذا شعوراً من النساء بعلومسكاتهن ، وحرصهن على حقوقهن ،

وجدهن في أن يتساوين بالرجال في بعض الحقوق ؟

وقد حقق القرآن أمالهن إذ أنزل الله تعالى قوله : « إن المسلمين والمسلمات

والمؤمنين والمؤمنات والقاتنين والصادقين والصادقات والصابرين

(١) الأمال ١٠٥/٢ (٢) جمع الأمثال ٢٦/١ والقاموس المحيط مادة شق .

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد ١٤٥/٨ .

(٤) الطبقات الكبير ١٤٤/٨ وتفسير الطبري ٨/٢٢ .

(٥) أسد الغابة ٤٧٦/٥ ، وكنتز العمال ٣١٥/٨ .

والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا<sup>(١)</sup> .

### نوابها الملك

لم تكن المرأة تشعر بهذه المساواة غروراً أو افتتاناً أو مجاوزة لقدرها الذى تعارف عليه العرب . ذلك بأن العرب ملكوا عليهم نساء ، وكانوا يستطيعون ألا يولوهن لو أنهم رأوا فى توليتهم غضاضة ، أو مخافة للعرف الذى درجوا عليه .  
١ - فقد حكمت سبأ ملكة اسمها بلقمة<sup>(٢)</sup> أو بلقيس ، يقول أسعد تبّع فى نخره :

ولدتنى من الملوك ملوك كل قَيل متوج صنديد

ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن ميس جدوى<sup>(٣)</sup>

أو أن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناه الزهرة ، ثم سمّتها العرب بلقيس<sup>(٤)</sup> .

والمؤرخون مختلفون فى اسم أبيها ، فهى ابنة اليشجر أو إيلي شرح أو ذى شرح بن ذى جدن القحطاني<sup>(٥)</sup> . أو هى ابنة أنيشرح بن الحارث ، أو بنت الهداد واسمه أنيشرح بن تبع . وقيل غير ذلك<sup>(٦)</sup> أو هى بنت آل شرح ابن ذى جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر<sup>(٧)</sup> ، أو هى بنت الهداد ابن شرحبيل بن عمرو بن مالك الرائيش ، وكان يلقب بذى شرح<sup>(٨)</sup> .

(١) سورة الأحزاب ٣٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ وابن الأثير ١/٨٩ والعقد الفريد ٢/٥٨ .

(٣) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لذشوان بن سعيد الحميرى ٨ .

(٤) شرح القصيدة الحميرية لذشوان بن سعيد الحميرى ٢٧٥ مخطوط من مجاميع بدار الكتب .

(٥) تاريخ ابن الأثير ١/٨٩ .

(٦) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ .

(٧) العقد الفريد ٢/٥٨ المطبعة الشرفية .

(٨) الأخبار الطوال للدينورى ٢٢ .

وفى هذا خاطر واضطراب ، لأن الشرح من ملوك الطبقة الأولى من حمير ( ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق . م إلى ٢٧٥ م ) وكان حكمه من ٣٥ - ١٥ ق . م ، وبقيس أو بالقمة التي ينسبون لها هي التي لقيت سليمان قبل ذلك بقرون ، وهم يخالطون بين صاحبة ساجان وبقيس التي تسمى الفارعة ، وهي من ملوك الطبقة الثانية من حمير ( ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ - ٥٢٥ م ) وكان حكمها من ٣٣٠ - ٣٤٥ م <sup>(١)</sup> .

وما زلنا نجعل الاسم الحقيقي ملكة سبأ أهو بالقمة أم بالقيس أم غيرها ، وما زلنا نجعل اسم أبيها ، ولعل النقوش تفصح عن ذلك في يوم قريب . وهذه الملكة عربية ينتهي نسبها إلى قحطان <sup>(٢)</sup> ، والقول بأنها حبشية زعم لم يثبت أن ولد وتوارى ، إذ ذهبت أخيراً إلى سبأ ومأرب بعثة ألمانية علمية برئاسة كارل يونجمان ، ونقبت هنالك طويلاً ، ثم اهدت إلى أن ملكة سبأ ليست حبشية <sup>(٣)</sup> . وكان حكمها في القرن التاسع قبل الميلاد <sup>(٤)</sup>

وقد ملكت في حياة أبيها بتفويض منه ، وقيل ملكت بعده ، وقيل إن أباهما لم يكن ملكاً ، وإنما كان وزيراً لملك خبيث سيء السيرة مولع بالعدوان على الأعراض ، فقتلته فملكها الناس عليهم <sup>(٥)</sup> .

والمبالات في عظمة ملكها تتجاوز مطار الخيال الطليق ، وقد استنكرها من قبل بعض المؤرخين كابن الأثير في قوله : « وما أظن راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهالة ، وقد تواطأوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال » <sup>(٦)</sup> .

(١) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٢٢ و ١٢٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٥٤/١ وتاريخ ابن الأثير ٨٩/١ .

(٣) الهلال . الجزء الخامس سنة ١٩٢٩ . (٤) العرب قبل الإسلام ١١٨ .

(٥) السكامل لابن الأثير ٩٠/١ الطوال للدينوري ٢٤ .

(٦) ابن الأثير ١٩٢/١ .

واليقين أنها وفدت على سليمان ، لأن القرآن الكريم قص هذه الوفاة في سورة النمل في قول المدهد لسليمان : « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ثم أرسل إليها سليمان كتاباً فلما أخذته جمعت مستشاريها « قالت يا أيها الملاء إني ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان ، وإياه : بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعولوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملاء ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وألو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » . ثم ذكر القرآن الكريم إيمانها بسليمان . وقصت التوراة أيضاً هذه الوفاة<sup>(١)</sup> .

ومن القرآن الكريم نعلم أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس ، وأنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوى الرأي ولا تستبد ، ونعلم أن ملكها كان قوياً أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة ، لأنهم أرادوها على أن تحارب سليمان ، ولا تخضع له ، لكنها كانت بعيدة النظر حسيطة الرأي ، فخبث قومها حرباً تنشب بينها وبين الفاتح ، وبعثت إليه بهدية لتختبره أهو باحث عن المال أم داع إلى دين ؟

ومنذ عهد قريب كشف الدكتور أحمد فخري عن معبد الشمس والقمر سنة ١٩٤٧ وطبع رحلته في ثلاثة أجزاء . ثم كشفت بعثة أمريكية برئاسة سترويندل فيليبس عن كثير من آثار النين ، منها معبد الملكة باقيس ملكة سبأ ، على مقربة من سد مأرب<sup>(٢)</sup> .

٣ - وهناك ملكة ثانية ، حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٣٣٠ إلى ٣٤٥ م وهى التى تسمى الفارعة ، ولسنا نعرف عنها شيئاً إلا أنها

(١) سفر الملوك الأول فصل ١٠ آية ١١ و ٢٢ .

(٢) جريدة المصرى ١٧/١٢/١٩٥٢ .

زوجة عمرو وأخت المدهاد<sup>(١)</sup> .

٣ - وملكة ثالثة ذكرها أسعد تبع في نغره إذ يقول :

ونساء متوجات ككبتيس وشمس ومن ليس جدوى<sup>(٢)</sup>

وليس بنت أسعد تبع ، قال فيها علقمة بن ذى جدن :

وليس كانت في ذؤابة ناعط<sup>(٣)</sup> يحبى إليها الخرج ساكن بربر<sup>(٤)</sup>

وأما شمس فهي أخت بلقيس<sup>(٥)</sup> .

٤ - وهذه ملكة عربية أخرى ، حكمت تدمر في القرن الثالث بعد الميلاد

( ٢٦ - ٢٧٢ ) هي الزباء . ولقد ترجع شهرتها إلى سببين :

السبب الأول أنها اتسمت بالشجاعة والسطوة والدهاء ، على جمالها وهيبتها ، فكانت سيرتها أشبه بسير الأبطال من الرجال . كانت فارسة تؤثر الخيول المظيمة على الخففات في أسفارها ؛ وكانت ديمقراطية كسابقتها بلقيس ، تحادث أعوانها ومستشاريها ، وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها ، ونصاعة رأيها ، وذلاقة لسانها ، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى ، كوفود ملك الفرس والأرمن ، وقد يشرب جلاسها حتى يشملوا ، ولكنها لا تشرب .

وكانت إذا جلست في قومها لبست أنغر ما يابس ، ونشرت على كتفيها القيصرية الأرجوانية ، ووضعت التاج الموثلق على رأسها ، وإذا استعرضت جنودها في الميدان استوت على صهوة جوادها مرتدية لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر ، وقد عرت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء ، ثم أخذت تنفخ في الجنود شجاعة من روحها ومظهرها ، فإذا

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٣ .

(٢) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لشوان بن سعيد الحميري ٨ .

(٣) المرجع السابق ٩٦ ناعط . نور وهم حى من همدان ( المرجع نفسه ١٧ ) .

(٤) المرجع السابق ٩٦ .

رأها الناس كذلك حسبوها إلهة<sup>(١)</sup> .

والسبب الثاني ما كان بينها وبين روما من الحرب ، وتداول النصر ، ذلك بأن أذينة زوج الزباء كان ملكاً على تدمر ، وقد أنقذ الإمبراطورية الشرقية من فتك خصومها الفرس ، وهزم سابور ( ٢٦٠ م ) هزيمة ماحقة بعد أن اغتر سابور وازدهى بانتصاره على الإمبراطورية الرومانية وأُسِرَ إمبراطورها فاليريان ، ثم آزر أذينة جالينوس بن فاليريان في استرداد الملك من خصومه ، فكافأه جالينوس بأن أقره على ما بيده من بلاد ، ومنحه لقب أغسطس ، وعينه إمبراطوراً على الشرق ، وأشركه معه في لبس رداء الملك الأرجواني . وضربت النقود باسمه ، ورسم يجر خلفه صفّاً من أسرى الفرس ، ووافق مجلس الشيوخ بروما على هذا كله .

فاما اغتيال أذينة خلفه ابن ضعيف لم يلبث أن مات ، خلفته زوجة أذينة وهي الزباء .

وهنا بدأت روما تأتلف تحرشها بمملكة تدمر ، إذ أعلن مجلس الشيوخ أن الحقوق التي كان قد نزل عنها لأذينة هي حقوق شخصية لا تورث لغيره ، فالزباء وأولادها لا يرثون شيئاً من ملكه . ولسكن الزباء لم تبعاً بمجلس الشيوخ ولا بالإمبراطور جالينوس ، فأعانت نفسها ملكة على المشرق كله وآسيا الصغرى ، فعبر البحر إليها القائد الروماني هرقل على رأس جيش عرمرم ، وحاربها في أرضها ، واستطاعت البطلة أن تشتت شمله وتفل قواه ، فعاد إلى روما موصوماً بخزي الهزيمة<sup>(٢)</sup> .

وبهذا النصر بسطت سلطاتها على الشام وبلاد آسيا التابعة للإمبراطورية

(١) العرب قبل الإسلام . جرجي زيدان ٨٧ وموجز تاريخ الحضارة العربية ٤٣٤ .

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري ١٥ نجيب البهيتي عن .



الرومانية ووصلت إلى مصر<sup>(١)</sup> .

لكن روما لم تنس هذه الهزيمة ، فعاودت الحرب ، وكان النصر حليفها . وهال الرومان بنصرهم تهايلا ، لأنه نصر كان ميثوسا منه . وليس أدل على ذلك من زعمهم أن ملكا نزل من السماء وآزر الإمبراطور وجيشه ، حتى إن الإمبراطور أورليان لما دخل معبد الشمس في حمص ليشكر للإله العربي بعمل ما أصاب من ظفر ، وصلى بالمعبد ، وقعت عيناه في زعمهم على الكائن السماوى الذى رآه قبل ذلك في المعركة<sup>(٢)</sup> .

وتذكر الروايات العربية كلها أن الزباء قد لقيت حتفها في شرقى مملكتها على يد قصير . ويدعى الرومان أن شمسها قد أفلت في روما ، لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك . ولكن هذا الادعاء باطل ، لأنهم مختلفون في شخصية الأسيرة ، فهى عند فوسيسكوس Vospiscus امرأة كانت ترافق زينب ( الزباء ) في حمل السلاح ، وعند تريليوس Tirbelius وبوليوس Pollion وغيرهما أن الزباء اسم قائد من قواد ملكة تدمر<sup>(٣)</sup> لأن أحد قوادها كان اسمه زبدا من أبناء تدمر ، وهو الذى هزمه أورليانس سنة ٢٧٢ م<sup>(٤)</sup> . ثم إننا على ثقة من نشوتهم بالنصر ، وتنفجهم بما نالوا ، ليستروا هزيمتهم التى أنزلتها بهم الزباء من قبل ، وهذا وحده كاف للتشكك في صحة ما زعموا .

وإذا فإن التى حملت سبية إلى روما لم تكن الزباء ، وإنما بقيت الزباء فى

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥ .

(٢) Poujoulat. Tome 11 P 123.

(٣) Poujoulot. tome. 11. P. 120 . وتاريخ الشعر العربى حتى القرن

الثالث الهجرى .

(٤) تاريخ العرب ١٠٠/١ فيليب حتى .

العراق إلى أن لقيت مصرعها كما يقول جميع المؤرخين من العرب<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر بعض الشعراء قصتها مثل عدى بن زيد والمجبل وغيرهما ، وشعرهم يتفق مع التاريخ في أنها لقيت حتفها على يد عمرو بن عدى<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقد ملكت نساء غير هاتين في اليمن وكندة وبلاد الأنباط ، حتى لنجد في ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات في المدة من ١٦٩ ق م إلى ٥٦ م كما نجد في كندة خمس ملكات أيضاً ، منهن العمدة بنت الأعشى ، وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها في الناس ، وأعمق نفوذاً ، لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها في تدبير شئون الحكم<sup>(٣)</sup> ، ونجد ماوية الفسانية تحكم في فلسطين الحالية تقريباً ، فقد ذكر شارب sharpe أن ملك العرب النازلين في سيناء وما جاورها لما مات في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد خلفته امرأته ماوية ، فتحلت من قيود المعاهدة التي بينهم وبين الرومان ، وحملت برجالها على فلسطين وسورية ، واستولت على مدينة بطرا ( الحجر ) ويمت مصر حتى برزخ السويس ، فاضطر الإمبراطور فالانس إلى تجديد المعاهدة بشروط ترضاهما ماوية<sup>(٤)</sup> . وقد ملكت أخريات غير هؤلاء ، وأولئك<sup>(٥)</sup> ، ولو أن كل واحدة منهن منحت بواعث على شهرتها كما منحت باقمة والزباء لكان لنا من تاريخهن سجل حافل ، وأرجح أنه لولا القرآن الكريم وصلة باقمة بسليمان ، ولولا حرب الزباء لروما ، لغمرت كلتاها كما غمرت غيرهما من الملكات .

(١) تاريخ الطبري ٣٦/٢ وابن الأثير ١٢١/١ وأبى الفدا ٧٠/١ واليعقوبي ٢٣٨/١ وابن خلدون ٢٦١/٢ ومعجم ما استعجم ٢٤/١ ومعجم الأمثال ٢١٧/١ وجمهرة الأمثال ١٦٧/١ .  
(٢) تاريخ الطبري ٣٦/٢ .

(٣) تاريخ حضرموت السياسي ٧٤ .

History of Egypt. vol. 2. P. 293 (٤)

Moslem Law. P.17. (٥)

## شهرات

على أن بعضهم قد اشتهر بالفطنة والدهاء والسنن والآقن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر، كما اشتهر بعض الرجال .

منهن هند بنت الحُسن - وهى الزرقاء - ، وجمعة بنت حابس<sup>(١)</sup> ، ورابعة القيسية ومماذة المدوية<sup>(٢)</sup> ، ولها حديث فى وصف الخيل والنساء والرجال مع القامس<sup>(٣)</sup> .

ومنهن صخر بنت لقمان ، وحذام بنت الريان ، وخميلة بنت عامر ابن الظرب ، وفاطمة بنت الخرشب<sup>(٤)</sup> . ومن الشهيرات اللاتى ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث الكندي ( أو هى بنت أرقم بن ثعلبة من غسان ) وهى أم الحارث الأعرج ملك غسان ، التى يقول فيها حسان بن ثابت :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم      قبر ابن مارية الكريم المفضل  
وقد ضرب المثل بقرطياها ، فقيل : « خذه ولو بقرطى مارية » أى خذه بالشيء العزيز الذى لا يُقدَّر عليه ، ولا يوصل إليه ، وذلك للترغيب فى الشيء وإيجاب الحرص عليه<sup>(٥)</sup> . وقد ذهب الزمخشري ومن نقل عنه إلى أن المثل ضرب بقرطياها ، لأنها أول عربية تقرطت ، فسار ذكر قرطياها فى العرب<sup>(٦)</sup> ، ولكن ذلك ليس بصحيح ، لأن العربيات كن يتقرطن قبل مارية ، وإنما الصحيح أن قرطياها كانا نفيسين جداً وإن بولغ فى نفاستهما ، حتى لقد قوَّما بأربعين ألف

(١) البيان والبيان ٣١٢/١ . قال ابن الأعرابي يقال بنت الحس وبنت الحس وبنت الحسف وهى الزرقاء وقال يونس لا يقال إلا بنت الأخس .

(٢) البيان والبيان ٣٦٤/١ .

(٣) يلاغات النساء ٥٨ - ٦٢ .

(٤) جمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ وجمع الأمثال ٢٧٦/٢ والأغانى ١٩/١٦ - ٢٧ .

(٥) الفاخر للسكونى ٨٧ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٨/٢ ومنتخبات من أخبار اليمن ٩٨ .

(٦) مستقصى الأمثال للزمخشري ١٠٠ مخطوط وخزانة الأدب ٢٣٨/٢ .

جبنار ، وقيل كان فيهما درتان كبيض النعام أو الحمام لم ير الناس مثلهما <sup>(١)</sup> .  
يقول الشاعر للنعمان وقد اتهمه :

يا أيها الملك الذى ملك الأنام علانيه  
المالُ آخِذُهُ سواى وكنتُ عنه ناحيه  
إنى أؤديه إليك ولو بقرطى ماريه <sup>(٢)</sup>

### مَجَرَات

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدى أحد على من أجاره ، وإن اعتدى عليه أحد ذب جاره عنه ، وحارب المعتدى وإن كان قريبه أو حليفه .  
وكان الجوار نوعا من الحلف أو الحماية ، ودلالة على قوة الجير ومهابته فى قومه .  
١ - ولقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت ، وقيل جوارها ، وحت وصين حاما فى الجاهلية .

فقد أجارت فُكَيْهَةَ بنت قتادة — خالة طرفة بن العبد — الشليك ابن الشلكة ، وحتته من بكر بن وائل ، ومدحها الشليك فى قوله :

لعمر أيبك والأنباء تنمى لنعم أخت بنى عوارا  
عنيتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامت لنصل السيف وانتزعوا الخمارا  
من الخفرات لم تنفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا <sup>(٣)</sup>

وحت ربيعة بنت جذل الطعمان دريد بن الصمة ، اعترافا بفضله ، لأنه كان قد أعطى رحمه ربيعة بن مُكْدَم يوم حى الظعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى . فحبسه القوم وقالوا : لا ينبغى أن نكفر نعمته . وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا

(١) خزائن الأدب ١٣٨/٢ وجمع الأمثال ٢١٢/١ وربع الأبرار للزحمرى ورقة

٢٠٦ . مخطوط .

(٣) المجرب ٤٣٣ .

(٢) جبهة الأمثال ٢٤٢/٢ .

برضا المخارق الذى أسره ، فانبعثت ربطة فى الليل تقول:

سنجزى دريدا عن ربيعة نعمة      وكل فتى يُجْزَى بما كان قَدَمًا  
سنجزيه نُهْمَى لم تكن بصغيرة      بأعطائه الرمح السديد المُمَوَّمَا  
فلو كان حيًّا لم يضق بثوابه      ذراعًا ، غنيًّا كان أو كان معدما  
ففكوا دريداً من إसार مخارق      ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَمًا  
فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ربطة وجهزته ، ولحق  
بقومه ، فلم يزل كفًّا عن غزو بنى فراس حتى هلك <sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن العدوان على جار البسوس أشعل حرباً طويلة الأجل بين  
ابنى وائل <sup>(٢)</sup> . ولم تكن هذه الحماية حُكْمَةً للشريفات ، والمتكثات على  
نسب أو عصبية قبلية ، بل كانت من حق كل امرأة باجأ إليها ما يوف ، فهذه  
أم غيلان الدوسية التى كانت تمشط النساء قد أجارت ناساً من قريش خرجوا  
إلى أرض دَوْس — وكان هشام بن المغيرة قد قتل أبا أزيهر — فأمضى قومها  
إجارتها <sup>(٣)</sup> على ما بهم من حنق وظمأ إلى الثأر .

وفى رواية أن اسمها أم جميل ، وأنها همت ضرار بن الخطاب الفهري ، فلما  
ولى عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه ، فأتته بالمدينة ، وانتسبت له ، فعرف قصتها  
وقال لها : لست بأخيه إلا فى الإسلام ، وقد عرفنا مَنَتَكَ عليه ، وأعطاها على  
أنها ابنة سبيل <sup>(٤)</sup> .

٢ - وقد أسأفت فى فصل الأم والزوجة والبنات والأخت والقريبة أحوالاً  
عدة أجرن فيها وقبل جوارهن ، كما يخبر الرجال ويحمى جوارهم .

(١) الأغاني ١٤/ ١٣٠ والأمالى ٢/ ٢٧١ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزحشرى ٤٠ مخطوط والفاخر للسكري ٧٧ والتنبيه

والإشراف للمعتمدى ١٧٤ . (٣) الإصابة ٨/ ٢٦٥ .

(٤) الحبر ٤٣٣ وفى المحاسن والأضداد ٥٦ أنها ماتت هشام بن الوليد بن المغيرة ، وهذا  
لا يستقيم مع ظنها أنه أخو عمر .

٣ - ثم جاء الإسلام فأبقى للمرأة هذا الحق ، فقد أسلمت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل - ابن عمها - واستأمنت النبي صلى الله عليه وسلم لزوجها ، وخرجت في أثره وقد فر إلى اليمن ، فردته فأسلم ، وثبتت على زواجهما <sup>(١)</sup> .

وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً كان أخوها على يريد أن يقتله يوم الفتح ، وأخبرت النبي بذلك ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت <sup>(٢)</sup> .  
وأجار النبي والمسلمون لزينب بنت الرسول زوجها ، وأطلقوه من إيساره <sup>(٣)</sup> .

### استنراكها في دلف

سمت بالمرأة مكاتبها إلى أن تشترك أحياناً في حلف الرجال ، تتعاهد معهم على ما يتعاهدون عليه . وقد حدث ذلك من عهد قديم ، فإنه لما مات قصي ترأس ابنه عبد مناف ، وعظم أمره ، فجاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، ففقد بينه وبينهم حلف الأحابيش ، واشتركت فيه عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف ، وهي التي جرى على يديها حلف الأحابيش <sup>(٤)</sup> .

ثم اشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب في حلف المطيبين ، إذ أخرجت طيباً في جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف وأسد وزهرة وبنو تميم وبنو الحارث بن فهر ، فسموا المطيبين . وكان ذلك لما تحالف بنو عبد

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٩٠/٢ .

(٢) فتح الباري ١٩٦/٦ .

(٣) المغازي ١٢٦ وتاريخ الطبري ٢٩١/٢ .

(٤) تاريخ يعقوب ٣٧٨/١ والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهم بن خزاعة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . تحالفوا جميعاً بواد يقال له الأحابيش ، وقيل يسمى حبشا بأسفل مكة ، فسموا الأحابيش ( سيرة ابن هشام ١٩٥/٣ ) .

الدار ضد عبد المطلب ، وآزر بنو سَهْم بنى عبد الدار <sup>(١)</sup> .

وإذا كان اشتراكها في هذين الخلفين منبعثاً عن عصبية لقومها ونصرة لآلها، فإنها قد اشتركت في حلف إنسانى عظيم ، الغرض منه نصر المظلوم وحماية المستضعف ، ذلك بأن قبائل من قريش تعاقدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من دحائها إلا قاموا معه ، ونصروه على ظالمه ، وسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، وقد شهدته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به خمر النعم ، ولو أذعى به فى الإسلام لأجبت » ذلك هو حلف الفضول <sup>(٢)</sup> .

ونغار الاشتراك فى هذا الحلف متنازع بين عائكة بنت عبد المطلب وأختها أم حكيم البيضاء <sup>(٣)</sup> ، كما تنوزع فى الحلف السابق .

### إهانتها لشمل مربيها

وإذا كانت القبيلة تتداعى كلها لنصرة من يعتدى عليه من أفرادها فتتنبس حرب بين قبيلتين، فكثيراً ما نشبت حروب للعدوان على امرأة . من ذلك أن اليوم الثانى من أيام الفجار الأول كان سببه أن شباباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جانسة بسوق عكاظ وعليها فضلُ برقعها ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحذهم ، فأطاف بها شباب كنانة وقريش ، وسألوها أن تسفر فأبت . فجلس أحدهم خلفها ، وشد طرف رداءها بشوكة إلى فوق حُجَزَتهَا ، فلما قامت انكشف درعها عن دُبُرِها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهك ، وجُذِتْ لنا بالنظر إلى دُبُرِكَ . فنادت : يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ،

(١) تاريخ اليعقوبى ٢٨٨/١ وسيرة ابن هشام ١٤٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٤٤/١ . (٣) تاريخ اليعقوبى ١٦/٢ .

ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى بنى عامر من مثلةً صاحبته<sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن الحرب قامت بين اليمانيين وبين ربيعة ومضر ، لأن لبيد ابن عَنبسة لطم زوجته التغلبية لطمة شديدة ، وحقّر من شأن قومها<sup>(٢)</sup> .

### مطائرها العامة

بعد هذا التطواف مع المرأة العربية أمّا وزوجة وبنّاً وأختاً وقريبة ، وبعد أن درست حقوقها المالية ، ومنزلتها العامة ، وبيّنت عمالها في الحرب واشتركاها في النضال ، وبعد أن تحدثت عن أخلاق المرأة وتوليها الملك ، وتقدير العرب لها وإعزازهم إيّاها ، بعد هذا كله يحق لي أن أحكم في اطمئنان بأن المرأة العربية تبوّأت مكانة سامية في الحياة العربية ، في الأسرة وفي القبيلة .

ثم رأينا الاسلام يعز المرأة إعزازاً ، وينيلها نصيباً ثابتاً في الميراث لم يكن محددّاً لها في الجاهلية .

ولا شك أن المرأة التي تبوّأت هذه المنزلة كانت خليفة بها ، وكانت جديرة بأن تنشيء أشبالاً شجعاناً أقوياء الأخلاق ، وجديرة بأن تليهم الشعراء الغزل ، وتبعث في المحاربين البطولة والبسالة والإقدام ، وتوقد في نفوس ذويها الغيرة عليها والحماية لها من الخصم .

ولست أشيد بهذه المكانة متأثراً بتعصب أو محاباة ، فقد أشاد بها من لا يربطهم بالعرب عرق ، يقول العلامة نيكسون : كانت مكانة المرأة العربية عالية ، ونفوذها عظيماً في العصر الجاهلي ، فقد كانت النساء حرات في اختيار أزواجهن ، وحرات في العودة إلى ذويهن إن أساء الأزواج معاملتهن ، وكن أحياناً يزوجن أنفسهن ، ولهن حق الطلاق . ولم تكن الزوجات محتقرات كأنهن



إماء أو سُرِّيَّات ، وإنما كن أنداداً للرجال ورفيقات ، وكن يابهن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا<sup>(١)</sup> .

فليس بصحيح إذاً أن المرأة كانت في البيئة العربية حقيرة الشأن ، متاعاً للرجال فحسب ، وأن ماضوره بها الشعراء خيال<sup>(٢)</sup> .

### أثر هذه الملائكة في المرأة الأوروبية

بعد انتشار المسيحية كانت المرأة الأوروبية مزدرة ، حتى لقد كانت النساء يعينن أنهن إناث ، وكن معدودات باباً للجحيم ، وبلغت كراهيتهن والزراية بهن إلى أن زعم بعض الناس أن أجسامهن من صنع الشيطان - وإن وُسم هذا القول بالكفر - وكان التفكير في النساء خطراً ، وكانت المرأة نحساً ، حتى إن الشيطان طالما زار النساء في شكل أنثى . ونجم عن هذه العقيدة في النساء أن كثرت الراهبة والزهادة وبناء الأديار<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن ليجوز للنساء أن يشتركن في عمل خارج دورهن . وكان الزواج منبعثاً عن المصاحبة والرغبة في النفع المادى وتوسيع الإقطاعية . وكان يتم أحياناً في سن الخامسة ، خلافاً لما قرره الكنيسة أن يكون الحد الأدنى اثنتى عشرة سنة ، وكان الطلاق شائعاً على تقيض ما تدعو إليه الكنيسة ، والنساء على العموم مملوكة للرجل<sup>(٤)</sup> .

ولقد قرر برنتييه Brunetier أن المرأة الأوروبية تدارت إلى حضيفض لم يتدل إليه غيرها في قوله : لم يحدث أن امرأة في أى زمان ومكان كانت تخفى رأسها ، وتخضع بضبط القوة والبطش والجبرت والساظان أكثر مما كانت تفعل المرأة

(١) A. Litirary History of the Arabs. PP. 81—89.

(٢) المرأة في العصور ٦٢ — ٦٤ أحمد خاكي .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mes Ray strachey

(٤) المرأة في العصور ١٢ .

من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى<sup>(١)</sup> .

٢ - لكن الغربيين - بعد الحروب الصليبية - تأثروا بتقاليد الفرسان ، فقدروا المرأة ، ونشأت بينهم فكرة جديدة : أن ما يفعله الرجال من أعمال عظيمة قد أوحى به النساء . فالفرسان خرجوا إلى المعارك مدفوعين بحب النساء وحده ، وجلست النساء إلى جوار أطر التماثيل يتابعن على عودة أحبائهن . وكانت نظرة من عينين جميلتين أعظم جزاء على أى نصيب وعناء . ومن هنا حفلت قصص العصور الوسطى وأشعارها بتقدير النساء ، فتبدل مركزهن حتى صرن يتقدمن على الرجال في الحافل ، ويقبل الرجال أيديهن بعد أن كانوا يضربونهن<sup>(٢)</sup> :

٣ - فمن أين جاء هذا التقدير للمرأة الأوروبية ؟

تذهب مسز راى استراتشى إلى أن تقدير المرأة الأوروبية جاءها من حياتها في الأديار ، ومن عبادة الناس للعدراء مريم ، لأن التكريم الذى نالته السيدة مريم كان له أثر عظيم في رفع شأن الأمومة<sup>(٣)</sup> .

١ - لكن في هذا التعليل مجافاة للحق ، لأن المرأة الغربية ظلت قرونًا عدة وهى مغبونة القيمة ، مغبونة القدر ، هابطة المكانة ، فلو أن المسيحية كانت الباعث على رفع شأنها ، أو لو أن تقديس العدراء مريم هو الذى بدل ضعفها عزة ، لتحقيق ذلك بعد المسيحية بقرن أو بضعة قرون .

ولكن هذا التقدير باعتراف مسز رى ستراتشى نفسها نجم بعد الحروب الصليبية ، فلماذا تأخر إلى هذا العهد لو أنه كان وليد المسيحية أو تقديس السيدة مريم ؟

ب - الحق أنه كان ثمرة للفروسية الغربية ، والفروسية الغربية صدى .

(٢) تاريخ العالم مجلد ١ ص ٣٩٨

(١) تراث الإسلام ١٦١/١ Gibb

(٣) المرجع السابق .

Mes Ray strachy

للفروسية العربية . يقول نيسكلسون : « ولعل من الممكن تتبع فروسية العصور الوسطى ، وإرجاعها إلى بلاد العرب الجاعلية ، لأن الشهامة ومغامرة الفرسان ، وإيقاظ العذارى من السبي ، والمساعدة التي كانت تقدم في كل مكان للنساء المحتاجات ، كل هذه صفات عربية ، وقد أطلق عليها في أوروبا كلمة شرف أو نبيل أو بطولة chivalry والصلة وثيقة بين هذه الأعمال الجليلة وبين الفارس ذلك الرجل النبيل البطل الشريف Chivalrous<sup>(١)</sup> .

والمسيحيون قد خالطوا العرب والمسلمين زمنًا طويلاً في الشام وخالطوهم أزماً طويلاً في إسبانيا وصقلية . وكان العرب في إسبانيا وصقلية كالعرب في الشام يتسمون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ، ويقدرّون المرأة ، ويرفقون بالمغلوبين « وهي الخلال التي اقتبستها منهم الأمم النصرانية بأوروبا ، فأثرت في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة . وللفروسية العربية تقاليدها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها »<sup>(٢)</sup> .

وفي تاريخ العرب بإسبانيا ما يثبت أنه حفل بخصال الفروسية وتقدير النساء ، وأن المرأة العربية كانت عالية القدر في الغرب كما كانت في الشرق ، بل إن Trend يرى أن النساء تتمتعن في ظل الأمويين بالأندلس بنصيب من الحرية وحظ من التقدير أعظم مما تتمتعن به في ظل العباسيين ببغداد<sup>(٣)</sup> .

ولم يكن تقدير العرب للنساء حكرة على العربيات ، بل كان تقديرًا للأثونة مطلقاً ، ولقد يكون هذا التقدير في موقف ضئيل تحتم فيه المصلحة أن يتفاضى الرجل عن بعض ما يدين به من مثل عالية ، ولكن الرجل العربي غلب مثله العالية على مصالحته ومصاحبة قومه ذلك بأن والى قرطبة حاصر سنة ١١٣٩ م

(٢) حضارة العرب ٣٤٤ جستان لوبون

(١) Nicholsn P.P. 81—88

(٣) ترث الإسلام ١٢/١ J.B.Trend

مدينة طليمة ، وكانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير - وكانت بالمدينة - من بلغه أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة . فارتد القائد العربى من فوره محيماً الملكة<sup>(١)</sup> .

ج - ويطول بنا المقال لو حاولنا أن نفصله فى فروسية العرب فى الجاهلية وفيما بعدها ، وبحسبنا لحظة دالة ، ونظرة عاجلة .

فالصناديد يفخرون بعد الغزل ببلائهم فى الحرب ، ويوجهون الخطاب إلى المرأة يريدون أن يستميلوها وينالوا إعجابها . يقول عنتره :

سلى يا عبل قومك عن فعالى      ومن حضر الوقعة و الطرادا  
وردت الحرب والأبطال حولى      تمز أكفها السمر الصعادا  
وخضت بمهجتي بحر المنايا      ونار الحرب تتقد اتقادا<sup>(٢)</sup>

ويسكر هذا فى شعره<sup>(٣)</sup> . ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلوعلمت سُنَيْمَى علم مثلى      غداة الروع واصلت الكراما<sup>(٤)</sup>  
وإذا ما عاد من حربته تشوق إلى إعجاب زوجته به وسؤالها الأبطال عن  
إقامة علم ، حتى ليطلقها إن لم تسأل لتعرف شجاعة زوجها :  
طلقت إن لم تسألنى أى فارس      حايك إذ لاقى صداء وخمعا  
أكره عليهم دعالجاً ولبانه      إذا ما اشتكى وقع الرماح تخمعا<sup>(٥)</sup>  
وله كثير مثل هذا<sup>(٦)</sup> .

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبى باعثاً أى باعث على بطولة

(١) حضارة العرب ٣٤٤ جسا:فلوبون.

(٢) ديوان عنتره ٥٧ (٣) ديوان عنتره ٥٣ و ٥٦ و ١٥٠ .

(٤) ديوان عامر القصيدة ٢ (٥) ديوان عامر الملاحق ١٩

(٦) الديوان ملاحق ٢٢ والقصيدة ٣ .

تجلب النصر، فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيته ليس تجرى كاشفة عن  
محاسنها هلعاً وذعراً، ونساء قومه يجرين، فهجم على رئيس الأعداء فقتله، وكسب  
النصر، وصور ذلك في قوله :

مَا رَأَيْتُ نِسَاءً نَا يَفْحَصْنَ بِالْمَعْرَاءِ شَدًّا  
وَبَدَتْ لَيْسُ كَأَنَّمَا بَدَرَ السَّمَاءُ إِذَا تَبَدَّى  
وَبَدَتْ مُحَاسِنُهَا الَّتِي تُخْفِي وَكَانَ الْأَمْرُ جَدَا  
نَازَلَتْ كَبَشَهُمْ وَلَمْ أَرْمَنْ نَزَالَ الْكَبْشُ بُدَا<sup>(١)</sup>

وقد يستبسل الحاربون، لأن وراءهم ظعائن يحسنهم، وينفرونهم من الهزيمة،  
وهم أضواء بهن أن يسبين، يقول عمرو بن كلثوم :

عَلَى آثَارِنَا بِيضُ حَسَانٍ نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا  
أَخَذْنِ عَلَى بَعُولَتَيْنِ عَهْدَا إِذَا لَاقُونَا فَوَارِسَ مُعَلِّمِينَا  
لَيْسَ بَيْنَ أَبْدَانَا وَبَيْنُنَا وَأَسْرَى فِي الْحُرُوبِ مَقَرَّتِينَا  
يَقْتَنُ حَيَادِنَا وَيَقَانُ لِسْتِمَ بَعُولَتُنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا  
إِذَا لَمْ نَحْمِمْ فَلَاحِقِينَا لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حِينَا  
وَمَا مَنَعَ الْخَوَاعِنَ مِثْلُ ضَرْبِ تَرَى مِنْهُ السَّوَادَ كَالْبُرْدَانَا<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما أشهدا الرجل على كرمه وشجاعته، كقول عروة بن الورد :  
وَقَدْ عَلِمْتَ سَايِمِي أَنْ رَأَيْتُ وَرَأَيْتُ الْبَخْلَ مُخْتَلِفَ شَتِيَّتِ  
وَأَنْتِ لَا يَرِنِي الْبَخْلَ رَأَيْتُ سَوَاءٌ إِنْ عَطَشْتَ وَإِنْ رَوَيْتَ

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام شرح التبريزي ٩٢/١ المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يؤثرن من شدة الجري . ليس : اسم حبيته .

(٢) شرح المعلقات السبع لابن الأنباري مخطوط ٧٦ والتبريزي ٢٤٧ الأبدان : الدروع .  
البرين : جمع برة وهي حلقة في أنف البعير . ورواية التبريزي ( كالفلين ) جمع قلة وهي الحشبة  
التي يامب بها الصبيان يضربونها بالقلل .

وأنى حين تستجر العـوالى حوالى اللب ذورأى زَميت<sup>(١)</sup>  
ولهذه الفروسية مظاهر آخر ، كمنجدة المستغيث ونصرة المستنصف ،  
والحذب على الأرامل واليتامى .

وحسبنا الدلالة على نصرة المستغيث قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع<sup>(٢)</sup> كان الصراخ له قرع الظنايب<sup>(٣)</sup>  
وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك إنه كان نصير الضعيف المغلوب :  
ويوماً إذا كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لاتكن أنت أضيماً<sup>(٤)</sup>  
ومن العطف على المرأة المحتاجة إلى رعاية قول أوس بن حجر فى رثاء فضالة  
ابن كلفة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لأشعت ذى هذمين طلال<sup>(٥)</sup>  
وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

وللشرب فابكى مالكا وأبهمه شديد نواحيه على من تشجما  
وأرملة تمشى بأشعث محثلي كفرخ الحبارى رأسه قد تَضَوَّعا<sup>(٦)</sup>  
وقول بنت وثيمة فى رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه ملجأ الأرامل واليتامى :  
ألقىته مأوى الأرمـل والمدفعة اليتيمة<sup>(٧)</sup>

والأمثلة شتى على حماية العرب للمستجير ، وفكهم الأسير ، ونصرهم للمهضوم .  
وقد بسطت المقال فى موضع آخر<sup>(٨)</sup> فى افتتاحهم القصائد بذكرها ، وفى

(١) ديوان عروة . زميت : وقور .

(٢) سمط اللآلى ٧/١ : الظنايب : جمع ظنوب وهو مسمار فى جبة السنان .

(٣) المفضليات ٢/٦٥ : الخصم : الخصوم : كظك : قهرك وغلبك .

(٤) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والبيان ١/١٥٩ : أشعث : مفر . هدم : بال .

طلال : فقير . (٥) المفضليات ٢/٦٦ : محثلي : سبي . المان والغذاء . الحبارى : ضرب

من الطير . نضوع : تفرق شعره .

(٦) البيان والبيان ١/١٦١ . (٧) الفزل فى العصر الجاهلى ٢٥٧ - ٢٧٣ .

(٨) ٣٥ - المرأة فى الشعر الجاهلى

أفانين غزلهم بها ، وتنافسهم لنيل إعجابها .  
وهذه كلها هي الأسس التي قامت عليها الفروسية في الإسلام وفي أوروبا في  
العصور الوسطى ،

د - وليست هذه الفروسية الغربية ذات المثل السامية وما تقتضى من احترام  
المرأة إلا أثراً للعرب وللإسلام لا للنصرانية . فالإسلام هو الذى رفع المرأة  
الأوربية من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، لا النصرانية . فإذا نظرت إلى  
أمراء النصارى الإقطاعيين فى القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من التقدير  
للنساء ، ووجدت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً فى معاملة النساء ، قبل أن  
يتعلم النصارى من العرب معاملتهن بالحسنى <sup>(١)</sup> .

ونجد أن الشعر فى أوروبا اقترن بالفروسية كما كان عند العرب ، بل أصبح  
شرطاً من شروطها ، وصار لزماً على الفرسان أن يقرضوه كباراً وصغاراً ، ومن  
لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ليتغنى بحبه ويفصح عن لوايح قلبه أنشد شعر  
سواه <sup>(٢)</sup> . وعد الفارس من واجبه حماية المرأة والأرملة واليتيم والضعيف من  
الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث <sup>(٣)</sup> .

وكثير من العلماء الغربيين يصلون الفروسية الأوربية بالفروسية العربية  
والإسلامية ، يقول فلوريان : « المسلمون أرق الناس حباً ، وأكثرهم خشوعاً ، وأشدهم  
عاطفة ، وإذا أحب أحدهم امرأة - وإن حجبها حتى تصير أسيرة بيته - أصبحت  
حاً كما مطلق السيادة ، وملكت قلبه . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ،  
ولكى يستطيعوا فى عيونهم سعوا فى سبيل الثراء ، حتى يقدموا لمن أغلى ما يملكون

(١) حضارة العرب ٤٨٨ جستاف لوبيون والفتوة عند العرب عمر الدسوق ٢٧٢ عن :  
Florian; dans son précis Historiqu. sur le Mauers Floian, dans  
son précis Historique rus le Mauers,

(٢) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Fauaiel, op cit t I p 529

(٣) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن Mémoires sur l'ancienne chevalerie

من مال وحياء<sup>(١)</sup> . » ويقول بارثلمى سانت هيلير : « أما الفرسان فقد تعلموا المشاعر الرقيقة وأجل الفضائل الإنسانية من العرب . ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق<sup>(٢)</sup> .

ويذهب Gibb إلى أن الشعر البروفانسى حافل بعشق غنى بالصور الجميلة ، وإلى أن هذا الضرب من الحب أو التقديس للمرأة لم يكن نتيجة لتقاليد العصور الوسطى ، ولم يكن صدى للأدب اليونانى أو اللاتينى ، وإنما قام على تقاليد أدبية راسخة صادرة من شعر العرب فى إسبانيا ، لأن الأدب العربى كان فى كل عصوره يستمد من ينبوع حب الرجل للمرأة<sup>(٣)</sup> .

وآخر شهادة أعزز بها أن الفروسية الغربية وليدة العربية قول الأديب الإسباني الوطنى الغيور بلاسكوا أبانيز الذى توفى منذ بضع سنوات : إن أوروبا لم تكن تعرف الفروسية ، ولا تدين بأدائها المرعية ، ولا نخوتها الحماسية قبل أن يفد العرب إلى الأندلس ، وينتشر فرسانهم وأبطالهم فى أقطار الجنوب . وهذه الفروسية التى ظهرت بين عرب الأندلس قد تبناها فيما بعد رجال الشمال ، كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية<sup>(٤)</sup> .

٤ - وبعد ، فلقد جانبت مسز رى سراتشى الصواب حين زعمت أن الإسلام كان ذا تأثير مضاعف فى التدلى بالمرأة ، وتثبيطها عن النهوض ، لأنه قرر أن النساء لافسوس لهن ، وأنهن أدوات للاستمتاع لحسب<sup>(٥)</sup> .

ولست هذه الدعوى فى حاجة إلى تفنيد بعد ما تقدم من نصرة الإسلام

(١) الفتوة عند العرب ٢٠٥ .

(٢) الفتوة عند العرب ٢٧٧ عن Barthelemey saint—Hilaire, et le coarn

(٣) تراث الإسلام ١٦٠/١ - ١٦٨ .

(٤) أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ٦٨ و ١١٤ العقاد .

(٥) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٤ Mrs Ray strachey



للرأة ، ومن شهادة الغربيين المصنفين بذلك .

وكأنما نسيت الكاتبة أن عليّة من رجال روما اجتمعوا في القرن السابع عشر ، وتناقشوا طويلاً في أن للمرأة روحاً أم لا روح لها <sup>(١)</sup> ، وأن امرأة بيعت بشانين في أسواق لندن سنة ١٧٩٠ م لأن نفقات معيشتها زادت على الكنيسة التي تؤويها ، وأن القانون الإنجليزي ظل إلى سنة ١٨٥٩ لا يعدها من المواطنين <sup>(٢)</sup> .

ونسيت أنها هي نفسها التي قالت : لقد كتب بلا كستون Blachstone في شروحه المشهورة على قوانين إنجلترا في سنة ١٧٦٥ م يقول : « أن القيود التي ترزح تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها » والحق أن القانون قد حرّمها كل حق مدني تقريباً ، وحال بينها وبين التعليم وكل شيء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ، ونزلت عن ثروتها كلها عند الزواج ، ونستهلك أن نقرر أن مركز النساء منذ أواخر القرون الوسطى إلى آخر القرن التاسع عشر لم ينتج خيراً <sup>(٣)</sup> .

ونسيت أيضاً أنها هي القائلة : إن النساء كن يعين أنهن إناث ، وكن معدودات بابا للجحيم ، حتى قيل : إن أجسامهن من عمل الشيطان ، وإن الشيطان طالما زار النساء في شكل أنثى ، لذلك كثرت الرهبنة والزهد وبناء الأديار ، وكان هذا كله بعد النصرانية وانتشارها <sup>(٤)</sup> .

وإذا كانت الأحوال قد دالت ، فتقهقرت المرأة العربية ، ونسي العرب أو تناسوا خلال الفروسية ، بينما أغذت المرأة الغربية سيرها ، ثم جعلت المرأة

(١) دائرة المعارف . مادة المرأة . فريد وجدي .

(٢) المرأة ومركزها الاجتماعي ٣ : محمد البنداري .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرجع السابق .

العربية تتطلع إلى أختها الغربية وتحاكيها ، فإنها بذلك تسترد ديناً لها ، وتنتسى بعد أن كانت أسوة .

## موازنة المرأة العربية بغيرها

أستطيع - بعد أن جَلَوْتُ الصورة الصحيحة للمرأة العربية ، وبينت منزلتها في الحياة السياسية والاجتماعية في الأسرة وفي القبيلة ، وبعد أن وازتها بالنسوة المعاصرات لها - أن أعرض مكانتها العامة بالنسبة لغيرها من النساء .

### ١ - بين المرأة العربية والعبرية :

قلت إن اليهود اصطفوا بصبغة عربية في جزيرة العرب فكانوا عرباً في عاداتهم ونظمهم ولغتهم .

لذلك نجد تشابهاً بين بعض أحوال المرأة العربية والمرأة اليهودية ، فمثل منهما تسبي ، وتباع ، وتورث أو يورث نكاحها ، ولا ترث ، وإن كانت العبرية قد ورثت في عصر متأخر في حالات خاصة ، وورثت العربية أحياناً نصيباً غير مقدر .

وتتشابهان أيضاً في أن كلا منهما نسب إليها بنوها أحياناً ، وفي حرمة بعض النساء على بعض الرجال ، وفي إباحة زواج المتعة .

لكن المرأة العربية تمتاز بأنها خُوِّلَتْ حق الطلاق كالرجل ، وخولت أن تطالب بالتطايق ، وأن تحتلع . ولما باعها أبوها بيع الرقيق كما كانت تباع العبرية ، ولم يتزوج عربي أخته كما فعل العبرانيون .

ثم إن العرب لم ينظروا إلى المرأة على أنها شر ووباء كما نظر العبرانيون ، بل إنهم أحبوها ومجدوها وتقربوا إليها وصانوها .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بمشاركتها في الحياة العامة مشاركة عظيمة القيمة ، في تولي الملك ، وفي قيادة الجيوش ، وفي أنها تجير ، وتشترك في حلف .

### ٢ — بين المرأة العربية والمسيحية :

لا شك أن المرأة العربية كانت أعظم قدرا من المسيحية ، فإن العرب لم يهبطوا بالنساء إلى تجريدن من الروح والبشرية ، ولم يصفوهن بأنهن رجس . وإذا كانت المسيحيات قد أبلين بلاء حسناً في نشر المسيحية فقد أيلت العربيات بلاء حسناً في الدفاع عن الوثنية أولاً ، وفي الدفاع عن الإسلام ثانياً . على أن المرأة المسيحية سعدت بما حرّمته العربية ، في أنها لاتضار بالضرائر ولا بالطلاق ولا بالتسرى ، وإن كان كل من هذه الثلاث سلاحاً ذا حدين ، فقد ينتفع به الرجل ، وقد تستفيد به المرأة ، وربما لا يكون منه بدّ في بيئة بدوية محاربة تخشى العار ، وتحرص على عفة النساء وكثرة النسل .

### ٣ — بين المرأة العربية والفارسية :

تمتعت المرأة العربية بالملك كما تمتعت الفارسية ، وكان تعدد الزوجات والتسرى شائعاً هنا وهناك .

وكان الحجاب عند الفرس أشد منه عند العرب ، ثم كانت العربية مصونة ومحاطة بسياج منيع من غير الرجل عليها ، فلم يعرف العرب نظام الشيوع في النساء كما عرفه الفرس في عهد من عهودهم .

ثم إن العرب كانوا لا يحلون البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ، كما كان يفعل الفرس .

ولا أشك في أن العرب الذين تمجّسوا لم يرتضوا زواج الأمهات والبنات والأخوات ، بل نفروا منه ، وأنفضوا رءوسهم له ، ولكن هذا لا ينفي أن قلة منهم شذت عن العرف العربي في نظام الزواج . يدل على ذلك هجاء أوس ابن حجر لبعض العرب بقوله :

والفارسية فيهم غير مُنْكَرَةٍ فكلهم لأبيه ضَيَّزْنَ سَافَ<sup>(١)</sup>  
وقول المتلمس في هجاء عمرو بن هند :

ملكٌ بلاعب أمه وقَطِيعَها رَجَوُ المفاصل . . . كالمبرد<sup>(٢)</sup>

وذكر بعض المؤرخين أن حاجب بن زُرارة تزوج بنته دُخْتَنُوسَ ، ثم  
ندم<sup>(٣)</sup> . وقيل إن لقيط بن زُرارة هو الذي تزوج بنته دُخْتَنُوسَ ، وسماها بهذا  
الاسم الفارسي ، فلما قُتِلَ في يوم شَعْبِ جَبَلَة وهي في عصمته قال :

يأليت شعري عنك دُخْتَنُوسَ إذا أتاها الخبير المَرْمُوسُ

أتحلق الرأس أم تَمِيسُ لابل تَمِيسُ إنها عروس<sup>(٤)</sup>

على أن بعض المؤرخين يتفق مع ابن قتيبة في أنها بنت لقيط ، ولكنها  
كانت زوجة لابن عمها عمرو بن عمرو بن عدس<sup>(٥)</sup> ، ثم تزوجها بعده معبد بن  
زُرارة<sup>(٦)</sup> أو عمير بن معبد بن زُرارة<sup>(٧)</sup> ، ولم يُشْرَ واحد من هؤلاء إلى زواجها  
بأيها .

وتشابه الفارسية والعربية في بغضة الآباء للبنات ، وتفضيلهم الذكور على بنين .

#### ٤ - بين المرأة العربية والرومانية واليونانية

إذا ما قايَسنا المرأة العربية بهاتين وجدناها أعلى مكانة ، لأن العرب لم ينظروا  
إليها نظرة المِهانة ، ووجدناها تشارك في الحياة الأسرية والحياة العامة بقدر عظيم ،  
ولها حق الملك والتصرف فيما تملك .

(١) ديوان أوس ٣ والمأني الكبير لابن قتيبة ١/٥٢١ .

(٢) ديوان المتلمس ٦ مخطوط . (٣) المعارف ٢٠٥ والأعلاق النفيسة

٢١٧/٧ والمغرب للجواليقي ١٤٢ شرح شاذكر وكتاب الزينة لأبي حاتم الزاوي ٦٠ مخطوط

(٤) الكامل لابن الأثير ١/٢١٣ (٥) الأغاني ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧

(٦) مجمع الأمثال للميداني ٢/١٣ (٧) الشعر والشعراء ٢٧١ وتاج

العروس ٤/١٤٧ .

ثم إن العرب لم يعتبروها وعاء للنسل فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها مخلوق منحط ، ولم يقتلوا الأم إن ولدت ولداً ضعيفاً .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بأنها كانت صاحبة حق في أن تطلق زوجها ، وأن تحتلع منه لتفارقه ، وأن تطلب الطلاق بدون خلع ، وبأنها لم تكن مشاعة بين الرجال هذا الشيوع الذي جرى عليه الإغريق والرومان في بعض نظمهم ، ولم يستحل العرب نكاح الأخت لأب كما استحلّه الإغريق .

والعربية على العموم أسمى في الأسرة وفي المجتمع منزلة ، ولها قسط عظيم من المساهمة في الشؤون العامة .

على أن ثمة بعض التشابه ، فبعض العرب كانوا يثدنون البنات ، والإغريق كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث ، وقليل من العرب كانوا يبيحون لنسائهم الاستبضاع كما أباحه الإغريق والرومان ، وكثير من العربيات كن يفرن ، كما كانت تسفر المرأة في إسبرطة وأثينا ، وإن كان سبب السفور عند العربية مغايراً لسببه عند الإغريقية . والعرب والإغريق كانوا يعددون الزوجات ، ويحرمون المرأة أن ترث ، وينسبون أحياناً إلى الأم .

## ٥ — بين المرأة العربية والمصرية

تشابه العربية والمصرية في سمو المكانة ، فكل منهما استوت على عرش الملك ، وكثماهما جليلة الشأن في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة ، وإذا كانت المرأة المصرية قد حظيت عند بعاها فإن العربية أيضاً كانت ذات نفوذ عظيم ، حتى لقد نسب إليها زوجها أحياناً .

على أن كليهما تملك المال ، وتصرفت فيه مستقلة عن الرجل ، وإذا كان الحكم اليوناني لمصر قد سلب المرأة المصرية هذا الحق فإن العربية لم تُسلبه . وكان تعدد الزوجات والتسرى هنا وهناك .

ولكن المصرية امتازت من العربية بأنها ورثت وحدها أحياناً ، وورثت بالرجل أحياناً أخرى .

والعربية امتازت بأن نكاح الأم والأخت كان محرماً عند العرب .

### دلالة هذه الملاحظة على رقي العرب

كان العرب في العصر الجاهلي يعرجون إلى الرقي ، فقد أقر الإسلام كثيراً من نظمهم في الزواج والطلاق ، وفي معاملة السبايا ، وفي الحجاب والأخلاق ، وحق النساء في الامتلاك والتصرف فيما يمتلكن . وليس أدل على رقيهم من أنهم أوفضوا سراعاً إلى زعامة العالم بعد الإسلام . ولم يكن من الطبيعي أن يخلفهم الإسلام خالقاً جديداً في بضعة أعوام ، وأن يسن آداباً وأخلاقاً وعادات ومعاملات تنافض طباعهم الأصيلة ، وتغاير نفوسهم ، ثم يدينون بها وتشربها قلوبهم حتى ليجدون في نشرها ، ويطيرون بها طيراناً في الآفاق ، ليس من الطبيعي أن يحدث ذلك إن لم يكونوا مستعدين لتلقى هذا الجديد وتقبله وتنفيذ تعاليمه بقبول واعية ، وعزائم ماضية ، ونفوس طماحة ، لأن حضارة الأمة لا تولد فجأة ، ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيد . كفيل بالتبدل والتطور والانتقال ، كالشجرة تبدأ بذرة في تربة ملائمة وبيئة موافقة ، ثم تتدرج في نموها حيناً بعد حين .

على أنا نعلم أن العرب تسابقوا إلى اقتباس حضارة الأمم في الإسلام ، وهم بهذا الاقتباس السريع أثبتوا أنهم ذوو قرائح مستعدة للرق والانتفاع بما هو خير ، وهذه الصفات لا تكون ثمرة لوراثة سابقة ، وثقافة قديمة ، فهم على النقيض من البرابرة الذين قوضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، وظنوا قروناً كثيرة لا يستطيعون أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية ، ويخرجوا من

ظلمات القرون الوسطى<sup>(١)</sup> .

ومن عجب أن يشيد بعض الأجانب المؤرخين الأقدمين ومن المحدثين بحضارة العرب ، ونغفل عن هذه الإشادة ، ونزوح زميهم بالهمجية والوحشية ، متأثرين بحملات شعوبية قديمة ، وتعصب استعماري ظالم .

لقد وصف هيروودوت بلاد اليمن وصفاً دالاً على حضارتها ، وتابعه سترابون . ولقد كان عرب الحيرة والشام على صلة بالفرس والروم وبحضارتهم . على أن العرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وحضارة اليمن أقدم من حضارة الرومان .

ولسنا نغالى في قولنا إن العرب في شبه الجزيرة ولا سيما في الجنوب أسهموا في تشييد الحضارة الإنسانية ، بل إنه لا يمكن إنكار ذلك ، فقد كانت شبه الجزيرة قبل الإسلام بألفي عام ذات مكانة عظيمة في العالم القديم ، ثم زادها الإسلام عزة ، حتى حمل العرب مشاعل النور إلى أوروبا والجهل يتفشى في ربوعها<sup>(٢)</sup> .

وإذا فما بُدَّ من تصحيح النظرة إلى عرب الجاهلية ، فقد استبان لى من هذا الكتاب ومن كتاب ( الحياة العربية من الشعر الجاهلى ) ومن كتاب ( الفزل في العصر الجاهلى ) أن العرب ظلموا بالحكم عليهم بالهمجية .

وإذ كان قد اتضح لى أنهم على قسط عظيم من الحضارة فيما يتصل بالمرأة في الأسرة والقبيلة والحياة العامة ، فإننى أتوقع أن تكشف دراسات أخرى عن ألوان من الرقى طمست معالمها مع الزمن .

(١) حضارة العرب ١١١ جنتاف لوبون . (٢) حضارة العرب ١٢١ و

## البَابُ الثَّالِثُ

### المرأة في الحياة الفنية

أتحدث في هذه الفصول عن المرأة في الحياة الفنية ، مغنية ، وراوية للشعر ، وناقدة ، وشاعرة . وفي هذه الدائرة ناحية عظيمة القيمة كان المنتظر أن أفرد لها فصلا حافلا ، أقصد المرأة الحبيبة أو المرأة الملهمة للغزل ، لكنني لم أفعل ؛ لأنني خصصت المرأة الملهمة للغزل بكتاب ( الغزل في العصر الجاهلي )

## الفصل الأول

### المرأة المغنية

الفناء في الجاهلية :

أولع العرب بالفناء أيما ولوع ، فكان العربي يتغنى وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلة تمشي به متئدة أو مُرْقَلَة ، وهو يهتز على ظهرها هزات تبطئ وتسرع ، وتطول وتقصُر . وكان يتغنى وهو يهجم في الحرب فيجري أو يثب ، ويتغنى وهو يمتح الماء من البئر فيعلو جسمه أو ينخفض ، ويتغنى وهو يرقص ، ويتغنى وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوزة التسلية ، تنزل به النازلة فيُروِّحُ عن نفسه بالفناء ، وتبسم له الحياة فيصور حبه في غناء .  
فالفناء حُداء الركب ، وشدو الفرد ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المسكروب والمخروب .



## عمارة الشعر بالغناء :

وقد ارتبط الشعر بالغناء في النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ، ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هي بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى أساس فيهما معاً ، ففي الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان .

لذلك لا نعرف شعباً غنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأحلى ، وأكثر طواعية للتغنيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة في الأدب العربي القديم وفي غيره من الآداب .  
١ — فقد كان شعراء العصر الجاهلي يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، وهم يعبرون عن الإنشاد أحياناً بالغناء ، لأن الإنشاد ضرب منه ، كما روى أن المهلب شرب خمرًا وتغنى قصيدته الق مطامها :

طَفَلَةٌ مَا ابْنَةُ الْمَحَلِّ بِيضًا      لَعُوبٌ لَذِيذَةٌ فِي الْعِنَاقِ<sup>(١)</sup>  
وَالسَّلَكُ بْنُ السَّلَكَةِ غَنَى بِقَوْلِهِ :

يَا صَاحِبِي أَلَا لَا حَيَّ بِالْوَادِي      سَوَى عَبِيدٍ وَأَمٍّ بَيْنَ أَذْوَادِ  
أَتَنْظُرَانِ قَرِيبًا رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ      أَمْ تَغْدَوَانِ فَإِنَّ الرِّيحَ لِلْغَادِي<sup>(٢)</sup>  
والأعشى كان يغني في شعره ، وكانت العرب تسميه صَنَاجَةَ الْعَرَبِ<sup>(٣)</sup> .  
ومُرَرَّدُ بْنُ ضَرَارٍ أَوْ أَخُوهُ جَزْءٌ يَقُولُ فِي تَهْدِيدِ أَعْدَائِهِ بِهِجَاءٍ مُمَضٍّ إِنَّهُ سِيرْمِيهِمْ  
بَاهَا جَمْرَةٌ يَتَغَنَّى بِهَا السَّارِي ، وَيَحْدُو بِهَا الْحَادِي :  
زَعِيمٌ لِمَنْ قَادَفَتْهُ بِأَوَابِدٍ      يَغْنَى بِهَا السَّارِي وَتُحْدَى الرُّوَاهِلُ<sup>(٤)</sup>

(١) الأغاني ٥/٥١      (٢) الأغاني ١٨/١٣٤      (٣) الأغاني ٩/١٠٩

(٤) المفضيات ١/٩٨ أو ابداً : غرائب القول يريد الأماجي المرة

وامرؤ القيس كان يغنى بشعره ، يدل على ذلك قول أبي النجم لقنيتها أن  
تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو<sup>(١)</sup>  
وحسان بن ثابت يقرن الشعر بالفناء :

تغنّ بالشعر إما كنت قائلاً إن الفناء لهذا الشعر مضار<sup>(٢)</sup>  
وقد عبروا عن الشعر بالفناء ، من ذلك أن عمر بن الخطاب قال للنايسة  
الجمعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك فأسمعه كلمة له ، فقال له :  
وانك لقائناها ؟ قال : نعم . قال عمر : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب<sup>(٣)</sup> .  
وكانت النساء يتغنّين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، كقول منفوسة بنت  
زيد الخليل فى ترقيص ولدها .

أشبهه أخى أو أشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا  
تقصّر عن مثاله يداكا<sup>(٤)</sup>

وكن يمين موتاهن بفناء حزين هو النواح ، كما ناحت الخنساء على أخويها ،  
وهند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها<sup>(٥)</sup> ، وكن يغنين فى المعارك ليشجعن  
الرجال على القتال كما سبق فى الحرب .

وظل لفظ الإنشاد إلى ما بعد العصر الجاهلى دالاً على إلقاء الشعر ، وإن لم  
يصاحبه غناء ، كما فى شعر ذى الرمة<sup>(٦)</sup> والمتنبي<sup>(٧)</sup> .

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحاربون ، كما فعل حمير بن الحُمام إذ سمع

(١) الشعر والشعراء ٤٢ . (٢) الموشح ٢٩ والعمدة ٢٤١/٣ وفى أساس  
البلاغة ( إما كنت ذا بصر ) ومعنى المضار هنا مجال الإصلاح لأن المضار هو الموضع الذى  
تضمّر فيه الخيل (٣) العقد الفريد ٩٠/٤ .

(٤) لسان العرب مادة وكل والأغاني للأطفال عند العرب ٥٥ . (٥) الأغاني ١٢٩/١٣ .

(٦) العمدة ٢٤١/٢ . (٧) ديوان المتنبي ١٩٣/١ شرح البرقوقى .

النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين في بدر ، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضنا إلى الله بغير زاد إلا التقي وعمل المعاد  
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النقاد  
غير التقي والبر والرشاد<sup>(١)</sup>

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مرّ عليها — وهى فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ومعها أم سعد — وهو يسرع إلى الحرب ويقول :  
كَبْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا جَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ<sup>(٢)</sup>  
وفى غزوة خيبر خرج مرّحب اليهودى من حصن لليهود ، وقد جمع سلاحه وارتجز بقوله :

قد علمت خيبر أنى مرّحبُ شاكى السلاح بطل مجربُ  
أطمن أحيانا وحينما أضرب إذا الليوث أقبلت تحربُ

.....

وكان يقول من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله :  
قد علمت خيبر أنى كعب وأننى متى تُسبُّ الحرب  
ماض على الهول جرى، صلب معى حسام كالعقيق غضب<sup>(٣)</sup>  
.....

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى وجماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن عائشة أنه لما قدم رسول الله المدينة تغنت النساء والصبيان بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١ (٢) تاريخ الطبرى ٣/٤٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازى ٣٩٠ .

وجب الشكر علينا مادعنا الله داع  
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع<sup>(١)</sup>

وفي حفر الخندق رأى النبي ما بالصحابة من تعب وجوع ، فقال متمثلاً  
بقول ابن رواحة :

لا مُمْ لآ عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة  
وكان الصحابة يحيونه بقولهم :

نحن الذين بابعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً  
ورى أنه صلى الله عليه وسلم تمثل بشعر آخر أيضاً<sup>(٢)</sup> ، وأن الصحابة  
ارتجزوا برجل من الأنصار اسمه جُعَيْل وسماء الرسول عمرأ فقالوا :

سماء من بعد جُعَيْلَ عمرأ وكان للأنس يوماً ظهراً  
فإذا مروا بكلمة عمرو قال الرسول «عمرأ» وإذا نطقوا بكلمة ظهر قال الرسول  
«ظهرأ»<sup>(٣)</sup> .

٢ — ولم يكن الشعر العربي وحده هو الوثيق الصلة بالفناء ، فقد كان الشعر  
اليوناني كذلك ، فأطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى وكان  
هوميرس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية ، ولم يكن الفناء بالشعر عند اليونان  
محصوراً في نوع معين منه ، فقد تغنوا في مذاجاة الآلهة ، وفي مدح الملوك ، وفي  
إلقاء القصص ، وفي الشعر التمثيلي الذي كان حواراً وأناشيد غنائية « على أن  
الشعر الغنائي استمد هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre ، وهي آلة موسيقية  
قديمة ، فسمى Lyric poetry أى الشعر الغنائي<sup>(٤)</sup> .

(١) السيرة الحلبية ٥٨/٢ .

(٢) السيرة الحلبية ٣٣٢/٢ . (٣) سيرة ابن هشام ٢٣٢/٣ .

(٤) أصول النقد الأدبي ٣١٨ أحمد الشايب .

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائي مرتبط بأشد الارتباط بالموسيقى<sup>(١)</sup> .  
ومنذ عهد قديم أطلق الإنجليز كلمة Bard على الشاعر المغنى الذى كان  
يتغنى أمام المحاربين ويعزف على آلة موسيقية<sup>(٢)</sup> .  
ثم ظهرت طائفة التروبادور Troubadour فى القرن الحادى عشر إلى  
الثالث عشر فى شرق إسبانيا وشمالي إيطاليا وجنوبى فرنسا ، وكانوا ينقلون من  
قصر إلى قصر ينشدون شعرهم ، ويوقعون على آلات موسيقية معهم<sup>(٣)</sup> .  
وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر ظهرت جماعة المينسينجر Minnesingers  
فى ألمانيا ، ينشدون الشعر ويتغنونه على أداة موسيقية<sup>(٤)</sup> .

### أنواع الغناء عند العرب

تغنى العرب بشعرهم كم سبق ، فرادى وجماعات ، رجالاً ونساء ، وهذا  
هو الترنيم .  
ثم تنوع الغناء إلى ثلاثة ألحان : نَصَب وسناد وهزج . أما النصب فغناء  
الركبان والقيان ، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج  
فالخفيف كله الذى يابى وينشط على السير ، وهو الذى يثير القلوب ويهيج  
الحلم<sup>(٥)</sup> . وإنما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً  
فاشياً ، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه  
القرى مجامع أسواق العرب<sup>(٦)</sup> .

(١) قواعد النقد الأدبى ٧٠ لاسيل كرومى .

(٢) The great Encyclopediadia of Universal Knowledge

(٣) المرجع السابق و Twentieth century dictionary. and dictionnaire Larrouse

(٤) Twentieth century dictionary

(٥) كتاب التلاهى لأضى ٤٤ : مخطوط والمقد الفريد ١٨٦/٣ .

(٦) العقد الفريد ١٨٦/٣ .

## غناء الإماء

النساء ألبس بالفناء

كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن في الغالب أندى صوتاً ، وأحلى ترجيعاً ، وأرق نغماً ، ولأن لجاهلن وأثوثن أثراً في الطرب لمن . وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الفناء المطرب في الشعر الغزل من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شب الرجال ، ومن أجاهلن تكلفوا القول في التشبيب »<sup>(١)</sup> ، ثم قال : « ولم بين أن تسمع الغناء من فم تستهى أن تقبله ، وبين فم تستهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فأنما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية ، كثر العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مفضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينه ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة »<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الجاحظ قد وازن بين الجارية الحسناء والرجل القبيح ليخلص إلى أننا نؤثر سماع الجارية ونفر من سماع الرجل ، فإن الجواب واحد إذا وازنا بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وقد حدث ثُمَامَةُ بن أَشْرَس فقال : كنت عند المأمون يوماً ، فاستأذن المغنى عُمَيْرَ ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال المأمون : ما بك يا ثُمَامَةُ ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إذا غنى عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل ، وإذا غنينا فلانة انبسط أملى ، وقوى جدلى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك عادة كأنها غصن بان ترنو بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من ياقوتة ، أو قرطت من فضة

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥ (٢) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٤

( ٣٦ - المرأة في الشعر الجاهلي )

ويبين أن يغنيك رجل كثر اللحية، غليظ الأصابع، خشن السكف؟ فتبسم المأمون.  
وقال: الفرق بينهما واضح. يا غلام لا تأذن له. وأمر بأن تحضر أطيّب  
قيناته<sup>(١)</sup>.

### القيان محترفات بالفناء:

هل كان في العصر الجاهلي مغنيات محترفات؟ نعم، كانت هنالك مغنيات  
يحترفن بالفناء، ويشتهرن به هن القيان.

والقينة: الأمة المغنية، من التَّقِيْن وهو التزّين، ومنه قيل للمرأة مقينة إذا  
كانت تزّين النساء، شبهت بالأمة، لأنها تصلح البيت وتزّينه، وقيل القينة الأمة  
مغنية أو غير مغنية، والقينة الجارية تخدم، والأمة غنت أو لم تغن. والمغنية تسمى  
قينة إذا كان الفناء صناعة لها، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر<sup>(٢)</sup>.

وقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد، فقد يماً كانت معاوية بن بكر  
العمليقي - سيد العمالقة الذين نزلوا بمكة في سالف الدهر - جرادتان كانتا قينتين،  
وبهما ضرب المثل في سالف الدهر، فقيل صار فلان حديث الجرادتين، إذا اشتهر  
أمره<sup>(٣)</sup>. وقيل إنهما أول من غنى الفناء العربي<sup>(٤)</sup>.

ولما حُبِس المطر عن عاد - وكانوا ينزلون بين الشَّجَر وحضر موت - بعثوا  
موفدهم إلى مكة يستسقون لهم، فنزلوا على معاوية بن بكر، لأنه كان صهراً لهم،  
فشفعوا بشرب الخمر وسماع الجرادتين عن الاستسقاء، ثم تذكروا قومهم فاستسقوا  
لهم<sup>(٥)</sup>.

ثم كانت لعبد الله بن جُدعان أمتان تغنيان في الجاهلية سماها بجرادتي عاد،

(١) زهر الآداب ٢٧/٣ . (٢) لسان العرب ٢٣١/١٧ .

(٣) مجمع الأمثال ١٨٦/٢ و ١١٨/١ . (٤) جهرة الأمثال ١٩٠/٢ .

(٥) كتاب الملامى للاضي ٥٣٣ مخطوط وجمع الأمثال ١١٨/١ .

وقد غنتا له قول أمية بن أبي الصلت في مدحه :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين  
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين  
وذكر لهما إسحاق الموصلي في المائة المختارة لحنا وهو :

أقمر من أهله مصيف فبطن نخلة فالعريف  
(١)

وكانت لبشر بن عمرو بن مرزئد قيتان أختان هما هريرة وخليفة ، كاتا  
تغنيانه النصب ، وقد قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٢) . وهريرة هي التي  
شبه بها الأعشى في قوله :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ (٣)  
وفي قوله يذكر غناها :

وتبت داجنة تجاب مثلها خوداً منعمة وتضرب مُعتبا (٤)  
والقيان المشهورات كثيرات ، منهن بنت عفّز (٥) وحمامة (٦) وأرنب (٧)  
وزينب (٨) . ثم كثرن في العصر الأموي والعباسي ، وبرعن أيتما براعة (٩) ، حتى  
لقد خرج يودع جميلة وهي ترمع الخبز كثير من المغنين والمغنيات الخذاق ، منهم  
هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحا وقد ورحة وهبة الله ومعبد  
ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وعزة الميلاء وحبابة  
وسلامة وخليفة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلّة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء (١٠)

(١) أوائل الأوائل لأبي هلال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ .

(٢) الأغاني ٧٧/٨ . ديوان الأعشى الكبير .

(٣) المغنيات ٧٦/٢ الداجنة : شرحها ابن الأنباري بأنها الفينة الفنية وليس هذا في  
المعجم . معتب : مطيع بجواب والمراد به العود . (٤) الأغاني ١٧/١٠ .

(٥) الإصابة ٤/٨ . (٦) الإصابة ٤/٨ .

(٧) الإصابة ٩٩/٨ .

(٨) الأغاني ١٧٩/٧ و ١٢/١٦ و ١١٨/٧ و ١٤٩ . (٩) الأغاني ١٢٨/٧ .



حتى قالوا إن زهاء خمسين قينة لحقن بها ، ولحقى بها أيضا زهاء ثلاثين مغنياً<sup>(١)</sup>  
**منسية الفتيان :**

١ - انصرف العرب عن الاحتراف بالغناء ، على شغفهم به وطربهم له .  
ولعل السبب في انصراف الرجال عن احترافه أنهم كانوا يكسبون أرزاقهم من  
الحرب ، ومن التجارة والرعى ، وأنهم كانوا يتجافون عن أنواع الصناعات ، وأن  
مكانة المغنى - وإن أطرب ونال العطاء الجزل - لم تكن توائم المكانة التي  
يريدها العربي لنفسه ، ثم إنهم وجدوا الغناء أليق بالنساء من الرجال .

وكذلك انصرفت الحرائر عن الغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ،  
وإما كسبات رزقهن بأعمال غير الغناء . وما من شك في أن الغناء يقتضى من  
المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تبرز بعض مفاتها لهم ، وأن تكون مناط  
أنظارهم ومجمع اشتهاؤهم - كما تحدث الشعراء - وما يرضى رجل عربى أن تكون  
ماتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة ، ولا تجرؤ عريية أن تشذ عن  
بنات جنسها فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

٢ - لهذا كانت الكثرة الغالبة من القيان في العصر الجاهلى غير عربيات ،  
وما زالت هذه الكثرة من الموالى والجوارى في العصر الإسلامى والعباسى .  
يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه فى الجاهلية عند  
جيلة بن الأيهم وجاء فى وصفه أنه سمع عشرين قيان : « خمس روميات يغنين  
بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من  
العرب من مكة وغيرها »<sup>(٢)</sup> ، لكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتي يغنين غناء  
أهل الحيرة هن فارسيات أم عربيات ؟

وما يؤيد ذلك أن عامر بن الطفيل هجا خصمه بقوله :

وانخر برهط بنى الحماش ومالك . وبنى الضباب ورعبل وقيان<sup>(١)</sup>  
 وأن الأعشى كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد  
 وهما ملكا نجران ، ويقم عندهم ما شاء يستقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومى ،  
 وفى ذلك يقول لناقته :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تنأخى بأبوابها  
 نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها  
 وشاهدنا الجلل والياستين والمسمعات بقصائبها  
 وبربطنا دائماً معملاً فأى الثلاثة أزرى بها؟<sup>(٢)</sup>

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال فقال : إن القيان كن فارسيات أو  
 يونانيات من سورية ، وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية<sup>(٣)</sup> .  
 وهو فى هذا يتفق مع فون كريمز ، وإن ذهب فون كريمز إلى أنهن كن يغنين  
 بلسانهن اليونانى أو الفارسى<sup>(٤)</sup> .

وإنه لأدنى إلى الصواب أن نضيف إلى اليونانيات والفارسيات الحبشيات  
 أيضاً كما ذهب الدكتور بيرون Perron إذ قال فى كتابه عن النساء العربيات  
 إن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ولا شك أن أكثرهم من  
 الحبش ، لأن أكثر العبيد قبل الإسلام كانوا حبشاً أو زنجياً ، ولبس بعبيد أن  
 تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين<sup>(٥)</sup> . وسنتبين من  
 الفقرات المقبلة أن أكثر القيان كن غير عربيات .

(١) الأغانى ١٦/١٤ (٢) الأغانى ١٠٧/٩

(٣) الشعر الفنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤

(٤) Farmer. A. History of Arabian Music. P. 17

(٥) بلال داعى السماء ١٥٠ العقاد .

## غناؤهم بالشعر :

وقد تغنت القيان بالشعر العربي ، كما تغنين بلغاتهن ، ولا عجب في أن يسمع  
العربي غناء بلغة غير لغته ويطرب له ، لأنه يطرب للصوت واللحن ، ويعجب  
بجمال المغنية . فقد روى فيما بعد أن أبا تمام قد سمع غناء بخراسان بالفارسية ،  
فلم يدر ما هو ، غير أنه أشجاه فقال :

حدثك ليلة شرفت وطابت      أقام سهادها ومضى كراها  
سمعتُ بها غناء كان أولى      بأن يقتاد نفسي من عناها  
ومُسَمِّعةٍ يحار السمع فيها      ولم لا تُضَمِّمُهُ لا يُضَمِّمُ صداها  
مرت أوتارها فشجت وشاقت      فلم يَسْطِيعْ حاسدها فداها  
ولم أفهم معانيها ولكن      ورت كبدى فلم أجعل شجاها  
فكنت كأتى أعمى مُعَنًى      يحب الغانيات ولا يراها<sup>(١)</sup>

أما الدليل على غناء بعضهن بالشعر العربي فقول عبدة بن الطيب :

ثم اضطجعتُ كَمَيِّتًا قَرَفًا أَنْفًا      من طيب الراح واللذات تعليل  
مِرْفًا مِزاجًا وأحيانًا يُعَلِّلُنَا      شعر كَمُذْهَبَةِ السَّمان محمول  
تُذْرى حواشيه جِيدَاهُ آنَسَةٌ      في صوتها لسماع الشرب ترتيل  
تغدو علينا تُلْهِينَا ونُصَفِّدُهَا      تُلْقَى الْبُرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَابِيلُ<sup>(٢)</sup>

فهو يقرر أن القينة كانت تغنيهم بالشعر العربي الجيد .

ثم إنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من

(١) تهذيب الكامل ٣٤/٢ وزهر الآداب ١٣٧/٣ .

(٢) الفضليات ١٤٣/١ كميًا : خراً في لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربه  
برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجاً : خالصة وكانها ممزوجة بالماء  
لطيفها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التي تزوق بها السقوف . محمول :  
مروى ذائع لحنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشي أغانيها تعاريفاً وترجيماً . حواشيه :  
أطرافه . آنسة : منبذة . نصفدُها : نعطفها .

شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصاحه<sup>(١)</sup> .

وكانت سارة مولاة لبني عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله بالمدينة وأسلمت ، وشكت حاجتها ، وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان في غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء . فوصلها صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> ، وكانت هريرة وخليدة قينتين لبشرو بن عمرو ابن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب<sup>(٣)</sup> ، وهو غناء عربي صرف .

وقد تغنين بالشعر العربي في أغراض شتى ، فقد غنت جرادتاً عبد الله ابن جدعان قول أمية بن أبي الصلت في مدحه ، وأميه يسمع :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

(٤)

وتغنين بالهجاء أيضاً ، فإن خالد بن جعفر قال لقينة بالحيرة اجتمع عندها هو والحارث بن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

دار لهند والرباب وفررتنا ولميس قبل حوادث الأيام

وهن خالات الحارث ، فغضب الحارث<sup>(٥)</sup> .

وكان لابن خطل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبي ، فأمر النبي بقتلهما يوم الفتح . فأما قرينة فقتلت مصلوبة ، وأما فررتنا ففرت حتى استؤمن لها الرسول فأمنها فأمنت<sup>(٦)</sup> .

وكن يغنين وراء المحاربين ليلهين حماستهم ، فإن قريشاً كانت قد خرجت في غزوة بدر ومعها ثلاث قيان ، فأرسل أبوسفیان فردهن من الجحفة ،

(٢) إنسان العيون ٨٧/٣ .

(١) الأغاني ١٥٧/٩

(٤) الأغاني ٣/٨ .

(٣) الأغاني ٧٧/٨

(٦) تاريخ الطبري ١١٩/٣ وتاريخ الخميس ١٠٤/٢

(٥) الأغاني ١٧/١٠

والإصابة ١٦٦/٨

ثم خرجت قريش في أحد ومعها قيامها<sup>(١)</sup> .

وكان الرجل يستمع إلى الفناء ليشتجع ويثأر ، ذلك بأن الحارث بن ظالم اعتمر أن يقتل خالد بن جعفر ، فخرج إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى :

تَعَلَّمُ أبيت اللعن أنى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر

ثم مضى إليه فقتله<sup>(٢)</sup> .

وكن يغنين في المآدب ، فقد تحدث خارجة بن زيد فقال : دعينا إلى مادية في آل نبيط ، فحضرتها وحضرها حسان بن ثابت ، فجلسنا على مائدة واحدة ، فلما فرغنا من الطعام أتوا بخارتين إحداها رائقة والأخرى عزة ، فجلسنا وأخذنا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا بقول حسان :

انظر خليلي بباب جائق هل تبصر دون البقاء من أحد<sup>(٣)</sup>

وكن يغنين في الأعراس ، فقد كانت أرنب مغنية بالمدينة ، ولما تزوج بعض الأنصار قريية لعائشة قال لها النبي : أهديت عروسك ؟ قالت نعم . قال : فأرسلت معها بفناء ، فإبن الأنصار يحبونه ؟ قالت : لا . قال : فأدركيها بأرنب<sup>(٤)</sup> .

وكن يغنين للتسلية والتطريب غزلاً وغير غزل ، فقد خرج مسلم البخاري عن عائشة أنها قالت : دخل على أبوبكر وجاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما قالت الأنصار في يوم بعث . فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ؟ وكان ذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله : يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا . وخرج أبوداود والإمام أحمد بن حنبل عن اربيع بنت معوذ

(١) المغازي ٣٦ والسيرة الحلبية ١٥٥/٢ وتاريخ الطبري ٢/٢٧٦

(٢) الأغاني ٧/١٠ (٣) الأغاني ١٤/١٦ (٤) الإصابة ٨/٤ والعقد

ذلفريد ٢٣١/٣ والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٣٣ .

ابن عفراء أن النبي دخل عليها صبيحة زفافها ، فجعات جويزات يضربن بدف  
لحن ويندن من قتل من آبائها يوم بدر ، إلى أن قالت إحداهن : « وفيما نبي يعلم  
ما في الغد » فقال : دعى هذا وقولى الذى كنت تقولين ، أو قال لهما : أما هذا  
فلا تقولاه (١)

ومن هذا أن فتية من قریش اجتمعوا عند قبيلة من قيان المدينة ، ومعهم  
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فإذا بحسان يستأذن ، فسكرهوا دخوله ، وشق  
ذلك عليهم ، فقال لهم عبد الرحمن : أيسركم الآن مجلس ؟ قالوا نعم قال : مروها  
إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغنى :

أولاد جُمَّنَة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

ففعلت ، فبكى حسان حتى ظنوا أن نفسه سقطت (٢) .

وقد كان لحسان جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره ، وقد جلس يوما فى ظل  
حصنه وحوله أصحابه وهى تغنيه بمزهرها :

هل على ويحكم إن لموت من حرج

فمر النبي فسمع وضحك وقال : لا حرج إن شاء الله (٣) .

كذلك كان امرؤ القيس يأمر قيانة أن يغنيه بشعر مرة بن الرُّوَاع (٤) :

إن الخليط أجدَّ البين فادَّجوا وهم كذلك فى آثارهم تلجج (٥)

وغنت القيان أيضا بالأسواق ، وكان بدر موسماً من مواسم الجاهلية يجتمع  
به العرب ، ولهم به سوق ينحدر بها الأشراف الجزر ، ويطعمون الطعام ويشربون

(١) سنن أبى داود ١٩٧/٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٦٠/٦

(٢) الأغاني ١٦/١٦ (٢) الأغاني ١٦١/١٠

(٤) الرواع اسم أمه كما فى ترجمة أخيه فى معجم الشعراء للبرزباني وأبوه سلم بن عمرو  
وهو شاعر قديم من بنى أسد (٥) المؤتلف والمختلاف ١٢٧ تلجج : جمع لجة وهى الجماعة الكثيرة

الخمر ، وتعزف القيان لهم <sup>(١)</sup> .

### أثر غنائهم في النفوس :

كن يشجعن على الاستبسال وعلى المخاطرة والثار كما سبق ، وكن يلهين السامعين ويطربنهم ، يقول عبدة بن الطبيب إنهم كانوا يطربون فيخلعون عليها الخلع :

تغدو علينا تَهَيَّنَا ونُصَفِّدُهَا تَلَقَّى البرودُ عليها والسرائيل <sup>(٢)</sup>  
ويقول امرؤ القيس إن القينة كانت تفرج عنه همومه :

وإن أنسٍ مكروباً فيارب قينة منعمة أعلمتها بكران <sup>(٣)</sup>  
ويشتد الطرب بعبد يغوث فيشق رداءه :

وأنحر للشرب الكرام مطيتي وأصدع بين القينتين ردائيا <sup>(٤)</sup>  
فكان يعمل ما عمله من بعده عمر بن أبي ربيعة ، إذ كان يسمع جميلة فيشق رداءه إلى أسفله <sup>(٥)</sup> . وسمع يوما عزة الميلاء تغنى بشعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : أفيرك الجبل يا أبا الخطاب ، قال : إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي <sup>(٦)</sup> . ثم جاء بعدهما أحد الظرفاء في العصر العباسي ، وكانت له قينتان إحداهما مجيدة مطربة والأخرى مسيئة ، فكان إذا غنت المجيدة خرق قميصه ، وإذا غنت المسيئة قعد يخطئه <sup>(٧)</sup> . وقد سمع حسان غناء رائعة وعزة وعزفهما العجيب على مزهريهما ، فدمعت عيناه ، فإذا سكنتا ذهب بكأوه ، وإذا غنتا عاوده .

وكان الشراب كثيراً ما يصاحب الفناء ، لأن بين الخمر والفناء « مناسبة

(١) الممازى ٣٧ وتاريخ الطبري ٢/٢٧٦ (٢) المفضليات ١/١٤٣ .

(٣) الديوان ١٨٧ كران : عود (٤) المفضليات ١/١٥٦ .

(٥) الأغاني ٧/١٢٧ و ١٢٩ - ١٣٤ (٦) الأغاني ١٦/١٣ .

(٧) محاضرات الأدباء ١/٤٦٦ (٨) الأغاني ١٦/١٤ .

في أكثر الأحوال . . . ولهذا صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ .  
أزبد مما يحتمله حاله إذا لم يصنع إليه ، ويستمرىء الكثير مع سماعه ، وإن كان  
يثقل عليه قليلاً إذا خلا من استماعه «<sup>(١)</sup>» ، لذلك كان أعراب وادي القرى إذا  
ظفروا بشراب أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة حين تطير الموراشن  
والقواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتغريدها ، ويقيمون أصواتها  
مقام المزامير والأوتار<sup>(٢)</sup> .

هكذا كان يفعل الأعشى ، إذ يشرب الخمر ويسمع الغناء الرومي عند أساقفة  
نجران<sup>(٣)</sup> . وأمرؤ القيس كان يتنقل في أحياء العرب ومعه رفاقه ، فإذا صادف  
غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه كل يوم ، وخرج إلى الصيد ،  
ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانته<sup>(٤)</sup> .

ولقد تحدث الشعراء عن مصاحبة الخمر للغناء ، يقول لبيد إن القينة تعزف  
على العود بأنامها الطيبة وسامعوها يحسنون الخمر :

أغلى السَّباء بسكل أدكن عاتقٍ أو جَوْنَةٍ قُدَحَتْ وفُضَّ خِتَامُهَا  
بصَبوح صافية وجَدْب كَرِينَةٍ بِمُوتَرٍ تَأَنَّى لَهُ إِبْهَامُهَا<sup>(٥)</sup>

ويقول في رثاء النعمان :

لبيك على النعمان شَرَبٌ وَقِينَةٌ مُحْتَبَطَاتٌ كَالسَّعَالَى أَرَامِلُ<sup>(٦)</sup>

ويقول الأعشى :

(١) مطالع البدور ٢٣١/١ (٢) مطالع البدور ٢٦١/٢

(٣) الأغاني ١٣٥/١٠ (٤) الأغاني ٦٥/٨

(٥) شرح القصائد العشر للتبريزي ١٦٣ ولسان العرب ٥٤/١٨ السَّباء : شراء الخمر للشرب لا للبيع . أدكن : زق أغبر . عاتق : صفة للخمر أو للزق والعاتق الخالصة أو المعتقة أو التي لم تفتح . جونة : خاية مطلية بالقار . كرينة : مغنية . موتَر : له أوتار . تأَنَّى : له أي تطاوعه . وروى تأناً له بضم اللام أي تصاحبه

(٦) ديوان لبيد ٢٩ محبتطات : نائلات نعمة . السعالي : الغيلان



ورادعةً بالطيب صفراء عندنا      لجسّ الندامي في يد الدرع مَفْتَقُ  
إذا قلت غنى الشَّرْبِ قامت بمزهر      يكاد - إذا دارت له الكف - ينطق <sup>(١)</sup>  
وما زالت الخمر تلازم الغناء في كثير من الأحوال بعد العصر الجاهلي ، فمثلاً  
يقول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

فاصطبحننا بخمر عانة صِرْفَا      وهونا بقينية عَزَافه <sup>(٢)</sup>  
ويقول :

دَعَا إلى سُلَيْمَى وَالطَّلَاءِ وَقِينَةَ      وَكُنَّا أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا <sup>(٣)</sup>  
ويقول مالك بن أسماء ( ونسب إلى الوليد بن يزيد وربما زاد في شعر مالك ) :  
حبذا ليلتي بثلّ يُونَا      حيث نُسْقَى شرابنا ونَغْنَى  
من شراب كأنه دم جوف      يترك الشيخ والفتى مُرَجَحْنَا  
حيث دارت بنا الزجاجة درنا      يحسب الجاهلون أننا جُنُنَا  
ومررنا بنسوة عطرات      وسماع وقرقف فنزلنا <sup>(٤)</sup>  
وقد أولع الغزلون بالصوت فيه غنة ، وأولع الشاربون بصوت المغنية الأبح ،  
وقد يفخرون بأن البجة من أثر الخمر ، قال عبيد :

ويدت يفوح المسك من حجراته      تَسَدَّيْتُهُ من بين سرٍّ ومخطوب  
ومسمعة قد أصحَل الشُّربُ صوتها      تَأَوَّى إلى أوتار أجوف مَحْنُوب <sup>(٥)</sup>  
ويقول ثعلبة بن ضَعِير :

أَسَمِيَّ ما يدريك أن رب فتية      يبض الوجوه ذوى ندَى ومآثر

(١) ديوان الأعشى ١٤٧ وطبقات الشعراء ٣٦ تحقيق شاكر رادعة بالطيب : مطبوعة  
بالزعفران . مفتق : شق وفتحه .

(٢) الأغاني ١٠٥/٦ (٣) الأغاني ١٣٤/٦ (٤) ديوان الوليد ٥٦

وسقط اللآلئ ١٥/١ والأشربة ٧٨ مخطوط . قرقف . قرقف : خر تصيب شاربها برعدة  
(٥) الديوان القصيدة ٩ محبوب : مقوس وأراد العود . تأوى : تعطف وترقى وربما  
كانت معرفة عن تأنى بمعنى تترقى

فقصرت يومهم برنة شارف وسماع مدجنة وجدوى جازر<sup>(١)</sup>  
ويقول بُرج بن مُسهر الطائي :

وفينا مُسمعات عند شربٍ وغزلانٍ يُعَلِّدُ لها الحميم<sup>(٢)</sup>  
ولقد تشرب كما يشربون فتطرب أيتا طرب ، يقول الأعشى :

وصدوح إذا يهيجها الشرب ترقّت في مزهر مندوف<sup>(٣)</sup>  
هذا إذا قرأنا ( الشرب ) بضم الشين . فإذا قرأناها بفتح الشين كان المعنى  
أن الشاربين يهيجونها باستحسانهم على أنى لم أجد في العصر الجاهلي نساء  
يشربن الخمر .

وإلى ذلك يعرض عبد المسيح بن عساة أو أخوه حرملة<sup>(٤)</sup> ، وليبيد<sup>(٥)</sup> ،  
وعبدة بن الطبيب<sup>(٦)</sup> .

بجمال الفبار وعفرون :

كثيراً ما ازدهى الشعراء بجمال قيسانهم ، فوصفوا محاسن أجسادهن ،  
ورخامة أصواتهن ، ولباقة حركاتهن .

يقول سلامة بن جندل إن مغنيتهم رخصة بضة حوراء العين مفاجأة الأسنان عفيفة :

وعندنا قينة يبضاء ناعمسة مثل المهيأة من الحور الخرايعب  
تُجرى السواك على غرٍّ مفاجئة لم يغرّدها دَنَسٌ تحت الجلايب<sup>(٧)</sup>

(١) المفضليات ١٢٨/١ رنة شارف : صوت الناقة المسنة عند نحرها . سماع مدجنة :  
سماع مغنية في يوم دجن . جدوى جازر : ما يقدم لهم من أطايب اللحم  
(٢) شرح الحماسة للبريزي ١٣٧/٣ الحميم : الماء الحار يستحم به  
(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ . ترقّت : تصدّت في غناها . مندوف : مضروب  
على أوتاره (٤) المفضليات ٧٩/٢ والموتلف والمختل ١٥٧  
(٥) ديوان لبيد ٣١ (٦) المفضليات ١٤٣/١

(١) المفضليات ١١٨/١ المهاة : البقرة الوحشية . الخرايعب : جمع خرعوب وهي الشابة  
الحسنة القوام الرخصة اللينة . غر : أسنان يبيس . لم يغرّدها : لم ياصق بها

ويقول طرفة إن قينتهم تسمعهم الغناء وهي لابسـة ثوباً مزعفرأً واسع الصدر ، وإنيها حاذقة تلبى رغبات السامعين والنشأوى ، وهي بضـة الجسد ، تغنى في غير تسكف أو إجهاد ، لأنها مطبوعة ماهرة ، ويزيدها جمالا تفتـر عينيها . وتسكـشـر نظراتها ، وإن صوتها لخلو مطرب فيه حنين وشجا :

ندامى يبص كالنجوم وقينة تروح علينا بين برود ونجسد  
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة نجس الندامى بضـة المتجرد  
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رساها مطروفة لم تشدد  
إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على رُبـع ردى<sup>(١)</sup>  
على أنهن كن يحدن الزينة ، وليس من المصادفات أن تكون كلمة التقيـن دالة على التزين<sup>(٢)</sup> . يقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعرفن بالدف لفتياننا وعيشاً رخياً  
يتبارين في النعيم ويضئبن خلال القرون مسكاً ذكياً  
إنما همهن أن يتحلين سموطاً وسُنبلًا فارسياً  
من سموط المرجان فُصل بالدر فأحسن بحلـين حُلـياً<sup>(٣)</sup>  
فليس بعجيب أن يعشقوهن ، وعشقهـن عفيف لأنه نابع من عدة حواس .  
« ولأنهن يجمعن للإنسان من اللذات مالا يجتمع في شيء على وجه الأرض .  
واللذات كلها إنما تكون بالحواس . والمأكول والمشروب حظ حاسة الذوق ،  
ولا يشركها فيه غيرها ، فلوأ كل الإنسان المسك الذى هو حظ الأنف وجده

(١) ديوان طرفة ٢٨ مجسد : ثوب مصبوغ بالفساد وهو الزعفران أو هو الثوب الذى بلى الجسد . جس الندامى : ما يطلبونه من غنائها . رفيقة : حاذقة . مطروفة : ساكنة الطرف . على رساها : فى تؤدة . أظآر : مراضم . ربع : فصل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ردى : هالك .  
(٢) لسان العرب ١٧/٢٣١ والقاموس المحيط مادة قين  
(٣) الأغاني ٩/١٦٤ سموط : قلاند . سنبل : نبات طيب الرائحة .

بشعاً واستقذره . . . فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس ،  
وصار القلب لها رابعاً ، فللعين النظر إلى القينة الحسناء ، وللسمع منها حظ الذي  
لامثونة عليه ، ولا تطرب آلتها إلا إليه ، وللمس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواد  
للقلب وشهود عنده ...»<sup>(١)</sup>

وقد أسلفت حب بعض الشعراء لمن كالأعشى وامرئ القيس .  
فإذا ما اجتزنا العصر الجاهلي إلى الأموي والعباسي وجدنا اشتهاً بعشق  
المغنيات ، إذ شاع اقتناؤهن واقتناء الإمامة ، والاستمتاع بهن في عصر  
فاضت فيه الأموال بأيدي العرب ، وجنحوا إلى الترف واللذة والمجانة ، فتضاءلت  
الأخلاق العربية البدوية ، حتى لقد ظهر جماعة من الخنثين يصلون ما بين الرجال  
والنساء ، وجماعة من النساء يسفرن بالرسائل ويمهدن للقاء ، ويفرين النساء  
ويصلحن العتب بانتحال الأعذار ، كهؤلاء اللاتي سفرن بين عمر بن أبي ربيعة  
وعشيقاته ، وهو يصف إحداهن بقوله :

فانتها طَبَّةٌ عالمةً      تخلط الجد مراراً باللعب  
تُقاطِ القول إذا لانت لها      وتُراخي عند سَوَّرات الغضب  
لم تزل تصرفها عن رأيها      وتأنَّها برفق وأدب  
أَنَّ كَفِّيَّ لك رهنٌ بالرضا      فاقبلي يا هند قالت : قد وجب  
ولما أنشد ابن أبي عتيق هذه القصيدة قال له : الناس يطلبون خليفة في صفة  
قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه<sup>(٢)</sup> . ويقول أيضاً :

فبعثت كاتمة الحديث      رفيقة بجوابها  
وحشية إنسية      خراجة من بابها  
فَرَقَتْ فسَهَّلت المعام      رضاً من سبيل تقابها<sup>(٣)</sup>

(١) رسالة القيان للجاحظ ٦٩ (٢) الأغاني ٥٧/١

(٣) الأغاني ٦٠/١

وبلغ من حب يزيد بن معاوية لخبابة أنه كان لا يعصى لها رجاء ، وكان يخرج عن الوقار إذا سمعها<sup>(١)</sup> . ولم يكن وحده المفتون بها ، فإن كثيراً كانوا يشركونه في ذلك ، حتى إنه لما اشتراها وهو أمير وأراد الخروج بها قال الحارث ابن خالد :

قد سأل جسمي وقد أودى به سقمٌ من أجل حيٍّ خلوا عن بلدة الحرم  
يحسن قلبي إليها حين أذكرها وما تذكرتُ شوقاً أب من أمم  
وقال فيها الشعراء فأكثرُوا ، وغنى أشعارهم المغنون بمكة والمدينة<sup>(٢)</sup> .

### أثر الفجار في الشعر :

١ — تغنى الشعراء بشعرهم ، وتغنت القيان بشعر الشعراء ، ولم تعرف أن العرب تغنوا بالنثر .

وأرجح أن الغناء بالشعر كان عظيم الأثر في أوزانه وتطورها ، وإذا فقمنا كان للقيان نصيب في هذا التطور أسهم به مع الرجال . وقد ذهب أبو حيان التوحيدى فيما رواه عن مسكويه إلى ما يعزز هذا ، في قوله :

« ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزاناً لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن في ذوقنا ، وهى عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش :

لابنة عجلان بالظف رسوم لم يتعفين والعهد قديم

وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان ما يكون عند المطبوعين منكسوراً ، وهى صحيحة . والسبب فى جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغمات يستعملونها فى مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا لانعرف تلك النغمات ،

فإذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن في طباعنا ....» (١) .

وقد سبق أن العرب كانوا يغنون بشعرهم ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزنون شعرهم بالغناء ، قال حسان بن ثابت :

تغن في كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار (٢)

٢ — وكانت القيان أكثر غناء بالشعر من الشعراء أنفسهم ، والشعراء يسمعونهم ويطربون لهم ، فهم يحدون شعرهم ويتخيرون وزنه سهلاً للتلحين والترجيع ، وهم إذا ما سمعوه يغنى تنبهوا إلى ما قد يكون فيه من عيب في الوزن أو القافية . من ذلك أن النابغة أقوى في قصيدته التي مطلعها :

أمن آل مية رائح أو معتد عجلان ذا زاد وغير مزود  
فقدم المدينة فعيب عليه ذلك ، فلم يأبه له ، فقالوا للجارية : غنيه هذه القصيدة ، فإذا صرت إلى قوله :

زعم الأحبة أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود  
فرتلى . فلما سمعها انتبه ، وأصاح إقواءه ، ولم يعد إليه ، وقال : قدمت يثرب وفي شعري شيء ، وخرجت وأنا أشعر الناس (٣) .

٣ — فلم يكن عجباً أن تقوى الوشيحة بين الشعراء والقيان في العصر الجاهلي ، فلعبد الله بن جعدان قينتان (٤) ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان (٥) ولسلامة بن جندل قينة (٦) ، ولطرفة قينة (٧) ، وكذلك لعمر بن الإطنابة (٨) ،

(١) الهوامل والشوامل ٢٨٢ لأبي حيان النوحيدى ومسكويه .

(٢) الموشح ٤٠ وفي أساس البلاغة : تغن بالشعر إما كنت ذا بصر . ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح ، لأن المضمار الموضع الذي تضر فيه الخيل

(٣) الموشح ٣٩ وطبقات الشعراء ٥٦ والشرط الثاني بعد الإصلاح : وبذاك تنعاب الغراب الأسود (٤) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغاني ٣/٨

(٥) الأغاني ٧٧/٨ (٦) المفضليات ١١٨/١

(٧) ديوان طرفة ٢٨ (٨) الأغاني ١٦٤/٩

( ٣٧ — المرأة في الشعر الجاهلي )

والمعبدة بن الطيب<sup>(١)</sup> ، ولعبد يغوث<sup>(٢)</sup> ، ولامرىء القيس قيان يغنيته في تنقله  
ورحلاته للمصيد والدم<sup>(٣)</sup> ، ولأحيحة بن الجلاح قينة تغنيه بشعره<sup>(٤)</sup> .

ثم قويت اللحمة بين الشعراء والمغنين والمغنيات في العصر الأموي والعباسي ،  
فالغريض وابن سريج يرافقان عمر بن أبي ربيعة ويغنيانه بشعره ، ويذيعان  
غناءهما وشعره في الناس ، حتى لقد قالوا : إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء  
ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك ترقصه<sup>(٥)</sup> . وكان الإعجاب متبادلا  
بينه وبين جميلة ، يعجب بغنائها وتعجب بشعره فتغنيه ، حتى لقد يشق قيضه  
إلى أسفله<sup>(٦)</sup> ، وكذلك غنى ابن سريج بشعر عمر على مسمع منه ومن جميلة<sup>(٧)</sup> ،  
وتغنى بشعر الأحوص<sup>(٨)</sup> .

ويكفي للدلالة على إعزاز الشعراء للمغنيات أن جميلة لما خرجت إلى الحج  
ودعها إلى مكة كثير من المغنين والمغنيات ، وودعها من الشعراء ابن أبي عتيق  
والأحوص وكثير عزة ونصيب وجماعة من الأشراف ، وتلقاها بمكة عمر بن  
أبي ربيعة والعرجي والحارث بن خالد الخزومي . فلما حجت قال عمر : أقسمت  
على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج ،  
فخرجوا فساكن في موكبها من رافقوها من المدينة إلى مكة ، ومن خرجوا معهم  
من مكة إلى المدينة<sup>(٩)</sup> .

#### هبة الفياره :

كان الملوك والموسرون لا يستأثرون بالإماء ، بل يشركون معهم غيرهم في  
سماعهن ، وكانوا يهينهن أحيانا .

- |                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (١) المفضيات ١٤٣/١            | (٢) المفضيات ١٥٦/١                  |
| (٣) الأغاني ٦٥/٨ والديوان ١٨٧ | (٤) الأغاني ١١٥/١٣                  |
| (٥) الأغاني ١٠٩/١             | (٦) الأغاني ١٢٧/٧ - ١٢٨ و ١٢٩ - ١٣٤ |
| (٧) الأغاني ١٢٩/٧             | (٨) الأغاني ١١٤/١                   |
| (٩) الأغاني ١٢٧/٧             |                                     |

قال الأعشى في مدح مسروق بن وائل :

الواهب القيناتِ كالفرزِ لان في عُقد الخِمالِ  
يركُضْنَ كلَّ عشية عَصَبَ المَرِيشِ والمَراجلِ<sup>(١)</sup>  
وقال :

هو الواهب المسمعات الشُّرو بَ بينَ الحريرِ وبينَ الكَتَنِ<sup>(٢)</sup>  
وقال في مدح الأسود بن المنذر الاعمى أخى النعمان بن المنذر أو في مدح  
المنذر بن الأسود :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجِراجِرَ كالبُسْتانِ تَحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفالِ  
والبغايا يركُضْنَ أ كسِيَّةَ الإضْريجِ والشَّرْعِيَّ ذَا الأذْيالِ<sup>(٣)</sup>  
وكانت لعبد الله بن جعدان قينتان ، وكان سيداً جواداً ، فرأى أمية بن  
أبي الصلت ينظر إليهما وهو عنده ، فوهبه إحداهما ، فلما انصرف لأمه الناس  
على أخذها وعبد الله عليل ، فعاد ليردها ، ومدحه ، فوهب له الثانية أيضاً<sup>(٤)</sup> .  
وكن يسبين أيضاً ، فقد أغار ضرار بن عمرو على كلب بن وبرة فغنم وسبي ،  
وكانت في السبي قينة لعمرو بن ثعلبة اسمها الرائقة ، وبنت لها اسمها سلمى<sup>(٥)</sup> . وقد  
سبق أن السابي كان يتجربى الحرائر ، وأنهن كن يتظاهرن بأنهن إماء حتى  
لايسبين ، ولسكن القيان سبين ؛ لأنهن غنيمة نفيسة .

(١) ديوان الأعشى ٢٢١ يركضن : يحركن . المريش : البرد الموشى المراحل : جم  
مرجل وهو إزار من خز فيه علم أو فيه صور الرجال .

(٢) اللسان ١٧/٢٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . السكتن : الكتان

(٣) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ٨٣/١٨ دردق : صغار . الجلة الجراجر :  
الإبل المسنة الضخام . البغايا . الإماء . الإضريج : خز أصفر أو أحمر . الشرعي : نوع  
من البرود (٤) الأغاني ٢/٨ والحجر ١٣٨ وأوائل الأوائل ٢٧٠ مخطوط .

(٥) بجم الأمثال ١/١٢١



## أثر الغناء لأجنبي في العربي :

١ - أسلفت أن العرب قد اتصلوا بالفرس والروم ، وبينت مناحي التأثير بهم . وهم قد اختلطوا بالأحباش أيضاً وتأثروا بهم <sup>(١)</sup> .

(١) اختلاطهم بالحيش يرجع إلى ما قبل الميلاد . ذلك بأنه في العهد الأول للدولة الحميرية الأولى ( ١١٥ ق م — ٣٠٠ م ) نزلت جموع من العرب إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دولة أكسوم الحبشية في القرن الأول الميلادي ( تاريخ العرب ٦٥ فيليب حتى ) وفي القرن الأول قبل الميلاد تدخل الحيش في شؤون الملك العربي باليمن ، ثم اتخذوا لهم مستعمرة في الجنوب الغربي من بلاد اليمن واستقرت بها جاليات حبشية ( بين الحبشة والعرب ، عبدالحيد عابدين ٢٣ - ٣٦ ) وفي نهاية القرن الثالث بعد الميلاد عاودوا الاحتكاك . وحكموها إلى القرن الرابع The Bach ground of Islam P. 123 Glasser ثم عادوا ففتحوها في القرن الخامس ( ٤٨٠ م ) وولوا على اليمن أميراً نصرانياً لكنه لم يعيش طويلاً ، فلما مات انتهر اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكاً يهودياً هو ذو نوس ( بين الحبشة والعرب ٤٥ - ٤٧ ) وحوالي ٥٢٣ م كانت حملة أرياط أو أبرهة ، وكان الاستعمار الحبشي الأخير ، وأقام أبرهة باليمن ، وأصاح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز فكانت غزوة الفيل ( تاريخ الطبري ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢ )

والمؤرخون مختلفون في زمن هذه الغزوة اختلافاً يجعل بدءها من ٥٠٠ إلى ٥٧٠ م بناء على اختلافهم في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنسان العيون ١/٦٥) وكثير من الباحثين يرجعون أنها كانت حوالي ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان في ٥٧٠ م ويحملون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم أبرهة وحكم يكسوم ومسروق ابني أبرهة ( بين الحبشة والعرب ٦٥ ) ومهما يكن من شيء فقد كان حكم الحبشة لليمن منذ دخولها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأجلوا الأحباش عنها اثنتين وسبعين سنة كما يذكر الطبري ( تاريخ الطبري ١١٥/٢ ) ومعنى هذا أن الغزوة بدأت في مستهل القرن الخامس . ولسكننا إذا سلطنا بأنها بدأت سنة ٥٢٣ م وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعد يكسوم ١٩ سنة ثم مسروق ١٢ سنة ( بين الحبشة والعرب ٦٧ ) كان عمر هذا الاستعمار ثنتين وخمسين سنة لا اثنتين وسبعين ، على أن العرب كانوا على صلة بالأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من الحكم والاستعمار ، أقصد التجارة ، فكان التينونيون والقرشيون يختلفون إلى هناك متاجرين كما يختلفوا إلى الشام وفارس والعراق ( تاريخ الطبري ١٨٠/٢ وجمع الأمثال ٦٦/٢ ) فسكنت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً ( الأغاني ٥٠/٨ ) وبسبب أن يرى أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية ، وأحباش يرفعون مصالح قومهم التجارية ( بحر الإسلام ١٥ ) ومن مظاهر هذا الاتصال الودي أن كانت أول هجرة المسلمين الأوليين إلى الحبشة ( سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ - ٣٦١ ) ثم إن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشاً ، وكثيراً ما تزوج العرب بمحبيات أوسود ( عيون الأخبار ٤٠/٤ ) ورسالة فخر السودان من مجموع رسائل الملاحظ ٧٥ والأغاني ١٤١ و ١٦/١٣٥ و ١٨/١٣٣ و ٢٠/٢٠ والخبر ٣٠٦ - ٣٠٩ والشعر والشعراء ١٢٢ و ١٣٤ والإصابة ٢٧/٧ و ٢١٢ )

وهذا الاتصال بالأحباش والفرس والرومان كانت له آثار في الغناء .  
وقد علمنا أن أكثر القيان كن غير عربيات ، سواء تغنين بالشعر العربي أم بلغاتهن ، وليس ببعيد أن تكون القيتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين كما ظن الدكتور بيرون Berrou<sup>(١)</sup> . ونحن نعلم أن أكثر المغنين في الإسلام كانوا غير عرب مثل سعيد بن مسجع المغنى ، فقد كان مولى أسود<sup>(٢)</sup> وابن محرز كان مولى فارسياً<sup>(٣)</sup> ، وسائب خاثر كان مولى من الفرس أيضاً<sup>(٤)</sup> .  
ونجد في اللغة كلمة الدَّرْقَلَة أو الدَّرْكَلَة تدل على ضرب من الرقص الحبشى<sup>(٥)</sup> وكان الأحباش كلفين بالرقص واللعب بالحراب في الحافل والأعياد في الجاهلية والإسلام ، والعلاقة وثيقة بين الرقص والغناء والموسيقى .  
وإذا ما رجعنا إلى الآلات الموسيقية التي ذكرها الشعراء في الجاهلية - كما سيجىء - وجدنا أكثرها أجنبية عن العرب .  
فكلمة قَنَين حبشية ، وقد جاءت في الحديث : إن الله حرم الخمر والسكوبة ( الطبل ) والقنين<sup>(٦)</sup> . والطنبور كلمة فارسية أصابها من كلمة ( دنبه بَر ) ومعناها إلية الحمل<sup>(٧)</sup> .  
وابتربط هو العود أعجمى ليس من ملامهى العرب ، وفي التهذيب أنه من ملامهى الفرس ، شبه بصدر البط ، والصدر بالفارسية بَر ، فقليل بربط<sup>(٨)</sup> .  
والوَن الصنج الذى يضرب بالأصابع ، وهو الوَنَج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم<sup>(٩)</sup> .

(٢) الأغاني ٣/ ٨١

(١) بلال داعى السماء ١٥٠

(٤) الأغاني ٧/ ١٧٩

(٣) الأغاني ١/ ١٤٥

(٥) لسان العرب والقاموس مادة درقل (٦) لسان العرب مادة قنن

(٧) لسان العرب والقاموس مادة طنبور وفرهنك نفيسى و steingass

(٨) لسان العرب والقاموس المحيط مادة بربط

(٩) لسان العرب مادة ون

والصنج هو الآلة المصنوعة من صُفَرُ أعجمي معرب<sup>(١)</sup> .  
 والوَنج هو المعزف وهو المزهر والعود ، وقيل نوع من الصنج ، فارسي معرب .  
 أصله وَنَهَ ونطقه العرب الْوَنَ<sup>(٢)</sup> .  
 والبَمّ الوتر الغليظ من أوتار المزهر ، أعجمي<sup>(٣)</sup> ، ومُسْتَقْ صيني آلة يضرب .  
 عليها معرب ، ذكر الضبي أن الكلمة فارسية أصلها مُشْتَهَ صيني أى يؤخذ  
 باليدين<sup>(٤)</sup> ، وفي القاموس مُسْتَقَّة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج  
 ونحوه ، معرب<sup>(٥)</sup> .  
 أما كلمة دُف وكران وعود ومِزْهَرُ فعربية الأصل<sup>(٦)</sup> ، وقد نقاها الفرس  
 عن العرب<sup>(٧)</sup> .  
 ٢ - وإذا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسي والرومي والحبشي منذ  
 الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء هذه الآلات الأجنبية قبل أن  
 يبرز الإسلام ، ومن أن الغناء الرومي والفارسي كان معروفا لهم في الشام كما ذكر  
 حسان<sup>(٨)</sup> ، وفي نجران كما ذكر الأعشى<sup>(٩)</sup> . وكان الحارث بن كلدة قد تعلم  
 ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها<sup>(١٠)</sup> ، ثم سافر ابنه النضر كما  
 سافر أبوه ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، وتعلم من أبيه الطب  
 وغيره<sup>(١١)</sup> .

أليس من حقنا أن نصحيح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب في فهمه مذهبا

(١) لسان العرب والقاموس . مادة صنج وصرح

(٢) لسان العرب والقاموس مادة ونج (٣) لسان العرب مادة بم

(٤) الملاحى للأضي ٢١ مخطوط (٥) القاموس المحيط مادة ستوق .

(٦) لسان العرب والقاموس مواد السمكيات (٧) المعجم في اللغة الفارسية ..

(٨) الأغاني ١٦/١٢ هنداوى وميم stlengass

(٩) المعاني الكبير لابن قتيبة ٤٦٨/١ والأغاني ١٥٧/٩

(١٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١

(١١) عيون الأنباء ١١٣/١

آخر؟ فهو يذكر أن سعيد بن مسجع المكي الأسود المغني أول من نقل غناء  
الفرس إلى العرب ، وأنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية  
والأسطوخوسية ، وانتقل إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم  
الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغمات  
الموجودة في غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ،  
فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده <sup>(١)</sup> .

وذكر في رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ،  
فسمع غنائهم بالفارسية فقامه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن سريج  
والقريظ <sup>(٢)</sup> . ويقول إنه كان مولى أسود <sup>(٣)</sup> ، وكذلك كان ابن سريج <sup>(٤)</sup> .  
وفي رواية ثالثة أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية ، فأخذ  
ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربي ، ثم صاغ على نحوها <sup>(٥)</sup> .

وهذه الروايات وإن اختلفت في ظروف نقل ابن مسجع للغناء تتفق مع  
الروايات الأخرى التي ذكرها أبو الفرج أن ابن مسجع أول من نقل الغناء الفارسي  
إلى العربي .

ثم إن أبا الفرج ذكر في موضع آخر أن ابن مُحَرِّز — مسلم أو عبد الله —  
كان أبوه من سدة السكبة ، أصله من الفرس — كان يسكن المدينة مرة ومكة  
مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم العزف من عزة الغيلاء ، ثم يرجع  
إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغنائهم ،  
ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم وغنائهم . وقد أسقط من ذلك ما لا يستحسن  
من نغم الفرس والروم ، وأخذ محاسنه ومزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني  
التي صنعها في أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب .

(١) الأغاني ٨١/٣ (٢) الأغاني ٨١/٣ و ٨٢  
(٣) الأغاني ٨٢/٣ (٤) الأغاني ٨٢/٣ (٥) الأغاني ٨٤ ٣

وهو الذى ابتكر غناء الزمل، ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله، لأن ابن سَلَام أول من غنى رملاً بالفارسية أيام الرشيد محاكياً لابن محرز وهو تلميذه<sup>(١)</sup>.

وذكر مرة ثالثة أن سائب خاثر - الفارسي الأصل - أول من عمل العود بالمدينة وغنى به، وأن عبد الله بن عامر سيده كان قد اشترى إماء نائحات وأتى بهن المدينة، فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه، ويسمع الناس منهن، ثم قدم رجل فارسي اسمه نَشِيط فغنى، فأعجب به عبدالله، فقال له سائب خاثر: أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسي بالعربية، ثم غدا عليه وقد صنع: «لن الديار رسومها قفر....».

وهو أول صوت غنى به في الإسلام من الغناء العربي المتفق الصنعة. ثم اشترى عبد الله نَشِيطاً، فأخذ عن سائب الغناء العربي، كما أخذ عنه ابن سُرَيْج وجهيلة ومَعْبَد وعزة الميلاء وغيرهم. وسائب هو أستاذ معبد، وكثير من أصواته منجولة إلى معبد<sup>(٢)</sup>.

وذكر في رواية رابعة أن طُوَيْس مولى بنى مخزوم أول من غنى الغناء المتقن من الخنثين، وأنه أول من صنع المزج والرمز في الإسلام<sup>(٣)</sup> وكان في عهد عثمان ابن عفان، وقد علم ابن سُرَيْج والدلال ونومة الضحا. ويتفق ابن عبد ربه وابن شاعر مع أبي الفرج في أنه أول من غنى الغناء الرقيق في الإسلام<sup>(٤)</sup>.

ثم قفنا بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج، فذهب خدابخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب في الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا، وعلّموا العرب الغناء على نعمات الدف والناي والطنبور

(٢) الأغاني ٧/١٧٩

(١) الأغاني ١/١٤٥

(٤) العقد الفريد ٣/١٨٦ وفوات الوفيات ١/١٩٧

(٣) الأغاني ٤/٣٨

والعود<sup>(١)</sup> .

والذى لاحظته على روايات أبى الفرج أنها لا تلتقى عند شخص معين يضح  
أن ننسب إليه السبق فى إدخال الغناء الفارسى أو العربى ، فهو مرة ابن مسجح ،  
ومرة بن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نسيط ، وخامسة طويس .

ولست أذهب إلى إنكار أثر الغناء الفارسى والرومى فى العربى ، بل إنى  
أؤكد أنه رفده ومده ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء كان لهم فضل فى تطويره  
وتجديده ورفده بالغناء الأجنبى ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب  
كما أسلفت - عرفوا هذا الغناء من قبل ، وأطربتهم به قيامهم ، وتحدثوا عن  
آلات الموسيقى فارسىة ورومىة وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .  
ولست أشك فى أن الغناء شق طريقه نحو الرقى والكمال بعد اتصال المسلمين  
بالفرس والروم وغيرهم ، وصارفنار فروعاً يختص به ذوو اللّهوات الخنوع ، والأذواق  
العالية ، والحس المرهف من نساء ورجال .

وقد بدأ ذلك منذ صدر الإسلام ، إذ انتشر الغناء وذاع واتخذ طرباً  
ومسابقة فيما لم يكن من قبل . يدل على هذا أن زيد بن ثابت الأنصارى ختن  
بنته فأولم ، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر حسان  
ابن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه ، فلما أكلوا ضربت عزة الميلاء  
على مزهرها وغنت بقول حسان .

فلا زال قبر بين بَصْرَى وجَلْقَ عليه من الوسمى جَوْدٌ ووابل  
فطرب حسان وبكى . وقيل لخارجة بن زيد : أكان يكون هذا الغناء  
عندكم ؟ قال : فى الأعراس ، ولم يكن يشهد بما يشهد به اليوم من السعة<sup>(٢)</sup> .

(١) مقدمة خدابخش لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريمر ٢٥

(٢) الأغاني ١٦/١٣ جود : مطر غزير

ويدل على هذا أيضاً أن ابن رشيق ذكر أنواع الغناء العربي من نصب وسناد وهزج ، ثم نقل عن إسحاق الموصلي أن هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الإسلام وفتحت العراق وجلب الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء الجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير<sup>(١)</sup>.

على أن بعض البدو ظنوا يجهلون آلات الموسيقى الدخيلة إلى العصر العباسي، فإن ناهض بن ثومة بن نصيح الشاعر الفارس كان بدوياً جافياً كأنه من الوحش ، وقد انتجع الشام في العصر العباسي فقصص صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية بحلب ، فرأى عرساً ، فتحدث بما رأى حديثاً طريفاً ، يهمننا منه دهشته مما رأى من آلات الموسيقى ، وتصويره الطريف لأصواتها ، كقوله : « جاء شاب بخشبة عينها في صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك أذانها وحركها في يده ، فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هي أحسن قيمة رأيته قط ، وغنى عليها فأطربني حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبي أنت وأمي ماهذه الدابة ؟ فقلت أعرفها للأعراب ، وما أراها خاقت إلا قريباً . فقال : هذا البربط . فقلت فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزير . قلت : فالذي يليه . قال : المثنى . قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث . قلت : فالأعلى ؟ قال : البم . فقلت آمنت بالله أولاً ، وبك ثانياً ، والبربط ثالثاً ، والبنم رابعاً<sup>(٢)</sup> » .

### الآلات الموسيقية .

لم تكن القيان يغنين معتمدات على الصوت وحده ، فقد ذكر الشعراء أسماء الآلات الموسيقية التي كن يعزفن عليها .  
ومن هذه الآلات الدف وهو ( الطار ) قال عمرو بن الإطنابة :





بصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأناله إيهامها<sup>(١)</sup>  
وسماه كعب بن زهير المكبل :

ورنة هتاف العشى مكبل ينارعه الأوتار من ليس راميا  
تنارعه مثل الملهاة رفيقة بنحس الندامى تترك اللب رانيا<sup>(٢)</sup>  
وسموا أوتار العود محابض واحدها محبض ، وهى الشرع أيضاً مفردها  
شريعة ، قال تميم بن أبى بن مقبل :

صدحت لما جيداه تركض ساقها عند التجار مجامع الخلال  
فضلاً ينارعه المحابض رجعها بأخذ لا صحل ولا مصحل<sup>(٣)</sup>  
وذكروا الصنج أيضاً ، قال الأعشى إن الصنج يترنم استجابة للمزهر ،  
وكأنما يبكي بكاء الحزين مخافة أن يلام :

ومزهرنا دائماً معمل فأي الثلاثة أذى بها  
ترى الصنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يدعى بها<sup>(٤)</sup>  
وقال إن العود يجيب الصنج وينجابه :

ومستجيب تحال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل<sup>(٥)</sup>  
وفى لسان العرب أن الكرينة المغنية الضاربة على الكران وهو العود  
أو الصنج ، والكثارة نحو منه<sup>(٦)</sup> ، قال لبيد :

(١) الملامى للضى ٥٣٣ مخطوط وشرح القصائد العشر ١٦٣ والمعاني الكبير ١/٦٦٩  
وشرح العلاقات السبع لابن الأنبارى ١١٤ مخطوط . تأناله : تصلحه وتسوسه . وفى لسان  
العرب تأنى له أى تطاوعه (٢) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٧٠ ب : لبيب

(٣) الملامى للضى ٥٣٣ تركض ساقها مجامع الخلال : ترفع ساقها ذيلها . التجار  
الجارون . فضل : فى ثوب بذلة . أخذ : ضامر . معنى العود . الصحل والمصحل . الأبع

(٤) ديوان الأعشى ١٧٣ والمعاني الكبير ١/٦٨٤ ولسان العرب مادة صنج . الصنج .  
دوائر صفار من النحاس تعلق بالأصابع وتنقر الراقصة عليها .

(٥) ديوان الأعشى ٤٦ مستجيب : عود (٦) لسان العرب ١٧/٢٣٨

صَعْلٌ كسافلة القناة وَظِيفُهُ وَكَأَنَّ جُؤْجُؤَهُ صَفِيحَ كِرَانٍ<sup>(١)</sup>  
 وقد وصف الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة الطائى أوقيس بن معد يكرب  
 مجلسَ شراب وندامى وغناء بقوله :  
 وَمُسْتَقُّ صِينِيٍّ وَوَنٌّ وَبَرَّ بَطٌّ يَجَاوِبُهُ صَنْجٌ إِذَا مَا تَرَنَّمَا<sup>(٢)</sup>  
 وهذه الآلات قد بقيت إلى العصر الأموى ، وعزفت القيان عليها ، مثل  
 سيرين وسلمى وجميلة وعزة الميلاء ورائقة<sup>(٣)</sup> .

---

(١) اللسان مادة كرن (٢) الملاحى للضى ٢١ مخطوط . المستك : آلة يضرب  
 عليها معرب . اللون : آلة طرب معرب . البربط : العود أو الزهر معرب . وذكر أن كلمة  
 مستق صيني أى يؤخذ باليدى وفى القاموس مستق بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج  
 ونحوه ، معرب .  
 (٣) الأغاني ٢/١٦

## الفصل الثاني

# المرأة راوية للشعر وناقدة

١ - كان الشعر يذيع ويتخطى الآفاق والنجاد والقيافى بالرواية ، وكان يرويه جيل بعد جيل ، ويحفظه الرجال كما يحفظون الأنساب والوقائع . فهل روت المرأة الشعر؟ نعم ، فقد قدمت على النبي الفارعة بنت أبي الصلت أخت أمية بعد فتح الطائف ، فقال لها : هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره ، وأنشدته شعره الذى أوله :

باتت همومى تسرى طوارقها أكفّ عيني والدمع سابقها  
وأنشدته قوله :

كل عيش وإن تطاول يوماً صائرٌ مرة إلى أن يزولا  
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى تلال الحياة أرعى الوعولا  
فقال لها رسول الله : كان مثل أخيك كمثل الذى آتيناها آياتنا فانسأخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وفى رواية أنها أنشدته شعراً دينياً لأمية . فقال : آمن شعره وكفر قلبه<sup>(١)</sup> .

وكان الأعشى قد علم ابنته وثقها ، حتى وثق بذوقها ونقدها ، فكان يعرض عليها شعره ، ويقول لها : عدى لى الحزبات - القصائد اللاتى يخزين غيره فلا يستطيع أن يأتى بمثلهن - فتسمعه من شعره<sup>(٢)</sup> .

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته ، وطواعية التعبير لها على البديهة ، فقد أرق ليلة وعنده ابنته ليل ، فعن له الشعر ، فقال :

متاريك أذنب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثنا أصولها  
ثم أجبل فلم يجد شيئا . فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أجبلت ! قال :  
أجل . فقالت : هل لك أن أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد . فأعاد البيت ،  
فقالت :

مقاويلُ بالمعروف خُرسٌ عن الخذا كرائمُ يُعَاطون العشيّة سؤلها  
لحمى حسان فقال :  
وقافيةٌ مثل السنّان رزينة تناولت من جو السماء نُزولها  
فقالت :

براهما الذى لا ينطق الشعر غيره ويعجز عن أمثالها أن يقولها<sup>(١)</sup>  
وكانت عائشة مثالا فى رواية الشعر ، فقد تولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم ،  
فنشأت فصيحة اللسان ، قوية البيان ، حافظة لكثير من الشعر .

حدث هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب  
ولا بشعر من عائشة<sup>(٢)</sup> . وحدث أبو الزناد أنه ما رأى أحدا أروى لشعر من  
عروة ، وأن عروة قيل له : ما أرواك ! فقال : ما روايتى فى رواية عائشة ؟  
ما كان ينزل بها شيء ، إلا أنشدت فيه شعرا<sup>(٣)</sup> .

وكانت إلى هذه الرواية لبقّة حسيّة فى الاستدلال بالشعر والتّمثيل به ،  
حدثت فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة  
أغزل ، فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهتت ،  
فنظر إلى فقال : مالك بهت ؟ فقلت : يا رسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك  
يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره

(١) الموشح ٦٢ فى الأصل عنده بدلا من غيره

(٢) الطبقات ٣٩/٧ والإصابة ١٤٠/٨ وأسد الغابة ٥٠٤/٥ والاستيعاب ٢/٦٦٥

وتهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥ (٣) الإصابة ١٤٠/٨ والطبقات ٨/٥٠ والاستيعاب ٢/٦٦٥

قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي ؟ قلت : يقول :  
 ومُبَرَّأً من كل غُبَرٍ حَيْضَةٍ وفساد مرضعة وداء مُغِيلِ  
 وإذا نظرت إلى أَسْرَةٍ وجهه برقت كبرق العارض المتهلل  
 قالت : فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقبّل ما بين عيني ، وقال :  
 جزاك الله خيراً يا عائشة ، ما سررت مني كسروري منك <sup>(١)</sup> .

وقالوا إنها كانت تروى القصيدة ستين بيتاً ، والقصيدة مائة بيت <sup>(٢)</sup> ،  
 وكانت معجبة بشعر حُجَّيَّة بن المضرَّب ، وتحض على روايته ، لأنه يعين على  
 البر <sup>(٣)</sup> . وذهب عطار و الزهري إلى أنها كانت أعلم الناس من نساء ورجال <sup>(٤)</sup> .  
 وليس من الطبيعي أن تنفرد السيدة عائشة بالحفاضة الراوية للشعر بين النساء  
 العربيات ، وإنما الطبيعي أن يشركها كثير من النساء ، فلا بد أن كانت نساء  
 آخر يحفظن الشعر ويروينه ، لكنهن لم ينان ما نالت السيدة عائشة من مجد  
 ونباهة صيت ، ولم تسجل حياتهن كما سجلت حياتها ، فهي زوج النبي ، وبنت  
 صديقه وخليفته ، ولو لم يقدر لها أن تكون كذلك ، وأن تشترك في نصرة حزب  
 سياسي قوى ، وأن تكون راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدر لها ذلك كله  
 لضاع كثير من أخبارها كما ضاعت أخبار مئات من أمثالها .

٢ - أما نقدها للشعر فإنه كان كنفق الرجال ، قائماً على استحسان  
 أو استهجان ، في جل قصار تدل على الاستجادة أو الاستهجان .  
 فكان الأعشى إذا قال القصيدة عرضها على ابنته ، وقد كان ثقفا وعلمها  
 ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام ، وكان يقول لها : عدى  
 لي الخزيات - القصائد البارعة التي تعجز غيره - فتعد منها :

(١) الإحياء للغزالي ١٠٩/٣ ودلائل النبوة للبيهقي

(٢) الطبقات ٥٠/٨ (٣) أسان العرب ١٩/٦٦

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥

أغر أروع يُسْتَسْقَى الغامُ به لو قارع الناسَ عن أحسابهم قرعاً  
وتذكر ما أشبهها من شعره <sup>(١)</sup> .

وذكروا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الشعر ، فقال له علقمة :  
قد حاكمت بيني وبينك امرأتك أم جندب . قال : قد رضيت . فقالت لهما :  
قولا شعرا على روى واحد وقافية واحدة ، تصفان فيه فرسيكما .

فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خِلِي مَرَأَى عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ . لِنَقْضِ أَلْبَانَاتِ النَّوَادِ الْمُعَذَّبِ

.....

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذَهَبَتْ مِنَ الْمَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ وَلَمْ يَكْ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

.....

فغلبت علقمة . فقال زوجها : بأي شيء غلبته ؟ قالت : لأنك قلت :  
فلاسوط ألُوبٍ وللساق دِرَّةٌ وللزجر منه وقعُ أخرج مِنْعَبٍ  
فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك .  
وعلقمة قال :

فَوَلَّى عَلَى آثَارِهِنْ بِحَاصِبٍ وَعَيْبَةِ شُرُوبٍ مِنَ الشَّدْمَائِبِ

فَأَدْرَكْنِ ثَانِيًا مِنْ عَنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فلم يضرب فرسه بسوطه ، ولم يَمُرْه بساق ، ولم يتعبه بزجر .

ففضض من قولها وطلقها ، وخلفها عليه علقمة <sup>(٢)</sup> .

(١) الأغاني ١٥/١٠٦

(٢) الأغاني ٧/١٢١ و ٢١/١١٢ والموشح ٢٨ ألُوب : شدة عدو . درة : المراد  
سرعة جرى . أخرج : ظلم . منعب : عدا يمد عنقه . وروى مذهب سريع العدو . حاصب :  
رياح تحمل التراب . عيبة شُرُوب : المراد دفعة قوية من السرعة . مايب : مسرع . الرائح  
المتحلب : المطر الغزير

وفي رواية عمر بن شبة وأبي عمرو الشيباني<sup>(١)</sup> وابن عائشة<sup>(٢)</sup> أن امرأ القيس تزوج امرأة من طيء فأبغضته ، ثم نزل به صديقه عاتمة فتنازعا في أيهما أشعر ، فأقترح امرؤ القيس أن يصف كل منهما ناقته أو فرسه ، وأن يكون الحكم بينهما امرأة امرئ القيس . وتتفق رواية المفضل عن أبي الغول الأكبر مع هذه الرواية ، لكنها تنسب إلى عاتمة أنه القائل : قل شعراً وانعت الصيد وهذه - يعني أم جندب - الحكم بيني وبينك<sup>(٣)</sup> .

وقالوا إن عاتمة سمي الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجته<sup>(٤)</sup> .

لكن هذه القصة المشهورة في حاجة إلى تمحيص .

ذلك أن الحكم من الناحية الفنية جائر ، لأن المعارضة لم تكن قائمة على المفاضلة بين الفرسين نفسيهما ، وإنما كانت قائمة على البراعة في الوصف ، وما من شك في أن كلا من الشعارين قد وصف حصانه فأجاد ، بغض النظر عن عتق الحصان وكرمه ، وشدته وإسراعه . فمثلاً صور امرؤ القيس حصانه يجرى وراء الصيد ، ولكنه لم يغفل عن تصوير مشاعره ولطفته ليدرك هذا الصيد ، بأنه صبّ على حصانه سوطه وهمزه بساقه ، وزجره ، ليجود بما فوق الطاقة ، وهو بهذا التصوير لم يخرج على طبيعة الإنسان في أي زمان ، فالمسافر العجلان اليوم يركب الطائرة التي تقطع الأميال في الدقيقة الواحدة ، ويشعر بسرعتها التي ما كانت في خلد البشر ، ولكنه إذا كان مأهولاً يشعر أنه في حاجة إلى سرعة أعظم .

وكيف تغفل عن قول امرئ القيس بعد البيت الذي عابته أم جندب :  
فأدرك لم يجهد ولم يشن شأوه يمر كخزوف الوليد المنقب<sup>(٥)</sup>

(١) الموشح ٢٩ (٢) الأغاني ١٢١/٧

(٣) الموشح ٣٠ (٤) الأغاني ١١٢/٢١

(٥) شأوه : طلبة . الخزوف : لعبة للصبيان تشبه النحلة المشبية الآن

أى أنه قد أدرك طريدته دون حاجة إلى طَلْق آخر ، وإنه ليعدو عدواً يكاد يخفى تفاصيل أجزائه ، مثل الدَّوَّارة التى يرميها الصبي على الأرض فتدور بسرعة حتى لا ترى أجزائها . وهذا تصوير بالغ حد الروعة من حيث الصورة ومن حيث الوقع فى النفس ، ذلك بأن الصبي حينما يقذف خذروفه فى قوة ومهارة فيـدور دوراناً قويا يعجب به ويباهى بمهارته ، وكذلك امرؤ القيس أجرى حصانه معجباً به وبنفسه ، وهو فى وصفه هذا جار على طريقة العرب من حيث إثارة الصدق والتوسط بالخيال المقبول المشوق المستمد من الواقع .

ثم إن البيتين معاً يحملان حصان امرئ القيس كحصان عاقمة عدواً وجُوداً بأقصى ما يجوز به الأصيل الكريم .

ومن الإنصاف أن نقرر أن قول امرئ القيس :

إذا ما جرى شأوينِ وابتل عِظْفُهُ      تقولُ هزيرُ الريحِ مرتِ بالثَّأبِ  
ليس أقل روعة من قول عاقمة :

فأدرجكهن ثانياً من عنانه      يمر كمر الراح المتجَلِّب  
لأن امرأ القيس صور حصانه بعد ما جرى شوطين ، وابتل جنبه بالعرق ، سريعاً خفيفاً يموج من جريانه الهواء ، كأنه ريح مرت بالثَّأب خف حفيفاً قويا . وإذا ما قرأنا القصيدتين كلتيهما وراعينا أن امرأ القيس هو البادى استرعى نظرنا أن عاقمة يجرى على إثره ، ويستعين كثيراً بأبيانه . من ذلك أن البيتين الأولين من وصف عاقمة لحصانه هما البيتان الأولان من وصف امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها      وماء الندى يجرى على كل مذنب  
بمنجرد قيد الأوابد لـ      طراد الهوادي كلَّ شأوٍ مغرب<sup>(٢)</sup>

(١) مذنب : مسيل ماء . لاحه : غير لونه . الهوادي : الوحوش السريعة . الشأو .  
الغاية والأمد مغرب : مسرع جدا



وليس المقام مقام توسع في الموازنة ، وقد وازن بين القصيدتين موازنة مفصلة الأستاذ السباعي بيومي ، من حيث وصف الشعارين لفرسيهما ، ومن حيث وصفهما للمدو والصيد ، ومن حيث النزول بعد الصيد والرواح منه ، و انتهى إلى أن امرأ القيس أجود من علقمة ، وأن علقمة يحاكيه وينقل منه ، وأن من الإجحاف أن يؤخذ بقول أم جندب <sup>(١)</sup> .

على أن في القصة ما يفهم منه أن حكم أم جندب ضالع ؛ لأنها كانت تفرك امرأ القيس <sup>(٢)</sup> ، ولأنه ناسم حكما قال : ليس كما قلت ولكنك هويته <sup>(٣)</sup> . أما الناحية الثانية فهي أنني أشك في هذا التحكيم ؛ لأنني لا أعقل أن تجرؤ امرأة عربية على أن تؤثر علانية رجلا على زوجها ، وهي واثقة بأن الرجال غُير ، وهي أيضاً ذات حياء وحصافة . ولا يشفع في هذا أنها فارك تتهاج زوجها ليطلقها ، لأنها لم تكن تدري ماذا يحجره حكمها ، فقد يحجر الطلاق الذي تريده لكنه مخالط بسوء ظن ومذمة ، وقد يحجر عضلا وتعليقا ، وربما نجم عنه أن يزهد روحها زوجها الهائج الغضبان .

وكيف يغفل امرؤ القيس عن بغضتها إياه ، ويفتتح قصيدته بالغزل فيها ؟ ثم إنني أستبعد أن يقول الشاعران على البديهة هاتين القصيدتين الطويلتين البارعتين .

ولا أصدق أن تجرى على لسان أم جندب كلمة روى وقافية ، لأن الروى والقافية اصطلاح لم يعرف إلا فيما بعد .

وإنه ليعزز رأيي في اختراع القصة أن علقمة لم يسم خلا لتزوجه أم جندب بعد امرئ القيس ، وإنما سمى خلا - كما ذكر الجاحظ - للتفريق بينه وبين

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي بيومي ٢٥٦ - ٢٦٢

(٣) الأغاني ١١٢/٢١

(٢) الأغاني ١٢١/٧

عاقمة بن سهل بن عماره من رهط علقمة النحل ، لما وقع عليه اسم الخصى <sup>(١)</sup> .  
 ويزيد هذا تعزيزاً أن مئات من الشعراء وغيرهم من مشهورى الجاهلية  
 قد خلفوا غيرهم على نساتهم ، ولم يسم أحدهم خلا ، فلماذا خص عاقمة بهذا  
 اللقب ؟

ولكن القصة لها دلالتها على أن المرأة العربية كانت تتذوق الشعر ،  
 وتنتقده ، وتبين مواضع الجودة والرداءة فيه .

وهى شبيهة بقولهم إن حسان لما غضب من تفضيل الخنساء عليه قال  
 للنابغة : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة ، حيث تقول ماذا ؟ قال :  
 حيث أقول :

لنا الجففات الغري يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما  
 ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحَرَّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا  
 فقال : إنك لشاعر لولا أنك قلت الجففات فقلت العدد ، ولو قلت الجفان  
 لكان أكثر . وقلت يلمعن فى الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ  
 فى المدح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت  
 على قلة القتلى ، ولو قلت يحجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وغرت بمن  
 ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً <sup>(٢)</sup> .

وعزى نقى بيت حسان إلى الخنساء على مسمع من النابغة ، ذلك بأنها  
 قالت لحسان : ضعفت افتخارك وأنزرتة فى ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟  
 قالت : قلت الجففات ، والجففات ما دون العشر فقلت العدد ، ولو قلت الجفان  
 لكان أكثر . وقلت الغر والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض لكان

(١) الحيوان ١/ ١٢٠ . كان علقمة بن سهل قد أسر باليمن فهرب ، فأسر ثانية  
 فخصى ، وقد أدرك الإسلام .  
 (٢) الأغاني ٨/ ٢٨٨

أكثر اتساعاً . وقلت يلعن واللعن شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحا ولو قلت بالليل لكان أبغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت أسيافنا والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر دماً . وقات يقطن فدللت على قسلة القتلى ، ولو قلت يحجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت دمًا والدماء أكثر من الدم . ونفرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً<sup>(١)</sup> .  
والوضع ظاهر في هذا الحكم ؛ لأنه يتكئ على التفرقة بين جمع المؤنث السالم وجمع التذكير من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة في عصر التدوين ، ويعتمد على المبالغة في الاستعارة وعلى التحويل في التصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما درست علوم البلاغة ، وزاحم العقل والمنطق الذوق والفطرة . والنقد كله منبعث عن إثارة للغلو والمغالاة في المعاني في عصر كان الشعراء أميل فيه إلى الصدق والخيال المقبول . لذلك فإن قدامة بن جعفر على الحق في دفاعه عن حسان<sup>(٢)</sup> .

٣ — فلما جاء الإسلام نافست النساء الرجال في العلم والأدب ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حث الرجل والمرأة على التعلم ، وحث الرجل على تعليم ولده . وابنته ، إذ ذكر في الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها<sup>(٣)</sup> »

١ — فكان من المسلمات راويات للحديث ، يأخذ عنهن الرجال ، كالسيدة عائشة<sup>(٤)</sup> ، وقد تلقى على بن أبي طالب الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته هي ميمونة بنت سعد<sup>(٥)</sup> . وعد محمد بن سعد أكثر من سبعةائة

(١) شرح مقامات الحريري للشمري ٢/٢٥٣ والمعارف ١٠٥ وشرح شواهد المغني ٩١

(٢) فتح البدي بشرح مختصر الزبيدي ١/١٠٢

(٣) نقد الشعر ٣٦

(٤) الإصابة ٨/١٧٣ -

(٥) الإصابة ٨/٤٠

راوية للحديث عن رسول الله أو عن الثقة من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهم<sup>(١)</sup> .  
وكذلك فعل ابن حجر<sup>(٢)</sup> في كتابه (الإصابة) على أنه ذكر ٣٢٢ صحابة روين  
عن الرجال وروى عنهم الرجال في كتابه (تهذيب التهذيب)<sup>(٣)</sup> .

وألف الحافظ الذهبي كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) قال فيه :  
وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها<sup>(٤)</sup> .

وقرأ أبو بكر الخطيب الحافظ أحمد بن علي بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ)  
صحيح البخاري بمسكة على كريمة المروزية<sup>(٥)</sup> .

وتتلمذ الحافظ أبو القاسم بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) لشيوخ عدة منهم  
بضع وثمانون امرأة<sup>(٦)</sup> .

وسمع محمد بن المؤرخ أبي شامة المقدسي صحيح البخاري وغيره على أم الفضل  
كريمة بنت عبد الوهاب المتوفاة ٦٤١ هـ<sup>(٧)</sup> .

وكان لشهادة الكاتبة المتوفاة ٥٧٤ هـ السماع العالي الذي ألحقت فيه الأصاغر  
بالأكابر ، وقد سمع عليها خلق كثير<sup>(٨)</sup> .

ب - وكان منهن ناقدات للشعر يتحرقى الشعراء مرضاتهن . فكانت عمرة  
الجمعية صاحبة وهب بن زمعة الجمعي امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة  
وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دهب لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع  
إليها ، وكان يحبها وتحبه ، فلما قيل لها إن أمرها ذاع احتجبت عن جلاسها ،  
وعن أبي دهب ، فقال :

تطاول هذا الليل ما يتبلىج وأعيّت غواشي عبّرتي ما تفرّجُ

(١) الطبقات الكبير لابن سعد (٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر

(٣) تهذيب التهذيب ٣٩٧/١٢ - ٤٩٢ (٤) ميزان الاعتدال ٦٨٢/٢ -

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ١٢/٣ (٦) طبقات الشافعية الكبرى ٢٧٣/٤

(٧) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٧٣ أبو شامة

(٨) وفیات الأعيان ١٨٣/١ .

وبث كئيباً ما أنام كأنما خلال ضلوعى جرة تنوهج  
 فطوراً أمئى النفس من عمرة المئى وطوراً إذا ما لجّ بي الحزن أنشج  
 لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن إلى أن يوصل الحبلى أحوج<sup>(١)</sup>  
 جـ - وكانت فى الإسلام تجيز الشعر كما أجازته سابقتهما فى الجاهلية ، ومن  
 ذلك أن عقيل بن علفة كان فى سفر ومعه ابناء علفة وجثامة وابنته الجرباء  
 فقال عقيل :

قضت وطراً من ديز سعد وطالما على عرُضٍ ناطحنه بالجماجم  
 إذا هبطت أرضاً يموت غرابها بها عطشاً أعطينهم بالخزائم  
 ثم قال : أنفذ يا علفة ، فقال علفة :

فأصبحت بالمؤمنة يحمان فتية نساوى من الإدلاج ميل العائم  
 إذا علم غادرته بتنوفة تذارعن بالأيدى لآخر طاسم  
 ثم قال : أنفذى يا جرباء ، فقالت :

كأن الكرى سقام صر خديّة عقراً تمشى فى انطاً والقوائم  
 فغضب عقيل وهاج وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ،  
 ثم أحال عابها يضربها فصدّه عنها أخوها<sup>(٢)</sup> .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، وقد أنشدها أبو عمرو  
 قصيدة قيس بن الخدّادية التى مطلعها :

أجذك إن نعمت نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع  
 فاستحسنتها ، وكان يحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم : من قدر منكم أن  
 يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه . فلم يقدر أحد منهم

(١) الأغاني ٦/١٥٠

(٢) الأثرية لابن قتيبة ٥٩ مخطوط والأغاني ١١/٨٢ علم : جبل . تنوفة : صحراء  
 لا ماء بها ولا أنيس . تذارعن : أسرع . طاسم : منطمس . صر خديّة : خر .

على ذلك<sup>(١)</sup> . وقد أسمعها الغريض قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب ، ثم استزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، وطلبت منه أن يغنيها في شعر غيره ، فغناها لعمر بن أبي ربيعة . فضحكت وأعطته خمسة آلاف أخرى<sup>(٢)</sup> .

وكانت سُكَيْنَةُ بنت الحسين ذات صيت طائر في حب الشعر وتذوقه وتقدمه حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت صاحبة ندوة أدبية يهفو إليها الشعراء ، فيُستمعونها ويستمعون رأيها وتقدها ، ولها في ذلك أخبار شتى ، منها أنها أشدت قول الحارث بن خالد :

فقرغن من سبيع وقد جهدت أحشائهن موائل الخمر  
فقلت أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم ، فقلت : وما حسنه ؟ فوالله  
لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها<sup>(٣)</sup> :

ولما أنشدها الغريض قصيدة عمر بن أبي ربيعة :

اليم بزينب إنَّ البين قد أفدا قلَّ الثَّوَاءَ لئن كان الرحيل غدا  
طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت : أحسنت والله وأحسن ابن أبي ربيعة ، وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك<sup>(٤)</sup> .

وقد زارها بالمدينة الفرزدق فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت ، أشعر منك جرير الذي يقول :

بنفسى من تجبُّبُهُ عزيزٌ على ومن زيارته مُسام  
ومن أمسى وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجم النيام  
فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد فسأله فأجاب كالיום السابق ، فقالت : جرير أشعر منك ، وذكرت بعض شعره ،

(٢) الأغاني ٣/ ٣٢٠ .

(٤) الأغاني ٢/ ٣٧٦ .

(١) الأغاني ١٣/ ٧

(٣) الأغاني ٣/ ٣٢٧

وكذلك فعلت في اليوم الثالث<sup>(١)</sup> ونقدت أيضاً قصيدة لعمر<sup>(٢)</sup> .

وكذلك نقدت كثر بنت سعد الحزومية شعراً<sup>(٣)</sup> . وكانت خرقاء العامرية محبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ، ومن قولها : كان رقيق البشرة ، عذب المنطق ، حسن الوصف ، مقارب الرصف<sup>(٤)</sup> . وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثير بعض شعره ، ونقدته ، وفضلت عليه امرأ القيس<sup>(٥)</sup> .

د -- أما الموالى فكانت لمن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء إلى التنافس في اقتنائهن ، وحسبى أن أذكر أنه كان منهن مغنيات أستاذات ، تلقى عنهن زعماء المغنين ، فمثلاً جميلة كانت أستاذة ابن سريج<sup>(٦)</sup> ، وأستاذة معبد ومالك<sup>(٧)</sup> وعاتكة بنت شهدة كانت أستاذة إسحاق الموصلي<sup>(٨)</sup> .

هـ -- وإذا فقد برعت المرأة في صدر الإسلام وفيما بعده ، واشتهرت بعارف شتى حتى سامت الرجال أحياناً ، وليس من المعقول أن تكون خاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجأة ، وإنما الطبيعي أن الإسلام قد استهل على العرب والنساء يسهمن في المعرفة ، ويسرن كالرجال بخطا نحو الكمال ، فكان الإسلام مشجعاً على حث الخطأ ، وكان نوراً إلى الهدف الذي يآتمه النساء والرجال جميعاً .

(١) الأغاني ٥٠/٧ (٢) الأغاني ٣٧٧/٢

(٣) الأغاني ٢٠٥/١ (٤) الأغاني ١٢٠/١٦ (٥) الأغاني ٥٧/١٤

(٦) الأغاني ١٢٦/٧ (٧) الأغاني ١٢٦/٧

(٨) التاريخ الكبير لابن عساكر ٤١٦/٢ .

## الفصل الثالث

# المرأة الشاعرة

العرب أمة شاعرة كما سبق ، وقد قاومت آلاف من قصائدها عوادي الدهر ، حتى جاء عصر التدوين فدونت وأطلت علينا .  
وبديهى أن هذا الشعر الذى غالب الزمن وتخطاه لم يكن أول شعر قد اكتمل خصائص الشعر الأسلوبية والمعنوية والموسيقية ، فهو من غير جدال مسبوق بمحاولات شتى فى أزمان متطاولة .

وكان العرب يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم ، والإشادة بفضائلهم ، فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ، « ولم يكن من اللغو أن نقول إن العرب قرضوا وحدهم من الشعر - فى الجاهلية والإسلام - أكثر مما قرضته أمم العالم مجتمعة<sup>(١)</sup> .

وقد حقق رواة الشعر فيما يروون ، وتحروا الصواب جهدهم ، ونهبوا على كثير من الدخيل المنحول ، حتى لقد حدث الزبير عن ابن سلام عن نجي بن سعد القطان أنه قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع<sup>(٢)</sup> .

فمن المروى من شعر النساء

أمام هذا الفيض الزاخر من شعر الرجال لا نجد إلا قلة من شعر النساء .



وبخاصة في الكتب الأولى التي جمعت الشعر ، كالطبقات لابن سلام ،  
والمفضليات للمصنبي ، ومعجم الشعراء للبرزباني ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ،  
والحماسة لأبي تمام .

فمثلا في المفضليات للضبي مرثية واحدة لامرأة من بني ضُبَيْعَة في خمسة  
أبيات ، وليست هذه المرأة معروفة الاسم أو العصر .

وذكر ابن سلام من أصحاب المرائي متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة  
وكعب بن سعد الفزري ، ثم قال : والمقدم عندنا متمم بن نويرة<sup>(١)</sup> ، ثم ذكر  
الخنساء في إيجاز جدا بقوله « بكت الخنساء أخويها صخرًا ومعاوية ، فأما صخر  
فقتلته بنو أسد ، وأما معاوية فقتلته بنو مرة من غطفان . فقالت في صخر كلمتها  
التي تقول فيها :

« وإن صخرًا لتأتئم الهداة به » وكلمتها الأخرى :

أمن حدث الأيام عينك تهمل      وتبكي على صخر وفي الدهر مذهل  
وقالت في معاوية قصيدتها :

ألا ما لعينيك أم ما لها      لقد أخضَل الدمع سيرَها<sup>(٢)</sup>  
فكانها في رأيه لم تقل غير هذا .

ولم يذكر الآمدي في المؤتلف والمختلف إلا بضع شاعرات .

ولم يذكر البرزباني في معجم الشعراء امرأة .

وذكر القرشي في الجهرة تسعا وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعرا ، منها  
سبع قصائد في الرثاء ، ولم يذكر شاعرة .

لماذا قلت رواية شعرهن أولا ؟

ولعل الأسباب في قلة ما روى من شعرهن أول الأمر راجعة إلى  
هذه الأمور :

١ — كان الرواة في عصر الجمع والتحصيل حراساً على الغريب ، فكانوا يأخذون عن الأعراب ، لأنهم يقدرون في الشعر قيمته اللغوية ، وسنرى أن شعر النساء قليل الغريب ، فلم يحفل الرواة بروايته وإذاعته .

٢ — وشعر النساء كما سنرى موحد الغرض في القصيدة الواحدة ، وربما حسب الرواة هذا عجزاً ، لأن العرب جروا على تعدد موضوعات القصيدة ، وتنوع أغراضها ، وألف الرواة هذا التعدد .

وليس أدل على إعجابهم بنظام القصيدة الجاهلية الجارية على تعدد الموضوعات من أنه سيطر على القصائد العربية إلى العصر الحاضر .

٣ — وكان الشاعر لسان قبيلته ، يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل في شعر النساء ذكر الحروب والأيام ، فلم نجد المؤرخون والإخباريون فيه طالبهم .

٤ — وربما كان مردد بعض ذلك إلى لون من التعصب ، فقد ضرب المثل ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ، ولم يضرب بالخنساء مثلاً في إجادتها الرثاء . من ذلك قول ابن الأعرابي : لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد ، ولا وصف الحمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعلمة إلا احتاج إلى عاتمة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد في شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبياني<sup>(١)</sup> .

وقد سبق إيثار ابن سلام لثمة بن نويرة في الرثاء ، ومثل هذا كثير في كتب الأدب .

٥ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أو التغافل أن الشعر الجاهلي قد فُقد كثير منه ، كما يقرر عمر بن الخطاب وأبو عمرو بن العلاء<sup>(٢)</sup> ، وكما يقرر ابن سلام<sup>(٣)</sup> ، فضاع من شعر النساء كثير وبقي قليل .

(١) الأغاني ٩٣/١٥ (٢) طبقات الشعراء ٢٣ والخصائص ٩٣١

(٣) طبقات الشعراء ٢٣ و ١١٥ و ١١٦ و ٢٠٥

٦ — ثم إن أوسع أبواب الشعر العربي في الجاهلية ما يتصل بالحروب والمفاخرات والحماة عامة ، حتى إن القبائل التي كانت تنعم بالسلام الطويل لم ينبغ فيها إلا قليل من الشعراء « فمثلاً بالطائف شعراء وليسوا بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان ، وأهل الطائف في طرف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت وابنه أمية وغنيلان بن سامة وكنانة بن عبد ياليل ، وأبو مخجن بن حبيب الثقفي <sup>(١)</sup> .

وقد كانت الحرب والحماة أخلق بالرجال من النساء ، وإن كن قد شاركن في هذه وفي تلك .

٧ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أن العرب يؤثرون الفجولة والجزالة في الشعر ، وهم قد وجدوا في شعر الرجال قوة ورصانة فاحتفوا به ، ووجدوا في شعر النساء ليناً وضعفاً فلم يحفلوا به .

ولانسى أن الكتب الأولى للمختارات ، وهي القصائد المطولة المسماة بالمعانيق — التي اختارها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ هـ — وجمهرة أشعار العرب للقرشي المتوفى سنة ١٧٠ هـ <sup>(٢)</sup> والمفضليات للضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ <sup>(٣)</sup> ، والأصمعيات للأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، كلها ليست خالية من شعر النساء فحسب بل من شعر المولدين أيضاً . فكأن هؤلاء وجدوا في شعر المرأة رقة ومهولة فألحقوا شعرها بشعر المولدين .

(١) طبقات الشعراء ٢١٧ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٣٦٤ ومقدمة الإلياذة للبيهقي ١٧٢ .

(٣) ذكر الحفاظ الذهبي في تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال ، والمحافظة الجزري في طبقات القراء أنه توفي ١٦٨ هـ ، وذكر ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة أنه توفي ١٧١ هـ وخطأهم أحمد شاكر وعبد السلام هارون ورجحاً أنه توفي حوالي ١٧٨ ( مقدمة شرح المفضليات ١/٢٣ ) .

## مراجع مافئة بشعرهن فيما بعد

ثم حفلت المراجع بشعر النساء في الجاهلية والإسلام ، كالأغاني . بل لقد ألف المرزباني كتاباً في ثلاثة أجزاء جمع فيه كثيراً من شعرهن سماه ( أشعار النساء ) لكن الموجود منه الجزء الثالث وحده <sup>(١)</sup> ، وقد ذكر ياقوت أن أشعار النساء للمرزباني في ستمائة صفحة <sup>(٢)</sup> . وللخزني أخت طرفة ديوان مخطوط <sup>(٣)</sup> ثم طبع .

ولجنوب الهذلية ديوان ذكره صاحب كشف الظنون <sup>(٤)</sup> .

وللخنساء ديوان مخطوط ومطبوع <sup>(٥)</sup> ،

وجمع الأب لويس شيخو اليسوعي كثيراً من مرثي شواعر الجاهلية في كتاب رياض الأدب في مرثي شواعر العرب <sup>(٦)</sup> ، في نحو مائة وستين صفحة ، اعتمد فيه على كثير من المراجع المطبوعة والمخطوطة كالأغاني ، والكمال لابن الأثير ، وكتاب القصيدة النورانية في مناقب العدنانية مخطوط في المكتبة الشرقية ، وكتاب الرقائق في مجموعة الشعر الجاهلي الزائق ، والعمدة ، ومعجم البلدان ، والحاسة والمثل السائر ، وشرح ابن بدرون على قصيدة ابن زيدون ، وأمثال العرب للضبي والعقد الفريد ودرة الفواص الخ .

ثم ألف السيوطي كتاب ( نزهة الجلساء في أشعار النساء ) <sup>(٧)</sup> ، وذكر في مقدمته أنه جزء لطيف في الشاعرات المحدثات دون المتقدمات من الجاهليات والحضرمات ، فإن أولئك لا يُحْضِن كثرة ، حتى إن الطرماح جمع كتاباً في

(١) أشعار النساء للمرزباني مخطوط ٨ أدب ش (٢) معجم الأدباء ١٨/٢٦٩

(٣) ديوان خزني مخطوط ٣٤ أدب ش ٥٦٨ (٤) كشف الظنون ٣/٢٧١ ليبسك

(٥) مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش والمطبوع أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء

الأب لويس شيخو ١٨٩٦ م .

(٦) طبع في بيروت ١٨٩٧ م (٧) مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر

أخبار النساء الشواعر من العربيات ، فجاء في عدة مجلدات ، رأيت منها المجلد السادس ، وليس هو الأخير <sup>(١)</sup>

على أن كتب الأدب واللغة والتاريخ حافلة بقطوف من شعرهن كالأغاني ، وخزانة الأدب ، والعقد الفريد ، وعيون الأخبار ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم استعجم للبكري ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الأثير ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، وبلاغات النساء لابن طيفور ، وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ، ومروج الذهب للمعصودي ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكي ، ووصف جزيرة العرب للهمداني ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال ، وحماسة البحتري ، وسيرة ابن هشام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للحموي ، وزهر الآداب للحمري ، والسكامل للمبرد ، والمؤتلف والمختلف للأمدى الخ .

### شعر منقول للنساء :

١ — ليس بصحيح كل شعر عُزِي إلى النساء ، فإن بعضه دخيل عليهن ، نَحَله بعض الناس إياهن ، ولقد يكون بعضه لشاعرة ويُنَحَل أخرى ، وبعضه لشاعر وينحَل شاعرة ، وبعضه من عمل الراوى أو المؤلف .

ومثل هذا حدث في شعر الرجال ، فمثلا حدث أبو عبيدة أن قراد بن حنش المزي من شعراء غطفان ، كان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذوه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات :

إِنَّ الرِّزِيَةَ لَا رِزِيَةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَغِي غُظْفَانَ حِينَ أَضَلَّتْ <sup>(٢)</sup>

وحدث الأصمعي أن طفيلة الغنوى في بعض شعره أشعر من امرئ القيس .

(١) نزعة الجلباء في أشعار النساء مخطوط ص ٢

(٢) الموشح المرزباني ص ٧ :

وحدث الرياشي أن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه مثل عمرو ابن قميئة<sup>(١)</sup> . وكثيراً ما ذكر ابن سلام أن في بعض ما يروى نحلاً وانتحالاً<sup>(٢)</sup> . وفي الأغاني كثير من هذا كالأبيات التي قالها عمر بن أبي ربيعة أوالد أبي نهشل في مدح هشام بن المغيرة ، ونسبت إلى عبد الله بن الزبيري<sup>(٣)</sup> .

وقد نبه القدماء على كثير من هذا المنحول ، كقول عامر بن جُوَيْن في غزله بهند بنت امرئ القيس بن حُجْر :

هممت بنفسى كل الموم      فأولى لنفسى أولى لها  
سأحمل نفسى على آلة      فأما عليها وإما لها

هكذا روى ابن أبي سعد عن دارم بن عقال . ومن الناس من يروى هذا للخنساء في قصيدتها :

ألا ما لعينى ألا ما لها      لقد اخضل الدمع سربالها<sup>(٤)</sup>  
والبيتان في ديوان الخنساء<sup>(٥)</sup> :

وقد ذكر ابن إسحاق أربع قصائد لهند بنت عتبة في رثاء قتلى بدر ، وعلق عليها ابن هشام بأن أهل العلم بالشعر ينكرونها<sup>(٦)</sup> .

٢ — والخطب هنا سهل ؛ لأن دوافع النحل والانتحال في شعر النساء أقل منها في شعر الرجال . ومن السهل أن نرد بعض ما ألصق بهن من شعر دخيل ، معتمدين على سمات فيه لا تتفق وخصائصهن وأنوثتهن . من ذلك ما نسبته البحتری إلى امرأة في رثاء :

أقول لنفسى في خفاء ألومها      لك الويل ما هذا التجلبد والصبر ؟

(١) المرجع السابق ٣٤ و ٣٧ .

(٢) طبقات الشعراء ٣٢ و ٤٠ و ٤١ .

(٣) الأغاني ٦٣/١ (٤) الأغاني ٦٩/٨ .

(٥) نزهة الجلساء ٢٠٥ .

(٦) سيرة ابن هشام ٤١٤/٢ - ٤١٧ .

ألا تفهمين الخُبْرَ أن لست لاقياً أخى إذ أتى من دون أ كفانه القبر<sup>(١)</sup>

فكلمة « لاقياً » تدل على أن القائل رجل لا امرأة .

على أن أبا الفرج روى بعض أبيات هذه القصيدة لعلى بن عبد الله أخى جُعْفَى<sup>(٢)</sup> ، ورواها كلها أبوعلی القالى لسلمة بن يزيد فى رثاء أخيه لأمه قيس ابن سلمة<sup>(٣)</sup> ، وكذلك رواها أبوتمام لسلمة الجُعْفَى فى رثاء أخيه<sup>(٤)</sup> .  
ومن ذلك ما ذكره اليزيدى للخنساء<sup>(٥)</sup> .

أنا بأكٍ عليك للمعروف ولصكر الكماة بين الصفوف

ولو أنه للخنساء لقالت باكية ، على أن القصيدة ليست فى ديوانها .  
كذلك ما ذكره الحصرى من قصيدة لامرأة ترضى طفلها ، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً ، فإن فيها أبياتاً تدل على أن قائلها رجل لا امرأة ، مثل :  
فدعا لأنصره وكنت له من قبل ذلك حاضر النصر  
لو قيل تفديه بذلت له مالى وما جمعت من وفّر  
أو كنت مقتدراً على عمرى آثرته بالشطر من عمرى  
قد كنت ذا فقر له ففدا ورمى على وقد رأى فقري<sup>(٦)</sup>  
فكلمة حاضر ، وتفديه ، ومقتدر ، وذا ، دالة على ذكر لا أنثى . والدعوة إلى النصر إنما توجه إلى الأخ لا إلى الأخت .

ولقد يقدح فى نسبة الشعر إلى شواعر من العصر الجاهلى تهافت عبارته ، وضعف صياغته ، ونبوه عن الأسلوب العام لذلك العصر . من هذا الضرب كثير

(١) حماسة البحترى ٣١ ؛ (٢) الأغاني ١٠٦/٢١ (٣) الأماي ٧٣/٢

(٤) شرح التبريزي للحماسة ٥٩/٣ (٥) مرث وأشعار مخطوط بمعهد المخطوطات ٩ ؛

(٦) زهر الآداب ٨/٢ على هامش المقد الفريد .

مما بالجزء الثانى من جمهرة أشعار العرب للقرشى (١) .

وأرجح أن هذا الجزء معزو إلى القرشى ، وليس من تأليفه . على أن به بعض القصائد المشهورة التى أجمع الأدباء على صحتها ، لكنها مزيدة كثيراً ، مثل قصيدة جليلة أخت كليب (٢) .

ومن هذا الضرب ما روى أن أمامة بنت كليب - ولم يكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة - دخلت على عمها المهايل حين قتل أباه جساس وابن عمرو ابن الحارث ، فأخبرته بقتله ، وقيل إنها وجدته سكران ، فقالت له (٣) :

أتلهو بالمالهى والخمور ولا تدرى بمواقبة الأمور  
ولا تدرى بأن كليب أخى قتيلا عند جساس الغدور  
فوا عجباً لجساس وعمرو لقد رميا أخاك بعنففير (٤)  
على ناب البسوس سراب أعنى يُبَيِّحُ دمه سدى كدم البعير (٥)

فأسلوب هذه الأبيات ركبك مخيف ، وأغلاطها النحوية كثيرة ، وكلمة عنقفير ليست من أسلوب المرأة ولا من أسلوب فتاة فى الثامنة عشرة ، ثم إنه ليس بصحيح أن مهايلاً كان يحمل قتل أخيه حتى أخبرته ابنته .

على أنه مما يخالف طبائع الأشياء أن تعلم فتاة بمقتل أبيها ، ثم تدخل على عمها فتلقى عليه شعراً ، لأن الحادث مذهل ، لا تسمع فيه البديهة بشعر ، بل الطبيعى أن تولول وتصيح .

(١) مخطوط بمكتبة تيور (٢) الجمهرة . الجزء الثانى ١٧٧

(٣) رياض الأدب ٦ (٤) عنقفير : داهية عظيمة

(٥) سراب : علم على ناقة البسوس .



# فنون شجرها

## الرثاء

أسلفت القول في حب الأم لابنها ، والمرأة لزوجها ، والبنت لأبيها ،  
والأخت لأخيها ، والقريبة لقريبها ، وذكرت نماذج من رثائهن لهؤلاء .  
ورثاء هو المجال الفسيح الذي تطلعت فيه عواطف المرأة ، لأنه نوع من  
النواح والبكاء ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو  
كربها القضاء ، وإنها لتلتذ الحزن وتستديمه ، وتوالى البكاء وتستطيعه ، وفاء  
وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات  
تسكب فيها لوعتها وحرقتها .

فهل كان لرثاء النساء خصائص تميزه من رثاء الرجال ؟

١ — الذي أحسسته في مرثيئهن أنهن يشدن بفضل المراثي من شجاعة  
وبطولة وكرم ونجدة وعفة الخ كما أشاد الرجال في مرثيئهم .  
فمثلاً ترى الخنساء صخرًا بالشجاعة في قولها :

فمن للحرب إذ صارت كلوحاً وثمّر مشعلوها للنهوض  
وخيل قد دأقت لها بأخرى كأن زهاءها سند الحضيض  
إذا ما القوم أحرَبهم تبول كذاك التَّبلُّ يطلب كالقَرُوض  
بكل مُهَمَّد عَضْب حُسام رقيق الحدِّ مصقول رَحِيض<sup>(١)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٥٨ سند الحضيض : أسفل الجبل حيث يكون أرسى وأصلب .  
أحرَبهم : هيجهم . الرحِيض : المغمول وتريد به السيف الصقل كان الماء يقار منه لشدة  
صفائه زهاءها : منظرها .

وترثيه بالكرم ، وإغاثة الجار ، وإصلاح ذات البين ، والحلم في قولها :  
 فمن لِقِرَى الأضيافِ بِمَدِّكَ إِنْ هُمْ فَنَاءُكَ حَلَوْ ثُمَّ نَادَوْا فَأَسْتَمِعُوا  
 كَمَهْدِكَ إِذْ أَنْتَ حَيٌّ وَإِذْ لَهُمْ لَدَيْكَ مَنَالَاتٌ وَرِيٌّ وَمَشْبَعٌ  
 وَمَنْ لِهَمٍّ حَلَّ بِالْجَارِ فَادِحٌ وَأَمِيرٌ وَهَى مِنْ صَاحِبٍ لَيْسَ يُرْقِعُ  
 وَمَنْ جَلِيسٌ مَفْحَشٌ جَلِيسُهُ عَلَيْهِ بِجَهْلٍ جَاهِدًا يَتَسَرَّعُ  
 وَلَوْ كُنْتَ حَيًّا كَانَ إِطْفَاءُ جِهْلِهِ بِحِلْمِكَ فِي رَفَقٍ وَحِلْمُكَ أَسْرَعُ<sup>(١)</sup>  
 وهى فى رثائها لا تخرج عن وصف أحزانها ، وتعداد مناقب أخويها ، كما  
 يعدد الرجال مناقب الرجال .

ولقد تعاضلت هى وهند بنت عتبة مصيبتيهما ، وادعت كل منهما أنها أعظم  
 بلوى ، فالخنساء تعاضم بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وهند  
 تعاضمها بأبيها عتبة وعمها شيبه وأخيها الوليد ، ولكنهما فى هذه المفاخرة لم  
 يخرججا على هذا السياج ، وإنما نوهتا بالحمد المألوفة .  
 قالت الخنساء :

أبكى أبى عمراً بعين غزيرة - قليل إذا نام الخلى هجودها  
 وصنوى لا أنسى معاوية الذى له من سرة الحرّتين وفودها  
 وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا غدا بساهمة الآطال قُبًا يقودها  
 فذلك يا هند الرزية فاعلمى ونيرانُ حرب حين شب وقودها<sup>(٢)</sup>  
 فأجابتها هند بقولها :

(١) الديوان ١٥٩ الحى : جماعة القوم ، أى لو نشب الشر بين القوم لشملهم حلمه وتدارك جهلهم . وهذا على رواية ولو كان حيا . أما الرواية التى اخترتها ( ولو كنت حيا ) فعناها لو كنت يا صخر موجوداً لتداركت هذا الشر قبل استفحاله .

(٢) الأغاني ٢١١/٤ وجمع الأمثال ٢٠٥/٢ الحرّتين : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال بالحجاز أى هو مقصد الأشراف من القبائل يأتونه فيما يلم بهم . ساهمة : دقيقة . الآطال : الخواصر جمع لطل . قب : جمع أقب الفرس الدقيقة المحصر الضامرة البطن .

أبكى عميدَ الأبطحين كليهما وحاميهما من كل باغ يريد  
أبى عتبة الخيرات وينحك فاعلى وشيبة والحامى الذمار وليدها  
أولئك آل المجد من آل غالب وفى العز منها حين يُنمى عديدها<sup>(١)</sup>  
وقالت لها الخنساء أيضاً :

من حسنَّ لى الأخوين كالفصين أو من راها  
أخوين كالصقرين لم ير نـاظر شرواها  
قرممين لا يتظالما ن ولا يُرام حماها  
أبكى على أخـو نى والقبر الذى واراها  
لا مثل كهلى فى الكهو ل ولا فتى كفتاها  
رحمين خطئين فى كبد السماء سناها  
ما خلفا إذ ودعا فى سُودد شرواها  
سادا بغير تكلف عفواً بفيض نـداها<sup>(٢)</sup>

والخنساء تنزع النزوع نفسه فى رثاء زوجها مرداس بن أبى عامر الشللى ،  
فتشيد بعزيمته وشجاعته وقوته وتخليصه السبايا :

وفضل مرداساً على الناس فضله وأن كل هم هم فهو فاعله  
وأن رباً واد يكره القوم هبطه هبطت ، وماء منهل أنت ناهله  
وسبى كآرام الصريم حويته خلال رجال مستكين عواطله  
متى ما تعادل ما جذا تعادل به كما عدل الميزان بالكف ثاقله<sup>(٣)</sup>

(١) الأغاني ٢١٢/٤ وجمع الأمثال للميداني ٢٠٥/٢ الأبطحين : مكة وسهل تهامة .  
عديدها : جموعها .

(٢) الديوان ٢٥٦ والأغاني ٢١٣/٤ حس : أدرك . شرواها : مثلها . قرمان : سيدان .  
كهلى : تريد أخاها معاوية وكان بكر لأخوته . فتى . تريد صغيراً وضمر فتاماً يعود إلى فرعى  
بنى سليم (٣) ديوان الخنساء ١٩٩ آرام : طباء . الصريم : الرمل . ناقة : وازنه .

وهذه النزعة نفسها محققة في مرثية دُخْتَنُوس<sup>(١)</sup> لأبيها لقيط بن زرارعة :  
 بَكَرَ النَّمِيَّ بِخَيْرِ خِنْدِفٍ كَهْلِهَا وَشَبَابِهَا  
 وَبَخِيرَهَا نَسَبًا إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَنْسَابِهَا  
 وَقَرِيعَهَا وَنَجِيبَهَا فِي الْمَطْبَقَاتِ وَنَابِهَا  
 وَرَئِيسَهَا عِنْدَ الْمَلِكِ وَزَيْنَ يَوْمِ خَطَابِهَا  
 فَيُؤْمَلُهَا وَيُحْوَطُهَا وَيَذُبُّ عَنْ أَحْسَابِهَا  
 وَيَبْطَأُ مَوَاطِنَ لِلْعَدُوِّ كَأَن لَّا يُمَشِّي بِهَا  
 فِعْلَ الْمَدْلِّ مِنَ الْأَسْوَدِ لَخْنِهَا وَتَبَابِهَا<sup>(٢)</sup>  
 وفي رثاء خرنق لزوجها وأبنائها الثلاثة :

لَا يَبْعَدُنُ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ سَمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزُرِ  
 النَّازِلُونَ بِكُلِّ مَعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزُرِ  
 وَاخْطَلُطُوا نَحِيَّتَهُمْ بِمُضَارِهِمْ وَذَوَى الْغَنَى مِنْهُمْ بِذَى الْفَقْرِ  
 إِنْ يَشْرَبُوا يَهْبُؤُوا وَإِنْ يَذَرُوا يَتَوَاعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الْهَجْرِ  
 قَوْمٌ إِذَا رَكَبُوا سَمِعَتْ لَهُمْ لَفْظًا مِنَ التَّأْوِيهِ وَالزَّجْرِ  
 هَذَا ثَنَائِي مَا بَقِيَْتُ عَلَيْهِمْ فَإِذَا هَلَكْتُ يَحْتَنِي قَبْرِي<sup>(٣)</sup>  
 وكذلك في رثاء الفارعة بنت معاوية<sup>(٤)</sup> ، وسارة القرظية لقومها<sup>(٥)</sup> :

(١) قال في تاج العروس ١٤٧/٤ أصله دخترنوش بضم التاء والنون أى بنت الهن . سماها أبوها باسم بنت كسرى وقلت الدين شيئا لما عرت . وقال أيضاً دخدنوس وتختنوس بفتح الدالين في الأولى والثامين في الثانية (٢) الأغاني ٣٩/١٠ والسكامل لابن الأثير ٢٤٤/١ والمناظوم والمنثور لابن أبي طاهر ٢١ بكر : أتى باكراً . قريعا : سيدها . المطبقات : الشدائد وسنوات الجدب . كان لا يمشي بها : يتعقب العدو في أما كن لم يطأها من قبل أو لم توطأ . المدل : الجرى . الوائق يقوته ، أى أنه خاطر وفعل فعل الأسد الذى يعود عليه لإقدامه بالتحف . (٣) ديوان خرنق ٣ والأمالى ١٥٨/٢ وأشعار النساء المرزباني . الهجر : الفجس . اللافت : الجلبة . التأنيب : الصوت والصياح . النجيت : المنحوت القبر . (٤) أشعار النساء المرزباني ٢٢ مخطوط (٥) معجم البلدان ٢/٢٤٣

وخريق لآلها<sup>(١)</sup> ، ودختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة<sup>(٢)</sup> ،  
وهذا الاتجاه نفسه غالب في شاعرات العصر الإسلامي والعباسي ، فمثلا  
عاتكة بنت عمرو بن نفيل رثت زوجها الزبير بن العوام ، وأشادت ببطولته  
وشجاعته في قولها :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير مُعَرَّد  
يا عمرو لو نهته لوجدته لاطائشاً رَعِشَ الجَنَان ولا اليد  
كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يابن فقع القردد  
شكلك أمك إن ظفرت بمثله فيما مضى من يروح ويفتدى<sup>(٣)</sup>

وكذلك فعلت ليلى الأخيلية في رثاء توبة بن الحمير<sup>(٤)</sup> ، وزينب بنت  
الطائرية في رثاء أخيها يزيد<sup>(٥)</sup> ، وليلى بنت طريف في رثاء أخيها الوليد بن  
طريف الشاري<sup>(٦)</sup> :

وهؤلاء وأولئك — ما عدا الخنساء في بعض مرثياتها — لم يجدن تشقيق  
المقال في وصف ما تعالج به قلوبهن من اللوعة والأسى .

ثم إن المرأة في رثائها لابنها مثلاً لم تتحدث عما كانت تؤمله فيه ، أو عما  
كانت تتشوف إليه من أن يشب ويكبر فتُحَبِّره وببنيه ، ولم تتحدث زوجة  
عن دماثة زوجها ، وحسن عشرته لها ، وعطفه عليها ، ووفائه لها .

(١) ديوان خريق مخطوط والحامسة البصرية ٩٥ مخطوط

(٢) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٣) حسن الصحابة في شرح أشعار الصعابة ٢٩٤/١  
والحامسة البصرية ٨٤ مخطوط . ابن جرموز : عمر بن جرموز التميمي قتل الزبير غيلة بوادي  
السباع في عودته من وقعة الجمل . فارس بهمة : فارس جيش والمراد الزبير . إن ظفرت :  
ماظفرت . فقع القردد : الفقم البيضاء الرخوة من الكمأة ، والقردد : ما ارتفع من الأرض .  
والمراد وصف أبيه بالذلة لأن هذا الفقم يوطأ بالأرجل ولا يمنع على من يجتنيه

(٤) حماسة البحتري ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٦ وزهر الآداب ٧٢/٤

(٥) حماسة البحتري ٤٣٣ ، وبلاغات النساء ١٩٣

(٦) حماسة البحتري ٣٥ ، والأغاني ١١/١١ و ٩/١١

أفكان مردّ هذا إلى معجزة بيانية ؟

لا ، لأن القدرة التي أسعفتهم بالإشادة بالحامد كفيلة أن تسعفهم بتصوير ذلك .

وأرجح أن محاكاتهن للرجال في رثائهم وفي إشادتهم بمفضائل المرنى ، وأن ضيق أفق خيالهن ، وعجزهن عن تصوير حزنهن ، والتعبير عن مشاعرهن بحيث يشركن الآخرين والأخريات معهن فيما يشعرون به ، هي السبب فيما نرى من شبه رثائهن برثاء الرجال ، وفيما نرى في مرثيئهن من احتباس على ذكر الحامد العامة ، حتى إننا قلما نستطيع أن نميز رثاء امرأة من رثاء رجل ، وقلما نجد في مرثيئهن ملامح ناطقة وسمات كاشفة تنبع من الأنوثة ، وتعبّر عن عواطف الإناث .

وفي الحق إنهن أشجى من الرجال قنوبا عند الفجعة ، وأشد منهم حزنا ، وأعظم لوعة ؛ لأنهن أضعف احتمالا ، وقنوبهن أسرع انحلاعا ، وإذا كان ذلك صحيحا فلماذا لم تجيء مرثيئهن أشد حرارة وأقوى تأثيرا ؟

سبب ذلك أن الانفعالات والعواطف كالطرب والغضب والحزن والفرح لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها « لأن الانفعال القرى يعقد اللسان ، ويشل التفكير ، ويشغل عما عداه . فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من شرابه ، وبعد أن يهدأ من غضبه ، إذ تصفو قريحته ، ويستطيع الخلق ، وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور السكامنة ، وإذا فهو لا يقول إلا عن روية »<sup>(١)</sup>

والنساء يفتأن حزنهن بالدموع الفزار الحرار ، وبالأهات والأنات والمويل وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموجعة ، فإذا ما عمدن إلى

القرىض مَتَّحِنٌ من عاطفة قد تنفست ، وأَوَيْنَ إلى لغة كان البكاء والنشيج ،  
والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً .

٢ — وفي كثير من مرثي الشواعر تصوير لما أصابهن من ذلة وضعف .  
بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية في رثاء أبيها :

قد كنت لي جبلاً ألوذ به      فتركتني أضجى بأجرَد ضاح  
قد كنت ذات حمية ما عشت لي      أمشي البراز وكنت أنت جَناحي  
فاليوم أخضع للذليل وأتقى      منه وأدفع ظلمي بالراح  
وإذا دعت قمرية شَجَباً لها      يوما على فَنَن دعوت صباح  
وأغض من بصرى وأعلم أنه      قد بان حدُّ فوارسى ورماحي<sup>(١)</sup>

وتعترف سلمى بنت حُرَيْث النضرية بالذلة في رثائها زوجها زفر :  
أصبحتُ نهباً لربِّ الدهر صابرة      للذل أكثرُ تحَنُّنا إلى زفر  
إلى اسرىء ماجد الآباء كان لنا      حصنا حصيناً من اللأواء والغير  
كان العباد لنا في كل حادثة      تأتي بها نائبات الدهر والقدر<sup>(٢)</sup>  
وتعترف الخنساء بتضعفها وحاجتها بعد ضرر :

فقد نلتُ أبو أوفى خِلالاً      على فكلها دخلتُ شعابي<sup>(٣)</sup>  
وتقول :

دَقَّ عظمي وهاض مني جَناحي      هُناك صخر فما أطيق بَراحا<sup>(٤)</sup>  
وليس لهذا أثارة في رثاء الرجال وإن عظم حزنهم وأمضهم الهم ،  
كمرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك<sup>(٥)</sup> ، ومرثية الأبيُّرد بن المعذر الرياحي .

(١) الأُمالي ١/٢ وشرح الحماسة للبريزي ١٨٩/٢ ونزهات الأُمالي ٢٨ ورجع ماروي  
عن أبي العلاء أن الرواية الصحيحة ( شجبا ) أي فرخها المالك وهو الهديل والشجب بفتح  
الجيم الملاك وبكسرهما المالك (٢) بلاغات النساء ١٨١  
(٣) الديوان ١٤ أبو أوفى : كنية صخر (٤) الديوان ٣٤  
(٥) المفاتيح ٦٥/٢ والأُمالي للبريزي ١٨ مخطوط

لأخيه بُرَيْد<sup>(١)</sup> ، ومرثية دُرَيْد ابن الصّمة لأخيه عبد الله<sup>(٢)</sup> ، وصرافى المهلهل  
لأخيه كُثَيْب<sup>(٣)</sup> ، ورناء أبى ذؤيب الهذلى لبنيه<sup>(٤)</sup> ، ورناء أبى زُبَيْد  
الطائى لابن أخيه<sup>(٥)</sup> ومرثية أوس بن حجر لفضالة بن كِلْدَة<sup>(٦)</sup> .

٣ — وهن أكثر من الرجال ذكرا للأوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء  
والدموع والوجعة ؛ لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى  
فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، حتى تنتسم  
مرائهن بالنواح أكثر مما تنسم بغيره ، ونواحهن متشابه لا تميز بينه  
ولا خلاف .

فمثلاً تقول الخنساء :

تقول نساء شبت من غير كبرة      وأيسرُ مما قد لقيت يُشيب  
أقول أبا حسان لا العيش طيب      وكيف وقد أفردتُ منك يطيب؟  
ذكرتك فاستعبرتُ والصدر كاظم      على غصة منها الفؤاد يذوب  
لعمري لقد أوهيت قلابى عن العزا      وطأطأت رأسى والفؤاد كئيب  
لقد قُصمت منى قناسة صليبة      ويُقصمُ عود النَّصب وهو صليب<sup>(٧)</sup>  
فهبى تتحدث عن شيبها قبل أوان الشيب ، وعن مرارة حياتها ، وعن  
دموعها وغصتها ، وحرقة فؤادها ، وعن عجزها عن التصبر ، وكآبة قلبها ،  
وطأطأة رأسها ، ثم عن فقدانها سندها الذى كانت تعتمد عليه .

(١) مرات وأشعار لليزيدى مخطوط والأمالى ٢/٣

(٢) شرح الحماسة للبربرى ١٥٦/٢ والأمالى لليزيدى ٣٥

(٣) الأمالى للقالى ١٢٩/٢ والأمالى لليزيدى ١١٦

(٤) حماسة الحالد بين ٣٨٧ مخطوط (٥) الأمالى لليزيدى ٧ - ١٣

(٦) ديوان أوس بن حجر ٢٢

(٧) الديوان ١٥ النصب : العلم المنسوب أو عود النبع وهو شجر تتخذ منه القسي .

أبو حسان : كنية لصخر .



وتقول أيضاً :

ألا ياعين فانهمري بفزّر وفيضي فيضةً من غير نَزْر  
ولا تعدى عزاء بعد صخر فقد غلبَ العزاء وعيل صبرى  
لمَرْزُوقَةٍ كَأَنَّ الجوف منها بُعِيدَ النومُ يُشْعِرُ حَرَّ جَمْرٍ<sup>(١)</sup>  
وتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى هُلكُ صخر فما أُطِيقَ بِرَاحِ<sup>(٢)</sup>  
وتقول فى توالى دموعها :

ألا ما لعينى ألا مالها لقد اخضل الدمع سر بالها<sup>(٣)</sup>  
وتقول أيضاً :

قدّى بعينك أم بالعين عَوَّار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار<sup>(٤)</sup>  
وإذا ما نضب دمعها ، ورقأت جفونها استمطرتها وحثتها على التسكاب :  
يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذا راب دهر وكان الدهر ريباً<sup>(٥)</sup>  
وتقول :

يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جاء فى الأسماط منقوب<sup>(٦)</sup>  
وكذلك تقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

يا عين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح<sup>(٧)</sup>  
وتقول صنفية بنت مسافر فى بكاء أهل القلب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش :  
يا من لعين قذاها عائر الرمد حدّ النهار وقرن الشمس لم يقْد

(١) الديوان ٦٧ غزّر : دمع غزير . نَزْر : قلة . عيل : غلب . مرزُوقَة : مصيبة .  
يشعر : يالصح به . (٢) الديوان ٣٤ دق عظمى : هزل . ما أُطِيقَ بِرَاحِ :  
لا أستطيع التحول من مكان إلى آخر (٣) الأغاني ٦٩/٨ والديوان ٢٠١  
(٤) الأغاني ١٣١/١٣ (٥) ديوان الحنساء ١  
(٦) الديوان ١٢ (٧) الحماسة البصرية ٩٥

. . . . .

قوى صفى ولا تنسى قرابتهم وإن بكيت فما تبكين من بعد<sup>(١)</sup>  
وتقول سليمى بنت المهليل فى رثاء أخيها .

أعنيّ جودا بالدموع السّوافح على فارس الفرسان فى كل صافح  
أعنيّ إن تَفَنَّى الدموع فأوكفا دما بارفضاضٍ عند نوح النوايح  
ألا تبكيان المرتجى عند كل مشهد يثير مع الفرسان تقع الأباطح<sup>(٢)</sup>  
أما الرجال فإنهم يتجلدون ويفأخرون بتجلدهم ، كأنس بن مُذركة الخثعمي .  
فى قوله :

كم من أخ لى كريم قد فُجِفْتُ به ثم بقيتُ كأنى بعده حجير  
لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتى دونه العذر<sup>(٣)</sup>  
وقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لى صالح بوأته ييدى لحداء  
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا  
ما إن جَزِعْتُ ولا هَلُمْتُ وما يرد بكأى زندا<sup>(٤)</sup>

ونجد بعض الرجال يعرضون البكاء عرضاً سريعاً عجلاً ، كقول متمم .  
ابن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

فعنيّ هلا تبكيان لملك إذا أذرت الريح الكنيف المرفعا  
أبى الصبر آيات أراها وأنتى أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا  
وأنى متى ما أدعُ باسمك لا تجب وكنت جديراً أن تجيب وتسمعا

(١) سيرة ابن هشام ١٧/٢ : العائر : وجع العين .

(٢) مرأى شواعر العرب ١٨ صافح : ضارب بعرض السيف .

(٣) حماسة البحتري ١٩٢ (٤) حماسة البحتري ١٩٣ وشرح الحماسة للبهرى ١/٩٢ .

وإني وإن هارلتني قد أصابني من الرزء ما يبكي الحزين المنفجعا<sup>(١)</sup>  
وقول مهلهل في رثاء كليب :

أبت عيناي بعدك أن تكفأ كأن غضا القتاد لها شِفَار  
كأنني إذ نعى النساعى كليباً تطاير بين جنبيّ الشرار  
فدُرْتُ وقد عشا بصرى عليه كما دارت بشاربها العُقَار<sup>(٢)</sup>

وأي فجيعة يفجع بها رجل أقى من أن يفقد بنيه الثمانية ؟  
لقد نزلت هذه الكارثة بأبي ذؤيب الهذلي فلم يتضمضع كالتضمضع المرأة ،  
لكنه بكى وتحدث عن بكائه في إنجاز ثم تجلد :

أودى بنى فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع  
سبقوا هوىً وأعنقوا لهوام فتخرموا ولكل جنب مصرع  
فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع  
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع  
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع  
فالعين بعدهم كأن جنونها سملت بشوك ففى عؤرا تدمع  
وتجلدى للشامتين أريهم أنى لزيب الدهر لا أتضمضع  
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع<sup>(٣)</sup>

ولقد رثى الأيبرد بن المعذر الرياحى أخاه برّيدا فتفجع وتوجع ، ولكن فى  
رجولة كقوله :

تطاول ليملى لم أنمه قلباً كأن فراشى حال من دونه الجمر  
أراقب من ليل التمام نجومه لدن غاب قرن الشمس حتى بدا الفجر

(١) الفضليات ٦٧/٢ و ٦٩ و جهرة أشعار العرب ٢٩٢

(٢) أخبار المراقبة ٤٨ شفار : أى جنونها وأشعارها كشوك القتاد فلا تنطبق . عشا :

من باب رضى ودعا أى عمى (٣) جهرة أشعار العرب للقرشى ٢٦٤

تذكرت علقاً بان منا بنصره      ونائله يا حبذا ذلك الذكر  
 فإن تكن الأيام فرقن بيننا      فقد عذرتنا في صحابته العذر  
 وكنت أرى هجرأ فراقك ساعة      ألا . لا . بل الموت التفريق والهجر  
 أحقاً عباد الله أن لست لاقيا      برُيداً طوال الدهر ما لأ لا العفر؟  
 فلما نعى الناعى برُيدا تبدلت      بي الأرض فرط الحزن وانقطع الظاهر  
 إلى الله أشكو في برُيد مصيبي      وبني وأحزاننا يجيش بها الصدر<sup>(١)</sup>  
 ٤ - ولقد يعبرن تعبيراً نسوياً يكثردورانها على ألسنة النساء ، كقول  
 الخنساء :

تعرفتني الدهر نهساً وحزاً      وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً<sup>(٢)</sup>  
 وكذلك تكرر كلمة (لهفي) في قولها :  
 لهفي على صخر فإنى أرى له      نوافل من معروفة قد تولت  
 لهفي على صخر لقد كان عصمة      مولاه إذ نعل ، بمولاه زلت<sup>(٣)</sup>  
 وفي قولها :

فيا لهفي عليه ولهف أئى      أبصبح في الضريح وفيه يمى؟<sup>(٤)</sup>  
 وتعبر بكلمة (ويلي) :

ويلي عليه ويئالة      أصبحت حصني منكسر<sup>(٥)</sup>  
 وتقول ناجية بنت ضَمْصَم المريّة في رثاء أخيها هرم :  
 يالهف نفسى لهفة المفجوع      ألا أرى هريماً على مودوع  
 من أجل سيدنا ومصرع جنبه      علق الفؤاد بمنظّل تجدوع<sup>(٦)</sup>

(١) مرث وأشعار الليزدي مخطوط ٨١٦ (٢) الديوان ١٤٣ وأمالى ابن الشجرى

٢١٥/١ نهساً : نهساً . قرعاً : ضرباً على الرأس . غمزاً : نخساً باليد

(٤) الديوان ١٥٣

(٣) الديوان ٢١

(٥) الديوان ١٢٤ (٦) لسان العرب ٢٦٤/١٠ والأغانى ٣٠/١٦ مودوع :

اسم فرسه . حنظل مجدوع : حنظل وبيل وخم يميت .

٥ - وتضطبع مرثيهم بوحدة الموضوع ، ولهذا تندرج فيها الحكمة ، وتخلو من التمهيد .

على أن في مرثي الرجال حكمة أحياناً ، وتمهيدا غزلياً أحياناً أخرى<sup>(١)</sup> .  
والحكمة التي في رثاء الرجال متصلة بالموت وأحداث الدهر وفواجهه كقول أبي ذؤيب :

ولقد حَرَضْتُ بأن أدافع عنهم      وإذا المنية أنشأت أظفارها لا تدفع  
وإذا المنية أنشأت أظفارها      ألفت كل تميم لا تنفع  
والنفس راغبة إذا رغبها      وإذا تُرِدُّ إلى قليل تقنع  
والدهر لا يَبْقَى على حدثانه      مستشعرٌ حلقَ الحديد مقنّع<sup>(٢)</sup>  
وقول أبي زُبَيْد الطائي في رثاء ابن أخيه الجلاح :

إن طول الحياة غير سُـمُود      وضلالٌ تأميل طول الخلود<sup>(٣)</sup>  
وقول الغنوي في رثاء أخيه :

لعمركم إن البعيد لما مضى      وإن الذي يأتي غداً قريب<sup>(٤)</sup>  
ولم أجد في مرثيهم من الحكمة إلا قليلاً جداً ، كقول عمرة أخت عمرو ذى الكلب في رثائه :

كل امرئٍ بِمِحال الدهر مكذوب      وكل من غالب الأيام مغلوب  
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا      يوماً طريقتهم في الشر دُعُوب  
وكل من غالب الأيام من أحد      مُودٍ وتابعُهُ الشبان والشيب<sup>(٥)</sup>

(١) الغزل في العصر الجاهلي ٢٦٠

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٦٥ (٣) الأماشي لايريدي ٧ مخطوط ، وجمهرة أشعار العرب ٢٨٦ (٤) جمهرة أشعار العرب ٢٧٤ وذكر القرشي أن اسمه محمد بن كعب وفي خزنة الأدب للبندادي أن اسمه كعب بن سعد الغنوي ، وفي لسان العرب أن اسمه ابن سويد الغنوي (٥) حسنة البحتري ٤٢٩ ولسان العرب مادة دعب ورياض الأدب ٧٦ دعوب : طريق مذلل موطوء ملوك

وكذلك هذه الأبيات من رثاء سُعدَى الجَنَنِية لأخيها أسعد بن السَّمَرْدَل :

ولقد بدالى قبلُ فيما قد مضى وعلمت ذاك لو أنَّ علماً ينفع  
أنَّ الحوادث والمنون كلاهما لا يُعْتَبَان ولو بسكى من يجزع  
واقعد علمت بأن كلَّ مؤخَّر يوماً سبيلَ الأولين سَيَتَّبِع  
ولقد علمت لو أنَّ علماً نافع أن كلَّ حى ذاهب فمُودَّع<sup>(١)</sup>

وقول الخنساء :

أرى الدهر يرمى ما تطيش سبامه وليس لمن قد غاله الدهر مرجع<sup>(٢)</sup>  
وأغلب الظن أن خلو مرثئيهن من المقدمة الغزلية صدى لأنوثتهن ، فإن  
غزلهن - كما سيظهر - نادر ومستور .

أما ندرة الحكمة في رثائهن فمرجعها إلى أنهن ينصرفن إلى النواح ،  
ويستغرقن في الرثاء لا يلوين على غيره ، فلا يلحقن به سواء ، كما كان الرجال  
يفعلونه .

ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن المرأة تنجح إلى التخصيص ، والرجل ينجح إلى  
التعميم ، فنظرتها شاملة ، ونظرتها جزئية ، ونظرتها موضوعية مجردة ، ونظرتها  
فردية محددة ، لهذا لم تمتد نظرها إلى ما وراء الفاجعة من عبر وعظات ومفارقات .  
يقول بعض الباحثين إن المرأة بوجه عام « تجذب انتباهها حادثة ما أكثر  
من فكرة ما ، والرجال يهتمون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء  
ذاتها . وهذا الرأى يتفق مع رأى جون ستيوارت مل ؛ لأنه رأى أن المرأة تفكر  
في الأشياء على أنها جزئيات منفصل بعضها عن بعض ، ولا تفكر فيها على أنها  
مجموعات متصلة مترابطة<sup>(٣)</sup> » .

ثم إن المرأة أقوى وأحد من الرجل عاطفة ، وعاطفة حزنها تتجلى في هلعها

(١) لسان العرب ١٠٩/٩ و ٣٧٩ و ٣٦٩/١٣ ورياض الأدب ١٣٢

(٢) الديوان ١٦٣ (٣) نسية الراهق ٤٦ رياض عسكر

(٤٠) - المرأة في الشعر الجاهلي ( )

«وجزعها وعويلها ونحيبها ، وصياحها برزها . وليس هنا مجال للحكمة ، لأن الحكمة وليدة العقل والتفكير ، وهذه العاطفة الملتببة تقضى على العقل والتفكير

\* \* \*

وقد تزعمت الخنساء شواعر الجاهلية والإسلام في الرثاء ، لكثرة ما رثت أخويها ، ولجوذة مرثياتها ، وحرارة عاطفتها . وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق عكاظ بعد أن أنشده الأعشى وحسان — وكانت له قبة حمراء تأتيه فيها الشعراء فتنشده — فقال لها : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك . فقالت ولا ذا خصيتين<sup>(١)</sup> . وروى أنها أنشدته قصيدتها التي مطلعها :

قدى بعينيك أم بالعين عوار .  
حتى انتهت إلى قرلها :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار  
وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشئوا لنحار  
فقال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى - أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة . ففضض حسان وقال :  
والله لأنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ومن جدك<sup>(٢)</sup>

ويظهر أن حسانا أراد فيما بعد أن يهون من حكم النابغة ، فقد روى عنه قوله : جئت نابغة بني ذبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشدته ، فقال إنك لشاعر ، وإن أخت بني سُلَيم لبكاءة<sup>(٣)</sup> .

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرثاء ، واعترفوا بقدرة بعض النساء .

(١) الشعر والشعراء ١/٣٠٢

(٢) الأغاني ٩/١٥٦ و ٨/١٨٨ وبلاغات النساء ١٦٩ وفي الشعر والشعراء ٣٠٢  
أن حسانا غضب هذه الغضبة لما فضل النابغة الأعشى عليه . ومن معاني المثانة موضع الولد من الأنثى

(٣) الأغاني ٤/١٦٧

يقول أبو العباس : كانت الخنساء وليلى بائنتين فى أشعارهما ، متقدمتين  
لأن كثر الفحول ، ورب امرأة تتقدم فى صناعة ، وقلما يكون ذلك . ثم ذكر أن  
الجاحظ كان يُخَضِّرُ ذهنه ، ويجمع نفسه حين تحدّثه هاشمية جارية حمدونة ، مخافة  
أن تورّد عليه ما لا يفهمه ، لبعده غورها واقتدارها . وكان يشارفُ يقول ، لم تقل  
امرأة شعرا إلا تبين الضعف فيه فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان  
لها أربع خُصَى<sup>(١)</sup> . وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات الغرّ—واحدها أغرّ ،  
وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه ، وكان لو طرح آخره لأغنى  
أوله بوضوح دلالة — وهو :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار  
وذكر لللى الأخيلىة بيتاً هو :

قوم رباط الخيل حول بيوتهم وأسنة زرق يُخَلِّقْنَ نجومًا<sup>(٢)</sup>  
وبعد فإن رثاء المرأة لابنها وزوجها وأبيها وأحيها وقومها « دليل على سمو  
خلفها وعلو مكانتها عند العرب فى الجاهلية ، لأنّها فى نظرهم جديرة برثاء الموتى  
والإشادة بفضليهم<sup>(٣)</sup> .



## التحميس على القتال وعلى الثأر

١ — عاش العرب في حروب تتوالد، وغارات تتوالى ، فكثر فيهم القتل والجرح والأسر والغنم ، وطبعى أن يجد المهزوم على هازمه ، وكانت نار موجدته لا تنطفئ إلا بأن يثأر لنفسه . لهذا كان العرب كلفين بالثأر أيما كلف ، يخرمون الذات من خمر ونساء وطيب حتى يدركوا وترهم ، وإن كان الوتر قريباً . وكانت النساء دائبات على إشعال الحفيظة للثأر ، وكن لا يفترن عن تذكير الرجال به ، وحضهم عليه بوسائل شتى .

ولعل الرجال لم يكونوا بحاجة إلى هذا الحض ، وإنما أرادت النساء أن يشركوهن في التأفيف على إدراك الثأر ، والتشوف لغسل الدم ومحو العار ؛ لأن المنفعل في حاجة إلى أن يشعر بمشاركة غيره له في انفعاله ، ولا تشذ عواطف العداوة عن هذا ، « فنحن نحرض الحرص كله على استمالة الآخرين إلينا في غضبنا وفي كراهيتنا ، ولا ترضى هاتان العاطفتان إلا إذا قام حكم غيرنا على صدق الدافع إلى الغضب والكراهية ، ونحن لا نمل البرهنة على وجاهة الأسباب التي دفعت إلى البغض أو الكراهية ، ومعنى هذا أننا لا نمل من محاولة إقناع الآخرين بأنه لا بد أن يشعروا بما نشعر به <sup>(١)</sup> » .

٢ — وقد قلنا شعراً في التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين كما سبق في الحروب . وقلنا شعراً يحرض به على الثأر كما سبق في المرأة والثأر .

وكن يزدرين الدية وقابل الدية ، تقول امرأة من ضبة لقومها : ارفضوا الدية ، وأذيقوا خصومكم سلاحكم ، فإن لم تفعلوا وتثأروا فلا حابت نوقم لبناً :  
ألا لا تأخذوا لبناً ولكن أذيقوا قومكم حدّ السلاح  
فإن لم تثأروا عمرا يزيد فلا درت لبون بني رباح <sup>(٢)</sup>

(١) مقدمة في علم النفس الاجتماعي ٢٢٨ (٢) دراسة العنزي ٣٢ اللبن : جمع لبون ، ومى الناقة ذات اللبن .

وقد حرضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على النار لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية ، أو حين توهمت أنه سيقبلها ، فتحدثت بلسان القتليل محتاجة حميتهم ، ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، منددة بهم إن لم يثأروا ، مشبهة إياهم بالنعام في جنبه وفراره ، ثم قالت لهم : وحينئذ أتم أذل الناس ، فلا تردوا الماء إلا بعد أن تفرغ طوائف الرجال والنساء الطاهرات ثم الحيض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه إلى قومه : لا تَعْقِلُوا لَهُمْ دَمِي  
ولا تأخذوا منهم إقلاً وأبكراً وأنزل في بيت بصعدة مُظْلَم  
ودع عنك عمراً إن عمراً مسلم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم ؟  
فإن أنتم لم تثأروا واتدبتم فمشوا بأذان النعام المصلّم  
ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم<sup>(١)</sup>  
وبمثل ذلك حرضت بنت حكيم العبدية قومها<sup>(٢)</sup> .

وكثيراً ما حرضت الخنساء على النار لأخيها صخر كقولها :

ولن أسالم قوما كنت حربيهم حتى تعود بياضاً جُؤنة القار  
لا نوم حتى تعود الخليل عابسة يَنْبُذَنَ طَرَحاً بِمَهْرَاتٍ وَأَمْهَار  
أو تحفروا حفرةً والموت مكتنع عند البيوت حُصِينًا وابن سيار

(١) شرح التبريزي للحماسة ١١٧/١ وحاسة البحرى ٣٠ والأملى ٢٢٦/٢ وأساس البلاغة . مادة رمل . قال التبريزي : « مشوا أى امشوا ، ومن روى مشوا بضم الميم فعناه امسحوا . والمعنى إن لم تقتلوا قاتلي وقتلتم ديني فامشوا أذلاء بأذان مجدعة كآذان النعام . ووصف النعام بالمسلم تصغيراً لها وإن كانت خليفة . يقول كأنكم لم تعيرون ليست لكم آذان تسمعون بها فامشوا صمًا عما يتكلم به الناس من عيبكم . وفي لسان العرب رواية بفتح الميم ورواية بضمها . قال : والطليم مصلم الأذنين وصف بذلك لصفتهما وقصرهما . فإذا أطلق على الناس فإنما يراد به الذليل المهان » (اللسان مادة سلم ومش) ولا شك أن فتح الميم أولى ارتملت : فملطخت بالدم

فتفلسوا عنكم عاراً يجلّاكم غَسَلَ العوارك حَيْضاً بعداً طَهَاراً<sup>(١)</sup>  
 ٣ — ولقد كان تحريضها مستجاباً دائماً ؛ لأنه صادف هوى من نفوس  
 النافرين ، ولأنه حث من المرأة على الشجاعة وهى طبيعة فى العرب ، ثم هم تواقون  
 إلى أن يحققوا أمل المرأة فى شجاعتهم . فلقد حرصت كَنْزَةُ أم شَمْلَةَ بن بُرْد  
 المنقرى ولدها شَمْلَةَ على الثَّار بقولها : إني واثقة من شجاعة ابني وثَّارَه من خصومنا ،  
 فاستجاب لها وثَّار :

إن يك ظنى صادقا وهو صادق بِشَمْلَةَ يحبسهم بها مَحْبَساً أَرْلا  
 فيا شمل شمر واطلب القوم بالذى أُصِيبَتْ ولانقبل منهم قصاصاً ولأعقلاً  
 وقالت أيضاً :

لهفى على القوم الذين تجمعوا بذى السِّيد لم يلقوا عليا ولا عمرا  
 فإن يك ظنى صادق وهو صادق بِشَمْلَةَ يحبسهم بها مَحْبَساً وعرا<sup>(٢)</sup>  
 ٤ — وإذا ما هزم قومها قرعتهم ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة  
 ابن مُكْدَّم جمع غامد وجده :

ألاهل أتاها على نأيتها بما فضحت قومها غامد ؟  
 تمنيتم مائتى فارس فردكم فارس واحد  
 فليت لنا بارتباط الخيول ضاناً لها حالبٌ قاعد<sup>(٣)</sup>

٥ — ولقد تهدد أعداءها وتوعدهم بالغارة ، كقول امرأة من بنى عامر :

وحرب يضج القوم من نقيانها ضجيج الجمال الجِلَّة الدِّبرات  
 ستركما قوم ويظلى بحرهما بنو نسوة للشكل مصطبرات

(١) ديوان النساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفروا : تطعنوا . مكتع : دان . حصين .  
 ابن ضمضم ومنصور بن سيار المريين . العوارك : الحوائض .  
 (٢) شرح الحامسة للتبريزى ١١٨/٢ . أَرْلا : سَجَأَ دائماً . لانقبل قصاصاً : لانقبل .  
 واحداً بواحد . العقل : الدية . السيد : اسم موضع (٣) البيان والبيان ٢٠٨/١

فإن يك ظني صادقا وهو صادق بكم وبأحلامكم صفيرات  
تُعَدُّ فيكم جَزَرُ الجزور رماحنا ويمسكن بالأكباد منكسرات<sup>(١)</sup>

٦ - ولقد تشيد بمن يشقى حتفها فيثأر لها ، كما شادت الخنساء بقیس  
ابن عامر الجشمي إذ قتل هاشم بن حرملة الذي قتل أخاها معاوية ، فدحته وفدته  
بنفسها وبأعرائها جميعاً وبنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ، وذلك لأنه أقر عينها  
فذاقت النوم بعد الأرق الطويل :

فدَى للفراس الجشمي نفسي أفديه بمن لي من حميم  
أفديه بكل بني سليم بظاعنهم وبالأنس المقيم  
كما من هاشم أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم  
خصصتُ بها أبا الأمرار قيساً فتى في بيت مكرمة كريم<sup>(٢)</sup>  
وكن يشفين بالثأر ، ويجدن فيه تضميذاً لجراحهن . تقول الخنساء لعامر الجشمي :  
كما من هاشم أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم<sup>(٣)</sup>  
وتتحدث صفية بنت الخزع عن جُبرتها بقتل عبد يغوث ثأراً للنعمان  
ابن جَسَّاس :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفِيت وما قتلنا به إلا امراً دونه<sup>(٤)</sup>  
وكذلك تتحدث خُرَيْقٌ إذ نكل قومها ببني أسد ، وثأروا الزوجها بشر :  
فقد قُطِعَتْ رعوس بني قُعمين وقد نُقِعَتْ صدور من شراب<sup>(٥)</sup>

(١) شرح الحماسة للبربري ١٣٢/٢ وأشعار النساء للرزباني . نفيانها : المراد ما  
يظهر من دمائها . الجملة : المسنة . الدبرات : جمع دبيرة وهي التي بها قرحة . أحلام صفيرات :  
عقول ضعيفة وهذا تهديد لهم وتوعد . تقول إن صدق ظني في فساد عقولكم وعدمي لما نكركه .  
عادت رماحنا تقتلكم في سرعة وتصيب مقاتلكم وأكبادكم .

(٢) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغاني ١٣/١٤٠ ولسان العرب .

٧٨/١٦ .

(٤) الأغاني ١٥/٧٣

(٣) الديوان ٢٣١

(٥) ديوان الحرني ٧ مخطوط

٧ — أما الرجال فكانوا يتهمدون الأعداء بالثأر ، ولا يدعون غيرهم إليه غالباً ، بينما كانت النساء في الغالب محرضات لرجالهن محمسات ، يكنّ إليهم تحقيق الثأر ، لأنهم عليه أقدر .

فمثلاً يقول المهمل في رثاء كليب :

خذ العهد الأكيد على عمري      بتركي كل ما حوت الديار  
وهجرى الغانيات وشرب كأس      ولُبسي جُبَّة لا تستعار  
ولست بخالِع درعى وسيفي      إلى أن يخلع الليلَ النهار  
وإلا أن تبسّد سَراة بكر      فلا يَبْقَى لها أبداً آثار<sup>(١)</sup>  
فهو يحرم على نفسه كل طيب ، ويهجر الغواني والجر ، ولا يغير ملبسه ، ولا يخلع درعه أو يلقي سيفه حتى يثأر ثأراً يشفى .

ويقول دريد بن الصَّمّة :

سُلِّتَ يميني ولم أشرب معنّة      إن أخطأ الموت أسماء بن زنباع  
وكان عصمة بن حذرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمرًا ، ولا يمس امرأة ، ولا يفنسل حتى يقتل من عبس سبعين رجلاً بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنني من عبس      صاغ شرابي وشفيت نفسي  
وكنت لا أقرب طَهْرَ عِرْسي      وكنت لا أشرب فضل الكأس  
ولا أشد بالخوف رأسي<sup>(٢)</sup>

وهذا الاتجاه في شعر الرجال مثل امرئ القيس<sup>(٣)</sup> ، وتأبط شراً<sup>(٤)</sup> ، والمثلث ابن عمرو التنوخي<sup>(٥)</sup> ، وزيادة الحارثي<sup>(٦)</sup> .

(١) أخبار المراقبة وأشعارهم ٤٩ وشعراء النصرانية ١٦٤ (٢) معجم الشعراء  
للغزواني ٢٧٤ الخواف : الخطمي يفصل به الرأس (٣) الديوان ١٥٢ وشعراء النصرانية ٩٣  
(٤) شرح التبريزي للحجاسة ١٦٠/٢ (٥) المؤلفات والمختلف ١٨١ وشرح التبريزي  
للحجاسة ١٨/٢ (٦) شرح التبريزي ١٣٠/١

### ٣ - الهجاء

١ - كان الهجاء فناً شعرياً عظيم القيمة والخطر في الحياة الجاهلية ، لأنه حرب لسانية لا بد منها مع حرب الرمح والسنان ، تسبقها آنا وتمهد لها ، وتصاحبها آنا فتؤجج أوارها ، وتلاحقها حيناً فتزيد الخزاية والنسكال . وقد كان إلقاء الهجاء يصحب أحياناً بمظهر خاص للشاعر ينبىء عن الشر والفضب ، كأن يجمع شعر رأسه في ناحية ، أو يدلى عباءته في غير اساق وانتظام ، أو ينتعل قدماً واحدة ، ويترك الأخرى ، كما فعل لبيد بن ربيعة العامري حين هجا الربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر <sup>(١)</sup> .

وكذلك كان الهجاء عند الأمم الأخرى عظيم الأثر أبضاً ، حتى اقد تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتأخص في كلمة الهجاء La satire ، وهذه الكلمة لا تثير في أذهاننا نحن المتحضرين غير فكرة أنه تمرين أدبي عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه كان في وقت ما يتقمصه ساحر ، وكانت لعنته فادحة تصيب من توجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك من نتائج ، فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده المجائية أن يلقى اليأس في قلب والد معشوقته ، وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقصى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها .

ورواة هذه القصة يحكونها على أنها أسطورة تشيد بموهبة أرشيلوك لا بخلقه ، ولكن ليس من العدل أن نعتقد ذلك ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها ، فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على لكمبيس L'ycambés ونيو بولييه Néobule إذ قذفها بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل

عن الساحر الآثم إلا في العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . وقد ظل الناس في كثير من الأقطار حيناً طويلاً لا يميزون بينهما<sup>(١)</sup> .

ولكن لم يرد عن العرب أنهم أضفوا على الشاعر الهجاء خصائص الساحر أو خصائص الكاهن كما ذهب نيكلسون في قوله : « وكانوا يعتقدون أن الهجاء الذي يوجهه الشاعر للأعداء شديد الأثر والخطورة ، وكان لقوافيه التي تشبه بالرماح الأثر الذي للعنة التي يرسلها نبي أو قسيس ملهم<sup>(٢)</sup> » .

٢ — وقد شاركت النساء في الهجاء على نذرة وإيجاز ، وتختلف قاصٍ عن الرجال .

وكان الباعث عليه إما ردّاً على مثله ، وإما ضيقاً بعمل ، أو بغضة لشخص .  
مثلاً لما خطب دريد بن الصمة الخنساء ، ورفضته قائلة : ما كنت لأدع بني عى وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً ، وسخط عليها وهجاها بقوله :

وقاك الله يا بنـة آل عمرو من الفتيان أشباهى ونفسى  
وقالت إننى شيخ كبير وما نباتها أنى ابن أمس  
فلا تلدى ولا ينكحك مثلى إذا ما ليـلة طرقت بنحس  
تريد شرئبت القدمين شئناً يياشر بالعشية كل كرس  
فأجابته بقولها :

معاذ الله ينكحنى حبر كى قصير الشبر من جشم بن بكر  
يرى شرفاً ومكرمة أناها إذا أغذى الجليس جریم تمر  
ولو أصبحت فى جشم هدياً إذا أصبحت فى دس وفقر  
قبيلة إذا سمعوا بذعر تخفى جمعهم فى كل جحر<sup>(٣)</sup>

(١) اللغة . ج فندريس ٢٣٨ ترجمة الدواخلى والقصاص .

(٢) Nicholson P. 78 (٣) الديوان ١٢٠ والأغانى ٣٠/١٣ ولسان

العرب ٢٩/١٢ والأمالى ١٦٢/٢ طرقت بنحس : جاءت بظلمة وغبرة والمراد إذا حدثت حرب . شرئبت : غليظ السكين أو الأصابع . الكرس : البعر والبول المتجمد . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفهما يكاد يكون مقعدا . القصير الشبر : المتقارب الخطو . جریم : تمر يابس . شئن : غليظ

فرمته بضعف الجسد ، وبطء المشية ، والشيخوخة ، وبالبخل ، ورمت قبيلته بالجن . وفي الأغاني رواية أخرى<sup>(١)</sup> أنها رفضته وقالت لأبيها :  
أَتَخْطِبُنِي هَبَلًا عَلَى دَرِيدٍ      وَقَدْ أَطْرَدْتُ سَيِّدَ آلِ بَدْرِ  
مَعَاذَ اللَّهِ . . . . . الأبيات

وفي الديوان وفي الأملى أنها قالت هذا القول لأخيها معاوية ، وكان يريد أن يكرهها على زواج دريد<sup>(٢)</sup> . ولكني أرجح أن دريداً هو الذي بدأها بالهجاء ، وأوثر الرواية الأولى لأبي الفرج ، لأن دريداً قد تغزل بها وتمناها ، فكان حسبها أن تقنع برده ورفضه ، وليس هناك باعث على الهجاء ، فلما هجأها هجته . ثم إنها كانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها ، روى أن حسناً قال لها يوماً : اهجي قيس بن الخطيم . فقالت : لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته فوجدته في مشرفة ملتقاً في كساء ، فنخسته برجلها ، وقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، وكأنها تعرض عبداً تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائماً ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبداً<sup>(٣)</sup> . وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء أنها كانت لا تبدأ بالهجوم ، ولا تهجو إلا من يستحق هجاءها .  
وقد استشاط حزن دخنوس على أبيها لقيط بن زرارة إذ قتل في يوم شعب جيلة ، وكان لواء الرباب ذلك اليوم مع رجل من أشراف الرباب يقال له النعمان . ابن قَهْوَس التميمي ، وكان من فرسان العرب ، ففر وترك لقيطاً فقتل ، فهجته دخنوس بقولها :

ع بَكَفَهُ رَمِجَ مِثْلُ	قَتَلَ ابْنَ قَهْوَسٍ الشَّجَا
كَأَنَّهُ سَمْعٌ أَزَلُّ	يَعْدُو بِهِ خَاظِلِي الْبُضَيْعِ
غُظْفَانِ إِنْ سَارُوا وَحَلُوا	إِنَّكَ مِنْ تَيْمٍ فَدَعِ

(١) الأغاني ١١/٩

(٢) الديوان ١١٩ والأملى ١٦١/٢

(٣) الأغاني ١٠/٣



لا منك عزهم ولا آباك إن هلكوا وذلوا  
فخر البغى بمحذج رببتها إذا الناس استنقلوا  
لا حذجها ركبته ولا لرغال فيه مستظل  
ولقد رأيت أباك وسط القوم يبرز أو يحل  
متقلدا ربيع الفرا ركانه في الجيد غل<sup>(١)</sup>

فتمكنت به إذ وصفته بالشجاعة ، رهجته بالجبن والفرار السريع ، ثم حقرت  
من شأنه بأنه من تيم فلا يحدر أن يلتحق بغطفان ، وقالت له إن نخره ونخر قومه  
بغطفان كالأمة التي تفخر بسيدتها لا بنفسها ، ثم غيرته حقارة أبيه ، فقالت : إنها  
رأته جباناً يخضع ويخضع ، ويجمع البعر ، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم حين يضع  
حيالها في عنقه كالغل ، فهو عبد حقير .

وكذلك هجت الخرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو  
ابن هند فقتله<sup>(٢)</sup> ، ومن هجائها قولها :

ألا ثكلتك أمك عبد عمرو أبا نخزيات واخيت الملوك؟  
هم ركوك للوركين ركلا ولو سألوك أعطيت البروكا  
فيوما عند زانية هلك كصل الرجع مزهرها خوكا<sup>(٣)</sup>

فهى تدعو عليه بالحتف ، وتعجب من منادته عمرو بن هند وهو موصوم  
بالخزي ، وتحقر من شأنه بأن الملوك نبذوه وحقوقه ورضى عن ذلك ، ولو أنهم  
سألوه أعز ما يملك أقدمه زلفى إليهم وخفوعاً ، ثم تطعن أخلاقه بقولها إنه حلس

(١) الأغاني ٣٤/١٠ وسط اللالي ٨٣٥/٢ والنقائش ٦٥٦ ( روى البيت : ولا  
لرغال فيه مستظل ) . مثل : مستقيم قوى منتصب . خاطئ البضيع : مكتر . السمع : ولد  
الذئب من الضبع . ويزعمون أنه في عدوه أسرع من الطير . أزل : أرسح سريع خفيف الوركين .  
رغال : الأمة . يبرز : يبرز عجزه أو ينحن ظهره . الربق : جبل البهم . الفرار : الخرفان  
والحملان . يحل : يلقط البعر بيده .

(٢) ديوان الخرنق ٤ مخطوط

(٣) جهرة أشعار العرب ٤٣ البروك : الإبل البارة . صل : حية . الرجع : الغدير

مومسات يفساهن ، و يسمع الغناء عندهن . وتهجوه مرة أخرى فتذكره بعينها  
عن الثار :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه في غلى قدّر وما يدرى  
فهلّا ابن حسّاس قتلت ومعبداً هما تركاك لا تريش ولا تبّرى  
هما طعنا مولاك في عطف صلبه وأقبلت ماتلوى على تحجّر تجرى<sup>(١)</sup>  
وكذلك هجت عاصية بنت عبد العزى الطائى بنى محارب<sup>(٢)</sup> .

ولقد تهجو المرأة من يخالفها في دينها ، كما هجب هند بنت عتبة رملة بنت  
شيبه بن ربيعة لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه ، فعابت عليها إسلامها ،  
واتباعها دين من قتلوا أباه<sup>(٣)</sup> ، وكما هجت المسلمين والإسلام عصفاء بنت مروان  
من بنى أمية بن زيد فقال النبي : « ألا آخذنّلى من ابنة مروان ؟ » فسرى إليها  
عمير بن عدى الخطمى فقتلها<sup>(٤)</sup> .

٣ — ولقد كان المرتقب من المرأة أن تكثر هجاء ضرّتها أو ضرّاتها ، لأن  
العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقة ، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل ، ولعلها  
كانت تقنع بالأكيد ، والإغارة ، والنظرات الشرر ، والكلمات المرة ،  
والحرّكات الساخرة .

ثم هى تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضرّتها ، وأن زوجها يؤثر ضرّتها  
عليها ، لذلك لا تهجوها حتى لا تكشف عن موجدتها ، أما سكونها فإنه يؤول  
على أنها حظية عند زوجها ، وأنها لا تحفل بضرّتها ، وهذا من مكر النساء .  
ومن الهجاء ما قالت امرأة فى هجاء أخرى قد خطبها زوجها .

(١) ديوان الحرائق مخطوط . ابن حسّاس ومعبداً : رجلان غلباه . لا تريش ولا تبّرى :  
كناية عن خذلانه وضعفه . عطف : جانب . محجّر : موضع منخفض ذو ماء ومرعى .

(٢) شرح الحماسة للبريزى ٤/٦٥ (٣) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة

٣٢ مخطوط (٤) سيرة ابن هشام ٤/٣١٣

لا خَارَ رَبِّي لِأَبِي الْفَصِيلِ  
ولا وقاه عَشْرَةَ الدَّلُولِ  
بَدَّلَ مِنِّي أَخْبَثَ الْبَدِيلِ  
هُوَ جَاءَ مَقَاءً كَشَبَهُ الْغُولِ  
تَحْمِلُ رِدْفًا وَاسِعَ الْفُضُولِ  
مِثْلَ إِهَابِ الْمُنْجُولِ  
يَبَيْتٌ فِيهِ الذَّنْبُ أَوْ يَقِيلُ<sup>(١)</sup>

٤ — ولقد تحمد على زوجة ابنها قتهجوها ، وهجاؤها هنا كسابقه مقصور على تمسيح المنظر والذم بالدمامة ، وبسوء الأخلاق .

من ذلك أن هند بنت عضم الدوسية حقدت على امرأة ابنها يزيد فشكتها إلى زوجها في هجاء مر يتناول أعز ما تفخر به المرأة : الجمال والأخلاق :

أَيُّزِيدُ قَدْ لَا قَيْتُ مَنكَرَةً      عَجِلْتُ بِأَمْكٍ مُدْخَلَ الْقَبْرِ  
هُوَ جَاءَ جَاهِلَةً إِذَا نَطَقْتَ      لَيْسَتْ كَعَابَا بِيضَةِ الْخِذْرِ  
سُودَاءَ مَا تَنْفَكُ مُتَأَقَّةً      مَلَأَى مُضَبَّةً عَلَى جَمْرٍ<sup>(٢)</sup>

٥ — وأحياناً كان الشريح يخدم بين المرأة وزوجها فتقلبه وتهجوه ، لأنه أثارها وهاجبا ، كما نشرت أم الصريح بنت أوس الكندية على أبي الصريح السكبي فقالت :

كَأَنَّ الدَّارِ يَوْمَ تَكُونُ فِيهَا      عَلَيْنَا حَفْرَةٌ مِلَّتْ دَخَانًا

(١) بلاغات النساء لطيف نور . الدلول : الجمل الطبع . بدیل : خلف وفي الأصل البدول وهو تحريف . هو جاء : مقاء . عاربة من اللحم . ردفا : كانت في الأصل رفقا وهو تحريف . الإهاب المنجول : المشقوق عن العرقوبين إلى الرأس ثم يسلمخ . المنجة : الناقة أو الشاة الحلوب كانت في الأصل ( الميعة ) وهو تحريف

(٢) بلاغات النساء ١٠٠ متأقة : مملوءة بالشر والغضب . مضبة على جر : ممسكة به تريد أنها شريرة مؤذية .

فليتلك في سفين بنى عباد طريدا لا نراك ولا ترانا  
وليتك غائب بالهند عنا وليت لنا صديقا فاقتنا  
ولو أن الفدور تكف منه لقد أهديتها مائة هجانا<sup>(١)</sup>

وكذلك فعلت أم الأسود، وحذرت النساء أن يتزوجن مثل زوجها  
الجبان البخيل<sup>(٢)</sup>.

٦ — وقد بقيت المرأة تمارس الهجاء في الإسلام، كما مارسته في الجاهلية،  
فقد هجا أبو وجزة زوجته زينب بنت عُرْفُطَةَ فهجته في صدر الإسلام<sup>(٣)</sup>،  
وهجا عبد الله بن أوفى الخزاعي امرأته وهجته<sup>(٤)</sup>، وهجت سميدة بنت النعمان بن  
بشير أزواجها ويظهر أن حميدة هذه كانت كلفةً بالهجاء، فقد هجت زوجها  
الأول الحارث بن خالد بن العاص بن هشام<sup>(٥)</sup>، وزوجها الثاني رَوْحَ بن زنباع<sup>(٦)</sup>،  
وزوجها الثالث الفيض بن محمد بن الحكم<sup>(٧)</sup>. ويدل على ذلك أنها ولدت من الثالث  
— الفيض بن محمد بن الحكم — ابنة تزوجها الحجاج بن يوسف، فقد مدت على ابنتها  
زائرة، فقال لها الحجاج: يا حميدة إني كنت أحتمل مزاحك مرة، وأما اليوم  
فإني بالعراق، وهم قوم سوء فيأياك. فقالت: سأ كف حتى أرحل<sup>(٨)</sup>. وحميدة  
في هجائها لم تخرج على سنن الجاهلية من حيث الذم الجسدي كقولها في  
زورجها الحارث:

نكحتُ المديني إذ جاءني فيالك من نكحة غاويه  
كبول دمشق وشبانها أحبُّ إلينا من الجالية  
صنَّانٌ لهم كصنَّان التيو س أعبا على المسك والغالية<sup>(٩)</sup>

- 
- (١) بلاغات النساء ١١٨ (٢) بلاغات النساء ١٠٠  
(٣) الأغاني ٧٦/١١ (٤) شرح الحماسة لابن بري ٤٢/٤  
(٥) الأغاني ١٣٢٨ (٦) سمط اللآلئ ١/١٧٩-١٨٠ والأغاني ١٣٣/٨  
والاستبصار ورقة ١٢٦ مخطوط (٧) الأغاني ١٣٥/٨ وسمط اللآلئ ١/١٨٠  
(٨) الأغاني ١٣٥/٨  
(٩) الأغاني ١٣٢/٨ الجالية: أهل الحجاز لأنهم كانوا يميلون عن بلادهم إلى الشام

فرد عليها بنثل هجائها :

قاطنات الحجون أشهى إلى قلبي من ساكنات دمشق  
يتضوَّعن لو تضمخن بالمسك صُنانا كأنه ريح مِرْق<sup>(١)</sup>  
وهجت زوجها روح بن زنباع بقولها :

وهل أنا إلا مهرة عربية سائلة أفراس تجلها بفل  
فإن أتجت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقراراً فما أنجب الفحل<sup>(٢)</sup>

٧ — اتسم هجاؤهن بالغة في الجاهلية وفي الإسلام ، ففي العصر الإسلامي  
أخش النابغة الجعدي - وكان شاعراً قد عمر في الجاهلية طويلاً وأدرك الإسلام  
وعمر فيه أيضاً - في هجاء ليلي الأخيلية فردت عليه في غير إغش شديد<sup>(٣)</sup> .

والذي لحظته أن هجاءهن في الإسلام كهجائهن في الجاهلية مقصور على  
الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع ، كقول زوجة قتادة بن مُعَرَّب  
في هجائه : إن فيه قبيح ، وإن ريحه منمنة ، حتى لقد أتلفت هذه الرائحة أنفياً  
وصماخى أذنيها :

حلفت - ولم أكذب وإلا فكل ما ملكت لبيت الله أهديه حافيه  
لو أن المنايا أعرضت لأتجتمتها مخافة فيه إن فيه لداهية  
فما جيفة الخنزير عند ابن مُعَرَّب قتادة إلا ريح مسك وغاليه  
فكيف اصطباري يا قتادة بعدما شمت الذي من فيك أنثأى صماخيه<sup>(٤)</sup>  
وقالت أخرى في هجاء رجل :

(١) الأغاني ١٣٢/٨ الرق : بفتح الميم الإهاب المتن ، وبكسرهما الصوف المتن .  
(٢) الأغاني ١٣٤/٨ وسمط اللآلي ١٧٩/١ وبلاغات النساء ٩٦ والعقد الفريد ١٦٩/٤ وأخبار النساء ٥٣ بقل : صوابه في رأى ابن سيده نقل وهو الحسيس الدئ من الناس والدواب تريد الفرس الهجين . إقرار : هجنة من جهة الأب لا الأم  
(٣) الأغاني ١٦/٥ وسمط اللآلي ٢٨٢/١ ولسان العرب مادة ذلغ  
(٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤٢/٤ أنثأى : أفسد

إِنَّ أَبَاكَ زَهْرَقٌ دَقِيقٌ لَاحِسَنُ الْوَجْهِ وَلَا عَتِيقٌ  
تَضْحَكُ مِنْ طُرْطُوبِهِ الْعُنُوقِ<sup>(١)</sup>

٨ - وهن لم يبرعن في الهجاء براعة الرجال ، لأنه لون من التهجم والتطاول ، ومضغ الأعراض ، والسفه ، يخافى الأنوثة ، وينافى الحياء ، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء ، فالقبيلة تعتد شاعرها أو شعراءها لسانها البتار لعداتها ، المكافح عن مفاخرها ، المنافع عن حسبها وسؤددها ، يبلغونها متابغها السيوف والرماح ، ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك .

ثم إن الرجال كانوا حماة للنساء ينشئونهن في الدعة والنعمة والحماية والرفه ، ويتخذونهن ثمراً حلواً لا شوكة وقتاداً ، فمن الطبيعي أن يبعدوهن عن مضايق الهجاء ومحرجاته . على أن النساء كن يشعرن أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال ، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بن مجاشع وعيبرهم ماحل بأعين بن ضبيعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم - وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن - فأتين الفرزدق فقلن له : قبح الله قيدك ، فقد هتك جرير عورات نساءك ، فلحيت شاعر قوم ، فأحفظنه ، ففض قيده ، وهجا جريراً<sup>(٢)</sup> .

أما في العصر العباسي فقد أخشن في هجائهن ، تأثراً بالتلف وانحلال الأخلاق وضعف الشبهة العربية ، وكانت الإماء رائدات الفحش والخلاعة بالقول والعمل ، مثل عريب<sup>(٣)</sup> . وكذلك أخشن في الأندلس في أواخر الحكم العربي<sup>(٤)</sup> .

(١) شرح الحماسة لابن بري ١٧٣/٤ ولم يذكر أنها جاهلية . زهزق : لثم . الطرطوب : صوت الراعى إذا سكن معزاه . العنوق : إناث الماعز .

(٢) النقائض ١٢٥ وطبقات الشعراء ٣٢٧ .

(٣) الأغاني ١٨٠/١٨١ (٤) نفتح الطيب ٥٦٣/٢ و ٥٦٤ و ٦٣٣ طبعة

أوروبا ونزهة المجالس ٢٨ و ٤٢ و ٤٣ مخطوط . ونزهة الأبصار والأسماع ١٢ ( ٤١ - المرأة في الشعر الجاهلي )

## الفخر

كان نغر العرب بشجاعتهم وكرمهم وفضائلهم يدوى فى بلادهم دويًا ،  
وكثيراً ما اقترن نغرم بهجاء أعدائهم .

وكان الشاعر حينما يفخر يعدد مناقب قومه ، لأن الفرد يعتز بالقبيلة  
لا بشخصه ، ومجد القبيلة مجده ، على أن الشعراء أحياناً كانوا يختصون أنفسهم  
ببعض الفخار .

١ — وقد افتخرت النساء أيضاً ، ولكن فخرهن لم يكن بأنفسهن ، وإنما  
كان إشادة بقبائلهن وأقاربهن .

فألتساء تفخر بقومها فى مجال الرثاء :

وأفنى رجالى فبـادوا معا	فأصبح قلبى لهم مُستَفَرًا
لذكر الذين هم فى الهيا	ج للمستضيف إذا خاف عَزَا
كأن لم يكونوا حى يُتَّقَى	إذ الناس من عَزَّ بَرَا
وكانوا سَراة بنى مالك	وزين العشيرة مجـداً وعزا
هم منعوا جارهم والنسـا	ء يحفز أحشائها الموت حفزا
غـداة لقوهم بمأومة	طحون يفادرن فى الأرض وكزا
بييض الصفاح وسمـر الرماح	فبالبيض ضربا وبالسمر وخزا
وخيل تكـدسُ بالدارعين	وتحت العجاجة يَجْمُزنُ جحزا
جـرزنا نواصى فرسانهم	وكانوا يظنون أن لن تُجَزَّا
نَعَفْ ونعرف حق القـرى	وتتخذ الحمد مجدداً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد	ونلبس فى الأمن خزا وقزاً <sup>(١)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٤٣ . من عز بز . من غلب سلب . ملوومة : كتيبة مجتمعة .  
طحون : تطحن كل شىء . تجمز : تعدو .

«والخرنق تفخر بقومها أيضاً في مجال الرثاء :

لا يبعـدَن قومي الذين هم سم العـدـاة وآفة الجُرر  
النازلون بكل معـتـرك والطـيـون معاقـد الأزر<sup>(١)</sup>

وتفخر ببلادهم في التنكيل بيني أسد في مجال رثائها لزوجها بشر :

ألا لا تفخرن أسدً علينا يوم كان حِيناً في الكتاب  
فقد قُطعت رءوس بني فُعين وقد نُقعت صدور من شراب  
وأردينا ابن حسحاس فأضحي تجول بِشِوهِ نُجس الذئاب<sup>(٢)</sup>

وتقول أيضاً في هجاء بني أسد بالجبن والماع من لقاء قومها :

سمعت بنو أسد الصياح فزادها عند اللقاء مع النفار نفارا  
ورأت فوارس من ضَلَيْبَةٍ وائل صبروا إذا نفع السنايك ثارا  
بيضا يحززن العظام كأنما يوقدن في حلق المغافر نارا<sup>(٣)</sup>  
وتفخر بزوجها أيضاً<sup>(٤)</sup> :

وكذلك فخرت عائكة بنت عبدالمطلب بقومها، فنوهت بشجاعتهم وبلادهم :

سائل بنا في قومنا وليكف من شرِّ سماعه  
قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باقٍ شـنـاعه  
فيه السَنَوْرُ والقَنـا والكبش ملتئم قناعه  
بعكاظ يعشى الناظرين إذا هم لحوا شـمـاعه  
فيه قتلتنا مالكا قسراً وأسلمه رعاعه

(١) ديوان الخرنق ١٠

(٢) ديوان الخرنق ٧ مخطوط . كان حيناً في الكتاب : كان مقضياً . ابن حسحاس :

رجل من أسد الشلو : العضو . بنو فعين : من بني أسد

(٣) الديوان ٧ صلبية وائل : من نسله . بيضا : سيوفا مجلوة . يحززن : يقطن المغافر :

ج مغفر ما يلبس على الرأس من زرد ليقية (٤) الديوان ١٩



وَمُجْدَلًا غَادِرَتْهُ بِالْقَاعِ تَنْهَسُهُ ضِبَاعُهُ<sup>(١)</sup>

ولقد تفخر الشاعر بأمرها دفاعاً عنها ، من ذلك أن أم زينب بنت فروة ابن سنان كانت أمة فارسية ، فنوهت زينب بحسبها :

إِنْ ابْنَةُ الدِّهْقَانِ كَسَرَى تُؤْوِلَتْ      بَطْعَنَ السَّكَاةِ وَاخْتِلَاسَ الْمَعَابِلِ  
وَلَمْ تُخْتَطَفْ أُمِّي عَلَى غَيْرِ ثَلَاثَةٍ      وَلَمْ تَخْتُطَفْ إِلَّا بِطْعَنِ الْمَقَاتِلِ  
مِنَ اللَّابِسَاتِ الرَّيْطَ زَهْرَاءَ لَمْ تَبْتَ      تَحُشُّ مَعَ الْأُمَى وَقَدْ الْمَرَاغِلِ  
وَلَمْ يُرَ فِي أَفْسَاءِ مَرَّةٍ مِثْلَهَا      وَلَا عِنْدَ قَيْسٍ مِنْ غَنِيمَةِ قَافِلِ<sup>(٢)</sup>

٢ — وفخر المرأة على قتلته وضعفه ليس فيه من الأثوثة شيء ، كالعفة والجمال والرقه وحلاوة الحديث وإسماعد الزوج ورعاية الأولاد وتديير البيت ، وإنما هو فخر بالرجال وأعمالهم .

ولعل مرد ذلك إلى استحياؤها من الفخار بهذه المميزات . وليس معنى مباهايتها بالرجال أنها كانت ذليلة القدر مسلوبة الشخصية ، وإنما معناه أنهم حمايتها وأسنادها ، فهي تشعر بالعمز والمنعة وعلو القدر في كنفهم وظلمهم إذا كانوا أعزة ، كما يفخر أحدنا بوطنه أو معبده أو أبيه .

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات في شيء ، فمثلاً تمزج ليلي الأخيلية بعض الفخر بهجائها للنافعة الجعدى ، فتباهى بعزة قومها :

لَسَاتَامُكَ دُونَ السَّمَاءِ وَأَصْلُهُ      مَقِيمٌ طَوَالَ الدَّهْرِ لَمْ يَتَحَلَّحْ  
وَمَا كَانَ مُجْدًى فِي أَنْاسٍ عِلْمَتُهُ      مِنَ النَّاسِ إِلَّا مُجْدَدُنَا كَانَ أَوَّلًا<sup>(٣)</sup>

(١) شرح الحماسة للبربري ١٣٠/٢ : السور : الدرع الرعاع : سفلة الناس أو الجبناء .  
مجدلاً غادرته : غادرت الخيل مجدلاً . تنهسه : تنهسه .

(٢) بلاغات النساء ١٨٢ . المعابل : نصال السهام . ثلة : جماعة . تحش : ترقد .  
الأمى : القبي الجلف الجاني والمراد العبد . وقد المراجيل : نارها . غنيمة قافل : راجع من الحرب بالفنائم

(٣) أشعار النساء للرزباني ٤ مخطوط . وبلاغات النساء ١٧٠ : تامك : سنام والمراد مجد عال .

٣ — أما فخر الرجال فقد كان فيه ضرب من الفخر بالقبيلة كلها حسبها  
بوعدها وثرائها وبطولتها وظفرها ومنعتها، وضرب من الفخر الشخصي الفردى.  
يمثل النوع الأول قول عمرو بن كلثوم :

أباهند فلا تمجّل علينا      وأنظرنا نخسبُك اليقينا  
بأنا نورد الرايات بيضاً      ونصدرهن حمراً قد روينا  
وأيام لنا غُرّ طوال      عصينا الملك فيما أن ندينا  
متى ننقل إلى قوم رحانا      يكونوا في اللقاء لما طحينا  
وأنا المانعون لما يلينا      إذا ما البيض زابت الجفونا  
وأنا المنعمون إذا قدرنا      وأنا المهلكون إذا أتينا  
وأنا الشاربون الماء صفوا      ويشرب غيرنا كدراً وطنياً<sup>(١)</sup>

. . . . .

وقول لبيد

إنا إذا التقت الجماع لم يزل      منا لزازٌ عظيمة جسامها  
ومُقَسَّمٌ يعطى العشيّة حقها      ومُعْذِمٌ لحقوقها هضامها<sup>(٢)</sup>  
وقول أمية بن أبى الصلت :

بأنا النازلون بكل ثغر      وأنا الضاربون إذا التقينا  
وأنا المانعون إذا أردنا      وأنا المقبلون إذا دُعينا  
وأنا الحاملون إذا أناخت      خطوبٌ في العشيّة تبتلينا  
وأنا الرافعون على مَعَدٍّ      أكَفَّاً في المكارم ما بقينا<sup>(٣)</sup>  
وتمثل الضرب الثانى فى الزهو بالذات والكرم والبطولة فى قول عنتره :

(١) شرح الفصائد العشر للبريزى (٢) جهرة أشعار العرب ١١٥ لزاز : قرن .  
جسامها : متحمل لها . معذمر : يأخذ من هذا ويدع ذاك . هضامها : منحها  
(٣) الجهرة ١٨٩ .

ولقد شربتُ من المدامة بعدما      ركد الهواجر بالمشوف المُعَلِّم  
 فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ      مالى وعرضى وافرٌ لم يُكَلِّم  
 وإذا صحتُ فما أقصّر عن ندى      وكما علمتِ شمالي وتكرُمى

.....

لما رأيت القوم أقبل جمعهم      يتذاكرون كررت غير مذمّم  
 يدعون عنتر والرماح كأنها      أشطان برّ في لَبانِ الأدهم  
 ما زلت أرميهم بثغرة وجهه      ولبانه حتى تسربل بالدم  
 فازورّ من وقع القنا بلبانه      وشكا إلى بعبرة وتحمحم  
 لو كان يدوى ما المحاورة اشتكى      ولكن لو علم الكلام مُكَلِّم<sup>(١)</sup>

وكقول طرفة :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنتى      عنيت فلم أكسل ولم أتبلد  
 فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى      وإن تلتمنى فى الحوانيت تصطد  
 وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى      إلى ذروة البيت الرفيع المصّدد

.....

أنا الرجل الضربُ الذى تعرفونه      خَشَّاشٌ كَرَأْسِ الحية المتوقد<sup>(٢)</sup>

(١) شرح الفصائد العشر للتبريزى وديوان عنتره . المشوف المعلم : الكأس أو الدنار  
 المجلو المنقوش . (٢) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان طرفة . الضرب : الخفيف .  
 خَشَّاش : ماش متوقد : ذكى .

## المدح

١ — ليس لهن في المدح نصيب ، لأن بوائعه كانت محبوسة على الرجال ،  
سواء في ذلك المدح المنبعث عن إعجاب ، أو عن رغبة في العطاء . ثم إن مدح  
المرأة للرجل مما يُعاف ، ولكن جاء في شعرهن قليل من المدح ، كمدح الخنساء  
لأبيها وأخيها حين استبقا على الخليل ، وهو أدخل في الفخر بهما من المدح :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الخضر  
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر العذر  
وعلا هتاف الناس أيهما قال الجيب هناك : لا أدرى .  
برزت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى .  
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر  
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا على وَكْر<sup>(١)</sup>

وهذا ما أزعج أبدعت فيه الخنساء ، لأنها مدحت أباهما وأخاهما معاً ،  
وبينت إكرام الابن لأبيه ، وإعزازة لقدره ، وجعلت تقديم الولد لأبيه في  
السبق معرفة بحقه ، وتقديراً لمكانته وسنه .

وقد قيل لأبي عبيدة : ليست هذه الأبيات في مجموع شعر الخنساء ، فقال :  
العامّة أسقط من أن يجاد عليها بمثل ذلك <sup>(٢)</sup> .

(١) ديوان الخنساء ١٣٦ وأمالى المرتضى ٦٧/١ وزهر الآداب ٢٣٩/٣ . يتعاوران . ملاءة الخضر : يصير غبار الجرى كثوب يلبسه هذا مرة وذاك مرة . الخضر : العدو والسباق .  
نزت القلوب : ناقت لمعرفة السابق . لزت العذر بالعذر : قرنت عنان السابق بعنان المسبوق .  
أولى : كان الابن أهلاً لأن يجارى أباه فيسبقه لولا أنه امتنع أنفة ولأبيه عليه فضل السن  
والقدر .

(٢) أمالى المرتضى ٦٧/١

ورأيت هذه الصورة فيما بعد الكمية ، فلما كاهها في مدحه نخلة بن يزيد  
ابن المهلب :

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه      أحدٌ ومثلك طالبا لم يَلْحَقْ  
تتجاذبان ، له فضيلة سنه      وتلوت بعد مصلية لم تُسْبِقْ  
إن تنزعا وله فضيلة سنه      فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّقْ  
ولقد لحقت به على ما قد مضى      من بُعد غايته فأحج وأخلق<sup>(١)</sup>  
ثم نسج على منوالها المؤمل بن أميل الكوفي الحاربي في مدح المهدي :  
لئن فت الملوك وقد توافوا      إليك من السهولة والوعور  
لقد فات الملوك أبوك حتى      بقوا من بين كاب أو حسير  
وجئت وراءه تمشي حثيثا      وما بك حيث تجري من فتور  
وقال الناس ما من ذين إلا      بمنزلة الخليلق من الجدير  
فإن سبق الكبير فأهل سبق      له فضل الكبير على الصغير  
وإن بلغ الصغير مدى كبير      فقد خُلِقَ الصغير من الكبير<sup>(٢)</sup>

٢ - وفي الإسلام نابت بنت ليبد عن أبيها في مدح أمير الكوفة الوليد  
ابن عقبة وشكره ، ذلك بأن لييدا كان قد آلى في الجاهلية أن يطعم ما هبت  
الصبا ، ثم واصل ذلك في إسلامه ، فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة  
إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس ، فقال : قد علمتم حال أخيكم أبي عَقِيل ،  
وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا ، وقد هبت فأعينوه . ثم بعث إليه  
بمائة من الجزر واعتذر إليه بقوله :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه      إذا هبت رياح أبي عَقِيل  
أشم الأنف أصيد عامري      طويل الباع كالسيف الصقيل

(١) أمال المرتضى ١/٦٨

(٢) أمال المرتضى ١/٦٨ .

وفى ابن الجعفرى بما نواه      على العلات والمال القليل  
 يُذَكِّي الكُومَ ما هبت عليه      رياح صَبَا تَجَاوَبُ بالأصيل  
 فلما وصلت الجُزُر والشعر إلى لبيد قال : إني تركت الشعر منذ قرأت  
 القرآن ، وإني ما أعيأ بجواب شاعر . ودعا ابنة له فقال : أجيبه عني ، فقالت :  
 إذا هبت رياح أبي عَقِيل      دعونا عند هَبَّتِها الوليدا  
 أشم الأنف أُصَيِدَ عَبْشَمِيًّا      أعان على مروءته لبيدا  
 بأمثال المِضَاب كأن رَكْبًا      عليها من بنى حام قُودًا  
 أبا وَهَب جزاك الله خيرًا      نحرناها وأطعمنا الوُفُودًا  
 فعد إن الكريم له مَعَاد      وظنني بابن أُرُوى أن يعودا  
 فقال لبيد : أجبت وأحسنتم لولا أنك سألت في شعرك . قالت : إنه أمير  
 وليس بسوقة ، ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألتاه . قال لبيد : أجل<sup>(١)</sup> .  
 بعد هذا يتبين أن مدح المرأة على ندرته موجز خاطف لا تفصيل فيه ،  
 ولا توليد لمعانيه .

## الحنين إلى الوطن

١ — حب الوطن طبيعة راسخة في كل نفس . ولقد يطوّف الإنسان مايطوف ، ويفترب مايفترب ، ويشهد مايشهد من ضروب الجمال في غير وطنه ، ولكن نفسه دائماً تنازعه إلى مسقط رأسه ، وعواطفه تهوى إلى وكره الذى منه خرج ، وفي ملاعبه لها ودرج .

ويظهر أن للصحراء سحراً خاصاً — على جذبها وشطفها — يجتذب أهلها إلى ألا يريموا عنها ، ولا يَمَحَلُّوا منها ، بل إن سحرها ليجتذب العارفين بها من غير سكانها .

وقد صور هذه المشاعر الرحالة أحمد حسنين في رحلته اللويفية . وللاجاحظ رسالة حافلة بحب الأعراب لباديتهم والحضريين لأوطانهم نساء ورجالا يقول فيها : « وترى الأعراب تحن إلى البلد الجذب ، والمحلّ القفر ، والحجر الصّلد ، وتستوخم الريف <sup>(١)</sup> » .

بل لقد بلغ من حب العرب لديارهم أنهم كانوا إذا رحلوا للغزو أو للنجعة حملوا معهم من تربة الدار رملا وعَفَرًا ( ترابا ) يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع . يقول شاعر من بني ضبة :

نسير على علم بكنهه مسيرنا      بُعْفَر زَادٍ فِي بَطُونِ الْمَزَاوِدِ  
ولا بد في أسفارنا من قَبِيصَةٍ      مِنَ التَّرْبِ نُسَقَاهَا لِحُبِّ الْمَوَالِدِ <sup>(٢)</sup>  
كانت المرأة والرجل سواء في الحنين إلى الوطن ، يقول عمرو بن قميئة لما خرج مع امرئ القيس إلى قيصر <sup>(٣)</sup> ، وقد حنت ابنته إلى وطنها إذ شطت بها

(١) رسالة الحنين إلى الأوطان ٨

(٢) رسالة الحنين إلى الأوطان ١٢ العفة : بقية اللبن في الضرع والمراد القليل من الزاد.

قبصة : قبضة وحفنة (٣) الأغاني ١٦/١٥٨

النوى فبكت ، وتذكرت آلمها :

قد سألتني بنت عمرو عن ال أرض التي تُنكر أعلامها  
لما رأت سائديما استعبرت لله دَرُّ اليوم من لامها  
تذكرت أرضاً بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها<sup>(١)</sup>

٢ — وقد أسلفت في باب الزواج أن المرأة كثيراً ما كانت تتوجس من الزينة في غربة ، لأنها تؤثر أن تقضى حياتها بين قومها وفي وطنها . ولكن ما كل ما يطلب المرء بئاله ، فلا بد من أن تغترب أحياناً ، فعلى إذا تشاق إلى وطنها ، وتنفس عن نفسها بشعرها ، فمثلاً تحن هند بنت عضم السدوسية إلى بلادها وهي عند ربيعة بن غزالة الكندي ، وتصور حنينها في أن الماء الذي تشرب منه لا يبيل أوامها ، وتود لو جاءها أحد بشربة من ماء وطنها لتعطيه أربعاً من وطن زوجها ، ثم تقول إنها تشتعل شوقاً إلى ديار أهلها ومسقط رأسها ، ويزيد شوقها اشتعلاً أنها يائسة من أوبة قريبة :

ألا لا أرى ماء المصَّبَح شافياً نفوساً إلى أمواه بَقعاء نَزَعاً  
فَمَنْ جاء من ماء السَّبَال بِشَرِّبَةٍ فإن له من ماء لينة أربعاً  
وقد زادني وَجْداً بَبَقعاء أننى رأيت مطايانا بلينة ظُلماً<sup>(٢)</sup>

وهي تعجب ممن يلومها في شوقها إلى وطنها ، بل إن الملامة لتزيدها ولوعاً به ، وما ذنبها في أن تكلف بأرض عشيرتها وتقل غيرها ؟ وإنما لتتمنى أن تقدر الريح على نقل نجواها ، وتاطف وتظرف في تمنيتها أن تبلغ الريح تحياتها ، وفي دعائها لها بالخير ، راجية ألا تمس بتحياتها الثرى ، وإنما لحفية بالريح الشمالية تسألها عن قومها أيقربون ومتى يقربون ؟

(١) معجم البلدان ٥/٥ سائديما : جبل بين ميفارقين وسعرت

(٢) بلاغات النساء ١٠٦ المصباح ، بقاء ، السبال ، لينة : أسماء مواضع . ظالم :

المراد مقيمة .



قالت وجهية بنت أوس الضبية :

وعاذلة تغدو علىّ تلومني على الشوق لم تمنح الصباية من قلبي  
فإلى إن أحببت أرض عشيرتي وأبغضت طرفاء القصيدة من ذنب  
فلو أن ريحا بلغت وحيّ مُرسِل حفيّ لنا جيتُ الجُنُوبَ على النَّقَب  
فقلت لها : أدّى إليهم رسالتى ولا تخاطبها طال سَعْدُكَ بالتَّزَب  
فإني إذا هبت شمالاً — ألتها هل ازداد صدّاحُ الثَّمِيرَةِ من قُرب؟<sup>(١)</sup>  
وكذلك حنت أم موسى بنت سدرّة الكلاية<sup>(٢)</sup> وامرأة من غطفان<sup>(٣)</sup> .

ولقد يعقد شوقها إلى وطنها صلة وجدانية بينها وبين الجبل الغريب الذي  
يحن إلى مراجعه ، كما حدث لامرأة من أبان زوجت في كلب ، فنظرت إلى  
بكر من ديارها فرأته يحن إلى وطنه فقالت :

ألا أيها البكر الابائي إني وإياك في كلب لمغتربان  
تحنّ وأبكي ذا الهوى لصباية وإنا على البلوى لمصطحبان  
وإن زمانا أيها البكر ضمّني وإياك في كلب لشرّ زمان<sup>(٤)</sup>

وسأبين في الغزل أن بعض الحنين إلى الوطن غزل مستور ، وحنين إلى  
حبيب نازح لا طاقة للمرأة أن تبوح به .

٣ — وقد لازمها وفاؤها لوطنها وحبها لديارها إلى ما بعد العصر الجاهلي ،  
فإن ميسون بنت بحدل الكلاية لما زفت من بادية كلب إلى معاوية بن أبي  
سفيان لم تطلق حياة الحضر ، وتشوقت للبادية بقولها :

(١) شرح التبريزي للحجاسة ١٨٧/٤ ومعجم البلدان ١١٥/٧ . طرفاء القصيدة : شجر  
بهذا الموضع . حفيّ : مهمّ معتنّ ملح في السؤال . النقب : الطريق في الجبل . هبت شمالاً :  
هبت الريح شمالاً والظاهر أنها كانت تهب من ناحية قومها مستقبلة ديار زوجها . صدّاح : المراد  
بهم أهل وناس لأن الصدح الصوت . الثميرة : هضبة بين نجد والبصرة بعد الدهناء .

(٢) بلاغات النساء ١٩٦ ومعجم البلدان ٢٢٣/٣ و ٥١٦/٨ .

(٣) معجم البلدان ١٦٩ .

(٤) رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٢ .

كَبَيْتُ تَحْفَقُ الْأَرْوَاحَ فِيهِ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ  
وَأَصْوَاتُ الرِّيحِ بِكُلِّ فَيْجٍ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ  
وَكُلُّهُ يَنْبِجُ الْأَبْيَاتَ دُونِي      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَرٍّ أَلِيفٍ  
وَلُبْسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ  
وَخِرْقٍ مِنْ بَنِي عَمَى نَحِيفٍ      أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَاجِجٍ عَالِيفٍ<sup>(١)</sup>

وقد حدث عبد الله بن إسحاق الجعفرى قال : أمرت بملء صهريج لى فى بستان عليه نخل مُطلّ ، وذهبت بأمر حسانة المريّة وابنتها — زوجتى — فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجلها فى الماء ، فقالت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لنجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : ها هنا أعجب إلى .

فدّرنا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تخضع رجليها فى الماء وتحرك شفّتيها ، فقالت : يا أم حسانة لا أحسبك إلا قد قلت شعراً ، قالت : أجل ، ثم أنشدتنى :

أَقُولُ لِأَدْنَى صَاحِبِيَّ أَسْرُهُ      وَلِلْعَيْنِ دَمْعٌ يُحْدِرُ الْكَحْلَ سَاكِبُهُ  
لِعَمْرِي لَنْهَيَّ بِاللَّوَى نَازِحَ الْقَدَى      نَقَى النَّوَاحِي غَيْرُ طَارِقٍ مُشَارِبُهُ  
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَهَارِيحٍ مُلْتَتٍ      لِلْعَبِّ وَلَمْ تَمْلُحْ لَدَى مَلَاعِبِهِ  
فِيَا حَبِيبًا إِذَا نَجَّدَ وَطِيبَ هَوَانِهِ      إِذَا أَهْضَبْتَهُ بِالْعَشَى هَوَاضِبُهُ  
وَرِيحٌ صَبَا نَجْدًا إِذَا مَا تَنَسَّمْتَ      ضَحًّا وَسَرَّتْ جَنَحَ الظَّلَامِ جَنَائِبُهُ  
فَأَقْسَمُ لَا أُنْسَاهُ مَا دُمْتُ حَيَّةً      وَمَا دَامَ لَيْلٌ مِنْ نَهَارٍ يُعَاقِبُهُ  
وَلَا زَالَ هَذَا الْقَلْبُ مَسْقِيَّ لَوْعَةٍ      بِذِكْرِهِ حَتَّى يَتْرَكَ الْمَاءَ شَارِبُهُ<sup>(٢)</sup>

(١) حماسة الخالد بن ٢٣٢ مخطوط. بكر: فنى من الإبل . صعب : لم يركب . الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق . خرق : سغى ظريف حسن الخليفة . عالج : حمار أو حمار وحش . عليف : مطعوم لا يعمل .

(٢) محاضرات الأدباء ٢/٣٦٥ ورسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٠ نهى : غدير . الطرق : الماء الذى خاضته الإبل وبات فيه وبرت : أهضبت الهواضب : فاضت عليه السحب فى غزارة . جنائب : رياح الجنوب .

## الغزل

كانت لهوات الشعراء تتجاوب بالغزل في كل صقع من أصقاع الجزيرة ،  
ينفسون به عن حب مبرح ، وحرمان ممض ، وشوق لهيف ، أو يفتنون في وصف  
مفاتيح النساء الجسدية والنفسية ، ويصرحون بما نالوا من لذات ومتع .

ولقد كان الخليلي يحاكي الشجى أحياناً فيتنزل ، وهؤلاء وألئك خلفوا من  
الشعر الغزل ثروة عظيمة تنبئ عن تقدير العرب للمرأة ، وخضوعهم لسلطان  
الجمال والحب . ولم يكن من محض المصادفة أن بدت العلاقات ومشهورات القصائد  
بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة .

وما من شك في أن المرأة كالرجل تحب ، وتتشوق ، وتذكر وتمنى ،  
وإذا كانت شاعرة فإن المتوقع أن تتغنى حبها في شعر تزجيه العاطفة ، كما يتغنى  
الرجل . ولكن هذا الشعر الذي كنا نرقبه كثيراً غزيراً لم نمسك منه إلا نادراً  
قليلاً ، كأنه خلّس الدهر أو فلتات اللسان .

### كتمان المرأة :

وليس تعليل ذلك بعسير ، لأن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر  
بحبهن ، مجبولات على كتمان الهوى المعتلج بقلوبهن ، بينما يحب الرجل فلا يطيق  
أن يحتبس حبه ، فيعبر عن مشاعره بقصيد يقرضه ، أو لحن ينشده ، أو تمثال  
ينحته ، أو غناء يردده ، ويطير به خياله كل مطير ، فيملاً الدنيا غزلاً . ولقد  
يَفْتَنُ فيتنزل غزلاً روحياً يصور محبوبته ملكاً ، أو يتنزل غزلاً حسيّاً يصور  
جمالها ويكشف عن بدنها .

أما المرأة فتحب ولكنها تسرّ عاطفتها ، وتجنّ مشاعرها ، وتحبس حبها في  
صدرها ، على أنها ليست أقل من الرجل حباً . لذلك تعتمد أحياناً إلى السحر

والرثى لاجتذابه ، وتتجمل وتزين وتتمنع لاختلابه .

وحب الرجال يمتاز بأنه سافر ناطق ، وحب المرأة يمتاز بأنه محجب صامت .  
ثم إن المرأة مطلوبة مرغوبة ، ففى إذاً قديرة على كتمان عاطفتها ، لأن مقاليد  
الحب بيدها لا بيد الرجل .

وقليلاً ما يغلبها الحب فتبوح ، لأن الرجل أغراها بوعوده ، وسجرها بنشيدته ،  
وفكّ عقدة لسانها ببلاغته ، أو لأنها ضاقت بما تجد ، فنبتت بكلمة أو تخففت  
من ثقل الحب بأبيات من الشعر ، ولكن هذا نادر نزر .

« والمرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوماً واحداً  
فيظهر ذلك بوجهها ولسانها . والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ،  
وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه <sup>(١)</sup> » .

وهذا طبعى لأن إظهار المرأة بغضها لا عيب فيه ولا لوم .

لذلك كانت مية على حق فى قولها - وقد مثلت بعد موت قابوس : ما كان  
يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ - : منهى من ذلك خوف العار ، وشماتة  
الجار ، ولقد كان بقاى منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أنى وجدت ستره أبقى لما  
فى الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

وكذلك كانت عفراء ، فقد هالها ما نزل بعروة ، فكادت تبوح بسرها ،  
فقيل لها : أما عندك له حيلة تخفف ما به ؟ فقالت : والله لأنا أسرّ بذلك وأشوق  
إليه منه ، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار <sup>(٢)</sup> .

وإذا كانت مية وعفراء تُجنّان حبهما مخافة العار واستطالة الألسنة ، فإن  
عفراء بنت أحمّر كانت تكتم حبها عِزّة وتجداً وترفعاً عن أن تتهم بما لا يليق

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٧٩ .

(٢) أخبار النساء لابن القيم ٣٥

بالأنثى . ذلك أنه قيل لها ما كان يضرك لو رَوَّحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبتة بزورة ؟ فقالت : معنى من ذاك قولكن عفراء قد صَبَّتْ إلى الحارث <sup>(١)</sup>

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والإسلاميون من تصوير الحبيبات ببادلنهم حباً بحب في صراحة وجلاء . وأعتقد أن الذوق العربي كان ينفر من التصريح بذلك ؛ لأن العرب حراس على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنعة البعيدة المنال .

يدل على ذلك قول السُّلَيْك بن السُّلُكَة إن قلبه يعاف المرأة المتهاكمة الجواد بوصاياها ، ويعلق بالمنعة التي لا تحوم حولها ريبة :

من الخفِرات لم تفضح أخاها      ولم ترفع لوالدها شِئناً  
يعاف وصال ذات البذل قلبي      وأتبع الممنعة النَّوَّاراً <sup>(٢)</sup>  
وقول سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تُسمعُ الحداثَ قولاً حسناً      لو أرادوا غيره لم يُستمع <sup>(٣)</sup>  
وقول كعب بن رُواع :

ويخالها المرح السفية تحبه      ونوالها غير الحديث بعيد <sup>(٤)</sup>  
وقول قيس بن الحدادية :

وقد جاورتنا في شهور كثيرة      فما نوَّلت والله راء وسمع <sup>(٥)</sup>

وقد صور رجل من بني أسد تصوّن محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطلب ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها في شيء :

وإني لأرجو الوصل منك كما رجا      صدّي الجُوفِ مرتاداً كُداه صلُود  
وكيف طلاّبِي وصل من لو سألته      قذى العين لم يُطلبْ وذاك زهيد

(١) أخبار النساء ٢٦

(٢) الأغاني ٣٦٤/٤ التوار : النفور من الريبة (٣) الفضليات ١٩٠/١

(٤) المؤتلف والمختلف للامدّى ١٢٨ . (٥) الأغاني ٦/١٣

ومن لورأى نفسى تسيل لقال لى أراك صحيحاً والفؤاد جليد<sup>(١)</sup>  
وهذا الضرب كثير فى شعر الشعراء<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان هذا هو الذوق العربى العام فقد وجدوا فى تصوير المرأة طالبة  
للرجل متبالكة أو عليه غضا من أنوثتها وحيائها ، واستطالة من الرجل ، وزهوا  
بنفسه ، لأنه إذا يتفزل فى شخصه لا فى حبيبته .

ولم يخرج على هذا الذوق العربى إلا عمر بن أبى ربيعة فى الإسلام ، وقد  
أكثر من هذا كقوله :

قالت ليرب لها تحدثها لنفسدن الطواف فى عمر  
قوى تصدى له ليعرفنى ثم اغمز به يا أخت فى خفر  
قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى<sup>(٣)</sup>  
وكرر مثل ذلك<sup>(٤)</sup> .

ولكن هذا كان مستهجناً منه ، حتى لقد قال له كثير : لقد أسأت وقلت  
الحجر ، ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف  
الحررة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع<sup>(٥)</sup> .  
وقال له ابن أبى عتيق لما أنشدته أبياتاً منها :

قالت الصغرى وقد تيممتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

(١) شرح التبريزى للحجاجة ١٩٠/٣ ومعجم البلدان ٣٩٦/٦ . الجوف : المطمئن من  
الأرض الغليظة . مراتداً : طالباً منصوب على الحال . صلود : قلية الماء أى أرجو واصلك رجاء  
العطشان الطالب للماء من أرض لا تبيض بالماء ، ولو أنى سألتك قذى من عينك ليخلت به

(٢) الأعشى ( الديوان ١٠٤ ) والشنفرى ( الأغاني ٩١/٢١ ) والمفضليات ( ١٠٦/١ )  
وأوس بن حجر ( الديوان ١٤ ) وحاتم ( الأغاني ١٥/١٥ ) وثعلبة بن صمير ( المفضليات

١٢٦/١ ) وكعب بن زهير ( حسنة البحتري ٨٣ ) وعلقمة ( ديوان علقمة ٦ )

(٣) الأغاني ١٧٠/١ و ١٠٤ وفى رواية ثم اسبطرت تشتد فى أثرى .

(٤) الأغاني ٩٢/١ و ٩٤ و ١١١ و ١١٩ (٥) الأغاني ١١٩/١

( ٤٢ - المرأة فى الشعر الجاهلى )

أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول قلت لها  
فقلت لي ، فوضعت خدي فوطئت عليه<sup>(١)</sup> .

صور من غزلها :

تغزات المرأة على ندره وقلة ، وكان غزلها يبدو في مظاهر :

١ — فهي تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نكالا .

من ذلك أن رجلا من بني عقيل تزوج امرأة من قبيلته ، دخل يوما وهي  
تتمثل ببيت غزل ، فقال لها : ما هذا الذي تتمثلين به ؟ لعلك عاشقة . قالت :  
لا . ولكن أبيات حضرتني . فقال : لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعن  
ظهرك وبطنك . فأنشأت تقول :

فإن تضربوا ظهري وبطني كليهما      فليس لقلب بين جنبي ضارب  
يقولون عزى النفس عن تودده      وكيف عزاء النفس والشوق غالب  
قطاها<sup>(٢)</sup> .

وكانت امرأة من نلم اسمها سعدى تهوى ابن عم لها يقال له عيسى ، فلما  
خشى أهلها الفضيحة قالوا لها : إن نطقت فيه بشعر قطعنا لسانك . فقالت :

خليلي إن أصدمتما أو هبطتما      بلادا هوى نفسى بها فاذا كرانيا  
ولا تدعنا إن لامنى ثم لا ثم      على سخط الواشين أن تعذرانيا  
فقد شفت جسمي بعد طول تجلدي      أحاديث من عيسى تشيب النواصيا  
سأرعى لعيسى الود ما هبت الصبا      وإن قطعوا في ذاك عمداً لسانيا<sup>(٣)</sup>

وباحت امرأة من خثعم بحبها لكعب بن طارق الشجاع الباسل :  
فإن تسألوني من أحب فإني      أحب وبيت الله كعب بن طارق

(١) الأغاني ١/ ١١٩ (٢) أشعار النساء للرمزاني ورقة ١٨ مخطوط . عزى :  
صبرى . تود : الضمير عائد على النفس (٣) أخبار النساء لابن قيم ٣٤

أحب الفتى الجمعة السلولى ناضلاً على الناس معتاداً لضرب المفارق<sup>(١)</sup>  
 ٢ — وتصور شوقها ولحقتها إلى الحبيب ، كقول فارعة بنت ثابت في  
 عبد الرحمن بن هشام الخزومي ، أو قول خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد  
 ابن المغيرة الخزومي :

يا خليلي نابني سهدى لم تم عيني ولم تك  
 فشرابي ما أسنع وما أشكى ما بي إلى أحد  
 كيف تلجوني على رجل آنسٍ تلتذه كبدى  
 مثل ضوء البدر صورته ليس بالزميلة النكد  
 من بني آل المغيرة لا حامل يكس ولا ججد  
 نظرت يوماً فلا نظرت بعده عيني إلى أحد<sup>(٢)</sup>

ولقد تبثلى بالطلاق من زوجها الذي تحب ، فلا تفقا تشوق إليه ، كزئب  
 بنت فروة المرية ، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة ، فجرى بينهما نزاع فطلقها ،  
 فقالت :

يا أيها الراكب الفادى مطيته عرج أنبئك عن بعض الذى أجد  
 ما عالج الناس من وجد ومن كمد إلا ووجدى به فوق الذى وجدوا  
 حسبي رضاه وأنى فى مسرته ووده آخر الأيام أجتهد<sup>(١)</sup>  
 ومثلها أم الضحاك الحاربية كانت تحت رجل من الضباب ، وكانت تحبه  
 حباً شديداً فطلقها فقالت :

هل القلب إن لاقى الصَّبَابَ خالياً لدى الركن أو عند الصَّفَا متحرِّجاً ؟

(١) الحيوان للجاحظ ٤/٣ •

(٢) الأغاني ٣/٣٣ ويرى الزبير بن يكار أن الشعر لابن زهير المختل السكى وجدت في  
 الأغاني ٨/١٠٥ رثاء أسيف فاته خولة بنت ثابت في عمارة بن الوليد ، مما يرجح أن الغزل  
 لها . الزميلة : الجبان الضعيف . نكد : شؤم . ججد : يخيل

(٣) أخبار النساء ٣٠ والأمل ٨٧/٤



وأعجلنا قرب الحَلِّ وبيننا حديث كتنشيج المريضين مُزعج  
حديث لو ان اللحم يُصَلَّى بحره طرياً أتى أصحابه وهو مُنصَج<sup>(١)</sup>  
ولها فيه شعر آخر ، وسلوان<sup>(٢)</sup> .

وليس هذا بغريب من امرأة تحب زوجها حباً عفيفاً ، فهي لا نستطيع  
الحياة في بعده أو هجره ، كما قالت أخرى :

وما أحسنَ الدنيا وفي الدار خالد وأقبحها لما تجهَّز غارياً<sup>(٣)</sup>

٣ — وإذا ما نكث بعده أو اتهمته بالفدر مظلوماً قرَّعته وودَّت له  
التعاسة ، فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له حب ولقاء وموئيق ،  
ثم زوجه أبوه غيرها على كره منه ، فرض ، وكانت ليلي أشد به وجداً وحباً ،  
فأرسلت إليه جاريتها لتقول له :

تَمَسَّا مَنْ بَغِيرِ ذَنْبٍ يَضْرِمُ قد كنت يا صخر ، زماناً تزعم  
أنك مشغوف بنـا متيم حتى بدا منك لنا المَجْمَعَم<sup>(٤)</sup>

٤ — ولقد تستر حبها ، فتتجه بغزلها إلى الحنين لوطنها ، كما سبق في حنين.  
هند بنت عصم السدوسية ، وحنين وجيهة بنت أوس الضبية ، وكما في قول امرأة  
من أبان كانت متزوجة في كلب ، ورأت يوماً جحلاً من ديارها ، وأحست أنه  
يحن إلى وطنه ، فجوابته حينئذ بحنين كما سبق .  
وكذلك صبغت أسماء المرية صاحبة عامر بن الطفيل حنينها إلى حبيبها بصيغة  
الشوق إلى الوطن :

أَيَا جَبَلِيٍّ وَاْدَى عُرَيْمَةَ الَّتِي نَأَتْ عَنْ ثَوَى قَوْمِي وَحُمَّ قَدُومِهَا

(١) الأمال ٨٦/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤

(٢) الأمال ٨٧/٢ وزهر الآداب ٨٠/٤

(٣) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣

(٤) أخبار النساء ١٠٦ المجمع : الخفي في الصدر

ألا خليا مجرى الجنوب لعله      يداوى فؤادى من جواه نسيما  
وكيف تداوى الريح شوقا بماطلا      وعينا طويلا بالدموع سُجوما  
وقولا لركبان تميمية غدت      إلى البيت ترجو أن تُحطَّ جُروما  
بأن بأكناف الرغام غريبة      موهنة ثكلى طويلا نثيما  
مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى      وتبريح شوق عاكف ما يرميها<sup>(١)</sup>

بين الجاهلية والإسلام :

كثر غزل النساء في الإسلام ، وفاض في العصر العباسي ، تأثراً بالحضارة  
والنعمة ، وضعف الأخلاق البدوية ، حتى لنجد في غزل بعضهم تكسراً  
لا يليق<sup>(٢)</sup> ، واسكن غزلهن في القرن الأول للهجرة لا يختلف عن غزلهن في  
العصر الجاهلي من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلا .  
ومن أمثلته أن أبا بكر رضى الله عنه مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة  
فسمع جارية تطحن وتنشد :

وعشقت من قبل قطع تمانى      متايا مثل القضيبي الناعم  
وكان نور البدر سمة وجهه      يُنمى ويصعد في ذؤابة هاشم  
وأنا التي لعب الغرام بقلبي      فبكت بحب محمد بن القاسم

فدق عليها الباب ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحرّة أم مملوكة ؟ قالت :  
مملوكة يا خليفة رسول الله . فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاه فاشترأها منه ،  
وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب ، وقال : هؤلاء قِتنُ  
الرجال<sup>(٣)</sup> .

(١) الأمالى ١٩٧/٢ حم قدومها : قدر وقضى . نثيما : صوتها وأنيبها . ما يرميها :  
ما يزيلها (٢) في كتاب السيوطي نزعة الجلساء في أشعار النساء المخطوط شعر لبعض المحدثات .  
فيه مجون لم نشهد مثله في العصر الجاهلي ولا في القرن الأول .  
(٣) أخبار النساء ١١٥ سنة وجهه : دائرته أو صورته أو جهة وجهه

وقد تغزلت أم خالد الخثعمية في جَحْشُ العَقِيلِ ، فدعت لذيّاره بالسحب  
الغزار الواكفة ليشرب من مائها جحوش ، وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه-  
اللتين تشبهان عيني الصقر ، ثم فدت بنفسها عيني جحوش وقمصه وأسنانه  
المجلوة ، وأقسمت أنها قد ولّمت به كما ولّمت عفراء بعروة ، وقالت إنه مباح  
لجحوش أن يلج بيتها وأهلها نيام وهي لأجله تحب النجدين وتكره الحجازيين :

فليت سِماكِيّا يطير ربّاه      يقاد إلى أهل الغضا بزمام  
ليشرب منه جَحْشٌ وَيَشِيْمُهُ      بعيني قطاميٍّ أغرَّ شامِي  
بنفسى عينا جحوشٍ وقمصُهُ      وأنيابه اللاتِي جلا بيشام  
فأقسم أنى قد وجدت بجحوش      كما وَجَدْتُ عفراء بابن حزام  
وما أنا إلا مثلها غير أننى      مؤجِّلَةٌ نفسى لوقت حمام  
فإن كنت من أهل الحجاز فلا تلج      وإن كنت نجدياً فليج بسلام  
رأيت لهم سياء قوم كرهتهم      وأهل النَّضَا قوم علىّ كرام<sup>(١)</sup>  
ففي هذا الغزل إغراق في الإعجاب بجمال الرجل الجسدى ، واستطابة لزيارته-  
ليلاً والأهل هجود .

ومثله قول خيرة بنت أبي ضَيْفَمِ البَلَوِيَّةِ وكانت من أظرف النساء .  
فما نُظْفَةُ من ماء بهسٍ عذبةٌ      تُمنَعُ من أيدي الرواة أروحُها  
بأطيب من فيه لو انك ذقته      إذا ليلة سحّت وغاب نجومها<sup>(٢)</sup>  
ثم إن في غزل بعضهم لونا من المبالغة كقول امرأة بدوية ، على شعرها :  
مسحة الإسلام :

فلو أن ما ألقى وما بى من الهوى      بأرعن ركناه صفاً وحديد

(١) الأمالى ١٠/٢ وبلاغات النساء ١٩٤ مع بعض تغيير

(٢) بلاغات النساء ٩٧ ، بهس : اسم ماء .. أروحها : أشمها أو أنالها وأصيبها ..

تَقَطَّرَ من وجد وذاب حديدَه وأمسى تراه العين وهو حميد  
 ثلاثون يوماً كل يوم وليلة أموت وأحيا إنَّ ذا الشديـد  
 مسافة أرض الشام ويحك قربي إلى ابن جَوَّاب يزيد أريد  
 فليت ابن جواب من الناس حظنا وأن لنا في النار بعدُ خلود<sup>(١)</sup>  
 والأمثلة على غزلهن شتى كغزل الخنساء بنت التَّيْحَانِ في جَحْوش  
 الخفاجي<sup>(٢)</sup>، وغزل امرأة عامرية في حصن<sup>(٣)</sup>، وغزل أم فروة الغطفانية<sup>(٤)</sup>  
 وغزل امرأة من بني عامر في مالك<sup>(٥)</sup>، وحنين امرأة من بني عامر إلى  
 كَثِيب قومها<sup>(٦)</sup>.

وقد تذكرت عشقة الحاربية — حين هربت — ما كان منها في صباها  
 فقالت إن الحبين والحبات لم يجربوا من الحب إلا بعض ما جربت :  
 جريتُ مع العشاق في حَلْبَةِ الهوى ففقتهم سَبَقاً وجئت على رِسل  
 فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى  
 ولا شربوا أكسا من الحب مرَّةً ولا حُلوة إلا شرابهم فضلى<sup>(٧)</sup>  
 وكذلك تغزلت عُلاية بنت المهدي<sup>(٨)</sup>

(١) مجالس نعلب ٨٠/١ والنظوم والنثور لابن طيفور ورقة ٧٣ مخطوط.  
 (٢) بلاغات النساء ١٩٤ ولعله جحوش بن عمرو بن سلمة وقد وفد أبوه على النبي  
 واستقطعه (الأغاني ١٦٥/٢٠) (٣) أشعار النساء للرزباني  
 (٤) الحيوان للجاحظ ٥٤/٣ وفي زهر الآداب ١٦٧/١ أنه لعاتكة المريفة في ابن عمه  
 المغيرة (٥) معجم البلدان ١٩٢/٤  
 (٦) أشعار النساء للرزباني .  
 (٧) شاعرات العرب ٩١ و ١٠٢ .  
 (٨) فوات الوفيات ١٠٠/٢

## خصائص شعرها

### ١ - إمارة الرثاء :

استبان مما سبق أنهم لم يبرعن إلا في الرثاء ، لأنه وثيق الصلة بنفوسهن وميلهن ، فهن رقيقات الشعور ، ضعيفات الاحتمال ، سريعات الانفعال ، فياضات العيون ، لا يطقن فقد الأحباب ، وهن أشد حزنًا وأحد لوعة من الرجال .

على أن رثاءهن في جملته متشابه السمات ، لا يستطيع منافسة رثاء الرجال ؛ لأن مرآتي الرجال الصادرة عن عواطف صادقة تصور شخصياتهن ونظراتهن إلى الحياة .

وقد قصرن في الأغراض التي عالجنها ، فلم تدان إحداهن شاعراً في الغزل أو الحماسة أو الفخر أو الهجاء ، فنحن نذكر الخنساء على أنها قد أجادت الرثاء ، وشأت فيه بعض الرجال ، وإن تخلفت عن التحول في براعة التصوير وقوة الأداء ، ولكننا لا نستطيع أن نجد شاعرة قاربت شاعراً في فن آخر .

وكان المتوقع أن يبرعن في أغنيات الأطفال ، لكن حظهن هنا ضئيل أيضاً كما سبق في فصل الأم .

وليس لمن في الوصف نصيب ، مع أن الرجال الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها قد جالوا في الوصف جولات ، فوصفوا الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، ولاسيما الخيل والابل .

وليس مرجع هذا إلى نقص في الذكاء ، لأن بعض علماء الدراسات النفسية قد خلصوا من تجارب عدة « إلى أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس من حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطري غريزي ولد معنا ، وليس مكتسباً من تجارب أو دربة ،

ولا يشترط فيه غير اتحاد نسبة الذكاء العام بين الأفراد . أى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام وما ينشأ عليه المرء من إحساس بالجمال . وتفوق إنسان على آخر في هذه الناحية يتسكون فيما بعد بالتجارب الخاصة أو ما يمكن أن يسمى بالدربة والمرانة <sup>(١)</sup> .

ثم إنهن لاحظن لمن المدح كما أسلفت .

### ٢ - ومرة الموضوع :

وتمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع ، وقد أسلفت نماذج من شعرهن في الرثاء وغيره يتبين فيها صواب هذا الحكم ، فهن قلما أوردن في رثائهن حكمة ، ولم يقدمن لقصائدهن بمقدمات كما فعل الشعراء ، من غزل ، وبكاء أطلال ، ووصف للرحلة ، وخطاب للرفيقين الخ .

ولم نجمن في شعرهن أفانين عدة من وصف ومراح ونغر كما كان يفعل كثير من الشعراء . ولعل سبب ذلك استغراقهن في الموضوع الواحد لا يشغلهن إليه سواه ، أو أن التعدد في القصيدة كان عملاً فنياً يعتمد إليه الشعراء ويتوخونه ، ولكن النساء لم يبلغن هذه المكانة الفنية .

### ٣ - غلبة المقطعات :

وقصائدهن مقطعات ، فليست لإحداهن مَطَوَّلَةٌ . وأطول قصائد النساء — وهى زعيمتهن فى طول القصائد أيضاً — قصيدتها التى مطلعها :

ألا ياءنين فأنهمرى بفزّر فيضى فيضة من غير نَزَر <sup>(٢)</sup>

(١) موسيقى الشعر ٢ : إبراهيم أنيس

(٢) الديوان ٦٧

أبياتها عشرون بيتاً . وقصيدتها التي مطلعها :

ما هاج حزرك أم بالعين عوار أم ذرقت إذ خلت من أهلها الدار<sup>(١)</sup>  
أبياتها خمسة وثلاثون . على أن بعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها .  
وقصيدتها التي مطلعها :

أعنى هلا تبكيان على صخر بدمع حيث لا بكى ولا تزر<sup>(٢)</sup>  
أبياتها تسعة عشر ، وبعضها غير مقطوع بروايته  
وقصيدتها التي مطلعها :

ألا ما لمينيك أم مالهـ لقد أخضل الدمع سرباً لها<sup>(٣)</sup>  
أبياتها سبعة وثلاثون ، وليست كلها مقطوعاً بروايتها .

على حين تكثر المطولات في شعر الرجال ، فمثلاً قصيدة متمم بن نويرة  
في رثاء أخيه مالك عدتها واحد وخمسون بيتاً<sup>(٤)</sup> ، ومرثية أبي ذؤيب الهذلي  
لبنيه عددها سبعة وستون بيتاً<sup>(٥)</sup> ، ومرثية أبي زيد الطائي للجلاح ابن أخته  
أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً<sup>(٦)</sup> .

وللرجال مطولات في غير الرثاء أيضاً ، فعلقة امرئ القيس عدتها اثنان  
وثمانون بيتاً ، ومعلقة طرفة عددها مائة وسبعة ، ومعلقة زهير أبياتها ثلاثة  
وستون ، ومعلقة لبيد ثمانية وثمانون ، ومعلقة عنتر أربعة وثمانون ، ومثابا مطولة  
الحارث بن حلزة ، ومدحة الأعشى للأسود بن المنذر أو المنذر بن الأسود عدتها

(١) الديوان ٧٣

(٢) الديوان ٨٥ (٣) الديوان ٢٠١

(٤) المفضليات ٦٥/٢ وجهرة أشعار العرب ٢٩٢ والأمالى لليزيدى ١٨ - ٢٥

وحجاسة الخالد بين ٣٨٧ مخطوط . (٥) جهرة أشعار العرب ٢٦٤

(٦) جهرة أشعار العرب ٢٨٦ والأمالى لليزيدى ٧ - ١٣

خمسـة وسبعون بيتاً<sup>(١)</sup> ، ومدحتـه لقيس بن معد يكرب أبياتـها ثلاثـة وثمانون<sup>(٢)</sup> ، وهجـاؤه لعـلمة ستون بيتاً<sup>(٣)</sup> ، وهجـاؤه لـشيبان بن شهاب سبعون بيتاً<sup>(٤)</sup> .

وقد نسبت إلى النساء مطولات ، ولكنها تحمل دلائل وضعها ، مثل المطولة التي نسبت إلى الدعجاء بنت المنتشر بن وهب في واحد وأربعين بيتاً . ومن أبياتـها التي تحمل دليل الوضع .

فبت مكتئباً حَرَّانَ أُنْدبه حتى أُنْتنى بها الأنبياء والخبر  
فكلمة مكتئب وحران دالتان على أن القائل رجل لا امرأة . على أن في أسلوبها لفظة الرجال ومعانيهم مثل :

لا تَأْمَنُ البَازِلُ الكَوْماءَ ضربه بالمشرف إذا ما أخروط السَّفرُ  
وتَدْعُرُ البُزْلُ منه حين تبصره حتى تَقَطَّعَ في أعناقها الجُرُ  
لا يَتَأَرَى لِمَا في القَدْر يرقبه ولا يعص على شُرْ سوفه الصَّقرُ<sup>(٥)</sup>  
فهذه القصيدة ليست للدعجاء ، إنما هي لأعشى باهلة في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب<sup>(٦)</sup> .

فما السر في قصر قصائدهن ؟

ربما كان مبعث هذا في الرثاء تعاطى الموضوع الواحد ، وأن دموعهن وصياحين وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى ، فيؤثرن على الشعر المطول .

(١) ديوان الأعشى ٣ (٢) ديوان الأعشى ١٣

(٣) الديوان ١٠٤ (٤) الديوان ١١١

(٥) رياض الأدب في مرآتي شوارع العرب ١١٨ . أخروط : بعد الطريق . الجُر : جرة وهي ما يسترجفه البعير من بطنه . النوفل : البحر والكثير العطاء . الزفر : الكثير الأهل والعدة . يتأرى : ينتظر . شرسوفة : طرف الضلع . الصفر : دوية في البطن .  
(٦) جهرة أشعار العربي للأقرشي ٢٨٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٢ والكامل .



وأما في شعرهن كله فلا نهن ملولات لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة،  
والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة كما سيجيء .

#### ٤ - صور وتماثيل نسوية :

وفي شعرهن صور ، وتعبيرات نسوية ، كقول الخنساء في رثاء صخر :  
وتعشى البصيرَ بطنَ السِّيمِ وتعطى الجزيلَ وتحمى الذمارا  
فيلقى صريحا يَمُجُّ النجيعَ كمرجل طباحه حين فارا  
وهاجرة صاخدة حرها جعلت رداءك فيها خمارا<sup>(١)</sup>  
فالتشبيه بمرجل الطباحه حين يفور ، وتشبيه الرداء بخمار يليقان بالأنثى .  
وكقولها في تحريضها على الثأر لصخر :  
فتفسلوا عنكم عارا تَجَلَّلَكُمُ غسل العوارك حيشا عند أطهار<sup>(٢)</sup>  
وكقولها (أوجعني الدهر) :

تَعَرَّفَنِي الدهرُ نَهْشًا وحرًا وأوجعني الدهرُ قَرْعًا وَغَمْرًا<sup>(٣)</sup>  
وكقولها (لهفي) :

لهفي على صخر فإني أرى له نوافل من معروفة قد تولت  
لهفي على صخر لقد كان عصمة لمولاه إذ نعل بمولاه زلت<sup>(٤)</sup>  
وكقولها (وبلى) :

وبلى عليه وبلة أصبحت حصني منكسر<sup>(٥)</sup>

وكقول عاصية في رثاء أخيها عمرو بن عاصية السامي :

يا لهفي نفسي ضِلَّةً جَزَعَا على ابن عاصية المقتول بالوادي<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان الخنساء ١٠١ و ١٠٨

(٢) الديوان ١١٧ العوارك : الحوائض . عند أطهار : عند انقطاع الميصر

(٣) أمالي ابن الشجري ٢١٥/١ والديوان ١٤٣ (٤) الديوان ٢١

(٥) الديوان ١٢٤ (٦) الأغاني ١٥/١١

## ٥ - ابن النقيب :

وشعرهن ألين من شعر الرجال كثيراً ، سواء في الرثاء أو في الفخر أو في  
الهجاء أو الغزل ، لأن طباعهن رقيقة لا يلائمها اللفظ الحوشى المستكره ، وتعبيرهن  
صورة من طبيعتهن ، ولأن الجزالة والفحولة والقوة في التعبير لاتوائم نفسيتهن .  
غير أن في قليل من شعر الخنساء بعض الغريب المستكره الذى لا موسيقية  
فيه ؛ لأنها كانت امرأة مسترجلة كقولها :

قد راعنى الدهر فيؤسسا له بفارس الفرسان والخنشليل<sup>(١)</sup>  
وقولها :

يا عين بكى فارسا حسن الطعان على الفرس  
يذر الكمى مجدلاً ترب المناخر منقّيس<sup>(٢)</sup>

وقولها :

يَفْشُونَ منك غُطَامِطًا جاشت بوابله الرواعد<sup>(٣)</sup>

وقولها :

في جوف رمسٍ مقيمٍ قد تضمنه في رسمه مُقَمَّطِرَاتٌ وأحجار<sup>(٤)</sup>

## ٦ - كثرة الترصيع :

وإذ كانت المرأة بطبعها مولعة بالزينة وبالمظاهر الخلاب « وتفرها الظواهر  
وإن ساء الخبر ، فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة الصوغ تقع في نفسها  
موقعاً حسناً وإن كانت قليلة القيمة »<sup>(٥)</sup> فإنها قد أكرت من الترصيع في الشعر  
كثرة تسترعى النظر .

(١) الديوان ١٩٠ ولسان العرب ١٣/٣٣٦ الخنشليل : السريع الماضى والجيد الضرب  
بالسيف (٢) الديوان ١٥٤ وبعضهم لم يروها للخنساء . منقّيس : باقى على الخيض .  
(٣) الديوان ٦١ الغطامط : البحر الكثير الماء . الرواعد : السحب ذوات الرعد والمطر  
(٤) الديوان ٨٣ المتقطرات : الدواهي أو الصخور الصلاب الشداد .  
(٥) في علم النفس . الإبراشى وحامد عبد القادر ٣/٣٦٢

١ — والترصيع ضرب من الإيقاع الصوتي والانسجام الموسيقي « ولسريان النغم في كل أجزائه أو أكثرها عد أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة <sup>(١)</sup> » لأن التتابع في الكلمات ورنين مقاطعها يؤلف صورة موسيقية تستجيب النفس لها، وتنسجم مع التنغيم الذي تحدثه، ويطبع الأسلوب بطابع صوتي رنان، فيسائر السمع هذا التألف الموسيقي، مدفوعاً بالترقب وانتظار توقع خاص، وتصحبه في ذلك حال نفسية من الرضا والإعجاب والاطمئنان وغيرها « هذا إلى أن الأثر السمعي يصحبه أثر جسدي وعقلي، يجعل السامع يشعر بأن وزن الكلمات وما في العبارات من تنغيم موسيقي يهز أعضائه، ويسير به في صعود وهبوط، أو استواء، أو إسراع أو إبطاء <sup>(٢)</sup> » .

وهذا النوع من الحلى الموسيقية افتتان في طرق ترديد الأصوات في الكلام، ليسترعى نغمه الآذان بالفاظه، كما يسترعى القلوب بمعانيه، فهو مهارة في نسج الكلمات، وبراعة في ترتيبها وتنسيقها، ومهما ينفوع وتتعدد طرائقه فإنها يجمعها أمر واحد هو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ في الأسماع.

ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقي، لأن الأصوات التي تتكرر في البيت مضافة إلى تكرر القافية وإلى الوزن، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المقدرة والمهارة. وربما لا يقدر عليه إلا الأديب الذي وهب حاسة مرهفة في تذوق الموسيقى اللفظية <sup>(٣)</sup>.

وقديما تنبه له النقاد، فسماء ثعلب في كتابه قواعد الشعر الأبيات الموضحة، وقال إنها ما استقلت أجزاؤها، وتعاضدت فصولها، وكثرت فقرها، واعتدلت

(١) صور البديع . على الجندي ٢/٢٩ (٢) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد

حسن ٣٩

(٣) موسيقى الشعر . إبراهيم أنيس ٣٩

أجزاؤها ، فهي كالخليل الموضحة ، والفصوص الجزعة ، والبرود الحبرة<sup>(١)</sup> .  
وقد فضله قدامة وأطرب في وصفه ، وأتى بأمثاله له من شعر امرئ القيس  
وزهير وطرفة وغيرهم<sup>(٢)</sup> .

ب — ولكن هذا الترصيع الذي أكرت منه النساء شأنه شأن القافية  
التي يلتزم فيها مالا يلزم ، فجعله ينشأ من ندرته ، فإذا كثر ثقل ، لأن الإسراف  
في التجانس قبيح في الموسيقى والشعر جميعاً ، حتى إن الاختلاف في بعض  
الأحيان يعد عنصراً من عناصر الانسجام .

« وهذا الاختلاف لا ينفك يتزايد في الموسيقى الحديثة ، وله قيمة في الشعر ،  
وذلك ما فعله فكتور هوجو في بعض أشعاره ، كما اتبعه لافونتين وموسيه .

الانسجام شيء نسبي ، وليس أعذب من عودة إلى التوافق التام بعد سلسلة  
من الموافقات ، ولا شيء أجمل وقماً في الأذن من أن تسمع فجأة في قصيدة لموسيه  
بيتاً يلتزم مالا يلزم في وسط طائفة من الانسجام المعتاد<sup>(٣)</sup> .

لذلك كان قدامة على حق في قوله إن الترصيع يحسن إذا اتفق له في البيت  
موضع يليق به ، وإنه معيب إذا تواتر واتصل في الأبيات ، لأنه دال على التعمد  
والتكلف<sup>(٤)</sup> .

واتفق معه أبو هلال في هذا الرأي وقال : إن بعض القدماء قد ارتكبوا  
هذا ، فبانت على أبياتهم سمة التعسف ، واستجاد قول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليفة مهدئ الطريقة نفاع وضرار

وقال هذا بيت جيد :

ثم ذكر بيتها :

(١) قواعد الشعر لشهاب ٣٧ (٢) نقد الشعر لقدامة ٢٤ - ٣٠ والعمدة لابن

رشيق ٢٢/٢

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة جوبو ١٧١ (٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٢٨

فَعَالٌ سَامِيَةٌ وَرَّادٌ طَامِيَةٌ      للمجد نَامِيَةٌ تَغْنِيهِ أَسْفَارُ  
وقال : هذا البيت ردىء لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض <sup>(١)</sup> .

ولقد بلغ ببعض الشعراء بغضهم للتكلف أن تجنبوا التصريح في مطلع بعض القصائد كالأخطال ، وكان الفرزدق كثيراً ما يصرع ، وأكثر شعر ذى الرمة غير مصرع المطالع ، وهو مذهب كثير من الفحول <sup>(٢)</sup> . وكذلك فعل بن أحر وأمية ابن حرثان الكفاني ، على أنهم كانوا يصرعون بعد البيت الأول ، وربما صرعوا أحياناً في القصيدة الواحدة إظهاراً لمقدرتهم ، وأكثر من كان يفعل ذلك امرؤ القيس <sup>(٣)</sup> .

ج — وقد رَصَّعَ الرجال كقول أبي المثلم في رثاء صخر النخعي :  
أَبِي الْمُهْضِمَةِ آتٍ بِالْعَظِيمَةِ      مُتَالِفِ الْكَرِيمَةِ لَا سِقْطَ وَلَا وَانٍ  
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَّالِ الْوَدِيقَةِ      مُعْتَنِقِ الْوَسِيقَةِ جَلَدٌ غَيْرُ ثُنْيَانٍ  
رَقَّاءَ مَرْقَبَةٍ مَنَاعٍ مَغْلَبَةٍ      رَكَّابَ سَلْهَبَةٍ قَطَّاعِ أَقْرَانٍ  
هَبَّاطِ أَوْدِيَةِ شَهَادٍ أُنْدِيَةٍ      حَمَّالِ أَلْوِيَةِ سِرْحَانِ فُتَيَانٍ <sup>(٤)</sup>  
وقول عامر بن الطفيل :

وَلَكِنِّي أَحْيَى حَاهَا وَأَتَقَى أَذَاهَا وَأَرْمِي مِنْ رَمَاهَا بِمَقْضَبٍ <sup>(٥)</sup>  
ولعل أكثرهم حفاوة بالترصيع امرؤ القيس ، كقوله .

(١) الصناعتين لأبي هلال ٣٦٧ (٢) العمدة ١/١١٥

(٣) نقد الشعر لقدامة ٣٠ - ٣٤

(٤) الأغاني ٢١/٢٠ والعمدة ٢٢/٢ وقد نسبت الأبيات إلى الخنساء في ديوانها ٢٣٩ ونسب البيت الثاني إليها في أساس البلاغة مادة عتق . آبي الهضيمة : لا يرضى الذل والظلم . نسال الوديقة : يقتحم الهواجر . معتنق الوسيقة : يعتنق الطريدة وينجيها ويسبق بها . وفي روايه الوثيقة يكون المعنى أنه واف بعده . غير ثنيان : سيد مقدم ، والثنيان هو الذي دون السيد مقاما . مرقبة : موضع مراقبة العدو . سلهبة : فرس طويلا

(٥) ديوان عامر القصيدة ٣٢ والصناعتين ٣٦٧

فتور القيام قملوع الكلام      تفتّر عن ذى غروب خصر<sup>(١)</sup>  
وقوله :

أفاد فجاد وسداد فزاد      وقال فزاد وعاد فأفضل<sup>(٢)</sup>  
وقوله :

كان المدام وصوب الغمام      وريح الخزاعي ونشر القطر  
يعلّ به برّد أنيابها      إذا طرب الطائر المستعر<sup>(٣)</sup>  
وقوله في وصف حصانه :

سلم الشظى عبل الشوى شنج النساء      له حجبات مشرفات على الفأل<sup>(٤)</sup>  
وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام      وريح الخزاعي ، وذوب العسل  
يعلّ به برد أنيابها      إذا النجم وسط السماء استقل<sup>(٥)</sup>  
وقول زهير بن أبي سلمى .

كبداء مقبلة ، وزكاء مدبرة      قوداء ، فيها إذا استعرضها خضع<sup>(٦)</sup>  
د — أما ترصيع النساء فهو كثير كقول الخنساء :

غداة لقوهم بملومة      طحون يغادرن في الأرض وكزا  
بييض الصّباح ، وسمر الرمّاح      فبا لبيض ضرباً وبالسمر وخزا<sup>(٧)</sup>  
وقولها في رثاء صخر :

سمح خلائقه ، جزل مواهبه      وافي الدّمام إذا ما معشر غدروا<sup>(٨)</sup>

(١) ديوان امرئ القيس ٧٨ والعمدة ٢٤/٢ خصر : بارد

(٢) الديوان ١٧٢ (٣) الديوان ٧٩ . القطر : عود يتبخربه . المستعر : المفرد سحرا

(٤) الديوان ١٤٤ الشظى : عظام لاصق بالذراع . الشوى : الأطراف . الشنجج : التقبض  
النساء : عرق في الفخذ . الحجبات : رؤوس عظام الوركين . الفأل : لحم الورك أو عرق عن  
عين العجب ويساره

(٥) الديوان ١٧١ يعلّ : يبقى مرة بعد مرة (٦) تقد الشعر لقدماء ٢٥

(٧) الديوان ١٤٥ (٨) الديوان ١٢٥

(٤٣ — المرأة في الشعر الجاهلي )

وقولها :

جم فواضله ، تَمْدَى أنامله كاليدريخلو ولا يخفى على السارى  
رداء عادية ، فكناك عانية كضيغم بأسل للقرن هصار  
جواب أودية ، حمال ألوية سمح اليدين جواد غير مقتار<sup>(١)</sup>  
وقولها :

سمح سجيته ، جزل عطيته وللامانة راع غير خوان<sup>(٢)</sup>  
وقولها :

فالحمْد خلته ، والجود عانته والصدق حوزته إن قرنه هابا  
خطاب مفصلة ، فراج مظامة إن هاب مفضعة أتى لها بابا  
حمال ألوية ، شهاد أندية قطاع أودية ، للوتر طلابا  
سم العداة ، وفكناك العناة إذا لاقى الوغى لم يكن للقرن هيابا<sup>(٣)</sup>  
وقولها :

رفيع العماذ ، طويل النجاد ساد عشيرته أمردا<sup>(٤)</sup>  
وقولها :

يعطى الجزيل ، ولا يلحى الجليل ، ولا يعيا السبيل إذا قيل من هادى ؟<sup>(٥)</sup>  
وهذا كثير فى شعرها<sup>(٦)</sup> .

ومن الترصيع قول جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عروة :

لقد علم الضيف والمملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا  
بأنك ريسع ، وغيث مريع وأنك هناك تسكون الثملا

(١) الديوان ١٣٦ عانية : أسيرة . هصار : كاسر . مقتار : شديد البخل

(٢) الديوان ٢٤٧ .

(٣) الديوان ٤ وفى قواعد الشعر لثعلب ٣٧ أن البيت حمال ألوية لأخت ممدود بن

(٤) الديوان ٤١

شراد العدوية

وحيّ أبجت ، وحيّ منحت      غداة اللقاء منــــا عجا  
وحيّ وردت ، وثغر سددت      وعالج شددت عليه الحبالا  
ومال حويت ، وخيل تميّت      وضيف قرّيت يخاف الوكالا<sup>(١)</sup>  
وقول ليلي الأخيلية :

ألا رب مكروه أجبت ، ونائل      فعلت ، ومعروف لديك ومُنكر<sup>(٢)</sup>  
وقول عاصية بنت عمرو :

شهاد أندية ، رفاع أنبية      شداد ألوية ، فتاح أسداد  
نحار راغية ، قنال طاغية      حلال رابية ، فكك أقياد  
قوال محكمة ، نقاض مبرمة      فراج مبهمة ، حبّاس أوراد  
حلال مُمرعة ، حمال معضلة      قرّاع مُقطعة ، طلاع أنجاد<sup>(٣)</sup>  
وقول ليلي الأخيلية :

وقد كان مرهوب السنّان وبَيِّن اللسان ومخّذام الشرى غير فاتر<sup>(٤)</sup>  
من هذا يتجلى ولوع المرأة بالترصيع ، وولوعها بالتسميط ، وهو سجع ثلاثة  
أجزاء من البيت أو سجع جميعه كما سبق .

#### ٧ - كثرة الإقواء :

في شعرهن إقواء أحيانا ، وإكفاء نادراً .

١ - والإقواء والإكفاء شيء واحد في رأى أبى عبيدة وأبى جعفر<sup>(٥)</sup> ،  
ويونس<sup>(٦)</sup> . وهما مختلفان عند غيرهما . فالإكفاء في رأى المرزبانى أن يتقارب  
حرفا الروى ، كالنون والميم واللام لقرب مخارجهما ، كقول الشاعر :

بُنَيَّ إِن الْبَرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ      المنطق اللسين والطعّم

(١) مراثى شواعر العرب ٨٣ الوكال : الضعف (٢) قواعد الشعر انتخاب ٣٧  
(٢) الاغانى ١١/١٥ (٣) نقد الشعر لقدامة ٢٧ مجذام السرى : قطاع السير ليل  
(٤) الاغانى ٢١ . ٥٦ (٦) طبقات الشعراء ٥٦ . ٥٨



والعرب قد تخلط بين الإكفاء والإقواء<sup>(١)</sup>. أما الإقواء فهو اختلاف المجرى، والمجرى، حركة حرف الروى الذى تبني عليه القصيدة، فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة<sup>(٢)</sup>.

وقد وقع الإقواء والإكفاء فى شعر الرجال على قلة. فمن إكفاء الرجال البيت السابق، وفى قصيدة لثيم بن نويرة إكفاء<sup>(٣)</sup>، وكذلك فى قصيدة لعميرة ابن طارق<sup>(٤)</sup>.

ومن إقواء الرجال قول بشر بن أبى خازم:

ألم تر أن طول الدهر يُسلى وينسى مثل ما نُسيتُ جُدام  
وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم إلى للبلد الشامى<sup>(٥)</sup>

وكذلك أقوى النابغة<sup>(٦)</sup>، وسلامة بن جندل<sup>(٧)</sup>، وعمرو بن أحمد الباهلى<sup>(٨)</sup>.

ب — ولا شك أن الإكفاء والإقواء عيبان فى موسيقى الشعر، لذلك لم يُقر أحد من الطبقة الأولى وأشباهها إلا النابغة، ثم تنبه لإقوائه فأصلحه<sup>(٩)</sup>. ولو أن المرأة كانت أرهف فى الحس الموسيقى من الرجل ما وقع فى شعرها إكفاء ولا إقواء. لكنهما قد وقعا.

فمن الإكفاء قول ابنة أبى مسافع فى رثائه:

وأنت الطاعن النجلا ء منها مُزبداً آن  
وبالكف حسام صا رم أبيض خدام<sup>(١٠)</sup>

ومن الإقواء قول الخنساء:

فدئى للفارس الجشمى نفسى أفدئيه بمن لى من حميم

(١) المرشح للمريزبانى ١٥ و ٢٠ (٢) الموشح ١٨ وطبقات الشعراء ٥٨

(٣) النقائض ٢١ (٤) النقائض ٥٦

(٥) الموشح ٥٩ (٦) الأغاني ١٥٧/٩

(٧) ديوان سلامة المخطوط القصيدة الحائية

(٨) الموشح ٨٠ (٩) طبقات الشعراء ٥٥

(١٠) الموشح ٢١

أفديه كما أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تنيم<sup>(١)</sup>  
وقول خرنق :

هم جدعوا الأنوف وأوعبوها فما ينساغ لي من بعد ربي  
وبيض قد قعدن وكلُّ كحلٍ بأعينهن أصبح لا يليق<sup>(٢)</sup>  
وقول جلييلة :

إذا الخيل سارت بعد صالح صدورها وخُوفَ ابنا وائل من عشيها

فها كم حريق النار تُبدي شرارها فيقدح في كل البلاد سعيها<sup>(٣)</sup>  
وقول ابنة تميم بن الأخم في رثاء أبيها الذي قتله عقبة بن هبيرة :  
أعقيب لا ظفرت يداك ألم يكن دركٌ بحقك دون قتل تميم

فليحَقَّنْكَ في العشيرة لامة ولتَقْتَنَّ به وأنت ذميم<sup>(٤)</sup>  
وقد سبق في فنون شعرهن أمثلة شتى فيها إقواء .

#### ٨ - شعرهن لا يمثل أنوثتهن :

وتقسم معاني شعرهن جملة بأن طابعها مذكر ، وقد بينت أن شعرهن لا يمثل إلا لونا ناصلا من خصائص الأنوثة ، وأنه يكاد يكون صورة تامة من شعر الرجال إذا استثنينا السمات الأسلوبية والمعنوية السابقة ، فما مرد ذلك ؟  
قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهن عن بعض مجالى القول التي برز فيها الرجال ، وإن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذى يجيد الغزل لا بد أن يكون محباً ، والذي يصف الحرب لا بد أن يكون قد عرکها ، وذاق حلوها ومرها ، وواصف الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف

(١) ديوان الحنساء ٣٣٢ (٢) ديوان الخرنق ٦ مخطوط

(٣) رياض الأدب في مرآة شواعر العرب ١٥ (٤) المرجع السابق ١٠٧

تتطلب من المرأة أن تجيد في فنون من القول لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟

لكن ذلك مردود ، لأن المرأة العربية كما سبق قد أسهمت في الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت في الحرب ، فلماذا قصرت في الشعر ؟ ثم لماذا لم تنبغ في الأغراض المتصلة بحياتها النسوية ؟ ولماذا لم تتفوق في الرثاء غير الخنساء ؟

على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضيق وقسوة ومخافة للواقع ، وإلا لوجب أن يعيش الروائي أو الشاعر أو الكاتب ألواناً من المعيشة ، وأن يجرب ضروباً من التجارب لا تنسج لها حياته ، ولا يطبقها .

والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذي يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ، ويعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل في مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تكتسب ، فبناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان ما يفرض علينا شعورنا بتلك الظروف أن ننفعل ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون . وقد قال جو بلو : « إذا كنا مستيقظين فإننا لا نتحكم في التعبير عن عواطفنا فحسب ، بل نتحكم في عواطفنا أنفسنا . وهناك نصيب كبير من التصنع والعرف في عواطف الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتقد أننا نشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هي التي تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل ذلك شأن جميع العواطف السامية ، سواء أكانت خلقية أم جمالية أم دينية أم اجتماعية » <sup>(١)</sup> .

أريد أن أقرر أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينفسان عما بهما ، وهذا لا شك فيه . وقد يتأثران عن طريق الجمالة والمواساة والمشاركة للغير ، فينقلب تأثرهما إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تنففس .

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن الدعوى بأن المرأة لم تبرع في فنون الشعر لأنها لم تنخرط في الحياة العامة انخراط الرجل ، فليست مستقيمة من ينبوع العاطفة الذى يستقى منه الرجل ، دعوى لا تقوى على النقاش .  
وقد أسألت أنها تجافى الواقع ، لأن الأدباء كثيراً ما يبرعون في تصوير أحداث ومشاهد لم يروها .

ثم إن العالمين النفسيين الكبارين وليم جيمز وكارل لانج قد توافقا في سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م على نظريته في العواطف ، دون أن يكون أحدهما على علم ببحث الآخر ، وتسمى نظريتهما نظريه جيمز لانج Games-Lange Theory .  
وما يخص هذه النظرية أن الانفعالات ناشئة عن تغيرات جثمانية متعددة النواحي ، فنحن لانبكي لأننا محزونون ، بل نحزن لأننا نبكي ، ونحن لا نرتعد لأننا نخاف ، بل نخاف لأننا نرتعد ، ولها أدلة على إثبات هذه النظرية ، ولغيرها ردود عليهما ، ليس هذا مجال بحثها<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن في النظرية كثيراً من العيوب ، لأن كثيراً من الممثلين والممثلات يختم عليهم عمائم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيتظاهرون بالضحك والفرح أو البكاء والحزن ، وهم كثيراً ما يشعرون بعد هذا التظاهر بالسرور أو الأسف حقيقة ، وما ذلك إلا لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جثمانياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ثم إن المتظاهر بالمرض قد يمرض ، والمتظاهر بالصحة والعافية قد يصح ويبرأ .  
وقد أخذ برأيهما ريبو Ribot في كتابه علم نفس العاطفة ، فقال : « لنا في كل دراسة نفسية للعواطف أن نختار بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف ، وهذا الاختيار سيلزم باتباع طريقته الخاصة ، فالرأى الأول يقرر أن الحالات العاطفية ثانوية مشتقة من المعرفة وتابعة لها ، بل لا وجود للعواطف إلا بالمعرفة ، وذلك مذهب العقليين .

والرأى الثانى يقرر أن هذه الحالات العاطفية أولية أساسية مستقلة وغير متدخلة فى الذكاء ، ومن الممكن تصورهما من غيره ، وهو مذهب العضويين .  
والنظرية الأولى ( العقلية ) هى نظرية هربات ومدرسته ، ومؤداها أن العاطفة لا توجد إلا مرتبطة بالتصورات العقلية ، فالعاطفة نتيجة لاجتماع الأفكار وإدراكها فى النفس <sup>(١)</sup> .

بعد ذلك نسال لماذا لم تبرز المرأة فى فنون الشعر التى شاركت الآخريين والأخريات فى التأثير بدوافعها ، متظاهرةً مجاملةً فى أول الأمر ، ثم منفصلةً انفعالا أصيلا بعده ؟

لقد رأت أحيانا وسمعت أحيانا أخرى عن ميادين القتال ، وتناحر الأبطال ، ولقد رأت مشاهد الطبيعة ، وسمعت من الشعراء إعجابهم بها ، وقرىضهم فيها ، ولقد شاهدت بهجة قومها وقد ظفروا ، وشهدت حسرتهم وأساهم وقد انكسروا ، فأين شعرها فى هذا وأشباهه ؟

ليس السبب فى ( تذكير ) شعرهن هو ضيق حياتهن ، وإنما السبب فى فقدان شعرهن سمات الأنوثة ، وفى انطباعه بطابع الذكورة عدة أمور :

١ - أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة ، لكنها منقطعة قصيرة الأنفاس « وتمتاز انفعالات الرجل من انفعالات المرأة بأنها أعمق وأطول أثراً ، وأقل ظهوراً » <sup>(٢)</sup> .

فشاعر الرجل أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة ورزينة لا تكاد تحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية فى الظاهر ، ولكنها سريعة التغير ، دانية الغور إلا فى الحزن ( على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع ، والخوف ، والغريزة الوالدية ، وغريزة الخضوع ، والاستعداد للتقزز ، فكلها تبدو فى النساء أقوى منها فى الرجال ) <sup>(٣)</sup> .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب .

(٢) نفسية المراهق ٤٨ . (٣) كيف يعمل العقل ١٤٦/٢

ب - ثم إن الإنتاج الأدبي يحتاج إلى استعداد طبيعى ، وإلى جهد وصبر وتنقيح وإرادة ، والمرأة أضعف من الرجل إرادة كما يقرر علم النفس ، والفنان يستوحى من عقله الباطن ، ويستسلم لمواكب من الأخيلة والصور ، ويتحرر من الحياة الشعورية الواعية ، ويدنو من لحظات غير واعية ، وحينئذ ترتفع الحجب التى كانت تفصل خارج نفسه عن داخلها ، فيعبر مستمداً من عقله الباطن ومن شعوره ، وإذا فالتعبير الفنى إرادى وغير إدارى معاً . غير إرادى لأنه يستمد من الانفعال والفعل الباطن وينابيع الوحي ، وإدارى لأن المعبر يستمد من فكره وشعوره اللغة التى يحسم بها أحلامه ويصور بها إلهامه :

« يقول لامب Lamb إن الشاعر بخلم فى يقظته ، وليس ملصكاً لموضوعه ، وإنما هو الذى يمتلك موضوعه ويصرفه ويسيطر عليه ، فهو يخلق فى السماء وهو مدرك لما يقول <sup>(١)</sup> » .

ويقول رشاردز Richards إن القدرة على التعبير عن التجربة الماضية هى أولى خصائص الشاعر <sup>(٢)</sup> .

فالإنتاج الفنى يرجع إلى عوامل عقلية ، تتجلى فى التحليل ، ويتضمن الانتباه الانتقائى أو التجويد ، لأن النفس تعزل بعض التفاصيل وبعض الأشكال وبعض الوسائل ، وهى على وعى بـين بالغاية التى تقصد إليها ، ويتضمن تداعى الأفكار والحكم والبرهنة . ويرجع إلى عوامل انفعالية ، لأن صور الإبداع لا بد فيها من عناصر وجدانية يستحيل الإبداع بغيرها <sup>(٣)</sup> ، فهى الحافز أو الدافع أو الميل أو العاطفة ، أو أى عنصر من عناصر الوجدان .

ولا شك أن العامل الإرادى فى الإنتاج الأدبي يحتاج إلى جهد طويل . والأخبار مستفيضة عن شعراء العرب الذين كانوا ينقحون شعرهم ويعاودونه

The Aesthetic Theories. by Dr Hanns. P. 142 (١)

Ebld P. 142 (٢)

A. S. Eddington. Space, Time and Gravitation. P 200 (٣)

بالصقل والتبذيب ، فلا كان أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والخطيئة وأمثالهم  
يجودون شعرهم ، ويقفون عند كل بيت ، يعيدون فيه النظر ، لتخرج القصيدة  
كأما مستوية في الجودة ، حتى لقد قال الخطيئة : « خير الشعر الخولي  
المحكك<sup>(١)</sup> » .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانيه في اختيار أجود ما تفيض به  
شاعريته ، فقال إن الأبيات تنثال عليه ، ولكنه يرد بعضها ، ويتمكن من نفسه  
فيكبحها كما يكبح الفارس جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد أو عشرًا  
في رواية - أو تخير من قصيدة كان يعالج نظمها ستة أبيات - لأنه نحي رديها ،  
واصطفى جيادها :

أزود القوافي عنى ذبادا      ذباد غلام جرىء جوادا  
فلمّا كثرن وعنّيني      تخيرتُ منهن ستا جيادا  
فأعزل مرّجانيها جانباً      وآخذ من ذرّها المستجادا<sup>(٢)</sup>

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون  
ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، مثل سواد بن كراع  
العكلى<sup>(٣)</sup> ، كما اشتهر أبو نواس والبحتري وغيرهما في العصر العباسي ، وشوق  
في العصر الحاضر . بينما أكثر بعضهم من الارتجال كالأبي العتاهية ، فجاء شعره  
كما يقول الأصمعي : « كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب ، والتراب  
والخزف والنوى » .

وسيطرت نزعة التنقيح والتجويد على كثير من أدباء الغرب ، فمثلا ، كان  
لافوتتين ينظم المثل ، ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفي كل مرة يحرق ويغير ،

(١) البيان والتبيين ٩/٢ و ١٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٦٣ ورواها الآمدي في المؤلفات والمختلِف لامرئ القيس بن  
الحارث السكندی ورواها الميرزباني في معجم الشعراء لامرئ القيس بن بكر بن امرئ القيس  
بن الحارث ورواها بعضهم لامرئ القيس بن عابس السكندی وكأهم جاهليون

(٣) البيان والتبيين ١٢/٢

وينحذف ويضيف . وكان شاتوبريان يبدأ الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين ، ويقول بسكال : إنه حرر بعض فصول البروفنسيات خمس عشرة مرة <sup>(٣)</sup> .

وكثيراً ما صور الأدباء عيهم أحياناً ، يقول الفرزدق وقد تحداه رجل من الأنصار أن يقول قصيدة مثل قصيدة حسان «لما الجفنت الغرياه من في الضحا» قاتله الله ، ما رميت بمثله ، لقد أتيت منزلي بالأمس ، فأقبلت أحمّد وأصوب في كل فن من فنون الشعر ، فسكّاني منعم لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتي ، ثم أخذت بزمامها حتى أتيت ذبابا (جبل بالمدينة) فنادت بأعلى صوتي : أجيئوا أخاكم أبا لبيني ، فحاش صدري كما يخش الرجل ، فعلمت ناقتي ، وتوسدت ذراعها ، فما قتت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً <sup>(١)</sup> .

ويتحدث الشاعر الكاتب ديهامل فيقول : كم من مرة استمعت فيها إلى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجوع في عربة قطار أو مطعم ، فتحدثني نفسي في كل مرة : ها قد وقعت على طفة نفسية ، أو تسقطت علاقة ، أو لحقت دافعاً خفياً ، ولكنني عاجز عن أن أصوغ ما كشفت ألفاظاً ، وربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به ، أما الآن فلا ، وأنا أعلم أنني لم أصب التوفيق ، فسيأتي بعدى من يستفيد من تجاربنا ، وتسعفه عبقريته فيوفق إلى التعبير عما لحنا <sup>(٢)</sup> .

وإذاً فلا مقدوحة في قرض الشعر عن طبيعة ، وعن موهبة ، وعن جهد إرادي يبدله الأديب . وإن هذا الجهد الإرادي ليتمثل في اختيار العبارات الملائمة والتنقيح ، وتصوير المعاني والمشاعر ، وهذا الجهد عظيم ، لأن إبراز العواطف والمشاعر في صورة لفظية ملائمة شاق يحتاج إلى مقدرة وصبر ومرونة . وقد تنبه بعض نقاد العرب لهذا ، فذكر بشر بن المعتمر الاستعداد والجهد <sup>(٣)</sup> ، وذكرها الجاحظ <sup>(٤)</sup> ، وقرر الجرجاني أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه

(٣) دفاع عن البلاغة ٦٦ النزيات

(١) النقائس ٥٤٧ (٢) النقد المنهجي عند العرب ٢٥

(٣) العمدة ١٤٢/١ والبيان والتبيين ١٣٥/١ (٤) البيان والتبيين ١١٨/١



الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل سبب من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان<sup>(١)</sup> .

وذكر أبو حيان التوحيدي أن الكلام ينبعث في أول مبادئه إما من عفو البديهة ، وإما من كد الروية ، وإما أن يكون مركباً منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل .

ففضيلة عفو البديهة أن يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أن يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أن يكون أوفى .

وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما : الأغلب والأضعف . على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائب التعسف كان بايعاً مقبولاً رائعاً حلواً . والتفاضل بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في هذا المركب الذى يسمى تأليفاً ورصفاً<sup>(٢)</sup> .

ح - ثم إن النساء أعجز من الرجال عن الابتكار ، حتى فيما يختص بالإناث وتظن لهن المقدرة فيه ، كالتخيطة والطهو والغناء والرقص ، فالرجال هم الذين يتذكرون للسيدات نماذج المعارض والحلى ، وهم الذين يتفوقون في فنون الطهو ، وتلحين الأغاني ، وتدريب الرافضات ، واختراع الأدوات المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسيج . « وفي هذا شرح للظاهرة المشاهدة من أن النساء أكثر تقبلاً للحقائق ، والرجال أكثر ابتكاراً . فالنساء أقدر على ممارسة العمل الرتيب الذى يتطلب صبراً وتطبيقاً وذاكرة حاضرة ، أما الرجال فإهم براعه يحق الفخر بها فيما يتطلب كشفاً وبحثاً »<sup>(٣)</sup> .

(١) الوساطة . الجرجاني ٢١

(٢) الإيمان والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١٣٢/٢

(٣) كيف يعمل العائل ١٤٣/٢

وفي رأى علم النفس وعلم الأحياء أن الذكر إيجابي والأنثى سلبية ، وقد تقرر هذا من ملاحظة الخلية المنوية للذكر وبويضة الأنثى ، فالحيوان المنوى نشيط متحرك ، يتقدم ليبحث عن البويضة ، والبويضة تترىث وتنتظر وتستسلم ، كما وضَّح ذلك هافيلوك إليس Havelook Ellis<sup>(١)</sup> . وقد أشار الأستاذ إرنست كرتشمير Ernest Kretschmer أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج في كتابه ( نفسيات العباقرة ) إلى النساء اللاتي زاولن الفنون ، فذكر أن المرأة لم تُمنع تعلم الموسيقى والعزف على آلاتها ، لكن لم يخلد من النابغات في الموسيقى إلا اللاتي اتصن بالرجال ، مثل كلارا زوجة شومان الموسيقي العالمي ، وفاني أخت مندلسن ، وكورونا شروتر صديقة جيتي ، وغيرهن ، وذكر الشاعرة الألمانية أنيت فون درست هاشوف Anette Von Droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة في مزاجها وكلامها ، وكانت تنزياً بزي الرجال ، وتتمنى في بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء ، أو جندياً مقاتلاً ، أو رجلاً على الأقل . ولم تنظم قط في عواطف الأمومة ، أو وصف الطفولة ، أو حنين المرأة إلى الحب والألفة البيتية ، وما شابه ذلك من معارض الشعر التي يجب أن يكلف بها النساء . وقال إن هذا النزوع إلى التشبه بالرجال مشهود مطرد في نساء التاريخ المشهورات ، مثل اليصابات ملكة إنجلترا ، وكاترين قيصرية روسيا ، وكريستينا ملكة السويد ، فهن ينفغن في القدرة على بعض أعمال الرجال ، بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة ، لا بمقدار ما يزيد على الحاجة<sup>(٢)</sup> .

وكذلك مدام كوري ، فإنها كانت زوجة لعالم كبير تأثرت به ، ومسر براوننج الشاعرة الإنجليزية كانت زوجة للشاعر روبرت براوننج ، وجورج

(١) سيكولوجيا المرأة ٨٥ فرويد ترجمة محمد صدق وهذه الشجرة ١٧٣ للعقاد والأزمات

(٢) هذه الشجرة ٧٤ . العقاد

الزوجية وعلاجها ٣٠ محمد زى شافى

إليوت ألفت أحسن رواياتها وهى فى عشرة صديقها لويس ، واللادى ديلك Dilke كتبت فى الدراسة العالية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون ، وكتبت فى السياسة والإدارة حين صارت زوجة لرجل سياسى <sup>(١)</sup> .

وهذا الحكم أقرب إلى الحق من حكم شوبنهاور القاسى ، ذلك بأنه يرى أننا نخطئ فى تسمية النساء الجنس اللطيف ، ويجب أن نسميهن الجنس غير المتذوق ، لأنهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة ، وإن كن يذعن هذا أحياناً رغبة فى إرضاء الرجال . ولسن قدرات على النظر للموضوعى إلى أى شأن من الشؤون . وأشهر مشهوراتهن لم ينتجن إنتاجاً أصيلاً فى الفنون الجميلة ، ولم يقدمن للعالم عملاً ذا قيمة خالدة . لذلك كان الأسويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وفرقوا بينها وبين الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات <sup>(٢)</sup> .

وقفى على أثره الفيلسوف الاقتصادى برودون فى كتابه ( ابتكار النظام ) فرأى أن النوع الإنسانى ليس مدينًا للمرأة بأية فكرة أخلاقية أو سياسية أو فلسفية ، أو باى كشف صناعى ، فالرجل وحده هو الذى اخترع وكمل وعمل وأنتج وغذى المرأة، وإن الدور الذى مثلته المرأة فى الآداب مثل الدور الذى مثلته فى المصنع ، فإنها لا تقوم فى المصنع إلا بما لا يحتاج إلى استعمال القريحة <sup>(٣)</sup> .

والفكرة المشتركة فى هذه الآراء أن المرأة عاجزة عن الابتكار ، وأن النساء المشهورات كن متصلات بعظماء من الرجال فحاكينهم ، واقتبسن من شهرتهم ، وكن أميل إلى مظاهر الرجولة منهن إلى الأنوثة .

وهذا حق ؛ لأننا لم نعرف شاعرة بهرت عصرها وأخلت شعراءه ،

(١) هذه الشجرة ١٧٣ . العقاد

(٢) كيف يعمل العقل ١٣٥/٢

ولم نعرف خطيبة أو كاتبة شذت دهرها ، وأخملت كتابه وخطباءه .

والحكم كذلك في العلم والصناعة ، لأن الطبيعة ضربت حجابها بين النساء والتفوق على الرجال أو مساواتهم في هذا المضمار ، قبل أن يضرب الرجال على النساء الحجاب .

ويعزز علم النفس هذه الفكرة بتقريره أن الذكور يتفوقون على الإناث في الأعمال التي تحتاج إلى تفكير ، كرد الأسباب إلى المسببات ، وفي القدر العقلية العامة <sup>(١)</sup> .

على أننا نجد الخنساء — أشهر النساء العربيات — امرأة مسترجلة ، فحي تهنأ إبل أبيها ، وهذا من عمل الرجال . وأبوها يقول لدريد بن الصمة حين خطبها : « إن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها » ، ثم يستشيرها فتقول في صراحة : « يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالى الرماح ، وناكة شيخ بني جُشم ؟ »

ثم لما هاجها دريد ردّت عليه بمثل هجائه .

ولما قُتل أولادها في حرب القادسية وعامت بمصرعهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم في مستقر رحمته . وقد تنبه بشار إلى أنها أنثى كالرجل فقال : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، كانت بأربع خصى .

د - ويرجع السبب أيضاً في محاکاتهن للرجال واصطباج شعرهن بالذكرورة الفكرية والتصويرية إلى أنهن رأين الرجال متفوقين عليهن ، وأعجبن بهـذا التفوق ، فقلدن الرجال ، ولا شك أن ما قرره تارد Tarde في التقايد من الناحية الاجتماعية من الممكن أن ننتفع به هنا في الناحية الأدبية . فهو يقرر أن التقايد

( بمعنى نقل إنسان من إنسان بصفة عامة ، أو أديب من أديب ، أو أدب أمة عن أدب أمة بصفة خاصة ) يتبع سبيلاً واحداً هو أن التقليد يسرى من الداخل إلى الخارج ، أى أن الأمة التى تقلد الأخرى هى الأمة التى تنقل ذوقها وأفكارها وأدبها قبل أن تنقل عاداتها ورفاهيتها ، فهى تقلد تقليداً داخلياً ، قبل أن تقلد تقليداً خارجياً ، وهو قانون ينطبق على الأفراد أيضاً .

وتارد يذهب إلى أن التقليد أيضاً ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أن الأمة إذا أجذبت فى الآداب وكانت على صلة بأمة أخرى مثيرة فى آدابها ، أحست الأولى بفقرها وبراء جارتها ، فدانت بتفوقها ، وإذا تقف من أدب الأمة الثرية موقف المتطلع أو الآخذ ، فينحدر التقليد من الأمة المقلدة إلى الأمة المقلدة ، أى من الأعلى إلى الأدنى . وهذا التقليد طبيعى ، لأنه نوع من الجبر الاختيارى ، أى أنه جبر تحمته المدنية نفسها ، وهى تفرض على الإنسان المتمدين أو المتطلع إلى الحياة أن يطيع القوانين العامة حينما يقف على الدرجة الأولى من سلم المدنية ، وهو إذا أطاعها فلائنه يجد من نفسه الحاجة إليها . وهذا ينطبق على الأمم ، وعلى العواصم وعلى الأفراد ، وينطبق على العلم وعلى الآداب <sup>(١)</sup> .

ومن السهل تطبيق هذين القانونين على حال المرأة والرجل ، فالرجل حامى المرأة ، وهو القوام بشئونها ، وهو سندها وأملها ، أباً أو زوجاً أو ابناً أو أخاً ، وهو أقوى منها جسداً ، وأحصف رأياً ، وأسمى مكاناً ، ثم هو أبرع منها شعراً وأقوى لسناً ، وهذه كلها دوافع إلى إعجاب المرأة به ، ومحاكاة إياه ، وتأثرها خطاه . ولست أبعد عن الصواب إذا حكمت حكماً عاماً : أن النساء فى العصر الجاهلى كن ملهمات للشعراء أعظم منهن منتجات للشعر وناقذات .

نم هن اللاتى ألهمن الشعراء الغزل ، فأثرى الأدب بهذا الفن الجميل ، وهن اللاتى ألهمن فى الرجال روح الحماسة والمنافسة ، فصوروا عواطفهم ، ووجلوا جنات الأدب بفراس ناضر ، حلو الجنى ، داني القطوف .

# الجديد في البحث

و بعد :

فأى جديد في هذا البحث ؟

أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة في غصونه لاجابة إلى تكريرها ،  
وبعضه حقائق عامة جديدة بإفرادها وذكرها .

١

كان العرب في العصر الجاهلي متصلين بالأمم والديانات المعاصرة لهم بوسائل  
شتى ، وقد تأثروا بمن اتصلوا بهم ، وتجلى هذا التأثير في ضروب من العقائد  
والأخلاق والعادات والنظم .

وقد بينت معالم هذا التأثير والتشابه أو التخالف فيما يتصل بأحوال المرأة .  
لكن سلطان البادية والبدوة كان غلبا ، يطبع الحياة العربية بطابعه ،  
ويصطبغ به العرب البداءة والحضر .

٢

لقد طالما ردد بعض الباحثين المعزين بالشعر الجاهلي أنه ثبت أمين للحياة  
العربية ، لكنهم لم يحققوا هذه الدعوى بدراسات تتكئ على الشعر الجاهلي ،  
وردد آخرون أن الشعر الجاهلي لم يصور الحياة العربية في شتى مظاهرها .

وقد استنطقت الشعر الجاهلي ، فوجدته قد سجل مظاهر الحياة العربية ،  
وصور مفاخرها ورذائلها ، لكن في إجمال يوائم طبيعة الشعر وطريقته الفنية  
الوجدانية ، وجنوحه إلى التركيز والإيجاز والاكتفاء بالدع والإشارة .

وهذا الشعر الذي استقيت منه صحيح في الأكثر الأعم ، لأنه بعيد عن  
بواعث النحل ، فهو لا يمت إلى عصبية قبلية أو سياسية ، وليس مما يتكاثر به

الرواة المتنافسون، ويزيد فيه القصص والإخباريون، ثم إنه غير مقصود لذاته، إنما جاء عرضاً في خلال القصائد، وهو إلى ذلك كله لا يخافى النظم التي تحتمها البادية على قضاها

## ٣

كانت الصورة التي رُسِّمَتُ للمرأة العربية مضطربة متناقضة، فرسُمَتْ لها صوراً جلية، إذ استمددت من الشعر الأنوان والأصباغ التي رسمت بها صور المرأة، وجليت مكاتبتها في الحياة الاجتماعية والسياسية: في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع، سواء أكانت أماً أم زوجة أم بنتاً أم أختاً أم قريبة، أم عضواً في المجتمع، وسواء أكانت في سلم أم في حرب.

## ٤

اتضح لي أن الشراء كثيراً ما نسبوا إلى الأمهات أو نسبوا إليهن، فافتضى هذا النسب أن أعلل له، فعرضت لنظرية التوتمية، ونظرية الشيوعية عند العرب وفندتهما، وأثبت بطلانهما بالنسبة إلى العرب. ثم رجعت النسب للأُم إلى أسباب شتى، ليس فيها أثر للتوتمية ولا للشيوعية.

## ٥

في دراستي للبنات أثبت أن كثيراً من العرب كانوا يحبون بناتهم، ويحبدون عليهن، ويتكهنون بأسمائهن، ويهشون لمشورتهن، ويرفعونهن مكاناً عالياً. وبهذا صححت الرأي الشائع أن العرب جميعاً كانوا ييفضون البنات، ويبدونهن.

## ٦

صححت الرأي الذي كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت في الخفيض، تسام الخسف، وتأمل ماملة العبيد، حتى جاء الإسلام فخررها من السكبول،

ورفعها من الضعة ، وأكسبها حقوقاً لم تكن لها .  
فأبنت أن المرأة كانت في الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية  
ورأى وحرية .

واستنبطت هذا الحكم من دراسى لمكانة الأم والزوجة والبنت والأخت  
والقريبة والمرأة ، فى القبيلة وفى المجتمع العربى .

وبينت أن المرأة كانت فى الحياة السياسية عضواً عاملاً ، تشارك الرجال فى  
شئون جليلة ، وترتفع أحياناً إلى منزلتهم ، وتسودهم آونة فتملك عليهم ، أو  
تقودهم فى الحروب . حتى المرأة السبية كانت تعامل معاملة حسنة ، ميزت الدرب  
من أمم كثيرة .

وإذا فلم تكن مكانة المرأة العربية أدنى من مكانة المرأة المعاصرة لها ، بل  
لقد جازت نساء عصرها ما عدا المرأة المصرية فى بعض أحوالها .

وخالصة من الموازنة إلى أن الإسلام قد وطن مكاتها ، وأكسبها حقاً  
جديداً لم يكن لها ، ذلك بأنه فرض لها نصيباً معلوماً من التركة .

## ٧

كشفت عن حقيقة أخرى : أن المرأة لم تكن تملك المال وتتصرف فيه  
فحسب ، بل كانت تنال من التركة نصيباً ، وإن لم يكن مقدراً مقررأ . فقد  
عثرت على نصوص استنبطت منها أن المرأة كانت ترث أحياناً ، واهتديت إلى  
نص فريد فذ يثبت أنها ورثت نصف الذكر فى حال ربما لم تكن الوحيدة فى  
المجتمع العربى .

## ٨

لم أجد تفرقة بين السبى والأمة فى المراجع اللغوية والتاريخية والدينية ، فلم  
أطمئن إلى ذلك ، لأن الروح العام للشعر الجاهلى يوحى بالتفرقة ، فاستطعت أن



أفرق بينهما في الصفة ، والمنزلة ، والعمل ، والمعاملة ، ومنزلة أبناء كل منهما ،  
متممداً على الشعر فيما ذهبت إليه .

## ٩

فندت — في دراستي للإمام القيان — الفكرة الشائعة أن العرب لم يعرفوا  
الغناء الفارسي والرومي إلا في الإسلام ، وأثبت أنهم كانوا على صلة بهذا الغناء  
في العصر الجاهلي ، وأيدت بنصوص شعرية كثيرة أنهم عرفوا الآلات الموسيقية  
الأجنبية قبل الفتوح الإسلامية .

## ١٠

في دراستي للمرأة الشاعرة اهتمت إلى كثير من الشواعر المنسيات ، ودرست  
شعرهن وشعر غيرهن ، واستطعت أن أميز الأصيل من الدخيل ، ووازنت بين  
شعر النساء وشعر الرجال ، واستنبطت ملامح شعر النساء في كل فن ، وخصائص  
شعرهن في كل فنونهن ، ورجعت هذه الخصائص إلى نفسية المرأة ومقتضيات  
حياتها .

نم اتمهت إلى أن النساء الشواعر كن يحاكين الرجال الشعراء ، لسكن  
أجنحتهم قعدت بهن عن التحليق في جوائهم ، وأنهن لم يستطعن أى يسمن  
شعرهن بسمات الأنوثة البارزة التي تفرده وتميزه من شعر الرجال في كل موضوع  
من موضوعات الشعر .

## ١١

واستوحيت من هذه الدراسات للمجتمع العربي أن العرب لم يكونوا — كما  
صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — جموعاً من الهمج البدائيين ؛ لأن نظمهم  
في الزواج والطلاق ومعاملة النساء ، وتمليكهن المال ، والإسماح بتصرفهن فيه  
ومعاملة السبايا ، والحجاب ، كانت أرقى من نظم الأمم المعاصرة لهم آناً ، وشبيهة  
بها آناً ، ولأن الإسلام أقر كثيراً من هذه النظم .

## اقتراحات

### ١

أقترح على الذين يريدون تتبع الشعر العربي إلى ينابيعه الأولى أن ينفذوا السير إلى العصر الجاهلي فيتملوه ويتذوقوه ، على أنه فيض من عواطف صادقة متدفقة ، وعلى أنه العمدة الأولى ، والأسس الأصلية للشعر في شتى عصوره .

فمن الإجحاف بالشعر الجاهلي أن يهمل ، أو أن يدرس على أنه أثر قديم يتفكه به الدارس ، ومتحف لمخلفات من الماضي السحيق يلم بها في نظرات عابر ولحات خواطف .

ولست أنكر أن هذه الدراسة يعوزها الصبر والأناة والرغبة ، ولست أعدو الحق إذ أقرر أن العصر الحاضر منكوب بنزعتين تباعدان ما بينه وبين هذه الدراسة : أقصد الفرور والاستخفاف ، وإنهما لتبدوان فيما يحول ببعض النفوس وما يجرى على بعض الألسنة والأقلام ، من الاعتزاز بكل حديث ، والزراية بكل قديم ، وإن كان الحديث وايده وصداه .

### ٢

وإذ قد استبان لي خطر الشعر الجاهلي وتمثياله لعصره ، أردت أن ينفذ به الدارسون ، جمعاً ، وتحقيقاً ، ودراسة .

١ — ففي المكتبات عشرات من الدواوين والمجموعات الشعرية مخطوطة ، وعشرات مطبوعة طبعاً رديئاً عاجزاً ، وهي كلها تتلف على من يحققها ، ويخرجها إخراجاً علمياً .

٢ — ومن المستطاع أن تؤسس على الشعر الجاهلي عدة دراسات ، كدراسة الحياة السياسية ، والحياة الخلقية ، والحياة الدينية ، وعلاقة الشعراء بالبيئات ، وأثرها في إنتاجهم وخيالهم .

على أن فنون الشعر في حاجة إلى دراسة مفصلة عميقة ، تكشف عن نشأة كل فن وخصائصه .

ثم إن ساطان الشعر الجاهلي على ما بعده مفتقر إلى دراسة مستوعبة ، تبين أثره في العصور الأخرى من حيث منهج القصيدة ، والمعاني ، والخيال ، والموسيقى .

٣ — وإنه لمن الخير أن تتسكى الدراسات التاريخية والاجتماعية على الشعر الجاهلي يرفدها ويمدها .

### ٣

نقد درست شعر المرأة في العصر الجاهلي ، وكشفت عن خصائصه . فأود أن يدرس آخرون شعر النساء في العصر الإسلامي ، وفي العباسي ، ويميزوا خصائصه ، لمعرفة مقدار ما بين النسوة الشواعر من تشابه أو تخالف ، وهل هناك طابع عام يطبع شعرهن جميعاً ؟ وإنني لأترق في الرغبة ، فأتوق إلى أن يدرس آخرون شعر النساء في الأمم الأخرى ؛ لتعرف خصائصه ، وإلى أي حد تتقارب أو تتباعد من خصائص شواعرنا ، وهل في شعر النساء جميعاً ملامح موحدة أو سمات متشابهة ؟

### ٤

وليكن منهج الدارسين لأدبنا العربي كفيلاً بتجلية مابه من مميزات فنية ، وما فيه من قوة وحيوية ، متجردين من التعصب له أو التعصب ضده . فما من شك في أن لهذا الأدب خصوماً ، منهم القدماء ، ومنهم المحدثون ، لكنه تعالى على هؤلاء وأولئك ، وتأنى عليهم ، وبقي كالصخرة الصلدة في طريق السيل ، كلما عجز بها انكسر ثم انحسر ، ومضى عنها سائمة الحواشي عظيمة الخطر .

والطالما لقيت عناء وبلبلت في دراسة التاريخ العربي في العصر الجاهلي ، لأنه لما يزل مهملًا ، ويخولني هذا أن ألح على المؤرخين ليعنوا بالعصر الجاهلي ، فيكشفوا ما يكتنف تاريخ العرب من بلبلت وغموض ، ويوضحوا صلاتهم بالعالم القديم ، ومكانتهم من الحضارة الخالية ، فقد آن الأوان لأن ينكشف الإبهام ، وينجلي الظلام ، ويتبلج الحق ، ويوضع العرب في مكانهم الصحيح من ركب الحضارة .

# المراجع

مرتبة هجائياً

- ١ - مخطوطات
- ٢ - كتب عربية
- ٣ - كتب مترجمة إلى العربية
- ٤ - كتب إفريقية

## ١ - المخطوطات

- ١ - الأجر الجزل في الغزل . السيوطي . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ٢ - الاستبصار في أنساب الأنصار . مخطوط بدار الكتب ٣٤٩ تاريخ لم يعلم مؤلفه ، ويظهر أنه لشيخ الإسلام أبي محمد عبد الله المقدسي المتوفى ٦٢٠ هـ .
- ٣ - إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم . لأبي عبد الله عبد الله محمد بن الشيخ المراكشي . مخطوط بدار الكتب ٢١٣٧ تاريخ .
- ٤ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ، المعروف بحماسة الخالدين . مخطوط بدار الكتب ١٧٠٩ أدب
- ٥ - أشعار النساء للعرزباني ( الجزء الثالث ) مخطوط بدار الكتب ٨ أدب ش ٤٢٨٩٨
- ٦ - أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .
- ٧ - إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك . للسيد محمد مرتضى الزبيدي . مخطوط بدار الكتب ٢٠١٨ تاريخ .
- ٨ - أيمان العرب . النجيري الكاتب .

- ٩ — جهرة الإسلام ذات النثر والنظام . لأمين الدين أبي الفنائم مسلم بن محمود الشيزرى . مخطوط بدار الكتب ٩٢٢٣ أدب .
- ١٠ — جهرة أشعار العرب (الجزء الثانى) أبى زيد محمد القرشى . مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٢٦٨ تاريخ . و بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ١٥٧ - ٢٦٠ باسم جهرة أبى زيد القرشى .
- ١١ — الحماسة البصرية . جمعها أبو الحسن البصرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٠ أدب .
- ١٢ — الدرارى فى أبناء السرارى . للسيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .
- ١٣ — ديوان الأفوه الأودى . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب .
- ١٤ — ديوان خرنق . مخطوط بدار الكتب ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب .
- ١٥ — ديوان الخنساء . مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطى سنة ١٢٨٨ هـ .
- ١٦ — ديوان سلامة بن جندل . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ٦٥٤ ( ٧١٩ ) .
- ١٧ — ديوان عروة بن حزام . رواية المرزبانى بسنده إلى ثعلب . مخطوط بدار الكتب ٧٠ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ١٩٦ ( ١٦ ) .
- ١٨ — ديوان قيس بن الخطيم . مخطوط بمكتبة تيمور ٢٩٦ شعر .
- ١٩ — ديوان المتأس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .
- ٢٠ — ربيع الأبرار . الزمخشري . بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .
- ٢١ — شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى . مخطوط بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ٢٧١ - ٢٨٩ .
- ٢٢ — شرح المعلقات السبع . ابن الأنبارى . مخطوط بدار الكتب ١٩٩٠٧ ز .

- ٢٣ — صور الكواكب . أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي .  
مخطوط بدار الكتب ٩٠٧ ميقات . وبه صور شتى للكواكب .
- ٢٤ — العنوان في مكاييد النسوان . علي بن عمر المعروف بابن البتوني  
الأبوصيري . مخطوط بدار الكتب ٣٥٦٨ أدب .
- ٢٥ — فضل العرب على العجم . ابن قتيبة الدينوري . مخطوط بدار  
الكتب ١٨٦٤ أدب .
- ٢٦ — كتاب الملاحى وأسمائها أبو طالب المفضل بن سلامة النحوى اللغوى .  
مخطوط بدار الكتب ٥٣٣ فنون جميلة .
- ٢٧ — كتاب الزينة . أبو حاتم الرازى . مخطوط بالخزانة المحمدية  
الهدمانية . يعده للإخراج الدكتور حسين المدائى .
- ٢٨ — محاسن النساء . لأحمد بن هشام . مخطوط بمكتبة تيمور  
٨٠٣ أدب .
- ٢٩ — مرثا وأشعار . لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى . مصور  
بمعهد المخطوطات ف ٨٠٦ ( ١٩٣ ) .
- ٣٠ — مستقصى الأمثال . للزمخشري . مخطوط بدار الكتب أدب  
١٠٢ م .
- ٣١ — المطر والسحاب لأبى بكر محمد بن دريد الأسدى ، مخطوط بدار  
الكتب لغة ٢٢٩ .
- ٣٢ — من نسب إلى أمه من الشعراء . لمحمد بن حبيب ، مخطوط بدار  
الكتب ٧٥ ش أدب .
- ٣٣ — منتهى الطالب من أشعار العرب . جمعه محمد بن المبارك . مخطوط  
بدار الكتب ١١٨٤٦ ز .

- ٣٤ — المنظوم والمنثور . لابن طيفور . مخطوط بدار الكتب ٥٨١ .
- ٣٥ — نثر الدر . صورة شمسية بدار الكتب رقم ٤٤٢٨ أدب لوح ٣٦٧ .
- ٥٦ — نزهة الجلساء في أشعار النساء . للسيوطي . مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر .
- ٣٧ — نثر الحاسن اليمانية في خصائص اليمين ونسب القحطانية . مخطوط بدار الكتب ٤٦٥٠ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .
- ٣٨ — الوحشيات ( الحماسة الصفري ) . لأبي تمام . مخطوط بدار الكتب ٢٢٩٧ أدب .

## ٢ — الكتب العربية المطبوعة

- ٣٩ — أبيات المعاني . أبو هلال العسكري .
- ٤٠ — اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب . الأستاذ محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .
- ٤١ — أثر العرب في الحضارة الأوروبية . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م .
- ٤٢ — الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين . م . حائى بن شمعون . مطبعة كوهين ورزنتال بمصر ١٩١٢ م .
- ٤٣ — إحياء علوم الدين . الغزالي . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢-١٩٣٣ م .
- ٤٤ — أخبار الحكماء . القفطى . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ .
- ٤٥ — الأخبار الطوال . أبو حنيفة الدينورى . بتحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة بريل ١٨٨٨ م .
- ٤٦ — أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام . الأستاذ حسن السندوبى . الطبعة الأولى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٥٣٨ هـ ١٩٣٩ م .



- ٤٧ - أخبار مكة . الأزرق . رواية أبي محمد إسحاق الخزاعي . مطبعة المدرسة  
الحروسية بمدينة غنتغه ١٢٧٥ هـ . وطبعة المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ .
- ٤٨ - أخبار النساء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي المعروف  
بابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .
- ٤٩ - الأزمات الزوجية وعلاجها . الدكتور محمد زكي شافعي .
- ٥٠ - أساس البلاغة . الزمخشري .
- ٥١ - أساس العدالة في القانون الروماني . دكتور علي حافظ . مطبعة لجنة  
البيان العربي بالقاهرة ١٩٥١ م .
- ٥٢ - أساس الفلك والجغرافية . الأستاذ محمد خير الدين والأستاذ عبدالفتاح  
الزيادي . مطبعة التوكل ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .
- ٥٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة مجلس دائرة  
المعارف النظامية بمحدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .
- ٥٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة .  
١٢٨٠ هـ .
- ٥٥ - الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة الباني  
الخلي بالقاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .
- ٥٦ - أسس علم النفس . الدكتور عبد العزيز القوصي . مكتبة النهضة  
المصرية ١٩٥٠ .
- ٥٧ - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة . الأستاذ مصطفى  
سويف . مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م .
- ٥٨ - الإسلام والحضارة العربية . الأستاذ محمد كرد علي بك . مطبعة  
دار الكتب ١٩٣٤ .
- ٥٩ - الإصابة في تمييز الصحابة . أبو الفضل أحمد بن علي الكفاني

- العسقلاني المعروف بابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ٦٠ - الأصمعيات من مجموع أشعار العرب . نشره وليم بن الورد البروسي .  
طبعة ليسغ .
- ٦١ - الأصنام . هشام بن محمد الكلبي . تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا .  
المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- ٦٢ - الأصول الفنية للأدب . الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٤٩ .
- ٦٣ - أصول النقد الأدبي . الأستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثانية . مطبعة  
الاعتماد بمصر ١٩٤٢ م .
- ٦٤ - الاعتصام . الشاطبي مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .
- ٦٥ - أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزنجشري . الطبعة  
الثانية ١٣٢٤ هـ .
- ٦٦ - الأعلام النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م .
- ٦٧ - أعلام النساء . الأستاذ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .
- ٦٨ - الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . الأجزاء الخمسة الأولى طبعة  
دار الكتب والباقية طبعة ساسي .
- ٦٩ - ألف باء . البلوي . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
- ٧٠ - الأمالى . أبو علي القالي : مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .
- ٧١ - أمالى ابن الشجري . مطبعة الأمانة بمصر ١٩٣٠ م .
- ٧٢ - أمالى السيد المرتضى . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر  
١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ٧٣ - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع .  
المقريزي تحقيق محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .
- ٧٤ - الإمتاع والمؤانسة . أبو حيان التوحيدي . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٩ .

- ٧٥ — أمثال العرب . المفضل الضبي . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
- ٧٦ — الأنساب أبو سعيد عبد الكريم السمعاني . لندن ١٩١٢ م .
- ٧٧ — أنساب العرب القدماء . الأستاذ جرجى زيدان . مطبعة المحال
- بمصر ١٩٠٦ م ،
- ٧٨ — إنسان العمون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . على بن برهان الدين الحلبي ، الطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .
- ٧٩ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .
- ٨٠ — باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . الأستاذ حمزه فتح الله بك . مطبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .
- ٨١ — البدء والتاريخ . المطهر بن طاهر المقدسي . باريس ١٩٠٣ م .
- ٨٢ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
- ٨٣ — بلاغة أرسطوبين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة .
- ٨٤ — بلاغات النساء ابن طيفور مطبعة مدرسة والددة عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .
- ٨٥ — البلدان اليعقوبى : مطبعة برزيل بليدن ١٨٩١ م .
- ٨٦ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكرى الألوسى المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ .
- ٨٧ — بلوغ الأرب في مآثر العرب . محيى الدين الشهير بالعطار . مطبعة الصفا بابلان ١٣١٩ هـ .
- ٨٨ - البيان والتبيين . الجاحظ ( ١ ) تحقيق الأستاذ حسن السندوبى ، الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٢ م ( ب ) وتحقيق الأستاذ

عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ م -

١٩٤٩ .

٨٩ - بين الحبشة والعرب . الدكتور عبد المجيد عابدين . طبعة دار الفكر العربي بمصر

٩٠ - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . الأستاذ السباعي بيومي . مكتبة

النهضة ١٩٤٨ م

٩١ - تاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم . الطبعة الثانية . مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٩٢ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك .

٩٣ - تاريخ التربية . الأستاذ أحمد فهمي القطان . مطبعة مصر ١٣٤٥ هـ -

١٩٢٦ م .

٩٤ - تاريخ التمدن الاسلامي . الأستاذ جرجي زيدان . مطبعة الهلال

١٩٠٢ - ١٩٠٦ .

٩٥ - تاريخ حضرموت السياسي . صلاح البكري اليفعي . المطبعة السلفية

بمصر ١٣٥٤ هـ .

٩٦ - تاريخ الخميس في أحوال أنفـس نفـيس . الديار بكري . المطبعة العامرة

العثمانية ١٣٠٢ هـ .

٩٧ - تاريخ العرب (مطول) الدكتورة فيليب حتى وإدورد جرجي وجبرائيل

جبور مطبعة دار الكشاف ببيروت ١٩٤٩ م .

٩٨ - عمر بن الخطاب . ابن الجوزي . مطبعة صبيح بمصر .

٩٩ - التاريخ الكبير أبو القاسم علي بن عساكر . مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

١٠٠ - تاريخ اللغات السامية ، الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد

بمصر ١٣٤٨ هـ - ٢٩٢٩ م .

١٠١ - تاريخ مكة . أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي . من كتاب

المنتقى في أخبار أم القرى . ليبزج ١٨٥٩ م

١٠٢ — تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب . نشره هوتسا

M. TH. Hautsma

١٠٣ — تاريخ اليهود . أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى مطبعة

جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م

١٠٤ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . الدكتور

إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م .

١٠٥ — تاريخ يوسفوس اليهودى . المطبعة العلمية ببيروت .

١٠٦ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح الزبيدى . مطبعة

مصطفى البابى الحلبي بمصر .

١٠٧ — تحفة الأبييه فيمن نسب إلى غير أبيه . الفيروزابادى . من

نوادير المخطوطات . نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر .

١٠٨ — التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والتاجر والحالة

العلمية فى المدينة المنورة . عبد الحى الكنانى الفاسى . المطبعة الأهلية بفاس

١٣٦٦ هـ .

١٠٩ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع : أبو شامة . القاهرة

١٣٦٦ هـ — ١٠٤٧ م .

١١٠ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق داود الأنطاكى بالمطبعة

البيهية المصرية م .

١١١ — تطور النظرية التربوية . الأستاذ صالح عبد العزيز . المطبعة الأميرية .

١١٢ — تفسير الألوسى ( روح المعاني ) : السيد محمود شكرى الألوسى .

دار الطباعة المنيرية بمصر .

- ١١٣ - تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)
- ١١٤ - تفسير الجلالين : مطبعة المعارف العلمية بمصر ١٣٤٤ هـ .
- ١١٥ - تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل )  
المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .
- ١١٦ - تفسير الطبري ( جامع البيان في تفسير القرآن ) مطبعة بولاق  
١٣٢٣ هـ .
- ١١٧ - تفسير الفخر الرازي ( مفاتيح الغيب ) .
- ١١٨ - تفسير القرطبي ( الجامع لأحكام القرآن ) مطبعة دار الكتب .
- ١١٩ - تفسير النيسابوري ( تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان )  
على هامش الطبري : بولاق ١٣٢٣ هـ .
- ١٢٠ - التنبيه والإشراف المسمودي مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٧ هـ -  
١٩٣٨ م :
- ١٢١ - تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلاني . مطبعة دائرة المعارف  
النظامية بالهند ١٣٢٧ هـ .
- ١٢٢ - تهذيب الكامل للبهره . الأستاذ السباعي بيومي . مطبعة السعادة  
بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .
- ١٢٣ - تيارات أدبية بين الشرق والغرب الدكتور إبراهيم سلامة  
١٩٥٢ م .
- ١٢٤ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ابن  
الديبع الشيباني الزبيدي مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .
- ١٣٥ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . الثعالبي . مطبعة الظاهر  
بمصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .
- ( ٤٥ - المرأة في الشعر الجاهلي )

- ١٢٦ — الجامع الصحيح . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة  
١٣٢٩ هـ .
- ١٢٧ — جوهرة أشعار العرب . القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ  
١٩٢٦ م .
- ١٢٨ — جوهرة الأمثلة . أبو هلال العسكري . على هامش مجمع الأمثال  
للميداني . المطبعة الخيرية بمصر ١٣١٠ .
- ١٢٩ — جوهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسي . تحقيق ا . ليفي .  
بروفنسال . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٧ م .
- ١٣٠ — حجة الله البالغة . أحمد شاه ولي الدين الدهلوي : المطبعة الخيرية  
بمصر ١٣٣٢ هـ :
- ٣٣١ — حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة . جابي زاده علي فهمي .  
دار سعادت روشن مطبعة سي ١٣٢٤ هـ .
- ١٣٢ — حسن المخاضرة في أخبار مصر والقاهرة . السيوطي . مطبعة  
الموسوعات بمصر ١٣٠١ هـ
- ١٣٣ — الحماسة البحتري . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .
- ١٣٤ — الحنين إلى الأوطان . للجاحظ . مطبعة المنار بمصر ١٣٣٣ هـ .
- ١٣٥ — حياة الحيوان . الدميري . مطبعة بولاق
- ١٣٦ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .  
مطبعة نهضة مصر ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
- ١٣٧ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة  
البابي الحلبي بمصر وطبعة ساسي .
- ١٣٨ — الخراج . أبو يوسف . الطبعة الأولى . المطبعة الأميرية ببولاق  
١٣٠٣ هـ .

- ١٣٩ — الخراج يحيى بن آدم القرشي . تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر  
للطبعة السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ . وطبعة ليدن ١٨٩٥ م .
- ١٤٠ — خزانة الأدب البغدادي . مطبعة دار العصور بمصر .
- ١٤١ — خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى السهمودي . مطبعة بولاق  
١٢٨٥ هـ .
- ١٨٤ — دائرة المعارف . الأستاذ محمد فريد وجدي .
- ١٤٣ — دائرة المعارف : البستاني
- ١٤٤ — داعي السماء بلال بن رباح . الأستاذ عباس العقاد . طبعة سعد  
مصر بالقاهرة ١٩٤٥ م .
- ١٤٥ — دلائل النبوة : أبو نعيم أحمد الأصبهاني مطبعة مجلس دائرة  
المعارف بحيدر آباد الدكن ١٣٢٠ .
- ١٤٦ — ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس . تحقيق الدكتور محمد  
حسين . المطبعة النموذجية ١٩٥١ م .
- ١٤٧ — ديوان امرئ القيس بشرح السندوبي مطبعة الاستقامة بالقاهرة  
الطبعة الثانية .
- ١٤٨ — ديوان أمية بن أبي الصلت . تحقيق فون سردريك شلتهتر ١٩١١ .
- ١٤٩ — ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer  
١٨٩٣ م .
- ١٥٠ — ديوان جرير . المطبعة السلفية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ١٥١ — ديوان حاتم طي . طبعة بيروت .
- ١٥٢ — ديوان الحادرة ( قطب أو قطبة بن أوس بن محسن ) أملاه  
أبو عبد الله اليزيدي . نشره انجلمان Dr. G. Engelmann



١٥٣ — ديوان حسان بن ثابت . نشره محمد شكرى المكي مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ .

١٥٤ — ديوان الخطيئة . بشرح السكرى . مطبعة التقدم بمصر .

١٥٥ — ديوان الحماسة لأبي تمام (١) بشرح التبريزى مطبعة بولاق .  
(ب) بشرح المرزوقى تحقيق الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هرون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧١ هـ .

١٥٦ — ديوان الرافعى . مصطفى صادق الرافعى .

١٥٧ — ديوان زهير بن أبى سلمى . بشرح أبى العباس الشيبانى ثعالب . مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م .

١٥٨ — ديوان سلامة بن جندل . رواية الأصمعى والشيبانى والأحول . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠ م .  
١٥٩ — ديوان السموءل . رواية أبى عبد الله نفلطويه . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٩٠٩ .

١٦٠ — ديوان طرفة (١) بشرح الأعلام الشتمرى . مطبعة برطند بمدينة شالون ١٩٠٠ م (ب) بشرح الشنقيطى ١٩٠٩ م .

١٦١ — ديوان طفيل الغنوى . رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . نشره كرنكو F. Krankow لندن ١٩٢٧ م .

١٦٢ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى . رواية ابن الأنبارى عن ثعالب . بتحقيق ليال sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .

١٦٣ — ديوان عروة بن الورد . بشرح ابن السكيت . طبعة بيروت .

١٦٤ — ديوان دلقمة الفحل . طبعة بيروت .

١٦٥ — ديوان عمرو بن قتيبة. نشره ليال Sir Charles Lyall كبردج ١٩١٩م  
 ١٦٦ — ديوان عنتر بن شداد. تحقيق عبد المنعم شلبي. مطبعة شركة  
 دفن الطباعة.

١٦٧ — ديوان الفرزدق. مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٤ هـ.

١٦٨ — ديوان قيس بن الخطيم نشره رودلف جيب Dr. Rudolf Geyer  
 فيينا ١٩١٤ هـ.

١٦٩ — ديوان لبيد. نشره هوبر Dr. A. Huber ليدن ١٨٩١ م.

١٧٠ — ديوان المتنبي. شرح البرقوق. المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ  
 ١٩٣٠ م.

١٧١ — ديوان المسيب بن علس. ملحق بديوان الأعشى. تحقيق  
 رودلف جيب.

١٧٢ — ديوان معن بن أوس المزني. رواية أبي علي إسماعيل بن القاسم  
 نشره بول اسكوارز Paul Schwarz ليبزج ١٩٠٣ م.

١٧٣ — ديوان النابغة الذبياني. بشرح البطليوس. طبعة بيروت.

١٧٤ — ديوان نابغة بنى شيان. مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٥١ هـ —  
 ١٩٣٣ م.

١٧٥ — ديوان الهذليين. مطبعة دار الكتب ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م.

١٧٦ — ذيل الأمالي والنوادر. القالي. طبعة دار الكتب.

١٧٧ — رسالة الغفران. المعري. تحقيق الدكتور عائشة عبد الرحمن.  
 مطبعة دار الكتب بمصر.

١٧٨ — رسالة القيان. الجاحظ من ثلاث رسائل. للجاحظ. نشرها يوشع  
 فنكل المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ.

١٧٩ — الرسالة. الإمام الشافعي. تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

- ١٨٠ — الرق في الإسلام . أحمد شفيق باشا . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
- ١٨١ — الروض الأنف . شرح سيرة ابن هشام . السهيلي . مطبعة الجالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
- ١٨٢ — رياض الأدب في مرأى شواعر العرب . جمعه الأب لويس شيخو اليسوعي . طبعة بيروت ١٨٩٧ .
- ١٨٣ — زاد المعاد في هدى خير العباد ابن القيم الجوزية : مطبعة صبيح بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .
- ١٨٤ — زهر الآداب للحضري نشره الدكتور زكي مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر .
- ١٨٥ — سمط الآلى في شرح آمال القالى البكرى . تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .
- ١٨٦ — السنن الكبرى . البيهقي . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٣٥٥ هـ .
- ١٨٧ — سيرة النبي . ابن هشام . بتحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .
- ١٨٨ — شرح التنوير على سقط الزند للمعري . مطبعة الإسلام بمصر ١٣٢٤ هـ
- ١٨٩ — شرح القصائد العشر . التبريزي . مطبعة صبيح بمصر .
- ١٩٠ — شرح الموطأ للإمام مالك . الزرقانى المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .
- ١٩١ — شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ١٣٢٩ هـ .
- ١٩٢ — شرح الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي . مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر .

- ١٩٣ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) بتحقيق الأستاذ محمود شاكر .  
مطبعة الحلبي ١٣٦٤ هـ .
- (ب) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة المعاهد بمصر ١٣٥٠هـ ١٩٣٢ م .
- ١٩٤ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء  
اليسوعيين بيروت ١٨٩٠ م .
- ١٩٥ — شفاء النفس . الدكتور يوسف مراد . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣ م
- ١٩٦ — الصبح المنير في شرح ديوان أبي بصير ميمون بن قيس . بشرح  
أبي العباس ثعلب . نشره الدكتور رودلف جير Dr. Rudolf Geyer مطبعة  
آدلف هلز هوسن ١٩٢٧ م .
- ١٩٧ — صبح الأعشى . القلقشندي . مطبعة دار الكتب بمصر .
- ١٩٨ — صحيح البخاري بشرح الكرماني . المطبعة المصرية ١٣٥٦ هـ  
١٩٣٧ م .
- ١٩٩ — صحيح سنن المصطفى . أبو داود السجستاني . المطبعة الكستانية  
١٢٨٠ هـ .
- ٢٠٠ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . مطبعة  
صبيح بالقاهرة .
- ٢٠١ — صور البديع (فن الأسجاع) الأستاذ علي الجندي .
- ٢٠٢ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسي . نشره الأب لويس شيخو اليسوعي  
المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٢ .
- ٢٠٣ — طبقات الشافعية الكبرى . ابن تقي الدين السبكي . المطبعة الحسينية  
بمصر ١٣٢٤ .
- ٢٠٤ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجحى . تحقيق الأستاذ محمود  
محمد شاكر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٢٠٥ — الطبقات الكبير . ابن سعد . نشره إدوارد سغو . مطبعة بريل  
بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٠٦ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطى .

٢٠٧ — عبقرية المسيح . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار أخبار اليوم

١٩٥٣ م .

٢٠٨ — العرب قبل الاسلام . الأستاذ جورجى زيدان .

٢٠٩ عصر ما قبل الإسلام . الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة وادى النيل

١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٢١٠ — العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين . نشره وليم

ابن الورد البروسى . لندن ١٨٧٠ م .

٢١١ — العقائد . عمر عنایت . مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٨ م .

٢١٢ — علم النفس الفردى ، أصوله وتطبيقه . الدكتور إسحاق رمزى

مطبعة دار المعارف بمصر .

٢١٣ — عمدة القارى لشرح صحيح البخارى . العيى . المطبعة الأميرية .

٢١٤ — العملة فى صناعة الشعر وتقدمه الطبعة الأولى . مطبعة أمين هندية

بمصر ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م .

٢١٥ — عنوان المرقصات والمطربات . نور الدين على المغربى . مطبعة جمعية

المعارف ١٢٨٦ هـ .

٢١٦ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب .

٢١٧ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ابن أبى أصيبعة .

٢١٨ — عيون المسائل الشرعية فى الأحوال الشخصية . الأستاذ على

حسب الله . الطبعة الثانية . مطبعة العلوى بمصر ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م .

- ٢١٩ — الغزل في العصر الجاهلي . الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة لجنة  
البيان العربى ١٣٧٠ - ١٩٥٠ م .
- ٢٢٠ — الغناء للأطفال عند العرب . الدكتور أحمد عيسى بك . المطبعة  
الأميرية ببولاق .
- ٢٢١ — الفائق في غريب الحديث . الزمخشري . مطبعة مجلس دائرة  
المعارف النظامية بالهند ١٣٢٤ م .
- ٢٢٢ — الفاخر . أبوطالب المفضل بن سلامة الكوفى . نشره سالس  
انبروس . مطبعة بريل بليدن ١٩١٥ م .
- ٢٢٣ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية  
١٣٠١ هـ .
- ٢٢٤ — فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي . الشرقاوى . مطبعة مصطفى  
البابى الحلبي بمصر .
- ٢٢٥ — الفتوة عند العرب . الأستاذ عمر الدسوقي . مطبعة لجنة البيان  
العربى بمصر ١٩٥١ م .
- ٢٢٦ — فتوح البلدان . البلاذرى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ  
١٩٠١ م .
- ٢٢٧ — فتوح الشام . أبو إسماعيل محمد الأزدي البصرى . مطبعة بيتست  
مشن كلكته ١٨٥٤ م .
- ٢٢٨ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ هـ .
- ٢٢٩ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٧١ م .
- ٢٣٠ — فوات الوفات . ابن شاکر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .
- ٢٣١ — فى علم النفس . الأستاذ محمد عطيه الإبراشى والأستاذ حامد  
عبد القادر . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .

- ٢٣٢ — القاموس المحيط . الفيروز آبادى .
- ٢٣٣ — القرآن الكريم .
- ٢٣٤ — قصة الأدب الفارسى . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ٢٣٥ — قصة الملكية فى العالم . الدكتور على عبد الواحد والدكتور سعفان .
- ٢٣٦ — قصص الأنبياء . الأستاذ عبد الوهاب النجار . الطبعة الثانية . مطبعة النصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
- ٢٣٧ — قواعد الشعر . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رواية أبى عبيد الله محمد المرزبانى . نشره اسكيا بارلى G. Schiaparelli . مطبعة بريل بليدن ١٨٩٠ م .
- ٢٣٨ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ٢٣٩ — الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .
- ٢٤٠ — كتاب الأمل . أبو عبد الله محمد اليزيدى . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ٢٤١ — كتاب بكر وتغلب . مطبعة نخبة الأخبار ببومبي ١٣٠٥ هـ .
- ٢٤٢ — كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنوشروان . مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٥ هـ .
- ٢٤٣ — كتاب الممانى الكبير فى آيات الممانى . ابن قتيبة . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .
- ٢٤٤ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين على المتقى الهندى . مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٣ هـ .
- ٢٤٥ لزوم مالا يلزم . المعرى . الطبعة الأولى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣ هـ .
- ١٩١٥ م .
- ٢٤٦ — لسان العرب . ابن منظور .

- ٢٤٧ — الطائف والظرائف . الثعالبي . المطبعة الوهيبية بمصر ١٢٩٦ هـ .
- ٢٤٨ — المؤلف والمختلف . الأمدى . نشره الدكتور فريقس كرنكو .  
مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
- ٢٤٩ — مبادئ علم النفس العام . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .
- ٢٥٠ — المبسوط . شمس الدين السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .
- ٢٥١ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة دار المعارف بمصر .
- ٢٥٢ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٢٥٣ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى .
- ٢٥٤ — الحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٠ هـ .
- ١٩١٢ م .
- ٢٥٥ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهاني . مطبعة الموياجى .
- ٢٥٦ — الخبر . أبو جعفر محمد بن حبيب بر رواية أبي سعيد السكرى .  
نشرته الدكتورة إيلزه ليختن شتير الأمريكية . مطبعة المعارف العثمانية بجيدر آباد .  
١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- ٢٥٧ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية .  
١٣٢٥ هـ .
- ٢٥٨ — مختلف القبائل ومؤلفها . أبو جعفر محمد بن حبيب . نشره .  
وستنفيلد . طبعة غوتنجن ١٨٥٠ م .
- ٢٥٩ — الخصاص ابن سيده .
- ٢٦٠ — المدونة الكبرى . الإمام مالك . الطبعة الأولى . المطبعة الخيرية .  
بمصر ١٣٢٤ هـ .



- ٢٦١ — المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفي بك .  
الطبعة الثانية . مطبعة المعارف بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .
- ٢٦٢ — المرأة في التاريخ والشرائع . الأستاذ محمد جميل بيهم . بيروت  
١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م .
- ٢٦٣ — المرأة في مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكي . مطبعة  
دار الكتب ١٩٤٧ م .
- ٢٦٤ — المرأة المسلمة . الأستاذ محمد فريد وجدى . مطبعة الترقى بمصر  
١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م .
- ٢٦٥ — المردفات من قریش . أبو الحسن المدائنى . نشره الأستاذ  
عبد السلام هارون فى نوادر المخطوطات . مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ١٩٥١ م .
- ٣٦٦ — مروج الذهب . السعوى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ٢٦٧ — مسالك الممالك . أبو إسحاق إبراهيم الإصطخرى المعروف  
بالكرخى ليدن ١٩٢٧ م .
- ٢٦٨ — المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .
- ٢٦٩ — المستطرف من كل فن مستطرف . الأبيشى . المطبعة الميمنية  
بمصر ١٣٠٨ هـ .
- ٢٧٠ — مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ٢٧١ — مصارع العشاق . أبو محمد جعفر السراج . مطبعة الجوائب  
بالآستانة ١٩٠٧ م .
- ٢٧٢ — مصر القديمة . الأستاذ سليم حسن بك . مطبعة دار الكتب  
المصرية ١٩٥٠ م .

- ٢٧٣ — مطالع البدور في منازل السرور . علاء الدين البهائي الغزولي .  
مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٣٩٩ هـ .
- ٢٧٤ — المعارف . ابن قتيبة الدينوري . المطبعة العامرة الشرفية بمصر  
١٣٠٠ هـ .
- ٢٧٥ — معجم الأدباء . ياقوت الحموي . مطبعة دار المسامون بمصر  
١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- ٢٧٦ — معجم البلدان . ياقوت الحموي . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
- ٢٧٧ — معجم الشعراء . المرزباني . نشره الدكتور سالم الكرنكوي  
مكتبة المقدسي بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .
- ٢٧٨ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . البكري . تحقيق  
الأستاذ مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .
- ٢٧٩ — المغازي . الواقدي . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م .
- ٢٨٠ — المفضليات للضيبي . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر ولأستاذ  
عبد السلام هارون . الطبعة الأولى . مطبعة المعارف بمصر ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م .
- ٢٨١ — مقال ( المذكر والمؤنث ) الرسالة العدد ٢٨٥ . الأستاذ عمر الدسوقي .
- ٢٨٢ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م .
- ٢٨٣ — ملحق بديوان النابغة الذبياني . أخرجه M. Hartwy Derenbourg  
باريس ١٨٩٩ م .
- ٢٨٤ — الملل والنحل . الشهرستاني . على هامش الفصل لابن حزم .  
المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ م .
- ٢٨٥ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين . مطبعة دار المعارف .  
بمصر ١٩٤٨ م .

- ٢٨٦ — منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لشوان  
ابن سعيد الحميري . مطبعة بريل بليدن ١٩١٦ م .
- ٢٨٧ — موسيقى الشعر . الدكتور إبراهيم أنيس . دار الفكر العربي بمصر
- ٢٨٨ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . المرزباني . المطبعة السلفية  
بمصر ١٣٤٣ هـ .
- ٢٨٩ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال . الحافظ الذهبي . طبع الهند  
١٣٠٩ هـ .
- ٢٩٠ — نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع . لم يذكر مؤلفه  
على الكتاب ولا في فهرس دار الكتب ولا في فهرس المكتبة التيمورية .  
المطبعة العاصرة العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ .
- ٢٩١ — نزهة الألباء في طبقات الأدباء . ابن الأنباري . المطبعة الأميرية  
١٢٩٤ هـ .
- ٢٩٢ — نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمه .  
مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .
- ٢٩٣ — نسب عدنان وقحطان . المبرد . أخرجه الأستاذ عبد العزيز الميمنى  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٦ م .
- ٢٩٤ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية  
الأستاذ محمد جمعه . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م .
- ٢٩٥ — نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرئ طبعة أوروبا .
- ٢٩٦ — نفسية المراهق . الأستاذ رياض عسكر .
- ٢٩٧ — نقد الشعر . قدامة بن جعفر . نشره الأستاذ محمد عيسى مemon  
المطبعة الوطنية بمصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

٢٩٨ - نقد النثر . قدامة بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ  
عبد الحميد العبادي . مطبعة مصر ١٩٣٩ م .

٢٩٩ - النقائص . نقائض جرير والفرزدق . مطبعة بريل بليدن ١٩٠٧م

٣٠٠ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . القلقشندي . مطبعة الرياض

بيغداد .

٣٠١ - هذه الشجرة . الأستاذ عباس محمود العقاد .

٣٠٢ - الهنود الحمر . الدكتور علي عبد الواحد وافي ( سلسلة اقرأ ٨٨ )

٣٠٣ - الموامل والشوامل . أبوحيان التوحيدي ومسكويه نشره الأستاذ

أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١ م .

٣٠٤ - وفيات الأعيان . ابن خلكان . مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

### ٣ - كتب مترجمة إلى العربية

٣٠٥ - أحلام اليقظة . تأليف الدكتور جورج هنري جرير . ترجمة

الأستاذ إبراهيم حافظ ومراجعة الأستاذ زكي المهندس بك . مطبعة لجنة البيان

العربي بمصر ١٩٥٠ م .

٣٠٦ - الإسلام . خواطر وسوانح . تأليف السكونت هنري دي كاسترو

ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا . مطبعة السعادة بمصر .

٣٠٧ - الإلياذة . هوميروس . ترجمة الأستاذ ساميان البستاني . مطبعة

المحلال بمصر .

٣٠٨ - الإمبراطورية البيزنطية . تأليف نورمان بينتر . ترجمة الدكتور

حسين مؤنس والأستاذ محمود زايد . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠م

٣٠٩ - أمراء غسان . تأليف الدكتور ثيودور نولدكه . ترجمة الدكتور

بندل جوزي والدكتور قسطنطين زريق . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٣م

- ٣١٠ — الأئمة عند العرب . تأليف واسكن G. A. Wilken ترجمة  
بندلى صليبا الجوزى ١٩٠٢ م .
- ٤١١ — أهل الذمة فى الاسلام . تأليف ا . س . ترتون . ترجمة الأستاذ  
حسن حبشى . مطبعة الاعتماد بمصر .
- ٣١٢ — تاريخ الحضارة . تأليف شارل سنيوبوس . ترجمة الأستاذ محمد  
كرد على بك . مطبعة الظاهر بالقاهرة .
- ٣١٣ — تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف ف . بارتولد الروسى . ترجمه  
من التركية الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
- ٢١٤ — تاريخ الشعوب السامية ( العرب والإمبراطورية العربية ) تأليف  
بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكي . دار العلم  
للملايين ببيروت ١٩٤٨ م .
- ٣١٥ — تاريخ العالم . نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن . ترجمة  
إدارة الترجمة بوزارة المعارف بمصر .
- ٣١٦ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . تأليف دى بور = De Boer ترجمة  
الأستاذ محمد عبد الهادى أبوريده مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ هـ  
١٩٣٨ م .
- ٢١٧ — تراث الاسلام . تأليف جماعة من المستشرقين ، نشرته لجنة النشر  
للجامعين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م
- ٣١٨ — جمهورية أفلاطون . ترجمة الأستاذ حنا خباز مطبعة المقتطف  
والمقطم ١٩٣٩ م
- ٣١٩ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . تأليف  
فون كريم ترجمة الدكتور مصطفى بدر . دار الفكر العربى بمصر ١٩٤٧ م

- ٣٢٠ - حضارة العرب تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م
- ٣٢١ - الحضارة المصرية تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم . المطبعة العصرية بمصر
- ٣٢٢ - حضارات الهند تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة إحياء الكتب العربية بمصر ٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .
- ٣٢٣ - الحياة والحب تأليف إميل لودفيج . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . مطبعة المعارف بمصر
- ٣٢٤ - دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها الأستاذة عبد الحميد يونس وإبراهيم خورشيد وعباس محمود وأحمد الشنتاوى
- ٣٢٥ - الدعوة إلى الاسلام تأليف أرنولد sir. T. Arnold ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ عبد الحميد عابدين والأستاذ إسماعيل النجراوى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ م .
- ٣٢٦ - ديانة قدماء المصريين تأليف الأستاذ استيندرف الألماني . ترجمة سليم حسن بك مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ م .
- ٣٢٧ - روح الاجتماع تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة الشعب بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م
- ٣٢٨ - سيكولوجيا المرأة تأليف فرويد ترجمة الدكتور محمد مختار صدقي مطبعة دار النيل .
- ٣٢٩ - الشاهنامة . الفردوسى . ترجمة الفتح بن على البغدادى تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . مطبعة دار الكتب بمصر .
- ٣٣٠ - شعار الخضر فى الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرايين . ترجمة وشرح الأستاذ مراد فرج . مطبعة الرغائب بمصر ١٩١٧ م .
- ( ٤٦ - المرأة فى الشعر الجاهلى )

٣٣١ — العقد الأنفس في ملخص التاريخ المقدس . وهو ترجمة لكتاب تاريخ الأمة الإسرائيلىة من اللغة الفرنسية . ترجمة تادرس وهبى . مطبعة جريدة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ .

٣٣٢ — العهد الجديد . مترجم من اللغة اليونانية . كمبردج ١٩٢٧ م .

٣٣٣ — قصه الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م .

٣٣٤ — قصة الحضارة الفارسية . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربى . مكتبة الخانجى ١٩٤٧ م .

٣٣٥ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع . تأليف الدكتور إميل دوركهيم . ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

٣٣٦ — كتاب الشعر . أرسططاليس . ترجمة الأستاذ إحسان عباس . دار الفكر العربى .

٣٣٧ — كتاب العهد القديم .

٣٣٨ — كيف يعمل العقل . تأليف سرل برت . ترجمة الأستاذ محمد خلف الله .

٣٣٩ — اللغة . تأليف ج فندريس . ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص . مطبعة لجنة البيان العربى .

٣٤٠ — مبادئ علم الاجتماع الدينى . تأليف روجيه باستيد . ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة الأنجلو ١٩٥١ م .

٣٤١ — المرأة والدولة فى فجر الاسلام . تأليف نابه أبوت Nabla Abbot . ترجمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

٣٤٢ — مركز المرأة فى الإسلام . تأليف السيد أمير على الهندى . ترجمة الأستاذ على فهيمى محمد . مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .

- ٣٤٣ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة . تأليف ج . م . جوبو : ترجمة الأستاذ سامى الدروبي . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٨ م .
- ٣٤٤ — المعجم فى اللغة الفارسية . نقله إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . مطبعة مصر .
- ٣٤٥ — مقدمة الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .
- ٣٤٦ — مقدمة فى علم النفس الاجتماعى . تأليف الدكتور شارل بلوندل | ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامه ، مكتبة الأنجلو بمصر ١٩٥١
- ٣٤٧ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .



## ٤ - المراجع الإفرنجية

### إنجليزية

- 348 An Introduction to the sociology of Islam, by Levy. 1933.
- 349 History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.
- 350 A History of the Jews. by Solomon Grayzel. Philadelphia. 1948.
- 351. A Literary History of the Arabs. by Reynold. A. Nicholson. London 1907.
- 352. A Literary History of Persia, by Browne. London, 1902.
- 353. Arabic Before Mohammed, by O' Leary. London 1927.
- 354. Chamber's Twentieth Century Dictionary.
- 355. Educational Psychology. by Skinner. New York, 1939.
- 356. Encyclopedia Americana. New York. Chicago.
- 357. Encyclopedia Britannica.
- 358. General sociology. by Wright and Elmer Farrer and Renhart. 1966.
- 359 History of Egypt Sharpe. vol. 2, London 1885.
- 360 Israel from its Beginning to the Middle of the Eighth Century, by Adolphe Lods. London 1932.
- 361 Introduction to social Psychology Meekerzee and Elmer London 1928.
- 362, kinship and Marriage in Early Arabian. by Robertson Smith. London 1907.
- 363. Lust for Life. by Irving Stone. 1946.
- 364. Man and Woman. by Havelock Ellis.
- 365 Muslim Law. An Historical Introduction to the Law of inheritance. by Alexander David Russell and Abdullah Al Mamtun Suhrawardy. London.

- 366 On the Origin of Civilisation and Primitive Condition of Man. by Lubbock.
- 367 Original sources of the Quran, by the Rev. W. S. T. Clair Tisdall New York. 1865
- 368 studies in Ancient History. primitive Marriage. by Mac Leuan. 1856.
- 369 sources of Islam, by the Rev. W. S. T. Clair Tisdall, Edinburgh. 1901.
- 370 space, Time and Gravitation, by A. S. Eddington. 1920
- 371 The Aesthetics. by Knox. New York. 1936.
- 372 The Background of Islam By Philby
- 373 The Caliphate. its rise. Decline and Fall by Sir William Muir. Edinburgh. 1924.
- 374 The Great Encyclopedia of Universal Knowledge. London.
- 375 The Women in ayyam El Arab Ilse Lichtenstadter. London 1935
- 376 The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. by Margolioth
- 377 The Psychology of Marriage, by Walter M. Gallichan, London 1927.
- 378 The science of Living Things. Heredity : The Stream of Life. By Eldou. Moore. London. 1935.

### فرنسية

- 379 Essai sur l' Histoire des Arabes, par De Perceval. Paris 1848.
- 380 Histoire des papes. Paris 1842.
- 381 La Grande Encyclopedie Tome 17
- 382 La Question Feministe. par Rosler.
- 383 L' Arabie Occidentale avant l' Hegire. par H. Lammans. Beyrouth. 1928.
- 384 La Religion des primitifs par Monseigneur Leory.

### فارسی

۳۸۵ — سیاست نامه . تألیف نظام الملک . طهران ۲۲۰ هجری شمسی

# فهرست

١٣ — ٥

المقدمة :

٧٣ — ١٤

تمهيد

## صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

- صلة العرب باليهود : مقدم اليهود إلى الحجاز ( ١٨ ) اختلاطهم بالعرب ( ٢٠ )  
اليهود باليمن وما جاورها ( ٢٤ ) أثر اليهود في العرب ( ٢٦ ) المرأة اليهودية ( ٣٠ )  
صلة العرب بالنصارى : النصرانية في الشمال والوسط ( ٣٤ ) النصرانية في  
اليمن ( ٣٧ ) أثر النصرانية في العرب ( ٣٩ ) المرأة النصرانية ( ٤١ )  
صلة العرب بالفرس : العلاقة القديمة بين العرب والفرس ( ٤٣ ) إمارة  
الحيرة ( ٤٤ ) الفرس باليمن والبحرين ( ٤٥ ) صلات أخرى ( ٤٦ ) أثر الفرس في  
العرب ( ٤٧ ) بعض مظاهر تأثيرهم ( ٥٠ ) المرأة الفارسية ( ٥٦ )  
صلة العرب بالرومان . مملكة الأنباط . مملكة تدمر ( ٥٨ ) مملكة غسان ( ٦٠ )  
خضوع قبائل عربية للرومان ( ٦٠ ) أثر الرومان في العرب ( ٦١ ) المرأة الرومانية  
واليونانية ( ٦١ ) .  
صلة العرب بمصر : قدم الاتصال . الحكسوس بمصر ( ٦٦ ) العرب بقبط  
والصعيد ( ٦٩ ) التجارة بين مصر والعرب ( ٧٠ ) المرأة المصرية ( ٧٠ )

## البَابُ الأوَّلُ

### المرأة في الحياة الأسرية

#### الفصل الأول

#### (الأم)

٧٤—١٤٨

الأسرة أساس القبيلة (٧٤) الأم معين الأسرة (٧٦) أثر الأم في القرابة (٧٧)  
 الأم الحرة (٧٩) الأم المنجبة (٨٥) النسب إلى الأم : مظاهره (٨٨) آراء في أصل  
 النسب إلى الأم (٩١) مناقشتها (٩٣) رأي في هذا النسب (١٠٥)  
 مظاهر حب الأم لبنيتها (١١٢) التربية الجسمية (١١٢) التربية الخلقية (١١٦)  
 تمنيتها أن يعيشوا (١١٨) رفضها الزواج بإبقاء عايمهم (١١٩) حرصها على مالهم (١١٩)  
 حزنها على فقيدهم (١٢٠) رثاؤها موتهم (١٢١) رفضها دية القتل (١٢١).  
 مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم (١٢٠) إعزاز الأم . حمايتها من المهانة (١٢٣)  
 الفخر . بالأم . التفدية بها (١٢٤) تأمية مشورتها (١٢٥) التعبير عن الإخوة الأشقاء  
 بأبناء الأم (١٢٥) إشارتها على الزوجة (١٢٧) إعزاز الإخوة لأم (١٢٨) إعزاز  
 الخال (١٣١) أثر الخال في ابن أخته (١٣١) نصرته لابن أخته (١٣٢) نصرته الولد  
 لخاله (١٣٦) الفخر بالخال والمدح به (١٣٨) الحرج من الثأر من الخال (١٤٠)  
 الصبر على أذاه (١٤١) التعبير بالخال (١٤٢) الخال في الإسلام (١٤٢) عقوق  
 الأمهات أحياناً (١٤٣).

#### الفصل الثاني

#### الزوجة

١٤٩—٢٧٨

أثر المصاهرة (٤٩) الزوجة المثلى : صفاتها المدوحة (١٥٠ — ١٥٧)  
 صفاتها المذمومة (١٥٧ — ١٦٠) الزوجات الغريبات (١٦٠) الحكمة في الاغتصاب

عقيدة العرب . رأى القدماء رأى العلم الحديث . منافع آخر في الاغتراب  
(١٦٠ - ١٦٤) الزواج من شعوب أخرى (١٦٤) .

الزواج الكفء في نظر المرأة وآلها . مظاهر كفاءته (١٦٧ - ١٨٣) حرية  
المرأة العربية في اختيار زوجها . موازنة بينها وبين غيرها (١٨٢) مظاهر هذه  
الحرية (١٨٣) الإسلام وتزويج المرأة نفسها (١٨٦) الخطبة والإملاك (١٨٨)  
المهر (١٩٠) وصايا للزوجة عند زفافها (١٩٦) .

مكانة الزوجة عند زوجها (١٩٨) حبه لها (١٩٨) نداؤها بلقب التكريم  
(٢٠٠) إشهادها على مفارقه (٢٠١) اعتذاره لها من فراره (٢٠٣) نغره بحسن  
عشرته لها (٢٠٥) استماع مشورتها (٢٠٧) غيرته عليها وحمايتها (٢٠٨) الإسلام  
ومعاملة الزوجات (٢١١) .

مكانة الزوج عند زوجته (٢١٣) حبها له (٢١٣) خوفها عليه (٢١٥) حرصها  
على ماله (٢١٧) وفاؤها له . مظاهر وفائها (٢٢٣) تمرد أحياناً (٢٢٩) الإسلام  
يوصى المرأة بزواجها (٢٣٣) .

تعدد ازوجات (٢٣٤) وحدة الزوجة عند الأمم (٢٣٤) الوحدة عند  
العرب (٢٣٥) تعدد الزوجات عند الأمم (٢٣٦) التعدد عند العرب (٢٣٨) عداء  
الضرائر (٢٣٨) هل في التعدد منقصة للمرأة؟ (٢٤٢) .

أنكحة الجاهلية . أنواعها . موافقة أكثرها لما جاء به الإسلام . موازنة بينها  
وبين النظم القديمة وما جاء به الإسلام (٢٤٥) المحرمات في الجاهلية (٢٥١)  
المحرمات في الإسلام وعند الأمم الأخرى (٢٥٢) .

الطلاق (٢٥٨) ضرورته (٢٥٨) الطلاق عند الأمم (٢٥٩) دواعيه عند  
العرب (٢٦٠) أنواعه عند العرب : الطلاق (٢٦٢) الخلع (٢٦٤) الظهار (٢٦٦)  
الإيلاء (٢٦٧) حق المرأة في الطلاق (٢٦٧) ما جاء به الإسلام (٢٧١) حسرة  
بعد الطلاق (٢٧٢) العدة (٢٧٧) .

## الفصل الثالث

## البنات

٢٧٩ - ٣١٤

حب بعض العرب للبنات . مظاهر هذا الحب في الجاهلية والإسلام (٢٧٩)  
مدح البنت تكريماً لأبيها (٢٨٤) اعتداداً بآبائها برأيها وبجوارها (٢٨٥) كنيته باسمها  
(٢٨٧) بغض بعضهم للبنات (٢٨٩) امتداد البغض إلى ما بعد الجاهلية (٢٩٠) .  
الوَاد (٢٩٢) أسباب الوَاد (٢٩٣) طريقته (٢٩٧) هل اقتصر على الإناث  
(٢٩٨) هل كان الوَاد عاماً ؟ ( ٢٩٩ ) موقف الأمهات من الوَاد (٣٠٠) إحياء  
الموَدات ( ٣٠١ ) الوَاد وما يشبهه عند غير العرب ( ٣٠٣ ) الوَاد ومكانة المرأة  
العربية (٣٠٤) .

حب البنات لأبيها . مظاهر هذا الحب : خوفها عليه (٣٠٦) تمنيتها أن يعيش  
شاباً قوياً (٣٠٧) حرصها على ماله (٣٠٨) حزنها عليه إذا مات (٣٠٨) حضنها  
على النار له إذا قتل (٣٠٩) رثاؤها له (٣١٠) سرورها بأن يشبه ابنها  
أباها (٣١٢) إظهارها قومها على قوم زوجها (٣١٣)

## الفصل الرابع

## الأخت والقريبة

٣١٥ - ٣٢٥

مظاهر حب الأخ لأخته : مقاسمتها ماله (٣١٥) استماع مشورتها (٣١٦)  
حمايتها (٣١٦) إجارتها من تجهيزه (٣١٦) غيرته عليها (٣١٧) إعزازه  
لأبنائها (٣١٨) .

مظاهر حب الأخت لأخيها : اعتزازه بها (٣١٩) رثاؤها له (٣٢٠) .  
القريبة ، إعزاز أقاربها لها . إعزازها لهم (٣٢٢) .

## الفصل الخامس

### حقوق المرأة المالية ٣٢٦ - ٣٤١

تمهيد . ملكية المرأة العربية . الأدلة على أنها كانت تمتلك . من القرآن الكريم ( ٣٢٦ ) من الأخبار ( ٣٢٧ ) الملكية بين المرأة العربية وغيرها ( ٣٢٩ ) حرية المرأة العربية في التصرف المالى ( ٣٣٠ ) .  
 المرأة العربية والميراث ( ٣٣٢ ) الإجماع على أنها كانت لا ترث ( ٣٣٢ ) مناقشة هذا رأى . الأدلة على أنها كانت ترث أحيانا . النصوص التى تؤيد ذلك ( ٣٣٣ ) ذكر لا يرثون ( ٣٣٨ ) امتياز المرأة العربية بالميراث ( ٣٣٩ ) الإسلام وتوريث النساء ( ٣٣٩ ) .

## الباب الثانى

### المرأة فى الحياة العامة

#### الفصل الأول

### أخلاق المرأة ٣٤٢ - ٣٦٨

شجاعتها النفسية ( ٣٤٢ ) استمساكها بعقيدتها ( ٣٤٥ ) عزة نفسها ( ٣٥٠ ) عفتها ( ٣٥٣ ) حياؤها ( ٣٦٠ ) كرمها ( ٣٦٢ ) بخلها ( ٣٦٣ ) بين أخلاقها فى الإسلام والجاهلية ( ٣٦٥ ) .

#### الفصل الثانى

### المرأة سافرة أو محتجبة ٣٦٩ - ٣٩٧

السفور . الأدلة على سفور بعضهن ( ٣٦٩ ) حالات لا مندوحة فيها عن السفور ( ٣٧٢ ) .

الحجاب . تحجب بعضهن . تنفيذ دعوى فير Veir أن الحجاب لم يعرف في الجاهلية ( ٣٧٥ ) الأدلة على ممارستين الحجاب ( ٣٧٥ ) الحجاب عند الأمم ( ٣٧٧ ) حكم الإسلام في السفور والحجاب ( ٣٧٨ ) .  
 أنواع خمرها وملابسها وأسمائها وألوانها ( ٣٨١ ) .  
 حليها : غرام النساء بالحلى ( ٣٩١ ) صنوف الحلى ( ٣٩٢ ) .  
 الاستدلال من الأزياء والحلى على عزازة المرأة ( ٣٩٧ ) .

### الفصل الثالث

#### صناعة المرأة ٣٩٨—٤٢٩

تربية الأولاد ( ٣٩٨ ) التطيب ( ٣٩٨ ) الغزل والنسج ( ٣٩٩ ) التجميل ( ٤٠٠ ) الإرضاع ( ٤٠٠ ) القبالة ( ٤٠٢ ) نسج الحصر ( ٤٠٢ ) تقويم الرماح ( ٤٠٢ ) الرعى ( ٤٠٢ ) ممارسة بعض أعمال الرجال ( ٤٠٤ ) جنى الكمأة ( ٤٠٤ ) الرقى ( ٤٠٥ ) الكهانة والعرافة ( ٤٠٦ ) بعض الكواهن ( ٤٠٧ ) سجع الكواهن ( ٤٠٨ ) دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة ( ٤١١ ) شك المرأة العربية في الكهانة أحيانا ( ٤١١ ) الكهانة عند الأمم ( ٤١٢ ) القراءة والكتابة ( ٤١٣ ) الأدلة على معرفة العرب للقراءة والكتابة ( ٤١٤ ) نساء كاتبات قارئات ( ٤٢٣ ) معرفة النجوم ( ٤٢٥ ) الخبرة بالمرعى ( ٤٢٩ ) .

### الفصل الرابع

#### المرأة في الحرب ٤٣٠—٤٦٣

تمهيد ( ٤٣٠ ) المرأة الحاربة ( ٤٣٣ ) قيادتها للجيش ( ٤٣٥ ) بعض القائدات ( ٤٣٥ ) محاربتها في المعارك ( ٤٤٠ ) تحقيقها ما تخيله أفلاطون ( ٤٤٣ )



المرأة والثأر (٤٤٤) المرأة جاسوسة في الحرب (٤٥٠) الظمائن في الحرب  
 (٤٥١) أثر الظمائن في المحاربين (٤٥٢) تنحية المرأة عن الحرب أحيانا  
 (٤٥٩) .  
 المرأة والسلام (٤٦٢) .

### الفصل الخامس

## السبَايا والإِماء

٥٢٤—٤٦٤

السبايا: السبي نظام عام (٤٦٥) الفخر بالسبي والتعير به (٤٦٦) المدح  
 بالسبي (٤٦٨) استبسال الرجال حذارا على النساء من السبي (٤٦٩) استخلاص  
 السبايا (٤٧٠) إعتاق السبايا (٤٧٣) إطلاقهن بموض (٤٧٥) بغض المرأة  
 للسبي . مظاهر هذا البغض (٤٧٨) تصوير الشعراء لحزن السبايا (٤٨١)  
 معاملة السبايا (٤٨٤) استيلادهن عند العرب (٤٨٤) شهرة كثير من أبنائهن  
 (٤٨٥) نخر العرب بإنسالهن (٤٨٥) استيلاذ السبايا في الأمم الأخرى (٤٨٦)  
 الرد على دعوى إساءة العرب لسباياهم . إحسان العرب معاملتهن (٤٨٨) بيع  
 السبايا وهبتهن وإرثهن عند العرب وغيرهم (٤٨٩) القسوة عليهن أحيانا عند  
 العرب وغيرهم (٤٩٠) .

الإماء: التفرقة بين السبي والأمة (٤٩٢) معاملته الإماء: استيلادهن . مكانة  
 أبنائهن (٤٩٦) شرف بعض أبنائهن (٤٩٦) دفاع هؤلاء الأبناء عن أنفسهم  
 (٤٩٧) سبب احتقار العرب لهم (٤٩٩) أبناء الإماء في الأمم الأخرى (٥٠٠)  
 استرقاق الإماء . خدمتهن السادة (٥٠٢) إكرامهن على البغاء (٥٠٤) مشابهة  
 كثير من الأمم للعرب في هذا (٥٠٩) العبارة المقدسة (٥١٠) بيعهن  
 وإرثهن (٥١١) .

السبأ بين الجاهلية والإسلام (٥١١) ما أقره الإسلام (٥١٢) ما عدله الإسلام (٥١٤) ما أبطله الإسلام (٥٢١) .

## الفصل السادس

### المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة ٥٢٥—٥٥٤

تمهيد شعور المرأة بمساواتها للرجل (٥٢٦) توليها الملك . بعض الملكات (٥٢٧) . شهيرات (٥٢٤) مجيرات (٥٣٥) اشتراك المرأة في حلف (٥٣٧) إهانتها تشعل حربا (٥٣٨) مكاتبتها العامة (٥٣٩) أثر هذه المكانة في المرأة الأوروبية وفي نظام الفروسية (٥٤٠) .

موازنة المرأة العربية بغيرها : موازنتها بالعبرية (٥٤٩) والمسيحية (٥٥٠) والفارسية (٥٥٠) واليونانية والرومانية (٥٥١) والمصرية (٥٥٢) دلالة هذه المكانة على رقي العرب (٥٥٣) .

## الباب الثالث

### المرأة في الحياة الفنية

#### الفصل الأول

٥٥٥—٥٨٩

### المرأة المغنية

الفناء في الجاهلية (٥٥٥) علاقة الشعر بالفناء (٥٥٦) غناء الإماء . النساء أليق بالفناء (٥٦١) القيان محترفات بالفناء (٥٦٢) جنسية القيان (٥٦٤)

غناؤهن بالشعر (٥٦٦) أثر غنائهن في النفوس (٥٧٠) جماهن وعشقين  
(٥٧٣).

أثرهن في الشعر (٥٧٦) هبة القيان (٥٧٨) أثر الفناء الأجنبي في العربي  
(٥٨٠) الآلات الموسيقية (٥٨٦).

## الفصل الثاني

### المرأة راوية للشعر وناقدة ٥٩٠-٦٠٢

روايتها للشعر (٥٩٠) نقدها للشعر (٥٩٢) روايتها ونقدها في الإسلام  
(٥٩٨).

## الفصل الثالث

### المرأة الشاعرة ٦٠٣-٦٨٨

تمهيد . قلة المروى من شعر النساء (٦٠٣) تعليل ذلك (٦٠٤) مراجع  
تحفل بشعرهن (٦٠٧) شعر منجول للنساء (٦٠٨).

فنون شعرها

الرساء :

ملاءمته للمرأة (٦١٢) طابع مراثيها : الإشادة بفضائل المراثي على طريقة  
الرجال (٦١٢) تعليل ذلك (٦١٧) تخلف في مراثيها . تصويرهن لذاتهن  
وضعهن (٦١٨) كثرة الحديث عن اللوعة والبكاء (٦١٩) تعبيرات نسوية  
(٦٢٣) وحدة الموضوع . ندرة الحكمة (٦٢٤) تعليل ذلك (٦٢٥) كلمة  
عن الخنساء (٦٢٦)

## التعويض على القتال وعلى النار :

كثرة الحروب . شعر النساء في الحروب ( ٦٢٨ ) التحريض وتشجيع الرجال المقاتلين ( ٦٢٨ ) تأثر الرجال بهذا التحريض ( ٦٣٠ ) تهديد الأعداء وتوعدهم بالفارة ( ٦٣٠ ) الإشادة بالثائرين ( ٦٣١ ) اشتفاؤهن بالنار . موازنة بينهن وبين الرجال ( ٦٣٢ ) .

## الرجاء :

قيمة الرجاء في الجاهلية ( ٦٣٣ ) مشاركة النساء فيه ( ٦٣٤ ) ألوان من هجائهن ( ٦٣٤ ) لماذا قل هجاء الضرائر ؟ ( ٦٣٧ ) هجاء لزوجة الابن ( ٦٣٨ ) هجاء للزوج ( ٦٣٨ ) بين هجائهن في الجاهلية والإسلام ( ٦٣٩ ) سمات هجائهن ( ٦٤٠ ) تخلفهن فيه عن الرجال ( ٦٤١ ) .

## الفخر :

بماذا افتخرن ؟ ( ٦٤٢ ) خلو نفوسهن من صفات الأنوثة ( ٦٤٤ ) موازنة بين نفوسهن ونفس الرجال ( ٦٤٥ ) .

## المرح :

لماذا قل نصيبهن منه ؟ ( ٦٤٧ ) .

## الحنين إلى الوطن :

حب العرب لوطنهم ( ٦٥٠ ) حنين المرأة المغتربة إلى وطنها ( ٦٥١ ) حنينها في العصر الإسلامي ( ٦٥٢ ) .

## الفرل :

حفاوة الشعراء به ( ٦٥٤ ) كتمان المرأة حبها ( ٦٥٤ ) صور من غزلهم  
 ( ٦٥٨ ) البوح بالحب ( ٦٥٨ ) الشوق إلى الحبيب ( ٦٥٩ ) السخط عليه  
 إذا غدر ( ٦٦٠ ) التستر أحيانا بالحنين إلى الوطن ( ٦٦٠ ) موازنة بين غزل  
 الجاهليات والإسلاميات ( ٦٦١ ) .

## خصائص شعرها

إجادة الرناء ( ٦٦٤ ) وحدة الموضوع ( ٦٦٥ ) غلبة المقطعات ( ٦٦٥ )  
 صور وتعبيرت نسوية ( ٦٦٨ ) لين التعبير ( ٦٦٩ ) كثرة الترصيع ( ٦٦٩ )  
 موازنة بينهن وبين الرجال في الترصيع ( ٦٧٢ ) كثرة الإقواء ( ٦٧٥ ) شعرها  
 لا يمثل الأنوثة تمثيلا كاملا . غلبة الطابع المذكر عليه . تعليل ذلك ( ٦٧٧ ) .

٦٨٩

الجديد في البحث

٦٩٣

اقتراحات

٦٩٦

المراجع

## كتب للمؤلف

١ - وحى النسيب فى شعر شوقى .

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه وخصائصه .

٢ - وطنية شوقى :

دراسة منصفة للوطنية فى شعر شوقى ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وعلى موازنات بينه وبين غيره من الشعراء .

٣ - الإسلام فى شعر شوقى :

دراسة لتدين شوقى ومظاهره فى شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبي ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودراسة لزرعته الإسلامية فى تأييد الخلافة التى كانت قائمة ، ودراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٤ - الفكاهة فى الأدب :

دراسة للفكاهة العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ودراسة مفصلة لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ - البطولة والأبطال :

دراسة للبطولة وأساليب أنواعها ، وعرض صور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، وصور من أبطال مصر الحديثة مع التحليل .

٦ - أبو حيان التوحيدي :

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته وثقافته وصلاته ،

وتحليل لأخلاقه ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه وبينه وبين الجاحظ .

## ٧ - سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع .

## ٨ - أدب السياسة في العصر الأموي :

دراسة للأحزاب السياسية ، وعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، وتحليل لهذا الأدب ، وموازنات بين بعضه وبعض .

ودراسة للعصبية القبلية والعصبية الجنسية وأثرهما في الشعر والسياسة ، وترجمة لبعض أدباء السياسة .

## ٩ - سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

## ١٠ - مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

## ١١ - الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام . نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

## ١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكاتبتها في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، أما وزوجة وبنتا وأختا وقريبة .

ودراسة للمرأة في الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، وتقدها له ، وأثرها في الغناء ، وشاعريتها ، وأنواع شعرها ، وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم . نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

## ١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان من الحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات .

## ١٤ — أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي :

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض وفي الجو ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصدااء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفنهم .

## ١٥ — التيارات المذهبية بين العرب والفرس :

دراسة للصلات بين العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعبيين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب إلخ .

## ١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق ( بالاشتراك ) .



## ١٧ — الطبرى :

دراسة مفصلة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته ، وألوانها ، وتلاميذه ومؤلفاته ، وشخصيته ، ودراسة لمنهجه فى التفسير وفى التاريخ وفى الفقه .

## ١٨ — فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه . ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها ، وتصور الأمم لها إلخ .

## ١٩ — بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله .

مَطْبَعَةُ الْمَلِكِ